جامعة محمد الخامس

كلية الاداب والعلوم الانسانية

الرباط

تاريخ الدولة العباسية

سياسيا و حضاريا

132 - 656هـ : 750 - 1258م

مقرر لطلاب السنة الثانية من السلك الاول شعبة اللغة العربية وآدابها

تأليف

الاستاذ صلاح مدني

دكتوراه دولة في التاريخ من جامعة باريز

السنة الجامعية

1976 - 1977

طبع ونشر

دار المعارف ـ الرباط

الخلافة العباسية : العصر العباسي الأول

تمهيـــد :

رقعة الامبراطورية العربية الاسلامية عند سقوط الخلافة الاموية وقيام الخلافة العباسية :

نجح العرب المسلمون بعد قيام الرسول (ص) بنشر الاسلام في جميع مناطق شبه جزيرة العرب وتوحيد هذه المناطق في دولة الاسلام التي أسسها الرسول منذ هجرته الى المدينة ، وبعد موجتي الفتوح الهامة في عهد عمربن الخطاب (الذى تم في عهده تحرير العراق وبلاد الشام ومصر من الحكمين الساساني والبيزنطي) والوليد بن عبد الملك (وقد وصلت الدولة العربية الاسلامية في عهده أقصى اتساعها لدرجة أن خلفاء بني أمية شمل حكمهم أكبر رقعة لامبراطورية من الامبراطوريات باستثناء امبراطورية آتيلا) . وقد امتدت رقعة البلاد التي خضعت للحكم الأموى بين حوض نهر السند ، وهضبة بامير والحوض الأعلى لنهر سيحون شرقا وسواحل الأطلسي في اوروبة (شبه جزيرة أيبريا ماعدا القسم الشمالي الغربي منها) وفي افريقيا الشمالية (سواحل مراكش وكان هذا القطر يدعى بالمغرب الأقصى) غربا . وكانت الحدود الشمالية للدولة الأموية بوادى التركستان وحوض نهر جيحون وشواطىء بحر قزوين الجنوبية ثم الشواطىء الغربية لهذا البحر وجبال القوقاز والساحل الجنوبي الشرقي من البحر الأسود وهضبة أرمينية وتنتهي هذه الحدود الشمالية عند خليج الاسكندرونة أما الحدود الجنوبية فكانت سواحل حضرموت واليمن وبلاد النوبة .

وكانت الدولة الأموية اكبر امبراطوريات العالم في زمنها . وقد عاصرتها دول كثيرة من بينها الامبراطورية البيزنطية وكان العرب المسلمون يدعونها دولة الروم التي انكمشت رقعتها بعد أن اقتطع العرب المسلمون منها بلاد الشام ومصر وشمال افريقية ، لا بل كثيرا مانقل الأمويون ساحات القتال الذى دار بينهم وبين البيزنطيين الى عقر دار الروم في آسيا الصغرى وحاصروا العاصمة البيزنطية نفسها عدة مرات ، وأهم دول أوروبة

وقتئذ دولة الميروفنجيين فى فرنسا ـ شمالى البحر الأسود وقزوين وبحيرتى آرال وبلكاش . وكانت أسرة تانغ تحكم الصين فى الشرق الأقصى . هذا فضلا عن وجود دويلات صغيرة وممالك فى الهند والهند الصينية .

عناصر السكان واللغة والدين : وكان طبيعيا أن بلاد الامبراطورية الأموية المترامية الأطراف لا يمكن أن تكون مأهولة بعنصر جنسى واحد ، بمعنى أن سكانها كانوا من عناصر شتى يفتقرون الى الانسجام . ولئن جمع الاسلام بأخوته سائر العناصر التى اعتنقته فى البلاد التى خضعت للحكم العربى الاسلامى ، فان هذه الأخوة سرعان ما وهنت روابطها الوشيجة لاعتبار الكثيرين من أفراد العناصر العربية الذين استقروا فى البلاد المفتوحة أنفسهم طبقة متميزة تنتمى الى طبقة الحاكم فتكونت من هؤلاء الأفراد طبقة أرستقراطية حاكمة لم تلبث علائقها أن ساءت بالعناصر المحكومة . وأهم عناصر السكان فى الأمبراطورية العربية الاسلامية فيما عدا العرب : عناصر الفيزيقوط أو القوط الغربيين والفندال الجرمن والرومان والبربر ، وهم من أصل حامى وكان مستقر هؤلاء كلهم والى جانبهم بعض اليهود ، فى شبه جزيرة أيبريا وفى شمالى افريقيا (منطقة جبال الأطلس حتى ليبيا) والأقباط (فى مصر) والآراميون (فى سوريه) وبعض العناصر البيزنطية والاغريقية (فى بعض مدن سورية الجنوبية) ، وثمة عناصر قديمة شتى فى العراق من بابليين وآشوريين وكلدان ، وعناصر ايرانية وكردية . وأقامت عناصر مغولية صفراء فى بوادى التركستان كما استقرت العناصر الدرافيدية فى حوض السند .

هذا ومما تجدر ملاحظته أن العناصر العربية التى خرجت مع جحافل العرب المسلمين واستقرت فى المناطق التى فتحت فهذه العناصر مع نجاحها فى تسويد دينها ولغتها فيما بعد لكنها جنسيا صهرت فى بوتقة سكان المناطق التى فتحها العرب المسلمون .

وطبيعى ألا تتكلم العناصر المتعددة التى تألف منها سكان الدولة الأموية لغة واحدة لاسيما ولم يجبر الفاتحون العرب سكان البلاد المفتوحة على اعتناق الاسلام

ولا على تعلم اللغة العربية . لذلك تكلمت عناصر السكان فى البلاد المفتوحة لغاتها القديمة .

كما لم تسد ديانية واحدة رقعة الدولة الاموية بل وجدت فيها ديانات ومذاهب شتى أولها الاسلام الدين الرسمى بجانب المسيحية بمختلف مذاهبها .

واحتفظت منطقة ايران بديانتها السابقة من زرادشتية ومانوية ومزدكية . هذا الى بقاء عناصر قليلة جدا من الوثنيين . ونظرا لأن الفاتحين العرب لم يحاولوا فرض دينهم الاسلامى على الاجزاء الشرقية من الامبراطورية فان هذه البقاع لم ينتشر فيها الاسلام ويعمها الا بعد مضى فترة طويلة على فتح العرب المسلمين لها لا سيما بعد مابذله بعض خلفاء الامويين كعمر بن عبد العزيز من ترغيب فى اعتناقه كاسقاطه الجزية عمن أسلم . ولئن تقاعس الفاتحون العرب المسلمون عن نشر دينهم فى الربوع الشرقية من الامبراطورية الأموية فانهم قصروا أكثر من نشر لغتهم العربية فان قتيبة بن مسلم الباهلى ذلك القائد الفذ الذى أوصل الفتوحات الاسلامية فى الجبهة الشمالية الشرقية الى حدود الصين (كاشغر) سمح لمن اعتنق الاسلام من سكان مقاطعات ماوراء النهر (أى ماوراء نهر جيحون) بتلاوة القرآن بلغتهم .

وصفوة القول أن معظم عناصر السكان الأصليين فى البلاد التى دانت للحكم الأموى احتفظوا بدياناتهم الأصلية ولم يعتنقوا الاسلام حتى نهاية القرن الأول للهجرة ـ وكان انتشار اللغة العربية أبطأ من انتشار الاسلام لكن بعض العوامل لم تلبث أن ساعدت على انتشارها ومن بين هذه العوامل قيام الخلفاء الأمويين بتعريب الدواوين وأن العربية هى لغة القرآن الكريم (فاضطر معتنقو الاسلام الى تعلمها) ـ وأدى اهتمام خلفاء العصر العباسى الأول بحركة الترجمة الى العربية وتبنيهم لها وتشجيع التراجمة ومنحهم الجوائز الوفيرة كل ذلك أدى منذ العصر العباسى الأول الى أن تغدو العربية لغة الثقافة . ومنذ ذلك الوقت تعمم انتشارها واختفت بصورة تدريجية اللغات القديمة المشار اليها آنفا ولم يبق استعمالها ملاحظا فى بعض الحالات الا بين رجال الدين غير المسلمين .

الولايات التى تألفت منها الخلافة الأموية عند سقوطها وقيام الخلافة العباسية :

ذكرنا آنفا أن الامبراطورية الأموية كانت أكبر امبراطوريات العالم وقتها . وكانت تتألف من أقاليم واسعة وسنورد هنا ماذكره جغرافى عربى ثقة عاش فى القرن الرابع الهجرى بصدد هذه الاقسام الادارية . اما هذا العالم الجغرافى المعاصر الحجة فهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى المعروف بالبشارى (وقد توفى هذا العالم سنة ٣٧٥ هـ) وأورد هذه الأقسام فى كتابه الشهير : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم أن مملكة الاسلام فى ذلك العهد كانت تمتد من أقصى بلاد الشرق عند مدينة كاشغر (الحدود الشمالية الغربية للصين) ، الى السوس الأقصى على شاطئ بحر الظلمات (مراكش على ساحل المحيط الأطلسى) وانها تمتد عرضا من شواطئ بحر قزوين الى أواخر بلاد النوبة . كما ذكر هذا الجغرافى فى موضع آخر من كتابه (ص ٦٥) أن طول هذه المملكة ألف وستمائة فرسخ . وكانت هذه المملكة مقسمة الى أقسام كبرى تدعى بالاقاليم وعددها أربعة عشر اقليما يضم كل منها عدة ولايات . ونحن نورد هنا أسماء تلك الاقاليم فقط وهى :

١) اقليم جزيرة العرب ٢) اقليم العراق ٣) اقليم الجزيرة ويشمل ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر . ٤) اقليم الشام ٥) اقليم مصر

٦) اقليم المغرب وهو ثمانى مديريات وهى : برقة وافريقية وتاهرت وسجلماسة وفاس والسوس الأقصى والأندلس وجزيرة صقلية .

٧) اقليم المشرق : وهو ذو جانبين الاول فى الشرق وهو ماكان شرقى نهر جيحون أو اموداريا ويسمى بما وراء النهر والثانى فى الغرب وهو ماكان غربى نهر جيحون ويسمى بلاد خراسان .

٨) اقليم الديلم ٩) اقليم الرحاب ١٠) اقليم الجبال ١١) اقليم خوزستان ١٢) اقليم فارس ١٣) اقليم كرمان ١٤) اقليم السند .

تلك هى اقاليم الخلافة الأموية التى آلت الى بنى العباس وهى مملكة شاسعة مترامية الأطراف وفيرة الخيرات كثيرة الموارد متعددة الشعوب واللغات والمبادئ والأهداف ولم يكن تسيير دفة الحكم فى هذه المملكة بالأمر السهل . وقد برهن الخلفاء العباسيون الأوائل أنهم أهل لحكم هذه الامبراطورية العظيمة فتمكنوا من ادارتها على أتم وجه وأحسنه . وقد ورث العباسيون هذا الملك بمعونة أشياعهم من الخراسانيين . ومما تجدر ملاحظته أن عدد الولاة فى الخلافة الأموية لم يكن مساويا لعدد الأقاليم التى أوردنا أسماءها . فكثيرا ما عين الخلفاء الواليين والثلاثة لادارة اقليم واحد .

كما صدف أن ضموا عدة أقاليم لوال واحد . وصدف أن جمع الأمويون العراقين (العربي والعجمي) وفارس كلها لوال واحد كما أوسدوا الى الحجاج بن يوسف الثقفي امارة الأجزاء الشرقية مابين الفرات وجيحون وهو يعين حكام الأقاليم من قبله كما يعين أمراء المديريات . كما صدف أن ضم الأمويون سائر افريقية لوالي مصر الذى كان هو نفسه يعين الولاة من قبله على الأقاليم الافريقية المارة الذكر هذا بينما لم تجمع الجزيرة العربية كلها لوال واحد فكان للحجاز واليه ولليمن واليه أما عمان فقد صدف أن ضمت الى العراق كما حدث أيام ولاية الحجاج للعراق .

الدعوة العباسية : لم يطالب العباس بن عبد المطلب عم الرسول (ص) بتولى الحكم بعد وفاة الرسول . وعلى الرغم من أن العباس كعم للرسول كان أقرب اليه من ابن عمه على بن أبي طالب فانه كان ميالا لتسلم على الخلافة ومؤيدا له . وقد عالى بعض المؤرخين سبب عدم رغبته في تولى الحكم في انه لم تكن له سابقة على الاسلام ، حيث لم يبادر الى اعتناق الدين الحنيف الذى كان ابن أخيه يدعو اليه الا قبيل فتح مكة . بيد أن تأخر العباس في اسلامه لم يمنعه من تأييد ابن أخيه عصبية . ولم يتضح دور العباس في دعم الرسول الا بعد موت أبي طالب في السنة العاشرة للبعثة فهو الذى ذهب معه لمقابلة وفد الأوس والخزرج في بيعة العقبة الثانية واستوثق من أعضاء ذلك الوفد أنهم سيمنعون الرسول . ولم يكن العباس يهمه الا أن يحدد أهل يثرب موقفهم من الرسول فان قطعوا عهدا على أنفسهم بحمايته فهو سيتركه يهاجر اليهم والا فليدعوه وشأنه في مكة فانه في عزة ومنعة في قومه . ولم ينقطع العباس بعد هجرة الرسول (ص) الى يثرب عن الاتصال سرا بابن أخيه ولطالما أحاطه علما بما بيتته له قريش من غدر وما أعدته من قوات . لكن زهد العباس في طلب الحكم بعد الرسول لم يمنع عمر ابن الخطاب من اعتباره رئيسا للأسرة الهاشمية ففرض له العطاء وبدأ أسماء من استحقوا العطاء من الهاشميين بالعباس . وكان عم النبي يتمتع بمنزلة سامية في عهد الخلفاء الراشدين الاربعة . ولم تمنعه هاشميته من أن يكون صديقا صدوقا لأبى سفيان بن حرب بن أمية زعيم البيت الأموى في حياة الرسول (ص) وقد توفى العباس سنة ٣٢ هـ في خلافة عثمان .

وكان عبد الله بن العباس بعد مقتل على وتنازل ابنه الحسن لمعاوية عن الخلافة قد أقام بمكة معتزلا ومشتغلا بجمع أحاديث الرسول (ص) حتى عد من أساطين علم الحديث وعرف بالبحر لطول باعه في الفقه . وعندما عزم الحسين بن علي على الخروج الى العراق لم يدخر عبد الله بن عباس وسعا في ثنيه عن عزمه فمحضه النصح في الا يورط نفسه والا يثق في وعود أهل العراق له بتأييده فقد خذلوا أباه من قبله . لا بل

فان ابن عباس لما لاحظ اصرار الحسين على المضي الى الكوفة نصحه الا يصطحب أبناءه وأفراد أسرته معه فلم تثن نصائحه كلها الحسين عن عزمه . وعندما خرج عبد الله بن الزبير في الحجاز على يزيد لم يبايعه عبد الله بن عباس فأساء ابن الزبير معاملته مما حمله على مغادرة مكة الى الطائف التي رافقه اليها محمد ابن الحنفية (أخو الحسن والحسين من غير أمهما فاطمة بنت الرسول) وكان عبد الله كأبيه يتمتع بمنزلة سامية بين الهاشميين . وبعد أن توفي الحسن اعتبره معاوية سيد بني هاشم وقد استمر عبد الله في الطائف حتى وفاته سنة ٦٨ هـ (٦٨٧ م) .

وكان عبد الله بن عباس رزق ليلة مقتل علي بن أبي طالب (١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ) غلاما ذكرا دعاه عليا باسم ابن عمه الشهيد الذي كان من أحب الناس اليه نشأ علي بن عبد الله زاهدا كثير العبادة لدرجة أنه يلقب بالسجاد فذكروا أنه كان يصلي في اليوم ألف ركعة وقالوا عنه بأنه أجمل قريش وجها . ولم يعرف عنه أنه كان يطلب الخلافة لنفسه بل على العكس من ذلك كان مسالما للأمويين متصرفا الى شؤون عبادته وقد اقام على أول الأمر في الحجاز ثم قدم الشام على عبد الملك فأقطعه قرية الحميمة في شرقي الأردن ليقيم بها مع أفراد اسرته ثم حدث خصام شخصي بين عبد الملك وعلي بن عبد الله بن عباس بسبب زواج علي من لبابة بنت جعفر بن أبي طالب عقب طلاقها من عبد الملك ، وبسبب تنبؤه بأن حفيديه ستؤول اليهما الخلافة (وهما أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي — الذي سيلقب بالسفاح ، وأبو جعفر عبد الله الذي سيحمل لقب المنصور) .

وقد مضت أعوام ستون من الخلافة الأموية (مابين ٤٠ — ١٠٠ هـ) قبل أن يفكر أحد من الأمراء العباسيين بالدعوة لنفسه بل كان موقفهم في بعض الفترات موقف المؤيد المساند لبني عمهم العلويين بينما كانوا على الغالب يقفون من خروج العلويين على الأمويين موقفا سلبيا . لكننا نؤكد أنهم في كلتا الحالتين كان الألم يحز في نفوسهم لمقتل الكثيرين من أبناء عمومتهم العلويين على يد الأمويين ، هذا وان يكن العباسيون قد وجدوا بعض العلويين متسرعين ومتورطين في خروجهم (وهذا ما أوردناه عند كلامنا عن موقف عبد الله بن عباس من الحسين وتقريره الخروج من الحجاز الى الكوفة) وبنتيجة ذلك الموقف السلبي لم يشك الأمويون في أفراد البيت العباسي بل كانوا مطمئنين من ناحيتهم . ولم يلبث موقف العباسيين أن تغير منذ خلافة سليمان ابن عبد الملك في العشر الأواخر من القرن الأول الهجري نتيجة وصية أوصى بها ومحض الصدفة أحد افراد البيت العلوي المطالبين بالخلافة وهو أبو هاشم

ابن محمد بن الحنفية . وذكر المؤرخون أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي من زوجته (الحنفية)(١) وهو رئيس فرقة الشيعة الهاشمية (التي ترى ان لكل ظاهر باطنا وأن لكل تنزيل تأويلا وأن المنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الانساني ومن اجتمع فيه كل ذلك فهو الامام حقا) قدم من الحجاز على سليمان بن عبد الملك في دمشق ليقضي له بعض حوائجه ـ رحب سليمان بأبي هاشم لكنه بعد وقوفه على مبلغ علمه وفصاحته خافه على الخلافة فدس له من سقاه لبنا مسموما عند ما كان في طريق عودته الى الحجاز . شعر ابو هاشم عبد الله بالسم في جوفه ولم يكن له ولد ليرثه في الدعوة فعرج في طريق عودته على الحميمة وفيها ابن عمه على بن عبد الله العباسي وأفراد اسرته حيث تنازل لابن هذا الأخير محمد عن حقه في الامامة وبذلك أكسبه تأييد فرقتي الكيسانية والهاشمية وذلك بعد أن اباح له بأسرار فرقته واحاطه بالعلوم الالهية وسلمه كتب الدعاة وغير ذلك من الأسرار وكانت وفاة أبي هاشم سنة ٩٨هـ في الحميمة وثمة رواية اخرى لتنازل ابي هاشم الى محمد بن على العباسي ذكرها النوبختي (في كتاب فرق الشيعة ،ص٣٣) حيث ذكر أن الوصية دفعها الى على بن عبد الله وذلك لأن محمد بن على كان صغيرا ،وأمره أن يدفعها اليه اذا بلغ فهو الامام . وذكر الشهرستاني (الملل والنحل ،ص ١١٢) ان اباهاشم لم يكتف بتوريث محمد بن على الامامة وانما نقل اليه أيضا العلم اللدني الخاص بالتأويل ذلك العلم الذي ورثه ابو هاشم بدوره عن ابيه محمدابن الحنفية . فهذا التنازل من قبل ابي هاشم لمحمد بن على عن حقه بالامامه هو مايدعى بارث الكيسانية .

وقد خامر الشك بعض المؤرخين حول هذه الوصية حيث تساءلوا عن السبب الذي حمل هذا الامام العلوي على اخراج الدعوة من البيت العلوي الى البيت الهاشمي خاصة وانه لم يطالب الى ذلك الوقت أحد من أفراد البيت العباسي بالخلافة ورأى بعضهم ان اباهاشم عند ما عرج في طريق عودته من دمشق الى الحميمة تحالف مع أبناء عمومته من العباسيين فلما استشعر بدنو أجله أوصى بالامامة لابن مضيفه وهذا الابن هو محمد بن علي نفسه . اما المستشرق ولها وزن فقد شك في امر هذه الوصية وقال بصددها مانصه : " وقد نبه فان فلوتن على أهمية هذه الرواية الاخيرة (وصية ابى هاشم لمحمد بن على) تنبيها شديدا

---

(١) ان فرقة الشيعة الكيسانية تدعو لابن الحنفية هذا ومبادئها بالاضافة الى مبادىء السبئية (السبئية فرقة من الشيعة الغلاة ومن مبادئهم الوصاية وتجسد الألوهية في الامام والغيبة والرجعة) احاطة الائمة بالعلوم الالهية وانفراد الامام بتأويل الشرع .

ومهما يكن من شيء فالراجح انها في صورتها هذه مخترعة ، ولكن اختراعها كان منذ زمن مبكر لأن لها شواهد قوية ، ولولا ذلك لحذر العباسيون فيما بعد من أن يقيموا حقهم على مثل ذلك الأساس . وهذه الرواية تتضمن أيضا قدرا من الحق ، فقد كان ابو هاشم في الواقع سلفا لمحمد بن علي ، وان كان يجوز أنه لم يعينه خليفة له تعيينا حقيقيا . وقد كان لابي هاشم حزبه الخاص ، وكان اتباعه يسمون بالهاشمية ، وهم بعد ان مات ابو هاشم قد صاروا الى محمد بن علي ، وبحسب ماجاء في الطبري كان على رأسهم خداش ، وهو من اكبر دعاة الشيعة نجاحا ، وكان في أول الامر يدعو الى محمد بن علي . وعلى هذا ففي خبر تلك الوصية شيء من الحق فالعباسيون والوا اباهاشم لكي يضموا الهاشمية الى دعوتهم .

* وفي هذا مايدل على الصلة بين العباسيين وبين السبئية اصحاب المختار ، وذلك انه من بين اصحاب ابن الحنفية ظهر اصحاب ابنه وهم الهاشمية " (تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية تأليف يوليوس فلهوزن ص ٤٧٦ — ٤٧٧) .

ويظهر ان محمدا بن علي كان قد أدرك من الفشل الذي تعرض له كل من طالب بالخلافة من العلويين في ايام الامويين ذلك الفشل الذي كانت نتيجته في معظم الحالات مصرع الزعيم العلوي على أيدي قادة الامويين ، وجوب التأني في دعوته الجديدة التي ولدت بمولد القرن الثاني للهجرة لاسيما وبيد الزعيم الهاشمي الجديد (من الفرع العباسي) كل مقومات النجاح حيث انه لم يثر شكوك الخلفاء الأمويين هذا فضلا عن ان الحميمة لم تكن مراقبة من قبل عمال هوءلاء الخلفاء . فان أضفنا الى ذلك رجاحة عقل محمد بن علي ونفاذ بصيرته ولجوء دعوته الى الغموض لتجعل العلويين والشيعة من ورائهم يظنون ان الدعوة لواحد من بينهم ، فالدعوة الى الرضا من آل البيت بعد القضاء على الخلافة الاموية هما شعارا كل دعوة علوية . وطالما انه لم يقم الى ذلك الوقت أي عباسي بالدعوة لنفسه لا بل كانوا على الدوام مؤيدين ولو معنويا على الأقل ، ادعاء العلويين بحقهم في الخلافة ، لذلك توهم أفراد البيت العلوي ان الدعوة لواحد من بينهم . ثمت فان أولاد محمد بن علي من بعده (لاسيما ابراهيم الامام وأبو العباس عبد الله وأبو جعفر عبد الله) مضوا بعيدا في تضليل العلويين بحضورهم المؤتمر الذي عقده الهاشميون بفرعيهم العلوي والعباسي في نهاية خلافة الأمويين حيث بايع فيه جميع الهاشميين الزعيم العلوي محمدا ذا النفس الزكية ابن عبد الله المحض ابن الحسن بن

الحسن بن علي بن ابي طالب . وقد تعرض الطبري تلميحا لذكر خبر هذا المؤتمر (١) ومع ان ابن الطقطقي (صاحب الفخري) هو أحد المؤرخين القلائل الذين ذكروا لنا خبر هذا المؤتمر (وهو مؤرخ شيعي بمعنى أنه يجب ان نأخذ عنه الأخبار المتعلقة بالشيعة بحذر) فاننا نرجح ان ذلك المؤتمر قد تم بالفعل لانه يتمشى مع السياسة التي انتهجها محمد بن علي وأبناؤه من بعده في هذه الفترة (وهي سياسة كما قلنا تقوم على التضليل (٢)

ومما ساعد على نجاح الدعوة العباسية تصدع صفوف العلويين وانقسامهم على انفسهم مما اضعف المطالبين بالخلافة من اولاد وحفدة علي بن أبي طالب هذا بينما كان محمد بن علي العباسي واولاده من بعده دهاة مهرة أفادوا من أخطاء العلويين وطيب قلبهم وقلة خبرتهم وحنكتهم في ميدان السياسة .

(راجع من اجل ذلك ماذكره الدكتور أحمد شلبي في كتابه التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، ج /٣ ص ٤ – ٧) .

وثمة عاملان ساعدا الدعوة لعباسية منذ أول عهدها في نهاية القرن الأول ومطلع القرن الثاني للهجرة . هو خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) التي نعم في ظلها سائر الافراد على اختلاف ميولهم ونزعاتهم بالطمأنينة والحرية فانصرف محمد بن علي الى تنظيم شؤون دعوته دون أن يخشى على حياته ان وقع بين يدي الخليفة . اما العامل الثاني فهو تنازل أبي هاشم

---

(١) ذكر الطبري بصدد الاشارة الى هذا المؤتمر ومبايعة المنصور للنفس الزكية فيمن بايعه من امراء العلويين والعباسيين (ج /٦ ، ص ٢٢٨ و ٢٢٩) رواية أوردها عن محمد بن خالد بن عروة بن هاشم بن عروة بن الزبير ، وقد قتل المنصور عثمان بن خالد لتأييده النفس الزكية في ثورته فقال (.. فقيل له (أي للخليفة المنصور) هذا عثمان بن محمد بن خالد قد دخل به فلما رآه أبو جعفر قال اين المال الذي عندك قال دفعته الى امير المؤمنين رحمه الله (ويقصد به النفس الزكية الذي قتل) قال ومن امير المؤمنين قال محمد بن عبد الله (النفس الزكية) قال أبايعته قال نعم كما بايعته ...) كما أورد الطبري رواية ثانية لبيعة المنصور لمحمد النفس الزكية عن سعيد بن عبد الحميد بن جعفر جاء فيها انه لم أدخل عثمان بن محمد بن خالد الزبيري على المنصور قال له هذا الأخير (... هيه ياعثمان انت الخارج على امير المؤمنين والمعين عليه . قال بايعت أنا رجلا بمكة فوفيت ببيعتي وغدرت ببيعتك قال فأمر فضربت عنقه ...) .

٢) جاء في الفخري (ص ١٤٦ – ١٤٧) بصدد هذا المؤتمر مانصه : كان

يتبع ...

ابن محمد ابن الحنفية لمحمد بن على عن حقه فى الامامة على النحو الذى سبق بيانه . وبذلك تكون هذه الدعوة الجديدة قد تضافر على نجاحها العقل المفكر وكان قابعا فى الحميمة بدون أن يلفت الأنظار متجنبا كل وسائل الدعاية الظاهرية ، وهو محمد بن على المستقر فى الحميمة فقد برهنت الأيام على رجاحة عقله وسداده على الرغم من أن محمد بن على كان صغير السن . هذا بينما ربحت الدعوة العباسية بتنازل ابى هاشم لصالحها الجانب النظرى الذى حمل سائر افراد فرق الشيعة الغلاة (من سبئية وكيسانية وهاشمية) على اعتبار محمد بن على العباسى وريثا شرعيا لعلى ابن ابى طالب فأضافت الدعوة العباسية هذا الحق الى حقها الخاص من حيث اعتبارها محمد بن على وريثا للعباس بن عبد المطلب . وهذا الحق فى نظر المتدينين من أهل السنة هو أقوى من الحق الذى يدعيه العلويون لانفسهم وذلك لأن العم فى نظر الشرع الاسلامى عاصب فهو أمس رحما بالمتوفى من ابن العم (ولن يتورع العباسيون بعد أن قامت خلافتهم عن اشهار هذا السلاح القائم على قانون الوراثة الشرعى فى وجه بنى عمهم العلويين مما سنراه فى حينه) .

وعلى الرغم من اختيار الكوفة كمركز هام للدعوة فان خراسان اعتبرت منذ بداية الدعوة مجال نضال دعاة بنى العباس . وكان اختيار هذا القطر موفقا مبنيا على اسس شرحها محمد بن على لدعاته الذين وجههم الى خراسان فى قوله لهم (كما أورده المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤) : " اما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف ، تقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، واما الجزيرة فحرورية مارقة ، ومسلمون فى أخلاق النصارى واما أهل الشام فليسوا يعرفون الا آل أبى سفيان وطاعة بنى امية ، وأما مكة

تابع = بنو هاشم الطالبيون والعباسيون قد اجتمعوا فى ذيل دولة بنى امية وتذاكروا حالهم وماهم عليه من الاضطهاد وماقد آل اليه أمر بنى امية من الاضطراب وميل الناس اليهم ومحبتهم لأن تكون لهم دعوة واتفقوا على ان يدعو الناس سرا ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام وكان محمد من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما وكان هذا المجلس قد حضره أعيان بنى هاشم علويهم وعباسيهم فحضره من اعيان الطالبيين الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن ابى طالب وابناه محمد النفس ...

والمدينة فقد غلب عليهما ابو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكبير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ، وهم جند لهم أبدان واجسام ومناكب وكواهل واصوات هائلة ... وبعد فانى اتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق " .

وبذلك خرجت الدعوة من نطاق التفكير والتنظيم الى حيز العمل او كأنها تحولت من دائرة المقاومة السلبية لبني امية الى مقاومة ايجابية يوم توفر لهذه الدعوة الأتباع (الجنود) . ولم تتصف مرحلة ثلث القرن التى قضتها الدعوة العباسية مابين البدء بها سنة ١٠٠ هـ ونجاحها النهائي بمقتل آخر خليفة اموى (مروان الثاني ابن محمد) في سنة ١٣٢ بنفس الصفات بل غلب عليها طابعان : طابع الاعداد وكسب الانصار في السر وبعد أن انضم لهذه الدعوة الجديدة العدد الكافي من الافراد انتقلت الى المرحلة الثانية التى غلب عليها طابع التنفيذ والمجاهرة بالخروج على سلطان الأمويين في قطر ، هو خراسان ، كان الحكم الاموى تعرض فيه منذ مطلع القرن الثاني لهزات عنيفة جعلت من أرضه تربة خصبة تمكن دعاة بني العباس من أن يغرسوا فيها مبادئهم ، وسرعان ماجنى الامام العباسي الذى كان يدعى له فوائد هامة مع ملاحظة ان الدعاة تجنبوا التصريح بان الامام المدعو له هو عباسي بل لجؤوا الى سلاح التضليل فدعوا الى الرضا من آل محمد موطئين افراد الفرق الشيعية الكثيرين في خراسان بأن فجر تحول الخلافة الى حفدة علي من آل بيت الرسول وشيك البزوغ) فكانت مهمة رئيسي مركز خراسان والنقباء الأثنى عشر وكبار الدعاة السبعين (الذين كانوا وحدهم يعرفون الامام صاحب الدعوة) أن يدعوا الأشخاص الذين انضموا الى الدعوة ، وخاصة ان كانوا من الشيعة ، سيادرين في أوهامهم . وبذلك يحقق الامام العباسي فائدة مزدوجة فانه من جهة لا يجعل نفسه موضع شك السلطات الأموية فلا تراقب حركاته وسكناته باحاطته بالعيون والجواسيس . ويفيد الامام العباسي من جهة ثانية في توجيه أنظار السلطات الاموية العليا نحو العلويين الذين دأبوا طيلة العهد الأموى

= الزكية وابراهيم قتيل باخمرى وجماعة بن الطالبيين ومن أعيان العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية الا الامام جعفر بن محمد الصادق فانه قال لأبيه عبد الله المحض ان ابنك لا ينالها يعني الخلافة ولن ينالها الا صاحب القباء الاصفر يعني المنصور وكان على المنصور حينئذ قباء أصفر . قال المنصور فرتبت العمال في نفسي من تلك الساعة ثم اتفقوا على مبايعة النفس الزكية فبايعوه ... "

على الثورة على الخلافة الأموية ماتمكنوا من الوسائل التى يظنونها كفيلة بالنجاح فيزداد ارتياب الأمويين بالعلويين فيخضعونهم لمراقبة مجدية فعالة تحول دون تمكن الزعماء العلويين من الاتصال بأتباعهم لتوضيح تلك الدعوة الغامضة التى خدعوا بها .

وبالنظر لاختلاف صفات مرحلتى الدعوة رأى المؤرخون تقسيمها الى قسمين أو فترتين دعوا الأولى بفترة العمل الخفي من وراء الستار أو مرحلة الدعوة السرية بينما دعوا الفترة الثانية بمرحلة الدعوة الجهرية . ومن الطبيعى أن تكون المرحلة الاولى أطول بكثير من الثانية .

١ ـ مرحلة الدعوة السرية بين ١٠٠ ـ ١٢٧ هـ :

بدأ محمد بن على وهو كما أوردنا المنظم الاول للدعوة يبعث دعاته من الحميمة الى معظم الأقطار ولا سيما الى المشرق . وقد ظهر أن جل اعتماده على الكوفيين وهذا ماحدا به الى اعتبار الكوفة (المعروفة بميلها لآل بيت الرسول وخاصة ان كانوا من العلويين) المركز الرئيسى (طبعا بعد الحميمة) الذى يسمح لرؤساء الدعوة فى الاقاليم بالاتصال به . ثم يحول رئيس مركز الكوفة ماوصله من انباء سير الدعوة الى الامام الموجود فى الحميمة . وقد أورد الطبرى (ج/٥ ،ص ٣١٦ ـ ٣١٧ ،أخبار سنة ١٠٠) ان محمد بن على وجه من أرض الشراة ميسرة الى العراق ،ووجه ثلاثة آخرين (هم محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج وحيان العطار) الى خراسان ،وكان واليها لعمر بن عبد العزيز الجراح بن عبد الله الحكمى " وأمرهم بالدعاء اليه والى أهل بيته فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم الى محمد بن على فدفعوها الى ميسرة فبعث بها ميسرة الى محمد بن على واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن على اثنى عشر رجلا نقباء هم سليمان بن كثير الخزاعى ولاهز بن قريظ التميمى وقحطبة بن شبيب الطائى وموسى بن كعب التميمى وخالد ابن ابراهيم أبو داود من بنى عمرو بن شيبان بن ذهل والقاسم بن مجاشع التميمى وعمران بن اسماعيل ابو النجم مولى لآل أبى معيط ومالك بن الهيثم الخزاعى وطلحة بن زريق الخزاعى وعمرو بن أعين ابو حمزة مولى لخزاعة وشبل بن طهمان أبو على الهروى مولى لبنى حنيفة وعيسى بن أعين مولى خزاعة واختار سبعين رجلا فكتب اليهم محمد بن على كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها"

ساور الشك بعض المؤرخين حول هذا الترتيب المصطنع بدء المرحلة السرية للدعوة فى سنة ١٠٠ ثم ايفاد ثلاثة رؤساء وانتخاب اثني عشر نقيبا وسبعين داعية ومن قبيل ذلك ما أورد فلهاوزن (كتابه المذكور ،ص ٤٧٩) .

وبدأ أول احتكاك بين دعاة العباسيين في خراسان وسلطات هذا القطر الأموية منذ سنة ١٠٢ هـ حيث ذكر الطبري أن رجلا من تميم أتى الى والى خراسان (سعيد خذينة) وأخبره بنشاط الدعاة : " فبعث اليهم سعيد فأتي بهم فقال من أنتم قالوا اناس من التجار قال فماهذا الذى يحكى عنكم قالوا لا ندرى قال جئتم دعاة فقالوا ان لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا فقال من يعرف هؤلاء فجاء اناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن فقالوا نحن نعرفهم وهم علينا ان أتاك منهم شيء تكرهه فخلى سبيلهم" (الطبري، جـ/٥ ، ص ٣٥٨) .

وانضم الى الدعوة في الكوفة أول سنة من خلافة هشام (١٠٥ هـ) بكير بن ماهان حيث اتصل به كبار رجال الدعوة فانضم اليهم وقد تبرع بكير بثروته لانجاح الدعوة فلما توفى رئيس مركز الكوفة في هذا العام عينه محمد بن على مكانه .

وقد لقي بعض الدعاة الذين وجههم بكير بن ماهان الى خراسان في سنتي ١٠٧ و ١٠٨ حتفهم على يد والي هشام على خراسان في هذين العامين وهو أسد ابن عبد الله القسري كما أورد الطبري (جـ/٥ ، ص ٣٨٧) .

ثم وجه بكير عمارا العبادى مرة اخرى الى خراسان في سنة ١٠٨ (وكان قد فر من خراسان عندما وقع أصحابه بيد أسد وقتلهم) فوقع كما ذكر الطبري (جـ/٥ ص ٣٨٤) بيد أسد بن عبد الله القسري فلقي حتفه صلبا بعد بتر الأوصال كما لاقاه رفاقه في العام الفائت بنفس الطريقة .

وثمة رواية اخرى في الطبري (جـ /٥ ، ص ٣٩٤ — ٣٩٥ اخبار سنة ١٠٩ هـ) أوردها عن المدائني ذكر فيها أن أول من قدم خراسان من دعاة بني العباس زياد أبو محمد مولى همدان في ولاية أسد بن عبد الله الأولى (١٠٦ — ١٠٩ هـ بينما كانت الولاية الثانية بين سنتي ١١٧ — ١٢٠) بعثه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس " وقال له ادع الناس الينا وانزل في اليمن والطف بمضر ونهاه عن رجل من أبرشهر يقال له غالب لانه كان مفرطا في حب بني فاطمة ويقال أول من جاء اهل خراسان بكتاب محمد بن علي حرب بن عثمان مولى بني قيس بن ثعلبة من أهل بلخ " وقد وقع عشرة من الدعاة بيد أسد والى خراسان فمن تبرأ من الدعوة عفى عنه ومن لم يتبرأ قتل فبلغ عدد القتلى ثمانية ثم أتاه الغداة أحد الاثنين ملتمسا من أسد أن يلحقه بأصحابه ففعل .

وتولى خراسان في الفترة مابين ولايتي أسد بن عبد الله القسري لها عدة ولاة ومنهم الجنيد بن عبد الرحمن في سنة ١١٣ هـ الذى قتل أحد دعاة العباسيين .

أعاد هشام بن عبد الملك أسدا بن عبد الله القسري لولاية خراسان سنة ١١٧ فقبض في هذا العام على نفر من الدعاة قتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم وقد افاد بعض الذين قبض عليهم من الدعاة من تعصب الوالي الى اليمنية فتمكنوا من النجاة من انتقامه (راجع ماذكره الطبري (ج/٥ ، ص ٤٣٩ — ٤٤٠) بصدد ذلك) .

عين رئيس مركز الكوفة الجديد (بكير بن ماهان) رئيسا ليشرف على الدعوة في خراسان وهو عمار بن يزيد الذي نزل مرو حيث غير اسمه ودعا نفسه خداشا (وقد علل فان فلوتن لقب خداش ان من حمله وهو عمار بن يزيد قد خدش الدين ومزقه بما أدخل من تعاليم لا يقرها الاسلام بينما رد كثيرون ان خداش من خدا ة الفارسية وهي الآلة) وقد أضر خداش بالدعوة لانه أدخل عليها مبادئ غير اسلامية (وقد دعا الى اشتراكية النساء والمال) . وقد حدثنا الطبري (ج/٥ ص ٤٤٠) عما قام به خداش في خراسان ومقتله على يد واليها أسد بن عبد الله سنة ١١٨ هـ) .

ولما بلغ ماأدخله خداش على الدعوة في خراسان للامام المدعوله (محمد بن علي) تألم واستاء من نقباء ودعاة الدعوة كيف ان خداش خدعهم وبقي محمد ابن علي مدة مقاطعا أتباعه في خراسان فلم يبعث اليهم بأية توجيهات فأجتمع كبار رجال الدعوة في خراسان سنة ١٢٠ (وهي السنة التي تنفس فيها الدعاة الصعداء بوفاة أسد بن عبد الله القسري والي خراسان لهشام) وانتخبوا سليمان بن كثير الخزاعي وأوفدوه الى الامام في الحميمة فأنكر عليهم هذا الأخير ماسمعوه من خداش وعنفهم ثم أوفد الامام اليهم بكير بن ماهان وزوده بكتاب منه فيه شرح لموقفهم المخطئ (وقد ذكر الطبري هذين الخبرين (ج / ٥ ص ٤٦٧) .

ذهب وفد من رؤساء الدعوة في خراسان في نهاية سنة ١٢٤ حجاجا الى مكة ليقابلوا امامهم في موسم الحج فيها دون أن يرتاب بهم أحد من رجالات الأمويين وموظفيهم . وعند ما وصل هؤلاء النفر الكوفة واتصلوا ببكير بن ماهان رئيس الدعوة فيها ، اشترى هذا الاخير مولى لعيسى بن معقل العجلي وهو المعروف بأبي مسلم الخراساني الذي سيتم نجاح الدعوة على يديه في فترتها الثانية .وهناك عدة روايات لاتصال ابي مسلم برجال الدعوة في الكوفة (راجع ذلك في الطبري ، ج/٥ ص ٥١٢ — ٥١٣) .

والى اقطاب الدعوة في خراسان طريقهم الى مكة حيث اجتمعوا بامامهم محمد

بن علي الذى أفهمهم بعد أن دفعوا اليه ماجمعوه من أموال، أن الامام بعده هو ابنه ابراهيم وحدثنا الطبرى (ج / ٥ ، ص ٥٣٥) عن هذا اللقاء الذى تم بين محمد بن علي ودعاته في مكة بين أخبار سنة ١٢٥هـ فقال محمد بن علي في نهاية حديثه معهم : " ماأظنكم تلقوني بعد عامي هذا فان حدث بي حدث فصاحبكم ابراهيم بن محمد فاني أثق به وأوصيكم به خيرا فقد أوصيته بكم فصدروا من عنده وتوفى محمد بن علي في مستهل ذى القعدة وهو ابن ثلاث وستين سنة وكان بين وفاته وبين وفاة أبيه علي سبع سنين " .

ورث ابراهيم الامام منصب ابيه فكان تتبلور أعماله في مستهل العام الجديد سنة ١٢٦ عقب عودته من الحج أن أوفد رئيس مركز الكوفة بكير بن ماهان الى خراسان ناعيا الامام أباه لاتباعه ومحيطهم علما بتوليه الامامة بوصية من أبيه .

ولم يعمر رئيس مركز الكوفة (بكير بن ماهان) في ظل ابراهيم الامام طويلا فقد كانت وفاته سنة ١٢٧ بعد أن رشح لمنصبه ختنه حفص بن سليمان وهو المعروف بابى سلمة الخلال (بائع الخل) . قبل الامام الجديد ايساد رئاسة مركز الكوفة لابى سلمة الخلال بعد ان شهد به سلفه انه رضى للأمر وورد كتاب للخلال من ابراهيم الامام يقلده فيه ذلك المنصب وجاء في الطبرى (ج / ٥ ، ص ٦٢٢) مانصه : " ... وكتب ابراهيم الى ابى سلمة يأمره بالقيام بأمر اصحابه وكتب الى أهل خراسان يخبرهم انه قد أسند أمرهم اليه ومضى ابو سلمة الى خراسان فصدقوه وقبلوا امره ودفعوا اليه ماجتمع قبلهم من نفقات الشيعة وخمس اموالهم ... " .

وقد خرجت الدعوة على يد ابى سلمة هذا وعلى يد ابى مسلم الخراساني من مرحلتها السرية الى مرحلتها العلنية . وقد تميزت الدعوة العباسية في هذه المرحلة الاولى السرية بعدة مميزات من حيث أن الكوفة كانت مركزها الرئيسي وأن رئيس مركز خراسان كانا خاضعين لرئيس مركز الكوفة ، لابل فان الدعاة كانوا بادىء الامر من الكوفة نفسها وفيهم عرب وموال . ومع تلك الأهمية التى تمتعت بها الكوفة فان هدف الدعوة كان أن تنتشر في خراسان كما لاحظ ولهوزن انه على حين كان الرؤساء الثلاثة الذين تعاقبوا على مركز الكوفة في هذه الفترة من الموالي (وهم ميسرة وبكير بن ماهان وأبو سلمة الخلال) الايرانيين فان معظم النقباء ورؤساء المركز في خراسان

كانـوا فى غالبيتهم العظمى من العـرب فان أسـتعرضنا اسماءهم التى كنـا أوردناها فى مسـتهل بحثنـا للمرحلـة السـرية نقـلا عن الطبـرى نجـد أن ثمانيـة من بين النقبـاء الاثنى عشـر فى خراسـان كانوا عربـا بينمـا كـان هناك أربعـة من الموالـى فقـط . ولاحظ المؤرخـون كذلك بطء سـير الدعـوة فى خراسـان الى ان تولـى امورها خداش الذى تسـاهل فى قبـول بعـض معتقـدات مزدك مما أدى الى زيـادة عدد المنضمين الى الدعـوة من القائلـين باشـتراكيـة المال والنسـاء فى خراسـان (ولهوزن المرجع المذكـور ص ٤٨٧ — ٤٨٨) .

وكانت للدعـوة فى هذه المرحلـة الاولى اساليب يمكن اينجازها فى أنهـا كما اوصـى محمد بن علـى دعاته بأن يدعوا الناس للامام بلطـف .

وكنا اثبتنـا روايـة الطبرى (ج/٥ ، ص ٣٩٤ — ٣٩٥ ، أخبـار سـنة ١٠٩ روايـة المدائنى) وماجـاء فيها من وصـية محمد بن على العباسى لأول دعـاة العباسـيين فى خراسـان وهو زيـاد ابو محمد مولـى همدان فقال لـه : " ادع الناس الينـا وانـزل فى اليمن والطـف بمضـر ... " هذا بينما ذكـر الدكتـور عبد العزيز الدورى (كتابه المذكـور ، ص ٢٤ ومايليها) أن الامـام محمد بن علـى خاطـب دعاتـه عند ما وجههم بقـوله : " انطلقوا أيها النفـر فادعوا الناس فى رفـق وتسـتر " . فأخـذ الدعاة يجوبون سائر ارجـاء خراسان وظاهر امرهم التجـارة كما مرينـا . وكان الدعـاة لايتصـلون الا بمركـز الكوفة ومن الكوفـة كان الاتصـال بالامام فى الحميمة او يتم اجتماع يعقـده الامـام ودعاته فى موسـم الحـج . وقد رأينـا أن الدعاة فضح أمرهم فى الفترة الأولـى فأمرهم محمد بن علـى بأن يحتاطـوا للأمـر وأن يستأنفوا نشاطهم برفـق مـع احاطتـه بالكتمـان .

وقـد اهتم الامام العباسـى بأن يدعـى له فى خراسـان وبـلاد مـا وراء النهـر أى فى المناطـق التى بلغ الاسـتياء فيها من الحكم الأمـوى مداه وهـذا ماكان قد مـر بنا على أن هناك أسـبابا اخـرى حملت محمد بن على على توجيه دعاته الى خراسـان كنا أوردناها وقـد ذكرت فى الوصـية التى أوصى بها هـذا دعاته والتى ذكرناها من قبـل .

اهتم الدعـاة فى خراسان طيلة هذه المرحلة الأولى التى أربت علـى ربـع القـرن بحجـب هدفهم الرئيسـى وهو ايصال امام من البيت العباسى الى الخلافـة وقـد عنوا باخفـاء هذا الغرض خاصـة عن أعين الشـيعة فى خراسان مهمـا

كانت فرقهم . واقتصر ماأباح به الدعاة فى خراسان امام الشيعة وسواهم على هدف آخر يسعى الهاشميون جميعا (بفرعيهم العلوى والعباسى) والشيعة والموالى عامة والعناصر اليمنية (التى أمست مضطهدة فى خراسان منذ تسلم آخر وال للأمويين خكم هذا القطر وهذا الوالى هو نصر بن سيار المضرى) الى تحقيقه . اما هذا الهدف فهو القضاء على خلافة الأمويين . وحرص الدعاة العباسيون على الا يرى فيهم الخراسانيون سوى أدوات للكفاح فى سبيل نصرة الحق على الظلم وطغيان الأمويين وموظفيهم فكانوا كما وصفهم ولهوزن يريدون أن يعتبرهم الخراسانيون مكافحين لنصرة الحق والعدل على الباطل والظلم . وعلاوة عن ذلك فان دعاة بنى العباس سعوا دائبين لئلا يشتم من دعوتهم انها تسعى للخلافة وانها تريد اقصاء العلويين عنها وذلك لئلا يخسروا تأييد شيعة العلويين فى ذلك القطر الذى ساده التشيع لآل على بن أبى طالب .

لقد صور لنا ولهوزن الوسائل التى عمد اليها دعاة العباسيين فىخراسان بعد خداش (المرجع المذكور ، ص ٤٨٩ — ٤٩١) فقال ما معناه : " أما فى اول امر دعوتهم فانهم كانوا يحاولون أن يستغلوا كل معارضة من جانب فرق الشيعة لحكومة بنى امية ، ايا كان لون مذهب هؤلاء الشيعة . وكانت الغاية الاولى للعباسيين هى الناحية السلبية ، أعنى اسقاط حكومة الأمويين ، فأما الناحية الايجابية ، وهى التغلب على الخلافة ، فقد جعلوها فى المحل الثانى ، وهم لم يكونوا فى الجملة يظهرون امام اتباعهم بأنهم طلاب خلافة بقدر ماكانوا يزعمون أنهم الأداة التى ارادها الله لقلب حكومة بنى أمية . فهم لم يقدموا أشخاصهم بل قدموا القضية التى ارادوا الدفاع عنها ، وهى الكفاح لنصر الحق والعدل على الباطل والظلم . وهم لميكونوا يأخذون البيعة لأنفسهم وباسمهم بل كانوا يأخذونها لمرضى مجهول من آل بيت النبى عليه السلام ، ستتفق عليه الكلمة فيما بعد " .

ويتضح لنا مما ذكر ان دعاة بنى العباس استمالوا الى جانبهم جميع شيعة خراسان فأخفوا عنهم الغرض الاساسى للدعوة العباسية الا وهو السعى للخلافة ولذلك رأى فيهم شيعة آل على مؤيدين لحقهم بالخلافة . وهكذا فان الدعوة الى الرضا من أهل بيت الرسول رأى العلويون وجوب قصرها عليهم وحدهم فحسب . هذا علاوة عن الحرص على الدعوة فى المناطق التى ازداد فيها العداء للأمويين والنقمة عليهم وكانت خراسان أشد اقاليم الخلافة الأموية

استياء من الحكم الأموى وتبرما بعمالة لا سيما وكان آخرهم نصر بن سيار مضرى النزعة على حين كانت غالبية العناصر العربية فى هذا القطر يمنية .

٢ — مرحلة الدعوة العلنية :

وهى بين سنتى ١٢٨ — ١٣٢ هـ ، وقد تسلم خلالها ابو مسلم الخراسانى رئاسة الدعوة فى مركز خراسان . وثمة خلاف بين المؤرخين حول ابى مسلم حيث رأى بعضهم كالمسعودى انه عربى بينما رأى جمهرة المؤرخين كالطبرى والدينورى وكثيرين انه مولى فارسى وقد ذكرنا من قبل وصية محمد بن على لدعاته فى مكة عند ما نقلوا اليه خبر تعلق ابى مسلم بالدعوة بأن يشتروه ويعتقوه . فلما خلف ابراهيم الامام أباه محمد بن على بعد وفاة هذا الاخير أنفذ الامام العباسى الجديد ابا مسلم الى خراسان كرئيس للدعوة لكن الدعاة لم يعترفوا به رئيسا عليهم ثم قابل بعضهم الامام الجديد فى مكة فى موسم الحج سنة ١٢٩ هـ وكان بصحبتهم ابو مسلم الذى ذكر لابراهيم أن دعاته فى خراسان لم ينفذوا أمره فأفهمهم الامام انه كان عرض رئاسة مركز خراسان على غير أبى مسلم فلم يقبلوها وطلب اليهم أن يسمعوا لأبى مسلم ويطيعوه ثم أوصى ابا مسلم وصية ننقلها عن الطبرى (جـ/٦ ، ص ١٤ — ١٥) (كما ذكرها ابن الأثير جـ/٤ ،ص ٢٩٥) وورد فيها : ياعبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت فاحفظ وصيتى وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فان الله لا يتم هذا الأمر الا بهم وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم وانظر هذا الحى من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فى أمره ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شىء وان استطعت أن لا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فأقتله ولا تخالف هذا الشيخ يعنى سليمان بن كثير ولا تعصه واذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى " .

ان هذه الوصية بصيغتها التى نقلناها عن الطبرى والتى وجدناها فى معظم المراجع التى اقتبستها عن الطبرى كابن الأثير هى هامة جدا لما يحوم حولها من شك . فقد رجح معظم المؤرخين أن هذه الوصية أو على الأقل قسمها الأخير موضوع وذلك لملاحظة التناقض الصريح بين ماجاء فى مطلعها (حيث أوصى ابراهيم الامام أبا مسلم باليمنيين خيرا

كما أوصاه بأن يكرمهم وأن يحل بين أظهرهم) وماجاء في نهايتها من أمر بعدم الابقاء على عربي واحد في خراسان ان استطاع الى ذلك سبيلا فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين والتناقض واضح فيهما ؟ وهذا ماحمل كثيرين من المؤرخين على ترجيح ان هذه الوصية موضوعة لاسيما وهي من بين الأخبار التي اوردها الطبري بدون أن يذكر سنده فيها بل اكتفى بايراد المتن فحسب .

ويغلب على الظن أن الذين وضعوا هذه الوصية لاحظوا ما قام به أبو مسلم بصورة واقعية فانه من جهة فرق بين ثلاثة أقسام عرب خراسان بعد أن تفاقمت فيما بينها على الوقوف في وجهه ثم أدى الامر بنصر بن سيار زعيم المضرية الى الفرار من مرو بعد أن دخلها أبو مسلم وكانت نهايته أن توفي شريدا طريدا بجوار ساوة وهو في الخامسة والثمانين من عمره كما كان ابو مسلم قد قتل أو بالأحرى قد أوعز بقتل شيبان الحروري زعيم ربيعة في خراسان ، واخيرا فانه قتل زعيمي اليمنية وهما علي وعثمان ابنا جديع الأزدي الكرماني بعد أن فرق بينهما وبين نصر بن سيار . ولذلك فان ابا مسلم الذي كان يمعن في النيل من سائر عرب خراسان (لا فرق عنده بين شيعة الامويين وشيعة العباسيين) أوقع المؤرخين في الخطأ فظنوا أن عمله هذا بناء على وصية أوصاه بها ابراهيم الامام مع أنه من المرجح أن القسم الأخير من هذه الوصية موضوع ونحن نظن ، وهذا رأى الكثيرين من المؤرخين المعاصرين انه لربما جاز ان الوصية ورد فيها انه ان استطاع الا يدع في خراسان لسانا مضريا فليفعل وليس هناك من وجه غرابة في هذا الأمر لأن نصرا بن سيار عامل الامويين على خراسان كان مضريا ومتعصبا لمضريته وقد وتر الخراسانية بقتله جديعا الأزدي الكرماني زعيم اليمنية في خراسان .

لا جرم أن هذه الوصية تخالف معنى ومبنى وصيتين أوصى باحدهما محمد بن علي والد ابراهيم الامام واوصى بالثانية اخوه ابو العباس عبد الله بن محمد بن علي (وهو من سيكون أول خليفة عباسي) رؤساء الدعوة العباسية في خراسان فقد كنا نقلنا رواية اوردها الطبري (عن المدائني) بين أخبار سنة ١٠٩ (طبري ج/ ٥ ، ص ٣٩٤ — ٣٩٥) " ان أول من قدم خراسان من دعاة بني العباس زياد ابو محمد مولى همدان في ولاية أسد بن عبد الله الاولى بعثه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وقال له ادع الناس الينا وانزل في اليمن والطف بمضر ... " فنحن نرى من هذه الوصية أن محمد بن علي أوصى رئيس

دعوته فى خراسان أن يحل ضيفا على العناصر اليمنية لتقوم بحمايته هذا بدون أن يسيىء الى العناصر المضرية بل يجب عليه أن يلطف بها (وكان ذلك فى ولاية اسد بن عبد الله القسرى — وهو من العناصر اليمنية — لخراسان فى خلافة هشام بن عبد الملك) . لكن منذ أن آلت ولاية خراسان منذ ١٢٠ هـ الى نصر بن سيار وهو من العناصر المضرية — ونظرا لتعصب هذا الوالى ولتعصب آخر خليفة أموى ، مروان الثانى ، للمضرية واضطهادهما اليمنية رأينا ابراهيم الامام يوصى الرئيس الذى عينه سنة ١٢٦ هـ لمركز خراسان وهو ابو مسلم الخراسانى فى مطلع وصيته قائلا : " وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين اظهرهم فان الله لا يتم هذا الأمر الا بهم ... ".

اننا نرى ان وصية ابراهيم الامام لأبى مسلم فى الا يدع فى خراسان لسانا عربيا كانت جائزة ومختلقة لو أن المؤرخين جعلوا تاريخها سنة ١٣٠ اما وقد اتفقوا على انها تمت فى سنة ١٢٩ لذلك نحن نرجح بل نجزم انها موضوعة وذلك لأن ابا مسلم عند قدومه خراسان بعد ايابه من مكة مزودا بوصية ابراهيم الامام لم ينجح فى مهمته فى خراسان الا بالتفريق بين العناصر اليمنية والمضرية ممنيا اليمنية انه مؤيد لها لا بل انضم الى وفدها بشكل سافر لما قدم حاضرة خراسان عندما طلب من ابى مسلم ان يعلن موقفه بوضوح من كل العناصر اليمنية والمضرية اننا نرى ان مزورى القسم الأخير من الوصية (الذى جاء فيه : " وان استطعت الا تدع فى خراسان لسانا عربيا فافعل ... " وضعوا هذا القسم بعد ملاحظتهم ما قام به ابو مسلم نفسه بين سنتى ١٢٩ — ١٣٠ فى خراسان فقد قتل شيبان الحرورى زعيم ربيعة ثم قضى على نصر بن سيار ، هذا علاوة عن فتك ابى مسلم بزعيمى يمنية خراسان نفسيهما .

وكان دهاء ابى مسلم قد تجلى بأبهى صوره فى نجاحه فى تصديع وحدة العناصر العربية فى خراسان بعد ان حرص الوالى نصر بن سيار وعقلاء الزعماء العرب على تناسى العرب جميعا عصبياتهم ووقوفهم صفا واحدا متراصا فى وجه ابى مسلم لا سيما وكان عددهم اقل من الموالى الذى كان ابو مسلم قد وثق من انضمامهم لصفه . ويعزو كثيرون من المؤرخين المعاصرين نجاح هذا الداهية الى قلة عدد العرب — قدرهم ولهوزن بمائتى ألف غير مجتمعين فى منطقة واحدة بل متفرقين فى بقاع خراسان المختلفة — وثمة سبب ثان أدى الى نجاح أبى مسلم فى حركته وهو ان العرب فضلا عن قلة عددهم النسبية بالنسبة للموالى فان زعماءهم كانوا منقسمين على نفوسهم ويكيد بعضهم لبعض ويمكر بعضهم ببعض

ويتربص بعضهم ببعض الدوائر . وهناك سبب ثالث ادى الى نجاح ابى مسلم وهو انشغال آخر خليفة اموى بقمع الفتن التى تأرثت فى بلاد الشام والحجاز فى عهده فلم يجد لديه الوقت الكافى لمعالجة حركة ابى مسلم بما عرف عنه من حزم فلما وجد لديه متسعا من الوقت انصرف ، ولكن بعد فوات الأوان للقضاء على هذه الحركة فكان الاخفاق حليفه . وقد صور لنا الطبرى (ج/٦ ، ص ٢٦ — ٢٧) دهاء ابى مسلم ومساعيه فى تصديع وحدة العرب واثارة الفتن والقتال بينهم ونجاحه فى دخول عدة قرى واقاليم فى دعوته . فكتب نصر بن سيار الى مروان بن محمد يعلمه حال ابى مسلم وخروجه وكثرة من معه ومن تبعه وانه يدعو الى ابراهيم بن محمد وكتب بأبيات شعر :

أرى بين الرماد وميض جمر ... فأحج بأن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى ... وان الحرب مبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

" فكتب اليه الشاهد يرى مالا يرى الغائب فاحسم التوءلول (البثر) قبلك فقال نصر اما صاحبكم فقد اعلمكم الا نصر عنده فكتب الى يزيد بن عمر بن هبيرة يستمده " .

فمنذ وقوف العناصر اليمنية على غدر ابى مسلم بزعيمهم على وعثمان ابنى جديع الأزدى الكرمانى اخذوا يشكون فى نواياه بازاء العرب عامة . وبرأينا أن القسم الموضوع من وصية ابراهيم الامام لأبى مسلم استند واضعوه الى واقع أعمال ابى مسلم وان ماذكره ابراهيم فى وصيته لا يتعدى وجوب القضاء على العناصر المضرية فحسب وذلك لانها كانت فى هذه الفترة حزب الخلافة الاموية . وهكذا فان نص الوصية هو حسب رأينا : " وان استطعت الا تدع بخراسان لسانا مضريا فافعل" فزورها أعداء العباسيين وجعلوها لسانا عربيا عوضا عن لسان مضرى .

لكن عندما شعرت العناصر اليمنية بغدر ابى مسلم بها بدأت تناوئه . ثم فانه لما قتل مروان الثانى ابراهيم الامام وانتقلت الدعوة لأخيه ابى العباس السفاح وانتقل السفاح من الحميمة الى الكوفة فان ابا مسلم حضر الى الكوفة ليبايع الامام الجديد وليوغر صدره (وكان يكن حقدا دفينا للعرب) على عرب خراسان جميعهم دونما تفريق بين ربعى ومضرى ويمنى وليدعى امامه انهم كلهم يعرقلون سير الدعوة ويقفون حجر عثرة فى طريق نجاحها فأوصاه ابوالعباس السفاح الا يدع بخراسان عربيا لا يدخل فى امره الا ضرب عنقه " . (راجع ذلك فى كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ، ص ٣٥٩) .

فاذا كان الامام العباسي العربي لم يقبل أن يفتك ابو مسلم بسائر عرب خراسان بعد ان وتره مروان بن محمد بقتل أخيه وبعد ان نجح ابو مسلم في القضاء على آل زعماء العناصر العربية التي تمثل ثلاث العصبيات العربية — مضر وربيعة واليمن — في هذا القطر فكيف يأمر هذا الامام ابا مسلم بالتخلص من سائر عرب خراسان (خاصة وان ثمانية من اصل اثني عشر نقيبا من نقباء الدعوة كانوا من العرب) عند ما كان محتاجا لنجاح الدعوة أن يعتمد اما على مضر ضد العناصر اليمنية او أن يعتمد على العناصر اليمنية ضد مضر ؟ لذلك كله نحن نرى ان القسم الأخير من الوصية في الا يدع في خراسان لسانا عربيا هو موضوع وان الذين وضعوه كانوا حريصين على تشويه صفحة العباسيين منذ فاتحة عهدهم .

نجح ابو مسلم في خراسان وتمكن من تعيين رجال من لدنه على سائر اقاليم خراسان وقد عين كل رجل في اقليمه وبذلك تم له الاستيلاء على خراسان ، وتعيين عماله عليها كما امر قحطبة بن شبيب الطائي (أحد كبار نقباء الدعوة) أن يشتبك في طوس بمن تجمع فيها من جند نصر بن سيار والكرماني كما أمره بموالاة زحفه على العراق وقد انجز قحطبة المهمة التي عهد بها اليه فوصل الى حلوان على الحد ما بين ايران والعراق حيث بلغه وصول مروان الثاني الى قرب مدينة واسط وانه عسكر على رأس ثلاثين الفا في الزاب كما وأن يزيد بن هبيرة قد استعد بواسط وهذا ما سيأتي تفصيله في حينه .

وقد لاحظ المؤرخون ان جميع من انضموا الى الدعوة العباسية في خراسان لم يكونوا يعلمون غايتها الحقيقية بل كانت بيعتهم اجمالية لا يفصح فيها عن اسم الامام المدعو له من آل بيت الرسول (ص) . وكان أول ما أخذ الدعاة ميثاق الجند على الطاعة التامة .

وقد بدا نجاح ابي مسلم اكيدا في مطلع عام ١٣٠ هـ لوفرة من انضم الى الدعوة وقد قدرهم ابو حنيفة الدينوري بزهاء مائة الف رجل خرجوا في التاريخ الذي حدده لهم ابو مسلم واختلف المؤرخون في تحديد هذا التاريخ فمنهم من قال انه ١٥ رمضان ، وقال آخرون بأنه ٢٥ من ذلك الشهر سنة ١٢٩ حين رفع ابو مسلم اللواء الاسود الذي ارسله اليه ابراهيم الامام واسم ذلك اللواء الظل كما رفع الراية " السحاب " المرسلة كذلك من ابراهيم الامام ، وكان ابو مسلم يتلو اثناء رفعه اللواء والراية قوله تعالى : "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير" وكانت هذه

الآية مكتوبة على اللواء (١) . وقد ارتدى الوافدون على ابي مسلم السواد الذى سيغدو شعارا للعباسيين . واختلف المؤرخون فى سبب تسويد انصار العباسيين ثيابهم ورايتهم فبعد مناقشة ولهوزن لهذا الرأى وجد ان ابامسلم اقتبس السواد عن لواء الحارث بن سريج الذى ثار على رأس الموالى فى بلاد ماوراء النهر قبل فترة وجيزة وقال بصدد ذلك (المرجع المذكور ص ٥٠٣ — ٤٠٥) بعد كلامه عن نجاح الدعوة فى خراسان مايلى : " ... والواقع ان هؤلاء الثائرين قد استخدموا الدين على مبادئ حربية فلم يكن الرجل العادى بحاجة الى أن يعرف اسرار قادته ، بل كان يكفيه الايمان بالراية السوداء . وكان للأحزاب الاسلامية قبل ذلك بزمان طويل ألوية

---

١) ذكر ابو حنيفة الدينورى (المرجع المذكور ، ص ٣٥٦ — ٣٦١) بصدد استنجاد نصر بالخليفة عندما استفحل خطر ابى مسلم فى خراسان فقال: " قالوا : ولما أعيت نصر بن سيار الحيل فى امر الكرمانى ، وخاف أزوف أبى مسلم كتب الى مروان :

يا ايها الملك الوانى بنصرته قد آن للأمر أن يأتيك من كثب
اضحت خراسان قد باضت صقورتها وفرخت فى نواحيها بلا رهب
فان بطرن ولم يحتل لهن بها يلهبن نيران حرب ايما لهب

" فلما وصلت هذه الابيات الى مروان كتب الى يزيد (بن عمر بن هبيرة عامله) على العراقين ، يأمره ان ينتخب من جنوده اثنى عشر رجل مع فرض يفرضه بالعراق من عرب الكوفة والبصرة ، ويولى رجلا حازما يرضى عقله واقدامه ويوجهه بهم الى نصر بن سيار . فكتب يزيد بن عمر بن هبيرة الى مروان " ان معه من الجنود لا يفون باثنى عشر الفا ، ويعلمه ان فرض الشام أفضل من فرض العراق ، لأن عرب العراق ليست لهم نصيحة للخلفاء من بنى امية ، وفى قلوبهم احن " ... ثم تابع الدينورى كلامه تحت عنوان : " ظهور دعوة ابى مسلم " فقال : " وحان الوقت الذى واعد فيه ابو مسلم مستجيبيه فخرجوا جميعا فى يوم واحد من جميع كور خراسان حتى وافوه ، وقد سودوا ثيابهم ، تسليا على ابراهيم بن محمد بن على بن عباس الذى قتله مروان فكان أول من ورد عليه من القواد وقد لبس السواد ، أسيد بن عبد الله ، ومقاتل ابن حكيم ، ومحقن بن غزوان ، والحريش مولى خزاعة ، وتنادوا : محمد يامنصور يعنون محمد بن على بن عبد الله بن عباس . وهو اول من قام بالأمر وبث دعاته فى الآفاق .

وانجفل الناس على ابى مسلم من هراة ، وبوشنج ، ومروالوذ ، والطالقان ، ومرو ونسا ، وابيورد ، وطوس ، ونيسابور ، وسرخس ، وبلخ ، والصغانيان والطخارستان وختلان ، وكش ، ونسف ، فتوافوا جميعا مسودى الثياب ، وقد سودوا ايضا انصاف الخشب التى كانت معهم ، وسموها " كافركوبات " (أورد الشارح فى حاشية الصفحة كذا فى الاصل وصوابه "كافركوباد " أى مضرب الكافر) .

واقبلوا فرسانا وحمارة ، ورجالة ، يسوقون حميرهم ويزجونها ، هر مروان ، يسمونها مروان ترغيما لمروان بن محمد ، وكانوا زهاء مائة الف رجل " .

من كل لون ولكن لم يبرز شأن اللواء ولونه واهميته عند احد بروزه عند شيعة بني العباس في خراسان، وكانوا يحملون اللون الاسود على ابدانهم ويسميهم تيوفانيس الخراسانيين لابسي السواد ،كما يسمون عند صاحب كتاب الصلة لتاريخ ايزيدور بالشياطين السود من اهل فارس . ويقال ان لواء النبي عليه السلام كان أسود ولذلك اتخذ العباسيون لواء اسود . وفي كتب النبوءات ورد ذكر الرجل صاحب العلم الأسود الذى بيد أعصرا جديدا ولكن الحارث بن سريج ،وكان اول من قاد ثورة الموالي باسم الاسلام كان له ايضا علم اسود . ويجوز ان ابامسلم اخذ عن ابن سريج دون غيره العلم الاسود لأن هذا العلم كان قد اصبح محببا الى نفوس الموالي".

ويرى بعض المؤرخين ان السواد اتخذته الدعوة العباسية شعارا لها حدادا على من قتله الامويون من شهداء آل بيت الرسول (ص) . وظن آخرون أن العباسيين اتخذوا السواد شعارا ليناقضوا شعار الامويين وهو البياض . لكن كما اورد المستشرق دوساسي لئن ثبت ان العباسيين لبسوا السواد شعارا لهم غير انه لم يكن من المؤكد ان الامويين كان شعارهم اللون الأبيض .

وكان ابومسلم قد بعث بابي داوود خالد بن ابراهيم البكرى أحد رجاله المقربين الى طخارستان وكان من قبل يدعو فيها الى بني العباس . وقد تمكن ابو داوود هذا من اجلاء عامل الامويين على بلخ وهو زياد بن عبد الرحمن القشيرى، لكن ابامسلم استدعى اباداوود هذا ووجه مكانه يحيى بن نعيم البكرى . ثم كاتب يحيى زيادا عامل الامويين الذى اعتصم بمدينة ترمذ المنيعة . وقد اتفقت كلمة العرب كلهم آنذاك على مقاومة شيعة العباسيين وأوسدوا القيادة العليا الى مقاتل بن حيان النبطي خشية اثارة الاحقاد ان وليها أحد العرب . ولوحظ ان بعض اعلام العرب كانت آنذاك سوداء (ويذكر ولهوزن ص ٥٠٧ انها كانت ولا شك اعلام الحارث بن سريج) . لم يجد ابو مسلم مناصا من اعادة ابى داوود مجددا فاشتبك بالمتحالفين مرة اخرى واخرجهم من مدينة بلخ فعادوا مرة اخرى الى ترمذ الحصينة . استدعى ابومسلم مرة ثانية اباداوود واناط القيادة بالنضر بن صبيح المرى وبعث به الى بلخ . وعلى الرغم من استمالة ابى مسلم لعثمان بن جديع الكرماني (هذا قبل قتل ابى مسلم لعثمان هذا مع أخيه على الكرماني) وتكليفه بقتال المضربة غير ان عثمان هذا لم يستطع الثبات في المعركة لمقدم المضربة بقيادة مسلم بن عبد الرحمن الباهلي (ابن أخي قتبة بن مسلم) واضطر عثمان الى الجلاء عن بلخ فكان لا مندوحة لابي مسلم من أن يبعث بأبي داوود للمرة الثالثة للاشتباك بالقوات العربية المتحالفة .

وعلى العموم نجح ابو مسلم فى السيارة على ثلاث ولايات خراسان الشرقية (مرو ومرو الروذ وهراة) بينما لم يكن قد استولى فى القسم الغربى (ولاية نيسابور) الا على مدينتى نسا وأبيورد . وكان نصر بن سيار عامل الامويين (قبل فراره ووفاته قرب مدينة قومس) مقيما فى مدينة نيسابور بينما كان شيبان بن سلمة الحرورى (زعيم ربيعة قبل قتله بايعاز من ابى مسلم نفسه) فى سرخس . ونجح ابومسلم بفضل دسائسه فى التخلص من شيبان هذا ففر معظم جنده وهم من ربيعة الى نيسابور ملتحقين بقوات نصر الموالية للأمويين وكانت غالبية القوات التى انضمت الى نصر بعد مقتل شيبان من بكر . فلما انتهى ابو مسلم من تصفية امر شيبان (قوات ربيعة) عين قحطبة بن شبيب الطائى لقتال نصر . وكان قحطبة آنذاك غائبا عن خراسان حيث كان غادرها الى مكة للاجتماع فيها بابراهيم الامام الذى عقد لقحطبة لواء وعينه قائدا لطلائع قوات ابى مسلم التى ستزحف على العراق للاشتباك بقوات الامويين وفضلا عن القيادة فان ابراهيم الامام منح قحطبة قائد الطليعة صلاحيات واسعة تشمل القيادة والعزل والتولية كما كتب الى الجند من شيعة بنى العباس بالسمع له والطاعة ثم عاد قحطبة الى مرو حاضرة خراسان بعد ان كان ابو مسلم نجح فى الاستيلاء عليها واثر مقابلة تمت بين ابى مسلم وقحطبة أقر الأول القرار الذى اتخذه ابراهيم الامام بشأن قحطبة .

- استلم قحطبة قيادة القوات الزاحفة غربا باتجاه العراق وقد ألحق أبو مسلم بمعيته كلا من ابى عون عبد الملك بن يزيد الأزدى وخازم بن خزيمة التميمى وخالد بن برمك البلخى وسواهم من القواد . ولما وصلت انباء زحف هذه القوات لنصر وجه هذا الاخير ابنه تميما للاشتباك بها وقد نشبت المعركة بين الفريقين فى مدينة طوس أحرزت فيها قوات العباسيين الغلبة وقتل فيها المعركة تميم ابن نصر بن سيار . ولم يجد نصر اذ ذاك مناصا من مغادرة نيسابور الى قومس على حدود جرجان وقد انضمت اليه فلول تميم وبكر وقيس من العرب الذين كانوا فروا من خراسان اثر الهزيمة التى لحقت بتميم بن نصر . وكانت مغادرة نصر لنيسابور حوالى نهاية شوال سنة ١٣٠ هـ (أواخر يونيو ٧٤٨ م) .

ولما نجح ابومسلم فى قتل شيبان بن سلمة الحرورى (زعيم قبائل ربيعة ومن بينها بكر) والحاق الهزيمة بقوات نصر (بهزيمة تميم بن نصر) خلصت خراسان له بعد أن احبط الحلف الذى كان ابرم بين مضر وقحطان (اليمنية) وربيعة وكانت أول مراحل نجاحه استمالته زعيمى اليمن على وعثمان ابنى جديع الأزدى الكرمانى) لجانبه وتحذيرهما من نية نصر غدرهما وقاتل ابيهما بازائهما

فلما وثق ابو مسلم من نجاحه غادر مرو الى نيسابور (بعد مبارحة نصر لها) وقتل هو وابو داود البكيرى أحد رجاله المخلصين زعيمى اليمن في خراسان على وعثمان ابني جديع الأزدى .

وكان مروان بن محمد قد أوعز الى يزيد بن هبيرة عاملة على العراق بأن يبعث بنباتة بن حنظلة الكلابى الى جرجان لكن نباتة لم يؤد خدمة تذكر لنصر بن سيار بل زاده ضعفا حيث انضم من كان مع نصر من القيسية الى نباتة الذي اشتبك به قحطبة الطائى اولا بعد دخوله جرجان فى ذى القعدة سنة 130 هـ وقد هزم نباتة فى المعركة وقتل . واحرز نصر فى الوقت نفسه نصراً على الحسن بن قحطبة الذى كان وجه لقتاله ولم يستطع نصر الافادة من هذا النصر الذى احرزه لأنه سرعان ما اضطر الى مغادرة قومس الى همذان فلم يؤيده عمال الامويين فيها . ثم التقت قوات قحطبة بقوات ابنه الحسن فى قومس فى مطلع سنة 131 هـ فتوجهت غربا قاصدة العراق وقد جعل قحطبة ابنه الحسن على قيادة طلائعه فاستولت هذه القوات العباسية على الرىّ وهمذان . لحقت الهزيمة بحاميات الامويين فى همذان ففرت منها . ثم اجتمع الجند الذى كان بمعية نصر فى نهاوند حيث دارت بينهم وبين الحسن بن قحطبة معركة حامية الوطيس عندما حاصرهم الحسن فى نهاوند . أتى مدد كبير من جند الشام بقيادة عامر بن ضبارة المرى ليفك حصار العباسيين عن نهاوند دخلت هذه القوات اقليم كرمان . وبينما كان عامر فى طريقه الى نهاوند لانجاز المهمة الموكولة اليه فاجأه قحطبة الطائى نفسه وهزمه فى اقليم اصبهان وذلك فى 23 رجب سنة 131 هـ (18 مارس سنة 749 م) ثم والى قحطبة زحفه فقصد نهاوند ليساعد ابنه الحسن فى حصارها الذى استمر طيلة ثلاثة اشهر طلب جند الشام بعدها الامان لانفسهم فنالوه دون زملائهم الخراسانيين المحاصرين معهم فى نهاوند . وبذلك نجت قوات الشام تاركة الخراسانيين الموالين للأمويين فقتلهم قحطبة وابنه .

لم يعد فى طريق العباسيين الى العراق اية قوات فوجه قحطبة ابنه الحسن امامه ثم غادر هو نفسه نهاوند لاحقا بابنه فمر بحلوان وخانقين . وكان يزيد بن هبيرة عامل مروان على العراق قد هب للقاء قحطبة على راس قوات كبيرة عبر على رأسها الفرات وعسكر فى جلولاء . قام قحطبة بعمل رائع اذ تجنب الاشتباك بابن هبيرة حيث عبر دجلة زاحفا على الكوفة متجنبا الاصطدام بقوات ابن هبيرة فى جلولاء . توقف قحطبة بقواته بجوار الانبار على الفرات ، اسرع ابن هبيرة للحاق به ورابط فى الجنوب على الضفة اليسرى للفرات عند الموضع المسمى فم الفرات فى الفلوجة العليا حيث ينحدر فرع من النهر الى الكوفة . ثم بعث ابن هبيرة قسما من قواته الى الكوفة . واخيرا عبر

قحطبة الفرات وسار بمحاذاة ضفته اليمنى وعسكر في موضع مقابل لمعسكر ابن هبيرة . ثم جرت في ليلة الثامن من المحرم سنة 132 هـ (27 غشت سنة 749م) معركة بين قسم من قوات قحطبة التي عبرت الفرات عند مخاضة وفاجأت ابن هبيرة فهزم هذا الاخير وانسحب الى مدينة واسط الحصينة . بلغ خبر هذه الهزيمة التى لحقت بابن هبيرة قائد طلائعه الموجهة الى الكوفة) فلم يجد من الجرأة مايكفيه لدخولها فلحق بابن هبيرة في واسط وبذلك نال قحطبة نصرا مؤزرا على ابن هبيرة لكنه توفي في المعركة في ظروف غامضة حيث شوهدت جثته طافية في الفرات . وبذلك ذهب قحطبة بفخار نصر قوات العباسيين في العراق وتولى ابنه الحسن القيادة بعده فدخل الكوفة بدون قتال . وذلك ان محمدا القسرى (الزعيم اليمني الذى قتل الامويون اباه خالدا) كان قد ثار في الكوفة واستولى عليها هو والعناصر اليمنية التى انضمت اليه . وبعد ان انتصر محمد في الكوفة ارسل كتابا لقحطبة (ولم يكن قد بلغه نبأ وفاته) يدعوه فيه الى الحضور الى الكوفة . وصل الكتاب الى الحسن ابن قحطبة فأتى ودخل الكوفة في يوم الثلاثاء في 14 محرم سنة 132 هـ . هذا وان يكن ثمة زعيم يمني كان هو سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب قد ثار في البصرة هو واليمانية لكنه اخفق في ثورته وذلك ان القيسية ومن انضم اليهم من اشياع الامويين ومواليهم قاموا بقيادة عامل البصرة الاموى فأخمدوا حركته على الرغم من تأييد ربيعة لها . ثم اخذ اليمانية وربيعة ينضمون في كل مكان الى قوات العباسيين ولم يبق بجانب الامويين سوى مضر .

شعر مروان الثاني باستفحال خطر الدعوة العباسية لكنه لم يكن يعلم الامام الذى كان يدعى اليه لينتقم منه غير انه شدد الرقابة على زعماء بني العباس فوقع بيده كتاب موجه من ابى مسلم لابراهيم الامام فأمن الرسول حامل الكتاب على روحه ودفع له مكافأة مالية كبيرة ليمضي بصورة طبيعية الى ابراهيم الامام ويسلمه الكتاب ويحصل منه على الجواب . فعل الرسول ماأمر به وذهب بكتاب ابى مسلم لابراهيم الامام واستلم جوابه الذى سلمه لمروان الثاني فأوعز هذا الأخير لعامله في دمشق بالقبض على ابراهيم الامام وارساله الى حران حيث كانت نهايته (1) وقد كان ذلك في مطلع عام 132 هـ .

شعر ابراهيم الامام بأن نهايته وشيكة (وذلك بعد القبض عليه) فعهد لأخيه أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي (بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب) بالامامة

1) راجع كتاب المسعودى مروج الذهب (جـ/3 ص 258 ـ 260) الذى أورد هذه الحوادث .

وأمره بأن يتوجه الى الكوفة مع ذويه ففيها " وزير آل محمد " أبو مسلمة الخلال رئيس دعوتهم فيها . وقد حدثنا الجهشياري (كتاب الوزراء والكتاب ص 85 ـ 86) عن فرار ابى العباس واخوته واعمامه الى الكوفة فقال مانصه : " وكان ابراهيم عند جبس مروان اباه خاف على أهل بيته ، فولى ابا العباس عهده ، وعقد الخلافة لمن بعده ، وامره بالمسير الى الكوفة الى ابى مسلمة ، وامر اهل بيته أن يسيروا معه ويسمعوا له ويطيعوا ، ونعى اليهم نفسه ، فسار ابو العباس عبد الله بن محمد ومعه ابو جعفر اخوه ، وداود وعبد الله عماه ، وعيسى بن موسى بن محمد بن على ، وموسى ابن داود بن على ، ويحيى ابن جعفر بن تملم بن العباس ، ومعهم جماعة من مواليهم فلما شارفوا الكوفة ، وجه ابو العباس بابراهيم بن سلمة الى ابى سلمة يخبره ، فأنكر ابو سلمة مقدمهم وقال : خاطروا بأنفسهم وعجلوا ، فليقيموا بقصر مقاتل (ذكر شارح الكتاب ان ياقوت ذكره فى معجم البلدان وقال : هو بين عين التمر والشام ونسبه الى مقاتل بن حسان) ـ وهو على مرحلتين من الكوفة ـ حتى ننظر فى امرنا ، فرجع اليهم ابراهيم بذلك ، فكتبوا اليه : انا فى برية ولانأمن قصد جيوش الشام ايانا ، لانهم بهيت ، على ثلاث مراحل منا ، وسألوه الاذن لهم فى الدخول الى الكوفة ، ليتحرزوا بها . فاذن لهم على كرة ، وانزلهم فى بنى أود فى دار الوليد بن سعد الجمال ، مولى بنى هاشم وكتم امرهم نحوا من شهرين عن جميع القواد والشيعة وعسكر ابو سلمة بحمام اعين (حمام اعين بالكوفة ، وهو منسوب الى اعين مولى سعد بن ابى وقاص) فاقام بها ، وفرق عماله على السهل والجبل وصارت الدواوين بحضرته ، والكتب تنفذ منه وترد اليه .

وصل الحسن بن قحطبة الكوفة وكان ابوسلمة الخلال مقيما فى بنى سلمة بجوارها فاستدعي اليها وقد وجه ابو سلمة من الكوفة عددا من قواد العباسيين لاختلال مدن جنوبى العراق (السواد) (1) فأنجزت هذه المهمة ولم يهزم اشياع العباسيين الا فى البصرة لكن هذه القوات مالبثت ان احتلت تلك المدينة.

---

1) ورد فى تاريخ ابن الاثير : (ج/4 ص 322) بصدد توطيد سلطة العباسيين فى سواد العراق مانصه " ... فلما دخلها الحسن (أى دخل الحسن بن قحطبة الكوفة) هو واصحابه اتوا ابا سلمة ـ وهو فى بنى سلمة ـ فاستخرجوه فعسكر بالنخيلة يومين ثم ارتحل الى حمام اعين ووجه الحسن بن قحطبة الى واسط لقتال ابن هبيرة ، وبايع الناس اباسلمة حفص بن سليمان مولى السبيع ـ وكان يقال له وزير آل محمد ـ واستعمل محمد بن خالد بن عبد الله (هو محمد بن خالد القسرى وقد ذكرنا من قبل خبر ثورته فى الكوفة على عامل الامويين فيها) على الكوفة وكان يقال له الامير حتى ظهر ابو العباس السفاح ، ووجه ابن قحطبة الى المدائن

... يتبع

ظهور أبي العباس وبيعته بالخلافة : رأينا أن أبا سلمة كان غير راض عن مجئ أبي العباس عبد الله وذويه الى ظاهر الكوفة وسنرى فيما بعد أنه بعد أن بلغه مصرع ابراهيم الامام بدا له أن يبايع لأمير علوي فراسل ثلاثة من العلويين هم جعفر الصادق وعبد الله المحض وعمر الأشرف ابن علي زين العابدين لكنه فشل في مسعاه (مما سيمر بنا عند كلامنا عن مقتله) .

وأخذ أبو سلمة ينكر أمام بعض أشياع العباسيين مجئ أبي العباس عبد الله . وصور لنا كل المؤرخين محاولته الغدر في آخر لحظة بأبي العباس لولا أن اهتدى الى هذا الأخير بعض أفراد من شيعته عن طريق الصدفة . ونحن نثبت هنا ما أورده ابن الأثير (ج/ 4 ، ص 323 ـ 324) بصدد هذه الحوادث حتى اجبار أبي سلمة على احضار أبي العباس عبد الله الى الكوفة نفسها واظهار أمره وأخذ البيعة له فقال مايأتي : " . . . حتى قدموا الكوفة (أبو العباس عبد الله وذووه من العباسيين) في صفر وشيعتهم من أهل خراسان بظاهر الكوفة بحمام أعين فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني داود .

(ورد في الحاشية أنها جاءت في الطبري : في بني أود) وكتم أمرهم نحوا من أربعين

ما ... تابع . في قواد ، وبعث المسيب بن زهير وخالد بن برمك الى دير قنى ، وبعث المهلبي وشراحيل الى اعين التمر ، وبسام بن ابراهيم بن بسام الى الأهواز وبها عبد الواحد بن عمر بن هبيرة ، فلما أتى بسام الاهواز خرج عنها عبد الواحد الى البصرة بعد أن قاتله وهزمه بسام وبعث الى البصرة سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب عامة عليها فقدمها ـ وكان عليها مسلم بن قتيبه الباهلي عاملا لابن هبيرة وقد لحق به عبد الواحد بن هبيرة كما تقدم ذكره ـ فأرسل سفيان أبن معاوية الى مسلم يأمره بالتحول من دار الامارة ويعلمه ماأتاه من رأى أبي سلمه ، وامتنع وجمع معه قيسا ومضر ومن بالبصرة من بني أمية ، وجمع سفيان جميع اليمانية . وحلفائهم من ربيعة وغيرهم وأتاهم قائد من قواد ابن هبيرة كان بعثه مددا لسلم في ألفي رجل من كلب ، فأتى سلم سوق الابل ووجه الخيول في سكك البصرة ونادى من جاء برأس فله خمسمائة ومن جاء بأسير فله ألف درهم ، ومضى معاوية بن سفيان بن معاوية في ربيعة وخاصته فلقيته خيل تميم فقتل معاوية وأتي برأسه الى سلم فأعطى قاتله عشرة آلاف ، وانكسر سفيان بقتل ابنه فانهزم ، وقدم على سلم بعد ذلك أربعة الاف من عند مروان فأرادوا نهب من بقي من الأزد فقاتلهم قتالا شديدا وكثرت القتلى بينهم وانهزمت الأزد ونهبت دورهم وسبيت نساؤهم وهدموا البيوت ثلاثة أيام ، ولم يزل سلم بالبصرة حتى اتاه قتل ابن هبيرة فشخص عنها واجتمع من بالبصرة من ولد الحرث بن عبد المطلب الى محمد بن جعفر فولوه أمرهم أياما يسيرة حتى قدم البصرة أبو مالك عبد الله بن اسيد الخزاعي من قبل ابي مسلم ، فلما قدم أبو العباس ولاها سفيان بن معاوية وكان حرب سفيان وسلم بالبصرة في صفر (سنة 132 هـ) .

ليلة عن جميع القواد والشيعة — وأراد فيما ذكر — أن يحول الأمر الى آل أبي طالب لما بلغه الخبر عن موت ابراهيم الامام فقال له أبو الجهم : ما فعل الامام ؟ قال لم يقدم بعد ، فألح عليه فقال : ليس هذا وقت خروجه لأن واسطا لم تفتح بعد ، وكان أبو سلمة اذا سئل عن الامام يقول : لا تعجلوا . فلم يزل ذلك من أمره حتى دخل أبو حميد محمد بن ابراهيم الحميرى من حمام أعين يريد الكناسة فلقي خادما لابراهيم الامام يقال له سابق الخوارزمي يعرفه فقال له : مافعل ابراهيم الامام ؟ فأخبره أن مروان قتله وأن ابراهيم أوصى الى أخيه أبي العباس واستخلفه من بعده وأنه قدم الكوفة ومعه عامة أهل بيته ، فسأله أبو حميد أن ينطلق به اليهم فقال له سابق : الموعد بيني وبينك غدا في هذا الموضع. وكره سابق أن يدله عليهم الا باذنهم فرجع أبو حميد الى أبي الجهم فأخبره وهو في عسكر أبي سلمة فأمره أن يلطف للقائهم ، فرجع أبو حميد من الغد الى الموضع الذى وعد سابقا فلقيه فانطلق به الى أبي العباس وأهل بيته ، فلما دخل عليهم سأل أبو حميد من الخليفة منهم ؟ فقال داود بن علي ، هذا امامكم وخليفتكم وأشار الى أبي العباس فسلم عليه بالخلافة وقبل يديه ورجليه وقال : مرنا بأمرك وعزاه بابراهيم الامام ، ثم رجع وصحبه ابراهيم بن سلمة رجل كان يخدم بني العباس الى أبي الجهم فأخبره عن منزلهم وأن الامام أرسل الى أبي سلمة يسأله مائة دينار يعطيها الحمال كراء الجمال التي حملتهم فلم يبعث بها اليهم . فمشى أبو الجهم وأبو أحمد وابراهيم بن سلمة الى موسى بن كعب وقصوا عليه القصة وبعثوا الى الامام بمائتي دينار مع ابراهيم بن سلمة ، واتفق رأى جماعة من القواد على أن يلقوا الامام .

" فمضى موسى بن كعب ، وابو الجهم ، وعبد الحميد بن ربعي ، وسلمة بن محمد ، وابراهيم بن سلمة ، وعبد الله الطائي ، واسحق بن ابراهيم ، وشراحيل وعبد الله بن بسام ، وأبو حميد محمد بن ابراهيم ، وسليمان بن الاسود ، ومحمد بن الحصين الى الامام أبي العباس ، وبلغ ذلك أبا سلمة فسأل عنهم فقيل : انهم دخلوا الكوفة في حاجة لهم ، وأتى القوم أبا العباس فقالوا : وأيكم عبد الله بن محمد بن الحارثية ؟ فقالوا : هذا فسلموا عليه بالخلافة وعزوه في ابراهيم . ورجع موسى بن كعب وأبو الجهم وأمر أبو الجهم الباقين فتخلفوا عند الامام . فأرسل أبو سلمة الى أبي الجهم أين كنت ؟ قال : ركبت الى امامي ، فركب أبو سلمة الى الامام . فأرسل أبو الجهم الى أبي حميد أن أباه سلمة قد أتاكم فلا يدخلن على الامام الا وحده . فلما انتهى اليهم أبو سلمة منعوه أن يدخل معه أحد فدخل وحده فسلم بالخلافة على أبي العباس ، فقال له أبو حميد : على رغم أنفك ياماص بظر أمه . فقال له أبو العباس : وأمر أبا سلمة بالعودة الى معسكره فعاد " .

معركة الزاب ومقتل مروان بن محمد والقضاء على الخلافة الأموية : كان قحطبة بن

شبيب الطائي (قبل وفاته) بعث من نهاوند بأبي عون عبد الملك بن يزيد الأزدي الى شهرزور فأقام بناحية الموصل ثم لما بلغ مروان مصرع عثمان بن سفيان قدم من حرّان ونزل الزاب. ثمت أمدّ أبو سلمة من الكوفة أباعون بتسعة آلاف مقاتل ، وبعد أن تمّت البيعة لأبي العباس عبد الله في الكوفة والى ارسال النجدات الى أبي عون في جوار الموصل، كما ندب أبو العباس عمه عبد الله بن عليّ لقتال مروان وذلك في 2 جمادى الآخرة سنة 132 هـ تحدث الطبري عن هذه المعركة الحاسمة (ج/ 6 ، ص 88 90) قائلا : " ... فدعا عبد الله بن علي محمد ابن صول فاستخلفه على العسكر وسار على ميمنته أبو عون وعلى ميسرة مروان الوليد بن معاوية ... فقال مروان لما التقى العسكران لعبد العزيز ان زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا الذين ندفعها الى عيسى ابن مريم وان قاتلونا قبل الزوال فانا لله وانا اليه راجعون وأرسل مروان الى عبد الله بن علي يسأله الموادعة فقال عبد الله كذب ابن زريق لاتزول الشمس حتى أوطئه الخيل ان شاء الله فقال مروان لأهل الشام قفوا لاتبدؤوهم بقتال فجعل ينظر الى الشمس فحمل الوليد بن معاوية بن مروان وهو ختن مروان على ابنته فغضب وشتمه وقاتل ابن معاوية أهل الميمنة فانحاز أبو عون الى عبد الله بن علي فقال موسى بن كعب لعبد الله مر الناس فلينزلوا فنودي الأرض فنزل الناس فأشرعوا الرماح وجثوا على الركب فقاتلوهم فجعل أهل الشام يتأخرون كأنهم يدفعون ومشى عبد الله قدما يقول ياربّ حتى متى نقتل فيك ونادى ياأهل خراسان ياثارات ابراهيم يامحمد يامنصور واشتدّ بينهم القتال وقال مروان لقضاعة انزلوا فقالوا قل لبني سليم فلينزلوا فأرسل الى السكاسك أن احملوا فقالوا قل لبني عامر فليحملوا فأرسل الى السكون أن احملوا فقالوا قل لغطفان فليحملوا فقال لصاحب شرطته انزل قال لا والله ماكنت لأجعل نفسي غرضا قال أما والله لأسوأنك قال وددت والله أنك قدرت على ذلك ثم انهزم أهل الشام وانهزم مروان وقطع الجسر فكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل ... "

أسرع مروان في تراجعه فوصل الموصل لكن أهلها منعوه من دخولها وأعلنوا انحيازهم الى بني العباس باظهارهم السواد . ثم غادر الخليفة مروان الموصل فبلغ حرّان حيث بدا له أن يعبر الحدود البيزنطية لاجئا الى الامبراطور البيزنطي لكن أحد زعماء اليمن — وكانوا ألد أعداء مروان خصومة له — ثناه عن عزمه مع وثوقه أن ذلك العمل كان على مروان أن يقوم به ولذلك فبعد أن استنصح مروان اسماعيل بن عبد الله القسري قرر التراجع الى دمشق ومنها الى شمال أفريقية لكنه قتل في مصر كما سنرى ذلك .

بدأ مروان بتراجع من حرّان جنوبا وعبد الله بن عليّ جادّ في أثره . حتى وصل في تراجعه الى فلسطين بعد أن غادر شمالي بلاد الشام . وقد نكل عبد الله بن علي وقواته

ببقايا الامويين في دمشق ، ثم لحقت قوات العباسيين بمروان الذى كان وصل مصر حيث قبض عليه في كنيسة بوصير في مديرية الفيوم . وثمة من قال انه قتل في المعركة .

حدثنا المسعودى (ج/٣،ص (٢٦١ — ٢٦٥) عن تراجع مروان الى مصر ومقتله ومعاملة العباسيين لزوجته وبناته ورأى هذا المؤرخ في خذلان القيسية لمروان مع أن تعصبه لهم كان سببا لخروج العناصر اليمنية عليه وانضمامها لأعدائه العباسيين . قال المسعودى بصدد كل ذلك مايلي : " .. وسار مروان فيمن معه من خواصه وعياله حتى انتهى الى نهر أبي فطرس من بلاد فلسطين والأردن فنزل عليه وسار عبد الله بن علي حتى نزل دمشق فحاصرها وفيها يومئذ الوليد بن معاوية ابن عبد الملك في خمسين الف مقاتل ، فوقعت بينهم العصبية في فضل اليمن على نزار ونزار على اليمن ، فقتل الوليد بن معاوية وقتيل ان أصحاب عبد الله بن علي قتلوه .. وأتى عبد الله بن علي بيزيد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فحملهما الى أبي العباس السفاح ، فقتلهما وصلبهما بالحيرة ، وقتل عبد الله ابن علي بدمشق خلقا كثيرا ، واحق مروان بمصر ، ونزل عبد الله بن علي على نهر أبي فطرس ، فقتل من بني أمية هناك بضعا وثمانين رجلا ، وذلك في يوم الأربعاء للنصف من ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك ، وحمل رأسه الى عبد الله بن علي ورحل صالح بن علي في طلب مروان ومعه ابو عون عبد الملك بن يزيد ، وعامر بن اسماعيل المذحجي ، فلحقوه بمصر وقد نزل بوصير ، فبايتوه ، وهجموا على عسكره وضربوا بالطبول ، وكبروا ونادوا : يالثارات ابراهيم ، فظن من في عسكر مروان أن قد أحاط بهم سائر المسودة ، فقتل مروان ، وقد اختلف في كيفية قتله في المعركة في تلك الليلة ، وكان قتله ليلة الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

" ولما قتل عامر بن اسماعيل مروان وأراد الكنيسة التي فيها بنات مروان ونساؤه اذا بخادم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول عليهن ، فأخذوا الخادم فسئل عن أمره ، فقال أمرني مروان اذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه فلا تقتلوني فانكم والله ان قتلتموني ليفقدن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : انظر ماتقول ، قال : ان كذبت فاقتلوني هلموا فاتبعوني ففعلوا ، فأخرجهم من القرية الى موضع رمل فقال ، اكشفوا هذا فكشفوا فاذا البرد والقضيب ومخصر قد دفنها مروان لئلا تصير الى بني

هاشم ، فوجه بها عامر بن اسماعيل الى عبد الله بن على ، فوجّه بها عبد الله الى أبي العباس السفاح فتداولت ذلك خلفاء بني العباس الى أيام المقتدر ، فقال : ان البرد كان عليه في يوم مقتله ولست أدرى أكل ذلك باق مع المتقي لله الى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — في نزوله الرقة أم قد ضيع ذلك .

" ثم وجّه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى الى صالح بن على فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى ، فقالت : ياعم امير المؤمنين ، حفظ الله لك من أمرك ما يجب لك حفظه ، وأسعدك في الامور كلها بخواص نعمه ، وعمّك بالعافية في الدنيا والآخرة ، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا ، قال : اذا لا نستبقى منكم أحدا رجلا ولا امرأة ، ألم يقتل أبوك بالامس ابن اخى ابراهيم بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس الامام في محبسه بحران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين بن على وصلبه في كناسة الكوفة ، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يدى يوسف بن عمر الثقفى ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ألم يقتل عبيد الله بن زياد الدعى مسلم بن عقيل بن أبى طالب بالكوفة ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على على يدى عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حتى ورد بهن على يزيد بن معاوية وقبل مقدمهن بعث اليه برأس الحسين بن على قد ثقب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنها حتى قدموا به على يزيد بدمشق كأنما بعث اليه برأس رجل من أهل الشرك ؟ ثم أوقف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف السبي يتصفحهن جنود أهل الشام الجفاة الطغاة ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم استخفافا بحقه صلى الله عليه وسلم وجرأة على الله عز وجل ، وكفرا لأنعمه ، فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ؟ لوعدلتم فيه علينا ! ! قالت : ياعمّ أمير المؤمنين ليسعنا عفوكم اذا ، قال : أما العفو فنعم قد وسعكم ، فان أحببت زوجتك من الفضل بن صالح ابن على ، وزوجت أختك من أخيه عبد الله بن صالح ، فقالت : ياعم أمير المؤمنين وأى أوان عرس هذا ؟ بل تلحقنا بحران قال ، فاذا أفعل ذلك يكن ان شاء الله فألحقن بحران ، فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن جيوبهن وأعون بالصياح والنحيب ، حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان ... "

وبعد ذكر المسعودى لخبر استشارة مروان لاسماعيل بن عبد الله القسرى ، ذكر عن تراجعه وخذلان القيسية له قائلا : " .... فقطع الفرات ، ووالله ما قطعه معه من قيس الا رجلان : ابن حمزة السلمى وكان أخاه ، من الرضاعة ، والكوثر بن الاسود الغنوى ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيئا ، بل غدروا به وخذلوه ، فلما اجتاز ببلاد قنسرين وخناصرة أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته ، ووثب به أهل حمص ، وسار الى دمشق

فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشي ثم أتى الا ردن فوثب به هاشم بن عمرو القيسي والمذحجيون جميعا ، ثم مر بفلسطين فوثب الحكم ابن صنعان بن روح بن زنباع ، لما رأوا من ادبار الامر منه ، وعلم مروان ان اسماعيل بن عبد الله القشيرى (وردت هكذا وهو اسماعيل ابن عبد الله القسرى الذى ذكرنا استشارة مروان له فيما يجب عمله عند ما كان لا يزال بحران) قد غشّه في الرأى ولم يمحضه النصيحة ، وأنه فرّط في مشورته اياه اذ شاور رجلا من قحطان موتورا متعصبا من قومه على اضداد هم من نزار ، وأن الرأى كان الذى همّ بفعله من قطع الدرب ونزول بعض حصون الروم ومكاتبته ملكها الى أن يرتئي في أمره ... "

وهكذا قضي على هذه الدولة الاموية وانتقلت بمقتل مروان بن محمد آخر خلفائها الخلافة الى العباسيين الذين كان أول خلفائهم أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب .

ونختتم بحثنا للدعوة العباسية بما ذكره الاستاذ شاكر مصطفى عن مبادئها : " قامت الدعوة العباسية على مبادئ ثلاثة : آ ـ المبدأ الدينى ـ وهو جعل الكتاب والسنة قانون جميع المسلمين . ب ـ المبدأ السياسى : ـ وهو حق بنى هاشم في الخلافة . جـ ـ المبدأ الاجتماعى : وهو تحسين أوضاع الموالى اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا بالمساواة بينهم وبين العرب .

وقد استغل الدعاة العباسيون في نشر هذه المبادئ ظروفا ومبادئ وأفكارا متباينة

آ ـ التشاؤم العام الناتج عن كثرة الفتن والثورات العصبية في العهد الأموى الاخير .

ب ـ تذمر الايرانيين خاصة والموالى عامة من أوضاعهم الاجتماعية . فهناك ظل من الشعور القومى في الحركة .

ج ـ ظلم النظام المالى السابق في الدولة للطبقات الدنيا من المغلوبين (الموالى) .

د ـ التيارات الدينية القديمة : التى تسرب بعضها الى الاسلام وتساهل به الدعاة : كمبدا التناسخ والحلول ، ومبادئ المزدكية ، وسيظهر أثر هذه التيارات الدينية في مطلع العصر العباسى باسم : الراوندية والخرميّة .

هـ ـ الحركة العلوية وعطف الناس على آل البيت المضطهدين .

و ـ الافكار " الاسرائيلية " التنبئوية التى كانت تبشر بمجئ " منقذ " يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا " أو بظهور " صاحب الاعلام السود " من المشرق أو مجئ " المهدى الخ .....

"ان مبادئ الدعوة تلك وما استغلته من الاوضاع ، سيكون له نتائجه الايجابية والسلبية معا في العهد العباسى . وسيفسر لنا الكثير من سياسة العباسيين ، ومن الحركات العلوية والفارسية ، ومن الثورات لا سيما في عهود هم الاولى " .

الخـــلافـــة العبـــاسيـــة

يبدأ تاريخ العباسيين ببيعة أبى العباس عبد الله في الكوفة يوم الجمعة في ١٣ ربيع الأول ١٣٢ (٧٥٠ م) وقد استمرت دولتهم نيفا وخمسة قرون الى ان قضي عليها بمقتل آخر خلفائها في بغداد وهو المستعصم بين يدى هولاكو امير التتر عند مهاجمته بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) بعد أن تعاقب على حكمها سبعة وثلاثون خليفة (١) أولهم أبو العباس عبد الله الذى غلب عليه لقب السفاح (هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب) وقد حكم بين سنتى ١٣٢ — ١٣٦ هـ (٧٥٠ — ٧٥٤ م) وآخرهم عبد الله المستعصم بالله الذى امتدّ حكمه بين سنتى ٦٤٠ — ٦٥٦ (١٢٤٢ — ١٢٥٨ م) ويديهي أن احوال تلك الدولة الجديدة لم تكن بنفس القوة والمنعة طيلة تلك الفترة الطويلة التى استمر حكم خلفاء العباسيين فيها . فثمة فترة ظهرت فيها قوة خلفاء بني العباس حيث كانوا فيها مسيطرين على كافة شؤون الدولة وقد دعاها المؤرخون بالعصر العباسى الأول الذى ولي الخلافة الجديدة فيه تسعة خلفاء استمر حكمهم بين سنتى ١٣٢ — ٢٣٢ هـ (٧٥٠ — ٨٤٧ م) وهم السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق ، وكانوا كلهم (باستثناء واحد من بينهم وهو الأمين) ذوى مقدرة وكفاية وحنكة تؤهلهم لتولي ذلك المنصب الخطير . ومهما اتصف به عهدهم من شدة واستبداد وافراط فى اراقة الدماء فلا جدال في ان ذلك مما اقتضته ظروف توطيد دعائم تلك الدولة الناشئة التى لم تستقر الا عقب نجاح الخليفتين الأولين في القضاء على كل العناصر المناوئة لقيام الخلافة العباسية على نحو ما سيأتي بيانه .

هذا وليس بخاف ان خلفاء ذلك العصر العباسى الأول تميزوا بكفاءاتهم في ميدانى الفكر والحرب وقد اجمع المؤرخون على اعتبار عهدهم ذهبيا للمسلمين . وقد أورد سيد أمير علي بصدد حكم هؤلاء الخلفاء الاوائل رأيا لمؤرخ فرنسي جاء فيه : " ان حكم العباسيين الاوائل كان أعظم عهود العرب شأنا وأهمها قدرا في الشرق ، حيث كان عصر العزوفي أثره وبدأت أشعة المدنية تنبثق في أجواء الامبراطورية الاسلامية " .

---

(١) سنقتصر هنا على ابراد الألقاب التى أطلقت على خلفاء العباسيين دون ذكر أسمائهم التى سنوردها اثناء قيامنا بدراسة عهودهم وسني حكمهم ، أما الألقاب فهى السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر والقاهر والراضى والمتقى والمستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم والمقتدى والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفى لأمر الله والمستنجد بالله والمستضئ والناصر والظاهر والمستنصر بالله والمستعصم .

لكن ذلك العهد الزاهر لم يلبث ان انقضى بعد ازدياد نفوذ القادة الأتراك الذين كان المعتصم أول من أدخلهم في خدمة العباسيين فلم يلبث خطر هؤلاء القادة ان استفحل بعد ازدياد نفوذهم وضعف سلطة الخلفاء . وهذا ما حمل المؤرخين على دعوة الفترة مابين سنتي ٢٣٢ – ٣٣٤ هـ بعصر نفوذ الاتراك لا سيما ولم يكن للخلفاء فيه شأن فكانوا آلة صماء ايعة يديرها كبار قادة الاتراك كالأفشين ووصيف وبغا وغيرهم .

ثم تمكن آل بويه الذين استنجد بهم العباسيون من سحق قوة الاتراك ولكنهم لم يعيدوا السلطات الواسعة التى استولوا عليها بعد القضاء على كبار القادة الاتراك التى الخلفاء العباسيين بل استأثروا بها فزادت حال الخلفاء ضعفا أيام آل بويه لا سيّما وكان هؤلاء من الشيعة المغالين في التشيّع ولم يمنعهم من القضاء على الخلافة العباسية وتسليم حاضرتها الى الخلافة الفاطمية الشيعية الا حرصهم على البقاء متمتعين بالسلطة والنفوذ والسيادة على الخلفاء بينما من المؤكد ضعف نفوذهم فيما لو انتقل حكم بغداد الى الفاطميين لأن بني بويه ككل الشيعة يرون الخضوع للامام العلوى جزءاً من الايمان على حين لا يعتبرون اضطهادهم العباسيين وتعذيبهم خروجا على تعاليم مذهبهم وقد دام عصر استئثار آل بويه بالسلطة بين سنتى ٣٣٤ – ٤٤٧ هـ .

تغلّب السلاجقة على آل بويه وظلوا متمتّعين بالسلطة ما يقرب من قرن (بين سنتى ٤٤٧ – ٥٣٠ هـ) لكن خلفاء بنى العباس كانوا الى جانب السلاجقة أسعد حالا لانهم من السنة وكانوا حريصين على اظهار ولائهم واحترامهم للخليفة القائم .

ثم أعقب ذلك عصر حاول خلفاء العباسيين خلاله استعادة قسم من نفوذهم المسلوب وقد نجحوا بصورة جزئية في هذا السبيل غير أنهم لم ينعموا باسترداد سلطانهم طويلا فقد نجح هلاكو أمير التتر في القضاء على الخلافة العباسية بعد استيلائه على حاضرتها بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) حيث أمر بقتل آخر خليفة عباسي وهو عبد الله المستعصم . وبمقتل هذا الخليفة انهارت دولة العباسيين في بغداد .

وصفوة القول ان المؤرخين يقسمون تاريخ العباسيين الى خمسة ادوار هي :

١ – العصر العباسي الاول : وهو عصر القوة بلغ عدد خلفائه تسعة حكموا بين سنتى ١٣٢ – ٢٣٢ وكان أولهم السفاح وآخرهم الواثق .

٢ – فترة استئثار القادة الأتراك بالحكم وعصر امرة الامراء ، وقد دامت بين سنتى ١٣٢ – ٣٣٤ تولى الخلافة فيها ثلاثة عشر خليفة أولهم المتوكل وآخرهم المستكفى .

٣ – عصر سيطرة آل بويه على خلفاء بنى العباس : وقد دام بين سنتى ٣٣٤ – ٤٤٧ هـ وبلغ عدد خلفائه الخمسة أولهم المستكفى وآخرهم القائم .

٤ – عصر نفوذ السلاجقة : ويمتد بين سنتى ٤٤٧ – ٥٣٠ هـ وقد بدأ هذا العهد بخلافة القائم وانتهى في أول خلافة المقتفى لأمر الله سنة ٥٣٠ هـ .

٥ ـ العصر العباسي الأخير : وقد امتدّ بين سنتي ٥٣٠ ـ ٦٥٦ هـ ويمتاز بمحاولة الخلفاء العباسيين استرداد سلطانهم السليب وان بقي للقواد في هذا العصر الغلبة على الخلفاء . وسنقوم بدراسة كل من هذه الادوار الخمسة حسب تسلسل الخلفاء الذين تولّوا الحكم فيه .

الصفات العامة للحكم العباسي :

استمر زمام الرئاسة العليا في العالم الاسلامي مدة خمسة قرون بيد بني العباس . ويصف صاحب الفخري دولتهم بأنها " كانت دولة كثيرة المحاسن ، جمّة المكارم ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة والخيرات فيها دارة ، والدنيا عامر والحرمات مرعية والثغور محصنة . وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها فانتشر الجبر واضطرب الأمر وانتقلت الدولة . . . "

تصور معظم المصادر انتقال الخلافة من بني أمية الى بني العباس كما لو كان نهاية عصر بائد وفاتحة عصر جديد ، أو انه انقلاب جذري في كيان الامبراطورية العربية الإسلامية . وكثير من الاوهام تنحدر من هذه الفكرة ، مع ان العصر العباسي ، في واقعه العميق ، ليس أكثر كثيرا من انتقال عرش من أسرة لأخرى ، مع التعديلات التي تقتضيها سنة التطور . فاذا كان التاريخ لا يقبل الانقطاع عامة ، فانه فيما يتعلق بتلك الفترة ، بين أواخر العهد الأموي وأوائل العهد العباسي خاصة ، لم ينقطع . واذا سمّى العباسيون حكومتهم " دولة " فهذه التسمية تحتاج الى تحديد لانهم لم يخلقوها خلقا جديدا . وكثير من أنظمتهم وتقاليدهم وسياستهم كان استمرارا للعهد الأموي ونضجاله . وما أدخله العباسيون من التعديل على السياسة العامة كان مبعثة الطريقة التي وصلوا بها الى الحكم ، وظروف الدعوة التي سبقت خلافتهم . ولعل المقارنة بين العهدين تبين لنا ميزات العهد العباسي ومدى شبهه واختلافه مع العصر الأموي :

١ ـ يقول الجاحظ : دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية أعرابية " ويرى المسعودي انه في زمن بني العباس " سقطت قيادات العرب وزالت رياساتها وذهبت مراتبها " ويقول بيكر : " ان انتصار العباسيين معناه انتصار الفرس على العرب " . ويرى ولهاوزن ان حكم العرب انتهى بمجيء العباسيّين ، وان الفارسية انتصرت على العربية تحت ستار الأممية الاسلامية " .

وقد تكون هذه الافكار صحيحة في خطوطها العامة . لكنها دون شك مبالغ فيها فلم ينته سلطان العرب بخلافة العباسيّين لان الخلفاء كانوا عربا هاشميين ، يعتزون بنسبهم ومناقبهم ، وتقريبهم الفرس لم يمنعهم من كيل الضربة تلو الضربة ، لهم منذ عهد أبي العباس حتى المأمون والمعتصم ـ على الأقل ـ واذا وصل الفرس الى

الوزارة فعدد كبير من القوّاد والولاة كانوا عربا ومن أقرباء البيت المالك . وبجانب الفرقة الخراسانية في الجيش كانت هناك فرق أخرى عربية ثم غير عربية .

هذا الى ان الناس ظلّوا ينزعون للفخر بالنسب العربي . ويشترى بعض الموالى النسب شراء . وحتى أبو مسلم نفسه ادّعى النسبة العربية وسنبقى الى زمن أبى تمام (القرن الثالث للهجرة) نسمع الفخر بالعروبة وتراشق الهجاء بالنسب الفارسى .

وعدا هذا فان اللغة العربية ظلّت لغة السياسة والثقافة وازدادت تعمّقا وانتشـــارا وبدأت الترجمة من اللغات الأخرى اليها .

فحكم العرب اذن لم ينته بالعباسيّين . ولكن الامتيازات التى كانت لهم على العناصر الاخرى في الدولة زالت . والعصر العربى الخالص في تاريخ الاسلام قد انتهى . والحياة الخالصة للحكام آذنت بالانقراض . فكانت دولة العباسيين " اسلامية أمميّة ، ليس العرب اكثر من عنصر من عناصرها ، بينما كانت دولة بنى أمية عربية . وبعض الظروف السياسيـــة كحركة أبى مسلم وثورة المأمون ، وهي التى أبرزت الخراسانيين من بين شعوب الدولـــة ولكن الخلفاء لم يختصّوا دوما بهم ، ولا بهم وجدهم .

٢ ــ يقول صاحب الفخرى : " ان هذه الدولة يعنى العباسية) ساست العالـــم سياسة ممزوجة بالدين والملك فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تدينا والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة " والحقّ ان العباسيين بحكم الطريق الذى اصطفوه اثناء الدعـوة العباسية للوصول الى الخلافة ، اندفعوا في الأخذ بالصبغة الدينية . وتلك الدعـــوة التي استخدموها لتنفير الناس من الحكم الأموى تطوّرت في عهدهم ، ووجهت بكثير مــن الدهاء لكسب ثقة الأمة وتثبيت حبّها لهم .

لقد ادعى بنو العباس انهم يريدون احياء السنّة وحكم العدل وارجاع الخلافـــة الحقّة ، بدل الملك الذى أقامه الأمويون . فارتدى خلفاؤهم البردة (كرمز لسلطتهم الدينية) في المناسبات الخاصة (كالجمع والأعياد) وأحاطوا أنفسهم بالفقهاء وحاربوا الزنادقة . وتغيرت نظرية الحكم فبعد ان كان الخليفة الأموى اشبه بشيخ قبيلة يستمـــد قوته من رضى رؤساء القبائل وزعماء الناس ، أصبحت السلطة عند العباسيين مقدّســـة ومستمدة من الله . خطب المنصور قائلا : " ايها الناس انما انا سلطان الله فــــــى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وارادتـــه وأعطيه باذنه فارغبوا الى الله وسلوه ان يوفقني للرشاد والصواب وان يلهمنى الرأفـــة بكم والاحسان اليكم ... " ويذكر المسعودى من قول احدهم في تعزية المهدى بأبيـــه " ... لا عقبى أجل من خلافة الله على اولياء الله " . فالخليفة اذن خليفة الله . واتخذ خلفاء بنى العباس لأنفسهم بعد فترة وجيزة لقب الامام . وأخذ الطابع الدينى للخلافـــة يعمق ويظهر ، كلما تسلّلت السلطات الدنيوية من يدى الخليفة . فكان الخلفاء يجـــرون

على انفسهم الدثار الديني المقدسي للتعويض عن السلطة الزمنية التي كانوا يفقدونها تدريجيا بضعفهم ، في العصر الثاني والثالث والرابع . حتى ادّعوا ان السلطة ستبقى في أيديهم الى الابد تخرج منها حتى يسلّموها الى عيسى ابن مريم — كما يقول الاربلي والا فان نظام العالم سيختلّ (اذا ذهبت خلافتهم) وتحتجب الشمس ويمتنع القطر .

ولعل تطور الألقاب فيهم يدلّنا على اتجاه السلطة في الخلافة فمن السفاح والمنصور الى المهدي والرشيد الى المتوكّل على الله والمستنجد بالله والقائم بأمر الله . نرى من معاني الالقاب كيف كانت الخلافة تضعف ومن دخول " لفظ الجلالة " كيف كانت تتخذ الصبغة الدينية . ولا شك ان تحوّل الخلافة العباسية الى نوع من النفوذ الديني كان السبب في العمر الطويل الذي تمتعت به كما كان السبب في احترام الفرس خاصة لها .

ولكن هل كان الثوب الديني الفضفاض للخلافة يعني السياسة الدينية أي تحقيق الكتاب والسنّة ؟ وهل حققت دولة بني العباس ، في عهدها الاول على الأقل ، آمال أولئك الذين أغرتهم وعود الدعوة " للرضا من آل محمد ؟ " يقول فان فلوتن : " ان ذلك المثل الاعلى للعدالة والمساواة قد ظل وهما من الأوهام . ولم يكن جور النظام العباسي وعسفه منذ قيام الدولة العباسية . بأقلّ من النظام الأموي المختل حفزا للنفوس الى التمسك بعقيدة المهدي والتطلع الى ظهورة لتخليصها من قسوة النظام الجديد وجوره . وتذكرنا شراهة المنصور والرشيد والمأمون وجور أولاد على بن عيسى وعيثهم بأموال المسلمين بزمن الحجاج وهشام ويوسف بن عمر الثقفي ... "

" ولدينا البراهين الكثيرة على فجيعة الناس في هذا العرش الجديد : من ذلك قول شريك الذي ثار في بخارى خلال خلافة السفاح : " ما على هذا اتبعنا آل محمد على ان نسفك الدما " ونعمل بغير الحقّ " . وكذلك الاضطرابات المستمرة في الجزء الشرقي للدولة العباسية (كخروج المقنّع) وثورات الخوارج المتوالية وخروج يوسف البرم الذي لم يكن غرضه سوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أضف الى هذا خروج رافع ابن الليث لسوء سياسة على بن عيسى ... ، وهكذا لم يكن أبو العطاء الشاعر هو وحده الذي نعى على ذلك النظام فساده بقوله :

ياليت جور بني مروان دام لنا	وليت عدل بني العباس في النار

على ان الفرق بين العهدين العباسي والأموي هو ان سبب الجور فيهما كان مختلفا . فلم يكن قوام الجور العباسي — على الأقل — ذلك التنافر الشديد بين طبقات الأمة ، الذي كان عماد النظام الاداري الأموي ، اذ أن الدين — دون الجنس — كان المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية لدى بني العباس ، وانما كان سبب النقمة على العباسيين عدم العدل في حكمهم ، بمعنى انه اذا انتصر بالحكم العباسي مبدأ المساواة

الدينية فان العدل — على أى حال — لم ينتصر .

٣ — كثيرا ما يذكر الكتّاب ان نظم الادارة العباسية كانت مقتبسة عن النظم الفارسية القديمة . والواقع كما قال (ديلافيدا) " ان النظام الادارى الذى جرى عليه العباسيون هو في جوهرة نظام الأمويين " . فقد استمرت النظم الأموية في الضرائب والادارة المحلية والجيش والدواوين على رسمها في العهد العباسى . وتهجمات الشعوبيّين في مخاضتهم الطويلة للعرب هي التى طوّقت الادارة العباسية بهذا الوهم . ولكنا لو درسنا الانظمة الساسانية ، وما كتبه كريستنسن خاصّة عنها (في كتاب ايران تحت الحكم الساسانى) لتبيّن لنا انها كانت أبسط مما كانت عليه عند العباسيين . كما ان كثيرا من الانظمة العباسية لم يعرفها آل ساسان . فلم يكن الفرس يميزون بين كلمتى " جزية وخراج " ولم يعرفوا نظام الحسبة ولم يعرفوا في نظام البريد وظيفة التجسّس على العمال والرعيّة (الامن العام) بالاضافة الى نقل الأخبار الخ ....

وأهمّ الفوارق بين أسس النظامين العباسى والأموى هي :

آ — لم يعد ثمة تفريق بين الشعوب الاسلامية فكان من الضرورى ايجاد نظام جديد للمال ، يحلّ المشكلة التى أوجدها منذ العهد الأموى ، قانون عمر بن الخطاب باعفاء العرب من دفع الضرائب باعتبارهم حماة الاسلام ، وتوزيع العطاء عليهم . وقد أوجد العباسيون هذا النظام الذى لا يفرق بين العرب والفرس ، في خدمة الحكومة ويفرض للجميع على السواء مرتّبات معيّنة . ولكن النظام القديم بقي قائما ولم يلغ صراحة .

ب — حلّت بالتدريج محل الأرستقراطية العربية التى كانت تحيط بالعرش الأموى طبقة من الموظفين (بوروقراطية) قسّمت درجات يسيطر بعضها على بعض . وكان على رأسها الوزير الذى وجد منصبه في مطلع العهد العباسى . وظهرت بهذا الشكل طبقة الكتّاب الذين لعبوا في تسيير الدولة العباسية دورا يعدل دور أرباب السيوف أوقد يفوقه . وكثيرا ما كان الوزراء يتخذون من الكتّاب ، ويحمل أحدهم لقب "ربّ السيف والقلم " أو " ذى الرياستين " ...

ج — اعتمد العباسيون على القوّة في تنفيذ سياستهم أكثر من الأمويين واعتمدوا على رأى ابن الطقطقي — على الخداع والدهاء" والغدر اكثر من اعتمادهم على القوة والشدّة خصوصا أواخر عهدهم ، وكان أبو العباس (السفاح) أول من أشار الى هذا الاتّجاه في خطبته التى افتتح بها عهده . وصار للجلاد مكان معلوم في البلاط بجانب العرش ليزيد في رهبة الخليفة ، ويرى (ولها وزن) ان العباسيين اقتبسوا وظيفة الجلاد من الفرس الذين كان لملوكهم حقّ الحياة والموت على الرعيّة .

٤ — لم تتغير الاتجاهات السياسية والدينية للمجموعة الاسلامية في مطلع العصر العباسي . فبقي حزب الشيعة العلوية قائما واستمر الخوارج في الثورات ، وان اندمج

المرجئة مع الايام بالجماعة " وسننتظر الى مابعد عهد الرشيد لنرى همود الثورة الخارجية وانهيار ممثليها ، ولنرى انكماش الحروب القبلية وتقلصها الى الجزيرة العربية وسورية ، أى الى الاماكن العربية التى لا نفوذ للموالى فيها . أما حيث ظهر شأن الموالي (كالعراق مثلا) وذر قرن الشعوبية والتهجم على العرب ، فقد اضطر العرب لأن يكونوا جبهة واحدة .

ولم يظهر للأمويين من حزب لأن العباسيين نكّلوا بهم نكالا شديدا حين ظفروا ولأنهم أهملوا أمر الشام وشجّعوا الفتن فيها . ولأن الأمويين أخيرا استطاعوا ان يقيموا لأنفسهم ، منذ سقط ملكهم في دمشق ، دولة أخرى في الأندلس أى في أبعد قطر عن مقرّ العباسيين .

أما الحزب الذى استمر قائما على حدّته الاولى يناضل العباسيين فهو الحزب العلوى المخدوع . وزعماؤ هم ابناء عم الخلفاء الجدد ، اذ ظهر بسرعة ان الحلف العباسي — العلوى الذى مكنته روح البغض لعدوّ مشترك ، لم يكن بالحلف الذى يدوم طويلا بعد هلاك العدو . وبعد ان كان النضال هاشميا — أمويا أضحى في الزمن العباسي نضالا بين آل هاشم أنفسهم أى بين أبناء العمومة . ولم يكن موقف بنى العباس أرحم أو أقلّ قسوة من موقف الامويين من آل علي . وليست (باخمرى) بأقل من كربلاء ولا عمل المنصور بهم بأرحم من عمل عبد الملك ، وهذا مايفسّر ما يرويه صاحب الاغاني من جواب محمد ذى النفس الزكية لعمه الحسن بن على حين سأله : لم تبكى على بنى أمية وانت تريد ببنى العباس ما تريد ؟ قال : " والله ياعمّ لقد كنا نقمنا على بنى أمية ما نقمنا ، فما بنو العباس الا أقل خوفا لله منهم . وان الحجة على بنى العباس لأوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم ليست لأبى جعفر ". واذا كان الامويّون قد خمدوا لأنهم اجتزوا لأنفسهم جانبا من الامبراطورية العربية في اقصى الغرب ، فكانوا بذلك أولّ وأبعد المنشقين ، فان الحزب العلوى استطاع من بعدهم ، وبعد أن فقد الأمل بزحزحة العباسيين أن يجتزئ جانبا آخر ، وأقرب من الأندلس الى مقر الدولة وهو شمالى افريقيا فأقام العلويون أولا دولة الادارسة ثم الدولة الفاطمية التى وصلت فى الاتّساع الى الشام وكادت ذات يوم ، في فتنة البساسيرى ان تحلّ محلّ العباسيين فى بغداد .

٥ — والعهد العباسي يعدّ تكملة للعهد الاموى في الحياة الاجتماعية والفكرية : فقد كان العهد الاموى عهد انتقال ظهرت فيه حضارة العرب البدوية بجانب حضارات الامم المغلوبة : فالتقت في بلاط الخلفاء وفي طبقات الشعب على السواء ، عادات العرب البدوية مع العادات الاجنبية ، وهكذا استمر وجود الاسواق — مثلا كالمربد — والتراشق بالشعر الخ ... في نفس الوقت الذى أخذ فيه العرب بعض ضروب الغناء والموسيقا عن

الفرس واقتبس البلاط الأموي في مطلع عهده بعض التقاليد البيزنطية كاستعمال الخصيان و مجالس الشراب بأكاليل الزهور والريحان ، كالروم ولبس الثياب الحريرية ، والملابس الرسمية (الطراز) كما اقتبس في عهده الأول والاخير بعض نظم البلاط الساساني كهدايا النيروز والمهرجان وجلوس الخلفاء خلف ستارة في مجلس الغناء ، وشرب الهفتجة (عادة فارسية لشرب الشراب مدة سبعة أسابيع في وقت معين من السنة) وكذلك كانت القلنسوة الفارسية التي عمت الشرق في العصر العباسي معروفة ويلبسها الناس ، وهي الثياب الفارسية في العهد الاموي .

أما عن التيارات الفكرية فقد بين كريمر ان أهم مذهب فكرى في العهد العباسي وهو الاعتزال (أو القدرية) قد ظهرتا ، كمذهب الارجاء ، في دمشق أول الامر .

6 ــ ويمكن ان نجد بعض المقارنات الأخرى التي تبرز ميزات العصور العباسية :

آ ــ نقل العباسيون العاصمة من الشام الى العراق ليكونوا أقرب الى انصارهم في خراسان وغير بعيد عن الشام والحجاز ومصر ، وتبديل العاصمة بتبدل الاسرة الحاكمة والدول ظاهرة عامة لاحظها العلماء في تاريخ الشرق القديم كله وفي التاريخ الاسلامي بوجه خاص . وقد كان لعمل العباسيين هذا آثاره السياسية والاجتماعية والفكرية أيضا .

ب ــ لأول مرة في العهد العباسي تصبح حدود الخلافة غير حدود الاسلام . اذ لم سلطان العباسيين أبدا الى الأندلس . ووجدت منذ خلافتهم الأولى دولتان اسلاميتان في دار الاسلام .

جـ ــ وأهمل العباسيون عامة الولايات الغربية من الامبراطورية وحصروا همهم في الجزء الشرقي ، فساعد ذلك على انفصال تلك الولايات المبكر عن الدولة كما ساعد على ظهور الدول العلوية فيها .

د ــ أدى بعد العراق عن البحر وقلة خطر البيزنطيين البحرى على مركز الدولة الى اهمال العباسيين للأسطول . فتقلص النفوذ البحرى المسلم في بحر الروم الا في بعض العهود (الأغالبة والفواطم) .

هـ ــ أثر موقع العراق على الطرق التجارية الهامة في الحضارة العباسية ، شجع الخلفاء التجارة وانتبهوا في اختيار موقع بغداد للناحية التجارية حتى أضحى المجتمع العباسي تجاريا زراعيا بعد ان كان زراعيا حربيا في العصر الاموى وحتى أضحى " التاجر " على حد قول متز رمز الحضارة العباسية .

* * * * *
* * *
* *

العصر العباسى الأول 132 – 232 هـ 750 – 747

أبو العباس السفاح : 132 – 136 هـ ، 750 – 754 م : هو ابو العباس عبد الله (بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب) الذى غلب عليه لقب السفاح وقد استمرت خلافته أربع سنين (132 – 136 هـ ، 750 – 754 م) قصد الكوفة مع اسرته بعد ان قبض عامل مروان على اخيه ابراهيم الامام في الحميمة وسيره الى حرّان حيث انتهت حياته . هذا ولنشر الى ان تقديمه بالخلافة على أخيه أبى جعفر المنصور كان لأنه من أم عربية بينما كانت أم المنصور أم ولد مع انه كان أكبر من أخيه سنا .

انتقل السفاح من الكوفة الى الحيرة ثم انتقل سنة 134 هـ الى مدينة الانبار واتخذها حاضرة لخلافته . والأنبار مدينة تقع غربى الفرات بينها وبين بغداد عشرة فراسخ وكانت قد بنيت في عهد ملوك الفرس فقام السفاح بتجديد ما تداعى من بنيانها وشيد فيها القصور كما بنى بجوارها قصرا للمنصور جعله هذا الخليفة دار الخلافة وأطلق اسم الهاشمية (نسبة) الى هاشم جد تلك الاسرة) على تلك المدينة .

لم تستقر الأمور لأبى العباس السفاح بمجرد أخذه البيعة لنفسه بالكوفة فكان عليه التغلب على مروان بن محمد واستخلاص بلاد الشام ومصر والحجاز والشمال الافريقى من عمال الامويين كما كان يتحتّم عليه ملاحقة أشياع الأمويين وجعل شيعة أولاد علي يرضخون للأمر الواقع ويعترفون بخلافة بنى عمهم أحفاد العباس بن عبد المطلب . هذا علاوة عن محاولة التخلّص من بعض الذين ساعدوا العباسيين في اقامة صرح خلافتهم أمثال أبى سلمة الخلال ، ومحاولته القضاء على أبى مسلم الخراسانى . انبرى السفاح لتحقيق تلك الاهداف ونجح في كثير منها كقضائه على مروان وأشياعه وقادته واستخلاصه بلاد الشام ومصر والحجاز من عمال الامويين وادخالها في حوزة العباسيين .

صفاتـــه : كان السفاح جميل الطلعة وسيما كريما حليما وقورا عاقلا كثير الحياء سخيّا وقد اورد المسعودى بصدده ما نصه : " ولم يكن أحد من الخلفاء يجب مسايرة الرجال أمثال أبي العباس السفاح وكان كثيرا ما يقول : انما العجب ممن يترك ان يزداد علما ويختار ان يزداد جهلا ، فقال له ابو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ويدخل الى امرأة او جارية ، فلا يزال يسمع سخفا ويروى نقصا . فقال له الهذلى : لذلك فضّلكم الله على العالمين وجعل منكم خاتم النبيين " .

اهتم هذا الخليفة بالأدب والغناء فأجزل صلاته للشعراء والمغنيين وكان يغدق عطاءه لندمائه ولا يجعلهم ينصرفون قبل نوال جوائزهم وكان يقول : لا يكون سرورنا معجلا ومكافأة من

سرنا وأطربنا مؤجلا ، وكان هذا الخليفة ، على ماأرواه المسعودى ، أبسط ما يكون وجهها اذا حضر طعامه فكان أحد المقربين منه (هو ابراهيم بن مخرمة الكندى) اذا رغب أن يسأله حاجة أخرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله فقال له السفاح يوما : "ياابراهيم ما دعاك ان تشغلنى عن طعامى بحوائجك ؟ قال يدعونى الى ذلك التماس النجح لما اسأل . قال أبو العباس : انك لحقيق بالسؤدد لحسن هذه الفطنة .

لم ينغمس السفاح في الملذات فلم تكن له سوى زوج واحدة هي أم سلمى فلم يعدد الزوجات لا بل لا بل لم يتسر بجارية على الرغم من انتشار هاتين العادتين في ذلك العصر انتشارا مريعا . وكان لزوجه تأثير عليه .

ملاحقة الأمويين والقضاء على من بقى منهم حيا ونبش قبور موتاهم : بعد ان قتل مروان بن محمد في كنيسة ابى صير في مصر (قتله وحز رأسه عامر بن اسماعيل) وقبض على بناته وأرسلن الى حران .

قام عبد الله بن علي عم الخليفة السفاح بقتل اكثر من ثلاثمائة من وجوه الأمويين ثم قبض على يزيد بن معاوية بن عبد الملك وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك فاقتيدا الى السفاح الذى أمر بقتلهما وصلبهما.كما قتل عبد الله اكثر من ثمانين من الأمويين على نهر أبى فطرس في فلسطين بعد أن أمنهم على أرواحهم وقتل كذلك سليمان بن يزيد بن عبد الملك بالبلقاء وحمل رأسه الى عبد الله ابن على الذى قام أيضا بنبش قبور الأمويين في دمشق وغيرها من المدن فقد روى المسعودى عن عمرو بن هانىء انه قال : "خرجت مع عبد الله لنبش قبور بنى أمية في أيام أبى العباس السفاح فانتهينا الى قبر هشام فاستخرجناه صحيحا ما فقدنا منه الا خشمة أنفه ، فضربه عبد الله بن على ثمانين سوطا ثم أحرقه ، واستخرجنا سليمان من أرض دابق ، فلم نجد منه شيئا الا صلبه واضلاعه ورأسه ،فأحرقناه وفعلنا ذلك بغيرهما من بنى أمية ، كانت قبورهم بقنسرين . ثم انتهينا الى دمشق فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره قليلا ولا كثيرا واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا الا شؤون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية ، فما وجدنا فيه الا عظما واحدا ، ووجدنا مع لحده خطا أسود كأنما خط بالرماد في الطول في لحده ثم اتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم " ٤

وقد أمر سليمان بن علي بقتل جماعة من الأمويين بالبصرة فقتلوا وجروا من أرجلهم في الطريق كما قتل داهود بن علي كثيرا من الأمويين في الحجاز بعد ان حرضه أحد الشعراء على ذلك .

أرسل رأس آخر خلفاء بني أمية الى السفاح فلما وضع بين يديه سجد ثم خاطب الرأس

قائلا : " الحمد لله الذى لم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك . الحمد لله الذى اظفرنى بك واظهرنى عليك ثم قال : ما أبالى متى طرقنى الموت فقد قتلت بالحسين وبني أبيه من بنى أمية مائتين وأحرقت شلو (جسد) هشام بابن عمي زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخى ابراهيم .

لم يكد غليل الانتقام يبرد في نفس السفاح المتعطّش لإراقة دماء الامويين حتى أتى دور الشعراء الذين حرضوه على قتل من بقي من الأمويين فقد روى صاحب الاغانى ان أبا العباس كان ذات مرة في مجلسه وحوله بنو هاشم ومن بقى من الأمويين فدخل حاجبه يستأذن لحجازى أسود لم يذكر اسمه وقد حلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يرى أمير المؤمنين فقال السفاح هذا مولاى سديف فليدخل فلما دخل ونظر الى أبى العباس وحوله الأمويّون حسر لثامه وأنشد :

أصبح الملك ثابت الآساس	بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها	بعد ميل من الزمان ويأس
لا تقيلن عبد شمس عثارا	واقطعن كل رقلة وغراس
اقصهم أيها الخليفة واحسم	عنك بالسيف شأفة الارجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيدا	وقتيلا بجانب المهراس (1)
والامام الذى بحران أمس (2)	رهن قبر ذى غربة وتناسي

فتغير لون السفاح واصابته رعدة فأدرك الامويون انهم هالكون لا محالة والتفت أحد أولاد سليمان بن هشام بن عبد الملك الى رجل منهم وقال قتلنا والله العبد ثم قال السفاح : " يابنى الفواعل : أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وانتم تتلذذون بالدنيا خذوهم " فقتل سليمان بن هشام ثم أمر الخليفة بمن كان داره من الأمويين (كانوا زهاء سبعين رجلا) فضربوا بالسياط وبسط النطوع عليهم ، وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا فيما عدا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز الذى نجا بعد ان استجار بداهود بن على فأجاره واستوهبه من السفاح .

كما انشد سديف مرة أخرة السفاح قوله :

لا يغرنك ما ترى من رجال	ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى	لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأدى ذلك الى الفتك بمن كان حاضرا عند الخليفة من أمراء بنى أمية . ثم لم ينزل

(1) المهراس ماء في جبل أحد بجوار المدينة اشارة الى مصرع حمزة بن عبد المطلب عم الرسول في غزوة أحد بيد وحشي بتحريض هند زوجة أبى سفيان ثأرا منها لمقتل أخويها في غزوة أحد .

(2) هو ابراهيم الامام أخو السفاح الذى قتله مروان في حران .

الخليفة يتعقّب امراء بنى أمية حتى تم له ما أراد من قتلهم باستثناء عدد قليل كان من بينهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذى فرّ الى الاندلس وأسس الدولة الأموية على النحو الذى سنراه عند كلامنا عن خلافة المنصور. ثم لم يلبث السفاح أن أصدر أمانا لمن بقي منهم على قيد الحياة وبيان ذلك ان من نجا من الأمويين من انتقام السفاح توارى عن الانظار وأخذ ينتقل بين القبائل العربية .

أصدر السفاح ذلك الأمان لمن بقى من بنى أمية ولكن بعد فوات الأوان لأن عبد الرحمن بن معاوية كان قد فرّ الى الاندلس حيث سيقوم بتأسيس الدولة الأموية فيها .

وقد أدّى تنكيل العباسيين بالأمويين ونبش قبور موتاهم والتمثيل بجثثهم وحرق عظامهم الى ظهور بعض الاضطرابات والفتن في عهد السفاح في أماكن عديدة من بلاد الشام فخرج أشياع الأمويين وأعوانهم في دمشق وحمص وقنسرين وفلسطين والعراق لكن الخليفة نجح في القضاء على تلك الحركات قبل استفحال خطرها فخلد الثوار الى السكينة بعد ان بذلت لهم الوعود بعدم مسهم بأذى . ونحن نرى أن الأمان الذى أصدره السفاح لمن بقى من الأمويين بعد توسّط عمه سليمان بن على كان ذا أثر في حمل الثوار على الاستسلام .

مصير أبى سلمة الخلال وسليمان بن كثير الخزاعى : رأينا أثناء كلامنا عن الدعوة العباسية أن رئيس مركز الكوفة كان حفص بن سليمان الملقب بأبى سلمة الخلّال وقد غلب عليه لقب وزير آل محمد. كما رأينا كذلك ان التردّد بدأ عليه بعد حضور السفاح وآله من الحميمة الى الكوفة لدرجة انه راسل ثلاثة من زعماء العلويين في الحجاز غير أنه في النهاية أجبر على اشهار أمر السفاح وذويه بعد ان علم بوصولهم أكثر أشياعهم في الكوفة . وقد ترك موقف أبى سلمة في نفس السفاح أثرا سيئا فبعد ان بويع بالخلافة وتوطدت دعائم ملكه وتخلّص من بقايا الأمويين وأشياعهم عول على الانتقام من أبى سلمة جزاء محاولته تحويل الخلافة الى الطالبيين .

دبّرت مؤامرة للتخلص من أبى سلمة وأشياعه وعماله الذين كانوا بفارس ، فأوفد السفاح أخاه أبا جعفر الى خراسان لاطلاع أبى مسلم الخراسانى على ما كان من أبى سلمة عند حضورهم الى الكوفة وقرار الخليفة بوجوب الفتك به فأخذ أبو مسلم على عاتقه مهمة قتله وأرسل من لدنه رجلا الى الكوفة اغتال أبا سلمة عندما كان خارجا من عند الخليفة وأشيع ان الخوارج هم الذين قتلوه كما قام أبو مسلم بالقضاء على جميع عمال أبى سلمة وأنصاره الذين كانوا في خراسان .

كما عمد أبو مسلم الى الفتك بشيخ دعاة خراسان سليمان بن كثير الخزاعى لاصقا به تهمة غشّ الامام والميل الى الطالبيين وكان قتل سليمان بن كثير في الفترة التى كان السفاح وجّه فيها أخاه أبا جعفر الى خراسان لأخذ البيعة لأبى جعفر ولابن أخيه

عيسى بن موسى فاستاء أبو جعفر من أبي مسلم وحث أخاه على قتله قائلا له ، " اطعني واقتل أبا مسلم فوالله ان في رأسه لغدرة " لكن السفاح لم يلب طلبه أخيه . حال البلاد الاسلامية عند قيام الدولة العباسية : كانت البلاد الاسلامية في نهاية حكم الأمويين وعند القضاء على دولتهم وتحوّل الخلافة الى العباسيين تشمل المناطق الواقعة بين كاشغر (حدود الصين الشمالية الغربية) شرقا والسوس الأقصى (في مراكش) على ساحل المحيط الأطلسي غربا وبين شواطئ بحر قزوين شمالا والاجزاء الجنوبية من بلاد النوبة (جنوبي مصر) جنوبا . وكانت هذه المملكة الشاسعة المترامية الأطراف مقسّمة الى اثنى عشر من الاقاليم ـ الولايات ـ.

فلما تولّى السفاح أدخل بعض التعديل على تلك الولايات فصل أرمينيا وأذربيجان عن الجزيرة جاعلا منها ولايتين (بعد أن كانتا ولاية واحدة) كما ضمت صقلية لولاية افريقيا التي استمرت خاضعة لاشراف والي مصر عليها الى ان استقل بتلك البلاد داخليا ابراهيم بن الأغلب في عهد الرشيد ، كما فصل السفاح فلسطين عن الشام وجعل منهما ولايتين .

ونظرا لأن السفاح لم يكن قد وثق بعد بعمّال الولايات وجد نفسه مضطرا لأن يسند ادارتها الى من يثق بهم اقربائه أو ممن ساهموا مساهمة فعّالة في تشييد صرح الدولة الجديدة وأشهر من اسندت اليهم ادارة الولايات في عهده أخوه أبو جعفر الذى أوكلت اليه ادارة العراق (القسم الشمالي أي ولاية الموصل) وأرمينيا وأذربيجان ، وعمّه عبد الله بن علي الذى ولي بلاد الشام وعمه داهود بن علي وقد أسند اليه الحجاز واليمن واليمامة وعمه سليمان بن علي الذى ولاه الخليفة البصرة وملحقاتها وأبو عون الأزدى وقد تولى مصر وأبو مسلم الخراساني وقد ولي خراسان والمشرق .

ويبدو جليا ان الخليفة قام بجمع اكثر من ولاية واحدة لبعض هؤلاء الولاة وحرى بالذكر ان الزعماء الثلاثة (المنصور وعبد الله بن علي وأبا مسلم الخراساني) كانوا أبرز رجالات الدولة في عهد السفاح غير أنهم لم يكونوا مخلصين في علاقاتهم بعضهم ببعض فكان الألم يحز في نفس أبي جعفر لسيطرة أبي مسلم على أخيه السفاح الذى انتقد رأى الخراساني عندما استشاره في مسألة الأمان الممنوح ليزيد بن عمر بن هبيرة الذى كان محاصرا في واسط ، وقد رأينا عند كلامنا عن الدعوة العباسية ان أبا مسلم أشار على السفاح بنقض أمانة وقتل يزيد بن هبيرة خلافا لما كان يراه أبو جعفر ، وهذا في زعمنا من بين الأسباب التى جعلت أبا جعفر يتبرم بسلطة أبي مسلم ويطلب من أخيه قتله .

وذكر أبو حنيفة الدينوري أن نفوذ أبي مسلم لم يكن مقتصرا على خراسان حيث تمتع بحب الخراسانيين الذين أطاعوه طاعة عمياء بل عم نفوذه العاصمة (الهاشمية) نفسها لدرجة أن السفاح لم يكن يبت في أمر دون استشارته . وروى ابن قتيبة أنه كان

للخراساني عين على الخليفة وهو أبو الجهم بن عطية الباهلي كلّفه أبو مسلم أن يكتب اليه بجميع أخبار الخليفة . هذا فضلا عما أورده الجهشياري في كتابة الوزراء والكتاب بأنه عندما " ثقلت وطأته على أبي العباس وكثر خلافه اياه وردّه لأمره استنصح الخليفة خالدا البرمكي فأشار عليه بأمر فيه اضعاف لجيش الخراساني وقد تمّ ذلك ، وسرّ له أبو العباس " — ثم رغب السفاح أن يضعف أبا مسلم بأن يحرّض سرّا الثورة عليه في خراسان فعهد لوالي ما وراء النهر زياد بن صالح بأن يثور في وجهه وأوعز اليه ان سنحت له فرصة مواتية أن يقتل أبا مسلم . لكن هذه الثورة التي نشبت سنة ١٣٥ سرعان ما قمعها أبو مسلم بسرعة ، على الرغم من الكتاب الذي يحمله زياد من الخليفة بتوليته خراسان .

ولا بد من الاشارة الى أن السفاح نفسه مع عدم اظهاره الجفاء لأبي مسلم بصورة سافرة كان يشعر بازدياد نفوذ الخراساني ويحاول من طرف خفّي ان يحدّ منه وان لم يكن يجرؤ آنذاك على قتله خشية من أشياع أبي مسلم وكانوا على جانب عظيم من القوة فصار يتحيّن الفرص المواتية لاضعاف أهمية ذلك الزعيم ومن قبيل ذلك ان أبا مسلم رغب سنة ١٣٦ هـ الشخوص الى الأنبار لمواجهة السفاح فاستأذنه في الحج فكان طبيعيا أن يوليه الخليفة امرة حجّ ذلك العام (أي قيادة قافلة الحج في ذلك العام نيابة عن الخليفة) لكن الخليفة أوعز خفية لأخيه أبي جعفر ان يستأذن كذلك في الحج في نفس العام ليأذن له ولتسند اليه امرة الحج (كان طبيعيا ان يرجّح أخو الخليفة على أبي مسلم في تسلّم قيادة قافلة الحج) عوضا من اسنادها لأبي مسلم . وقد تمكن السفاح بتلك الحيلة من اضعاف نفوذ الخراساني بجعله يسير في لواء أمير الحج ذلك العام وهو أبو جعفر . غير ان الحيلة لم تنطل على أبي مسلم (على الرغم من أنه لم يظهر اشمئزازه أو تبرّمه) فقد روى انه قال ما يلي عند ما بلغه عزم أبي جعفر على الحج في ذلك العام :

" أما وجد أبو جعفر عاما يحجّ فيه غير هذا " . فلما قدم الخراساني على السفاح قال له الخليفة " لولا ان أبا جعفر استأذنني في الحج هذا العام لولّيتك الموسم " لكن أبا مسلم الذي كان يتقدم في الطريق على موكب أبي جعفر حرص على ينفق عن سعة مظهرا كرمه استصغارا لشأن أمير الحاج (عرف أبو جعفر بميله الى التقتير فكان اسراف أبي مسلم في عطاء من لقيه من العرب تحقيرا لأخي الخليفة الذي كان بذله لهم أقلّ من صلات أبي مسلم) وكان ذلك من أسباب ازدياد الجفاء بين أبي جعفر وأبي مسلم على نحو ما سنفصله عند كلامنا عن خلافة الأول .

أما عبد الله بن علي عمّ الخليفة فكان يرى انه أجدر امراء العباسيين بالخلافة بعد السفاح وكان يطمع في أن يوليه الخليفة عهده للدور الحاسم الذي قام به في تأسيس الدولة العباسية فإليه يعود الفضل في القضاء على آخر خليفة أموي وفي اخضاع بلاد الشام

معقل الأمويين لسلطة السفاح ولذلك لما ولّى السفاح عهده أخاه أبا جعفر وابن أخيه عيسى بن موسى تألّم عبد الله لجحود حقّه في الخلافة وعدم مكافأته على بلائه الحسن في توطيد دعائم الخلافة الناشئة وسنرى انه سيدعو لنفسه في بلاد الشام في أول عهد المنصور.

الاصلاحات الداخلية : لم يجد السفاح متسعا من الوقت للقيام باصلاحات داخلية فاقتصر عمله على تنظيم طريق الحج بين الكوفة ومكة فضرب المنار والأميال بينهما فكان الطريق يمسح بالذراع الهاشمية وعند تمام الميل يوضع حجر وعليه رقم الميل (١ ، ٢ ، ٣ ، ..... الخ) كما جعل المنار في ذلك الطريق وذلك منعا لضلال السارين الذين كانوا يهتدون بالنور المنبعث من المنار في تلك الفيافي .

وقد قلّد السفاح خالد بن برمك وزارة الشؤون المالية كما استوزر أبا سلمة الخلال قبل القضاء عليه .

ولاية العهد ووفاة الخليفة : ولّى السفاح سنة ١٣٦ هـ عهده أخاه أبا جعفر كما جعل ابن أخيه عيسى بن موسى (ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب) ولي العهد الثاني ولم يتفطن بما سببه نظام ولاية العهد الثنائية من فتن في أيام الأمويين . وقد كتب الخليفة عهده وختمه بخاتمة وأختام أهل بيته وسلّمه الى عيسى بن موسى وكان ذلك اثناء غياب أخيه أبي جعفر في الحج ثم مرض السفاح بالجدري وتوفي في الأنبار ودفن فيها ولكن قبره لم يشهر وذلك حذرا من انتقام أحد الأمويين منه واخراج جثمانه وحرقه كما فعل بهشام وغيره.وكانت وفاة السفاح في ١٣ ذي الحجة ١٣٦ بعد أن دامت خلافته أربعة أعوام فقام عيسى بن موسى (ولي العهد الثاني) يأخذ البيعة لأبي جعفر الذي أبلغ نبأ وفاة أخيه وبيعته بالخلافة اثناء عودته من الحج .

المنصور ١٣٢ – ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ – ٧٧٥ م

نشأته وصفاته واهتمامه برعيته ومراقبته عمّاله : هو أبو جعفر عبد الله (بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب) وقد لقّب بالمنصور وكانت ولادته بالحميمة بجوار العقبة سنة ١٠١ هـ وكانت أمه أم ولد تدعى سلّامة ، وقد نشأ فصيحا بليغا واقفا على سير الملوك والأمراء وكان خير معوان لأخيه السفاح في توطيد دعائم الخلافة الجديدة لدرجة حملت كثيرا من المؤرخين على اعتباره المؤسس الحقيقي للخلافة العباسية فهو كعبد الملك بن مروان بالنسبة للأمويين . وكان السفاح قد انتدب أخاه لمهامّ كثيرة منها القضاء على مقاومة يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط كما أوسد اليه ولاية شمالي العراق والجزيرة وأرمينيا وأذربيجان .

أحبّ المنصور النظام في سائر أعماله فكان يشرف صدر النهار على أمور دولته ويجلس عقب صلاة العصر مع أهل بيته وكان ينظر بعد صلاة العشاء فيما ورد عليه من كتب الولايات والثغور ويستشير بصددها وزيره ومن كان حاضرا من كبار موظفيه . وكان سماره ينصرفون اذا انقضى الثلث الاول من الليل فيقوم الخليفة الى فراشه حيث ينام الثلث الثاني ثم ينهض ويتوضأ ويصلي في محرابه حتى مطلع الفجر حيث يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل ويجلس في ايوانه ويعود الى استئناف أعماله كاليوم السابق . ولم يعرف عنه انه مال الى اللهو والعبث لا بل كان على العكس كثير التفقّد لشؤون رعيته والوقوف على سائر أخبار بلاد دولته الواسعة فكان يقول : ما أحوجني الى أربعة نفر لا يكون على بابي أعفّ منهم ، فقيل له من هم يا أمير المؤمنين ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهم كما أن السرير لا يصلح الا بأربع قوائم ان نقصت واحدة تداعي وهم قاض لا تأخذه في الله لومة لائم وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى وصاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها غنيّ والرابع ثم عضّ على أصبعه السبابة ثلاث مرات ويقول في كل مرة آه . فقيل له ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال صاحب بريد يكتب اليّ بخبر هؤلاء على الصحّة .

وقد روى أنه عزل واليا كان ولاه حضرموت لان عامل البريد كتب له ان ذلك الوالي يكثر من الخروج الى الصيد فيعيقه ذلك عن الاهتمام بشؤون الرعية . كما روى ان عمال البريد في الامصار الاسلامية كانوا يكتبون له في كل يوم عن سعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كلّ مأكول وبما يقضى به القاضى وبما يقوم به الوالى وبما يرد بيت المال وكلّ حدث وكانوا يكتبون حوادث النهار اذا صلوا المغرب فاذا وردت كتبهم نظر فيها فان وجد الأسعار على حالها امسك وان وجد بعض التغيير كتب الى الوالى العامل هناك وسأل عن العلّة التى نقلت ذاك عن سعره فاذا ورد الجواب بالعلّة تلطّف لذلك برفق حتى يعود السعر الى حاله وان شكّ في شيء مما قضى كتب اليه يوبّخه ويلومه .

لكن تلك الصفات الحميدة لا تحجب بعض العادات الرديئة التى شهر بها ذلك الخليفة وأقبحها غدراته الثلاث التى أخذت عليه وهي غدره بيزيد بن عمر بن هبيرة وقتله بعد منحه الآمان وغدره بعمّه عبد الله بن على وأبى مسلم الخراسانى على نحو ما سيأتى تفصيله فيما يلى ، وان يكن غدره انه كان يريد القضاء على مناوئيه وتوطيد دعائم الحكم لمن سيأتى بعده من الخلفاء . هذا ولنضف انه كان قد تزوج من أروى بنت منصور الحميرى وهي أم ولديه محمد وجعفر الاكبر وكانت قد اشترطت عليه ألا يتزوج عليها ولا يتسرّى فقبل بشرطها في كتاب أكدته واشهدت عليه شهودا وبقيت عنده عشر سنين من خلافته فكان طيلة تلك المدة يستفتي الفقهاء ويفتش عن مخرج لكنه لم يتمكن من ذلك وبقيت تلك الزوجة وحيدة الى ان توفيت فتزوج المنصور من عدة نساء .

كان هذا الخليفة يميل الى الاقتصاد في النفقات ولا يصل الشعراء بصلات جزيلة فيروى ان ابنه ولي العهد أمر لأحد الشعراء بعشرين ألف درهم استردّها المنصور مكتفيا بمنحه أربعة آلاف درهم من أصلها . وكان حريصا على جمع المال وأحرص منه على انفاقه حتى ضرب المثل بشحّه فدعي بأبي الدوانيق وبالمنصور الدوانيقي وذلك لتشدّده في محاسبة العمال والصناع على الحبّة والدانق (سدس الدرهم) ، وقد ظهر ذلك منه أثناء بنائه مدينة بغداد . وكان يرتدي الخشن من الثياب وربما رقّع قميصه . لكن ذلك يجب ألا ينسينا مزاياه الحميدة التى أتينا على بيان قسم منها والتى نختتمها برأي المسعودي فيه : " .... وكان من الحزم وصواب الرأى وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف . وكان يعطي الجزيل والخطير ما كان اعطاؤه حزما ويمنع الحقير اليسير ما كان اعطاؤه تضييعا ... " ورأى صاحب الفخرى الذى قال كذلك : " كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم ، وذوى الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة وقورا شديد الوقار ، حسن الخلق في الخلوة .. "

هذا ويجب ألا يفوتنا ونحن في معرض الكلام عن صفات ذلك الخليفة العظيم انه كان لرعيته مثلا يحتذى في اطاعة القوانين فروى ان قاضي المدينة استدعاه ذات مرة ليحقّق معه في قضية رفعت عليه من قبل أحد أصحاب الجمال فقدم الخليفة بنفسه وليس معه سوى حاجب ومثل كأبسط فرد من الرعية بين يدى القاضي الذى حكم عليه دونما وجل فلم يكن من المنصور الا ان أثنى على نزاهة القاضي ووصله بمبلغ من المال .

الطريقة التى كان المنصور يريد ان يحكم بموجبها وموقفه من عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني والعلويّين : كان موقف المنصور من أفراد أسرته والعرب عامة الذين كان يتزعمهم في الدولة الجديدة عبد الله بن علي عمّ الخليفة وموقفه من الخراسانيين وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني وموقفه من الطالبيّين الذين كان يترأسهم محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية حرجا جدا . فكان كل من هذه العناصر الثلاثة يريد ان يكون المهيمن على شؤون الخلافة الجديدة وان ذهب العلويّون الى أبعد من ذلك ففكّروا بوجوب القضاء على تلك الدولة الناشئة وهي في دور التأسيس قبل ان يصلب عودها . بينما كان العرب راغبين ببقائهم مستأثرين بالسلطة الى جانب الخلفاء كما كانت الحال أيام الأمويّين على حين كان الخراسانيون أو بكلمة أوسع الموالي الفرس يرون أن الخلافة العباسية قامت على سواعدهم وانها تدين لهم بوجودها فليس أقل من ان يتمتعوا في ظلّها بالنفوذ الكبير وان ترجح كفّتهم فيها على كفّة العرب بعد ان عانوا من هؤلاء في ظل الأمويين ذلّ الاستعباد والاحتقار والخضوع .

تلك هي الفكرات الرئيسية التى كانت تجول في مخيّلات كل من هذه العناصر الثلاثة في عهدى السفاح والمنصور . ولكن لقصر عهد الخليفة الأول واهتمامه بملاحقة فلول

وأشياع الأمويين لم يصطدم بتلك العناصر فترك لأخيه أبي جعفر الذي كان مزمعـــا
ان يقلّل من أهمية هذه العناصر الثلاثة (حزب العرب والموالي والعلويين) وان يبقى
المرجع الاعلى في الدولة وقد حمله ذلك على ان يقتبس عن نظام الحكم عند الساسانيين
فكرة تقديس الملوك أو ما يعبر عنه بفكرة الحقّ الملكي المقدّس وقد رغب من وراء ذلـــك
ان يعتبر أفراد الامة ان الخليفة يحكم بفضل الله ولا يستمد سلطاته من الشعب ، وان
يعتبر المسلمون استيلاء أى فرد من غير البيت الحاكم على الملك اغتصابا لحق غيره .
فالمنصور هو أول خليفة مسلم قال عن نفسه : " انما أنا سلطان الله على أرضه " ، وكان
يريد ان يحكم بصورة مطلقة وألا يسأل عما يفعل فليس لفرد من الرعية ان يسأله حسابـا
على ما قدمته يداه ، بل على العكس من تحدّثه نفسه بالخروج عليه فستكون عاقبته الهلاك
وهذا ما أورده هو نفسه في خطبة له قالها غداة مقتل أبى مسلم الخراسانى وقد جاء فيها
" ان من نازعنا هذا القميص (الخلافة) أوطأناه ما في هذا الغمد ، وان أبا بايعنـا
وبايع لنا ، على انه من نكث بيعتنا أباح دمه لنا . . . "

وبعد أن رأينا وجهات نظر العناصر الثلاثة (العرب والموالى والعلويين) ورأى
المنصور في الطريقة التى يرى أن يحكم بموجبها كان طبيعيا ان يصطدم هذا الخليفـة
بسائر هذه العناصر لكنّه برهن عن ذكائه النادر لأنه لم يشتبك بها في نفس الوقـت
بل عمد في أول الأمر الى القضاء على عمه عبد الله بن علي مستعينا بأبى مسلم والخراسانية
ثم فتك بأبي مسلم وأخيرا قضى على مناوئيه من العلويين بواسطة ولي عهده (عيسى بـن
موسى) . وكان المنصور يرمي اعداءه بعضهم ببعض ولا يبالى على حدّ تعبيره " أيهم
قتل صاحبه " . وبعد ان نجح في كل ذلك قام باجبار ولي العهد على خلع نفسه ليولّي
عهده ابنه المهدىّ وسنفصّل فيما يلى موقفه في مختلف تلك المراحل .

آ ــ ثورة عبد الله بن علي وقمعها : وجّه عيسى بن موسى قبل عودة المنصور من الحـج
الى عبد الله بن علي ، وكان بالقرب من حلب ، ان يبايع للخليفة الجديد فجمع فجمـع
عبد الله قواده وقال لهم بأن السفاح قد قال عندما عزم على ارسال جيش للاشتبـاك
بمروان : " من انتدب منكم للمسير اليه فهو ولّي عهدى ، وانه لم ينتدب لهذا الأمــر
أحدا غيرى " . وقد بايع القواد عبد الله الذى زحف على حرّان واستولى عليهـــا
بعد مقتل واليها . فلما عاد المنصور من الحج وذهب الى حاضرته الأنبار سيّر أبا مسلم
لاخضاع عمّه وقد قال الخراسانى للخليفة " لا تخفه فأنا أكفيكه ان شاء الله ، وانمـــا
عامّة جنده من أهل خراسان وهم لا يعصوننى " .

شعر عبد الله بحراجة موقفه عند ما علم بتوجيه الخليفة أبا مسلم لقتاله فكان يخشـى
خيانة الخراسانيين الذين كانوا في معيّته . وقد روى المؤرخون انه أراد التخلــص
منهم وقتل قسم كبير منهم لا بل أراد الفتك بأحد كبار القادة الذين كانوا معه وهو حميد
ابن قحطبة (أبوه قحطبة بن شبيب الطائي وهو من الدعاة كما مر بنا) فوجّهه برسالـة

الى والي حلب أمره فيها ان يقتل حميدا عند ما يفد عليه . فقام حميد بفضّ الرسالة بعد مغادرته معسكر عبد الله ولشدّ ما تألم عند ما عرف ان عبد الله طلب من والي حلب ان يفتك به ولذلك سار بمن معه الى الرصافة وانضم جند أبى مسلم كما كان المنصور قد ضم كذلك أخاه الحسن بن قحطبة لجيش الخراساني .

غادر عبد الله بن علي حرّان وأتى نصيبين وعسكر فيها فلما قدم أبو مسلم لاحظ مناعة معسكر عبد الله وانه صعب المنال فعمد الى الحيلة ليزحزحه عن ذلك الموقع الهام فأرسل له كتابا ورد فيه " اني لم أؤمر بقتالك ولم أوجّه له ، ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام فأنا أريدها " . دبّ الخلاف اذ ذاك في معسكر عبد الله لأن أهالي الشام أبو البقاء في نصيبين وعزموا على العودة " ولكننا نخرج الى بلادنا فنمنع حرمنا وذرارينا ونقاتله ان قاتلنا " .

لم تنطل الحيلة على عبد الله وأفهم قادته وجنده أن أبا مسلم انما وجّه لقتالهم لكنهم أبو الرضوخ لأمره فاضطر مرغما الى اجابتهم وغادر معسكره المنيع وارتحل ميمّما شطر الشام فلم يلبث أبو مسلم ان احتّل موقعه فلما بلغ الخبر عبد الله لم يجد مناصا من العودة والنزول في المكان الذى كان أبو مسلم قد غادره . كما خدع أبو مسلم عبد الله في المعركة التى دارت بين الفريقين في جمادى الآخرة سنة 137 وقد هزم عبد الله وفرّ الى العراق حيث لجأ الى أخيه سليمان بن علي والي البصرة وبقى متواريا عنده مدة ثم بايع عبد الله المنصور سنة 138 وكان أخوه لا يزال على ولاية البصرة فلما أقيل من منصبه توارى عبد الله فألحّ المنصور على سليمان وعيسى بن موسى بوجوب احضاره واعطاهما الأمان له . فلما مثل بين يدى الخليفة سنة 139 سجنه في قصر بالقرب من الهاشمية (هي مدينة الأنبار مع ما أضافه اليها المنصور — القصر الذى بناه فيها —) كما نقله فيما بعد هو وآل بيته الى دار ، وكان المنصور كما يروى بعض المؤرخين قد جعل أساسها على الملح فلما هطلت أمطار غزيرة انهارت الدار وتهدّمت على ساكنيها الذين قتلوا سنة 147 (ويروى آخرون أن موت عبد الله كان سنة 149) وبذلك تخلّص المنصور من أول مناوئيه الذين كان يرى في حياتهم خطرا عليه وعلى خلافته .

ب ــ قتل أبى مسلم الخراساني : لم يكن المنصور حتى قبل خلافته يميل الى أبى مسلم وقد رأينا أنه نصح أخاه السفاح بوجوب قتله ، فلما آلت الخلافة اليه كان طبيعيا ان يسعى جاهدا الى التخلص منه لا سيّما وكان الخراسانى يشعر بأن له اليد الطولي في قيام الخلافة العباسية فليس أقل من بقائه متمتعا بنفوذ واسع يجعل منه ثاني شخصية في الدولة بعد الخليفة نفسه . وكثيرا ما حمل هذا الشعور أبا مسلم على الاستخفاف في بعض المناسبات بالأوامر الصادرة اليه من الخليفة نفسه ان رأى فيها مساسا بمركزه

لان بلاءه في تأسيس الدولة يحتّم على المنصور ألا يستحمل معه لهجة الأمر بل لهجة الندّ للندّ . فبديهي والحالة هذه أن تتأزّم علاقات الخليفة به وكانت بصورة لا تقبل الشك مبنية على الغشّ والحذر . فلما قضى أبو مسلم على حركة عبد الله بن علي أرسل المنصور اليه رسولا ليقوم باحصاء ما استولى عليه من غنائم معسكر عبد الله بن علي فاستشاط الخراساني غضبا وهمّ بقتل الرسول وقال : " أأكون أمينا على الدماء خائنا في الأموال ؟ " وعزم على العودة الى خراسان حيث لا قبل للخليفة أن يناله فيها بأذى بينما كان الخليفة راغبا ان يحول بين أبى مسلم وبين تنفيذ ما عزم عليه فأرسل اليه كتابا ولاه فيه مصر والشام " حتى تكون بقرب أمير المؤمنين فان أحبّ لقاءك أتيته من قرب " فلما استلم أبو مسلم كتاب التولية انفجرت مراجل غضبه وقال " هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي " وفكّر باللحاق بخراسان ليكون بمنجاة من انتقام الخليفة وكتب له كتابا ينمّ عمّا بجيش في صدره من شعور بقوته وادلال بمركزه واعتباره نفسه مساويا للخليفة وقد جاء في كتابه الذى رواه الطبرى ما نصه : " انه لم يبق لأمير المؤمنين ، أكرمه الله ، عدو الا أمكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك ساسان ، أن أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت حريّون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة . فان أرضاك ذاك ، فأنا كأحسن عبيدك فان أبيت الا ان تعطي النفس اراداتها ، نقضت ما أبرمت وفي عهدك ضنّا بنفسي "

شعر الخليفة بتحرّج الموقف لكنه لم يكن ممن يتراجعون بسهولة عن خطة أقرّوها فوجد ضروريا ان يتذرّع بشتى الوسائل — اللين والا فالتهديد الصريح — لكي يثنى أبا مسلم عن عزمه بجعله يأتي الى حاضرة الخلافة ليقابله فأرسل من لدنه وليّ العهد ومعه جميد المرورودى وقد زوّد الأول برسالة مكتوبة كما حمّل الثاني أمرا شفهيا أوعز اليه ألا يفاتح به أبا مسلم الا آن وجده مصّرا على المضيّ لخراسان أما ما جاء في الرسالة المكتوبة فهو مايلى : " فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم . الذين يتمنّون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فانما راحتهم في انتثار نظام الجماعة فلم سوّيت نفسك بهم ؟ فأنت طاعتك ومنا صحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس مع الشريطة الأخرى التي أوجبت منك سماع ولا طاعة . وحمّل اليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن اليها ان اصغيت اليها ، واسأل الله ان يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبّه من الباب الذى فتحه عليك ".

أما الرسالة الشفهية التى أمر المرورودى ابلاغها أبا مسلم ان وجده قد رفض الانصياع لأوامر الخليفة ففيها تهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور وتأكيد بان أمير المؤمنين

يقول له بأنه ليس للعباس " وأنا بريء من محمد ان مضيت ولم تأتني ان وكلت أمرك لأحد سواي " وأكّد له ان الخليفة عوّل على القضاء عليه ولو خاض البحر واقتحم النار حتى يقتله أو يموت " .

وكان المنصور قبل ذلك كتب الى نائب أبي مسلم في خراسان وهو أبو داود يمنحه تلك الولاية مدة حياته وقد ضمن بذلك ولاءه وانحيازه الى جانبه وعدم تأييده أبا مسلم ان لم يجد التهديد فتيلا . لا بل أراد المنصور من وراء ذلك ان يضعف من شأن أبي مسلم في عقر داره وفي الولاية التي كان يظنّ انها خالصة له من دون سائر الناس . فلم يكن من الوالي الجديد بعد ان بلغه عزم أبي مسلم على الحضور الى خراسان (هذا قبل تسلّمه رسالة عيسى بن موسى وسماعه لتهديد المروروذي الا ان كتب رسالة جاء فيها " انّا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيّه صلى الله عليه وسلم فلا تخالفنّ امامك ولا ترجعنّ الا باذنه " .

استلم أبو مسلم هذه الرسالة في نفس الوقت الذي وصلته فيه رسالتا المنصور (الكتابية والشفهية) فارتج عليه وضاقت عليه السبل فلم يجد مناصا من السير الى المنصور الذي كان امعانا في الحيطة أمر افراد حاشيته ورجال بني هاشم ان يحسنوا استقبال الخراساني . فلما هذا الأخير بين يدي الخليفة لم يرما يريبه وهشّ له الخليفة وبشّ ولم تبد منه أيّة بادرة تنمّ على ما كان مزمعا تنفيذه من الفتك به . أمر المنصور أبا مسلم ان يذهب الى الحمام ليستريح من وعثاء السفر فلما انصرف من حضرة الخليفة استدعى هذا الأخير صاحب شرطته (عثمان بن نهيك) ودبّرا مؤامرة للتخلّص من أبي مسلم فلما كان الغد وعاد الخراساني الى قصر الخلافة كان المنصور أكمن له صاحب شرطته ومعه ثلاثة افراد (من بينهم شبيب بن واج المروروذي وأبو حنيفة حرب بن قيس) من جنده وراء الرواق وأمرهم ان يدخلوا ويقتلوا أبا مسلم عندما يصفّق . سأل الخليفة الخراساني عن نصلين كان قد حصل عليهما بين غنائم عبد الله بن علي فأجاب أبو مسلم بأن احدهما معه وقدمه المنصور الذي تناوله وهزّه ثم وضعه تحت فراشه وذلك امعانا في الحذر ثم بعد ان عاتبه (1) صفّق فدخل ابن نهيك ومن معه وقتلوا أبا مسلم وكان ذلك في الخامس والعشرين من شعبان 137 هـ .

قام المنصور بعد ذلك بتوزيع الجوائز على القواد والجنود الذين كانوا بمعية أبي

---

(1) وجّه المنصور لأبي مسلم التهم التالية : 1 تقدّمه عليه في طريق الحج وعدم انتظاره 2 ــ قتل سليمان بن كثير الخزاعي دون استشارة الخليفة ، 3 ــ أخذه بعض متاع وجواري عبد الله بن علي لنفسه 4 ــ مراوغته ومحاولته الخروج الى خراسان ، 5 تقديم اسمه على اسم الخليفة في الرسائل : 6 خطبته لأمينة بنت علي بن عبد الله العباسي (عمة الخليفة) وانتسابه لسليط بن عبد الله بن العباس ، 7 ــ تدخّله في شؤون ابي العباس السفاح .

مسلم فرضخوا للأمر الواقع . لكن أهالي خراسان تألّموا لمصرع زعيمهم فثار رجل من احدى قرى نيسابور يقال له سنباذ وكان مجوسيا وقد ازداد خطره فوجّه له المنصور عشرة آلاف فارس قضوا على حركته . لكن تلك الفتنة لم تخمد حيث ثار كثيرون مطالبين بثأر أبي مسلم وزعموا انه حيّ لم يمت . وكان أشدّهم خطرا المقنع الخراساني الذى خرج في خلافة المهدى على النحو الذى سيأتى بيانه .

أما في خلافة [illegible] فثار من أتباع أبي مسلم طائفة عرفت بالراونديّة (نسبة الى راوند وهي قرية قريبة من اصفهان وهي مركز دعوتهم) وجد فيهم الخليفة خطرا مزدوجا ، فهم من جهة أتباع خصمه أبى مسلم وقد أخذوا بعد مصرع هذا الأخير يسعون لتحويل الخلافة الى ملك كسروى ، كما كانوا من جهة أخرى زنادقة وطّدوا العزم على ارجاع معتقدات الفرس القديمة يوم كانوا مجوسا . لكن الخليفة لم يمهلم وعاملهم بمنتهى الصرامة والقسوة . وكانت خطّتهم ترمي الى فتنة المنصور نفسه بأن يقرّوا أمامه أنه غير أن الخليفة لم يؤخذ بذلك وألقى بمائتين من زعمائهم في السجن فأحدثوا اضطرابا في العاصمة وهاجموا السجن وأخرجوا رجالهم منه وكان المنصور في تلك الفترة في قلّة من جنده ولكنه لم يتردّد وأراد أن يهبّ لقتالهم وحيدا فتصدى لمنعه معن بن زائدة الشيبانى (وكان متواريا بعد معركة واسط لانه كان من أتباع يزيد بن عمر بن هبيرة ومن ولاة الامويين) فتقدّم بين يدى الخليفة ودافع عنه فحفظ له المنصور تلك اليد ومنحه ولاية اليمن . وقد ظفر معن هووالمنصور بالراوندية .

وقد أورد المدائني والطبرى طائفة من معتقدات الراوندية (1) جاء فيها ما يلى :

" ان رجلا من الراوندية كان يقال له الأبلق ، وكان أبرص ، فتكلّف بالغلّو ودعا بالراوندية ، فزعم ان الروح التى كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبى طالب ثم في الأئمة واحدا بعد واحد الى ابراهيم بن محمد ، وأنهم آلهة ، واستحلّوا الحرمات فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة الى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويبيح لهم المحرّمات ، فبلغ

---

(1) وقد رووا أن المنصور أبدى تساهلا مع الراونديّة الذين ألّهوه وذلك كتسامح دعاة العباسيين من قبل في بعض معتقدات الفرس القديمة حرصا منهم على كسب أكبر عدد ممكن الأنصار . فلما جاهر الراوندية بمعتقداتهم قام المنصور بقمع حركتهم بمنتهى الشدة وهذا ما نستدلّ عليه مما قاله المنصور لأبي بكر الهذيلى (كما ورد في تاريخ الطبرى جـ/6 ص 148) اذ دخل عليه قائلا : انهم ببابك يقولون هذا رب العزّة هذا الذى يطعمنا ويسقينا . فأجابه المنصور ياهذيلي : يدخلهم الله النار في طاعتنا ويقتلهم (أى يدفعون الى النار بعنف) أحب الي من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا " . ومعنى قوله انه خير للخلافة ان يبقوا طائعين لنا ولو أدّى ذلك الى كفرهم فهذا أحسن من أن يحسن اسلامهم (يدخلهم الله الجنة) مع خروجهم علينا

... ذلك أسد بن عبد الله القسري فقتلهم وصلبهم ، فلم يزل ذلك فيهم الى اليوم (المؤرخ توفى سنة ٢١٥ هـ أى في خلافة المأمون) فعبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا الى الخضراء (القبة التي بناها المنصور ببغداد) فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون ، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح فاقبلوا يصيحون بأبي جعفر : انت انت (يعلون أنت الاله) فخرج اليهم بنفسه فقاتلهم ، فأقبلوا يقولون أنت أنت " .

وعلى الرغم من قتل قسم كبير من الراوندية الا انه لم يقض على تلك الفئة من أتباع أبي مسلم القضاء المبرم فلم يلبث خطرهم ان اشتدّ من جديد فثار المقنّع الخراساني أيام المهدى وثار بابك الخرّمي أيام المأمون والمعتصم مما سنراه في حينه .

جـ — موقف المنصور من العلويين وثورة محمد بن عبد الله (النفس الزكية) في الحجاز وأخيه ابراهيم في البصرة : لم ينفك أفراد البيت العلوى طيلة خلافة الأمويّين عن المطالبة بحقهم في الخلافة وكثيرا ما ثاروا على بني أمية وكانوا يلقون كل تأييد من بنى عمهم أحفاد العباس بن عبد المطلب . فلما ظهرت الدعوة العباسية كانت في أول أمرها غامضة اذ كان يدعى الى الرضا من آل محمد فظنّ أولاد علي ان الدعوة ستتّم لواحد من بينهم وبصورة خاصة لمحمد بن عبد الله (بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) الملقّب بالنفس الزكية لا سيما وكان أفراد الهاشميين بفرعيهم العلوى والعباسي قد بايعوه في الحجاز في نهاية الخلافة الأموية . وكنا أوردنا خلال حديثنا عن الدعوة العباسية رأى كلّ من الطبرى وابن الطقطقي اللذين تحدّثا عن البيعة للنفس الزكية .

فلما وضحت مقاصد العباسيين وتمّت البيعة للسفاح امتنع النفس الزكية عن بيعته كما استنكف هو وأخوه ابراهيم عن البيعة للمنصور . ولما حجّ أبو جعفر سنة ١٣٦ هـ بعد أن صارت اليه ولاية العهد (وذلك في آخر سنة من خلافة أخيه) سأل في المدينة عن النفس الزكية وأخيه لأنهما لم يحضرا السلام عليه فيمن حضر من وجوه بنى هاشم ، وقد تعهد له والي المدينة (زياد بن عبيد الله الحارثي) ان يكفيه أمرهما فضمنّهما له وأبقاه في ولايته وقد أبدى الهاشميون المعاذير لعدم حضور النفس الزكية فقال قائلهم " يا أمير المؤمنين قد علم انك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم ، فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافا ولا يحب لك معصية " بينما قال زعيم علوىّ آخر " والله ما آمن وثوبه عليك ، فانه للذى لا ينام عنك فر رأيك " .

أما المنصور فكان يعتقد بأنه لن تستقّر له دولة ولن تستقيم أموره ما بقي النفس الزكيّة وأخوه ابراهيم على قيد الحياة فأخذ يسعى للظفر بهما ، ولما لم يظفر والي المدينة بهما (لا بل يروى انه ساعد سرّا النفس الزكية على الفرار من المدينة) عزله المنصور وولّى مكانه محمد ابن خالد القسرى منيطا به مهمة القبض على الأخوين . ثم حجّ المنصور سنة ١٤٠ هـ

وقام بتحريات عديدة للعثور على الأخوين فلم ينجح فسجن أباهما عبد الله به الحسن وصادر أمواله ولكن ذلك لم يجده نفعا واستمر الأخوان متواريين فعين الخليفة واليا ثالثا (هو رياح بن عثمان بن حيان المري ابن عم مسلم بن عقبة المرى الذى كان قائدا لمعركة الحرة أيام يزيد بن معاوية) كما أمر بالقاء القبض على سائر بني الحسن (أعمام النفس الزكية) وأمعن الوالي في اضطهادهم وأوشك النفس الزكية على الاستسلام لولا ان ثبته أبوه المسجون (ذهبت أمه هند متنكرة الى أبيه في السجن فقال لها هذا الأخير بوجوب جعل ابنها يقلع عن فكرة الاستسلام) ودعاه الى الخروج والدعوة لنفسه ولما حج المنصور سنة ١٤٤ هـ لم يفز من المسجونين بطائل فأرسلهم الى العراق حيث سجنوا مكبلين بالأغلال (كما قبض كذلك على أخيهم لأمهم وهو محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان) في قصر ابن هبيرة شرقي الكوفة . وقد ساءت حالتهم في السجن حتى مات أكثرهم فخرج النفس الزكية في غرة رجب سنة ١٤٥ هـ واستولى على المدينة وكان معه مائتان وخمسون رجلا وقد أوقعه المنصور في شرك نصبه له حيث كان يبعث اليه بكتب عن لسان قادته انهم سيقومون بتأييده عند ما يعلن ثورته فانطلت الحيلة على النفس الزكية وكان قد وجه أخاه ابراهيم الى البصرة وأمره أن يخرج فيها في نفس اليوم ليقع المنصور في حيرة وارتباك فثار قبل ان يتم أخوه في البصرة استعداده للوثوب على العباسيين .

استولى النفس الزكية على المدينة وأخرج المساجين وخطب الناس على منبر الحرم لكن من الثابت انه لم يكن له قبل بالصمود امام قوات المنصور في ذلك الموقع غير الحصين والذى يسهل الاستيلاء عليه . وحرى بالذكر أن ما امام المدينة أفتى بجواز الخروج على المنصور والانضمام الى النفس الزكية مع وجود البيعة في أعناق المدنيين فأجاب من سأله : " انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين " . وكان المنصور يعرف نقطة الضعف في مركز النفس الزكية لأن أهل المدينة لم يكونوا ممن يوثق بهم في القتال . وقد أبى النفس الزكية اطاعة محمد بن خالد القسرى (بعد ان عزله المنصور وولى بدله رياح بن عثمان وقام هذا الأخير بتعذيب سلفه فحقد ابن خالد القسرى على الخليفة وواليه ومال الى النفس الزكية) وطلب منه الذهاب معه الى اليمن وقال له : " انك قد خرجت في هذا البلد والله لو وقف على نقب من انقابه لمات أهله جوعا وعطشا فانهض معي فانما هي عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف " فلم يقبل النصيحة .

أرسل المنصور الى النفس الزكية رسالة يمنحه فيها الأمان له ولذويه ان استسلم قبل ان يتغلب عليه ووعده بمنحه ألف ألف درهم وان يطلق سراح من في سجنه من أهل بيته فأجاب النفس الزكية على تلك الرسالة برسالة أبان فيها حقه بالخلافة وان العباسيين لم ينالوا هذا الأمر الا بهم . وأخذ في رسالته يتهكم على أبي جعفر ويحط من شأنه

ويعيره بأنه ابن أمة (فأنا أوسط بني هاشم نسبا وخيرهم أما وأبا لم تلد ني العجم ولم تعرف فيّ أمهات الاولاد ــ تحقيرا للمنصور الذى كانت أمه أم ولد ــ) كما عيّره بالغدر وأنه لا يوثق بأمانه " فأما أمانك الذى عرضت علي فأىّ الأمانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمان عمّك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم ؟ " .

استشاط المنصور غيظا وردّ على النفس الزكية برسالة جاء في صدرها : " بلغني كلامك وقرأت كتابك فاذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتضلّ به الجفاة والغوغاء . ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء . . " وقد ذكر المنصور فيها أن أولاد علي عجزوا عن طلب ثأرهم من الأمويين ونيل الخلافة فوصل اليها العباسيون بعد ان قضوا على خصومهم (١) .

ثم خرج ابراهيم أخو النفس الزكية في البصرة سنة ١٤٥ هـ وقد استولى على دار امرتها وألحق بحاميتها العباسية الهزيمة وقد لقيت ثورته فيها تأييدا من الفقهاء وعلى رأسهم أبو حنيفة النعمان الذى دعم ابراهيم كما أيّد مالك أخاه محمدا في المدينة ، كما فاز ابراهيم بتأييد فرقتي المعتزلة والزيدية . وقد نجح أخو النفس الزكية في استمالة أهالي واسط والأهواز وفارس الى دعوته . وكان أشد ما يخشاه المنصور بلوغ خروج النفس الزكية وأخيه خراسان حيث كان من جهته قد وتر الخراسانيين بقتله أبا مسلم كما انه من جهة أخرى كان أهالي ذلك القطر أميل بحكم مذهبهم (يغلب التشيع لآل علي على الخراسانيين) لأولاد علي منهم لأحفاد العباس وهذا ما حمل المنصور على الاهتمام بالقضاء على الثورة بأقصى سرعة قبل ان تنتقل الى خراسان فيصعب قمعها .

---

(١) وكثيرا ما استخدم كل من العباسيين والطالبيين الشعراء لدعم حقهم في الخلافة فهذا مروان بن أبي حفصة شاعر العباسيين يقول مخاطبا العلويين مبينا أن حقّ بني العباس في الخلافة أقوى من حق العلويين .

أنّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الاعمام

ألغى سهامهم الكتاب فمالهم ان يشرعوا فيه بغير سهام

كما قال أحد الشعراء من أفراد البيت العباسي نفسه (وهو طاهر ابن علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس) مخاطبا العلويين :

لو كان جدّكم هناك وجدّنا فتنازعا فيها لوقت خصام

كان التراث لجدّنا من دونه فحواه بالقربى وبالاسلام

حقّ البنات فريضة معروفة والعمّ أولى من بني الاعمام

استشار المنصور شيخا حكيما (هو أبو مسلم العقيلي) فيمن يولّي حرب النفس الزكية فأشار عليه بقوله " ترمية بمثله ، اذا قال أنا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا : وانا ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم " فعزم المنصور على توجيه ولي عهده عيسى بن موسى وقد قال له " اما ان تخرج اليه وأقيم أنا أمدّك بالجيوش ، واما ان تكفيني ماأخلّف ورائي وأخرج أنا اليه . فقال عيسى : بل أقيك أنا يا أمير المؤمنين ، وأكون الذى يخرج اليه . فأخرجه اليه من الكوفة في أربعة آلاف فارس وألفي راجل ، واتبعه بمحمد بن قحطبة في جيش كثيف ، فقاتلوا محمدا بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة " .

ولم يكن المنصور يبالي لمن سيكون النصر في معركة المدينة لأنها ستريحه اما من عدوه النفس الزكية أو تخلّصه من ولي عهده فيتّم له بذلك تحقيق حكمة بأخذ البيعة لابنه المهدّى وقد روى الطبريّ بصدد ذلك ان المنصور قال بعد ان سار عيسى لحرب محمد ابن عبد الله " لا أبالي أيهما قتل صاحبه " .

شعر النفس الزكية بعد اقتراب جيش عيسى بن موسى من المدينة بحراجة موقفه خاصة بعد ان كان القائد العباسي قد اتصل بكتبه بكثير ممن كانوا انضموا الى حركة الامام العلوى ومناهم الأماني ان هم خذلوه فلما شعر الزعيم العلوى بذلك جمع جنده وخطبهم قائلا : " أيها الناس انا قد جمعناكم للقتال ، وأخذنا عليكم المناقب وان هذا العدو منكم قريب ، وهو في عدد كثير ، والنصر من الله والأمر بيده ، وانه قد بدأ لي ان آذن لكم وأفرّج عنكم المناقب ، فمن أحبّ ان يقيم قام ، ومن أب ان يظعن ظعن " . فكانت النتيجة ان انفضّ جمع غفير ممن كانوا وعدوا النفس الزكية تأييدهم لكن سبق السيف العذل فلم يكن هناك مناص من الاشتباك الذى تمّ بين خصمين لم تكن قواتهما متكافئة ، حيث لم يبق مع الزعيم العلوى سوى نفر قليل فقاتل وقتل في يوم الاثنين ١٤ رمضان ١٤٥ هـ وحزّ رأسه وأرسل الى الخليفة العباسي .

بلغ مصرع النفس الزكية أخاه ابراهيم بعد ان كان ظهر أمره وغلب على البصرة والأهواز وفارس ويروى ان جنده بلغ مائة ألف مقاتل فأنفذ الخليفة عيسى بن موسى لقتاله وكان اشتباك الجيش في موضع بين الكوفة وواسط يقال له باخمرى (يبعد سبعة عشر فرسخا عن الكوفة) وكان النصر أول الأمر حليف ابراهيم حيث ألحق الهزيمة بحميد بن قحطبة أحد قواد عيسى لكن ثبات هذا الاخير رجّح كفته في القتال وبدأ جنود ابراهيم يلوذون بالفرار . ثبت الزعيم العلوى في مكانه وكان معه عدد ضئيل من أنصاره الى ان قتل وحزّ رأسه ابن قحطبة وأرسله الى عيسى بن موسى وكان ذلك في الخامس والعشرين من ذى القعدة ١٤٥ هـ .

ولما وصل رأس القتيل الى المنصور قام بعمل تحلّت القسوة فيه فقد بعث بالرأس لوالد المقتول الذى كان لا يزال في سجن الخليفة وذلك ليزيد في لوعته وأساه . فلم يكن من الأب المثكول بفقد ابيه الا أن خاطب برباطة جأش رسول الخليفة قائلا : " قل لصاحبك : قد مضى

من بؤسنا أيام ومن سرورك أيام والملتقى القيامة " . ويقول الرسول ، على ما روي : " ما رأيت المنصور أشدّ انكسارا منه في الوقت الذى بلغته فيه هذه الرسالة . "

لم تقتصر كارثة البيت العلوى على مصرع النفس الزكية وأخيه قتيل باخمرى بل نزل القضاء المحتوم بأكثر من استعان بهما الزعيمان العلويان ليقوموا بالدعوة للنفس الزكية في سائر الامصار الاسلامية وكان هذا الاخير قد أنفذ ابنه عبد الله الى خراسان ثم الى السند وقد قتل بها ، كما كان بعث ابنه الحسن الى اليمن فحبس فيها ومات في سجنه وأرسل أخاه موسى الى الجزيرة وأخاه يحيى الى الرّيّ وطبرستان . أما أخوه ادريس فقد أمّ بلاد المغرب. وقد وفد على مصر علي ابن النفس الزكية لكن والي المنصور ناوأه وعرقل مساعيه فلم ينجح في مهمته وان كنا لا نعرف مصيره على وجه التأكيد .

انه لمن المسلم به ان المنصور اشتدّ في معاملة زعماء العلويين لدرجة أنستهم ماكانوا يلقونه على أيدى الأمويين من اضطهاد لا سيما وكان من المنتظر ان يكون ذلك الخليفة أرحم بهم (١) لكنه كما قال السيوطي أول من أحدث ثغرة الخلاف بين العباسيين والعلويين بعد ان كانا كتلة واحدة " .

جعل العباسيون دعوتهم في أول الأمر غامضة لكنهم كانوا يريدون ان يتخذوا العلويين " تكأة للوصول الى الخلافة " . وقد خدع زعماء العلويين بتأييد العباسيين لهم في فترة الحكم الأموى لأن العباسيين ادعوا أن الطالبيين لم يعد لهم حق بالخلافة وبنوا زعمهم على أمرين :

١ ــ تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية (وهذا معناه ان العباسيين لم يغتصبوا الخلافة من العلويين بل قضوا على الخلافة الأموية) وقد ورد بصدد ذلك في الرسالة التي وجهها المنصور الى النفس الزكية مايلي : " . . ثم طلبها (علي بن ابي طالب) بكل وجه ، وقاتل عليها ، وتفرّق عنه أصحابه وشكّ فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكّم حكمين رضي بهما واعطاهما عهده وميثاقه فاجتمعا على خلعه . ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر الى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حلّه . فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه . . . "

٢ ــ تنازل أبي هاشم بن محمد بن الحنيفة عن حقّه بالخلافة لعلي بن عبد الله بن العباس على النحو الذى فصّلناه عند كلامنا عن الدعوة العباسية .

---

(١) روى الطبري ان المهدى آلت اليه خزانة مما خلّف والده فدخلها مع زوجه ريطة بنت السفاح فاذا أزج كبير فيه رؤوس جماعة من قتلى الطالبيين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم واذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة كثيرة فلما رأى ذلك المهدى ارتاع لما رأى وامر فحفر لهم حفرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان " .

وكانت حجة المنصور في تشدّده في معاملة العلويين أنه بوصفه خليفة المسلمين يجب عليه ألا يتهاون في معاملتهم لأنهم كانوا يسعون لقلب نظام الحكم وتحويل الخلافة اليهم بعد ان نجح العباسيون في الوصول اليها .

السياسة الخارجية : كانت الدولة التي تربع في قمتها العباسيون الآن ، الدولة العظمى الأولى في عالم القرون الوسطى ، وجعلها اتساع رقعتها على تماسّ مباشر في الحدود والصلات ، مع كل الدول القوية اذ ذاك ، الّا دولة الفرنجة الكارولنجيّين فقد قام بينهم وبينها في الأندلس دولة الأمويين الجديدة ، التي انكمشت عن العالم الاسلامي كله الى تلك الرقعة الجزرية المحدودة . وكان من الطبيعي ، من جهة أخرى ، في عصر كالعصر العباسي الأول ، كله حركة ونشاط وفعّالية ، أن يصيب السياسة الخارجية جانبه من النشاط ، سواء في الاعمال الحربية ، أم في العلاقات الدبلوماسية وبالرغم من ان الفترة الاولى من هذا العصر ، نعني فترة التأسيس ، كانت كثيرة المشاكل الداخلية ، فان مشاكل الحدود والجهاد لم تنقطع . وقد جهد المنصور خاصة لتأمين تلك الحدود اكثر مما فكر بالهجوم . ويمكن ان نقسم البحث في ذلك حسب الجهات .

علاقة السفاح والمنصور بالبيزنطيين : تأرّث النزاع في هذه الجبهة منذ فترة قديمة ترجع الى عهد الحروب الفارسية — اليونانية . ولم تكن الحدود المشتركة بين البيزنطيين والدولة الاسلامية ولا فريضة الجهاد ضد الكفار ، أو طمع بيزنطة باسترجاع الشام ، هي التى تؤرث وحدها هذا النزاع وتثيره ولكن ثمة ومنذ العهود القديمة ، عاملا اقتصاديا ناتجا عن طمع كل من يسيطر على قسم من هذه المنطقة ، بالاشراف على الطرق التجارية كلها بين الشرق والغرب . فقد كان ثمة طريقان بين الهند والصين وآسيا الوسطى من جهة وبين أوروبة الشرقية من جهة أخرى : احدهما برّي يمر بايران والقفقاس ، والآخر بحرى في الجنوب يمر بالبصرة (وبغداد) والموصل وينفذ ، امّا من الشاطئ السوري بحرا ، او عبر الأناضول برّا ، الى القسطنطينية التي ظلّت مركزا للأسواق التجارية في أوروبة الشرقية ، طوال العصور الوسطى تقريبا . فلما حلّ المسلمون محلّ الامبراطورية الساسانية في السيطرة على القسم الأكبر من هذين الطريقين بالاضافة الى احتلالهم الشام ، وأضحت التجارة العابرة تمرّ بأراضيهم وتدفع للخليفة المكوس والضرائب ، ورثوا عن آل ساسان ذلك النزاع بينهم وبين البيزنطيين ، وقد قام به الأمويون مدة قرن . وكان على العباسيين في الطرف الراهن تحمّل عبئه .

على أنا نلاحظ ان هدف هذا النزاع ، في أعين المسلمين على الأقل ، قد تغير في العهد العباسي ، عنه في العهد الأموى . فقد أضحت فكرة فتح القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية الآن من قبل المسلمين ، أو استرداد الشام من قبل البيزنطيين ، مجرد حلم

أو رغبة بعيدة ، ويمكن ردّ هذا التغير الى فشل محاولات الأمويين الثلاث في فتح القسطنطينية ، وبعد العاصمة الجديدة عن الخطر البيزنطي ، واهتمام العباسيين بالبر ، والمناطق الشرقية ، واهمالهم البحر المتوسط والغرب ، بينما لا يفتح القسطنطينية الا من يمتلك القوتين البرية والبحرية معا .

انتقل الحكم في بيزنطة ومنذ سنة ٧١٧ الى الأسرة الايسورية اللاأيقونية التي تسلّم عرشها ، قبل قيام حكم العباسيين ، الامبراطور قسطنطين الخامس ولكن مشاكله الداخلية والخطر البلغاري على حدوده حالا بينه وبين الافادة من ذلك الظرف المواتي في المملكة الاسلامية . ومع هذا فقد استغل انشغال مروان بن محمد عنه ، وعن الاهتمام بالبحر خاصة فاستولى على جزيرة قبرص سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦ م) واستطاع في السنة الثانية من الخلافة العباسية (سنة ١٣٣ هـ ٧٥١ م) ان يفتح ملطية ، أهم حصون الحدود ويخربها ، كما فتح قواده الأرمن عددا من الحصون الاخرى ، ونقلوا سكانها الى بيزنطة ، ووصلوا الى أرضهم بفتحهم وتخريبهم واجلائهم السكان الى داخل الأراضي الروميـــة .

والمنصور هو الذى أخذ على عاتقه حماية هذه الحدود . ويظهر لنا اهتمامه البالغ بها في أعماله . فقد استرجع ملطية أولا سنة ١٣٩ هـ (سنة ٧٥٧ م) وجمع لها الصناع من كل بلد لبناء سورها ، فتمّ ذلك في ستة أشهر . وأنزل فيها المقاتلة وأقطعهم المزارع . ثم استغلّ انشغال قسطنطين الخامس بحرب البلغار فدحر قائده الارمني وقتله واسر العرب اثنين وأربعين من قواده سنة ٧٦٠ م فلم يجر فداؤهم حتى سنة ٧٦٦ م وحصّنوا سميساط بعد أن نقلوا أهلها الى فلسطين ، لانهم كانوا يتآمرون مع البيزنطيين . وفعلوا مثل ذلك بمرعش وأهلها سنة ٧٦٩ . . . وهكذا — كما يذكر البلاذرى — تتبّع المنصور حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصّنها وبنى ما احتاج الى البناء منها . وفعل مثل ذلك بمدن الثغور . وتوّج عمله على ما يظهر سنة ١٥٥ هـ ٧٧٢ م ببناء مدينة الرافقة على الفرات . شيّدها على طراز بغداد ورتّب فيها الجند من الخراسانية ، لتكون مركزه العسكرى ، كلما غزا الحدود وقد اجتمع سكان ذلك المكان على المنصور يحتجّون قائلين : " تعطّل علينا أسواقنا وتذهب بمعايشنا وتضيق منازلنا (الطبرى) ولكنه أصغى ، عرضا عنهم ، الى الضرورات الاستراتيجية .

ولاحظ امبراطور بيزنطة تحوّل العرب الى الهجوم ، بعد تحصينهم للحدود لا سيما بعد حملتهم سنة ٧٧٥ م البرية البحرية على سيس ، وهو مشغول بحرب البلغار ، فقدّم مقترحات للسلم . ولكن المنصور رفضها .

ويظهر ان البيزنطيين لم يكونوا يكتفون بالنضال العسكرى على الحدود ، بل كانوا

يمدّون يد الدسائس والمساعدة الى نصارى جبل لبنان ، ويغزون الساحل السوري لتقويتهم ، فقد دخل الروم طرابلس مرة زمن المنصور .

المشرق : كان نفوذ المسلمين الذى امتدّ الى ما وراء النهر ، منذ العهد الأموي ، مثار قلق للصين التى كانت تعتبر آسيا الوسطى كلها منطقة نفوذ لها . وكانت تتدخلّ في شؤونها في كل فرصة . وقد اغتنم الصينيون فترة النزاع الأموى ـ العباسي ، فقتلوا أمير الشاش ، لعدم ولائه لهم . فاستنجد ابنه بالعرب (يوليوز 751 م ، 133 هـ) . واستطاع زياد بن صالح ان يهزم الجيش الصيني وما كان لهذه المعركة ان تذكر لولا انها قرّرت مصيرها وراء النهر حضاريا وسياسيا . فقد تبعت تلك الاصقاع الحضارة الاسلامية نهائيا بعد تلك المعركة وانسحبت الحضارة الصينية الى ماوراء ممر زنجاريا .

الشمال : ونقصد به شمال العراق وأرمينية فقد كان يسكن الخزر هناك ، في الشمال الغربي من قزوين . وقد اعتدى ملك الخزر على أرمينية . وهزم مرّة بعد أخرى جيوش المنصور . وتوغّل في الحدود الاسلامية بتأييد ودفع من البيزنطيين ـ على ما يظهر ـ فبعث الخليفة بآلاف من المساجين . وجمع من كل بلد خلقا عظيما ووجّه بهم ، وبفعله وبنائين فبنى مدينة كمخ ، ومدينة المحمدية ومدينة باب واق ـه ـ على رواية اليعقوبي ـ وعدة مدن أخرى جعلها ردءا للمسلمين وأنزلها المقاتلة . الحاق طبرستان نهائيا بالبلاد الاسلامية سنة 148 هـ والفتوح في الهند : كان سكان المناطق الجبلية الواقعة الى الجنوب الغربي من بحر قزوين يتمتّعون منذ خضعوا للمسلمين باستقلال ذاتي ويحتفظون بدياناتهم لكنهم أرادوا الافادة من مشاغل المنصور فثاروا سنة 148 هـ وفتكوا بالعرب

الحالة في الاندلس وتأسيس عبد الرحمن الداخل الدولة الأموية فيها : رأينا خلال كلامنا من أحوال الاندلس في نهاية الحكم الأموى كيف تمّ ليوسف الفهرى وهو زعيم مضرى ، الاستئثار والانفراد بالسلطة فيها دون حصوله على موافقة الخلفاء الامويين وقد بقي الفهرى يحكم هذه البلاد على الرغم من مناوئة العناصر اليمنية له الى ان تمكن أحد أمراء الامويين وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، بعد وصوله الى تلك الارجاء ، من تأسيس الدولة الأموية ، وصف عبد الرحمن مالاقاه من مصاعب ومشاق منذ فراره من فلسطين الى قرية على الفرات ثم نجاحه بعبور هذا النهر سباحة بعد ان لحق به جنود العباسيين واختفائه في غيضة الى ان انقطع عنه الطلب ثم سفره الى بلاد المغرب . وماشبه تمكن عبد الرحمن من الفلات من العباسيين بعد ان أوشكوا أن يقبضوا عليه على الغايات بقصص أبطال المغامرات . وقد روى تلك القصة ابن الاثير في كتابه (ج/ 5 ، ص : 198 ـ 199) .

لم تنته مصاعب عبد الرحمن عند وصوله الى افريقيا فقد حاول واليها عبد الرحمن

الفهري المستحيل للقبض عليه . كما قام والي الاندلس ، يوسف الفهري ، بالسعي جاهدا للوصول الى نفس النتيجة لكن مساعيها باءت بالفشل . لجأ عبد الرحمن بن معاوية أول الأمر الى احدى قبائل البربر (مكناسة) لكنها لم تحسن وفادته فغادرها الى قبيلة زناته التي لم تتوان في مساعدته كما قصد أخواله في نفزاوة فأكرموا مثواه . ولما استقر به المقام أخذ يتصل بأمويي الاندلس ويمنيهم الاماني بواسطة غلامه بدر مستفيدا من الانقسامات الداخلية بين رؤسائها الى (الى مضرية ويمنية) أخيرا وصل الأندلس في ربيع الأول 138 ونجح في كسب العناصر اليمنية وكانت مستاءة من استئثار يوسف الفهري بالسلطة ومخالفته للاتفاق الذي كان قد تم بتناوب الحكم بين زعماء مضر واليمنية . ثم ازداد نفوذ عبد الرحمن وأخذ يستولي على المدن الواحدة تلو الأخرى حتى تم له فتح قرطبة واستقر فيها وجعلها حاضرته بعد قضائه على واليها وقد شيد فيها قصرا ومسجدا جامعا وكان ذلك سنة 139 هـ .

لم يقف المنصور مكتوف اليدين ازاء هذا الخطر المداهم الذي هدد دولته من ناحية حدودها الشمالية الغربية فلما انتهى من القضاء على عمه عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني والنفس الزكية وأخيه أرسل سنة 146 هـ جيشا بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبي من افريقيا للقضاء على عبد الرحمن الداخل لكن ذلك الجيش بالهزيمة بجوار اشبيلية وقتل القائد بعد أن صادق أول الأمر نجاحا حيث تمكن من كسب كثير من المؤيدين للحكم العباسي فخطب للمنصور لكن القضاء على جيش للخليفة جعل هذا الأخير لا يفكر ثانية بارسال جيش ثان فرضخ للأمر الواقع ألا وهو انسلاخ ذلك القطر عن الدولة العباسية لكنه عمد الى وسائل سنراها اجبرت عبد الرحمن على الاكتفاء بالاندلس دون أن يجاوزها .

عمد الخليفة العباسي الى الحيلة وأراد استمالة عبد الرحمن ولقبه صقر قريش وأوفد اليه الرسل لاسترضائه وكثيرا ما كان يظهر اعجابه بصقر قريش وعزيمته التي مكنته ان كان شريدا طريدا من تأسيس دولة في تلك البلاد النائية .

نفض المنصور يده من الاندلس ، بعد فشل صاحبه العلاء اليحصبي في الثورة بها سنة 146 ويظهر أنه لجأ ، قبل ذلك وبعده ، الى الضغط السياسي الخارجي على عبد الرحمن اذ تذكر بعض المصادر أخبارا ، لا نعرف مدى صحتها ، عن علاقات اتصلت بين ملك الفرنجة (بيبين) القصير رأس الأسرة الكارولنجية والمنصور فيذكرون ان الملك الفرنجي بعث سنة 765 (سنة 147 بوفد الى الخليفة العباسي أعاده المنصور مصحوبا بسفراء من عنده وقامت مفاوضات بينه وبين الدولتين ويعلق المؤرخ ميور علي على هذه الوفود والمفاوضات بأنها لم تؤد الى شيء ، سوى ما ولدته في نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده . وبذلك

لم يحاول اظهار عدائه الحربي للخليفة العباسي . ولعل الأصحّ ان ينظر لهذه العلاقات على وجه آخر . فعبد الرحمن لم يكن في حالة تمكّنه من الهجوم الحربي على العباسيين . ونظرة الى مواقع الدول الكبرى حول البحر المتوسط في ذلك الحين (دولتي المسلمين : العباسية والأمويّة في شرق وجنوب وغرب البحر الأبيض المتوسط ، ودولتي المسيحيين : في شماله الشرقي وشماله الغربي) تفسّر لنا سرّ ذلك التعاطف بين الفرنجة والمنصور الذي كان يقابله تعاطف مماثل بين أمراء الاندلس وأباطرة بيزنطة .

ولعلّ المهمّ في هذا كلّه ان المنصور بتقرّبه من الفرنجة وضع تقليدا سياسيا هاما سار عليه الخلفاء من بعده ولا سيّما في عهد حفيده الرشيد .

بناء بغداد : كان من تمام أعمال تأسيس الدولة وتنظيمها ، أن يستقر البيت المالك الجديد في عاصمة معيّنة . ولم تكن دمشق تصلح لذلك فهي أموية ، وقريبة من الروم ، وبعيدة عن خراسان . كما لم تكن المدينة جديرة بذلك ، اذ لا رجال فيها ولا سلاح ولا كراع ولا غنى ... ومصر بعيدة عن المشرق كما ان خراسان متطرّفة ، فالعراق أحسن منزل . ولكن على الخلفاء الجدد ان يتخيّروا مكانهم منه .

لقد بويع أبو العباس في الكوفة . ولكنه بدّل مقرّ حكمه مرات عديدة . لقد كان يعرف ان أهل الكوفة لآل علي . وشعر منذ أيامه الأولى بأن هواهم في غير جانبه . فانتقل أول الأمر الى الهاشمية سنة ١٣٢ هـ قرب الكوفة ثم أبدل بها الحيرة ثم عدل عنها الى الأنبار سنة ١٣٤ حيث بنى مدينة شمالها هي هاشمية الأنبار ويظهر انه استطاب البلد الجديد .

ويظهر ان المنصور لم ترق له هاشمية الأنبار هذه . فمكث أول الامر في هاشمية الكوفة (بين الحيرة والكوفة أو في شمالي الكوفة عند مدينة ابن هبيرة) وبنى بها قصرا له ولكنه سرعان ما تبين انها ليست له بعاصمة ، أو مقر دولة : فلا هي منيعة ، كما ثبت له في فتنة الراوندية ، ولا هي حسنة المناخ هذا عدا جوارها القريب للكوفة ، موئل العلويين ، ومجمع " أهل الشقاق والنفاق ، والاغراق في الفتن " ..... " فوالله ما هي بحرب فتأحاربها ولا هي بسلم فأسالمها فرّق الله بيني وبينها " كما روى المسعودي عن المنصور في احدى خطبه . وهكذا أمر المنصور بالتفتيش في العراق عن موضع يقيم فيه مقر ملكه . وخرج المنصور بنفسه يرتاد المواضع التي تذكر له ويبتّ في امرها ، حتى نزل موضع بغداد وهي قرية فارسية أو آرامية قديمة وقد اختار المنصور هذا الموقع لأسباب عديدة أوردها المؤرخون العرب في كثير من القصص . واذا غلب على هذه القصص طابع الوضع ، فانها على كل حال توضّح الميزات التي رآها الناس في بغداد ، وتفسّر ازدهارها السريع وبقاءها الى اليوم .

فهي أولا كما ذكروا للمنصور تتوسّط العراق وتقوم في منطقة زراعية واسعة بين أربعة طساسيج (ولايات أو مديريات) ثم انها على الطرق التجارية الهامة : " . . . كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة . . . والأهواز وفارس وعمان والبحرين فاليها يرقى وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة واذربيجان وأرمينية . . . وما يأتي من الرقة والشام والثغر ومصر والمغرب . . . فيها يحط وينزل " وهي الى هذا وذاك سهلة التموين " . . . . تجبك الميرة في السفن والقوافل من مصر والشام وتجيك الآلات من الصين في البحر ومن الروم " عدا انها حصينة الموقع " . . . وأنت بين انهار لا يصل اليها عدوك " وطيبة المناخ " قليلة البق " . فهي اذن ذات ميزات اقتصادية عسكرية هامة وتقرر بناء المدينة في هذا الوضع واعطاها المنصور اسم دار السلام غير ان الناس أعطوها أسماء أخرى وبقي الاسم الاول للمناسبات الرسمية . على أن الاسم الذى درج على كل لسان هو " بغداد " . و (لوسترانج) يرى " ان الاشتقاق الصحيح للكلمة جاء من الكلمتين الفارسيتين القديمتين (بغ) أى الله و (داد) أى تأسيس فالمعنى أسسها الله .

ولعل الاقرب للصحة هو رأى الاستاذ البستاني والاستاذ غنيمة والمطران نورى . وفي ابحاثهم الحديثة أن اللفظ آرامي الأصل مبني ومعنى وهو مؤلف من (ب) المقتضبة من كلمة بيت (وكثيرا مايقع هذا كما في بعقوبة وباعذار وباجرمي الخ . . .) ومن (كدادا) ومعناها غنم فمعنى اللفظ سوق الغنم . وقد يفيد ان نذكر أن الذى يرويه المسعودى ، ما يفيد أن أصل الاسم آرامي والطبرى يذكر انه كان على الطرف الشرقي من دجلة (تجاه بغداد) قرية ودير كبير كانت تسمى " سوق البقر " .

وضع مخطط المدينة على نهج مستحدث في بناء المدن الاسلامية ، لاحظه مؤرخو العرب : اذ بنيت على شكل دائرة يتوسّطها قصر الخليفة ومسجده ، ويحيط بها قصور القواد ورجال الدولة ، ثم تقوم الأسوار في سورين يسكن بينهما الرعية ، ثم سور ثالث خارجي . ويرى الأثر الفارسي واضحا في هذا المخطط . ولعلّ المنصور تأثر بهندسة العواصم الآسيوية القديمة كمدينة (أقباتان) / همذان / عاصمة الميديين التى كان محل الملك فيها في الوسط ، ويسكن رعاياها بين أسوارها السبعة المتتالية وفصل الرعية عن الخليفة في بغداد ، وضخامة القصر في الوسط ، وحصر السكان بين السورين يشير الى التأثير الفارسي . والى ترفّع صاحب السلطة ونفوذه المطلق وهذا يتعارض — كما لاحظ الدكتور الدورى — مع الديمقراطية الاسلامية من جهة ويختلف عن الارستقراطية الأموية من جهة أخرى .

وافق المنصور على المخطط وأمر باحضار المهندسين والبنائين من الشام والعراق وبلاد الديلم وبدأ ضرب اللبن وطبخ الآجر . . وكان عدد العاملين مائة ألف بينهم

الامام أبو حنيفة . ولكن العمل توقّف فجأة ، حين وصل خبر قيام محمد ذي النفس الزكية ، بالثورة في الحجاز . فلما انتصر المنصور عاد الى بناء المدينة سنة ١٤٦ هـ وكان يشرف على الصغيرة والكبيرة فيها ، ويحاسب العمال على الدانق والحبّة . وقد قسّم بلدته قطائع منحها الأهلة وقواده ، ليبنوا فيها . فما أتت سنة ١٤٩ هـ حتى كانت المدينة قد تمّت بناء . وجعل لها سور مضاعف ، بأربعة أبواب مضاعفة ، نقل المنصور خمسة منها من مدينة الحجّاج : واسط . أما في وسط المدينة فقام (قصر الذهب) للمنصور يعلو قبته تمثال فارس برمح ، ومسجد قبالته . . . وتكلف حوالي خمسة ملايين درهم مع رخص الاسعار . ولا شك ان البناء كان رائعا فقد وصف الجاحظ بغداد ، بعد قليل من عهد المنصور ، بقوله " لم أر مدينة قط أرفع سمكا ولا أجود استدارة ولا أوسع أبوابا من الزوراء . وهي مدينة أبي جعفر المنصور . كأنما صبّت في قالب وكأنما أفرغت افراغا " .

وسرعان ما ازدحمت المدينة بالوافدين اليها من علماء ، وشعراء ، وقواد وتجار وباعة صغار وصنّاع ، حتى ضاقت بهم . فأمر المنصور بتخطيط الأسواق في الكرخ ، جنوب المدينة ، وشقّ الانهر فيها ، ونقل الباعة اليها ، وجمعهم حسب مهنهم . فتيسر له بذلك توسيع شوارع مدينته ، والعناية بنظافتها .

وقد وصل بغداد بعد انتهاء بنائها وليّ العهد المهدي ، في جيش خراسان . ولكن أباه كان قد بنى له قصرا ومعسكرا في الرصافة ، على الضفة الشرقية من دجلة تجاه بغداد ، وما عتمت الرصافة ان توسّعت توسّع بغداد ، وأضحت تضاحيها وتكملّها في الرونق والقصور ، وكثرة الخلق .

ولاية العهد ووفاة الخليفة : اقتدى العباسيون بالأمويّين في نظام ولاية العهد بجعله ثنائيا أو ثلاثيا دون ان يتعظوا بما سببّه ذلك النظام الفاسد من فتن وانقسامات بين أمراء الأمويّين . فلما آل الأمر الى المنصور سنة ١٣٨ هـ لم تبد منه أول الأمر أي بادرة تشير الى أنه مزمع خلع عيسى بن موسى وذلك لأنه كان يريد القضاء على عمّه عبد الله بن علي وقائده أبي مسلم الخراساني والنفس الزكية وأخيه فلما تمّ له القضاء على خصومه بدأ يسعى لحمل عيسى بن موسى على خلع نفسه أو على الأقل اجباره على تقديم ابنه المهدي (ابن الخليفة) على نفسه في البيعة . وقد استعمل الخليفة للوصول الى ذلك الهدف طرقا مختلفة فبدأ بالاغراء والمفاوضة والوعود البرّاقة فلما لم تجده فتيلا صار يقصد أذاه واسقاط هيبته امام جلسائه ثم أوعز الخليفة سرا الى الجنود ان يشتموا عيسى بن موسى وينالوا منه فلما ذكر ذلك للمنصور أجاب بقوله " يا ابن أخي اني والله أخافهم عليك وعلى نفسي فانهم قد أشربت قلوبهم حبّ ذلك الفتى قدّمته بين يديك ، فخلع نفسه وبايع المهدي " بأن قدّمه على نفسه وبذلك نجا مما كان

الخليفة قد بيّته له وكان مزمعا قتله . وقد تم تقديم المهدى ابن المنصور على عيسى بن موسى في ولاية العهد سنة ١٤٧ هـ .

خرج المنصور سنة ١٥٨ هـ حاجا وقد اشتدّت به علته عند ما بلغ موضعا يقال له بئر ميمون (على بعد ستة أميال من مكة) حيث توفي في السادس من ذى الحجة من ذلك العام ولم يحضر وفاته الا خدمه ومولاه الربيع بن يونس وصلى عليه عيسى بن موسى وقد دامت خلافته اثنين وعشرين عاما .

خلافة المهدى ١٥٨ — ١٦٦هـ ، ٧٧٥ — ٧٨٥ م

بيعته ونشأته وصفاته : هو المهدى بن عبد الله المنصور وأمّه أروى بنت منصور بن عبد الله الحميرى التي تجود بنسبها الى أحد ملوك حمير . ولد بالحميمة سنة ١٢٦ هـ وكان في الثانية والثلاثين من عمره عند ما ولي الخلافة . وقد أرسل الربيع بن يونس (حاجب المنصور والذى كان بمعيّته حين ذهابه الى الحج في آخر سني خلافته) الى حاضرة الخلافة يخبر بوفاة المنصور بعد أخذ البيعة لابنه المهدى من بني هاشم وسائر القواد الذين كانوا قد رافقوا المنصور الى الحج . كما أرسل الربيع كذلك صحبة الرسول قضيب الرسول وبردته . فلما تمت البيعة للمهدى ومن بعده لعيسى بن موسى صعد الخليفة المنبر وألقى خطبة أشار فيها الى عظم المسؤولية التى ألقيت على كاهلة وتذكرنا تلك الخطبة بما ورد في خطبة عمر بن عبد العزيز في نفس المناسبة " ولكنني أثقلكم حملا ". أما خطبة المهدى ، فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بكى عند فراق الأحبة ولقد فارقت عظيما وقلّدت جسيما ، وعند الله احتسب أمير المؤمنين ، وبه عزّ وجلّ أستعين على خلافة المسلمين " .

تزوج المهدى سنة ١٤٤ هـ من ربطة ابنة عمه السفاح ونشأة نشأة علمية عني بتربيته المفضّل الضبيّ بأمر من أبيه وقد أدّ به فأحسن تأديبه وأوقفه على علوم اللغة العربية فمال الى العلم والأدب وحفظ كثيرا من أمثال العرب ومختار شعرهم وأيامهم كما كان متصفا بمكارم الأخلاق مشغوفا بدراسة الاخبار والاشعار . وكان فصيحا يجيد نظم الشعر . وقد وصفه صاحب الفخرى بقوله : " وكان المهدى شهما فطنا كريما ، شديدا على أهل الالحاد والزنادقة ، لا تأخذه في اهلاكهم لومة لائم . وكانت أيامه شبيهة بأيام أبيه في الحوادث ، وكان يجلس في كل وقت الى المظالم ، كما كان ذكيا فصيحا بعيد الهمّة سديد الرأى ، ثاقب الفكر ، قوى البيان ، فصيح اللسان ، عالما بضروب السياسة وفنونها مما أهله لأن يلي أمور المسلمين . وكان أبوه المنصور يعرف فيه هذه السجايا فكان اذا دخل عليه في مجلسه أتبعه ببصره ، لحبه له واعجابه به وزوّده بنصائحه ".

كان المنصور يتوسّم في ابنه المهدى الصفات التي تؤهلّه لتولّي الخلافة فأحبّ ان يجعله يمارس منذ حداثة سنّه المسؤوليات وأن يضطلع بمهام الأمور وهو في الخامسة عشرة جيشا وجهه الى خراسان للقضاء على حركة واليها عبد الرحمن بن عبد الجبار الأزدى ملحقا بمعيته قائدا ماهرا هو خازم بن خزيمة ، كما أناط به أبوه مهمة القضاء على مدّع للنبوة في خراسان فنجح هو وخازم في أداء تلك المهمة ثم كلفه أيضا سنة ١٤٤ هـ بقمع فتنة طبرستان . وقد كان المهدى ميمون الطالع فنجح في سائر المهام التي أوكلت اليه ولم يخّيب ظنّ أبيه . وكان المنصور قد ألحق بأبنه كاتبا يعدّ نابغة عصره وفريد دهره وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار وكان الخليفة لا ينفك يسدي النصح لابنه ان يكون مطاوعا لكاتبه وممتثلا لنصائحه . ويروى ان المنصور كان مزمعا ان يستوزر أبا عبيد الله لكنه آثر به ابنه . وبلغ من فرط عناية المنصور بابنه ان بنى له ولجنده ولمن ألحق بمعيّته سنة ١٥٥ هـ مدينة هي الرصافة على طراز بغداد .

لم يكن المهدى يميل الى الشدّة كأبيه بل كان ليّن العريكة حليما ولطالما عفا عن الخارجين عليه بعد أن ظفر بهم ونظرا لانه كان بطبعه محسنا كريما (كان والده يأخذ عليه افراطه في الكرم) عمد منذ ان ولي الخلافة الى اطلاق سراح المسجونين السياسيين . وكان والده يعمد الى مصادرة ثروات الوزراء والولاة ان شكّ بأمانتهم وقد احتفظ بتلك الأموال في خزانة خاصة دعيت بيت مال المظالم بعد ان كتب عليها اسماء من صودرت منهم فلما ولي المهدى الخلافة ردّ تلك الأموال الى أصحابها أو الى ورثتهم .

كان المهدى عادلا يجلس بنفسه للمظالم التي ترفع اليه في رقاع يروى فيها أصحابها ظلاماتهم فحدث ان ارتشى بعض المقرّبين من الخليفة فقدّم بعض الرقاع فلما علم الخليفة بذلك جعل للنظر في المظالم بيتا خاصا له نافذة حديدة تطل على الطريق فكان المتظلمون يلقون فيها رقاعهم ولم يكن يسمح لأحد من حاشية المهدى بدخول هذا البيت فكان الخليفة يدخل ويستلم ما يقع في النافذة من الرقاع وينظر فيها بالتسلسل دون تقديم بعضها على بعض . وكان القضاة يجلسون معه عندما يريد النظر في تلك الرقاع التى رفعت اليه . وكان دؤوبا على انصاف المظلوم من ظالمه وارجاع حقه له . وقد روى ان المسور بن مساور قال : " ظلمني وكيل المهدى وغصبني ضيعة لي فأتيت سلاما صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدى وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضي فأمر المهدى بادخالي وسألني عن مظلمتي فأخبرته بها فقال اي ترضى بأحد هذين فقلت نعم . فقال تكلّم . فقلت أصلح الله القاضي ان هذا ظلمني ضيعتي وأشرت الى المهدى . فقال القاضي ما تقول يا أمير المؤمنين ، قال ضيعتي في يدى . قلت أصلح الله القاضي سله أصارت اليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها . فقال المهدى

بعد الخلافة . فقال القاضي : اطلقها له . قال : قد فعلت " .

كان هذا الخليفة مبالا الى السنة فأمر بهدم المقاصير التى اتخذت في المساجد كما أمر بألا يعلو منبراحدها على منبر مسجد رسول الله وكتب بذلك الى الولايات فنفذ أمره . وكان المهدى لا يرضى ممن ينال من سيرة الشيخين (أبي بكر وعمر) فقد روى أنه عاد مرة مولاه أبا عون (عبد العزيز بن يزيد الازدى) اثناء مرضه فقال له أوصني بحاجتك فقال يا أمير المؤمنين حاجتي ان ترضى عن عبد الله بن أبي عون وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه . فقال يا أبا عون ، انه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك انه يقع في الشيخين أبي بكر وعمر ويسيء القول فيهما ... "

موقف المهدى من الأمويّين ومن العلويّين : لم يلاحق المهدى أحدا من الأمويّين بل كان على العكس من ذلك محسنا لهم فقد روى انه بينما كان في طريقه الى غزو الروم نزل على الحدود في قصر مسلمة بن عبد الملك فتذكّر بلاء هذا القائد في حرب البيزنطيين فاستدعى أولاده ووصلهم بعشرين ألف دينار كما منحهم الاقطاع والضياع . كما جاءت في عهده الى قصر الخلافة زوج مروان الثاني تشكو ما تعانيه هي وبناتها في حرّان من بؤس وفاقة فأحسنت الخيزران (هي زوج المهدى وكانت أمة اعتقها الخليفة وتزوج منها فرزق منها بولديه موسى الهادى وهارون الرشيد) . فأكرمت وفادتها وأفردت لها قسما خاصا في قصرها دونما أى تفرقة بينها وبين نساء بني هاشم . وسنرى كذلك ان ابن مروان الثاني عندما ثار سنة ١٦١ وقضي على حركته فعوضا من ان ينتقم الخليفة منه أمر بأن يخصّص له مرتب كاف .

أما موقفه من العلويين فهو شبيه بموقفه من الأمويّين وينحصر في تجنّب الشدّة واغداق صلاته لهم واعادة املاكهم التى صودرت منهم في عهد أبيه . ويروى انه غداة بيعته اطلق من سجنه الحسن بن ابراهيم (ابن أخي النفس الزكية) وأغدق عليه المنح والعطايا) . كما روى كذلك انه كان في سجنه موسى بن جعفر (هو موسى الكاظم بن جعفر الصادق) فقرأ الخليفة ذات مرة في صلاته الآية التالية : " فهل عسيتم ان تولّيتم ان تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم " فلما أتمّ صلاته أمر حاجبه الربيع بن يونس باحضار السجين العلوى فلما مثل بين يديه قال له ياموسى اني قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثّق لي أنك لا تخرج علي فقال نعم فوثق له فأخلى سبيله . غير انه مع ذلك لم يكن يحجم عن الأمر بقتل أى زعيم علوى ان كان يشعر بخطره على الخلافة العباسية ومن قبيل ذلك الزعيم العلوى الذى سلمه لوزيره يعقوب بن داهود وأمره بقتله فلما بلغه من عين له أن يعقوب ، وكان متشيعا أخلى سبيله انتقم من وزيره انتقاما شديدا . وكدليل على عدم تعصّبه على الشيعة ان وزيره يعقوب بن داهود كان شيعيا .

اصلاحاته العمرانية واتخاذه فرقة حرسه الخاص من أولاد الأنصار : أفاد المهدى من وفرة الأموال التي خلّفها والده والتي كانت على ما ذكر المسعودى " ستمائة ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار " فأخذ ينفق عن سعة حيث روى أنه وزّع سنة ١٦٠ على أهل الحجاز أثناء حجته ثلاثين مليون درهم ومائة وخمسين ألف ثوب على أهل مكّة وحدها ولم يقتصر الأمر على ذلك بل اهتم بالناحية العمرانية فأعاد بناء المسجد الحرام وجمّله وزاد فيه بشراء دور كثيرة كانت تحيط به ضمّت الى بناء المسجد وان يكن أخذ عليه أمره ان يمحى اسم الوليد بن عبد الملك من جدار مسجد الرسول في يثرب وينقش اسمه عوضا عنه وهذا ليس من الأمانة في شيء . كما زاد في عدد المدارس في كثير من البلاد الاسلامية وبنى كذلك جوامع في مدن شتى . وقد أجرى الأرزاق على المسجونين والمجذومين وذلك ليكفيهم ذلّ سؤال الناس ويحول دون انتشار الأمراض السارية .

أمر المهدى ببناء المنازل على طريق مكة وكان السفاح قبله قد أمر كذلك ببناء منازل على طريق الحج بين القادسية وزبالة فأوعز المهدى بتعبيد ذلك الطريق وتوسيعه وزاد في المنازل المبنية من عهد عمه (السفاح) وترك المنازل التى بنيت في عهد أبيه على حالها وقد أمر أيضا ببناء الأحواض التي تملأ من مياه الآبار وذلك لتسهيل السقاية على رجال القوافل الذين لا ينقطعون عن اجتياز تلك البقاع كما أمر بتجديد الأميال والأحواض القديمة وعيّن موظفا خاصا أناط به الاشراف على كل ذلك .

ومن مآثره العمرانية التى خصّ بها الحجاز ايعازه بارسال كسوة جديدة للكعبة في كل عام وذلك بعد ان كانت الكسوات في السابق يوضع بعضها فوق بعض فلما حج المهدى نزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر وألبسها كسوة جديدة من الحرير حيث خشي ان تتهدّم لكثرة ما عليها من الكسى التي ألبسها هشام بن عبد الملك وقد حذا حذوه الخلفاء الذين جاؤوا بعده . ثم نظم البريد في عهده بين مدينة الرسول ومكّة واليمن وخصّص دوابا من الابل والبغال لحملة وتلك أول مرة يسير فيها بريد حكومي بين هذه المناطق ومن مآثره في هذا الصدد تعيينه الحراس لحماية الحجاج والمسافرين بين العراق والحجاز .

هذا ويجب ألا يفوتنا ونحن في معرض الكلام عن الاصلاحات التي قام بها المهدى على طريق الحج ان هذا الخليفة انتخب خمسمائة من أولاد الانصار جعلهم حرسه الخاص . ولنضف كذلك أنه عين موظفين خاصين ليراقبوا أحوال الولايات وليوافوه بأخبار الولاة مما كان ذا أثر في نشر العدل فساد الرخاء وعم الازدهار سائر البلاد الاسلامية .

الوزارة في عهد المهدى : — لم يكن للوزارة في عهد المنصور شأن يذكر من حيث أن هذا الخليفة لم يكن يعتمد على أحد في ادارة دقة الحكم وتصريف شؤون الدولة بينما ركن المهدى الى وزرائه واعتمد عليهم لا سيما وكان وزيران من وزرائه من أقدر وأهم وزراء العصر

العباسي الأول وهما معاوية بن يسار ويعقوب بن داوود .

وزارة معاوية بن يسار بين سنتي ١٥٨ – ١٦١ : أوشك المنصور لوثوقه من كفاءة أبي عبيد الله معاوية بن يسار أن يستوزره لكنه لفرط حبّه لابنه المهدى فانه آثره به على نفسه . وكثيرا ما كان ينصح المهدى بقبول آراء وزيره والامتثال لنصائحه ومشورته لا سيما وقد وضح للخليفة المهدى ومن قبله لأبيه المنصور نجاح هذا الوزير في ضبط أمور ادارة الدولة واعتماد القواعد الواجبة الاتّباع في تسييرها وترتيبه الديوان في حاضرة الخلافة خاصة وكان هذا الوزير كما قيل عنه كاتب الدنيا وأوحد الناس علما وخبرة ومقدّما في صناعته . ومن بين الامور التى أقرها هذا الوزير وضعه طريقة المقاسمة في الخراج . وكانت الطريقة المعموب بها من قبل قائمة على فرض خراج مقرّر وثابت على الغلات (أى المحاصيل) لا يتغير ، زيادة أو نقصا بزيادتها أو قلّتها . أما معاوية بن يسار فوضع طريقة المقاسة تبعا لوفرة أو قلة الغلات وهي طريقة أكثر عدلا وصيانة لمصلحة كل من بيت المال (أى مالية الدولة) والمكلفين فاذا ما زادت غلة (محاصيل) أصحاب الضياع زاد مورد بيت المال واذا ما قلت تدنى مورد الدولة . لذلك لم يعد ثمّة من حيف وغبن يلحقان بأصحاب الضياع في السنين العجاف (سني القحط وقلّة المحاصيل) .

كما عمد معاوية هذا الى جعل الخراج على النخل والشجر وألّف كتابا في الخراج أورد فيه الأحكام الشرعية . المتعلّقة فيه ود قائقه وقواعده . وذهب هذا الوزير بفخار أنه كان الرائد في هذا الباب حيث أن كل من ألّف فيه الكتب ، بما فيهم أبو يوسف (تلميذ أبي حنيفة) قاضي القضاة في عهد الرشيد ، وضعوا تواليفهم بعده . وعلى العموم فان الخليفة المهدى سلّم وزيره هذا وبمجرد قيامه بأعباء الخلافة تدبير شؤون دولته كما فوّض اليه دواوينها .

كان معاوية بن يسار في طليعة أدباء العصر العباسي الأول كما كان أحذق الناس بصناعة الكتابة (أى الأدب) وهي الصناعة التي كانت البرقاة الى الوزارة . وأنه زان تضلّعه بالأدب بعفّة نفسه حيث لم يتهم باختلاس شيء من أموال الدولة . وقد أبعدته هاتان الخصلتان الكريمتان بما يكرهه الخلفاء من وزرائهم . لكنه كان على الرغم من كل ذلك مزهوا بنفسه متعجرفا ومن جراء ذلك آلى الربيع بن يونس حاجب المنصور الذى أتى بالبيعة الى المهدى على نفسه أن ينتقم من معاوية . وأورد المؤرخون سبب ذلك أنه بعد وفاة المنصور في الحج ١٥٨ وأخذ الربيع البيعة للمهدى في مكة وعودته الى بغداد بدا له أن يقابل إبن يسار قبل مثوله بين يدى المهدى فاستأذن عليه فلم يأذن له هذا الوزير الابعد صلاة العشاء . ولما دخل عليه كان مضطجعا فلم يقم له

ولم يحفل به فقعد الربيع بين يديه على البساط وأبو عبيد الله متكئ فجعل يسائله عن مسيرة وسفره وحاله ولم يسأله عما فعل في أمر بيعة المهدى فذهب الربيع يبتدئ بذكره فقال له قد بلغنا بنهوءكم فقام الربيع متغيّر القلب على أبي عبيد الله وقال لابنه الفضل (وهو من سيغدو وزيرا للرشيد بعد نكبة البرامكة) : ((والله الذى لا اله الا هو لأخلقّن جاهي ولأنفقّن مالي حتى أبلغ من أبي عبيد الله)) . لكن طول باع هذا الأخير في صنعته وعفّة نفسه لم يمكّنا الربيع مع دهائه وقوة حيلته من ايجاد مطعن فيه . بيد أنه لم يعدم وسيلة للافساد بين المهدى ووزيره حيث كان للوزير ابن متّهم بالزندقة وكان هذا الخليفة شديد الكراهية للزنادقة . فنقل الربيع هذا الخبر الى الخليفة وعظّم أمره فأوعز المهدى باحضار ابن وزيره وناقشه فلما ثبتت عليه التهمة أمر بقتله طالبا من أبيه نفسه أن يقوم فيتقرّب الى الله بدم ابنه . فلما قام هذا الشيخ وقع على الارض لهول المهمة التي كلفّه الخليفة بها فالتمس أحد وجوه العباسيين الحاضرين في هذا المجلس الخليفة اعفاء ذلك الشيخ من تلك المهمة فقبل وضربت عنق ابنه امامه .

كان طبيعيا بعد ذلك أن يخشى المهدى من دسائس ومكر وزيره لأنه فجعه بابنه فعزله في ١٦١ من وزارته وبذلك نال الربيع بن يونس بغيته منتقما من معاوية بن يسار وبقي هذا الأخير معزولا حتى وفاته ١٧٠ .

وزارة يعقوب بن داوود بين سنتي ١٦١ — ١٦٦ : وكان مولى لبني سليم . وكان كسلفه في المنصب تضلّعا في العلم والأدب ومعرفة بأيام الناس وسيرهم (التاريخ) وأشعارهم . وكان والد يعقوب هذا كاتبا لنصر بن سيّار آخر ولاة الأمويين على خراسان لذلك لم يطمع يعقوب واخوته في أول سنّي الخلافة العباسية بالالتحاق بخدمة خلفائهما . واعتنق يعقوب واخوته آراء فرقة الشيعة الزيدية ومال الى عبد الله بن الحسن بن الحسن وهو والد محمد ذى النفس الزكية مؤمّلين أن ينجح هذا الأخير في تأسيس دولة فيكون له ولاخوته شأن فيها وهكذا أخذ يعقوب يقصد مختلف البلدان وحده أحيانا أو بمعية ابراهيم أخي النفس الزكية لطلب البيعة لهذا الأخير . فلما خرج ابراهيم على المنصور في العراق (بعيد ثورة أخيه النفس الزكية في الحجاز) كان يعقوب ممن خرجوا معه هو وأخوه علي بن داوود وباقي اخوتهما . وبعد مقتل ابراهيم على النحو الذى سبق بيانه توارى يعقوب واخوته لكن المنصور قبض عليه وعلى أخيه علي وسجنهما وكان معهما في السجن اسحاق ابن الفضل الذى ينتهي نسبه الى الحارث بن عبد المطلب .

ولما تولى المهدى الخلافة ولرغبته في تحسين علاقته بالزيدية لمنعهم من الكيد له والمكر به فانه أخذ يفتش عمّن يعرفهم جميعا فذكروا له يعقوب بن داوود الذى سجنه أبوه . أطلق المهدى سراحه واستدعاه فلما مثل بين يديه وجده خير عوض له عن وزيره السابق ابن يسار فاستوزره بعد ان وجده باحلال الوئام بينه وبين جميع أعيان الزيدية في المصالحة .

وقد قرّب المهدى وزيره الجديد يعقوب الذى استدعى الزيدية وولاهم الكثير من أعمال الخلافة في المشرق والمغرب . وبلغ من علو منزلة يعقوب عند الخليفة أن هذا أمره بتعيين أمناء له في جميع الولايات هؤلاء الامناء الذين زاد نفوذهم في تلك الولايات الى درجة أن الخليفة ان كتب الى عامله في ولاية ما بأمر فان هذا الأمر لا ينفذ الا ان كتب يعقوب الى أمينه في تلك الولاية بوجوب تنفيذ أمر الخليفة . مما جعل الناس يحسدون يعقوب على ما نال من منزلة وحظوة . ومازال الكثيرون يسعون لدى الخليفة للايقاع بوزيره مستعينين بالشعراء الذين كان منهم بشار بن برد وقد قال :

بني أمية هبّوا طال نومكم	ان الخليفة يعقوب بن داوود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا	خليفة الله بين الناي والعود

وقد ركز السعاة بيعقوب أمام المهدى على ميله لاسحاق بن الفضل الذى يرغب في نيل الخلافة لنفسه وأن يعقوب يمهّد له طريق الوصول اليها بواسطة أعوانه وأمنائه في الولايات . ومما جعل المهدى يؤخذ بأقوال السعاة أن وزيره كان قد التمس منه ولاية مصر لاسحاق . هذا . بدأ المهدى يتغيّر لوزيره ويحذره ووضع عليه العيون لمراقبته . وكان من بين الذين عهد اليهم المهدى بمراقبة يعقوب جارية من جوارى الخليفة أهداها الى وزيره فصارت تحصي عليه حركاته وسكناته وتوقف عليها الخليفة . ثم حدث أن سلّم الخليفة الى وزيره زعيما علويا وأمره بقتله فلم يقتله يعقوب انما على العكس من ذلك أطلق سراحه وبدون اذن من الخليفة فبعثت الجارية بخبر ذلك الى المهدى الذى أرسل من قبض على ذلك العلوى وخبّأه عنده في قصره ثم استدعى وزيره وسأله هل نفّذ ما أمره به من قتل ذلك الزعيم العلوى فلما أجابه مؤكدا قيامه بذلك الخليفة بمثول ذلك العلوى بين يديه فأسقط في يد يعقوب خاصة وكان الخليفة قد طلب منه أن يقسم على أنه قتله واستحلفه بحياته ثم طلب منه تأكيدا لذلك أن يضع يده على رأسه (أى على رأس الخليفة) . اذ ذاك التفت الخليفة الى وزيره قائلا : ((يايعقوب حلّ لي دمك)) . ومع ذلك فانه لم يقتله انما جعله في سجن المطبق حيث بقي فيه حتى تولّى الخليفة هارون الرشيد في ١٧٠ فأخرجه من السجن وكان قد كفّ بصره بعد بقائه خمس سنين في ذلك السجن المظلم فسأله الرشيد ان كان يرجوه شيئا فالتمس من الخليفة أن يبعث به الى مكة ليجاور فحقّق له تلك الأمنية لكنه لم يلبث أن توفي وشيكا في الحجاز .

وزارة الفيض بن أبي صالح ١٦٦ - ١٦٩ : - انه من أسرة نصرانية من مدينة نيسابور في فارس لكنه بعد انضمامه وذويه الى العباسيين اعتنقوا كلهم الاسلام وكان أديبا كبيرا هذا فضلا عن افراطه في الجود والكرم وكان أبي النفس عالي الهمة ذاتية وذ[illegible]اء .

وقد استمر في دست الوزارة حتى وفاة الخليفة في ٢١ المحرم ١٦٩ لكن موسى الهادى وهارون الرشيد لم يستوزراه وكانت وفاته سنة ١٧٣ أى في السنة الثالثة من خلافة الرشيد .

الفتن والثورات في عهد المهدى : — نشبت ثورات وفتن كثيرة في عهد المهدى لكن تلك الثورات على الرغم من وفرتها لم تكن فيما عدا ثورة المقنّع الخراساني وحركة الزنادقة مما يؤبه به فلم يتطلّب قمعها جهودا كبيرة وهي كما يلي :

آ — ثورة عبد الله بن مروان بن محمد سنة 161 : خرج هذا الامير الأموى في بلاد الشام لكن حركته قمعت بسرعة وقبض عليه لكن الخليفة أخرجه من السجن وعفا عنه وعيّن له رزقا في بيت المال .

ب — ثورة عبد السلام بن هشام اليشكرى سنة 162 : — ثار اليشكرى في الجزيرة واستفحل خطرة وكثر أتباعه ولكن الخليفة قضى على حركته وقتل في قنّسرين .

ج — خروج رجل من بني تميم في الموصل : — وقد استولى الثائر على ديار ربيعة ومضر ولكنه مني بالهزيمة .

د — ثورة عرب البادية على طريق الحج سنة 168 : — قام هؤلاء بسلب القوافل والتعرض للحجّاج كما امتنعوا عن اقامة الصلاة فوجّه الخليفة جيشا ظفربهم وان يكن عاملهم معاملة تنّم عن الشفقة والرحمة .

هـ — ثورة أهل الحوف في مصر : — ثار أهل الحوف وهم بجوار بلبيس في مصر فأناط الخليفة أمر تأديبهم بالفضل بن صالح بن علي العباسي لكنه لم يصل مصر الا بعد وفاة الخليفة وقد ألحق الهزيمة بالعصاة .

و — حركة المقنّع الخراساني : — تعتبر ثورة هاشم بن حكيم الملّقب بالمقنّع الخراسانى حلقة من سلسلة الثورات التي قام بها الفرس انتقاما لمقتل أبي مسلم الخراساني . فبعد تمكّن المنصور من قمع حركة سنباذ والفتك بكثير من الراوندية خرج المقنّع في خراسان في ثلاث السنوات الاولى من خلافة المهدى (158 — 161) . وكان هاشم بن حكيم من أهل مرو وكان دميم الخلقة أعور قصيرا اتخذ قناعا من ذهب ليستر وجهه وقد ادعى الألوهية وتتلخص تعاليمه في أن " الله خلق آدم فتحّول في صورته ، ثم في صورة نوح ، ثم الى صورة ابراهيم ، ثم الى صورة واحد فواحد من الانبياء والحكماء ، ثم في صورة محمد ، ثم ، تحوّل بعده في صورة علي بن أبي طالب ، ثم انتقل في صورة أولاد ، حتى حصل في صورة أبي مسلم الخرساني ، ثم زعم انه انتقل منه اليه وقال :

اني انتقل في الصور ، لان عبادى لا يطيقون رؤيتي في صورتي التي أنا عليها ومن رآني احترق بنورى " . ومن التعاليم التي دعا اليها المقنع اسقاط الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأباح للناس الأموال والنساء وتلك تعاليم أحد أنبياء الفرس مزدك (١) . وقد أدت تلك الاباحية الداعية الى نبذ القيود الأخلاقية جانبا والاستهتار بها الى نجاح المقنع في استمالة عدد كبير من فاسدى الأخلاق .

لم تقتصر حركة المقنع على مرور ما جاور هابل انتشرت بين أهالي بخارى وسمرقند وبين الاتراك المقيمين بجوار سواحل بحر قزوين واتخذ رئيس تلك الحركة قلعة حصينة بكش مقرّا له فوجّه المهدى لقتاله جيشا كبيرا مؤلفا من سبعين ألف مقاتل أمّر عليه معاذ بن مسلم وكان واليا على خراسان وقد ألحق هذا القائد الهزيمة بالمقنّع وأنصاره ، كما ولّى الخليفة سعيد الحرشي أمر اخما تلك الفتنة فهزم المقنع وحاصره بكشّ وكانت النتيجة ان ذلك الثائر عند شعوره باستحالة المثابرة على مقاومة جيش الخليفة ولرغبته ألا يقع بيد قائد الجيش انتحر هو وأهله وأصحابه بأن سقى الجميع شرابا مسموما وألقى بنفسه هو وذووه وبعض مريديه في تنور مشتعل وقضي بذلك على زعيم تلك الحركة وان لم يقض القضاء النهائي على الحركة نفسها فقد اعتنق تلك المبادىء كثير من أهالي ما وراء النهر وقد عرفوا باسم المقنعية المبيضّة لارتداء الثياب البيضاء (٢) فزعم هؤلاء ان المقنّع كان الها وكثر معتنقو تلك المبادىء في بلاد ما وراء النهر وتركستان فاتخذوا في كل قرية مسجدا خاصا بهم دون سواهم وقد استحلوا الميتة ولحم الخنزير ومن مبادئهم قتل كل مسلم ان ظفروا به .

ز ـ حركة الزنادقة ان اكثر اتباع تلك الفرقة من الفرس وقد نأت بتعاليمها كثيرا عن الدين الاسلامي فكان من مبادئها استباحة المحرمات والعبث بالآداب الاجتماعية وكانت متقيّدة اكثر ما يكون بتعاليم نبي ثان من أنبياء الفرس وهو ماني (٣) وقد قال صاحب الأغاني عن الزنادقة ما يلي : " انهم كانوا يعرفون بالمثنوية وعبادة الهين اثنين واتباع تعاليم ماني " .

---

(١) دعا مزدك في تعاليمه الى الاشتراكيه فيما يتعلّق بالأموال والنساء فقد كان يرى ان الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء متسلوين في متع الحياة الدنيا : المال والنساء ظانا ان بالامكان بذلك القضاء على الشرّ في الارض .

(٢) قامت في نفس الوقت فرقة في جورجان شرقي بحر قزوين تدعى بالمحمّرة لارتداء افرادها الثياب الحمراء وكانت تدين بنفس المبادىء الاباحية التي شرحناها اعلاه .

(٣) تقوم تعاليم هذا النبي على ان النور والظلمة اصلان للعالم وان الخير والشر امتزجا في هذا العالم امتزاجاتاما وكان هذا النبي يريد استعجال فناء البشرية فحرّم النكاح وفرض صيام سبعة أيام في كل شهر وفرض صلوات كثيرة تستغرق معظم أوقات معتنقي تلك الديانة كما نهى عن ذبح الحيوان ودعا الى الرهبنة والزهد . والخلاصة يريد ماني استعجال فناء البشرية ليتغلب الخير على الشر .

بعد ظهور الزندقة الى نهاية الخلافة الأموية لكن تلك الحركة لم يزد خطرها الا في عهد العباسيين فانبرى المهدي للقضاء عليهم فكان صاحب الزنادقة يفتش عنهم ويحاكمهم فان لم يتوبوا قتلوا . وقد جعل هذا الخليفة ديوانا أفرده لهم وعهد به الى موظف خاص دعي بصاحب الزنادقة وتنحصر مهمته في القضاء على تعاليمهم ومقاومتهم والفتك بهم . ولم يكتف المهدي بالقضاء عليهم بالقوة بل أمر بتأليف هيئة علمية لمناظرتهم والرد عليهم . ويبدو اهتمام المهدي بالقضاء على حركة الزنادقة من الوصية التي أوصى بها ابنه وولي عهده موسى الهادي والتي اوردها الطبري وغيره حيث جاء فيها ما نصه:

" ان المهدي قال لموسى يوما وقد قدم اليه زنديق فاستتابه فأبى ان يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه : يا بني ان صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة — يعني أصحاب ماني — فانها فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : احدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق ، لتنقذهم من ضلالة الظلم الى هداية النور . فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له . فاني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين " .

وقد مر بنا أثناء كلامنا عن الوزارة أن سبب غضب المهدي على وزيره معاوية بن يسار مع ماكان يكنه له من احترام زندقة ابنه فذكرنا أن الخليفة طلب من أبيه ان يقوم لتقرب الى الله بقتل ابنه .

الفتوح في الهند : — أراد المهدي استئناف الفتوح في الهند فوجه سنة ١٥٩هـ حملة بحرية بلغ عدد الجنود الذين كانوا فيها (٩٢٠٠) جندي وفيهم متطوعة وبصريون وشاميون . وصلت الحملة مدينة باربد سنة ١٦٠ وقد فتحت عنوة بعد حصار يومين وضرب أسوارها بالمنجنيق وقد أشعلت النيران فيها لكن انتشار مرض سار بين صفوف الجند حمل القائد على التوقف عن موالاة زحفة بعد ان هلك من جنده ألف رجل ثم عادت تلك الحملة ولما كانت بحذاء ساحل ايران الجنوبي هبت عاصفة هوجاء حطمت عددا من سفنها وهلك عدد كبير من المقاتلة الذين كانوا سلموا من الوباء وعاد من كتبت لهم النجاة الى حاضرة الخلافة وكانوا قلائل .

العلاقة مع البيزنطيين : — لم تتوقف الحروب بين المسلمين والبيزنطيين طيلة خلافة المهدي وكانت في نفس الوقت برية بحرية . خرج هذا الخليفة في أول سنة من حكمه (١٥٩) غازيا في بلاد الروم وبلغ موقعا يقال له البردان وقد وجه منه عمه العباس بن

محمد (بن علي بن عبد الله) الى أنقرة كما ولّى المهدى سنة ١٦١ الصائفة ثمامة ابن الوليد ، فسار على رأس جيشه حتى بلغ دابق وعلى الرغم من ان جيش الروم كان أوفر عددا لم يحجم القائد العباسي عن الاشتباك به بالقرب من مرعش وكانت الغلبة للمسلمين ، ثم هزم المسلمون وقتل كثيرون من جنودهم فأحيا هذا النصر الموقت آمال البيزنطيين فأغاروا في العام التالي على حدود البلاد الاسلامية فتولّى الصائفة الحسين ابن قحطبة لكنه لم يتمكن من احراز الغلبة وعاد أدراجه من حيث أتى فطمع الروم باستئناف غاراتهم على الثغور وقد نجحوا سنة ١٦٣ بالاستيلاء على مرعش وأشعلوا فيها النيران فوجّه المهدى قائده الحسن بن قحطبة لقتالهم فعادوا دون أن يشتبكوا بجيش المسلمين ثم استأنفوا هجماتهم على الحدود الاسلامية فلما لاحظ الخليفة شنّ الروم هجمات متتالية على حدود البلاد الاسلامية أولى الحرب معهم عناية تامة وغزا بلادهم سنة ١٦٣ غزوة تعد بحقّ أهم الغزوات في عهد هذا الخليفة حيث فرض المهدى على أكثر هذه الاقاليم ان تمدّ جيش الحدود ببعوث وسرايا وخرج هو نفسه على رأس جيش بلغت عدته مائة وخمسين ألف مقاتل مصطحبا معه ابنه هارون الرشيد وقد استخلف على بغداد ابنه الهادى .

جعل الخليفة حلب مركزا للقيادة ولادارة الاعمال الحربية وقد وجّه منها ابنه وبمعيته كثيرون من وجهاء العباسيين وخرج المهدى لوداع ابنه حتى بلغ نهر جيحان فاستأنف الرشيد رحلته حتى بلغ حصن سمالو (سمالا) وحاصره مما يقرب من أربعين يوما وقد استسلم أهله شريطة ان لا يقتلهم وان لا يجليهم عن بلدهم وألا يفرق بينهم فقبل بتلك الشروط ووفي لهم بها ثم تعهّد الروم بدفع غرامة حربية فداء لأسراهم لكنهم نقضوا في السنة التالية شروط الصلح وعادوا الى الاغارة على البلاد الاسلامية فأناط المهدى أمر تأديبهم بابنه هارون الرشيد وضمّ اليه الربيع بن يونس .

شعر الخليفة بغدر الروم وانه يجب عليه ان يشنها عليهم حربا شعواء فجمع جيشا بلغ زهاء مائة ألف مقاتل عهد بقيادته للرشيد وقد عبر المهدى الفرات مع ابنه ثم زحف القائد على آسيا الصغرى حتى وصل سواحل البوسفور وهزم جيوش الروم وأجبر الوصية ايريني (هي أرملة ليوان الرابع وكانت وصية على ابنها الامبراطور قسطنطين السادس لصغر سنه) : على التعهد بدفع تسعين ألف دينار تؤدّى في ابريل ويونيو من كل عام كجزية سنوية تستوفى منها على دفعتين ، كما فرض عليها ان تقيم الاسواق والادلاء على طريق عودة الجيش الاسلامي وان تسلّم اسرى المسلمين الذين كانوا بأيدى الروم وقد حدّدت الهدنة الموقعة بين الجانبين بثلاث سنين ولما آب الرشيد مظفرا مدحه الشعراء ومن بينهم مروان بن أبي حفصة الذى قال :

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا ... اليها القنا حتى اكتسى الذلّ سورها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها ... بجزيتها والحرب تغلي قدورها

ثم نقض الروم الصلح سنة ١٦٨ (أى قبل انقضاء مدة الهدنة فوجّه اليهم والي الجزيرة وقنّسرين على بن سليمان بن علي يزيد بن بدر البطال فهزمهم .

وصفوة القول ان الحروب استمرت بين الروم والبيزنطيين في اكثر مدة خلافة المهدى وكان النصر غالبا بجانب المسلمين . وقد أفاد الخليفة من انتصاراته على البيزنطيين في بعث النفوذ في أفئدة الملوك المجاورين فهابوه وأطاعوه ومن بينهم ملوك كابل وطبرستان والسند وطخارستان وفرغانة وأشروسنة وسجستان والترك والتيبت والسند والصين والهند .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد وأخذ المهدى البيعة لابنية موسى الهادى

ثم هارون الرشيد ووفاة الخليفة :

نجح المهدى في حمل عيسى بن موسى على خلع نفسه من ولاية العهد فأخذ البيعة من بعده لابنية موسى الهادى وهارون الرشيد .

خرج المهدى الى الصيد وبصحبته ابنه هارون الرشيد فأدركت المنون الخليفة في ٢١ محرم سنة ١٦٩ في مكان يدعى ماسبذان فصلى ولي العهد الثاني على أبيه ودفنه في قرية يقال لها الروى وقد وجدنا مناسبا ان نختتم حديثنا على المهدى بمقالة المسعودى عنه : . . . وكان المهدى محببا الى الخاص والعام لانه افتتح أمره بالنظر الى المظالم والكفّ عن القتل ، وأمّن الخائف ، وانصاف المظلوم ، وبسط يده في الاعطاء فاذهب جميع ما خلّفه المنصور وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار ، سوى ما جباه في أيامه .

خلافة موسى الهادى ١٦٩ — ١٧٠ هـ : ٧٨٥—٧٨٦م

ولد رابع الخلفاء العباسيين سنة ١٤٤ هـ وقد ولاه أبوه العهد وهو في السادسة عشرة من عمره كما ولّى من بعده أخاه الرشيد وكان أصغر منه بسنة واحدة وأمهما الخيزران وكانت أمة للمهدى وكان الخليفة وزوجه أشدّ ايثارا لابنهما الرشيد لدرجة ان الخليفة أوشك ان يغيّر عهده الأول ويقدّم الرشيد على الهادى لكن المنون نزلت به قبل تحقيق تلك الفكرة .

كان الهادى بجرجان عند وفاة أبيه وكان المهدى كما مر بنا قد اصطحب معه ولي عهده الثاني (الرشيد) فلما توفي المهدى أخذ الرشيد البيعة لأخيه على الجند وبعث اليه باشرات الخلافة (القضيب والبردة) وأرسل يعزّيه بوفاة أبيهما ويهنئه بمنصب الخلافة وقد استمرت خلافته سنة وشهرا حيث توفي في منتصف ربيع الاول سنة ١٧٠ ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره .

نشأته وصفاته ، نظره في المظالم ووزراؤه : — كان الهادى طويل القامة كأبيه شجاعا قويا وكان كما روى يثب على الدابّة وعليه درعان وكان شديد الغيرة على النساء فشبّه بهذا المجال بسليمان بن عبد الملك وسيظهر ذلك أثناء شرحنا لعلاقته بأمه الخيزران ، كما كان كريما مسرفا في العطاء كأبيه محبّا للعلم كثير العطف على العلماء والاجلال لهم ومكرما للأدباء ، وقد روى أنه أول خليفة عباسي شرب النبيذ كما كان كلفا بسماع الغناء . رزق الهادى سبعة أولاد وبنتين احداهما أم عيسى وهي التى زفت لابن أخيه المأمون بن الرشيد . ويمكن ارجاع شدّته وشجاعته الى انه قضى اكثر أيامه في الحروب والى انه توفّي وهو في ميعة الصبا فلم تصقل الايام طباعه ولم تروّض نفسه وتشذّب قسوته .

أوعز الهادى بالّا يمنع أحد من الدخول عليه أو رفع ظلامته اليه فكان من رأيه ان الرعية لا تصلح اذا حجب الخليفة عنهم . وقلّد هذا الخليفة الفضل بن الربيع حجابة بابه وكان أبوه يليها من قبل لكن الهادى زوّده بنصائح قيّمة جاء فيها ألا تحجب عني الناس فان ذلك يزيل عني البركة ولا تلق اليّ أمرا اذا كشفته أصبته باطلا فان ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية .

موقفه من الزنادقة والخوارج : — رأينا ان المهدىّ أوصى ابنه ألا يكفّ عن ملاحقة الزنادقة عندما تؤول اليه الخلافة وقد أوردنا سابقا الوصية التي أوصي بها المهدى ابنه بصدد تلك الفئة المارقة عن الدين فلما تولّى الهادى سار في الزنادقة سيرة أبيه من حيث الشدّة والملاحقة وقد روى الطبرى ان الهادى قال : (لئن عشت لأقتلنّ هذه الفرقة كلها حتى لا أترك فيها عينا تطرف .. ومن قتلهم الهادى من تلك الفرقة يزدان بن باذان

وكان قد حجّ فنظر الى الناس وهم يهرولون اثناء الطواف فقال : " ما أشبّهم الا ببقر تدوس البيدر " فلما انبىء الخليفة بأمره قتله .

أتي للمهدى برجلين من بني هاشم اتّهما بالزندقة احدهما ابن لداهود بن علي والثاني يعقوب ابن الفضل ويعود بنسبه الى الحارث بن عبد المطلب فلما ناظرهما وأقرّا بزندقتهما ألقى بهما في السجن ولم يقتلهما وذلك لأنه كما قال ليعقوب بن الفضل " أما والله لولا أني قد جعلت لله علي عهدا اذا ولّاني هذا الأمر الا أقتل هاشميا لما ناظرتك وقتلتك " ثم التفت الخليفة لولي عهده الهادى قائلا : " يا موسى أقسمت عليك بحقّي ان وليت هذا الأمر بعدى ألا تناظرهما ساعة واحدة " وقد أدركت المنون ابن داهود بن علي قبل وفاة المهدى أما يعقوب بن الفضل فقد بقي في محبسه ، فلما حضر الهادى من جرجان تذكر وصية أبيه فيه فأرسل اليه في السجن من ألقى عليه فراشا وجلس كثيرون عليه حتى مات .

أما الخوارج فقد ثاروا في عهد الهادى في الجزيرة فقمعت ثورتهم وقتل منهم كثيرون

ثورة الحسين بن علي سنة ١٦٩ هـ في المدينة وقمعها : ـ أضعف مقتل النفس الزكية وأخيه ابراهيم في عهد المنصور البيت العلوى غير ان رؤساء ذلك البيت لم ينثنوا عن المطالبة بالخلافة كلما سنحت لهم فرصة ولكنهم لم يعودوا بعد مصرع النفس الزكية وأخيه يشكّلون خطرا قويا . وقد اقتصر موقف الخلفاء العباسيين من بني عمهم أحفاد علي على المراقبة واجبار رؤساء ذلك البيت على البقاء في حاضرة الخلافة كما صار الخلفاء يتفقون ولاة المدينة من الحذرين ممن لا تنام لهم عين منيطين بهم مهمة استقصاء أخبار باقي زعماء العلويين لئلا يؤخذ الخلفاء على حين غرّة فاستكان الطالبيون وسكنوا على مضض منتظرين سنوح الفرص للخروج على بني عمهم العباسيين وقد أدّى تشدّد والي المدينة في عهد الهادى وهو عمر بن عبد العزيز بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب في معاملة بعض الشباب العلويين الى خروج الحسين بن علي (بن الحسن ابن الحسن ـ ويعرف بالحسن الثلث ـ بن علي بن أبي طالب) سنة ١٦٩ هـ وسبب ذلك ما روى من ابن الحسن بن النفس الزكية قد قبض عليه الوالي مع لفيف من أصحابه وهم يشربون الخمر وقد ضربوا وجعلت في أعناقهم حبال وطيف بهم في الرسول فتشفع بهم الحسين بن علي ذاكرا للوالي أن اهل العراق لا يتشدّدون في تحريم النبيذ ، أطلق الوالي سراح ابن النفس الزكية بعد ان كفله الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله بن الحسن شريطة ان يمثل كل يوم أمام الوالي لكنه غاب ثلاثة أيام فاستدعى الوالي الحسين بن علي يحيى بن عبد الله وأغلظ لهما الكلام فخرجا من عنده بعد ان وعده يحيى بن عبد الله باحضار الحسن بن النفس الزكية وكان بالمدينة آنذاك جماعة من شيعة الكوفة وكان الاتفاق قد تمّ معهم على أن يخرج الحسين بن علي خلال موسم

الحجّ بمكة أو منى . لكن ذلك الحادث واستياء الحسين بن علي من والي الهادي على المدينة جعلاه يخرج في المدينة في العشر الثاني من ذي القعدة سنة ١٦٩ وقد بايعه كثيرون من أنصاره في المدينة ولم ينجح مريد والعباسيين في مدينة الرسول في مقاومتهم فغلب الحسين وأشياعه على المدينة وقام أصحابه بنهب ما في بيت المال وقد بايعه اتباعه على كتاب الله وسنّة نبيه وطاعة الطالبيّين من آل محمد ثم لم يلبث الحسين ان غادر المدينة الى مكة في العشر الأواخر من الشهر نفسه .

بلغ خروج الحسين بن علي موسى الهادي وكان قد ولّى موسم الحج في ذلك العام سليمان بن أبي جعفر المنصور وكان بصحبته نفر من أمراء العباسيين وبينما كان ركب أمير الحج عائدا الى العراق تسلّم محمد بن سليمان بن علي العباسيّ أمرا من الخليفة بوجوب قمع حركة الحسين بن علي فعاد الأمير العباسي والتقى بالزعيم العلوى في وادي فخ ويقع على بعد ستة أميال من مكة فالتحم الفريقان وهزم الحسين بن علي وقتل هو وجمع غفير من أصحاب على الرغم من استبساله وكانت تلك الموقعة رز؟ فادحا نزل بالشيعة لدرجة أنه قيل " لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشدّ وأفجع من فخّ ".

وعلى الرغم من قمع خلفاء العباسيين حركات العلويين وان القتل كان مصير الكثير من خرج منهم لكن العباسيين لم يلجؤوا الى ذلك التدبير القسوى الا مرغمين فكانوا على الدوام يراعون قرابة العلويّين من الرسول وقد روى المسعودي بصدد قتل الحسين بن علي ما يلي : " وأخذ لعبد الله بن الحسن بن علي وللحسين بن علي الأمان فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك (لعلّه كان موجودا بمعية محمد بن سليمان ابن علي العباسي اثناء اشتباكه بالعلويين في فخ) وقتلا بعد ذلك ، فسخط الهادي على موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس لقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن وترك المصير اليه ليحكم فيه بما يرى وقبض أموال موسى (بن عيسى) وأظهر الذين أتوا بالرأس الاستبشار ، فبكى الهادي وزجرهم وقال : اتيتموني مستبشرين كأنكم أتيتموني برأس رجل من الترك أو الديلم انه رأس رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ان أقل جزائكم عندي ألا أثيبكم شيئا ".

وقد تمكّن زعيمان علويّان من الذين كانوا قد انضموا الى قتيل فخّ من الفلات ففرّ أحدهما وهو ادريس بن عبد الله (بن الحسن بن الحسن بن علي) الى شمالي افريقيا كما فر أخوه يحيى بن عبد الله الى بلاد الديلم (كلاهما أخ للنفس الزكية) وسيكون لهذين الزعيمين الفارّين شأن أيام الرشيد على النحو الذي سنراه .

العلاقة بين الهادي وأمه الخيزران : كان المهدي شغوفا بالخيزران ولطالما سمح لها أن تتوسط لبعض ذوي الحاجات لديه فلما انتهت الخلافة لابنه الهادي وكان

غيورا لم يرغب ان يبقى باب أمه كعبة يقصدها ذوو الحاجات فطلب منها الامتناع عن ذلك لكنها لم تكف عن التوسط الأرباب المصالح وكان الهادى يجيبها دائما الى ما تبتغيه وبقيت على تلك الحال طيلة الأشهر الاربعة الاولى من خلافته الى ان وسطها ذات مرة عبد الله بن مالك في قضاء حاجة له طلبتها من ابنها ولما رفض تلبيتها قالت له " لقد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك " فغضب موسى وقال " ويلي على ابن الفاعلة قد علمت انه صاحبها والله لا قضيتها لك " قالت اذن " والله لا أسألك حاجة أبدا " قال " اذن والله لا أبالي " ثم قال " مكانك تستوعبي كلامي والله فأنا نفي من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بلغني انه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصوتك ؟ اياك أن تفتحي فمك في حاجة لمسلم ولا ذمي " .

كما قال الخليفة لأصحابه " أي خير أنا وأمي أم أنتم وامهاتكم ؟ قالوا بل أنت وأمك قال فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقال فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ، قالوا لا نحب ذلك . قال فما بالكم تأتون أمي فتتحدثوا بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها " .

وقد أدى هذا الجفاء بين الهادى وامه الى ادعاء بعض المؤرخين ان الخيزران صارت تكره ابنها ومما أذكى كراهيتها له محاولته خلع أخيه هارون من ولاية العهد على النحو الذى سيأتي بيانه ولذلك لا تعجب ان ادعى نفر من المؤرخين ان الهادى أرسل لامه طعاما مسموما فلم تأكل منه وأطعمته هرة فماتت . غير أنه ليس بوسعنا الجزم بصحة هذه الرواية لأنها لو صحت لما استبعدنا رواية ثانية ذكر فيها ان الخيزران أرسلت لابنها احدى جواريها لقتله . ومهما يكن فقد ذكر المسعودى ان الهادى استدعى امه عندما كان في ساعة الاحتضار وقال لها ما يلي : " انا هالك في هذه الليلة وفيها يلي هارون وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك ، ولم أكن بك عاقا ، بل كنت لك صائنا وبارا واصلا " قضى نحبه واضعا يدها على صدره في 15 ربيع الاول 170 .

محاولة الهادى اخراج أخيه الرشيد من ولاية العهد ووفاته : ـ اقتدى الهادى بأبيه فحاول خلع أخيه هارون الرشيد وقد وافقه على فكرته كثير من رجاله وحاشيته اما رغبة أو رهبة فيما عدا يحيى بن خالد بن برمك الذى طلب من الهادى التريث والعدول عن هذا الأمر لسببين أولهما صغر سن ابنه جعفر وثانيهما احتراما للعهد الذى كان

أبوه قد أخذه عليه وخشية لما قد يحدث ان تولّى الخلافة فتى لم يبلغ سن الرشيد فليس يعقل ان يذعن له وجوه بني هاشم . وكان مما نصحه به يحيى البرمكي لن يقبل الهادى أخاه هارون ويبايع من بعده لابنه جعفر فاستدعى يحيى وفاوضه في المهمة نفسها لكن الخليفة لم يرعو ولم يصغ بسمعه للنصح وزج بيحيى البرمكي في السجن

بقي الهادى مترددا لتنازعه عواطف شتّى فكان من جهة يرى استحالة تولّي ابنه الخلافة لصغر سنّه وهذا يجعله أميل الى ابقاء ولاية العهد لأخيه الرشيد ، لكن حبّه لابنه كان يطغى عليه في بعض الأحيان فيرى وجوب خلع هارون ليفهد بالخلافة لابنه جعفر ومن قبيل ذلك ما رواه المسعودى من حوار جرى بين الأخوين (الهادى والرشيد) فقد ذكر هذا المؤرخ ان الهادى قال ذات يوم لأخيه "كأني بك قد تحدّثك نفسك بتمام الرؤيا (1) وتؤمّل ما أنت عنه بعيد ومن دون ذلك خرق القتاد فقال له هارون : يا أمير المؤمنين ، من تكبّر وضع ، ومن تواضع رفع ، ومن ظلم خذل ، وأن وصل اليّ الأمر وصلت من قطعت ، وبررت من حرمت ، وصيّرت أولادك أعلى من أولادى وزوّجتهم بناتي وقضيت بذلك حق الامام المهدى " وقد أثّر هذا الكلام العذب في نفس الهادى وأطفأ نائرة غضبه فبرقت أسارير وجهه سرورا وقال لأخيه " ذلك الظنّ بك يا ابا جعفر ، ادن مني . فقام هارون فقبّل يده ثم ذهب ليعود الى مجلسه فقال الهادى : والشيخ الجليل والملك النبيل لا جلست الا معي في صدر المجلس ، ثم أمر خازن بيت المال أن يحمل الى هارون ألف ألف دينار وخمسمائة ألف اذا وفّى زمن الخراج ولما أراد هارون الخروج قدّمت دابته حتى وصلت الى بساط الخليفة " .

ومع عدول الهادى عن فكرة خلع أخيه في تلك الفترة لكن حبّه لابنه وايثاره له على أخيه عاوداه فأخذ يضيّق على الرشيد وأوعز الى رجال حاشيته أن ينالوا منه مقتديا في هذا السبيل باضطهاد جدّهما المنصور لولّي عهده عيسى بن موسى لدرجة جعلت هارون الرشيد يوشك أن ينزل عند رغبة أخيه لولا أن ثناه يحيى البرمكي عما عزم عليه من خلع نفسه ثم أشار عليه ان يتجنّب مقابلة أخيه وذلك بأن يطلب منه الاذن بالخروج الى الصيد وان يبقى بمنأى عن أخيه فلما طال غياب الرشيد استدعاه الهادى وألّح عليه بضرورة العودة لكن الرشيد كان ينتحل أعذارا شتّى ليطيل بقاءه الى ان حمّ القضاء فاستأثرت المنون بالهادى في مدينة عيسى أباد (وهي مدينة تبعد ميلا واحدا عن بغداد) بعد مرض عضال لم يمهله سوى ثلاثة ايام وتوفّي هذا

---

(1) رأى المهدى في منامه أنه دفع قضيبين لابنه الهادى والرشيد فأما قضيب الهادى فأورق قليلا من أعلاه بينما أورق قضيب الرشيد من أوله الى آخره ففسرت تلك الرؤيا بان خلافة الهادى ستكون قصيرة الامد بينما سيطول عهد الرشيد وسيكون زاهرا .

الخليفة في الخامس عشر مع ربيع الاول 170 . وقد ذهب بعض المؤرخين الى انـــه كان للخيزران أمه ضلع في وفاته حيث كانت أرسلت له احدى جواريها لقتله فلما استدعى الهادى أمه على النحو الذى فصلناه آنفا وأدركت أمه ان ابنها هالك، لا محالـــة أرسلت على ما رواه بعض الرواة الى يحيى البرمكي ان الهادى في حالة الاحتضـــار وقد أمرته بالاستعداد للمناداة بالرشيد خليفة فأعدّ يحيى الكتب لعمّال الولايات من الرشيد يعلمهم فيها بوفاة الهادى وان الرشيد يثبتّهم فيما كانوا يلون من اقاليـــم فلما قضى الهادى نحبه أنفذت تلك الكتب لأربابها مع البريد .

خلافة هارون الرشيد 170 – 193 هـ : 786–809 م

هو هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور ولد سنة 145 هـ بالرّى (لا تـــزال انقاضها بادية بالقرب من طهران فتبعد خمسة كيلو مترات عن تلك المدينة ويقـــال لها مشهد) من أعمال خراسان وأمّه ولد هي الخيزران وكان في الخامسة والعشريـــن من عمره عند ما ولي الخلافة وقد أعقب اثنى عشر ولدا ذكرا أشهرهم الأمين والمأمـــون والقاسم المؤتمن والمعتصم وأربع بنات .

كان المهدى وزوجه الخيزران يتوسّمان في ابنهما الرشيد النجابة والكفاية لادارة شؤون الدولة ولذلك فكّر المهدى بتغيير ولاية عهده الاولى وتقديم الرشيد علـــى الهادى لكن المنية عاجلته قبل أن يحقّق تلك الرغبة . وقد غزا الرشيد بلاد الـــروم عدة مرات في عهد أبيه على النحو الذى فصلّناه أثناء كلامنا عن المهدى وولـــي هارون الخلافة ليلة وفاة أخيه (15 ربيع الاول 170) وصادف ان توفي خليفـــة وولد خليفة في نفس تلك الليلة فالخليفة المتوفي فيها هو موسى الهادى والخليفـــة المبايع هو الرشيد ، أما الخليفة المولود فيها فهو عبد الله المأمون .

صفات الرشيد وأخلاقه وعدله ، اجلاله للعلماء وولعه بالشعر والشعراء واجزالـــه صلاته لهم وورعـــه :

كان هذا الخليفة أبيض طويلا بهيّ الطلعة يميل الى السمنة وكان عادلا معنّيـــا بتفقّد شؤون الرعية فلطالما طاف في الليالي شوارع بغداد وازقتّها ليقف على شـــؤون رعيته فيتاح له اقامة العدل واغاثة الملهوف وانصاف المظلوم . وكان عفيف النفـــس زاهدا محسنا تقّيا ورعا كريما يعطي عطاء من لا يخشى الفقر متمسّكا بشعائر الديـــن . كما روى انه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة ويتصدّق من ماله الخاص بألف درهـــم في اليوم ، وقد حجّ تسع مرات في خلافته ولم يتخلف في السنين الأخرى عن تلـــك

الفريضة الا لا نشغاله بالغزو ، وهو أول خليفة حجّ ماشيا ، وكان على ما ذكر صاحب الفخرى : "اذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم ، واذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة ، والكسوة الظاهرة — وكان يتشبّه في أفعاله بالمنصور الا في بذل المال ، فانه لم يز خليفة أسمح منه بالمال وكان لا يضيع عنده احسان محسن ولا يؤخّر ويميل الى أهل الأدب والفقة ويكره المراء في الدين . وكان يحب المديح ، لاسيما من شاعر فصيح ، ويجزل العطاء عليه " .

كان الرشيد كثير الاجلال والعطاء للعلماء وللشعراء ، وقد قيل بأنه لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقرّاء والقضاة والكتاب والندماء والمغنّين ما اجتمع على باب الرشيد كما كان هو نفسه شاعرا راوية للأخبار والاشعار . ومما يذكر بكل فخر لهذا الخليفة اجلاله للعلماء وقبوله نصح الوعاظ فقد روى أحد علماء عصره وهو أبو معاوية الضرير ما يلي : أكلت مع الرشيد يوما فصبّ على يدى الماء رجل ، فقال لي يا أبا معاوية ، أتدرى من صبّ الماء على يدك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، فقال : أنا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا اجلالا للعلم؟ قال نعم . "

كما روى انه دخل على الرشيد ابن السمّاك الواعظ فطلب منه الرشيد ان يعظمه فقال : " "يا أمير المؤمنين اتقّ الله وحده لا شريك له واعلم انك غدا بين يدى الله ربك ثم مصروف الى احدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار . فبكى هارون حتى أخضلّت لحيته فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السمّاك فقال سبحان الله وهل يخالج أحدا شكّ في ان أمير المؤمنين مصروف الى الجنة ان شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله — فلم يحفل ابن السمّاك ولم يلتفت اليه وأقبل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ، ان هذا (ويعنى به الفضل بن الربيع) ليس والله معك ولا عندك في ذلك .

اليوم فاتق الله وانظر لنفسك — فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأفحم الفضل بن الربيع ينطق بحرف " .

كما روى ان الرشيد دعا ذات مرة أبا العتاهية الشاعر الزاهد الى طعام فبعد ان وعظه بكى الرشيد فالتفت الفضل بن يحيى البرمكي الى ابي العتاهية قائلا : "بعث اليك أمير المؤمنين لتسّره فحزنته . فقال الرشيد : دعه ، فانه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه " .

اقتبس هذا الخليفة عن جدّه المنصور كلفه بالعلم والعناية بشؤون العلماء فقد أحضر الرشيد كثيرا من الكتب القديمة التى وجدها في أديرة آسيا الصغرى وأوعز الى

مترجمين كطبيبه يوحنا بن ما سويه وغيره بنقلها الى العربية . وقد نبح في عصره كثير من العلماء والشعراء كالأصمعي الذى أوكل اليه الرشيد أمر الاشراف على تثقيف أبنائه والامام الشافعي وقاضي قضاته أبي يوسف وعيسى بن يونس وسفيان بن الصوري وابراهيم الموصلي المغنّي وجبريل بن بختيشوع ، وقد قال ابن خلدون بصدد ذلك : "ان الرشيد اقتفى أثر جده فيما عدا الشحّ والبخل اذ لم يكن يميزه انسان في الكرم والسخاء" [1] وما أكثر الامثال عن كرمه نقتصر على ايراد واحد منها فقد دخل عليه مرة اسحق بن ابراهيم الموصلي وأنشد بين يديه قصيدة جاء في آخرها :

وانى رأيت البخل يزرى بأهله ... ويحقر يوما ان يقال بخيل

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأى أمير المؤمنين جميل

فقال الرشيد : لا ان شاء الله ، يافضل أعطاه مائة ألف درهم ، لله درّ أبيات تأتينا بها ما أحسن فصولها وأثبت أصولها فقلت يا أمير المؤمنين ، كلامك أجود من شعرى ، قال أحسنت ، يا فضل ، اعطه مائة ألف أخرى .

وكانت زوجة أم جعفر (زبيدة بنت جعفر بن المنصور) أم الامين تجاري بعلها كرما ، وقد قيل انها حجّت سنة 186 مع زوجها وولديه الأمين والمأمون فلما لاحظت ما يقاسيه أهل مكة للحصول على ماء الشرب أوعزت بحفر عدّة آبار قدّر المؤرخون نفقاتها بحوالي المليون ونصف المليون دينار ولا تزال تلك الآبار تحمل الى أيامنا اسم بئر الست زبيدة .

كان الرشيد شجاعا مقداما وقد ولي حرب الروم مرارا بنفسه . ومع كل تلك الصفات الحسنة والأخلاق الحميدة فقد أخذ على هذا الخليفة شرب النبيذ وسرعة الغضب فلم يكن يحجم عن الانتقام من أعدائه عندما يقعون في قبضته هذا بعد يأسه من محاولة اصلاحهم وسنرى ذلك أثناء كلامنا عن موقفه من العلويّين ، فهو في هذه الناحية أقل حلما من ابنه المأمون الذى كان كثير الصفح عن أعدائه بعد الظفر بهم . وقد ازدهرت بغداد في عهده وغدت كعبة يحجّ اليها طلّاب العلم من سائر أنحاء المعمورة وبلغت درجة رفيعة من الحضارة والعمران وصارت أهم مركز تجاري في العالم تؤمّها القوافل من أوروبة والشرق الأقصى ومن شبه الجزيرة العربية وغيرها من الاقطار النائية وقد ذكر السيوطي انه عنّ للرشيد أن يوصل البحر الابيض المتوسط بالبحر الأحمر ، فلم يحجم عن ذلك الا بعد ان نصحه يحيى بن خالد البرمكي بقوله : "كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم الى الحجاز فعدل عن هذا الرأى" .

وصفوه القول كانت أيام الرشيد كما وصفها السيوطي : "كلها أيام خير ، كأنها في

حسبتها أعراس" وكانت خزائنه تفيض بالأموال حيث بلغت واردات الدولة في عهده اثنين وسبعين مليون دينار عدا الضرائب العينية وكان يستلقي على ظهره ويقول للسحابة المارة : " اذهبي حيث شئت يأتني خراجك " .

العلويون في عهد الرشيد وموقفه منهم : — لم يخلد العلويون الى السكينة مع عظم الكارثة التي نزلت بهم في فخ سنة ١٦٩ في عهد الهادي فظلّوا على اعتقادهم الراسخ ان العباسيين اغتصبوا حقّهم في الخلافة . وكان قد نجا من تلك الموقعة زعيمان هما يحيى بن عبد الله وأخوه ادريس (أخو النفس الزكية) ففرّ أولهما الى بلاد الديلم جنوب غربي قزوين كما فرّ الثاني الى شمال افريقيا .

كانت تحدو الرشيد في أول عهده رغبة استمالة العلويين فقام بفك الحجر عن كثير ممن كانوا أجبروا على المقام ببغداد فأرسلوا الى المدينة فيما عدا العباس بن الحسن ابن عبد الله غير ان خروج أخوي النفس الزكية يحيى وادريس جعله ينتهج سلوكا يتميّز بالحذر والشدة .

خروج يحيى بن عبد الله في بلاد الديلم سنة ١٧٦ هـ : — فرّ يحيى بن عبد الله بعد موقعة فخ سنة ١٦٩ الى بلاد الديلم وقد ازداد نفوذه فيها واعتقد أهلها بحقّه في الخلافة وأخذوا ينضمّون اليه . قلق الرشيد لازدياد وكثرة عدد أشياع يحيى فأخذ يعمل الحيلة للقضاء عليه فولّى الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي بلاد جرجان وطبرستان والري وأمده بخمسين ألف جندي طالبا منه قمع حركة الزعيم العلوي. كتب الفضل ليحيى يحذّره ويخوّفه ويمنّيه الأماني ان استسلم الى أن نجح في حمله على الاستسلام شريطة ان يكتب له الرشيد أمانا بخطّه فكتب ابن يحيى البرمكي الى الخليفة بنتيجة مساعيه والمفاوضات الدائرة بينه وبين الزعيم العلوي فوافق الخليفة على ذلك وكتب أمانا أشهد به على نفسه الفقهاء ووجوه بني هاشم وبعث به وبصلات كثيرة الى الفضل الذي وجّهها الى يحيى بن عبد الله وآبا معا الى حاضرة الخلافة فأحسن الخليفة استقبالهما ونال يحيى حظوة لدى الخليفة غير ان بكارا بن عبد الله الزبيري (وكان شديد الكراهية للشيعة) سعى به الى الخليفة ذاكرا انه ما زال يفكّر بالدعوة لنفسه فأوعز الخليفة الى جعفر بن يحيى البرمكي ان يسجنه وأخذ يستفتي الفقهاء في الأمان الذي كان قد منحه للسجين العلوي فمنهم من أصرّ على وجوب التمسك بما جاء فيه ومنهم من أفتى بجواز نقضه (ممالأة للخليفة) . أطلق جعفر البرمكي سراح السجين العلوي دون أخذ رأي الخليفة الذي علم بالخبر نتيجة وشاية الفضل بن الربيع (حاجب الخليفة) بالوزير البرمكي ، وسنرى أثناء كلامنا عن نكبة البرامكة ان اطلاق جعفر لسراح السجين العلوي كان سببا من أسباب انتقام الرشيد منهم .

خروج ادريس بن عبد الله في المغرب الاقصى (مراكش) سنة ١٧٢ هـ وتأسيس دولـة الأدارسة :

جاء ادريس (أخو النفس الزكية) كذلك من موقعة فخ ففر الى مصر ومنها ذهب الى شمال افريقيا حيث أيده البربر وبايعوه بالخلافة ونجح في فتح تلمسان . ونظرا لبعد الشقـة أدرك الخليفة صعوبة القضاء على ذلك الزعيم العلوى بارسال جيش لاخضاعه فعمد الـى الحيلة وذلك أرسل سليمان بن جرير المعروف بالشماخ موعزا اليه ان يحتال في قتلـه وزوده بمال وطرف ليستعين بها في الوصول لمأربه فلما وصل الشماخ الشمال الافريقـي اتصل بادريس مظهرا له سخطه على حكم العباسيين وتبرمه بهم فسر ادريس من ذلـك الوافد عليه وجعله من أخص المقربين اليه الى ان سنحت فرصة للشماخ فدس السم لادريـس وفر هاربا فتوفي الزعيم العلوى سنة ١٧٧ ولم يعقب ولدا لكنه ترك أمة من امائه حاملا فانتظر مريدوه وضع حملها فوضعت غلاما أسموه ادريس كأبيه وبايعوه بالخلافة وظهرت منذ ذلـك الحين دولة الادارسة في المغرب الأقصى .

القبض على موسى الكاظم وسجنه ووفاته سنة ١٨٤ هـ : سبب خروج أخوى النفـس الزكية (يحيى وادريس) عدول الرشيد عن سياسة اللين بازاء العلويين الى سياسة الشدة فصار يخشى الطالبيين وينتقم منهم وممن عرف بالميل اليهم ، ومما تجدر الاشارة اليه ان زعماء العلويين انقسموا على أنفسهم في تلك الفترة وأخذ بعضهم يقع ببعض . وقد أدت سعايـة بعضهم بموسى الكاظم بن جعفر الصادق وكان مقيما بالمدينة الى انتقام الخليفة منه .

ألقي القبض على ذلك الزعيم العلوي سنة ١٧٩ هـ في المدينة اثناء قيام الخليفة بأداء فريضة حج ذلك العام وقد نقل موسى الى بغداد حيث سجن وقد كلف الخليفة أخـت السندى بن شاهك العناية بالسجين في محبسه وبقي موسى في السجن الى ان مات ١٨٣ ، وقد قال أمير علي : " وقد حدث مرتين ان سمح الرشيد لهذا الامام الوديع بالرجـوع الى الحجاز ، ولكن شكوكه كانت في كلتا المرتين تتطلب على طيبة قلبه فيبقيه في الحبـس حتى ساءت صحته وقد توفي في منزل سجينته " . على ان مؤرخين آخرين أوردوا ان موسـى الكاظم حمل الى بغداد " حيث حبس ، ثم قتل ، وادخل عليه جماعة من العدول شهدوا انه مات حتف انفه " وقد كان موسى الكاظم في الرابعة والخمسين من عمره عندما وافتـه المنون وقبره الآن في الكاظمية " وهو حي الكوخ ويقع غربي بغداد وهو حي الشيعة فيها .

البرامكة : لما آلت الخلافة الى الرشيد حفظ لمؤدبه بن خالد البرمكي أياديه البيضاء فقلده شؤون الدولة واستوزره وزارة تفويض ، وكان ليحيى هذا أربعة أولاد كان أحبهـم وأقربهم الى قلب الرشيد جعفر : ولبيان ذلك نقتصر على رواية حادثة أوردها صاحـب الفخرى وتتعلق بحضور عبد الملك بن صالح بن علي العباسي الى جعفر لسؤاله قضـاء

حاجات له فقال له جعفر : " ... ما حاجتك ؟ قال : (أصلحك الله جئتك في ثلاث حوائج أريد ان يخاطب الخليفة فيها ، أولها أن علّي دينا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه وثانيها أريد ولاية لابني يشرف بها قدره وثالثها اريد ان تزوّج ابني بابنة الخليفة ، فانها بنت عمه وهو كفؤ لها فقال له جعفر بن يحيى قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث : أما المال ففي هذه الساعة يحمل الى منزلك ، واما الولاية فقد وليّت ابنك مصر — وأما الزواج فقد زوّجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا ، فانصرف في أمان الله " .

رأينا ان الرشيد عهد بادارة شؤون الخلافة ليحيى بن خالد فقام بها مع أولاده على وجهها الاكمل مدة سبعة عشر عاما لكن ازدياد نفوذهم أطال ألسنة حاسديهم وعلى رأسهم الفضل بن الربيع حاجب الخليفة . وقد كان أفراد تلك الاسرة وفيري الكرم كثيرى الصلات للشعراء والفقراء ومما أثار حفيظة الخليفة عليهم ملاحظته وقوف الشعراء بأبوابهم أكثر من وقوفهم ببابه . فمن قبيل ذلك ان الرشيد حجّ ذات مرة ومعه الأمين والمأمون ويحيى بن خالد والفضل وجعفر وجلسوا كلهم لتوزيع أموالهم على فقراء مكة فأجلس الخليفة يحيى في معيّته كما جلس الفضل بن يحيى مع الأمين وجعفر بصحبة المأمون وقد بلغ من وفرة عطائهم الناس ان المكيّين صاروا يضربون المثل بما نالوه في ذلك العام فيقولون عام الأعطيات الثلاث . لكن الخليفة ساءه ان الشعراء مدحوا يحيى بن خالد وولديه بأكثر مما مدحوه هو والأمين والمأمون .

<u>نكبة البرامكة</u> : تضاربت أقوال المؤرخين في ايراد السبب أو الاسباب التي حملت الرشيد على التخلص من البرامكة ، لكن مهما اختلفت آراؤهم فكلهم أجمعوا على ان السبب الرئيسي لنكبتهم هو شعورا الخليفة بازدياد نفوذهم عن القدر الذى كان مستعدا ان يمنحه لمن ترسد اليه الوزارة فمهما كان الخليفة يريد ان تكون صلاحيات وزيره واسعة فما لا يقبل الشك انه لم يكن ليوافق على ان تطغى تلك الصلاحيات لدرجة يغدو الخليفة معها مسلوب السلطة . وقد هال الرشيد ملاحظته انه فرّط في تنازله عن سلطاته تنازلا كلّيا .

١ — رأى بعضهم ان نكبة يحيى وأولاده كانت بسبب <u>استئثارهم بالسلطة من دون الخليفة</u> وقيامهم بجمع الأموال لدرجة ان الخليفة نفسه كان لا يحصل أحيانا على المال الذى يطلبه وهذا رأى بن خلدون .

٢ — <u>عاش البرامكة عيشة بذخ واسراف لدرجة ان جعفر بن يحيى انفق على بناء قصره المقابل</u> لقصر الخلد في بغداد (قصر الخلافة) مليونا وستمائة وخمسة وستين ألف دينار غير ما أنفقه على أثاث ورياش ذلك القصر مما أثار كوامن الحسد والغيرة في نفوس خصوم اسرته وقد تنبأ ابراهيم بن المهدى بذلك أمام جعفر نفسه فأجاب عندما سأله جعفر عن داره " ..

الذى يعيبها عندى انك انفقت عليها نحوا من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شىء لا آمنه عليك غدا بين يدى أمير المؤمنين ..

٣ ـ كما عزا آخرون سبب نكبة آل برمك الى ميلهم الى العلويين وقد رأينا اثناء كلامنا عن موقف الرشيد من العلويين ان هذا الخليفة بعد ان عفا عن يحيى بن عبد الله عقب خروجه في بلاد الديلم سلّمه الى جعفر البرمكي طالبا منه سجنه فأطلق جعفر سراحه دون علم الخليفة الذى أحيط بالأمر علما من قبل الفضل بن الربيع حاجبه . وعلى الرغم من ان الخليفة غيظه وأخفى استياءه أمام الواشي بل قال له : " وما أنت وهذا لا أم لك فلعلّ ذلك عن أمرى " لكنه دعا جعفرا الى الغذاء وسأله عقب الانتهاء من الطعام " ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق بالأكيال قال بحياتي ؟ فأحجم جعفر ، على ما أورد الطبرى ، وكان من أدق الخلق ذهنا وأصحهم فكرا ، فهجس في نفسه انه قد علم بشيء من أمره وقال : لا وحياتك ياسيدى ، ولكن اطلقته وعلمت انه لا حياة به ولا مكروه عنده ، قال نعم ما فعلت ، ما عدوت ما كان في نفسي ، فلما خرج اتبعه بصره حتى كاد ان يتوارى عن وجهه . ثم قال قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة ان لم أقتلك ، فكان من أمره ما كان " . (الطبرى ج/٦ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦) .

٤ ـ هذا ولتشر انه بلغ الرشيد عن عبد الملك بن صالح بن علي العباسي الخروج عليه وانه مؤيد من قبل البرامكة الذين يقومون بمساعدته في دعوته فقبض الخليفة عليه وعليهم وألقى بالجميع في السجن (بعد ان قتل جعفر بن يحيى كما سنرى) .

٥ ـ ومما روى بين أسباب غضب الرشيد على البرامكة حادثة اخته العباسية التى كانت من الخليفة بمنزلة جعفر . ونظرا لحرص الخليفة على حضور كليهما مجلسه سمح لهما بعقد الزواج شريطة ألا يخلو بها جعفر ، ثم بلغ الرشيد ان جعفرا اتصل سرّا بأخته التي حملت منه طفلا بعثت به بعد الوضع خفيه الى الحجاز ، فلما بلغ ذلك الرشيد غضب غضبا شديدا وعوّل على الانتقام من جعفر .

٦ ـ رمي البرامكة كذلك بالزندقة التي اتهمهم بها الخطيب البغدادى وابن النديم وغيرهما ، ومهما يكن فقد تضافرت كل تلك الأسباب لدرجة حملت الخليفة على النيل منهم أولا ثم دفعته الى الخلاص منهم فأوعز الخليفة بادئ الأمر الى خدمه ورجال حاشيته ألا يقوموا ليحيى بن خالد ان دخل عليه . ونستدل على مدى تغيّر الرشيد عليهم من ايراد رواية نقلها صاحب الفخرى عن طبيب الخليفة بختيشوع ابن جبريل جاء فيها : " دخلت يوما على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينه وبينهم عرض دجلة ، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى به خالد فقال : جزى الله يحيى خيرا ، تصدى

للامور وأراحني من الكدّ ووفّر أوقاتي على اللذة ، ثم دخلت عليه بعد أوقات ، وقد شرع يتغّير عليهم ، فنظر فرأى الخيوف كما رآها تلك المرة فقال استبدّ يحيى بالأمور دوني فالخلافة علي الحقيقة له ، وليس لي منها الا اسمها فقلت انه سينكبهم فنكبهم عقب ذلك".

حجّ الرشيد سنة ١٨٦ فلما عاد دعا في ليلة السبت أول صفر سنة ١٨٧ خادمه مسرورا وأمره ان يأتيه برأس جعفر بن يحيى وألا يراجعه فذهب مسرور ونفّذ ما أوكل اليه وأتى برأس جعفر وجسمه الى الخليفة فصلب في بغداد كما أمر بالقاء القبض على أبيه وأخوته وسجنهم واستخلص أموالهم وصادر ضياعهم ولم يستثن منهم سوى محمد فلم يمسّه بسوء . وهكذا قضي على البرامكة بعد استمرار نفوذهم سبع عشرة سنة .

موقف الرشيد من الزنادقة والخوارج : – سار الرشيد في الزنادقة سيرة أبيه وأخيه فعيّن موظفا خاصا دعي بصاحب الزنادقة قسا في معاملة من تثبت زندقته فقد كان يمتحن المتهّمين بالزندقة ومن تثبت التهمة عليه عوقب بأقسى العقوبات . ومما تجدر الاشارة اليه ان اعتناق الزندقة لم يعد يقتصر في العصر العباسي الأول على الفرس انما تجاوزهم الى العرب ، فممن شهر بها من العرب أيام الرشيد صالح بن عبد القدوس الشاعر مطيع بن اياس وقد مر بنا أن من جملة الأسباب التي جعلت الرشيد ينقلب على البرامكة رميهم بالزندقة .

أما الخوارج فقد استمرّوا في شمال افريقيا على مناوأتهم للحكم العباسي على نحو ما سيأتي بيانه ، كما ثار سنة ١٧٨ أحد زعمائهم شمالي بلاد الشام وهو الوليد بن طريف الشارى الشيباني . وقد استفحل خطره بعد انتصاره على عدة حملات وجّهها الخليفة لقمع فتنته وبعد ان تمكّن من قتل والي نصيبين . ازداد خطر هذا الزعيم الخارجي سنة ١٧٩ فعبر دجلة ووصل حلوان وازداد عدد أتباعه فوجّه الرشيد لقتاله يزيد بن مزيد الشيباني الذى نجح في قتل ذلك الخارجي في موقع الحديثة على بعد فراسخ من الأنبار فتسلّمت اخته القيادة والتحمت بجيش الخليفة .

الحال في خراسان وما وراء النهر والهند وأفغانستان وشمالي العراق وبلاد الشام :

لم تهدأ خراسان في عهد الرشيد وذلك لظلم واليها علي بن عيسى بن ماهان الاهالي وارهاقهم بمصادرة أموالهم وطرفهم التي كان يرسل الشيء الكثير منها الى الخليفة . ولم يكن الرشيد يشكّ في سيرة واليه حتى ترامت اليه الأخبار بما يعانيه الخراسانيون من استبداد وارهاق واليهم لهم كما بلغه سنة ١٨٩ ان ذلك الوالي المستبدّ مزمع الخروج عليه فتجهّز لحربه وسار الى الرّى وعسكر بالنهروان ثم والى زحفة على قرماسين وعاد أخيرا الى الرّى حيث مكث أربعة أشهر وافاه في نهايتها علي بن عيسى بالأموال والهدايا كما وزّع هدايا كثيرة على كبار حاشية الخليفة فرضي الرشيد عنه وعاد الى بغداد ظانا ان ما وصل

اليه من أخبار لم يكن سوى وشاية ساعين أرادوا الايقاع بواليه ولما آب علي بن عيسى الى مرو أخذ يمعن في الاساءة الى من ظنّ أنهم سعوا به عند الرشيد .

ثار في ذلك العام رافع بن الليث بن نصر بن سيّار فوجّه علي بن عيسى ابنه لاخماد حركته فمني بالهزيمة وقتل في بلخ فأخذ الأب يتهيّأ لقتال رافع وكان كلما جمع هو وابنه المقتول أموالا كثيرة دفنها ابنه سرّا في بستان داره في بلخ ثم ذاع أمرها فهاجم أهالي بلخ البستان وانتهبوا تلك الأموال ولما بلغ الرشيد ذلك أدرك سوء سيرة علي بن عيسى في ولايته فقرّر عزله وعين هرثمة بن أعين ليخلفه على خراسان لكنّه لم يعلن رغبته في التخلّص من علي بن عيسى بل أعلن انه أرسل هرثمة وجيشه مددا لوالي خراسان ليساعده في القضاء على رافع بن الليث وان يكن الخليفة قد زوّد هرثمة بكتاب من يده جاء فيه عزل علّي وعماله وكتّابه ومحاسبتهم حسابا عسيرا ومصادرة أموالهم .

قبض هرثمة على علي بن عيسى وصادر أمواله وأموال أولاده التي حملت على ألف وخمسمائة بعير بعثها الى بغداد كما أرسل علي بن عيسى وأولاده مكبلين بالأغلال الى حاضرة الخلافة ومع ان هرثمة سعى للقضاء على رافع لكنه لم يوفّق بهذا القسم من مهمته . ولما استفحل أمر رافع من جديد سنة ١٩٢ قرّر الخليفة ان يسير بنفسه لاخماد حركته لكنه توفّي بالقرب من طوس في ٤ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ . أما رافع فقد استمرّ في حركته طيلة خلافة الأمين (١٩٣ — ١٩٨) الى ان قدّم خضوعه الى المأمون .

وقد ألحقت كابول حاضرة الأفغان في عهد الرشيد سنة ١٧١ بالبلاد الاسلامية التي امتدت حدودها آنذاك حتى مدينة كوشر في الهند . كما ثار الخزر (سكان البلاد المطلة على بحر قزوين) سنة ١٨٣ على الخليفة وذلك بتحريض البيزنطيين فأخذوا يغيرون على شمالي ارمينيا ويمعنون سلبا وقتلا في سكانها الآمنين فوجّه الرشيد لقتالهم عدّة حملات قضت على المغيرين وردّتهم على اعقابهم بمنتهى القسوة والصرامة . أما في شمالي العراق فقد ثار أهل الموصل في نهاية سنة ١٧٩ وأول سنة ١٨٠ فقمع قواد الخليفة حركتهم وأمر الخليفة بهدم أسوار مدينتهم عقابا لهم على ذلك .

وثارت فتن العصبية القبلية بين اليمنية والمضرية في بلاد الشام واتخذت شكل نزاع سافر أخذ يحتدم مدة سنتين فوجّه الخليفة في النهاية سنة ١٧٦ موسى بن يحيى البرمكي لقمع الفتنة فأنجزت تلك المهمة على أتمّ وجه اذ أصلح ذات البين فهدأت الأحوال . وان يكن الخليفة قد أفاد من شبوب نار الفتنة في تلك الأرجاء وذلك لأنه لم يكن يثق بولاء أهل الشام للعباسيين . لا بل ذهب بعض المؤرخين أمثال سيد أمير علي الى القول ان الخليفة نفسه " أخذ يثير العصبية القبلية من حين لآخر بين المضريين والحميريين كي يضعف بذلك شوكتهما ثم ينكل بهما أروع تنكيل بحجة توقيف الشغب واطفاء لهيب الثورة ".

عادت فتن العصبية الى الظهور من جديد في بلاد الشام سنة ١٨٦ فلما استفحل الخطر وجّه الرشيد جعفرا بن يحيى البرمكي لتهدئة الأحوال فنجح في مهمته دون اراقة دماء وعاد ادراجه الى بغداد .

الحال في شمالي افريقيا وتأسيس دولة الأغالبة فيها : لم يخضع البربر والخوارج في شمالي افريقيا للعباسيين خضوعا تاما بل كانوا كثيرا ما يثرون عليهم ، وقد ازدادوا قوة بمن انضم اليهم من الأسر العربية التي نزحت الى تلك البقاع من البلاد الاسلامية واتخذتها موطنا لها . وقد مرّ بنا ان معتقدات الخوارج انتشرت كثيرا بين عرب وبربر شمالي افريقيا . وتمكّن زعماء العرب من تأسيس بعض الدويلات في تلك المناطق كان اشهرها وأطولها عمرا دولة الادارسة في مراكش الحالية وقد بقيت من سنة ١٧٣ الى سنة ٣١٣ هـ ، والأغالبة في تونس حيث دامت دولتهم بين سنتي ١٨٤ — ٢٩٦ حتى قضى عليها الفاطميون .

وقد رأينا تأسست دولة الأدارسة ، أما الاسباب التي أدّت الى قيام دولة الأغالبة فهي ازدياد الفتن في الشمال الافريقي في عهد الرشيد بين سنتي ١٧٨ — ١٨١ فعهد بمهمة قمعها الى قائد من خيرة قواده هو هرثمة بن أعين الذى وصل تلك الارجاء سنة ١٧٩ وبصحبته جيش كبير فهدّأ الأحوال غير أنه لاحظ استحالة استقرار سلطة العباسيين في تلك البقاع النائية نظرا لبعد الشقة وللعداء الذى يكنه البربر والخوارج للعباسيّين فغادر البلاد عائدا الى بغداد سنة ١٨١ بعد ان دام مكوثه في شمالي افريقيا سنتين ونصف ثم عيّن الخليفة محمد بن مقاتل بن حكيم (هو أخو هرثمة بالرضاع) ليخلف هرثمة في هذه المناطق لكنه سار على سياسة الاضطهاد والتعسّف فثار البربر والخوارج من جديد واحتلّوا القيروان بعد طردهم الوالي منها . اذ ذاك قام ابراهيم بن الأغلب وكان يلي نواحي الزاب للوالي المطرود بجمع جيش تمكّن به من هزيمة البربر وارجاع الوالي الى حاضرته .

ازدادت الحال حرجا بعد ازدياد قوة الأدارسة اثر التفاف كثير من عناصر البربر في المغرب الأقصى (مراكش) حول ادريس بن عبد الله العلوى ونجاحه في تأسيس دولة الأدارسة فظهرت للرشيد ضرورة اسناد الشمال الافريقي لوال قوّى كفأ لا سيما ان لاحظ ان مرّد ثورة البربر في تونس الى سوء سيرة محمد بن مقاتل فيهم . وكان ابن الاغلب قد التمس من الخليفة تلك الولاية وراثية أسرته متعهّدا ضبط انحائها وتقديم خراجها (وكانت من قبل تسدّده الى مصر التي كانت القيروان ملحقة بها) البالغ مائة ألف دينار كما تعهّد بارسال مبلغ أربعين ألف دينار علاوة عن ذلك المبلغ .

استشار الرشيد هرثمة بن أعين فيما يتعلّق باقتراح ابن الأغلب فحبّذه نظرا لكفاءته

ومقدرته وحنكته فوافق الخليفة وعيّن ابراهيم بن الأغلب على الولاية الجديدة في محرم سنة ١٨٤ فقام بضبط شؤونها وقمع فتنتها وشيّد مدينة جديدة بالقرب من القيروان دعاها العباسية جعلها حاضرة ولايه عوضا عن القيروان .

رغب ابن الأغلب في القضاء على دولة الادارسة غير أنه عدل عن فكرته في النهاية ولم يشتبك معهم بقتال . وهكذا تأسست دولة الأغالبة في الشمال الافريقي ولم يكن يربطها بالخلافة العباسية سوى تأدية الخراج ثم لم يلبث ذلك الرباط ان وهن واستقلت دولة الأغالبة استقلالا يكاد يكون تاما وان ظلّت الخطبة للخليفة العباسي كما بقي نقش اسمه على المكة واستمرّت تلك الدولة في تونس الى قضاء الفاطميين عليها في نهاية القرن الثالث الهجرى (سنة ٢٩٦ هـ) .

العلاقة بين الرشيد وأمويّي الاندلس وبينه وبين ملك الفرنجة شارلمان : كان الرشيد كجدّه المنصور يودّ القضاء على دولة أمويي الاندلس ، لكن تلك الدولة كانت قوتها قد ازدادت فحذا هارون حذو جدّه بالابقاء على الصداقة العباسية مع ملوك الفرنجة وكان المنصور قد وثق عراها ، ويفيد الرشيد من ذلك اجبار خلفاء قرطبة على البقاء هادئين كما تكسبه تلك الصداقة قوة بازاء امبراطور البيزنطيين . أما شارلمان فكان هو نفسه أيضا يميل الى تقوية مركزه في أوروبة من طريق الاتفاق مع الخليفة العباسي وذلك لتسمو مكانته على مكانة امبراطور البيزنطيين نفوذ في أعين القبائل الجرمانية التي حملها على اعتناق الدين المسيحي ونبذ وثنيتها القديمة . وليس كاستلامه مفاتيح الاماكن المقدسة في فلسطين من الخليفة العربي يكسبه تلك المنزلة السامية حيث يغدو معتبرا حاميا للمسيحيّين ، هذا بالاضافة الى رغبته بأن يقتبس الغربيون من مناهل العلم في الشرق وسعيا وراء هذه الغاية أرسل شارلمان وفدا من لدته (رجلين نصرانيين وثالثا يهوديا) الى الرشيد ملتمسا تسهيل مهمّة الحجاج الاوروبيين الى الاماكن المقدسة . وقد أم البلاد الاسلامية أشخاص من اليهود تعلّموا الطب ثم عادوا الى أوروبة فأرسل شارلمان صحبة واحد منهم (يدعى اسحق) هدية الى الرشيد . وقد مكث هذا الطبيب اليهودى أربع سنين في بغداد ثم عاد الى اكسلاشابل حاضرة شارلمان مزوّدا بهدية من الخليفة العباسي فيها فيل يدعى أبا العباس وساعة دقّاقة وغير ذلك من تحف النادرة كما أرسل الرشيد مفاتيح الاماكن المقدسة لامبراطور الفرنجة .

علاقة الرشيد بالبيزنطيين : ـ كان الرشيد لا يزال يذكر الحروب التي خاضها البيزنطيين في عهد أبيه . وقد هداه حسن تفكيره الى ضرورة اقامة ولاية تضم الثغور الحاجزة بين بلاد الامبراطوريتين الاسلامية والبيزنطية وتكون مهمة عاملها تولّي حرب البيزنطيين والوقوف لهم بالمرصاد فأنشأ سنة ١٧٣ ولاية العواصم التي تعصم وتقي البلاد الاسلامية من غزوات الروم . وقد قلّد الخليفة عبد الملك بن صالح تلك الولاية

وكانت تضمّ قورس وانطاكية وتيزين ثم ضمت طرسوس التي بنيت في عهد الرشيد .

غزا الرشيد نفسه بلاد الروم سنة ١٨١ كما غزا عبد الملك بن صالح تلك البلاد حتى بلغ انقرة ولم يزل هذا الأمير العباسي يلي العواصم حتى ١٨٧ حينما بلغ الرشيد انه مزمع الخروج عليه فسجنه مع البرامكة كما ذكرنا ، ثم ولّى الخليفة ابنه القاسم هذه الولاية فاتّخذ مقره في منبج . وكانت ايريني هي التي تحكم البيزنطيين وصيّة على ابنها قسطنطين السادس ولما كانت بلادها تقع بين عدوين هما شارلمان والرشيد فضلت مهادنة الثاني وعقدت معه هدنة مقابل دفع الجزية وقد استمرّت على دفعها الى سنة ١٨٧ (٨٠٢ م) حيث ثار عليها الروم وخلعوها وتولّى الحكم امبراطور جديد هو نقفور نجح أولا في الاتفاق مع شارلمان بأن سوّى مشاكل الحدود بين دولتيهما ثم التفت الى المسلمين فعوّل على نقض الهدنة المبرمة معهم وقطع الجزية وكتب الى الرشيد كتابا بهذا المعنى .

استثار هذا الكتاب الخليفة العباسي فردّ على الامبراطور البيزنطي بما يلي : " بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك والجواب ماتراه دون ما تسمعه والسلام " . ثم زحفت قوات المسلمين على بلاد الروم وكان الخليفة في طليعتها الى ان استولى الرشيد على هرقلة ، ثم طلب نقفور الصلح على مال يؤديه كل سنة لكنه نقض عهده ثانية بعد ان ارتدّ المسلمون عن بلاده مباشرة فلم يكد يسمع الخليفة بالخبر حتى ارتدّ الى بلاد الروم وهزم امبراطورهم من جديد .

قامت حرب أخرى بين الطرفين كما حصل فداء سنة ١٨٩ وهو أول فداء تم وكانت نتيجته ان لم يبق بأرض الروم مسلم واحد . كما غزا الخليفة آسيا الصغرى من جديد سنة ١٩٠ ففتح هرقلة عنوة وسبى أهلها فأرسل نقفور الجزية واشترط ألا يخرّب الخليفة المسلم حصن ذى الكلاع ولا صملة ولا سنان فاشترط الرشيد الا يعمر نقفور هرقلة وان يحمل اليه ثلاثمائة ألف دينار .

نقض الروم العهد مجددا فولّى الخليفة الصائفة سنة ١٩١ هرثمة بن أعين فغزا بلاد البيزنطيين الذين أغاروا في العام القادم على بلاد الاسلامية في آسيا الصغرى وهزموا الحاميات الاسلامية في مرعش . ثم بعث الخليفة قوات الى طرسوس .

لم يقتصر غزو المسلمين البلاد البيزنطية في عهد الرشيد على آسيا الصغرى فحسب بل تعدّاه الى الجزر فغزوا سنة ١٩٠ قبرص واستولوا على (١٦،٠٠٠) اسير ومن بينهم أسقف الجزيرة وعلى العموم لم تنقطع الحروب بين المسلمين والبيزنطيين طيلة خلافة هارون الرشيد الذى حالفه النصر ضدهم .

<u>ولاية العهد ووفاة الخليفة</u> : — وقع الرشيد تحت تأثير عوامل مختلفة في أخذه البيعة لأولاده من بعده . فكنا رأينا انه أسلم ابنه محمد (هو من زوجته زبيدة بنت

جعفر بن المنصور) الى الفضل بن يحيى البرمكي ليشرف على تربيته فجعلت زبيدة (مؤيدة من وجوه بني هاشم) من جهة والفضل من جهة أخرى يلتمسان من الرشيد ان يبايع لابنه محمد ومن بعده (لاخيه عبد الله على الزغم من أن محمدا أصغر سنا من عبد الله) فرضخ الخليفة في النهاية ارضاء لزوجته ولبني هاشم ورضي بما قام به الفضل من أخذ ولاية العهد لمحمد في خراسان وولّى الرشيد عهده ابنه محمدا وسمّاه الأمين وذلك سنة ١٧٣ . ثم لم يلبث ان ضمّ اليه الشام والعراق سنة ١٧٥ غير ان كبار رجالات العباسيين لم يكونوا كلهم مؤيدين لتلك البيعة التي لم يقرّها الخليفة الاتلبية لرجاء زوجته زبيدة والفضل مربّي ولده وبعض رجال بني هاشم نظرا لكون ولي العهد نفسه لم يكن جديرا بالخلافة لسوء تدبيره وتبذيره وانهماكه في اللهو وبذلك رجحت كفة الأمين على المأمون على ماعرف به هذا الأخير من استقامة وسمو في الأخلاق وتضلّع في علوم عصره ولم يكن ذنبه سوى ان أمّه امّ ولد خراسانية تدعى مراجل .

لم يلبث الخليفة ان ندم على فعلته لأنه قنع بعدم صلاح الأمين للخلافة وأخيرا استدعى يحيى بن خالد سنة ١٨٣ ، على ما رواه المسعودي عن الأصمعي وأفهمه أنه عازم على تغيير عهده القديم لقناعته التامّة ان الأمين ليس كفئا للخلافة .

وطلب الخليفة رأي يحيى في هذا الموضوع فهداه حسن تفكيره الى حلّ نصفة يجمع بين ارضاء بني هاشم بتولية الأمين والاهتمام بصالح الرعية بتولية ابنه المأمون . وهكذا أخذت البيعة للمأمون من بعد الأمين . لكن الرشيد لم يكن واثقا من الأمين لذلك أحبّ ان يقيّده بعهود شديدة لا فسحة فيها فحجّ سنة ١٨٦ واصطحب معه وليّي عهده وأوعز الى ولي عهده الأول (الأمين) ان يكتب عهدا على نفسه بألا يخلع أخاه المأمون وعلق ذلك العهد على الكعبة كما بايع من بعد المأمون للقاسم ودعاه بالمؤتمن . وقسّم دولته بين أولاده الثلاثة فكان نصيب الأمين القسم الغربي والمأمون القسم الشرقي . أما المؤتمن فقد جعل له ولاية العواصم . ومما يدلّ على أن الرشيد كان يثق بالمأمون أنه سمح له اذا أراد ذلك أن يخرج أخاه المؤتمن من ولاية العهد بعده .

خرج الرشيد سنة ١٩٢ لقمع حركة رافع بن الليث في خراسان وكان المأمون بمعيته وصار يتقدمه في الزحف ، فلما وصل الخليفة الى قرية سناباذ بالقرب من طوس شعر بوطأة المرض فاستدعى من كان حاضرا بعسكره من بني هاشم وأوصاهم بما يلي : " ان كل مخلوق ميّت وكل جديد بال ، وقد نزل بي ماترون ، وأنا أوصيكم بثلاث : الحفظ لأمانتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم . وانظروا محمدا وعبد الله فمن بغى منهما على صاحبه فردّوه عن بغية وقبّحوا له بغية ونكثة " . ثم توفى الرشيد في الرابع من جمادى الآخرة سنة

١٩٣ هـ (٨٠٩ م) بعد ان دامت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر وقد دفن بطوس وقد بلغت بغداد في عهده أوج ازدهارها فغدت أهم مدن العالم تنظيما وعمرانا .

خلافة الأمين : ١٩٣ — ١٩٨ هـ ٨٠٨—٨١٣ م

نشأته وصفاته : ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠ هـ منفردا بميزة لا يشاركه فيها أحد من الخلفاء سوى علي بن أبي طالب وابنه الحسن ، وهي كونه هاشميا أما وأبا ، فهو ابن الرشيد من زوجة زبيدة بنت جعفر بن المنصور . وكان جميلا أبيض الوجه اقنى ووصفه السيوطي بقوله " وكان من أحسن الشباب صورة ، أبيض طويلا ، ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة ، يقال انه قتل مرة أسدا بيديه . وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة لكن كان سيىء التدبير كثير التبذير ضعيف الرأي أرعن ، لا يصلح للامارة " وقال أبو الحسن الاحمر : كنت ربما أنسيت البيت الذي يستشهد به في النحو ، فينشدنيه الأمين وما رأيت في أولاد الملوك اذكى منه ومن المأمون " .

غلب على الأمين لهوه وميله الى التبذير فكان معنّيا ببذل المال لجنده ليضمن ولاءهم في نزاعه مع أخيه المأمون ، أضف الى ذلك عنايته بجلب المضحكين واقتناء القيان الحسان كما زاد في عدد الخصيان مما رواه سيد أمير علي (مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٢٠) .

بيعته وأثر الفضل بن الربيع في الايقاع بينه وبين أخيه المأمون : رأينا ان الرشيد خرج سنة ١٩٢ على رأس جيش لقمع حركة رافع بن الليث في خراسان . فلما بلغ قرية سناباذ بالقرب من طوس ادركته منيته بعد ان كان استدعى من بعسكره من بني هاشم موصيا اياهم بالحفظ لأماناتهم والنصيحة لأئمتهم واجتماع كلمتهم " وانظروا محمدا وعبد الله فمن بغى منهما على صاحبه فردّوه عن بغية وقبّحوا له بغية ونكثة " .

كان الرشيد يشعر بتفاوت اخلاق الأخوين ويدرك أن النزاع لا محالة واقع بينهما بتأثير بطانة السوء التي كان الأمين يحيط نفسه بها . فأوصى ، بعد ان أشهد الحاضرين أن يؤول الجيش الموجود بمعيتّه والقوات التي وجّهها لخراسان وما في ذلك الجيش من مال وسلاح وعتاد الى المأمون وكان صالح بن الرشيد حاضرا وفاة أبيه فصلى عليه اثر وفاته . وكان الأمين آنذاك ببغداد فحمل له البريد نبأ مصرع أبيه ، كما أرسل صالح لأخيه خاتم الخلافة والقضيب والبردة . وقد استلم رسالة من أخيه المأمون (وكان بمرو بتقدّم أباه على رأس قوات الطليعة لقتال رافع) يعزّيه فيها بوفاة أبيهما ويهنّئه بالخلافة أما الأمين فكان مقيما عند وصول نبأ وفاة أبيه في قصر الخلافة حيث تمّت له البيعة . ولم تلبث زبيدة ، وكانت موجودة بالرقّة ، ان لحقت بابنها في بغداد وأقامت معه في قصر الخلافة .

نكث الفضل بن الربيع العهد الذى كان الخليفة المتوفي قد أخذه عليه بالمضيّ مع الجيش الى مرو (عاصمة خراسان) والانضمام الى المأمون ، وذلك لشعوره مقدّما بعدم تمكّنه من الاستمرار في الوزارة التي كان يليها في عهد الرشيد منذ نكبة البرامكة خاصة وكان يعرف في الأمين ضعف الارادة وعدم الاهتمام بشؤون الحكم . ولرغبة ابن الربيع في البقاء في الوزارة بدا له ان يخون الأمانة التي في عنقه (عهده الذى قطعه للرشيد بالمضيّ مع الجيش الى المأمون في خراسان) فجمع طائفة من قواد الجيش وتداول الأمر معهم ذاكرا لهم حجتّه في ترجيحه وهي " الآ يدع ملكا حاضرا لآخر لا يدري ما يكون من أمره " فاقتدى به أغلب قادة الجيش لسببين ان خيانتهم ستمكّنهم على الأقلّ من تجنّب الحرب واللّحاق بأهلهم ومنازلهم ببغداد . وقد سرّ الأمين لموقف الفضل وثبّته في الوزارة . ومما ضاعف سروره تسلّمه الأموال التي كانت في الحملة وقد اغتصبها الفضل وأعادها للأمين الذى وزّع منها رواتب سنتين مقدّما على الجنود ليضمن ولاءهم .

تحرّج موقف المأمون بنتيجة خيانة الفضل بن الربيع حيث حرم من المال والقوة في نفس الوقت غير انه لم تبدر منه أيّة بادرة تريب أخاه أو تنم عن رغبته في الانتقام منه أو خلع طاعته ، لا بل على العكس والى كتبه لأخيه الأمين مظهرا فيها آيات الولاء والتعظيم ما أرفقها بهدايا من طرف خراسان وان يكن أمس حذرا مما قد يبيّت له في بغداد أو يحاك من مؤامرات للتخلّص منه .

أخذ الفضل بن الربيع بعد ايابه الى بغداد يهيّء الجواء الصالحة لتنفيذ خطته الرامية الى تزيين خلع المأمون من ولاية العهد فقد كان يخشى انتقام هذا الاخير فيما لو آلت اليه الخلافة فجعل ابن الربيع يحثّ الأمين على اخراج أخويه المأمون والقاسم من ولاية العهد ليبايع ابنه موسى الذى لقّب بالناطق بالحق وان يكن بعض المؤرخين ذكروا ان الأمين كان يحرص على الوفاء بالعهد الذى كان والده قد أخذه عليه وعلى أخويه . وكان الفضل يلقى تأييدا في خطته . من قبل أحد مستشارى الأمين وهو علي بن عيسى بن ماهان . ولم يزل هذا ان المستشاران بالأمين حتى بدأ يميل لتنفيذ منهاجهما على مراحل ، كان أولها ايعازه الى الولاة وعمالهم في سائر الامصار الاسلامية بالدعاء لابنه موسى بالامرة اثر الدعاء للمأمون والقاسم ، وثانيها عزله أخاه القاسم المؤتمن عن ولاية العواصم واستقدامه للحاضرة ليتاح له خلعه . استاء المأمون من موقف أخيه وقطع عنه البريد كما اسقط اسمه من الطراز .

مضى الأمين مؤيّدا من مستشاريه قدما في تحقيق غايته فأرسل لأخيه المأمون وفدا برئاسة أحد وجوه العباسيين ، العباس بن موسى بن عيسى ، لجعل المأمون يرضى بتقديم موسى ابن أخيه على نفسه في ولاية العهد فلم يستجب المأمون لما طلب

منه وكان مستشاره ومدبر أمره الفضل بن سهل من بين الذين ثبتوه على الرفض. وقد نجح الاثنان في استمالة العباس بن موسى بن عيسى نفسه فوعدهما ان يكون عونا وعينا للمأمون في بغداد وصار اثر عودته اليها يكتب للمأمون والفضل بأخبار الأمين وخطاته .

موقف المأمون ومراحل النزاع حتى مقتل الأمين : كان جعفر البرمكي (هذا قبل نكبة البرامكة) قد أشار على الرشيد ان يلحق الفضل بن سهل بمعية ابنه المأمون فغدا مدبرا الأمور، عندما كان وليا للعهد . وكان الفضل مجوسيا أسلم سنة ١٩٠ هـ فلما عاد الفضل بن الربيع بالجيش الى بغداد اغتم المأمون في مرو وأشير عليه ان يبعث اثر ذلك الجيش قوة من الفرسان لتثني القادة عن العودة الى حاضرة الخلافة لكن الفضل بن سهل لم يكن يقر ذلك الرأي بل الاكتفاء بتوجيه رسالة الى الجيش يذكر فيها القادة بما أمرهم به الرشيد من المضي الى خراسان والانضواء تحت لواء المأمون أذعن المأمون لرأي مدبره غير أن تلك الرسالة لم تجده فتيلا بل تابعت تلك القوات ، وعلى رأسها الفضل بن الربيع ، طريقها الى بغداد . بلغ ذلك المأمون فاغتم لكن الفضل بن سهل هون عليه الأمر وأمله بالخلافة وطلب منه ان يسير في الخراسانيين سيرة عادلة ليكسب تأييدهم له فيما لو نشب نزاع بينه وبين أخيه . فلما حاول الأمين خلع أخيه المأمون لقي هذا الأخير كل تأييد وعطف من جانب أهالي خراسان .

أدرك المأمون والفضل بن سهل ان الأمين سوف لن يتراجع عن عزمه بعد فشل العباس بن عيسى ابن موسى في مهمته فعمدا الى تدبير وقائي ، وكانا يخشيان تمكن الفضل بن الربيع من افساد القادة الذين بقوا بصحبة المأمون ، فعمدا الى اغلاق الحدود بين العراق وخراسان فلم يعد بوسع أحد من العراق دخول أراضي خراسان قبل ان يوثق منه ويفتش تفتيشا دقيقا وذلك مخافة استمالة جند المأمون لجانب الأمين . بلغت تلك التدابير الأمين والفضل بن الربيع فكان جواب الخليفة ارساله الى مكة من استحضر كتابي العهد المعلقين في الكعبة وقد كان مر بنا ان الأمين والمأمون وقعا هما في حياة أبيهما وقد تعهدا فيهما بالوفاء لبعضهما ولأخيهما المؤتمن فلما أحضر الكتابان الى بغداد مزقهما الأمين .

تبودلت رسائل بين الأخوين لم تؤد الى أية نتيجة وكان لا بد من اللجوء الى القتال لحسم النزاع ، فجمع الأمين والفضل بن الربيع زهاء اربعين ألف مقاتل عهدا بقيادتهم لعلي بن عيسى بن ماهان (وكان والي خراسان في عهد الرشيد وقد أذاق الخراسانيين صنوف العذاب خلال ولايته) وقد زودته زبيدة بقيد من الفضة أعد لتقييد المأمون عندما يقع في الأسر . ولم يدر الأمين والفضل بن الربيع انهما خدما قضية المأمون باسناد قيادة الجيش لعلي بن عيسى ، ومرد ذلك الى ان الخراسانيين كانوا يخشون

عودة علي بن عيسى لولاية اقليمهم كيلا يسومهم سوء العذاب والاضطهاد والارهاق .
فانصرفوا بكل قواهم لتأييد المأمون الذي عبأ قواته مسندا قيادتها الطاهر بن الحسين ابن الخزاعـــــي .

ولّى الأمين علي بن عيسى البلاد الفارسية المتاخمة للعراق وغيرها (كور الجبل ونهاوند وهمذان وقمّ واصفهان) فزحف هذا القائد مستخفّا بطاهر وجيشه ، وقد بلغ اعتداده بقوته ان ظنّ طاهرا سيمني بالهزيمة المحققة عند أول اصطدام يحدث بين قوات الفريقين . والــى جيش علي زحفة فبلغ جوار الريّ حيث دارت المعركة بينه وبين خصمه الذي كان أخـــــذ للأمر أهبته واستعد أيما استعداد للاشتباك بعدو يفوقه عدّة وعددا . ولما التقــــى الجمعان تغلبت قوات علي على مينة وميسرة طاهر الذي بثّ الحماس في جنوده وتمكن قلب جيشه في النهاية من احراز الغلبة على جيش الأمين وقتل قائده علي بن عيسى بن ماهان .

بلغ نبأ الهزيمة ومصر القائد المأمون والفضل بن سهل فسرّا بها وبعثا بالامدادات لطاهر أما الأمين والفضل بن الربيع فلما أحيطا علما بهزيمة جيشهما ومقتل قائدهمـــا تألما كثيرا وصادر الفضل مبلغ الألف ألف درهم التي كان الرشيد وهبها للمأمون قبـــل وفاته ، كما صادر أملاك المأمون الخاصة في بغداد ، هذا بالاضافة الى اقتراح بعـــض أفراد حاشية السوء على الأمين ان يقبض على أولاد أخيه المأمون الذين كانوا في بغـــداد ويجعلهم رهائن لديه ثمنا لاستسلام أخيه او يقوم بقتلهم ان أصرّ المأمون على مناصبـــة أخيه العداء . لكن ذلك الاقتراح لم يجد أذنا صاغية من الأمين الذي على العكـــس من ذلك زجّ بالمقترح بالسجـــن .

وجّه الأمين والفضل بن الربيع جيشا آخر بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري أنـــزل به طاهر ابن الحسين الهزيمة في همذان وأمّنه ان استسلم فقبل ذلك . ثم وجّه الأمين ووزيره جيشا ثالثا بقيادة أحمد بن مزيد (الشيباني) ومعه عشرون ألفا وعبد اللـــه ابن حميد بن قحطبة وكان ذلك على رأس عشرين ألف مقاتل فقصدا حلوان . وقد نجـــح طاهر بمعونة عيونه في جيش القائدين ان يذكي الخصام بينهما فاقتتلا وتخليا عن الموقـــع الحصين الذي كانا يحتلانه بجوار حلوان (خانقين) فاعتصم به طاهر ولم تقـــم بعد ذلك قائمة لجيش الأمين .

وجّه المأمون هرثمة بن أعين لطاهر في حلوان وأمر الخليفة هذا الاخير بالتخلّـــي عن قيادة جيش الشمال لهرثمة وأن يتوجّه هو الى الأهواز (في الجنوب الغربي مــــن بلاد فارس) وذلك لتطبيق الجيوش على بغداد من ناحيتين . وقد نجح طاهر باستيلائه على فارس واليمامة والبحرين مع يلي الأهواز وضمّها كلها لمنطقة نفوذ المأمون الـــذي كان أهل فارس قد بايعوه بالخلافة ثم دخل طاهر في النهاية واسطا وأنفذ منها رســولا من لدنه لعامل الأمين على الكوفة (هو العباس بن موسى) الهادي) فاستجـــاب

بالانضمام لجانب المأمون وخلع طاعة الأمين . كما بعث طاهر في رجب ١٩٦ رسولا من عنده الى أمير البصرة المنصور بن المهدى الذى انضم لجانب المأمون وقد حدث كذلك في الوقت نفسه ان عامل الأمين على مكة وهو داود بن عيسى بن موسى استاء من خلع الأمين أخويه وبيعته لابنه موسى الناطق بالحق فجمع سدنة الكعبة وحجا بها ووجوه قريش وفقهاء مكة وكل من كان شهد على الأخوين في العهدين السابقين الذكر وذكرهم بوصية الرشيد بانحيازهم الى المظلوم من ولديه على الظالم وأخيرا اتفق الحاضرون على خلع الأمين وبيعة المأمون وكان ذلك في ٢٧ رجب ١٩٦ هـ ، ثم كتب داوود لابنه سليمان ، وكان أمير المدينة ، بما تم في مكة فحذا المدنيون حذو المكيين في خلع الأمين وبيعة المأمون كما قصد داوود نفسه مرو وأبلغ المأمون بما تم في الحجاز من خلع طاعة أخيه فثبته في ولايته وقد انفذ معه طاهر أثناء عودته يزيد بن جرير القسرى واليا على اليمن من قبل المأمون فقبل اليمنيون خلع طاعة الأمين وانحازوا لجانب المأمون .

وبينما كانت الانتصارات تترى على قواد المأمون كانت ظروف الأمين ووزيره الفضل بن الربيع تزداد سوءا . فقد كان الرشيد سجن عبد الملك بن صالح بن علي العباسي بتهمة تآمره مع البرامكة . وقد أطلق الأمين سراحه فطلب ولاية الجزيرة وأرمينيا واعدا الخليفة بتأييد عرب الشام رضي الأمين بما عرض عليه فلما استنفر عبد الملك بن صالح أهل الشام وهبوا لنصرة الأمين ضد المأمون ربيب الفرس وأتت جموعهم الى الرقة حيث نشبت فتنة بين عربي وخراساني وتفاقم الشر وتقاتل العرب والموالي (وكانوا يدعون كذلك بالابناء) وكان الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان (هو ابن أول قائد وجهه الامين لحرب طاهر بن الحسين فقتل) على رأس الخراسانية . وبنتيجة تلك الفتنة عاد العرب الى بلاد الشام تاركين الأمين وشأنه فعاد الحسين بن علي بن عيسى لبغداد واتفق مع الموالي على خلع الأمين الذى خلع في ١١ رجب ١٩٦ وبيعة المأمون ثم قبض على الأمين وسجنه فأخرجه بعض زعماء بغداد من محبه .

انفذ المأمون ثلاثة جيوش لحصار بغداد أولها جيش هرثمة بن أعين الذى بعد أن استقر في حلوان أخذ يوالي زحفة شمالي شرقي بغداد ، وثانيها جيش طاهر بن الحسين الذى استولى على الأهواز والبصرة وواسط ثم والى زحفة شمالا فاحتل المدائن وتابع زحفة شمالا الى بغداد . أما الجيش الثالث فكان بقيادة المسيب بن زهير . وقد أطبقت ثلاثة الجيوش على عاصمة العباسيين ودام الحصار عدة أشهر فضاقت السبل بالأمين ومنعت عنه الأموال التي كانت ترد العاصمة من الولايات فاضطر لبيع في خزائنه من أمتعة وحول الآنية الذهبية والفضية دنانير ودراهم لتتدارك نفقات جيشه . وقد ذاقت بغداد من هذا الحصار أهوالا وانتشر فيها الجوع وسفكت الدماء والحرائق فاستعان الخليفة بالعيارين

والشطار والمسجونين غير ان ضررهم كان أعمّ من نفعهم .

أعيت الأمين الحيل واستنفذ كل وسائل الدفاع ولما تحقّق مستشاره الفضل بن الربيع استحالة المقاومة فرّ تاركا الخليفة وحده لمقاومة الخطوب فلم يجد الأمين منلصا من عرض الاستسلام لهرثمة بن أعين شريطة أن يقتاد حيّا لأخيه وذلك لوثوقه من حب أخيه المأمون له على الرغم من موقفه منه . غير أن طاهرا أبي الا أن يأسر الأمين وأخيرا تمّ الاتفاق على أن يسلّم الخليفة نفسه لهرثمة بينما يدفع شارات الخلافة (الخاتم والقضيب والبردة) لطاهر . أتى هرثمة في حراقة لشاطئ المنصورية (على الضفة الغربية من دجلة) حيث كان الأمين معتصما مع أسرته ، لاستلام الأمين وكان طاهر قد أكمن نفرا من أصحابه فلما ركب الأمين الحراقة رماها أصحاب طاهر بالحجارة فقلبت في الماء وأشرف هرثمة والأمين على الموت غرقا في دجلة . أتى أصحاب هرثمة وأنقذوه أما الأمين فقد سبح في دجلة حتى أدركه رجال طاهر فاقتادوه الى أميرهم الذى أمر بقتله يوم الأحد في ٢٥ محرم ١٩٨ وكان في الثامنة والعشرين من عمره . وكتب طاهر بما أحرز من نصر وبمقتل الأمين لأخيه المأمون ثم دخل طاهر بغداد في يوم الجمعة وخطب أهلها خطبة قيّمة دعاهم فيها الى الهدوء والطاعة ثم غادر المدينة الى معسكره .

تألّم المأمون لمقتل أخيه وأمر بمعاقبة القتلة وبلغ من فرط ألمه ان تبنّى أولاد أخيه المقتول وأبقى أمر تربيتهم لجدّتهم زبيدة كما أبقى لهم سائر أموال وأملاك أبيهم وقد زوجهم من بناته عند ما بلغوا سنّ الرشد . وهكذا قضى الأمين ضحية خطأ طالما وقع فيه خلفاء الأمويين والعباسيين وهو نظام ولاية العهد الثنائي ولم تدم خلافته سوى أربع سنين وثمانية أشهر .

<u>علاقة الأمين بالبيزنطيين</u> : – لم تقع في فترة حكم الأمين المضطربة أية حروب بينه وبين البيزنطيين وذلك لانغماسه في حمأة الفتنة التي استعرت بينه وبين أخيه المأمون وقد كلّفته حياته كما مر بنا .

<u>ثورة السفياني في بلاد الشام</u> : – لم تخل بلاد الشام من فتن أيام الأمين فقد خرج فيها أحد أحفاد معاوية وهو المدعو <u>علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية</u> (وهو المعروف بالسّفياني) ودعا لنفسه بالخلافة وتمكّن من احتلال دمشق بعد طرده عامل الخليفة عليها وأوشك أن يستقل بتلك الربوع لولا قيام خلاف بين اليمنية والمضرية فيها . أرسل الأمين <u>الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان</u> على رأس جيش لقمع تلك الحركة لكن الخليفة تألّم من هذا القائد الذى انحاز لجنده الخراسانية في نزاعهم مع الجنود العرب فاستدعاه لبغداد . ثم تولّى مهمة قمع حركة السفياني عبد الملك بن صالح بن علي العباسي . وقد استمرت تلك الفتنة سنتين ولم يبق بلاد الشام

في حوزة العباسيين (لا سيما وكان الأمين منشغلا في نزاعه مع أخيه) سوى الفتنة التي استمرت بين مضربيّ ويمنّي بلاد الشام .

خلافة المأمون : ١٩٨ـ٢١٨هـ، ٨١٣ـ٨٣٣م

ولادته ونشأته : هو أبو العباس عبد الله المأمون ، ولد سنة ١٧٠ هـ ليلة بويع أبوه بالخلافة وهو من أم ولد فارسية تدعى مراجل ، وقد أشرف جعفر بن يحيى البرمكي على تربيته فبدت عليه امارات النجابة والذكاء وهو لا يزال طفلا فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره أظهر من الأخلاق الفاضلة والانكباب على العلوم والمعارف والاهتمام بشؤون المسلمين ما جعل أباه الرشيد يندم على أخذه البيعة بالخلافة من بعده لابنه الامين على ما بين أخلاق الأخوين من تفاوت . وقد مر بنا في نهاية دراستنا للرشيد أنه أوشك سنة ١٨٣ ان يغيّر عهده الأول ويولّي ابنه عبد الله المأمون عوضا عن محمد الأمين لا سيما وعبد الله هو " المرضي الضاربة الأصيل الرأي الموثوق به في الأمر العظيم " ولو أنه اكتفى بعد استشارة يحيى بن خالد البرمكي بجعل المأمون يلي الأمين في الخلافة مع اتخاذ ضمانات كافية للمأمون كتوليته خراسان وما يتبعها حتى همّ ان وجعله شبه مستقل في ولايته هذه وجعله الأخوين يوقعان عهدين شهد فيهما جميع وجوه بني هاشم ثم علّق العهدين في الكعبة . وقد مرّت بنا محاولة الأمين خلع أخيه وماجرّته تلك المحاولة من حروب طاحنة بين الأخوين انتهت بمقتل الأمين في نهاية محرم ١٩٨ .

تمّت البيعة للمأمون اثر مقتل الأمين وكان المأمون آنذاك في الرّى واضطر هذا الخليفة الى البقاء في خراسان حتى ايابه الى بغداد في ١٦ صفر ٢٠٤ هـ فخلافته والحالة هذه تقسم الى فترتين :

فترة حكمه في خراسان ، وفترة حكمه في بغداد : ـ تحرجّت أحوال المأمون في خراسان لخيانة الفضل بن الربيع ورجوعه بالجيش عقب وفاة الرشيد . وقد بدأ المأمون يشعر باعراض أشراف ولايته عنه وعزمهم الاستقلال والتمرد عليه غير أنه سعى جاهدا لاسترضائهم بالترغيب تارة والترهيب أخرى حتى أسلمت له خراسان قيادها بمعونة أعوانه الاكفاء كالفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وغيرهم . ومما تجدر ملاحظته أن تأييد الخراسانيين للمأمون كان لشعورهم بحسن معاملته لهم من عطف عليهم وبرّبهم وتخفيض لضرائبهم وبدافع العصبية فهو ابن اختهم مراجل الفارسية .

كان المأمون حسن الهيئة ذا هيبة ووقار شجاعا باسلا بعيد الهمّة وقد كان أكرم من أبيه الرشيد وجدّه المهدي فقد روى أنه كان ذات مرة في دمشق وبمعيته وزيره وقاضي قضاته يحيى بن أكثم وكان في عسرة فطلب مالا من أخيه المعتصم الذي أرسل اليه

ثلاثين مليونا من الدراهم فقال المأمون ليحيى على ما رواه صاحب الفخرى : " اخرج بنا للنظر الى هذا المال ، فخرج وخرج الناس معه ، وقد زيّن الحمل وزخرف فقال المأمون : ان انصرافنا الى منازلنا بهذا المال ، وانصراف الناس خائبين لؤم ، ثم أمر كاتبه ان يعطي لبعض خاصته ألف ألف وللبعض الآخر اكثر من ذلك ، حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف (٢٤) مليون ، ثم أمر فحول الباقي على الجيش ومصالحه ".

كان هذا الخليفة يكره الانتقام من أعدائه عند وقوعهم في قبضته بل يؤثر العفو ، ومن قبيل ذلك معاملته للفضل بن الربيع المحرّض الأول لحمل الأمين على نقض عهده وهو الذى زين لهذا الأخير خلع المأمون . فلما قبض على الفضل بن الربيع وأتي به الى المأمون لم يأمر بقتله بل قال : " اما القتل فلا أقتله ولكن أجعله بحيث اذا قال لم يطع واذا دعا لم يجب " (وقد روى المؤرخون ان الفضل شوهد في نهاية خلافة المأمون يعيش بين حراس القصر وخدمه) . وثمة مثال ثان على عفو المأمون هو عفوه عن عمه ابراهيم بن المهدى بعد ان بويع بالخلافة ولقب بالمبارك في بغداد سنة ٢٠٢ واستمر فيها سنة واحد عشر شهرا عندما كان المأمون في خراسان ، لا بل تآمر ابراهيم على المأمون مع ابن عائشة سنة ٢١٠ . فعفا المأمون عن عمّه وكان أقل ما ينتظره القتل .

أطّلع المأمون على علوم عصره فكان ذا ثقافة واسعة تناولت علوما مختلفة كما كان حكيما بليغا عني بنظم الشعر وقرب منه الشعراء والمغنين ، ضليعا بشتى العلوم الدينية والدنيوية حاضر البديهة ميالا الى الاقناع يستمع الى خصمه ولو كان رأيه مخالفا لرأيه . وان يكن أخذ عليه اجباره فقهاء عصره على القول بخلق القرآن (وهذا ما سيمر بنا مفصلا عند كلامنا عن الحياة العلمية في عهده) ، وكانت معاملته لمعتنقي الديانات الأخرى قائمة على تأمين حرية العقيدة والعبادة لأتباع سائر الديانات من يهود ومسيحيين وصابئة وزراد شتية ، فلم تقم في عهده اضطهادات لغير المسلمين لا بل على العكس اشترك رؤساء الديانات الأخرى في المجلس الاستشارى الذى شكله الخليفة . وكانت حرية العبادة مؤمّنة للجميع وكان زعيما المسيحيّين في الدولة الاسلامية بطريركي أورشليم وانطاكية . فهذان الزعيمان ومن يليهما في المرتبة من مطارنة وأساقفة وكهان فهؤلاء جميعا كانوا متمّتعين في ظل المأمون بنفس الامتيازات والحصانات التي كانت لأمثالهم في الدولة البيزنطية وغيرها من الدول المسيحية . ويظهر تسامح هذا الخليفة بازاء الديانات الأخرى من وفرة عدد الكنائس والهياكل ومعابد النار التي شيّدت في زمنه فقد أورد المؤرخون ان الكنائس التي شيّدت في عهده بلغت " (١٠٠٠) ، كما أقام اليهود مئات من الهياكل وعمّر الفرس كثيرا من بيوت النار .

لم يحبّ المأمون التملق بل كان على العكس ميّالا لقطع دابر الرياء والنفاق وغيرهما من الرذائل وكانت كثيرة الانتشار بين خاصّته وقادة جنده .

الحالة في العراق منذ مقتل الأمين حتى عودة المأمون الى بغداد في منتصف صفر سنة ٢٠٤ ادارة شؤون الدولة من قبل الفضل بن سهل : ظنّ الفضل بن سهل وجوب استئثاره بالسلطة من دون المأمون لا سيما وكان يعتقد جازما انه لولا دعمه المأمون لما كان بوسع هذا الأخير التغلّب على أخيه خاصّة ولم تبد من الخليفة أول الأمر أيّة بادرة تنمّ عن عدم رضاه بل انصرف الى مناظراته الفلسفية والعلمية تاركا شؤون الدولة للفضل ومما رسّخ اعتقاد هذا الوزير بوجوب تمتعه بسائر السلطات ثقة الخليفة به ثقة عمياء وأنه لم يكن يطلب منه حسابا عن أعماله وهذا الموقف يذكّرنا بموقف الرشيد من يحيى البرمكي وأولاده وكيف أنه ترك لهم كافة شؤون الادارة لقب المأمون وزيره بذي الرياستين وبالوزير الأمير ومنحه سلطات واسعة جدا بالاضافة الى ان الوزير نفسه كان توّاقا الى ابقاء الخليفة تحت نفوذه في مرو عاصمة خراسان وعدم مغادرته لها الى بغداد حيث لن يتمكّن ذو الرياستين من الاحتفاظ بسيطرته على الخليفة ، وتنفيذا لتلك الخطة كان الفضل بن سهل يرى ضرورة ابقاء الخليفة جاهلا لما يتمّ في سائر المناطق ولذا جعله في قصر حجبه فيه عن سائر الأفراد دون استثناء أمراء العباسيين وقادة الجيش مما أثار سخطا شديدا في العراق وسبّب اضطرابات في مناطق مختلفة .

كانت خطة الفضل تقوم على وجوب اضعاف نفوذ كبار قادة المأمون واسناد ادارة ولايات الدولة لأشخاص يثق بولائهم له وسعيا وراء هذه الخطة كانت باكورة أعماله في هذا المضمار اصداره أمرين أحدهما لطاهر بن الحسين والثاني لهرثمة بن أعين . ويقضي الأمر الذي تلقاه طاهر بأن يسلّم العرق وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن للحسن بن سهل أخي للفضل وأن يتولى طاهر الشام وسائر المغرب لقمع ثورة نصر بن شبث العقيلي شمالي بلاد الشام وقد بدأت منذ نهاية سنة ١٩٨ ولم تقمع بصورة نهائية الا سنة ٢١٠ على نحو ما سيأتي بيانه . على حين قضى الأمر الثاني ، وقد تلقّاه هرثمه بن أعين ، بوجوب شخوصه الى خراسان .

ولي الحسن بن سهل العراق وملحقاته الآنفة الذكر وكان ثمة بون شاسع بين ادارته الليّنة والادارة الصارمة التي ساس بها طاهر وهرثمة بلاد العراق في الفترة التي أعقبت مقتل الأمين . وقد بدأت ترد الى العراق الأخبار حول استئثار الفضل بالسلطة من دون الخليفة وكيف أنه حجبه في قصر ومنع الاتصال به مما بعث الاستياء في نفوس الهاشميّين بصورة عامة هذا بالاضافة الى فساد ادارة الحسن بن سهل فكانت نتيجة ذلك اندلاع عدة ثورات في مناطق شتّى العلويون استثمارها بادئ الأمر وأوشكت هي وثورة نصر بن شبث ان تزعزع أركان خلافة المأمون ولمّا يمض على قيامها سوى سنة واحدة .

ثورة نصر بن شبث العقيلي : ـ هي ثورة دامت اثنى عشر عاما (١٩٨ ـ ٢١٠ هـ)
قام بها عربي شمالي بلاد الشام استياء من ضعف نفوذ العرب في خلافة المأمون واستئثار الفرس وبصورة خاصة الفضل بن سهل وأخيه الحسن ابن سهل وأتباعهما بشؤون الدولة في عهد ذلك الخليفة . ومن الغريب أن ذلك الثائر الذى لم يتمكن طاهر بن الحسين من التغلب عليه لم يفكر بالانفصال عن العباسيين ولم يقبل بيعة أحد العلويين حينما حاول زعماء الطالبيين استمالته الى جانبهم كما لم يقبل ان يبايع أمويا . فليست ثورة نصر والحالة هذه سوى تعبير عن سخط العرب الذين بلغ استياؤهم مداه لملاحظتهم سيطرة الأعاجم على الخليفة العربي .

كان نصر العقيلي يقطن شمالي حلب (كيسوم) وكان من الميالين للأمين فلما قتل هذا الأخير ولاحظ نصر ما آل اليه نفوذ العرب من تقهقر في أول عهد المأمون خرج هذا الزعيم العربي في نهاية ١٩٨ هـ واستولى على كل المقاطعات المجاورة كما انضم اليه كثيرون من العرب الذين أثارهم ما أثاره . عبر نصر الفرات الى ضفته الشرقية فاستفحل خطره الذى اهتم به الفضل بن سهل فولى طاهرا بن الحسين مهمة القضاء على حركته كما اسلفنا القول فسار طاهر على رأس قواته والتقى بنصر قرب كيسوم حيث دارت المعركة التي أسفرت عن انتصار نصر (هذا وان تكن بعض المصادر قد عزت انتصار نصر الى تراخي طاهر في قتاله وذلك لاستيائه من سيطرة الفضل بن سهل على الخليفة وعزله عن بغداد ليوليها أخاه الحسن بن سهل) . ثم عاد طاهر الى الرقة .

ازداد نفوذ نصر بعد انتصاره على أكبر قواد المأمون فانضم اليه عدد كبير من عرب شمالي الشام وقد وفد عليه نفر من العلويين طالبين منه ان يبايع لخليفة فأجابهم نصر بما يلي : " .... فقال من أى الناس ، فقالوا نبايع لبعض آل علي بن أبي طالب . فقال أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول انه خلقني ورزقني . قالوا فنبايع لبعض بني أمية . قال أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل ... وانما هواى في بني العباس وانما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم " .

اخفقت تلك المحاولة لجعل نصر يقبل ان يديل دولة العباسيين لكن ذلك الثائر استمر في حركته فلما عاد المأمون الى بغداد (صفر سنة ٢٠٤) استدعى طاهر ابن الحسين وولاه خراسان وعهد الى عبد الله بن طاهر بحرب نصر . استؤنف القتال من جديد بين قوات الخليفة وقوات نصر وبدأت كفة عبد الله بالرجوح فمال نصر الى الاستسلام ان قدمت له شروط مرضية ومن بينها ألا يمثل بين يدى الخليفة فلما بلغ ذلك المأمون أبى ثم جد عبد الله في حرب نصر حتى جعله يطلب الأمان دونما قيد أو شرط فوجه الى المأمون الذى عفا عنه .

ثورة الـزط : ـ أقام حول البصرة جماعة أصلهم من جنوبي آسيا عرفوا باسم الـزط وهم من النور . ولقد انتهزوا فرصة الخلافات بين الأمين والمأمون فثاروا على العباسيين واستولوا على طريق البصرة فطن المأمون أن أمرهم سهل فأرسل بعض القوى الصغيرة لاخضاعهم فلم تفلح وبقوا ثائرين حتى سنة ٢١٦ هـ حيث أخضعهم قائد المعتصم وهو عجيف بن عنبسة فأحضروا الى بغداد اسرى ثم نفوا الى آسيا الصغرى فتوغّلوا في الممتلكات البيزنطية ثم قصدوا أوروبة الشرقية .

ثورة بابك الخرّمي : (٢٠١ ـ ٢٢٢ هـ) : ـ لم تفد جماهير الايرانيين من الدعوة العباسية شيئا حين آل الحكم للعباسيين ، كما لم تفد من الحركات الثورية (الدينية ـ السياسية) اذ أخمدها المنصور ومن بعده المهدى . فأخلدت تلك الجماهير الى الانتظار والهدوء مرغمة . ولكنها مع ذلك لم تفد من انتظارها وهدوئها اذ "تضمّن تقريب بني العباس للارستقراطية الايرانية ، ابقاء الوضع الطبقي في ايران كما كان عليه فلم يعمل العباسيون شيئا يذكر لتخفيف الضغط الاقتصادى والاجتماعي على جماهير الايرانيين " ولما فشلت ثورة خراسان بقيادة رافع بن الليث ، ثم فشلت حركتها التي أوصلت المأمون للخلافة عاد الايرانيون الى المبادىء " الخرّميّة ينشرونها بينهم حتى صارت رمز وعي الأمة الايرانية للتخلص من الحكم العباسي وبالرغم من العباسيّين استهدفوا خلق جوّ من التفاهم والتعاون بين العرب والموالي ـ ولا سيما الفرس ـ لاعتقادهم بنتيجة درس الأمويين) ان الاستقرار لا يتم الا بتعاون مختلف عناصر الدولة الا أنهم لم ينجحوا في خلق ذلك الجوّ ، ولعلّ فشلهم السياسي جاء نتيجة الخطأ في تقدير حقيقة الأوضاع كما نتج عن اضطراب سياستهم وعن التيارات التي أثاروها وعن طموح الايرانيين أنفسهم وهذا مليفسر لنا استمرار الحركات الدينية ـ السياسية في المناطق الايرانية مدة العصر العباسي الاول ، حتى اذا تشكّلت الامارات الايرانية الاولى خمدت تلك الحركات وانتهى أمرها .

ولعلّ الحركة البابكية أخطر تلك الحركات ، الدينية في الظاهر ، السياسية في الواقع ، التي عرفتها ايران منذ قيام الدولة العباسية . فهي ، وان اشبهت الحركات السابقة ، في أسسها الفكرية ، الا أنها تتميّز عنها باتساعها ، وطول أمرها ، وتنظيم دعايتها ، وخطاطها وبراعة القيادة فيها واتصالها السياسى بغير الفرس اتصالا واسعا .

تنسب البابكية الى (بابك) وصاحبها هذا غامض النسب . والدينورى يشير الى ذلك ويضيف قوله : " . . . الذى صحّ عندنا وثبت انه كان من ولد مطهر بن فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني هذه التي ينتسب اليها الفاطمية من الخرّمية "(١) . (الاخبار الطوال ، ص ٢٦٧) .

وحركة بابك حركة خرّمية . ومعظم المؤرّخين (كالطبرى وابن النديم وابن الجوزى والبغدادى وغيرهم ...) متّفقون في ذلك . ولكن بابك ليس بالمؤسس لها ، فقد كان للخرمية في منطقة الجبال منظمات وزعماء قبله – على ما يظهر – ونسمع من ابن النديم والمسعودى بزعيمين للخرمية هناك قبل بابك هما جاويدان وأبو عمران . وانهما كانا في حرب مستمرة وقد أصيب الأول مرة فمات من جراحه ، بينما قتل الثاني في المعركة . وأعلنت زوجة جاويدان ان زوجها قال لها قبل وفاته : أموت هذه الليلة وان روحي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشترك مع روحه " فصدّق الأتباع قولها ورضوا ببابك زعيما لهم . وهكذا فان بابك لم يوجد في الحركة شيئا ولكنه وجدها قائمة فمنحها عبقريته في الحرب والتنظيم والدهاء السياسي . وقد عرف انصاره باسمه كما عرفوا (بالمحّمرة) لأنهم " صبغوا الثياب بالحمرة في أيامه وكانت شعارهم" ولكنهم في أفكارهم ، بالطبع ، من الخرّمية(المزدكية) .

ومبادىء تلك الجماعة تتلخص في :

١ – الايمان بالحلول والتناسخ حتى ادّعى بابك الألوهية .

٢ – في الاباحية المزدكية ويقول المقدسي انه شهد منهم ذلك بنفسه .

٣ – ولما كان أغلب البابكية من الفلاحين فقد حاولوا حلّ مشكلة الأراضي بانتزاعها من الاقطاعيين الكبار وتوزيعها عليهم (كحركة الفلاحين أيام لوثر في ألمانيا) والطبرى يذكر عن المازيار (صاحب بابك) انه " أمر أكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب أموالهم (الطبرى ج/١٠ ، ص ٣٤٦) .

على ان بابك استهدف من وراء هذه الثورة غاية سياسية هي التخلّص من السلطان العربي والدين الاسلامي .

كان مركز بابك في (البذ) أو (البدين) وهي بلد في أذربيجان بيّن (ياقوت) أنها كانت مهد المزدكية ، منذ محنة مزدك . اذ لجأ اليها بعض أصحابه . ودعوا فيها لرأيه . ولكن بابك تجاوز بالدعوى أذربيجان الى همذان واصبهان وماسبذان وبلاد الاكراد . ويظهر أن ذلك كان في أواخر عهد المأمون ، وفي سنة ٢١٨ بالذات ، وتجاوزت هذه المناطق الى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم ، حتى الى خراسان .

وجمهرة أتباع بابك كانوا من الاكرة (الفلاحين الذين يعملون عند الاقطاعيين أو أصحاب الضياع وهم الدهاقين) لكننا نجد لأول مرة في هذه الحركة اشتراك بعض الارستقراطية الايرانية فيها مع العامة ، كالمازيار (اصبهبذ طبرستان) ومنكجور الفرغاني (خليفة الافشين على اذربيجان) والافشين أيضا القائد العباسي ، ويمكن ان تأخذ فكرة عن أتباع بابك وعددهم من ان عدد فرسانه كان عشرين ألفا – على ما يذكرون

والبغدادي يذكر اجتماع (٣٠٠) ألف شخص معه ويقدرهم المسعودي بمائتي ألف ولا شك ان بعض المتلصصة قد انضمّ اليه .

وقد سعى بابك . الى هذا ، في استمالة الاقليّات التي حوله ، فدخل (عصمة) الكردي صاحب مرند ، وأمير بعض الاكراد ، في طاعته ، ولم ينجح في استمالة الا رمن الا فئة منهم (من مقاطعة سيونيا) التي وثّق روابطه معها ، بالزواج من ابنة اميرها .

وبطهران بابك اتصل بالبيزنطيين أيضا . فالمصادر الرومية تشير الى مفاوضات سرّية بينه وبين الروم .

كما ان بعض أصحابه حارب سنة ٢١٦ هـ مع الجيوش البيزنطية وقد هرب بعض أتباعه من العباسيين الى بلاد الروم . ولما ضيّق المسلمون عليه حاول تحريض بيزنطة للهجوم على الحدود الاسلامية . كما انه حين مزّقت جيوشه ، قبض عليه وهو في الطريق الى بلاد الروم حيث التجأ الناجون من أصحابه وجنده .

ولعل هذا كله يفسر لنا طول عهد الثورة البابكية التي بدأت سنة ٢٠١ ملحقة الهزيمة بأربعة جيوش للمأمون . حتى دخل في نفوس القواد والناس من استفحال أمر بابك ، واضطر المعتصم ان يطوفه برأسه على مدن خراسان لازالة ذلك الأثر المزيج من الاعجاب البطولة والرهبة ، فيما بعد .

وتظهر شدّة فتك بابك من الاعداد الضخمة التي يذكرها المؤرخون لضحاياه وأسراه فالطبري يقدّر عدد قتلاه في عشرين سنة بمائتي ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة انسان وعدد الاسيرات من المسلمات اللواتي استنقذن منه (٧٦٠٠) أسيرة . كما قدّرهم مؤرخون آخرون أكثر بكثير من هذه الأرقام .

وقد احكمت خطة القتال ضد بابك منذ تسلّم المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ . فقد أمر المعتصم بجعل الجيش نوائب: يعسكر بعضهم ويبقى الآخرون على ظهور الخيل مخافة البيات . ثم أن الأفشين كان لا يمشي لخصمه الا في حذر وبطء (فبعد معركة " ارتق " سنة ٢٢٠ هـ مشى الى بابك في " البذ " وأقام على حصاره سنتين حتى ضج الناس) وكان الى هذا يحتفر الخنادق حول معسكره ، اذا عسكر ، ويبني الاسوار ويضع الكمناء ، وأخيرا زحف الافشين على عاصمة بابك فأخذها في ١٠ يوما (٩-٢٠ رمضان ٢٢٢ هـ) ولكن بابك هرب الى أرمينية فكتب الأفشين الى بطارقتها بسد الطرق عليه . وقد سلّمه احدهم (سهل بن سنباط) للأفشين وكوفئ بميلون درهم ، ومنطقة ذهب مرصّعة بالجوهر ، وبتاج الطرقة (١) .

ولما حمل بابك الى سامراء لم يصبر المعتصم عن معرفته ليلة وصل ، فزاره وزيره

---

(١) عيون الاخبار ص ٢٥ .

أحمد بن أبي دؤاد متنكرا ووصفه له ، فما اكتفى حتى جاء بدوره (١) . وقتل بابك في اليوم الثاني وصلب (٨٣٨ م) .

ثورات العلويين في الكوفة والحجاز واليمن سنة ١٩٩ هـ :- ذكرنا قبل ان نخوض في البحث عن ثورة نصر ان العلويين استثمروا استياء الهاشميين والعرب قاطبة من تغلّب الفضل بن سهل على المأمون وكيف انه عزل طاهرا وهرثمة بن أعين عن العراق ليولّي تلك البلاد أخاه الحسن بن سهل فكانت نتيجة ذلك ثورة علوية في الكوفة تلتها عدة ثورات علوية أخرى في الحجاز واليمن ومصر فقد ثار في الكوفة ابن طباطبا وهو محمد بن ابراهيم (بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي) في جمادى الثانية سنة ١٩٩ واستولى عليها مؤيدا في ثورته من قبل أحد رجال هرثمة بن أعين وهو المدعو السرّي بن منصور الشيباني الملقب بأبي السرايا .

اتسعت حركة هذا العلوى فوجّه اليه والي العراق جيشا (كان قائده زهيرا بن المسيّب) هزمه أبو السرايا . ثم توفيّ الزعيم العلوى الثائر فولّى أبو السرايا زعيما علويا آخر هو محمد بن محمد (بن زيد بن علي بن الحسين بن علي) بدله فبعث والي العراق بجيش ثان لحقت به الهزيمة أيضا . وكانت النتيجة استفحال خطر العلويين جنوبي العراق مما أدّى الى اهتمام الفضل بن سهل نفسه بتلك الثورة فندب لقمعها هرثمة بن أعين على الرغم من كراهيته له . سار هرثمة على رأس جيشه واشتبك عدة مرات بأبي السرايا وقواته فكانت الغلبة لهرثمة الذى استرد الكوفة . ثم فر أبو السرايا ملتحقا بموطنه وهو الجزيرة شمالي بلاد الشام غير انه قبض عليه في الطريق وأتى به الى الحسن بن سهل الذى قتله ثم استردّت البصرة وغيرها من مدن جنوبي العراق التى كان أبو السرايا قد استولى عليها .

أنفذ هرثمة جيشا الى الحجاز (كان على رأسه ورقاء بن جميل) وكان أبو السرايا قد استولى على هذا القطر فتعاون قائد ذلك الجيش مع والي اليمن (اسحاق بن موسى بن عيسى) وقمعا معا تلك الحركة فعاد الحجاز لسلطة العباسيّين بعد ان طلب محمد الديباج بن جعفر الصادق ، وكان الحجازيون قد أجبروا على بيعته الامان فعفي عنه .

كما خرج حفيد جعفر الصادق وهو ابراهيم بن موسى بن جعفر في اليمن سنة ٢٠٠ واستخلص صنعاء من واليها العباسي اسحاق بن موسى بن عيسى الذى غادر اليمن وتعاون كما مر بنا مع الجيش الذى انفذه هرثمة لقمع فتنة مكة . وقد بعث ابراهيم بأحد أقربائه ليحجّ بالمسلمين بينما كان المأمون قد عهد بامرة حجّ ذلك العام لأخيه أبي اسحاق

---

(١) في دائرة المعارف الاسلامية مقالتان حول (بابك) و (الخرمية) في المادتين

ابن الرشيد (هو من سيدعى بالمعتصم) فتغلب هذا الأخير على قريب ابراهيم بن موسى وهدأت الاحوال نسبيا بعد نجاح هرثمة في القضاء على تلك الحركات العلوية.

كان الفضل بن سهل يريد ان يبقى الخليفة جاهلا أن سبب تلك الثورات استياء الهاشميين عامة من سيطرته على شؤون الدولة من دون المأمون ولم يكن أحد ليجرؤ على مفاتحة الخليفة بذلك خشية انتقام الفضل وأعوانه . وكان ذو الرياستين يخشى ان يبوح هرثمة ، وكان ذا حظوة لدى الخليفة ، بحقيقة ما آلت اليه أحوال الخلافة ومدى استياء الهاشميين خاصة ولذلك فكر بابعاده عن الخليفة فأصدر أمرا بتوليته مصر ، لكن هرثمة أبى الانصياع لأوامر الوزير قبل العودة الى مرو واطلاع المأمون على خفايا الأمور مما لم يكن يتفق ومنهاج الفضل الذى أخذ بالدس على هرثمة موهما الخليفة أنه السبب في تلك الفتن لا سيما وموجهها أبو السرايا كان أحد اتباعه فأوغر بوشايته صدر الخليفة على قائده الذى لم يكد يمثل بين يديه حتى أمر به الى السجن غير منتبه لما أبداه من نصائح بوجوب الحد من سلطات ذى الرياستين .

لم يكتف الفضل بذلك بل مضى بعيدا في انتقامه من هرثمة حيث أدخل عليه أعوانه فقتلوه في السجن مدعين أمام الخليفة انه مات بصورة طبيعية . لكن نبأ مصرع هرثمة انتشر في العراق وأحدث تأثرا سيئا في بغداد التي ثار فيها الجند ، وكانوا يحبون هرثمة لدرجة العبادة على الحسن بن سهل أخي ذى الرياستين وقد أيدهم في ثورتهم أمراء البيت العباسي الذين على الرغم من حبهم للمأمون تألموا لبقائه تحت سيطرة الفضل بعيدا عن حاضرة أبيه وجديه . ثم تطورت الحال في بغداد بعد عجز الحسن عن مقاومتهم الى عرضهم خلع الخليفة ومبايعه أخد أمراء البيت العباسي وهو المنصور بن المهدى لكن منصورا رفض البيعة وقبل أن يلي بغداد حتى عودة المأمون اليها وذلك بعد ان قالوا له " لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي الحسن بن سهل ونطرده حتى يرجع الى خراسان " .

وكانت نتيجة ذلك ان عمت الفوضى بغداد وسائر العراق وقام العيارون والشطار (قطاع الطرق) بالعبث بالأمن وأخذ الرعاع واللصوص يعيثون في البلاد فسادا وكثرت حوادث السلب والنهب حتى غدت الحالة في العراق غير محتملة . كل ذلك والمأمون غير واقف على أى شيء مما يدور في عاصمة ملكه نتيجة للحصار الضيق المضروب حوله ومنع ذى الرياستين تسرب الأخبار الصحيحة الى الخليفة . وقد أحجم العقلاء عن التفكير بالمجازفة بالاتصال بالمأمون متعظين بمصير هرثمة بن أعين . ولم تكن الاضطرابات آنذاك في جنوبي العراق والحجاز بأقل سوءا منها في بغداد .

علاقة المأمون بالعلويين وتعيينه علياً بن موسى الكاظم ولياً للعهد ونتائج ذلك :

كان المأمون ميالاً للعلويين نتيجة للبيئة التي عاش فيها فقد شبّ وترعرع في بيئة شيعية فأمّه مراجل أم ولد خراسانية أي من بلاد غلب عليها التشيّع لآل علي ، ومربية جعفر ابن يحيى البرمكي شيعي كما كان مستشاره ووزيره الفضل بن سهل شيعياً وقد بدأ هذا الميل بجعله يتزوج سنة ٢١٠ هـ فتاة شيعية هي خديجة بنت الحسن بن سهل التي عرفت بلقب بوران كما زوج ابنتيه أم حبيب وأختها سنة ٢٠٢ من زعيمين علويين هما علي الرضا بن موسى الكاظم (الامام الثامن عند الشيعة الامامية الاثني عشرية) ومحمد الجواد بن علي الرضا (الامام التاسع عند نفس الفرقة) أضف الى ذلك ملاحظة المأمون انه مدين بالخلافة لتأييد الخراسانيين وغالبيتهم العظمى شيعة .

أثرت تلك البيئة على المأمون لتخفيف الشعور بأن العلويين قد هضمت حقوقهم في الخلافة . وكان لوزيره الفضل بن سهل أثر بيّن في تنمية هذا الميل وحمل الخليفة على انتخاب احد زعماء البيت العلوي لولاية العهد وقد تجلّى ميل المأمون لآل علي في ثلاثة أمور :

آ - اكرامه العلويين واحاطته اياهم بعطفه ورعايته : كان المأمون يرى علياً أفضل الخلفاء الراشدين وأحقهم بالخلافة التي اختصبت بعده من أبنائه وحفدته وقد دفعه ذلك الحب الى جانب أسباب سياسية الى تعيين علي الرضا ابن موسى الكاظم لولاية العهد من بعده على نحو ما سيأتي بيانه ، كما كان يعترف بحسن معاملة العلويين لأبناء عمهم العباسيين فقد أورد السيوطي ص ٣٠٨ ، من أن المأمون قال يوما وقد سئل عن سبب بره بالعلويين : "انما فعلت ، لان أبا بكر لما ولي لم يولّ أحداً من بني هاشم شيئا ، ثم عمر ثم عثمان كذلك ، فلما ولي علي ولّى عبد الله بن عباس البصرة وعبيد الله اليمن و[illegible] مكة وقثم البحرين ، وما ترك أحد منهم حتى ولّاه شيئا فكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت".

بقي المأمون على معاملته الحسنة للعلويين طيلة مكوثه في خراسان (١٩٨-٢٠٢) وبعد ايابه الى بغداد وقد ظنّ بعض المؤرخين ان الخليفة كان يبغي الوصول لهدف سياسيّ هو ابقاء تأييد الخراسانيين له حتى بعد قضائه على الفضل بن سهل وذلك لأن الخراسانيين كانوا شديدي الحبّ لآل علي . وقد استمرّت هذه المعاملة الحسنة اعتقاداً من المأمون بفضل علّي الى أن ثار سنة ٢٠٧ في اليمن أحد زعماء البيت العلوي وهو عبد الرحمن بن أحمد (بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب) فوجّه المأمون جيشا لقتاله فلما بلغ ذلك الجيش مكة حجّ ثم ذهب الى اليمن وأعطى القائد المأموني الأمان للثائر ان استسلم فأذعن وعاد بمعيته الى

المأمون الذى عفا عنه لكنه بعد ذلك منع العلويين من الدخول عليه وأجبرهم كما يقول الطبرى على ارتداء السواد شعار العباسيين وكانوا حتى ذلك الوقت يرتدون الخضرة شعارهم .

وقد عيّن المأمون أحد رجاله وهو محمد بن ابراهيم الزيّادى واليا على بلاد اليمن فاهتم باخماد الحركات والفتن واخضاع القبائل ونشر الأمن وتأمين الطرق التجارية البرية والبحرية وبناء القلاع في مدينة زبيدة في اليمن ، ثم انفصل عن العباسيين في جميع أموره وان بقي تابعا تبعية اسمية لهم يرسل لهم في كل عام كمية من الخراج ويخطب لهم على المنابر. وقد تعاقب أولاده من بعده على حكم اليمن حتى ٤٠٦ هـ أى زهاء قرنين ، وتسمى دولتهم الدولة الزيادية .

ويستدل على مدى حبّ المأمون للعلويين من وصيته لأخيه المعتصم التي أوردها الطبرى وقد جاء فيها بصددهم مايلي : " وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، وأقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عن محلها ، فان حقوقهم تجب من وجوه شتى " .

كذلك ما رواه ابن الأثير من ان المأمون صلّى بنفسه سنة ٢١٨ على يحيى بن الحسين ابن زيد بن علي بن الحسين العلوى ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ماتعجّبوا منه (وذكرت بقية القصة من انه أوفد أخاه صالحا لحضور جنازة ابن زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس فاستاءت أمه وقالت لأخي الخليفة : قل له يا ابن مراجل أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته) .

ب ـ <u>تعيين المأمون عليا بن موسى الكاظم وليا لعهده واتخاذه الخضرة شعارا للدولة العباسية</u> : لم يقتصر عطف المأمون على العلويين على البذل والعطف والرعاية بل تجاوز الخليفة ذلك الى مشروع جرىء للغاية وهو تعيينه أحد زعمائهم وليّا للعهد من بعده واجباره رجال حاشيته وأفراد جنده على طرح السواد شعار العباسيين لارتداء الخضرة شعار آل علي .

أعلن المأمون في الثاني من رمضان (٢٠١ هـ) اتخاذه عليا بن موسى الكاظم وليا للعهد (وكان علي ولد سنة ١٥٠ هـ وكان ضليعا في علوم شتى وعلى جانب كبير من التقي والورع) . وكان الخليفة قد أحاط وزيره الفضل برغبته هذه فحبّذها لتشيّعه مضى المأمون في سياسته هذه بأمره رجال حاشيته وجنده بطرح السواد شعار آل عباس وبارتداء الخضرة شعارا لعلويين فأوشك المأمون أن يحقّق بعمله هذا الرغبة التي طالما صبا اليها العلويّون منذ مقتل علي وقيام معاوية بتأسيس الدولة الأموية تلك الرغبة الرامية الى تأسيس خلافة علوية وقد تكبّدوا لمحاولة الوصول اليها بذل دماء

عدد وفير من رجالات البيت العلوي مرّت بنا أسماؤهم خلال دراستنا للعهدين الأموي والعباسيّ .

اختلف المؤرخون في حكمهم على عمل المأمون بين مدّع أن الخليفة قام بذلك نتيجة ميله الطبيعي للعلويين من تأثير البيئة الشيعية التي ولد وشبّ وترعرع فيها وبين قائل ان الخليفة لم يكن صادقا في ما أعلنه بل كان عمله خطة سياسية أراد من ورائها ابقاء الخراسانيين على ولائهم وتأييدهم له لما تأزف ساعة تخلّصه من وزيره الفضل بن سهل .

أما حجّة الفريق الأول الذى يرى ان المأمون كان صادقا في اظهار الودّ للعلويين فتقوم على ان هذا الخليفة كان متأثرا ببيئته الشيعية ويرى ان عليا كان أحقّ من يلي الخلافة بعد الرسول وان الأمويين والعباسيين اغتصبوا حقوق أولاده . وقد دعم أصحاب هذا الرأى حجتهم برأى لأحد المؤرخين المعاصرين هو محمد بن النعمان في كتابه الارشاد ذلك الرأى الذى أثبته الدكتور حسن ابراهيم حسن (جـ٢ ، ص ١٦٥) وقد جاء فيه في معرض الكلام عن المأمون ما يلي :

" انه همّ بخلع نفسه ، وبأن يفوّض الأمر اليه . . . وضرب الدراهم باسمه وخطب له مع الخليفة على المنابر ، وزوّجه ابنته " .

كان المأمون أوفد أحد رجاله الى المدينة . وكانت مقرّا لزعماء العلويين ، ليطلب من زعماء البيت العلوى الشخوص الى مرو حيث كان الخليفة مقيما . فلما قدم هؤلاء الى حاضرة خراسان أحسن الخليفة استقبالهم واحتفل بهم وخصّ بعطفه ورعايته عليا وأفرد له منزلا خاصا به ، ويعتبر الطبرى من زمرة المؤرخين الذين يقولون بهذا الرأى فهو يرى " ان عليا الرضا لما قدم مرو أحسن المأمون وفادته ، وجمع رجال دولته وأخبرهم أنه قلّب نظره في أولاد العباس وأولاد علّي بن أبي طالب فلم يجد أحدا أفضل ولا أورع ولا أعلم منه . فولّاه عهده ولقبه " الرضا من آل محمد " وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيّين ، وكتب بذلك الى الآفاق وذلك لليلتين خلتا من رمضان سنة ٢٠١ هـ "

أما الفريق الثاني فيرى مؤرخون ، ومن بينهم القفطي وغيره ، ان المأمون لم يكن صادق النيّة في تحويله الخلافة الى العلويّين وأن كلّ ما في الأمر خطة رأى انتهاجها ليضمن ولاء الخراسانيين الذين كانوا يحبّون عليا الرضا لدرجة العبادة . ولعلّ المأمون شعر أنه مسلوب السلطة بجانب الفضل بن سهل المستأثر بكافة شؤون الدولة ، وكان هذا الأخير ذا نفوذ كبير في خراسان فأحبّ الخليفة أن يضمن ولاء الخراسانيين عن غير طريق الفضل بن سهل فوجد عليا الرضا الوسيلة الأكيدة لبلوغ تلك الغاية عندما تأزف ساعة الخلاص من الفضل وأعوانه . ومن الثابت أن انحياز علي الرضا لجانب المأمون في حال اغضاب هذا الأخير الخراسانيين بقتل الفضل خير ضمان لبقائهم على تأييدهم

للخليفة وسنرى خلال كلامنا عن مقتل الفضل ان خطة الخليفة نجحت .

وكان المأمون قد برّرا انتخابه لعلي الرضا لولاية العهد بقوله : " اني عاهدت الله ان ظفرت بالمخلوع ـ أى الأمين ـ أخرجت الخلافة الى أفضل آل أبي طالب وما أعلم أحدا أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض " .

جـ ـ مصاهرة المأمون لولي عهده وابنه : ومن مظاهر عطف المأمون على العلويين أنه زوّج ابنته من ولي العهد علي الرضا ومن ابنه محمد الجواد فقد زوّج سنة ٢٠٢ ابنته أم حبيب من علي الرضا كما زوّج ابنته الثانية محمد الجواد ابن ولي العهد ومحمد الجواد هو الامام التاسع عند الشيعة الامامية الاثني عشرية وقد توفّي سنة ٢٢٠ هـ أى بعد وفاة المأمون (٢١٨) ، ولم تشر المصادر التاريخية الى حدوث أىّ جفاء بين الخليفة وصهره هذا بعد وفاة أبيه علي الرضا . كما لم يظهر من محمد هذا أىشيء يريب الخليفة وهذا ما يجعلنا نشكّ في مزاعم الذين اتهموا المأمون بدسّ السمّ لولي عهده اذ لا يعقل ان يسكت الابن عن مصرع أبيه ان ثبت لديه اشتراك احد في قتله .

وعلى العموم كان العلويّون في ظل المأمون أسعد حالا مما كانوا عليه في ظل سائر الخلفاء الذين أتوا قبله ويستوى في ذلك خلفاء الأمويين والعباسيّين . لكن هذا الميل الأكيد لجانب آل علي لم يمنع قيام بعض زعماء ذلك البيت بالثورات على المأمون وقد أوردنا قسما من تلك الثورات التي نشبت في أول فترة من حكم المأمون . أما باقي الثورات العلوية في عهد المأمون فأهمها :

ثورة القاسم بن ابراهيم : استمرّ هذا الزعيم العلوى ونعني القاسم بن ابراهيم (ابن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) مختبئا في مصر مدة عشر سنين ولم يدع لنفسه الا بعد وفاة أخيه فلقيت دعوته رواجا في مكّة والمدينة والكوفة والرىّ وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم . كما حثّه البصريون وسكان الأهواز على اظهار نفسه فبلغ خبره الخليفة الذى حاول القاء القبض عليه فنزح عن مصر الى الحجاز وتهامه وان يكن بعض مريديه قد أخذوا يدعون له في بلخ ومرو وغيرهما فلما استفحل خطرة جهّز المأمون جيشا للقضاء على حركته ووجّهه الى اليمن فلجأ ذلك الزعيم العلوى الى قبيلة عربية وتوفي الخليفة ان يتمكّن من الظفر به حتى كانت خلافة المعتصم فاهتم بالثائر العلوي ووجّه قائدين من كبار قادته الاتراك هما بغا الكبير وآشناس على رأس جيش كبير نجحا في القضاء على حركته سنة ٢٢٠ هـ .

ثورة عبد الرحمن بن أحمد سنة ٢٠٧ في اليمن : ثار كذلك زعيم علوى آخر هو عبد الرحمن بن أحمد (بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب) على المأمون سنة ٢٠٧ في اليمن وقد أتينا على بيان ثورته وقمعها . وكان المأمون قد بدأ يتبرّم

بالعلويين وبثوراتهم وأنهم لم يكافئوه على معاملته الحسنة لهم الا بالجحود فبدأ من تلك السنة يتغير عليهم ومن قبيل ذلك منعه اياهم من الدخول عليه كما أمرهم بنزع الخضرة وارتداء السواد شعار العباسيين .

ومهما يكن فلا مجال للشك في ان المأمون كان أبر الخلفاء العباسين بالعلويين ومع انه كان صادق الميل اليهم وذلك بنتيجة عامل البيئة التي نشأ فيها وبنتيجة كون أمه وزوجه بوران بنت الحسن بن سهل شيعيتين لكننا نرجح أنه بايع عليا الرضا بولاية العهد من بعده ليتمكن بواسطة من التخلص من الفضل بن سهل دون ان يؤدى ذلك الى ثورة الخراسانيين نظرا لمكانة علي الرضا بينهم .

أغضب الخليفة بانتخابه عليا الرضا لولاية العهد وبأمره بطرح السواد وارتداء الخضرة وبتزويجه ابنتيه من علي الرضا وابنه محمد الجواد سائر أمراء العباسيين الموجودين في بغداد . من الخليفة لبقائه بعيدا عن حاضرة أبيه وجديه ولانفراد الفضل بن سهل بالنفوذ في الدولة ولمقتل هرثمة بن أعين . وقد بلغ استياؤهم مداه فانحازوا الى جانب الأميرين العباسيين اللذين تزعما مقاومة المأمون وهما عماه المنصور وابراهيم ابنا المهدى .

بدأت مقاومة أهالي بغداد وعمي الخليفة برفض اقرار بيعة علي الرضا وبرفض طرح السواد لارتداء الخضرة ثم تطورت الى خلع المأمون وتنحية عامله على بغداد الحسن بن سهل وتولية عمه ابراهيم (١) بن المهدى الذى لقب بالمبارك ، وكان ذلك في أول محرم سنة ٢٠٢ أى بعد انقضاء أربعة أشهر على بيعة المأمون لعلي الرضا . وقد استعان ابراهيم ببعض أولاد الهادى فاستولى على الكوفة مستخلصا اياها من عامل المأمون .

كتب الحسن بن سهل من بغداد لأخيه الفضل بما تم من تطور فخشي هذا الأخير أن يقص الخبر على حقيقته على المأمون فذكر له ان اضطرابات حدثت في العراق وقد أدت الى انتخاب أهالي بغداد ابراهيم بن المهدى أميرا عليهم (لنلاحظ انه لم يذكر له انهم خلعوه وعينوا ابراهيم خليفة مكانه) وذلك خشية من الفضل أن يفكر الخليفة بالانتقال من خراسان والعودة الى بغداد ولم يجرؤ أحد على ابلاغ الخليفة بما تم من حوادث في العراق سوى ولي العهد نفسه الذى شرح للمأمون حقيقة موقف الفضل بن سهل وأن خطته ترمي الى ابقاء الخليفة جاهلا لشؤون الدولة وأن أهالي بغداد خلعوه

---

(١) هو ابو اسحاق ابراهيم بن المهدى وكان أسود لانه ابن أمة سوداء وكان شاعرا فحلا ومن أساطين فن الموسيقا جوادا اديبا وقد قال عنه ابن خلكان " لم يرفي أولاد الخلفاء افصح منه لسانا ولا أحسن منه شعرا " .

وولّوا عمه وأن هرثمة بن أعين قضى ضحية محاولته ذكر الحقيقة أمامه ، كما شرح علي الرضا للخليفة أن من بين أسباب نقمة العباسيين والعراقيين عليه اتخاذه علويا لولاية العهد ، وأخيرا نصح علي الرضا المأمون بالعودة الى بغداد .

العودة الى بغداد وسياسة الخليفة فيها : ـ قرّر الخليفة الانتقال من عاصمة ملكه بعد وثوقه من أقوال وليعهده وبالفعل بدأ بتنفيذ خطّته فلما بلغ موكبه مدينة سرخس في أول شعبان سنة ٢٠٢ هـ اغتيل الفضل بن سهل في الحمّام في الثاني من الشهر نفسه . وقد اتّهم بعض المؤرخين المأمون بتدبير اغتيال وزيره ، كما نفى آخرون التهمة عن الخليفة وان كان من المرجّح ان يكون للمأمون ضلع في تدبير تلك المؤامرة بعد أن ثبت لديه غش وزيره فلما كان يصعب عليه قتله علنا دون اثارة الخراسانيين الذين بدؤوا يستاؤون من مغادرة الخليفة لمرو لذلك دبّر المأمون تلك المؤامرة في الخفاء لا سيّما وانه كان يعتقد جازما انه سيتمكن بقتله من استرضاء أمراء البيت العباسي وأهالي بغداد . لكن مقتل الفضل أوشك أن يحدث فتنة كبيرة تحرّج معها مركز المأمون الذي لم يكن يعتمد في تلك الآونة الا على تأييد الخراسانيين ان حاول الخليفة المعيّن في بغداد ـ ابراهيم المهدي ـ المقاومة وبيان ذلك ان أعوان الفضل ، وكانوا وفيري العدد بين قواد خراسان بعد ان بلغهم مصرع زعيمهم حاولوا الثورة وتجمّعو بباب الخليفة وهمّوا باحراقه . ففي تلك اللحظة الحرجة بعد أن غدت حياة المأمون معرضة للخطر أفاد هذا الأخير من ولي عهده واستثمر نفوذه لدى الخراسانيين . خرج علي الرضا وبايعاز من الخليفة الى الزعماء المتجمهرين أمام بيت المأمون وفرّقهم فلم يعصوا له أمرا نظرا لما كانوا يكنّون له في نفوسهم من محبة واحترام . وهكذا نجا المأمون من ذلك المأزق بفضل تأييد علي الرضا له وقد مهّد بعمله طرين المصافاة والتفاهم مع أمراء العباسيين المتشقّين عنه ومع أهالي بغداد ثم كتب الخليفة كتابا الى الحسن بن سهل أخي القتيل معزّيا بوفاة أخيه ومسندا اليه المناصب التي كان يليها أخوه من قبل .

غادر موكب الخليفة سرخس في عيد الفطر فلما بلغ طوس توفي ولي العهد فجأة بصورة غامضة حملت فئة من المؤرخين نخص بالذكر منهم مؤرخي الشيعة على الادّعاء أن للخليفة يدا في وفاته فاتهموه انه دسّ له السمّ في " ماء الرمان " أو عصير التمر هندي " فمات بعد يومين وليس بوسعنا نفي أو اثبات تلك التهمة لعدم استنادها لوثائق تاريخية ثابتة . ومهما يكن فلا مناص من الاعتراف ان وفاة ولي العهد في مطلع ٢٠٣ هـ أزالت آخر عقبة من طرين المصافات بين المأمون وأمراء البيت العباسي وأهل بغداد الذين بدؤوا آنذاك بالشغب على ابراهيم بن المهدي بعد ان كانوا نصبّوه خليفة . ومع اظهار

المأمون الحزن العميق على علي الرضا غير أنه مع ذلك لم يمض في سياسة تقربه من العلويين بل عاد عنها الى اكتساب رضاء أمراء العباسيين بدليل أنه حرم محمد الجواد ابن علي الرضا المتوفى من ولاية العهد بعد وفاة أبيه .

غادر المأمون طوس الى الري وكان كلما اقترب من حاضرة ملكه زاد مركز ابراهيم ابن المهدي فيها حرجا لدرجة ان القادة فيها ندموا على ما قاموا به من بيعة ابراهيم وكاتبوا احد قادة الحسن بن سهل عارضين عليه الحضور الى بغداد ليسلموه المدينة فلما شعر ابراهيم انه لا قبل له بالمقاومة بعد أن أمسى بين خطرين غادر المدينة في السابع عشر من ذي الحجة سنة ٢٠٣ هـ بعد ان دامت خلافته فيها ما يقرب من سنتين فلما بلغ موكب الخليفة النهروان أتته وفود رجالات بغداد وامراء البيت العباسي للسلام عليه كما وافاه اليها طاهر بن الحسين من الرقة وكان المأمون قد استدعاه اليها وأخيرا دخل الخليفة بغداد في السادس عشر من صفر سنة ٢٠٤ هـ .

وقد اختلف المؤرخون في خلع الخليفة للخضرة شعار العلويين وعودته للسواد شعار العباسيين فمن قائل بأن المأمون لم يعد الى السواد الا بعد ان مضت ثمانية أيام على عودته الى بغداد اضطر امراء البيت العباسي انفسهم خلالها لارتداء الخضرة مجاراة للخليفة بينما يرى آخرون أن زعماء العباسيين رجوا طاهرا بن الحسين مفاتحة الخليفة بالعودة الى السواد في النهروان نفسها فلما رجا طاهر المأمون بذلك استجاب لرجائه وعاد الى السواد . ومهما تضاربت الأقوال حول هذه القضية فمما لا يقبل الشك ان المأمون عاد الى ارتداء السواد قريب أو بعيد وصوله الى بغداد التي كانت الفوضى قد انتشرت بين ربوعها منذ ان استمرت فيها الحروب بين الأخوين .

هدأت أحوال العاصمة بعد فترة من الاضطرابات نيفت على خمس السنين فعمد المأمون الى تنظيم شؤون اداراتها من جديد وترميم ما دمرته الحروب في فترة محاصرة الأمين فيها وقد ولى الخليفة شؤون الخراج أحمد بن أبي خالد الذى سيغدو وزيرا بعد اعتزال الحسن بن سهل الوزارة كما اسند رئاسة الشرطة الى قائد حازم مجرب هو طاهر بن الحسين ، كما ولى الخليفة شقيقة الكوفة والبصرة وأخذ يقوم بجولات ليلية بمعيته أمير الخراج ليرقب حالة الشعب عن كثب .

شعر المأمون اثر وصوله بغداد انه وتر الخراسانيين وانه يخشى على الخلافة من ثورة كبرى يقومون بها وذلك لأنه متهم بقتل زعيمهم الفضل بن سهل ولالغائه مشروع اسناد ولاية العهد لعلوي لا بل اتهم الخليفة كذلك ان له يدا في موت ولي العهد الفجائي فانتهج المأمون سياسة لينة بازاء أهل خراسان فحاول من جهة استرضائهم باسناده الوزارة الى الحسن بن سهل أخي الفضل كما ولى تلك المنطقة رجلا كان يتمتع بتقدير ومحبة أهلها وهو طاهر بن الحسين بناء على طلب هذا الأخير الذى

التمس ان تسند اليه تلك الولاية عوضا عن رئاسة شرطة بغداد .

لم يستمر الحسن بن سهل طويلا في منصبه فقد اعتزل الوزارة نتيجة علّة نزلت به فاستشاره المأمون فيمن يخلفه في منصبه فأشار بصاحب الخراج أحمد بن أبي خالد فلّما قلّده المأمون ذلك المنصب طلب رأيه في تعيين طاهر بن الحسين لولاية خراسان فحبّذ الوزير ذلك وضمنه للخليفة غير انه بعد اسناد تلك المقاطعة لطاهر قطع هذا الأخير الخطبة عن المأمون فحار الوزير في أمره بعد ان هدّده الخليفة بالقتل ان لم يكفه طاهر احتال أحمد على طاهر وتخلص منه بان ارسل اليه هدية فيها كوامخ مسمومة مات طاهر اثر أكله منها وذلك سنة ٢٠٧ هـ بعد ان دامت ولايته على خراسان سنتين ثم أوسدت تلك الولاية لطلحة بن طاهر فاستمر يليها سبع سنين وقد بقي أحفاد طاهر يلون خراسان وهم شبه مستقلين نيّفا ونصف قرن وكانت علاقاتهم بخلفاء العباسيين في تلك المدة كعلاقة الأغالبة في تونس بالخلفاء فكان الخليفة العباسي يوافق على تعيينهم مقابل الخطبة له على المنابر وضرب السكة باسمه وارسال قسم من خراج الولاية الى بغداد

أمّا فيما يتعلّق بموقف المأمون من العلويين بعد وفاة علي الرضا فقد عيّن أحد زعمائهم على الاراضي المقدسة واستمرّ على معاملته السمحة لهم الى سنة ٢٠٧ هـ عندما ثار عبد الرحمن بن أحمد في اليمن فبدأ اذ ذاك يعاملهم بقليل من الجفاء .

خلف عبد الله بن طاهر ، وكان في الثالثة والعشرين من عمره (ولد سنة ١٨٢ هـ) أباه على شرطة بغداد كما وجّهه الخليفة لحرب نصر بن شبث فلما وفّق في القضاء على حركته وجّهه المأمون سنة ٢١٠ هـ ، وكان يحبّه كثيرا ، الى مصر وكان أميرها عبيد الله بن السّرى ثار فيها فنجح عبد الله في قمع حركته ، وقد نشبت كذلك ثورة في مصر قام بها المولّدون الاسبان وكان الخليفة الأموى في الاندلس قد نفاهم الى مصر فأخذوا يحدثون شغبا في الاسكندرية فأمرهم عبد الله بتسليم أسلحتهم أو النزوح عن مصر فوافقوا على ترحيلهم الى جزيرة كريت فمنحهم ابن طاهر مساعدات كافية وزوّدهم بالمؤن والعتاد الكافي فأبحروا الى تلك الجزيرة ونجحوا في فتحها وضمها الى البلاد الاسلامية واستقرّوا فيها .

اهتمّ عبد الله بن طاهر بنشر الأمن في مصر وقام باصلاحات كثيرة ومن بينها زيادته في جامع عمرو بن العاصي في مدينة الفسطاط لكن ذلك الوالي المصلح لم يطل مقامه في مصر بل عاد الى العراق فاضطرب حبل الأمن من جديد في القطر المصرى فثار الاقباط والعرب المؤيدون للأمين فعهد المأمون للقائد التركي الأفشين بمهمة تهدئة الأحوال في تلك الربوع ثم قصد الخليفة نفسه الكنانة سنة ٢١٥ هـ وأعاد الاستقرار والطمأنينة الى أرجائها .

مرّ بنا أن ابراهيم بن المهدى فرّ من بغداد في شهر ذى الحجة سنة ٢٠٣ بعد

شعوره بأن قادة الجنه قد خذلوه ثم اختبأ ذلك الأمير العباسي في العاصمة الى مطلع سنة ٢١٠ هـ عندما اكتشف الخليفة مؤامرة دبّرت لاعادة ابراهيم الى الخلافة وخلع المأمون . وقد أعد المؤامرة أحد أمراء العباسيين ويدعى بابن عائشة (هو ابراهيم ابن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام) . أحبطت المؤامرة وقبض على ابراهيم ابن المهدي وابن عائشة فلما مثل ابراهيم بين يدي ابن أخيه اعتذر له بقصيدة عصماء عفا الخليفة عن عمه ابراهيم لكنه انتقم من المحرّضين على المؤامرة وهم ابن عائشة وثلاثة غيره فقتلوا وصلبوا في ١٤ جمادى الآخرة سنة ٢١٠ .

ذكرنا ان رغبة كانت تحدو المأمون كيلا يفسد ما بينه وبين أهل خراسان من ودّ وتعاطف ولذلك اسند الوزارة الى الحسن بن سهل لكن سوء صحة هذا الأخير حال بينه وبين الاستمرار في الحكم فاعتزله فعمد الخليفة الى وسيلة أخرى يسرّ بها أهالي خراسان وهي زواجه من خديجة بنت الحسن ابن سهل وكان لقبها بوران وقد خطبها الخليفة من أبيها عندما كان في مرو . أبلغ المأمون الحسن سنة ٢١٠ رغبته في أن تزّف له بوران فاستعد الحسن أيّما استعداد فأقيمت الحفلات الرائعة في قصر الأب في فم الصلح (وكان الصلح اسم نهر من روافد دجلة يلتقي بهذا الأخير بالقرب من واسط وكان الحسن بن سهل يملك قصرا عند مكان انصباب الصلح في دجلة فدعي بفم الصلح) حيث أضاف والد العروس الخليفة وأفراد حاشيته سبعة عشر يوما وقد حضرت سيدات بني هاشم تلك الحفلات العظيمة ومن بينهن زبيدة أم الأمين وابنتها . وقد ذكر أن جدّة العروس حملت على رأسها صينية من الذهب وجعلت تنثر منها على الخليفة وعروسه ألف حصاة من الياقوت بمختلف الاحجام كما وزّع والد العروس على كبار المدعوين صلات سنية من بينها بنادق المسك وفيها رقاع بأسماء ضياع وجوار وجياد فعند استلام أحد المدعوين بندقيته كان يذهب الى وكيل الحسن بن سهل ليدفع اليه ما كتب في بندقته . وقد أورد المصادر ان الحسن انفق خمسين مليون درهم على حفلات زفاف ابنته من الخليفة فوهبه المأمون خراج الاهواز وفارس لمدة سنة كاملة وذلك ليعوّض ما أنفقه في تلك الحفلات البهيجة .

<u>وزراء المأمون</u> : — تقسم الوزارة في عهد المأمون الى فترتين ، فترة وزارة التفويض وقد دامت بين سنتي ١٩٨ — ٢٠٥ هـ ، وفترة وزارة التنفيذ وقد استمرت بين سنتي ٢٠٥ — ٢١٨ .

آ — <u>فترة وزارة التفويض ١٩٨ — ٢٠٥ هـ</u> : وهي الفترة التي أوسدت الوزارة فيها الى الفضل ابن سهل (١٩٨ — ٢٠٢) وفترة تقليدها للحسن بن سهل وكانت ولو بصورة اسمية بين سنتي ٢٠٢ — ٢٠٥ .

وزارة الفضل بن سهل وأخيه : اضطر المأمون ان يقلد الفضل وزارته وذلك لموقف التأييد الذى وقفه هذا الأخير من الخليفة أثناء نزاعه مع أخيه الأمين . ومن العدل أن نعترف أنه لم يكن بوسع الخليفة ان يستوزر زعيما آخر سوى الفضل لا سيما وقد لقي كل تشجيع وتأييد من قبل هذا الأخير . ويذكرنا موقف المأمون واضطراره الى تقليد الفضل وزارته بموقف أبيه الرشيد من يحيى بن خالد البرمكي وأولاده ، فنظرا لموقف يحيى من الهادى ودعمه الرشيد ومنعه الخليفة (الهادى) من اخراجه من ولاية العهد وجد الرشيد نفسه مضطرا ، وذلك وفاء للجميل ، ان يقلد شؤون الدولة ليحيي وأولاده سار المأمون على سنن أبيه وأخيه الأمين (الذى اضطر كذلك ان يفوض أمور دولته لوزيره الفضل بن الربيع) فعهد بأمور الدولة للفضل بن سهل ولقبه بذى الرياستين الرياستين وبالوزير الأمير فاستبد هذا الأخير ، بالسلطات من دون الخليفة وقد مر بنا موقفه ومحاولاته ابقاء الخليفة جاهلا لما يتم في أنحاء دولته ، كما مر بنا قضاؤه على قائد ممتاز هو هرثمة بن أعين ليس من ذنب له سوى سعيه ليجعل الخليفة يقف على حقيقة ما يجرى في العراق من حوادث وأخيرا تمكن المأمون من التخلص من وزيره وآلى على نفسه ألا يمنح وزراءه صلاحيات واسعة لكنه مع ذلك وجد من الضرورة أن يعهد بالوزارة لأخي الوزير القتيل وذلك ليسكت الخراسانيين الذين كان بنو سهل يتمتعون بنفوذ كبير بين ظهرانيهم . لكن تولية الحسن بن سهل منذ مقتل أخيه في شعبان سنة ٢٠٢ لم تجعل هذا الأخير يمارس الوزارة مباشرة فقد كان في بغداد مسلوب السلطة الى ان عاد الخليفة الى حاضرة ملكه في منتصف صفر سنة ٢٠٤ . وعلى ذلك لم يتمتع الحسن بالوزارة بصورة فعلية سوى مدة سنة واحدة ثم اعتزل منصبه لداء ألم به غير أنه بقي متمتعا بنفوذ كبير الى جانب الخليفة الذى كثيرا ما استشاره فيمن يقلدهم الوزارة . وكانت وزارة الفضل والحسن ابني سهل صورة مصغرة عن وزارة البرامكة وقد مدحها ابن طباطبا في كتابه الفخرى فقال ما نصه : " وكانت دولة بني فضل — لعل صوابه بني سهل — في جبهة الدهر غرة وفي مفرق العصر درة ، وكانت مختصر الدولة البرمكية وهم صنائع البرامكة " .

ب — فترة وزارة التنفيذ — ٢٠٥ — ٢١٨ : — استوزر المأمون بعد اعتزال الحسن ابن سهل شؤون السياسة وزراء كثيرين لكنه كان راغبا رغبة اكيدة في الحد من صلاحيات وزرائه وألا يترك هؤلاء يتمتعون بنفس صلاحيات الفضل والحسن ابني سهل . وهذا ما حدا بالمؤرخين الى اعتبار وزراء هذه الفترة وزراء تنفيذ وليس وزراء تفويض فكان عليهم الرجوع الى الخليفة والصدور عن رأيه في المعضلات فلم يكن لهم والحالة هذه استقلال

في تصريف شؤون الدولة وفق رغباتهم الخاصة . ومما لا مجال للشك فيه ان المأمون كان في هذه الفترة يدبّر مباشرة شؤون الادارة بنفسه كيلا يزداد نفوذ الوزراء نتيجة منحهم سلطات واسعة لأنه اتعظ بذلك بما حدث لأبيه مع البرامكة ولأخيه الأمين مع الفضل بن الربيع وبما حدث له هو نفسه مع بني سهل .

أما وزراء هذه الفترة فهم على التوالي أحمد بن أبي خالد وأحمد بن يوسف والقاضي يحيى بن أكثم وأبو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازي وآخرهم أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد .

كان أحمد بن أبي خالد مولى من أصل سوري وقد استشار المأمون الحسن بن سهل المريض فيمن يولّيه الوزارة فأشار عليه بأمير خراجه أحمد بن أبي خالد فلما استدعاه الخليفة قال له :

" اني كنت عزمت ألاّ استوزر أحد بعد ذي الرياستين وقد رأيت ان استوزرك فقال يا أمير المؤمنين : اجعل بيني وبين الغاية منزلة يتأملها صديقي فيرجوها لي ولا يقول عدّوي قد بلغ الغاية وليس الا الانحطاط " . فاستحسن المأمون كلامه واستوزره .

كان أحمد من خبرة الوزراء وقد توفّي سنة ٢١١ والخليفة عنه راض فصلّى عليه ثم استشار الحسن ابن سهل فيمن يقلّد الوزارة فأشار بأحمد بن يوسف وكان من أحسن كتاب عصره صناعة في الكتابة جيد الخط لدرجة حملت الخليفة على ان يقول له ذات يوم : " يا أحمد لوددت اني أخط مثل خطك وعليّ صدقة ألف ألف درهم ". لكن بعض أفراد حاشية الخليفة حسدوا هذا الوزير على الحظوة التي نالها عند المأمون فسعوا بـه لديه مدّعين أنه ذمّ الخليفة في غيابه ورماه بالبخل فجفا الخليفة وزيره وأقاله من منصبه.

ثم استوزر المأمون القاضي يحيى بن أكثم الذي جمع له الخليفة بين منصبي قاضي القضاة والوزارة . وكان يحيى وحيد عصره في الفقه ولم يكن يحجم عن مجابهة الخليفة نفسه ان وجده على ضلال ومن قبيل ذلك ان المأمون أوشك ذات مرة ان يحلّل زواج المتعة فدخل عليه يحيى وأقنعه أن المتعة زنى فاقتنع الخليفة ونودي بتحريم المتعة على أن بعض المؤرخين كابن طباطبا صاحب الفخري لم يثبتوا اسم يحيى بين وزراء المأمون . غير أن علاقات هذا الوزير بالمأمون ساءت في نهاية عهده وذلك لرواية المسعودي أن الخليفة عندما كان في مصر ٢١٥ هـ غضب على وزيره يحيى وأعاده الى العراق .

ونستدلّ على مدى استياء المأمون من يحيى بن أكثم من الوصية التي أوصى بها الخليفة أخاه ولي العهد المعتصم فقد ورد فيها ما نصّه : "..... ولا تتخذنّ بعد وزيرا تلقي اليه شيئا فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صحتّه في فصرت الى مفارقته قاليا له غير راض بما صنع في أموال

الله وصد قاته لا جزاه الله عن الاسلام خيرا ".

كما استوزر المأمون بعده أبا عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازى . وكان أبو عبد الله محمد يزداد بن سويد آخر وزير للمأمون الذى توفي وأبو عبد الله هذا متقلـــدا وزارتـــه .

وعلى العموم كان وزراء هذه الفترة الثانية (٢٠٥ — ٢١٨) محدودى السلطات ليس بوسعهم الاستبداد بمصالح الرعيّة بل كانوا لا يصدرون في شيء من الأمور الا عن رأى الخليفة نفسه ومن هنا اشتقّ اسم وزارة التنفيذ بمعنى أن الذى يقوم بأعبائها ينفّذ سياسة الخليفة وأوامره . ويعود تقييد سلطات وزراء هذه الفترة من حكم المأمـــون الى خشية الخليفة أن فترة وزارة التفويض التي كان الفضل بن سهل أثناءها مطلـــق الصلاحيات يصّرف جميع شؤون الدولة دون الرجوع الى الخليفة نفسه .

المجلس الاستشاري : — قليلا مااستشارى الخلفاء أحدا سوى بعض وزرائهم وذلك منذ نهاية عهد الخلفاء الراشدين وقيام معاوية بتأسيس الدولة الأموية لكن المأمـــون ألّف مجلسا استشاريا يستشار أعضاؤه في مهام الأمور . وكان الأعضاء ينتخبون مـــن ممثلي جميع الطوائف فصار فيها المسلمون واليهود والمسيحيون والصابئة والزرادشتية وقد تمتّع سائر الاعضاء بمنزلة متساوية . كما كانت حريّة الاعتقاد والعبادة مضمونـــة
ولم تكن الخلافات وما كان يليها من اضطهادات مؤقتة سوى نتيجة أخلاق بعض الحكام المحليين
للجميع وسوء اداراتهم وعلى العموم كانت حرية الاعتقاد مؤمنة في عهد المأمون للجميع وا
وأضحت فترة حكمه مضرب الأمثال في التساهل والتسامح حتى بلغ عدد الكنائس الـــتي شيدّت في عهده احدى عشرة ألف كنيسة علاوة عن مئات الهياكل اليهودية ومعابد النار . وكان بطريركا اورشليم وانطاكية زعيما الكنسية المسيحية ومن يليهما في المناصب الدينية من مطران وأسقف وكاهن يتمتعون جميعا بالامتيازات والحصانات الكاملة التي كان يتمتّع بها أمثالهم في الدول المسيحية .

علاقة المأمون بأمويّي الأندلس وبالبيزنطيين : —

آ — العلاقة مع أمويي الأندلس : لم ينقطع أمويّو الأندلس عن التفكير بالاستيـــلاء على الشمال الافريقي لا سيّما مصر وذلك تنفيذا لمشروعهم القديم ويقوم على فتح ماكان خاضعا لسلطان الأمويّين من بلاد . أما الخلفاء العباسيون فكانوا أيضا من جانبهـــم قلقين لازدياد نفوذ دولة الأمويين في الأندلس . وقد أفاد الأندلسيون من انشغال المأمون بقمع بعض الفتن ومن قيام بعض الثورات في مصر كفتنة الجروّى وعبد الله بـــن السرّى فأتت مراكب كثيرة سنة ٢١٠ هـ من بحر الروم من قبل الأندلس وقد ذكـــر الطبرى أن فيها جماعة كبيرة وقد رست تلك المراكب بالاسكندرية ورئيسهم يومئـــد رجل يدعى أبا حفص فلم يزالوا بها مقيمين حتى شعر المأمون بحراجة الموقف ان بقـي

هؤلاء محتلين لمصر فأنفذ عبد الله بن طاهر في تلك السنة وكلفه ان يجليهم عن ذلك القطر . وقد أضاف الطبري في أخبار سنة ٢١٠ هـ انه لما دخل عبد الله بن طاهر ابن الحسين مصر ارسل الى من كان بها من الاندلسيين والى من كان انضوى اليهم يؤذنهم بالحرب ان هم لم يدخلوا في الطاعة فأخبروني أنهم أجابوه الى الطاعة وسألوه الأمان على أن يرتحلوا من الاسكندرية الى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الاسلام فأعطاهم الأمان على ذلك وأنهم رحلوا عنها فنزلوا جزيرة من جزائر البحر يقال لها اقريطش فاستوطنوها وأقاموا بها " .

ولم ينقطع خلفاء العباسيين عن التفكير باسترداد الاندلس واعادتها الى سلطان العباسيين وقد عزم المعتصم على الزحف على ذلك القطر وقد ذكروا ان ذلك الخليفة قال لأحمد بن الخطيب ان بني أمية لمكوا ، وما لأحد منا ملك وملكنا نحن ولهم بالأندلس هذا الأموي ، فقدر ما يحتاج اليه لمحاربته ، وشرع في ذلك ، فاشتدت عليه علته ومات .

ب ـ العلاقة مع البيزنطيين : توقفت الحروب بين الروم في خلافة المأمون الى سنة ٢١٥ هـ حيث غزا هذا الخليفة البلاد البيزنطية في شهر محرم من تلك السنة وقد استخلف على بغداد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب وقد مضى الخليفة سالكا طريق الموصل فبلغ منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم مصيصة وغادرها الى طرسيس وهي الثغر الاسلامي ثم دخل بلاد الروم في منتصف جمادى الاولى سنة ٢١٥ هـ (تموز سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه . وقد اشترى الخليفة السبي بستة وخمسين ألف دينار عقب الفتح ثم أخلى الاسرى وأعطاهم دينارا دينارا كما كان قد فتح قبل ذلك حصن ماجدة فمن على أهله . وأرسل أشناس قائده الى حصن القائد البيزنطي سندس فأتاه برأسه ووجه عجيفا ابن عنبسة وجعفر الخياط الى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع .

ثم توجه الخليفة الى الشام حيث بلغه أن الامبراطور البيزنطي فتك بقسم من أهل طرسوس والمصيصة بلغت عدتهم (١٦٠٠) فاستأنف هجومه على بلاد الروم وحاصر انطيغو وهرقله فصالحه أهلهما ووجه أخاه اسحاق فافتتح ثلاثين حصنا ووجه يحيى بن أكثم من طوانه فأغار وغنم ورجع الى المعسكر . وعاد المأمون بعدها الى كيسوم الى دمشق وبلغ مصر في ١٦ ذي الحجة سنة ٢١٦ وآب ثانية الى دمشق سنة ٢١٧ وعاد لحرب الروم ثالث مرة فحاصر لؤلؤة مائة يوم ورحل عنها وخلف عليها عجيفا بن عنبسة فخدعه أهلها وأسروه مدة ثمانية أيام اطلقوه بعدها وسار الامبراطور البيزنطي تيوفيل الى لؤلؤة حيث أحاط بعجيف فوجه المأمون جنوده للاشتباك بجيوش الامبراطور فرحل هذا الأخير قبل مجيئهم وخرج أهل لؤلؤة بالأمان الى عجيف .

وكان المأمون قد شجع أحد الثوار في الامبراطورية البيزنطيين وهو توماس الصقلبي الذى ثار في آسيا الصغرى على الامبراطور تيوفيل لكنه اخفق وقمعت ثورته فاتبع الامبراطور البيزنطي نفس السياسة مع الخليفة العباسي فأخذ يشجّع بابك الخرّمي وجعل من بلاده موئلا للخرّمية أتباع بابك الذى ثار على المأمون سنة ٢٠١ هـ واعتصم بالاقاليم الجميلة الشمالية الشرقية من منطقة حرّان ، واستقّل عن الدولة العباسية بين سنتي ٢٠١ — ٢٢٣ نشر خلالها مذهبه في الاباحية على النحو الذى أو جزناه آنفا .

سئم الامبراطور البيزنطي في النهاية وعرض على المأمون الصلح كما ضّمن رسالته شيئا من التهديد .

استشارت تلك الرسالة غضب المأمون فأجاب عليها برسالة ملؤها التهديد والوعيد ثم دعاه الى الاسلام أو دفع الجزية أو الحرب . ولما رفض الامبراطور البيزنطي ما عرضه المأمون تجهّز هذا الخليفة لحرب الروم سنة ٢١٨ السنة وزحفت جحافل المسلمين فبلغ المأمون الرّقة في جمادى (الاولى والآخرة) من تلك (يونيسو سنة ٨٣٣) . وقد وجّه من الرقة ابنه العباس الى أرض الروم وأمره بنزول الطّوانة وبنائها فابتدأ البناء بناها ميلا في ميل وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصنا . ثم سار المأمون بعده الى بلاد الروم فدخلها من ناحية طرسوس وهناك كانت وفاته على النحو الذى سيأتي بيانه . ازدهار

ازدهار الحضارة العربية في عصر المأمون : ماشى //الحضارة العربية وحركة الترجمة والنقل عن اللغات القديمة الى العربية ، وتقدم العلوم والآداب والفنون العربية التي ماشت اتساع المسلمين وتوطّد سلطانهم ، وازدادت في العصر العباسي الأول ، وبلغت اوجها وعزّها في عصر الخليفة المأمون ، ولم يعد اشتغال الناس بالعلوم العربية فحسب بل تعدّاه الى سائر العلوم العصرية من طب وتنجيم ورياضيات وفلك وفلسفة ومنطق وترجمة عقلية ونقلية واختراعات وتحقيقات علمية وغيرها ...

ويعتبر عصر المأمون حلقة اتصال بين العلوم القديمة الاغريقية والفارسية والهندية وبين العلوم الحديثة العصرية اذ نقلت في عهده أعظم كتب الأقدمين الى العربية ، ثم اعيد نقلها الى اللغات الاوروبية أيام النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر ميلادى ، وبقيت في اللغة العربية ما يزيد عن ستة قرون . وأهم مظاهر تقدم العلوم والآداب في عهده .

آ — جعل المأمون يوما في كل اسبوع للمناظرات الأدبية والمناقشات العلمية في قصره فقد كان عصر المأمون حافلا بالعلماء والفقهاء والأدباء والمفكرين من المسلمين وغير المسلمين من العرب وغير العرب وكان هو نفسه من أنبغهم . وكان يعقد مجالس

المناظرة والمناقشة برئاسة وكان يأمل من ذلك ان يزيل الخلاف بين العلماء على كثير من الامور العلمية بالحجة والبرهان .

ب ــ تقدم حركة الترجمة من اللغات غير العربية : فقد كتب المأمون الى قيصر الروم في القسطنطينية يسأله أن يرسل اليه ما لديه من كتب في الفلسفة والهندسة والموسيقا والخط وأرسل بعض رجاله لاستلامها فيهم الحجاج بن مطر وابن البطريق فلما وصلت هذه الكتب الى بغداد أمر بترجمتها الى العربية ، وكتب الى حاكم صقلية المسيحي بارسال ما في مكتبة صقلية من كتب علمية وفلسفية الى بغداد ، كما أرسل كثيرا من البعوث الى الهند وغيرها لنقل الكتب الهندية . . وقد قسّم المترجمين الى فئات ، كل فئة تقوم بترجمة لغة من اللغات وأجرى لهم الارزاق ولكل فئة مشرف عام فكان يحيى ابن هارون المشرف على اللغة الفارسية ، وقسطى بن لوقا المشرف على الترجمة من اللغات السريانية والكلدانية واليونانية ، وقلّد كثير من الاغنياء خليفتهم في تشجيع الترجمة ، فكانوا يرسلون على نفقتهم البعثات لجمع الكتب من البلاد النائية وترجمتها الى العربية ، وأشهرهم أولاد شاكر المنجّم (محمد وأحمد والحسن) الذين نبغوا في الرياضيات .

جـ ــ قام العلماء العرب بكثير من التجارب العلمية ــ فقد أرسل المأمون بعثتين احداهما الى سهل سنجار والأخرى الى سهل الكوفة ، قاستا دائرة نصف النهار ، ومنها علموا طول محيط الكرة الارضية ، وكانت نتيجة أبحاثهم قريبة جدا مما وصل اليه الفلكيون الحديثون . كما رصد العلماء العرب كثيرا من النجوم والسيارات ودرسوا كثيرا من الحوادث الفلكية كالخسوف والاعتدال الشمسي .

د ــ نبوغ كثير من الرجال في علوم متعددة ــ شأنهم شأن كثير من رجال النهضة الاوروبية فيما بعد ستة قرون ــ فيعقوب بن اسحاق الكندي الذي نبغ في الطب والفلسفة والحساب والمنطق وعلم النجوم والهندسة وترجم كثيرا من كتب الفلسفة اليونانية وشرحها وعلّق عليها وألّف فيها حذا حذو الفيلسوف اليوناني أرسطو ، وقد بلغ مجموع ما ترجم وألف وشرح ٢٣١ كتابا ، ومن أشهر رجال عصره البخاري الذي جمع أحاديث الرسول وصنفها والامام الشافعي وابن حنبل والمؤرخ الواقدي صاحب كتاب فتوح الشام والطبيب الذائع الصيت جبرائيل بن بختيشوع والكاتب والعالم الجاحظ الذي اعتنق مذهب الاعتزال وغيرهم . . .

المعتزلة : فهي فرقة من الفرق التي ظهرت في العصر الأموي وكانت دينية خاصّة ثم نظرت في أمور سياسية كالخليفة ومن يجب أن يكون ، فهي كالخوارج والشيعة وغيرهما وكان المعتزلة يعتقدون أن الخليفة يمكن أن يكون من قريش ومن غير قريش . وقد زاد نفوذهم في أيام الدولة العباسية الأولى وأمن المأمون بآرائهم وقرّبهم اليه ، وكان يستمع الى

أقوالهم في مناظراته التي كان يعقدها في قصره . وأهم أثر مباشر كان لهم على المأمون وعلى الرعية انهم كانوا يقولون : ان القرآن مخلوق وقال المأمون بقولهم ، وأراد أن يجبر الناس بالقوة على الاعتقاد بمثل ما يعتقد هو المعتزلة فصار يناقش العلماء والفقهاء وصار يجبرهم على القول بذلك ومن أنكر ورفض سجنه أو عذّبه كالامام أحمد بن حنبل الذى لم يرض القول بخلق القرآن ، وزاد في ذلك أنه عزل من وظائف الدولة من لا يقول بخلق القرآن ، وأوصى أخاه المعتصم أن يدعم رأى المعتزلة ويجبر الناس على القول بآرائهم وقد مضى على سنته بعض الخلفاء الذين أتوا بعده كأخيه المعتصم وابن أخيه الواثق . لكن المتوكل منع اجبار أحد على القول بخلق القرآن فلقب محيي السنّة .

وتتكون عقائد المعتزلة من خمسة أصول ، هي :

القول بالتوحيد وهو أن الله واحد لا شريك له ، والقول بالعدل وهو أنه لا يحب الشّر والفساد ، والقول بالوعد والوعيد وهو أن الله صادق في وعده ووعيده لا يغفر لمرتكب الكبيرة الا بعد التوبة ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر لكنه فاسق . والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو تكليف المؤمن بالجهاد واقامة حكم الله على من خالف أمره ونهيه ، سواء أكان كافرا أم فاسقا .

<u>وفاة المأمون وتوليته العهد من بعده أخاه المعتصم</u> : قصد المأمون بلاد الروم غازيا ولما بلغ شمالي مدينة طرسوس تعرض لحمّى لم تمهله فأدركته منيته في ١٨ رجب سنة ٢١٨ وقد دفن في طرسوس وله من العمر ثمان وأربعون سنة .

لم يقع هذا الخليفة فيما وقع فيه غيره من الخلفاء من أخطاء وذلك بالبيعة لعدد من الأمراء من بعده بل رجّح مصلحة الخلافة على حبه لابنه العباس حيث آثر عليه أخاه أبا اسحاق بن الرشيد الذى لقب بالمعتصم . فقد رأى بثاقب نظره ان الدولة عصفت بها فتن داخلية لم تتمكن جيوشه من قمعها وأهمها ثورة الزّط وبابك الخرّمي كما كانت الدولة البيزنطية تتربّص بها الدوائر ولذا فالخلافة العباسية بحاجة في ذلك الظرف العصيب الى قائد محنّك مارس الحروب وقد وجد تلك الصفة متوفّر في أخيه المعتصم وقد جاء في وصيته لأخيه ما يلي :

" واعمل في الخلافة اذا طوّقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهلته فكأن قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية الرعية العوام العوام فان الملك بهم . وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين . ولا ينهين اليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم الا قدمته وآثرته على غيره من هواك . وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم في شيء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربّهم وتأنهم وعجّل الرحلة عني والقدوم الى دار ملكك بالعراق . وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم (أى البيزنطيين) فلا تغفل عنهم في كل وقت ".

المعتصم بالله : (٢١٨ـ ٢٢٧هـ : ٨٣٣ـ٨٤٥م)

نشأته وصفاته : هو ابو اسحاق محمد بن هارون الرشيد من جارية تركية اسمها (ماردة) (او مارية على رواية المسعودى) ولد سنة ١٧٨ وليس لدينا شيء عنه في صغره . ويظهر انه كان مهمل التربية . وما قدر له ابوه (وله من الاولاد مثله اثنا عشر) أن يلي في يوم من الايام عرش بني العباس. فنشأ محمد أميًا لا يكتب ـ على قول بعض المؤرخين ـ أو كان " ضعيف الكتابة " على قول ابن خلكان ـ ولكن المصادر تجمع بالمقابل على وصفه بجمال الهيئة وبالقوة التي لم تعرف لغيره ." كان يصارع الاسود ويحمل الف رطل ويمشي به خطوات . وكان يلوى العمود الحديد حتى يعيده طوقا " ويشتد على الدينار بأصبعه فيمحو كتابته ". ويمتدحه المؤرخون على انه رجل حرب " قيل انه يكن في بني العباس قبله اشجع منه ولا أتمّ تيقّظا في الحروب ". وتتضح هذه الصفة فيه متى ذكرنا بعد قليل اعماله الحربية . على اننا لا نعلم اين تمرّس بالحرب ؟ ولا الذى كان من شأنه يوم الفتنة بين أخويه ؟ ونعثر على اسمه في اخماد ثورة حرورية سنة ٢٠٢ ثم يبرز اسمه فجأة في أواخر عهد المأمون ، أخيه ، حين يعيّنه لولاية الشام ومصر سنة ٢١٣ هـ ثم يأخذه للغزو معه على الجبهة البيزنطية .

بيعته : وتدرك المأمون وفاة الحمّى في طرسوس، ولم يكن قد عقد لأحد بعد ولاية عهده . فيستدعي اخاه ابا اسحق ، ويعهد اليه بالخلافة من بعده ، دون ابنه العباس ، الذى كان موجودا معه في الغزو ، والذى كان محبوبا من الجند ، ولا سيّما من العرب ، على ما يفهم من الطبرى وغيره .

ونتساءل عن السبب الذى حدا بالمأمون لترك ابنه والعهد لأخيه . ولعله وجد الخلافة العباسية مهدّدة من بابك الخرّمي ، ومن ثورات مصر ومن الزطّ ، وهجمات بيزنطة ، فاختار للموقف أخاه المتمرّس بالحروب. وربما كانت وصيته له والتي كنا اوردناها تلقي ضوءا على هذه النقطة .

واما العباس فقد اسرع ـ حسب بعض الروايات لمبايعة عمّه ولما شغب الجند أسكتهم " وكلّمهم بكلام استحمقوه وشتموه وبايعوا لأبي اسحق ". هذا بينما تشير بعض الأخبار الى أن العباس تردّد . ويظهر ان حزم المعتصم هو الذى حسم ذلك التردّد . وقمع شغب الجند . هذا أصحّ اذا عرفنا ان العباس بن المأمون دبّر مؤامرة فيما بعد مع القائد العربي عجيف بن عنبسة للاستيلاء على العرش بعد وقعة عمّورية ، ولكن المؤامرة افتضحت فمنع المعتصم الماء عن العباس حتى مات . ولحق به عجيف .

على أى حال ، ماكادت تتمّ البيعة في الجبهة للمعتصم بالله ، حتى اسرع الى بغداد ـ حسب وصية أخيه ـ ليشرف على قاعدة ملكه بنفسه .

سياستـــــه : يمكن ان نلاحظ في سياسة المعتصم انعكاس ظروفه الخاصة لحد كبير :

أ ـ فقد كان تركيّ الأم ، عسكري الهوى ، وهذا ما جعله يعتمد على اخواله في الجيـــش ويغالي في جمعهم اليه . فأوجد لنفسه عصبيّة جديدة تحكّمت ـ وكما سنرى ـ بمصيـــر الدولة العباسية . ويظهر ان المعتصم شعر بخطئه في استعمال الترك ، ورأى اخفاقـــه في تسيير أمور الدولة ، فشكا ذلك لاحد خلصائه .

ب ـ كان سريع الانفعال والغاضة : وهذا ما يفسر قسوته في التعصب لما يريد كما ذكر الطبري ويفسر/أيضا ما يصفه به وزيره احمـــد ابن أبي دؤاد من " لين الجانب وجميل العشرة " ومن هذا المنبع اتى اضطهاده القاسي لمن لا يقول بخلق القرآن واعتزازه لحمل المرؤة ، لا فرق في ذلك بين استجابته لصيحة " وامعتصماه " التى اطلقتها امرأة عربية في جبهة بيزنطية فدفعته الى ما بعد عمّورية او معونته بنفسه مرة في يوم مطير لشيخ ضعيف ، غرق حماره في الوحل وعليه من الشـــوك والشيـــخ .

ج ـ تبع وصيّة اخيه المأمون بحرفيتّها ، وقلّد اعماله . ولما كان قليل البضاعة مـــن العلم فقد كان أقلّ تسامحا من اخيه سواء مع العلويّين او مع غير المعتزلة . ولقد سمـــح لنفسه ان يضرب الامام احمد بن حنبل بالسياط ويسجنه لأنه امتنع عن القول بخلق القرآن وانما كان المعتصم يفعل ذلك تقليدا لا عن قناعة .

د ـ تميزّ المعتصم بحبّه للعمران وللعمارة واحياة الموات وكان يقول : " ان فيهـــا امورا محمودة مع عمران الارض التي يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش البهائم وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتّسع المعاش " ، ويقول لوزيره محمد بن عبد الملـــك " اذا وجدت موضعا متى انفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرني فيه " واعطى اهل الشاش الفي ألف درهم لكرى نهر لهم اندفن في صـــــدر الاســــلام .

هـ ـ كان المعتصم قائدا ممتازا في الحرب قمع الفتن التي قضى اخوه عهده كله دون ان يتمكّن من اخمادها ، وأرهب جبهة الروم ، غير انه كان قصير النظر في السياسة ، قصـــرا شاركة فيه أولاده بعده . والاعمال والسنن التي حسبها سبيل قوة الدولة كانت هي نفسها عوامل تدميرها ، قد بني عاصمة جديدة ليخلص من عصبيات وضغط العاصمة الاولى ، فوقع كالسجين في مدينته الجديدة ، لان معظم سكانها كانوا من الجند ... وكذلك وقـــع خلفاؤه صرعى لهم . واصطنع عصبية جديدة من الترك يقوى بها ونسي انه لا ثقافة لهؤلاء ولا ولاء ، وان همّهم الكسب . ثم انه باصطناعهم يوهن ما توطّر من علائق بين دولة بـــني العباس وبين جناحيها في ايران وفي جزيرة العرب ، وهنا خطيرا ويتركها دون سنـــد الا من دخيل من الاجناد لا جذور لهم في أركان او كيان . واذا لم تظهر خطيئـــات

سياستة له فلأن حزمة كان بعصمه . واذا كان خلفاؤه هم الذين يحملون الوزر بسوء تصرّفهم بعده وعدم تنبّههم للمصير ، فقد دفعوا ودفعت الدولة معهم الثمن ولم يكن مضى على وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ غير عشرين سنة .

الواثق : ١٦ ربيع الأول ٢٢٧ — ٤ ذي الحجة ٢٣٢ هـ ٥ يناير ٨٤٢ م — ١ اغشت ٨٤٧ .

تختلف نظرة المؤرخين المحدثين الى الواثق كل الاختلاف . فلئن تطرف بعضهم في ذمة تطرفا كبيرا لتعصّب الواثق الديني وطمعه ، متناسين مزاياه الاخرى . فان بعضهم الآخر غالي في مدحه مغالاة شديدة . فيقول اميرعلي : كان الواثق — رغم افتراء الكتّاب المتعصّبين — حاكما ماهرا كريما صبورا ، واسع المعروف لم تشب أخلاقه أية شائبة برغم حبّه للمجون .

كان نهجه في الحكم استمرارا لسياسة عمّه وأبيه . فكان يحب الاعتزال ويبغض التقليد وأهليه ويشجع نشر العلوم بين الناس . اقتفى اثر عمّه في الاعتزال . وحاول نشر مبادئه واحتحن الناس في خلق القرآن فكتب الى القضاة ان يفعلوا ذلك في سائر البلدان وان لا يجيزوا الأشهادة من قال بالتوحيد . وتشدد في ذلك ، حتى انه أمر سنة ٢٣١ هـ باحتحان اهل الثغور فلما رفض اربعة ان يقولوا بخلق القرآن ضرب اعناقهم. ولما جرى الفداء سنة ٢٣١ هـ افتدى من الأسرى المسلمين من قال بخلق القرآن فقسط وقد اضطهد غير المعتزلة ، فأدى ذلك الى السخط العام عليه . يقول المسعودي : " شغل نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم وأوجد لهم السبيل الى الطعن عليه".

وسرعان ما أدّى تشدّد الواثق الى قيام حركة ضدّه في بغداد سنة ٢٣١ هـ يحمل لواها " اصحاب الحديث ومن ينكر القول بخلق القرآن ". ويقودها احمد بن نصر ابن مالك ابن الهيثم الخزاعي ، وانتشرت الدعوة سرا ولكن المؤامرة اكتشفت قبل موعدها ودفع رئيسها حياته ثمنا لذلك مما دلّ دلالة واضحة على قوة اعداء المعتزلة رغم استمرار ثلاثة خلفاء على نشرها ، فلا تستغرب سهولة ضربها سياسيا في عصر المتوكل .

وسار الواثق على خطة ابيه في تقريب الاتراك وتقديمهم في الجيش فاعتمد عليهم الاعتماد كلّه وارسلهم الى قلب الجزيرة لضرب العرب كما اعطى الولايات الواسعة لقوادهم ورؤسائهم . فقد ولّى آشناس" من بابه الى آخر عمل المغرب " وولى ايتاخ خراسان والسند وكور دجلة . ولكن مساوىء تقريبهم لم تظهر في خلافته .

واقتدى بعمّه المأمون في التسامح مع العلويّين . واحسن اليهم وبالغ في اكرامهم ومنحهم الاموال .

كان عهده هادئا نسبيا ولكننا لا ندري هل كانت تلك الفترة فترة رخاء نسبي ؟ . كان الواثق متفقّدا لرعيته محسنا اليهم وذكروا انه " فرّق في اهل الحرمين أموالا لا تحصى

حتى انه لم يوجد في أيامه بالحرمين سائل " . ومن مظاهر عطفه ان الكرخ احترقت في ايامه فعجز الفقراء عن عمارة املاكهم وانتقلوا عنها فأعطاهم مليون درهم " معونة على اصلاح المنازل كما انه اعطى المال لأهل فرغانة لسدّ بثق وحفر نهر هناك . وشجّع التجارة فأمر سنة ٢٣٢ هـ بترك جباية أعشار سفن البحر ويقول اليعقوبي " وفرّق على قوم من التجار اموالا جمّة ... واسقط ما كان يؤخذ ممن يرد في بحر الصين من العشر " .

ومع ذلك فانه يلام لاكثاره من مصادرة موظّفية فصارت المصادرة سنة سيئة لمن خلفه ومورداً للدولة يعوّل عليه في اوقات الحاجة . ولا شك ان لذلك اسوأ الأثر في الادارة وفي الاستقرار المالي . وهكذا فانه حبس سنة ٢٢٩ الكتّاب وأجبرهم على دفع مليونين الا ربع مليون من الدنانير .

ويشترك في تحمّل مسؤولية ذلك قاضي الواثق بطل الاعتزال احمد بن ابي دؤاد ووزيره محمد بن عبد الملك الزيات اذ " كان لا يصدر الا عن رأيهما وقلّدهما الأمر وفوّض اليهما ملكه . " ولا شكّ ان استبقاء الواثق لابن الزيات في الوزارة رغم سخطه عليه وهو أمير دليل على مقدرة ابن الزيات وعلى اتزّان الواثق وقد قال له " والله ما أبقيتك الا خوفا من خلّو الدولة من مثلك وسأكفّر عن يميني فاني أجد عن المال عوضا ولا أجد عن مثلك عوضا " .

المتوكل (٢٤ ذو الحجة ٢٣٢ — ٤ شوال ٢٤٨ هـ (١١ اغشت ٨٤٧ — ١١ كانون الأول ٨٦١ م) : توفي الواثق دون عهد . اذ رفض الاقتراح بتسمية خلف له قائلا " لا يراني الله اتقلدها حيّا وميتا " وترك الأمر لرجال الحاشية فاجتمع في دار الخليفة قاضي القضاة (احمد بن ابي دؤاد) والوزير ابن الزيات ، واحمد بن خالد وعمر ابن فرج من رؤساء الكتّاب ووصيف وايتاخ من قواد الاتراك وارادوا البيعة لابن الواثق : ولكنهم عدلوا عنه لصغر سنه وقصره واحتجّ وصيف وقال : " اما تتقون الله ؟ تولّون مثل هذا الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة ؟ " فعدلوا عنه الى اخي الواثق . فالبسه قاضي القضاة الملابس وسلّم عليه بالخلافة . وكانت بيعته الخاصة في تلك الساعة ثم بايعه الناس البيعة العامة مساء .

وهكذا تمّت بيعة المتوكل التي كان للترك فيها دور مهم . ولكن اشتراك رجال الادارة قلّل من خطر هذه التجربة . ويرى بعض المؤرخين أن اختيار الاتراك الخليفة يدلّ على ان نفوذهم قد استفحل جدّا . فبات اصطدامهم بخليفة قوى كالمتوكل أمرا منتظرا .

وكان المتوكل معتدلا في صرف ... مع ميل للكرم . كما وصف بالحزم والقسوة والقسوة والالتجاء الى الغدر متى اقتضى الحال ذلك كما فعل بايناخ . وكذلك

يوصف بالانهماك في اللهو والشراب . وذكروا بأنه كانت لديه أربعة آلاف سرية وقد أحب العمارة . فأنفق اموالا طائلة على القصور والأبنية .

واجه المتوكل قوة المعتزلة واستبدادهم من جانب وزيادة نفوذ الاتراك زيادة خطرة من جانب آخر ولكنه لم يكن معتزليا وكان يخشى الاتراك بالرغم من مساعدتهم له في الوصول الى الحكم . فكان موقفه من هؤلاء وأولئك ملائما لظروفه وميوله ، حيث عزم على ضرب المعتزلة مستعينا بمساندة الفقهاء من اهل السنّة الذين التف الحزب العربي في المملكة حولهم . ويظهر ان حركة الاعتزال اقتصرت على بعض المثقفين بينما بقي السواد الاعظم محافظا . وهذا يفسّر نجاح المتوكل في ضرب قوة المعتزلة السياسية دون ان يجابه بثورة عصيان . فنهى الناس عن الكلام في خلق القرآن وأمر الشيوخ بالتحديث واظهار السنة . وأطلق سراح من كان الواثق سجنه لتمسكه بقول اهل السنة وأخرج احمد بن حنبل من السجن سنة ٢٤٢ واكرمه .

ومع ذلك فان موقفه من المعتزلة وتبنّي الرجوع الى السنّة وافقهما اضطهاد للمذاهب الأخرى فتشدّد في مطاردة العلويين وأنصارهم ونكّل بهم وصادر اموالهم . وقد تطرّف في كرهه للعلويين حتى انه كان يبغض اسلافه الثلاثة لميلهم للعلويين . وأمر بهدم قبر الحسين وما حوله من المنازل والدور وحاول ان يخفي معالمه ، ومنع الناس من زيارته وقرّب جماعة كانوا مشهورين ببغضهم لآل علي فزادوا الطين بلّة بأن كانوا يخوّفونه من العلويين ويشيرون عليه بابعادهم و .... الاساءة اليهم ثم حسّنوا له الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين ". فذهب الى السخرية علنا من علّي .

فاظهرت هذه السياسة الهوجاء عدم امكان التفاهم بين العلويّين والعباسيّين وجلبت سخط قسم كبير من الناس حتى قال ابن الاثير : " فغطت هذه السيئة جميع حسناته ".

واضطهد المتوكل الذميّين وكان وضعهم قبله حسنا . ولعلّه كان مسوقا الى ذلك بارضاء العامّة . ففرض عليهم في سنة ٢٣٥ نوعا خاصا من الزّى وقيّد تصرفاتهم العامة . كما انه امر بهدم كنائسهم الجديدة . ومنع المسلمين من تدريس أولادهم . وحظر استعمالهم في الوظائف . حتى انه نحّى سنة ٢٤٢ هـ المسيحي الذى كان يراقب مقياس النيل .

وذكروا ان المتوكل كان أول خليفة شرع منع بناء كنائس جديدة . ثم أكّد تباين زّي الذميّين عن المسلمين بعد اربع سنوات اذ أمر " بأخذ اهل الذّمة بلبس دراعتين عسليتين على الأقبية والدراريع وبالاقتصار في مواكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين ". كما انه شدّد من جديد على هدم البيع المحدثة في الاسلام".

وفرض المتوكل ضريبة جديدة على اهل الذمّة . فأمر " بأخذ العشر من منازلهم" ولما اشترك مسيحيّو حمص في الثورة ضد العامل 242 هـ أمر باخراجهم من مدينتهم " وهدم كنائسهم وأدخل بيعتهم في الجامع " . وكان هدف المتوكل من وراء كل ذلك كسب . ودّ الرأي العام بأن يزداد عدد مؤيديه في محاولته لتقليل نفوذ الترك وضربهم بعد ازدياد نفوذهم لدرجة خطرة .

وقد سار في مقاومته لنفوذ الترك بصورة بطيئة ، فكانت أيامه سلسلة نزاع صامت بينه وبين حرسه انتهت بفشله ومقتله .

بدأ المتوكل بايتاخ " وكان اليه الجيش والمغاربة والاتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة " بالاضافة الى الاشراف على بيوت الأموال فكانت سلطته خطرا على الخليفة ولم يتردد ايتاخ في اظهار غروره . فأخذ الخليفة يدبّر عليه . وفعلا أرسل اليه من حسّن له الحجّ ففعل ذلك ايتاخ ، فاسرع المتوكل بنقل الحجابة الى وصيف ثم دبّر مؤامرة مع حاكم بغداد بأن يسجنه بعد رجوعه فنجحت المؤامرة ، ومات ايتاخ في السجن (5) جمادى الآخرة سنة 230 هـ . وكانت بغداد المحلّ المناسب لهذا المشروع لبغض أهلها للترك وليعد ايتاخ عن انصارة حتى قال الطبري : " ولو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على أخذه ، ولو دخل سامرّاء فأراد بأصحابه قتل جميع من خالفه أمكنه ذلك " . أما اليعقوبي فيذكر أن ايتاخ أراد ان يوقع بالخليفة فلما لم يمكنه ذلك طلب الحجّ فسمح له الخليفة بذلك ثم دبّر سجنه ومقتله في بغداد ، وأنه صادر اموال عامل مصر لمكاتبته ايتاخ .

لم يستطع المتوكل أن يقوّي مركزه ، لا بل على العكس شعر انه وسط جيش لا يدين له بالولاء . بنقل مركز حكمه الى محلّ آخر يتخلّص فيه من نفوذ الترك ويكون فيه بين عنصر يؤيده وهو العنصر العربي لانه لاحظ فشل سياسة التعاون مع الفرس والأتراك ولذلك فكّر بدمشق التي كان النفوذ التركي والفارسي فيها معدوما ، كما انها تتعصب للسنية وتكره العلويين ، فهي بذلك تتفق وميوله وفعلا انتقل اليها في صفر 242 هـ " وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها وأمر بالبناء بها " . ولكن الاتراك ادركوا خطر الوضع فاجبروه على الرجوع بعد ان اقام بها شهرين وأياما . اذ بدأوا بالضجيج ضدّه يطلبون ارزاقهم وارزاق عيالهم وجردوا السلاح . ثم لم يقتنعوا باستلام اعطياتهم بل فكروا بقتله - كما يقول المسعودي . فلم ينجحوا لتأييد بغا الكبير للخليفة وهكذا اضطرّوه الى الرجوع . ويؤيد هذا قول اليعقوبي بأن رجوع الخليفة كان لحذرة من موقف الاتراك . هذا بينما فسرّ مؤرخون آخرون عودة الخليفة الى سامراء بقولهم : ان الهواء بدمشق بارد ندي والماء والريح تهبّ مع العصر ، فلا تزال تشتدّ حتى يمضي

عامّة الليل وهي كثيرة البراغيث . لكن هذا التفسير اعتذاري ، فالمسعودي يبيّن ان المتوكل لم ينزل دمشق نفسها بل نزل "على ساعة من المدينة في أعلى الأرض" ويؤكد البعض على برودة الهواء وان الثلج "حال . . . بين السابلة والميزة مع العلم ان المتوكل كان هناك بين صفر وربيع الثاني (بين مايو ويوليوز أي في وسط الصيف) .

وهكذا فشل المتوكل في هذه المحاولة تجاه مقاومة الاتراك وسرعة انتباههم للأمر . لم يستقر الخليفة في سامراء ذاتها بل قرّر الانتقال الى شمالها ففي سنة 245 هـ او 246 هـ حيث بنى مدينته الجديدة التي سماها "الخاصة المتوكلية" . ولعلّه اراد بذلك تقليل ضغط الترك عليه والابتعاد عن خصومه .

واستمر يدبّر ضد الترك . قال المسعودي : "وجفا الموالي من الاتراك واطرحهم وحطّ مراتبهم وعمل على الاستبداد والاستظهار عليهم" . وقد خطا خطوة عملية في ذلك بأن أدخل فرقة عربية في الجيش" اذ ضم الى وزيره عبد الله بن يحيى بن خاقان نحوا من اثني عشر ألفا من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز وكان في حجرة" وضاق ذرعا بتصرّف الأتراك بأموال الدولة " وجعل يجيل الآراء في استئصالهم" وحاول تشتيت الزعماء فقبض على ضياع وصيف وأقطعها للفتح بن خاقان . كما أنه عزم على الفتك به وببغا . غير ان الترك استغلّوا الخلاف بينه وبين ابنه المنتصر فعاجلوه وقتلوه كما سنرى .

وكان وزراء المتوكل طوع امره . اذ أبقى محمد بن عبد الملك الزيات في الوزارة ولكنه كان يحقد عليه لسوء معاملته له في حياة اخيه فنكبه بعد اربعين يوما وصادر امواله وعذّبه حتى مات . وكان لابن الزيات "رجلا شديد القسوة قليل الرحمة جبّاها للناس كثير الاستخفاف بهم لا يعرف له احسان الى احد ولا معروف عنده ، وكان يقول الحياء خنث والرحمة ضعف والسخاء حمق ، فلما نكب لم ير الا شامت به وفرح بنكبته" . كما استوزر بعده عدة وزراء سنتحدث عنهم .

ولكن الوزراء المتوكلين كانوا معرضة للمصادرة كما حصل لابن الزيات ولابن الوزير ويظهر أن نفوذ الاتراك كان يحد من سلطة الوزير .

يذكر اليعقوبي ان المتوكل "امر سنة 234 هـ ان يسلم الناس على ابنه محمد بالامرة ويدعى له على المنابر وكتب بذلك الى الآفاق" . وفي سنة 235 هـ 850 م نظّم ولاية العهد فعقد لأولاده الثلاثة : محمد وسمّاه المنتصر ، وابي عبيد الله (اسمه محمد او الزبير او طلحة) ولقبه المعتزّ وابراهيم ولقبه المؤيد (في 2 – 3 ذى الحجة) وعقد لكل واحد منهم لوائين احدهما اسود وهو لواء العهد والآخر ابيض وهو لواء العمل (الطبري) . وقسّم الامبراطورية بين الثلاثة : فكانت حصة الاسد للمنتصر

بينما كانت حصة المؤيد الحصة الصغرى ...

وكان المنتصر وحدة قد وصل سنّا يساعده على التدخل الفعلي في امور الدولة (13 سنة لان سنه عند مجيئه للحكم 25 سنة) بينما كان المؤيد حدثا ، والمعتز طفلا ، ولذلك عيّن المتوكل لكلّ منهم كاتبا يشرف على ادارة ولاياته .

وبعد خمس سنوات أضاف المتوكل الى ابنه المعتزّ خزن بيوت الاموال في جميع الآفاق ودور الضرب ، وأمر بضرب اسمه على الدراهم .

ولكن المتوكل لم ينجح في تنظيمه . فان الخصومات بين افراد العائلة المالكة ودسائس الحاشية أدّت الى تحطيم خطّته وساعدت على قتله .

أراد المتوكل ان يقوم باصلاح زراعي مهم ، فحاول تأخير موعد الجباية لحلّ مشكلة هامّة . فقد كان الخراج يجبي قبل نضوج الزرع ، فكان الزرّاع يضطرّون الى الاقتراض ويخسرون كثيرا حتى هجر البعض أراضيهم . وكانت هذه المشكلة موجودة منذ العصر الاموى ، فأمر ان يؤخّر الموعد من ابريل الى 17 يونيو . ولكن مقتله حال دون تنفيذ هذا الاصلاح .

وأكثر المتوكل من المصادرات حتى اصبحت شبه ضريبة على الموظفين الكبار ولعله اعتبرها وسيلة لاسترجاع بعض اموال الدولة التي أخذوها بطرق غير مشروعة . كما ان كثرة النفقات وقلّة الوارد دفعت الخليفة الى هذه الوسيلة . ويمكن الحصول على فكرة عن بذخه من نفقاته على الدور التي بناها . فقد بنى " قصورا انفق عليها اموالا عظاما منها الشاه والعروس والشيدان والبديع والغريب والبرج . وأنفق على البرج ألف ألف وسبعمائة الف دينار " . وانفق في بناء الماحوزة (مدينته) " اكثر من ألف ألف دينار " . وخصّص للنفقة على النهر الذى أجراه اليها 1200 ألف دينار . والامثلة على مصادراته كثيرة :

ساعدت الفوضى في المركز على اضعاف كبار الدولة وعلى حصول الاضطرابات فيها فحصلت ثورة في أذربيجان بزعامة محمد بن البعيث وكانت ربيعة العنصر الاساسي فيها فأرسل المتوكل فرقتين لإخمادها ولكنهما لم تخمداها ، حتى ذهب بغا الشرابي فاستطاع بدهائه ان يخمدها (سنة 235 هـ) .

وفي سجستان ظهر الصفّارون وبدؤوا بتكوين اماراتهم التي قضت على آل طاهر وكان مقتل المتوكل في ليلة الأربعاء (يوم الثلاثاء 4 شوال 248 هـ) في مدينة الجعفرية قتله جماعة من الاتراك على رأسهم وصيف وبغا المعروف بالشرابي بعد ان انفض مجلس شراب الخليفة وبقي وحده في حالة سكر عمية ومعه الفتح بن خاقان الذى قتل وهو يدافع عن سيّده . وكان ذلك كما يظهر باتفاق بين الترك والمنتصر ابن الخليفة .

ولا شك ان قتله هذا كان فاتحة بلاء على الخلافة واعلانا لانتهاك حرمتها . فهي أوّل مرة يجرأ فيها الجند البرابرة على سفك دم الخلفاء والتعدى عليهم وشجّعتهم على اقتراف انواع الجرائم ضدهم . وقد اجتمعت ظروف متعدّدة أدّت اليها . ودراسة اسبابها تلقي ضوءا على السياسة العامة وعلى دسائس البلاط .

ولعلّ العقدة الاولى ناتجة عن انحراف المتوكل عن المنتصر وترّجح ان يكون سبب ذلك اختلاف ميول المنتصر عن ميول ابيه المتوكل . فقد كان الأول يميل الى الشيعة وآل علي بينما كان المتوكل يكره العلويين أشدّ الكره .

ويذكر ابن الاثير غضب المنتصر لان والده كان يسخر في مجلس طربه من الامام . ويعلق على ذلك قائلا ، " فكان هذا من الاسباب التي استحلّ بها المنتصر قتل المتوكل ويذكر الاربلي أن المنتصر أخذته الغيرة لسبّ والده للعلويين وانه قتله على سبيل المذهب .

وصار المنتصر يشترك في دسائس البلاط ، فزاد ذلك في اضرام النار واثارة سخط المتوكّل وشكوكه وأخذ يهين ابنه المنتصر ويحتقره . ومما وسّع في ثغرة الخلاف بين المتوكل والمنتصر وزيره عبيد الله بن يحيى ونديمه الفتح بن خاقان اللذان شجّعا المتوكل على تقريب المعتزّ وابعاد المنتصر . حتى انهما أشارا عليه في آخر جمعة من رمضان سنة 248 هـ ان يفوّض امامه الصلاة للمعتز فاغتاظ المنتصر " مما زاد في اغزائه " . وبلغ من كره المتوكل لابنه ومن خوفه من دسائسه أنه فكّر بالفتك به وزاد في شتمه واهانته ثم اعلن خلعه في مجلس شربه في أواخر أيام حياته .

وقد انجرف المنتصر في دسائس الترك . فقد رأوا في سياسة المتوكل حتفهم فقرروا التخلص منه فوجدوا في وليّ العهد خير حليف لهم . فقد ارتاع وصيف عندما علم بأن المتوكل أمر بانشاء الكتب لقبض ضياعه واقطاعها للفتح بن خاقان .

ويروى الطبرى عن بعض المعاصرين " وذكر بعضهم ان المتوكل عزم على ان ... يقتل وصيفا وبغا وغيرهما من قواد الاتراك ووجوههم فكثر عيثه بهم " وحدّد المتوكل لذلك يوم الخميس (5) شوّال (بعد مقتله بيومين) .

ويذكر المسعودى ان بغا الصغير " كان توحّش من المتوكل ... وكان (اوتامش) غلام الواثق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك " .

وأخذ الاتراك يتكتّلون ويداولون الرأى بينهم في الخلاص من المتوكل . واخذ المنتصر يقوى مركزه بينهم " فكان يجتذب قلوب الاتراك ... وكان أوتامش يجتذب قلوب الاتراك الى المنتصر ... فكان المنتصر لا يبعد أحد من الاتراك الا اجتذبه فاستمال قلوب الاتراك من الفراغنة والأشروسنية .

ويظهر ان تصرّف المتوكل يوم الثلاثاء وضع آخر حجر في القضية . وانتهى بقتله مساء ذلك اليوم . وران بمقتله على الخلافة العباسية جوّ من الفوضى لم تستطع وحتى القضاء عليها بعد أربعة قرون الخلاص منه .

أولا : ـ السياسة الداخلية حتى مصرع المتوكل : وكان أهم ما يلاحظ على الصعيد الداخلي في الفترة التي ندرسها اضطراب الدولة بعنصر جديد هو : الترك ، أقيمت من أجله ، عاصمة جديدة . ثم انحطاط الجهاز الاداري في الدولة انحطاطا عاما واخيرا ظهور بعض الحركات الثورية التي كانت أشبه بتصفية الثورات الدينية والسياسية السابقة في العهدين الماضيين .

1 ـ الاتراك : لعلّ تلك المنطقة البدوية ، المحصورة بين هضبة بامير ، وبحر الخزر ، وبين اطراف آرال ، وخراسان ، والتي ندعوها اليوم تركستان ، وكان المسلمون يدعون بعضا منها باسم (ما وراء النهر) ولعلها من المناطق القليلة في العالم ، التي كان أثرها في التاريخ واضحا كل الوضوح . (وأهم منها في ذلك جزيرة العرب ومثلها بوادي منغوليا وأطراف البحر البلطي) . وأول ما تصل المسلمون بتلك المنطقة أيام فتح الوليد بن عبد الملك ، وقائده قتيبة بن مسلم الباهلي . على ان انتشار الاسلام في تركستان لا يدلّ الا على قليل من النشاط في الدعوة . وقد قاومه الامويون احيانا على ما يظهر في أواخر عهدهم (عدا عمر بن عبد العزيز) كما قومه السكان الترك انفسهم . واتسمّت مقاومتهم بكثير من ضروب العنف والعناد ـ كما يقول آرنولد حتى انه لم يجرؤ المسلمون على الظهور اعواما طوالا في المساجد ، والاماكن العامة دون سلاح ، وحتى على غيرهم حمله . ولم يكن بدّ من ان تقام العيون على حديثي العهد بالاسلام . كما حاول المسلمون ما يروى آرنولد نقلا عن النرشخي في اخبار بخارى) قراءة القرآن باللغة الفارسية بدلا من العربية ليستطيعوا فهمه في سهولة ويسر .

ويتولي المعتصم الخلافة توثّقت العلاقات بين بغداد وما وراء النهر . فهاجر الترك افواجا لينضموا الى جند الخليفة . وهذا وان لم يكن المعتصم اول من استجلبهم واستعملهم فاننا نجد اشارات الى وجود أتراك في الجيش العباسي قبل عهد المعتصم ولكن عددهم لم يكن وفيرا . كما لم يكن استخدامهم طبق سياسة مرسومة وربما كان لأمه التركية اثر في تعرفه على هذه الجماعة الجديدة ، كما كان لحسن هيئات هؤلاء الغلمان وجمال صورهم وقاماتهم وشجاعتهم الساذجة اثر في تحبيبهم الى قلب المعتصم واستخدامه لهم حتى قبل تولية الخلافة .

فلما افضت الخلافة اليه ألحّ في طلبهم واشترى من كان في بغداد من رقيق الناس

وكان عبد الله بن طاهر يرسل اليه سنويا ألفي غلام تركي كجزء من خراج خراسان كما انه كان يشجع الاتراك ، في آسيا الوسطى ، على الانخراط في جيشه . فترك قسم منهم بلاده (كما يذكر بارتولد) وانضموا اليه . وكان الى هذا كله يبعث الى فرغانة وسمر قند والنواحي في شرائهم ويبذل فيهم الاموال . . . ويظهر ان عامّتهم كانوا من فرغانة واشروسنة والصغد والشاش . وقد تجمّع منهم لدى المعتصم ، في رواية (غيبون) المؤرخ خمسون ألفا . وربما كانوا أكثر من ذلك اذا أخذنا بقول علي بن الجهم الشاعر الذى قدرهم بسبعين ألفا .

وقد جعل المعتصم كلّ هؤلاء الاتراك في جيشه وفرسانه ، والبسهم انواع الديباج والمناطق الذهبية والحلية . وأبانهم بالزّى عن باقي جنوده وافرد لهم بعد هذا قطائع خاصة في عاصمته الجديدة : سامراء — وذكر اليعقوبي تمييزه لهم بأن " اشترى لهم الجوارى فأزوجهم منهن ومنعهم من ان يتزوّجوا او يصهروا الى احد من المولّدين الى ان ينشأ لهم الولد ، فيتزوج بعضهم من بعض ، وأجرى لجوارى الاتراك ارزاقا قائمة . واثبت اسماءهن في الدواوين . فلم يكن أحد منهم يقدر ان يطلّق امرأته ولا يفارقها " .

هذا ويجب لفهم الدوافع التي حملت المعتصم على تبني هذا الموقف ان نلاحظ أن المأمون خيّب أمل الخراسانيين بنكبته لبني سهل ، وتركه مرو فقضى على آخر امكانيات للتعاون بين العباسيين والفرس . مع اضافة ان العرب ، وهم انصار الامين ، ظلّوا على الهامش في عهده ، فلما ولي المعتصم الخلافة لاحظ التفاف قسم من العرب حول العباس بن المأمون ، فاضطرّ المعتصم ان يلجأ الى الاتراك الذين يحبّهم ليجعل منهم الركن العسكرى للدولة . لا سيّما والدولة مهدّدة بثورة بابك ، وبخطر البيزنطيين على الحدود ، ويتذمّر اهل الشام ومصر ، واضطرابات الزط في السواد . وكان بروز الاتراك ضربة سياسية عنيفة للعرب وقوادهم ظهر استياؤهم منها في تلك المؤامرة الفاشلة التي ذهب ضحيتها العباس بن المأمون وعجيف بن عنبسة معا .

وثمة بون شاسع بين الترك عصبية الخليفة الجديد وبين الفرس الذين اعتمد عليهم الخلفاء قبل المعتصم حيث بقي الترك الى زمن هذا الخليفة شعبا بدويا ميزته الوحيد شجاعته العسكرية . فهو لا يفهم الأسس المعنوية للدولة العباسية ولا خبرة له بالادارة وليس له أى ثقافة . بينما كان الفرس أمة متحضرة ذات انظمة وتقاليد وأدب وتراث قديم ساعد العباسيين في الحكم . فالاتراك كانوا ، كما سمّاهم الجاحظ " بدو العجم " وقد بين انهم " لا يميلون الى صناعة او زراعة او ثقافة . . . . والحقّ ان تأثير الاتراك كان

د وما بربريا لحدّ ما ــ كما ذكر براون ــ وندر أن شجّع البحث الفكري الحرّ او الثقافة الحرّة فتسلطهم على الخلافة العباسية كان تهديدا مباشرا لموءسساتها ونظمها وثقافتها .

ولم تظهر الأخطار البعيدة التي نجمت عن تقريب التراك ، وبوضوح زمن المعتصم لانه انما استعملهم في الجيش فقط . اما الخطيئة الحقيقية فكانت خطيئة الواثق ، الذى فوّض أو اليهم/ادارة الدولة ، وجمع لهم القوتين الادارية والعسكرية ، وأرسلهم الى قلب الجزيرة العربية ، لضرب ثورة العرب .

بدأ المتوكل النضال الخفّي حينا ، والصريح أحيانا ، ضدّ الاتراك ، وبالرغم من انهم اختارون للخلافة . ومع ذلك يجب ان نشير الى أن اشتراك كبار رجال الادارة معهم ، في ذلك ــ كما يذكر الطبرى ــ (كابن أبي دوءاد وابن الزيات وعمر بن فرج الكاتب الخ ......) قلّل من خطر التجربة ولكنه سجل لهم بادرة خطرة . ولم يمنع من اصطدام خليفة قوىّ ، كالمتوكل بنفوذ هم المتعاظم كجماعة مسلحة .

مضى المتوكل في مقاومته للترك ببطء وقد بدأ بايتاخ . وكان اليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة ، أى اليه تصريف الدولة . وكان لا يتردد عن اظهار غروره بذلك . فدبّر له الخليفة كما ذكرنا من قبل مؤامرة خلّصته منه .

كما حاول المتوكل نقل عاصمته ، الى دمشق ، ففشل ــ كما ذكرنا ــ فعاد الى سامراء ، وأمر ببناء مدينة خاصة له ، شمال سامراء . واستمر يدبّر ضد الترك . قال المسعودى : " وجفا الموالي من الاتراك واطرحهم وحطّ مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم " وقد خطا خطوة عملية في ذلك بأن ادخل فرقة عربية في الجيش ، اذ ضمّ الى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان " نحوا من اثني عشر ألفا من العرب ، ومن الصعاليك ، وغيرهم برسم المعتزّ . وكان في حجره " " اخذ يجيل الآراء في استئصالهم (الترك) " وحاول تشتيت زعمائهم فقبض املاك وصيف وأقطعها للفتح بن خاقان . وعزم على الفتك بوصيف وبغا . وحسب انه قد نجا منهم في البلد الذى ابتناه وانتقل اليه . ولكن الترك استغلوا خلافة مع ابنه المنتصر فعاجلوه وقتلوه مسجلين بعملهم أول نصر مادى لهم على كرسي الخلافة العباسي .

ومنذ مقتل المتوكل ، أخذ الترك يوجهون الدولة العباسية كما يحلولهم كفعل الحرس البريتورى في روما من قبل ، والانكشارية في السلطنة العثمانية من بعد . ولهذا يمكن ان نعتبر تفاقم نفوذ الاتراك مبدأ انحلال الدولة فلئن أخمد هذا النفوذ نزاع العرب والفرس والعلويين والعباسيين . لكنه بمقابل ذلك اضعف سلطة المركز في الدولة وذهب بهيبة الخلافة ، في امبراطوريتها الواسعة ، فظهرت الدول الصغيرة في الولايات .

واهم النتائج المباشرة المرتبة على ادخال المعتصم الاتراك في الدولة ، مشكلة البحث عن عاصمة جديدة سواء في زمن المعتصم أم في زمن المتوكل .

سامراء العاصمة الجديدة : تمكنّت سامراء وفي غضون سنوات معدودات ان تتحول من أرض قفر الى اكبر مدينة في العالم وعاصمة لأكبر امبراطورية : لكن شملتها سرعان ما خبث وشيكا وفجأة بعد نصف قرن فيعود الهدوء والعناكب الى المكان الذى يقفر ثانيـــة .

ويجب ألّا تفوتنا الاشارة الى أنه لم يكن قد انقضى على بناء بغداد قرن واحـــد حين قرّر المعتصم بناء مدينة جديدة لاعن حاجة الى عاصمة ، انما لأن اتجاها جديدا (تركيا) بدأ يبرعم في الدولة : فالحلّ الذى وجده المعتصم لجهاز الحكم ، في اصطناع الاتراك ، أدّى به الى حلّ آخر هو الانفراد بهم في مكان خاصّ جديـــــد ولذلك اسباب :

1 ــ لقد ضاقت بغداد بالجنود الجدد . ويقول ابن قتيبة صاحب عيون الأخبـار " ان المساكن والطرق ضاقت على الناس في بغداد لكثرة العساكر التي تجمعـــت على المعتصم " ويورد صاحب كتاب الفخرى رأيا مشابها .

2 ــ ومما زاد في تأزّم (ادلال) الاتراك بمكانتهم وسوء معاملتهم للناس : وروى الطبرى انهم كانوا " عجما جفاة يركبون الدوابّ فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة ويطؤون الصبّي . . . حتى ضج منهم الناس . فكان يثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضا ، ويضربون بعضا ، وتذهب دماؤهم هدرا . . . " وقد شكا البغداديون مرّ الشكوى من ذلك .

3 ــ وسخط أهل بغداد على المعتصم لتقريبه الترك : . . . فغدا الخليفة يخشى اهل بغداد . قال مرة لاحمد بن ابي خالد : اني اتخوف ان يصيح بي هؤلاء الحربية (سكان الحي الشمالي الغربي من بغداد) فيقتلون غلماني . . .

4 ــ وسخط جند بغداد على منافسيهم الجدد : فاستواب المعتصم منهم . وقال في الذى يرويه صاحب الفخرى : " . . . اطلبوا لي موضعا اخرج اليه ، وأبني فيـــه مدينة عسكرية وأعسكر فيه . فان رابني من عسكر بغداد حادث ، كنت بنجوة ، وكنـــت قادرا على أن آتيهم في البرّ وفي الماء " .

وبعد التفتيش عن مقرّ خلافي جديد : ورفض الخليفة عدة امكنة وجد الموضع المنشود في سامرّاء على بعد 130 كم رأسا من شمال بغداد و 175 كم من دجلة علــــى

الضفة الشرقية منه .

وقد اثبتت حفريات الاثري هرزفيلد في بعض أطراف سامراء ، ان هذا المكان مأهول منذ العصر الحجري الحديث . ويظهر انه استمر مأهولا بعد ذلك . وكان له شأن أحيانا فاسم الموضع يمرّ في العصر الروماني كما يمّر في مطالع العصر الاسلامي . وحين وصله المعتصم لم يكن به سوى دير لبعض الرهبان فلما استحسنه وعزم على البناء فيه اشترى الدير بأربعة آلاف دينار وبنى في مكانه نفسه على ما يظهر من قول اليعقوبي (دار العامّة) أي قصر الخلافة ومن حوله تلك المدينة .

واسم سامراء قديم دون شك . وليست الجملة التي تذكرها بعض الكتب ، كاسم لمدينة المعتصم (سرور من رأى) او (ساء من رأى) فيما بعد . . . . ليست هذه الجملة بالأصل الذي نحت عنه اسم سامراء . ولكنها جملة اشتقها الناس اذ ذاك ، من اسم الموضع . ولم تجر عادة العرب ولا غيرهم بتسمية المدن بجملة . والمسعودي يذكر أن سبب التسمية يرجع الى سام بن نوح الذي بني البلدة فنسبت اليه وسميت (سام راه) بالفارسية . . . وقد لا نستفيد من هذه القصة الآسطورية سوى ان الموضع قديم السكنى وقديم الاسم أيضا . والمستشرق (وايل) أشار الى ورود اسم حصن فارسي قلعة سومرى في موضع سامراء بمناسبة تقهقر جيوش الرومان اثر مقتل جوليان سنة 363 م . ويؤكد هذا نص ذكره حمدالله المتوفّي (740 هـ — 1340 م) وقال فيه ان سابور ذا الاكتاف (+ 179 م) هو منشيء مدينة سامراء .

ومما يبرر سبب اختيار المعتصم لهذا الموقع هو قدم البناء فيه ، ووجود حصن قديم فيه ، فالواقع ان المكان المختار مرتفع عن دجلة . فهو آمن من الفيضان . وارتفاعه هذا ، مع احاطة الماء به ، يجعله مكانا حصينا من الوجهة الحربية . عدا انه ممكن الريّ والسقيا بالجداول التي تتفرّع عن دجلة ، قبيل وصوله اليه . ويضاف الى هذا قربه من بغداد ، وعدم خروج مركز الخلافة من العراق .

شرع المعتصم بتخطيط عاصمته سنة 221 ويلاحظ في البناء :

آ-ان المعتصم لم يهتم ببناء الأسوار للمدينة ولا الحصون : وذلك لاطمئنانه ، وثبوت أركان الدولة العباسية . وانما توجّه بكل همّة الى العمارة ، وتعيين قطائع الجند والأسواق

ب — اهتم المعتصم بفصل الجيش ودواوين الدولة عن السكان : كما اهتم بفصل فرق الجيش بعضها عن بعض ويتوسّط كل فرقة قائدها . فجعل للأتراك قطائع خاصّة . وقطائع أخرى لغلمانه من خراسان (الأشروسنية) . وقطائع لجنوده المغاربة وهم من العرب الخوف (من مصر واليمن وقيس) وجعلت قطائع الاتراك جميعا والفراغنة والعجم بعيدة عن

الأسواق والزحام ، في شوارع واسعة ودروب طوال ، ليس معهم في قطائعهم ودورهم أحد من الناس ، يختلط بهم ، من تاجر ولا غيره .

اما معسكرات الجيش وثكناته واصطبلاته ، فقد جعلها الى جنوب المدينة وعلى الضفة الغربية من دجلة . ولعله اختار المكان لاتساعه ولوقوعه على طريق بغداد وكان نهر الاسحاقي يغمر المنطقة بالماء ، فيتوفر المرعى الاصطناعي للخيل . وقد كانت الثكنات تتسع لربع مليون جندي . واما الاصطبلات فتقدر خيولها بحوالي 160 ألف حصان .

ج – عناية المعتصم بعمران البلد الاقتصادي : انه اهتم بزراعة القسم الغربي من دجلة ، تجاه المدينة . فحفر الترع فيه وشق هناك نهر الاسحاقي (الذي كان يروي في الوقت نفسه منطقة الاصطبلات) وحمل اليه الغروس من كافة البلدان . وشجع قواده ورجاله على المساهمة في الزرع . فاعطى كل قائد عمارة ناحية . وعمل على استقدام المهرة في الزرع والنخيل والغرس وهندسة المياة ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض . وزكت الاثمار والزروع لاستراحة الارض ألوف السنين ، فبلغت غلة عمارات نهر الاسحاقي ، وما عليه من قرى ... اربعمائة الف دينار في السنة .

كما حرص على ان تكون عاصمته مجمعا للصناعات المعروفة ((فاستقدم حسب رواية اليعقوبي من كل بلد ، من يعمل عملا من الاعمال ، او يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع .... وفي حمله الرخام وفرشه ، فأقيمت في اللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها . وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والجص . وحمل من الكوفة من يعمل الأدهان . ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة .....)) .

وبالنسبة الى التجارة : وسع الخليفة صفوف الاسواق . وجعل كل تجارة منفردة وكل قوم على حدتهم على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد . وعمل شارعا على دجلة (شارع الخليج) جعله رصيفا ومرسى لسفن التجارة التي ترد من بغداد وواسط وسائر السواد والبصرة والأبلة والأهواز وما يتصل بذلك . ومن الموصل وبعربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك .

د – عني الخليفة بتخطيط المدينة وتقسيمها تقسيما (عسكريا – اجتماعيا معا) : يتناسب مع كونها معسكرا أولا ومركز حضريا ثانيا . فجاء مخططها ممتد على دجلة الغربية زهاء اربعة فراسخ (19 كم) ، ويدل التخطيط على براعة فائقة في الهندسة ، وعلى كثير من الابتكار ، يتجلى في شق شوارع متوازية ، على طول النهر ، يتصل بعضها

ببعض بدروب عدة عن يمين ويسار ، وفي توزيع الابنية العامة والأسواق والمتاجر والمساجد والمساكن والأرصفة وغيرها . وأهم شوارع المدينة بعد شارع الخليج الذى على دجلة ذلك الشارع الآخر الموازى له والذى عرف أولا بشارع السريجة ، ثم سمي الشارع الأعظم وكان يمتد في عهد المعتصم (19) كم من الجنوب الى الشمال بعرض (200) ذراع. وفيها عدد من الشوارع كما سمّى لنا ياقوت في معجمه سبعة عشر قصرا بناها المعتصم والمتوكل في سامراء .

ويقول بارتولد : ان هذه القصور كانت نموذجا للقصور التي بنيت فيما بعد في البلاد الواقعة بين بخارى شرقا وقرطبة غربا . ومن أهم تلك القصور (دار العامة) وهو بيت الخلافة . وقصر الجوسق على دجلة . وقصر لؤلؤة (وهو السجن السياسي) . بجانبه . قصر الهاروني الذى بناه الواثق . هذا الى ما اقيم في سامراء من حائر الحير / للوحوش فهو كحديقة الحيوان . ومن المسجد الجامع ومن حلبات السباق الثلاث .

وقد تطوّرت سامراء تطوّرا كبيرا بعد عهد المعتصم ، في زمن المتوكل خاصة ، مما يحملنا على تقسيم بنائها الى مرحلتين :

آ ـ مرحلة المعتصم وقد وضعت فيها كل أسس المدينة وأبنيتها الأولى . ويظهر ان الناس لم يكونوا واثقين من المدينة ، أول الأمر . فيذكر اليعقوبي انهم كانوا يسمونها (المعسكر) فلما كان عهد الواثق جدّد الناس البناء وأحكموه وأتقنوه ، لمّا علموا انها قد صارت مدينة عامرة .

ب ـ مرحلة المتوكل وهي مرحلة العمران الحقيقية . يقول ياقوت في معجمه : ولم يبن احد من الخلفاء يسّر من رأى ، من الأبنية الجليلة ، مثل ما بناه المتوكل . ثم ذكر هذا المؤرخ أسماء تلك القصور وما انفق على بنائها . كما ذكر المسجد الجامع (1) على ان كل هذا الانفاق والعمران ، كان على ما يظهر ، في السنوات العشر الاولى من حكمه ، أي قبل ان تختمر في ذهنه فكرة الهرب من سامراء الى بلد جديد ، لم يعمّر اكثر من سنة واحدة ، وهو :

---

(1) كي نكون فكرة عن ضخامة هذا المسجد نشير الى انه يبلغ 240 × 158م ومساحته 37ر920 مترا مربّعا ويستغرق صحنه الداخلي مساحة / 44٪ الف متر 2 (بينما ساحة كنيسة القديس بطرس بروما لا تزيد عن 15 الف م 2 وصحن أيا صوفيا في استامبول عن 6900 م 2) وفي هذا دلالة كافية ليس فقط على عظم المسجد ولكن على كثرة سكان سامراء في ذلك الوقت . اهم ظاهرة بنائية فيه مئذنته الطويلة المشهورة وقد رفعها لترى عن بعد فراسخ لسماع الأذان منها ويرى المستشرقون انها بنيت على طراز " الزقورات " البابلية القديمة . هذا بينما مساحة المسجد الاموى في دمشق هي 15ر700 مترا مربعا .

المتوكلية : عاصمة المتوكـــــل : عاد المتوكل بسبب بغض الترك والريبة منهم ، يفتش عن ملجأ ومهرب منهم ، أي عادت مشكلة البحث عن عاصمة جديدة الى الوجود . ولقد كان للمعتصم عصبية تركية فبنى لها بؤرة . اما المتوكل فكان في سبيل البحث عن عصبيته ، وعن عاصمته معا . امامقامه في سامراء ، التي بنيت للترك ، فقد جعلـــــه في قلق دائم ، ان لم يجعله تحت النفوذ التركي . ولذلك اختار العرب عصبية له ، مبدئيا . ولعلّ بروز النفوذ الفارسي في بغداد ، حوّله عن التفكير في العـــــودة اليها . فاختار ترك العراق كلّه الى الشام ، واتخاذ دمشق عاصمة له . واليعقوبي يعلّل ذلك بحسن جوّها وبأنه : " ...... وصف له برد هوائها وكان محرورا .." ولكن التعليل الحقيقي يمكن ان يستمدّ من سياسته المناوئة للترك ، والفرس وللعلويين وللاعتزال : فدمشق عربية ، بعيدة عن التأثيرين الفارسي والتركي . وهي الى هـــذا تتعصّب ، كالمتوكل ، للسنّة ، وتبغض مثله في ذلك الوقت العلويين .

وكتب المتوكل الى محمد بن احمد بن مدبر ، يأمره باتخاذ القصور واعداد المنازل وكتب في اصلاح الطريق واقامة المناول والمرافق ..." وسار من سر رأى أواخر سنــــة 242 فوصل دمشق أوائل سنة 243 هـ (قضى في الطريق ثلاثة اشهر) واقام فـــي القصور الدمشقية ، وفي داريا خاصة ، ثمانية وثلاثين يوما

ولكن سرعان ما تبين للمتوكل خطأ هذا الحلّ السلبي في الهرب : اذ تــــــرك العراق لشغب الجند التركي ، عدا ان الاتراك ائتمروا به في الشام ايضا . أي أنه لم يتخلّص منهم ، فادعى أنه " استوبأ البلد " وهذه مبرّرات " وهذه ذرائع التمست دون شكّ لتخفي السبب الحقيقي . وهو ان دمشق ، التي كانت لا تزال تحمــــــل الطابع والذكريات الأموية كانت بعيدة عن أولئك الذين كانت تثور ريبهم منها ، مـــن العباسيين ، والذين كانوا يتمركزون في بغداد ، وقد يتآمرون فيها . كما أن دمشق عاجزة عن ان تراقب تلك القوى التركية المشاغبة في سامراء . ولعلّ المتوكل لم يجـــد في مدينة الامويين ، الترحاب الذي يجعله يأمل بتكوين عصبية له فيها ، تسانده وتدفع عنه : وتكون من القوة بحيث تقف معه للمتنافسين في العراق ، من فرس وتـــرك خاصة . ان ما استوبأه " المتوكل في البلد لم يكن " الجوّ الطبيعي " ولكن " الجـــوّ السياســـي " .

ومهما يكن عاد المتوكل من جديد الى سامراء . ولكنه حين وصلها ، لجأ الـــى حلّ آخر مشتّق من الأول . فأمر سنة 245 ببناء (الجعفرية) شمالي سامراء .... وعرف الناس انه يهرب من الترك ، بل انهم اشاعوا انه اعتزم الفتك بهم . اما المتوكـــل فأعلن انه يريد " بناء " مدينة تنسب اليه ، ويكون له بها الذكر " وقال حين تمّ البنـــاء

" الآن علمت أني ملك . اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها " . ومن الواضح ان المتوكل انما يعني بهذا استقلاله وخلاصة من ضغط الترك .

امر المتوكل " محمد بن موسى المنجّم ومن يحضر بابه من المهندسين باختيار موضع لمدينته ، فوقع اختيارهم على موضع يقال له الماحوزة " على ثلاثة فراسخ (15 كم) من شمالي سامراء يمدّ اليه الماء ، من نهر يشق اليه من دجلة . وقدرت نفقات البناء بما في ذلك حفر النهر بألف بألف وخمسمائة الف دينار . فطاب المتوكل نفسا ورضي به وهكذا أقيمت " المتوكلية " او " الخاصّة المتوكلية " (يرد الاسم في قصائد البحتري وفي الطبري على هذا النحو . واليعقوبي يذكر ان المتوكل سماها الجعفرية) . استمر البناء سنة وبعض السنة ، كان المتوكل خلالها يشرف بنفسه على البناء . وتمّ بذلك بناء قصور الجعفري الفخمة ، وقصر لؤلؤة الذي لم ير أعلى منه وعدّة قصور أخرى ابتكر فيها المتوكل مخطّطا خاصا في البناء عرف باسم الحيري . واتّبعه الناس من بعده كما بنى المسجد الجامع المعروف بجامع ابي دلف مع ملويته .

ولتسهيل المواصلات بين المتوكلية وسامراء شقّ بينهما شارع اعظم يتصل بالشارع الاعظم من سامراء يطول ثلاثة فراسخ (15 كم) " وجعلت الأسواق في موضع منعزل وجعل في كل مربعة وناحية سوقا " ، واتصل البناء من المتوكلية الى الكرخ بشمالي سامراء على طرفي الشارع الاعظم " ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرج ولا موضع ولا عمارة فيه . فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ (34 كم) ، وانتقل المتوكّل الى بلده الجديدة في مطلع سنة / 247 / هـ ونقل اليها الدواوين ، ديوان الخراج والضياع والزمام والجند والشاكرية وديوان الموالي والغلمان وديوان البريد وجميع الدواوين .

الا أن النهر (الجعفري) لم يتمّ امره . وكان مأساة هندسية فاشلة اذ كان حفره صعبا جدا اشتغل به اثنا عشر الف عامل واتفق عليه مليون دينار ، ولكن لم يجر الماء فيه الا جريا ضعيفا ، ولعلّ فشل هذا المشروع كان من اسباب هجر البلدة وشيكا .

انفق المتوكل على اعماله العمرانية ، التي كان مولعا بها ، مبالغ باهظة وقد فصّل ياقوت ما انفقه المتوكل فبلغ مجموع ذلك مائتين وتسعين مليون درهم أي قرابة اثني عشر مليون دينار (كان الدينار في عهد المتوكل بخمسة وعشرين درهما ويقول المسعودي : " قيل انه لم تكن النفقات في عصر من العصور مثلها في ايام المتوكل" .

ولنلاحظ ان هذه النفقات الباهظة تدل على مقدار ثروة الدولة اذ ذاك . كما ان انفاقها كان من العوامل التي اضعفت مركز الخلفاء المقبلين وجعلتهم آلات بيد الاتراك .

ولم يهنأ المتوكل اكثر من تسعة أشهر وثلاثة ايام في مدينته ، ثم قتل . وجاء ابنه المنتصر وامر الناس جميعا بالانتقال عن " الماحوزة " وان يهدموا المنازل ، ويحملوا

النقض الى سر من رأى . فانتقل الناس . . . وخربت قصور الجعفرى ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة . . . . . .

وعاد الرونق الى سامراء من جديد التي بلغ اتساعها (34 كم في الطول وما بين 3 ــ 4 في العرض) حوالي 167 كم 2ــ واذا ضفنا اليها المعسكرات دون البساتين والقصور في غربي دجلة ، بلغ ذلك مرة ونصف المرة من مساحة القاهرة الحالية مع مصر الجديدة ، وقرابة اربعة مرات من مساحة بغداد الحالية او دمشق . ولم يكن بالغريب بعد ، ومع هذه السعة وذلك العمران ان يقول ياقوت عنها انها " صارت اعظم بلاد الله " وان يحكم القزويني وياقوت معا بأنه " لم يكن في الارض أحسن ولا اجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها .

ثانيا ــ مشاكل الادارة والحكومة :

تلاحظ هذه المشاكل في البلاط نفسه ، وتظهر في مختلف نواحي الادارة والحكم ومعظمها لم يكن جديدا على الدولة . انما ظهر ما يشبهها في مختلف عهود الخلفاء العباسيين السابقين ، ولكن قوة الدولة ذاك قضت عليه وعلى مضاعفاته ، بينما مهّدت الظروف الآن بالمقابل لتلك المشاكل كي تهدم الدولة .

هذا عنما ان معظم المشاكل والمساوئ ــ في الفترة التي ندرسها ــ ظلّت داخل نطاق القصور الخلافية ومن امور السياسة العليا ، بمعنى انها لم تتنزل وتفتضح لدى الناس جميعا وفي الحياة العامة . فعهد المعتصم والواثق يدخلان في العصر العباسي الذهبي ، وأيام المتوكل ــ كما وصفها المسعودى ــ كانت احسن ايام وأنضرها ، من استقامة الملك وشمول الناس بالعدل ، على ان عصر المتوكل نفسه هذا يجب أن يعتبر فترة الانتقال بين العهود الذهبية ودور الاضمحلال والتجزؤ . ومقتله يجب ان يعتبر خاتمة عصر وبدء آخر .

1 ــ ولاية العهد : كثيرا ما تعاقب الاخوان على العرش العباسي . وقد بدأت فترة القلق التي ندرسها بعهد المأمون ــ في مرضه ــ لأخيه . ولم تقم مشكلة لاستخلاف الواثق . اما المشكلة الحقيقية فهي ان هذا الخليفة مات بعد رفضه ان يعهد بالامر لأحد . فاجتمع في دار الخليفة قاضي القضاة ابن ابي دؤاد ، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبي خالد ، وعمرو بن فرج من رؤساء الكتاب ، ووصيف وايتاخ من قواد الترك ، وأرادوا البيعة لابن الواثق . لكنهم عدلوا عنه لصغر سنه وقال وصيف : أما تتقون الله ؟ تولون مثل هذا الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة ؟

فعدلوا عنه الى المتوكل . وألبسه قاضي القضاة الملابس وسلّم عليه بالخلافة .

على ان مشكلة ولاية العهد كانت من بين الأسباب التي أودت بالمتوكل ودراسة اسبابها تلقي ضوءا على السياسة العامة ، ودسائس البلاط : فقد أمر المتوكل سنة 234 " ان يسلم الناس على ابنه محمد بالامرة ويدعى له على المنابر " وفي سنة 235 (850 م) تمّ ام ولاية العهد - على سنة الرشيد - لأولاده الثلاثة محمد وسماه بالمنتصر وابي عبيد الله (واسمه محمد او الزبير او طلحة) ولقبه المعتز وابراهيم ولقبه المؤيّد . وقسّم الامبراطورية بينهم .

.... كل هذا واولياء العهود صغار : اكبرهم المنتصر في الثالثة عشرة ، والمؤيد حدث ، والمعتز طفل . ولذلك عيّن المتوكل لكل منهم كاتبا يشرف على ولاياته .

ويظهر أن المتوكل ، بسبب من حبّه لجاريته قبيحة ، أمّ المعتز ، كان يؤثر هذا الفتى فضمّ اليه سنة 240 هـ خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق ، ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم .

وما كاد المنتصر يبلغ الرجال حتى ظهر بينه وبين ابيه اختلاف في الميول استغله رجال البلاط استغلالا بشعا فقد وجد على ابيه .

آ - أنه يسخر في مجلس طربه من علي بن ابي طالب ويسبّ العلويين فكان هذا من الاسباب التي استحلّ بها المنتصر قتل المتوكل .

ب - انه يؤثر اخاه المعتزّ عليه " وزاد في اغرائه " أن دسائس الحاشية (من امثال الفتح بن خاقان والوزير عبد الله بن يحيي) استطاعت ان تبعده مرتين عن الصلاة بالناس ، في أيام مشهودة وتقدّم عليه المعتزّ .

جـ - ان المتوكل كان يشتم ابنه ويحتقره . وربما بلغ كره الأب لابنه ، وخوفه من دسائسه أن فكّر بالفتك به . ويرجح ذلك دون شكّ الى اشتراك المنتصر في دسائس البلاط واعلانه الخلاف لأبيه وتشنيعه عليه . يقول صاحب الفخري .. وكان كلّ منهما يكره الآخر ويؤذيه " .

د - وأخيرا أعلن المتوكّل خلع ابنه ، في مجلس من مجالس شربه في أواخر حياته .

وفي هذه الفترة نفسها كانت علاقات المتوكل مع الأتراك تسير من سيّئ لأسوأ الطبرى يذكر ان (وصيفا) ارتاع لمّا علم بمصادرة ضياعه واقطاعها للفتح بن خاقان وأن (بغا) الصغير توحّش من المتوكل .... وان (اوتامش) غلام الواثق كان مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك . ويذكر الطبرى نقلا عن بعض الرواة : ان المتوكّل عزم على ان يقتل وصيفا وبغا وغيرهما من قواد الاتراك ... وحدّد لذلك يوما كان موعده ، بعد مقتله بيومين ....

وكان الاتراك يتداولون في الخلاص من المتوكل ، بينما كان المنتصر يقوى مركزه بينهم فكان — كما يقول المسعودي — يجتذب قلوبهم ... وكان اوتامش يساعده في ذلك فكان لا يبعد أحد من الأتراك الا اجتذبه المنتصر . فاستمال قلوب الفراغنة والأشروسنية . وبهذا الشكل سبقت الضربة من الاتراك وولي العهد . وكانت هذه هي المرّة الاولى في تاريخ الخلافة الاسلامية التي يتآمر فيها ولي العهد الابن على ابيه ، والخدم في الدولة على سيّدهم .

2 — الوزارة : لم تستقّر الوزارة في العصر العباسي الأول ولم تغد مؤسسة رسمية انما مجرّد عمل شخصي سواء بالنسبة للخليفة ، أم بالنسبة لمن يتولاّها ولهذا بدأ الاحتكاك والتصادم بين سلطات كل من الوزير والخليفة ، واستمرت النكبات . ومع ذلك فقد لوحظ في الفترة التي ندرسها من العصر العباسي الأول بعض التدهور في تقاليد الوزارة ، حتى وليها أناس لا معرفة لهم ولا ثقافة ولا ادارة . ومن الغريب انه في فترة ضعف الوزراء هذه بدأنا نلاحظ وحتى نهاية هذه الفترة تحديد وضعف سلطتهم كنتيجة لازدياد النفوذ التركي .

وزر للمعتصم أولا كاتب له قبل الخلافة ، هو الفضل بن مروان وقد أخذ البيعة في بغداد للمعتصم و " غلب عليه كثيرا " فرّد أموره كلها اليه وكان قد " حلّ من قلبه المحلّ الذي لم يكن احد يطمع في ملا حظته فضلا عن منازعته ، ولا في الاعتراض في أمره ونهيه وارادته وحكمه " حسب الكلمات التي يذكرها الطبري ... ولكن المعتصم لم يكن يعتبره مع ذلك اكثر من منفّذ لأوامره وبينما استقل الفضل بالأمور . وحملته الدالّة ، وحركته الحرمة على خلافة (أي خلاف المعتصم) في بعض ما كان يأمر به ، ومنعه ما كان يحتاج اليه من الأموال في مهمّ اموره " كان المعتصم من جهته ، يتغير عليه ويسمع كلام الوشاة فيه وتتكرر في الفضل المأساة الوزارية المعروفة من نكبة وسجن ، ومع مصادرة اموال يقول عنها المعتصم : " ما كنت اعلم أن في الدنيا من له هذا المال " ولم يكن الفضل بالذي يستحق الوزارة التي بقي فيها سنتين تقريبا (رجب سنة 218 — رجبا وصفر 220 هـ) فقد كان عاميّا لا علم عنده ولا معرفة او على الأصح ، كما يقول ابن خلكان " قليل المعرفة بالعلم ، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء " ولكن تصرّفاته مع الناس ، كانت سيئة ، وجهله بالأمور كان واضحا .

أما الوزير الثاني للمعتصم أحمد بن عمار فكان طحانا في الأمل ، من أهل المذار . ثم انتقل الى البصرة ، ثم الى بغداد ، وكانت ميزّته الوحيدة ثراؤه اذ كان يخرج في الصدقة مائة دينار كل يوم ... وكان جاهلا بآداب الوزارة وكانت قلّة ثقافته سببا في

صرفه من الخدمة ثم استوزر المعتصم محمد ابن عبد الملك الزيات وتطنب المصادر في امتداح ثقافته وعقله . يقول الفخري : " .... برع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلا وفهما وذكاء وكتابة وشعرا وأدبا وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك .... فنهض بأعباء الوزارة نهوضا لم يكن تقدّمه من اضرابه ... "

ولعلّ هذا ما يفسّر لنا بقاءه في الوزارة بقية أيام المعتصم ومدّة عهد الواثق حتى مطلع خلافة المتوكل . ولا شك ان استبقاء الواثق له رغم سخطه عليه وهو امير وقسمه بالحجّ والعتق والصدقة : ان ولي الخلافة ليقتله شر قتله بل وانسباقه معه ومع احمد بن ابي دؤاد المعتزلي حتى كان لا يصدر الا عن رأيهما وقلّدهما الامر وفوض اليهما ملكه . يدل على مقدرة ابن الزيات وعلى اتّزان الواثق في وقت معا ولقد قال له الخليفة : " والله ما أبقيتك الا خوفا من خلوّ الدولة من مثلك وسأكفر عن يميني فاني أجد عن المال عوضا ، ولا أجد عن مثلك عوضا .

وورث المتوكل ، مع الخلافة والاتراك ، وزارة ابن الزيّات . ولكنه كان يحقد عليه لسوء معاملته له في حياة اخيه . وكان ابن الزيات " شديد القسوة قليل الرحمة جبّارا للناس ، كثير الاستخفاف بهم لا يعرف له احسان الى احد ... " كما يقول اليعقوبي . فلم يبقه المتوكل غير اربعين يوما . ثم نكبه وصادر امواله . وعذّبه في تنّور من حديد ، مساميره الى الداخل ، كان ابن الزيات صنعه لتعذيب غيره ، " فلم ير الّا شامت به فرح بنكبته " .

ولا شك اننا نستطيع ان نعدّ ابن الزيات خاتمة تلك السلسلة الذهبية من الوزراء الذين توالوا في العصر العباسي الاول . وندر ان اطلعت العصور التالية أمثالهم .

واستكتب المتوكل بعد ابن الزيات احمد بن خالد المعروف بابي الوزير ، دون تسميته بالوزارة . ثم نكبه ، واخذ منه مائتي الف دينار . ثم الجرجرائي : أبا جعفر محمد بن الفضل وهو يمتاز بظرفه وغناه . فلم تلبث السعايات أن أبعدته . وقال المتوكّل : قد ضجرت من المشايخ ، أريد حدثا أستوزره . فأشير عليه بعبيد الله ابن يحيى بن خاقان " وكان حسن الخطّ له معرفة بالحساب والاستيفاء وكان كريما حسن الأخلاق وكان كرمه ايضا يستر كثيرا من عيوبه " . وبقي على وزارة المتوكل حتى مقتله .

3 ـ الكتاب والمصادرات : وظهرت في هذه الفترة (218 ـ 247 هـ)

ظاهرة في السياسة المالية لها معناها في الجهاز الاداري . فقد سنّ الواثق ، لمن بعده ، مصادرة الكتّاب (وهم رؤساء الدواوين) بغية الحصول على المال ، حتى

أصبحت المصادرة موردا من موارد بيت المال . وهذا يدل على تفشي الرشوة والظلم والاختلاس ، في الجهاز الاداري للدولة وبلوغه درجة لا يصح السكوت عنها ، والتي لا تمكن معالجتها بسوى نكبة الكاتب . وفي تكرر المصادرات فيما بعد ، اعتراف واقرار بأعمال الكتاب السيئة . وفي صيرورة المصادرة موردا للخزينة ومصدرا يرجع اليه عند الحاجة اقرار بانها أصبحت شبه ضريبة على الكتّاب . وقد ذكرنا من قبل أن الواثق صادر من كتّابه مليونا وثلاثة أرباع المليون من الدنانير .

وزادت المصادرات زمن المتوكل حتى لنستطيع ان نعدّ منها (14) مصادرة كبرى فيما يذكر اليعقوبي : من ذلك مصادرة ابن الزيات ، وعمر بن فرج الرجعي الكاتب واخيه محمد صاحب مصر ، والفضل بن مروان ، وعلي بن عيسى ، وابي الوزير ، وايتاخ ، ونجاح بن سلمة وسخط مرة على كتابه ، جملة ، فصادرهم . كما كانت المصادرة تلحق احيانا عمال المصادرة . فقد أخذ " أحمد بن محمد بن مدبر عمّال (علي بن عيسى) على طساسيج (ولايات) السواد فصالحهم على اموال عظيمة " .

وخير مثل لدوافع المتوكل في بعض هذه المصادرات ، ان لم يكن في كلها ، ما يذكره الطبري قائلا " .... لما عزم المتوكل على بناء الجعفري ، قال له نجاح وكان في الندماء : يا أمير المؤمنين أسمّي لك قوما ، تدفعهم اليّ ، حتى استخرج لك منهم أموالا تبني بها مدينتك . فانه يلزمك من الأموال ما يعظم قدره . قال : سمّهم فرفع رقعة يذكر فيها : موسى بن عبد الملك (صاحب ديوان الخراج) والحسن بن مخلد (صاحب ديوان الضياع) وجعفر (مستخرج ديوان الخراج) وغيرهم نحوا من عشرين رجلا فوقع ذلك من المتوكل موقعا أعجبه " . ولم ينج هؤلاء من النكبة الا بسبب عداء الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، لنجاح . فأحضر موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد ، واخبرهما الخبر ، ودفعهما الى ان يكتبا لأمير المؤمنين رقعة يضمن فيها على أنفسهما بالفي ألف دينار ..... وكان ذلك . واستطاعا تعذيب نجاح حتى الموت سنة 245 هـ .

واذا كان لانفاق المتوكل أثره في هذه المصادرات ، فلا شك ان لسوء استغلال الكتّاب بالمقابل ، أثره أيضا . ولعلّ الخلفاء اعتبروا المصادرة وسيلة لاسترداد ما استلبه الموظفون من اموال الدولة والناس ، بطرق غير مشروعة على نهج عمر بن الخطاب الذي شرع المقاسمة في مثل هذه الأحوال .

<u>الثورات والفتن</u> : شهدت هذه الفترة (218 – 247 هـ) نهاية عهد الثورات العقائدية تقريبا وبداية انتقاض الأقاليم في ثورات محلية ، لا تدل على اكثر من ضعف

الدولة . وكانت خلافة المعتصم فترة تصفية الثورات التي تميّز بها العصر العباسي الأول والعصر الأموى قبله ايضا : من خارجية ، وعلوية ، وثورات دينية فارسية ، كما إتضحت بالمقابل ، في زمن الواثق صفة الفتن المحلية التي ستمهد لانفصال اقاليم الدولة .

أولا ـ ثورة العقائد : وهي ثورات الفرس الدينية ـ السياسية ، وثورات العلويّين والخوارج .

الثورات الفارسية :

1 ـ ثورة بابك : وقد ورثها المعتصم عن اخيه المامون ووحشد لها كل قوته حتى أخمدها .

2 ـ ثورة المازيار : وهي ابنة ثورة بابك ، ولها نفس اسسها : قادها المازيار (اوماه يزدايار في قول البلاذرى) وهو ابن (قارن) ابن (ونداهرمز) من نسل الامراء القارنيين الذين كان لهم حكم طبرستان في الزمن الاسلامي ، على ما يظهر . وقد نشب بينه وبين أمير آخر في هذه المنطقة اسمه شهريار بن شيرويا ، نزاع التجأ على أثره المازيار الى المأمون . واسلم علي يديه . فلما مات شهريار سنة 210 هـ رجع المازيار واستردّ الجبل وحكمه . وقد ولاه اباه المأمون ، وضمّ اليه بعض البقاع حوله ، وسمح له ـ كما يقول مينورسكي ـ باتخاذ لقب الامراء القديم هناك : الاصيبهذ

ويفهم من الطبرى ان طبرستان كانت تابعة الاقليم خراسان . بمعنى ان المازيار كان تابعا لبني طاهر . ولكنه كان يكرههم . والمؤرخون المسلمون يجعلون من هذه النقطة سبب ثورته : فيذكرون ان الأفشين كان يطمع بخراسان . وكان يسمع من المعتصم أحيانا كلاما يدلّ على عزمه يعزل آل طاهر عنها . فكاتب المازيار سرّا وشجّعه على الخلاف أملا في ألا يستطيع الطاهريون اخماد ثورته . فبندب الأفشين لذلك فتكون خراسان له ويقضي بالمناسبة على آل طاهر .

ولكن أمر المازيار والافشين كان ، على ما يظهر ، أعمق من هذه الظواهر البسيطة : فالمازيار كان سطحّي الاسلام . وهو في الواقع خرّمي ، من ذلك المذهب الذى أضحى يمثل ثورة الوعي الايراني ، ضد السلطان العباسي ، وضدّ المجتمع الاسلامي الذى أقامه الخلفاء . ويتّفق المسعودى والبلاذرى والبغدادى على اتّهامه بالخرّمية . وينقل مينورسكي عن ابن اسفنديار انه "كان يمجّد مزدك وبابك والمجوس الآخرين الذين ارادوا محو الاسلام .

واما علاقته بالافشين فقد أقرّ المازيار على نفسه وعلى صاحبه بان الافشين كاتبه يعرض عليه النصرة " . وأنه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس" كما يقول المسعودى .

وتدّل اعمال المازيار ، بعد الثورة ، على نزعته المشاعية المزدكية : قال لأصحابه : " اني قد أبحتكم منازل أرباب الضياع وحرمهم . . . فاقتلوا ارباب الضياع جميعهم قبل ذلك ثم حوزوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم " . وكان لهذا العمل ، بجانب معناه الديني والاقتصادي ، معنى سياسي أيضا . فقسم كبير من الملاكين كانوا من العرب ، او مواليهم كما يقول مينورسكي " وهواهم مع العرب والمسوّدة " ولذلك جمع عامله على (سارى) مرة وكان من أهم اعوانه ، مائتين من ابناء القواد ، وسلّمهم للفلاحين على أنهم خطرون وأشار عليهم بقتلهم .

لذلك فان هذه الثورة سياسية دينية معا — او هي سياسية ، واتّخذت الخرّمية مبدأ لتضمّ اليها الطبقة العامّة من الفرس ، وقد تعاون المعتصم ، مع عبد الله بن طاهر على اخمادها ، بالتطويق من كل جانب . فهاجم حسن بن الحسين (عمّ عبد الله) وقائد آخر طبرستان من الشرق . وارسل المعتصم قوات اخرى . عليها محمد بن ابراهيم ، من الغرب . كما بعث بمنصور بن حسن من الرّى في الجنوب وبجيش آخر في جانبه . وتفرّق اصحاب المازيار عنه : فارقه اخوه قوهير وقواد جيوشه قارن بن شهريار وسرخستان صاحب (سارى) وغيرهم الخ . . . ووثق المازيار بالأمان ، فسلّمه القوهيار الى حسن بن الحسين . فارسل الى سامراء ، حيث توفي تحت السياط الاربعمائة التي ذاقها وصلب بجانب بابك سنة 224 هـ .

3 — قضية الافشين : كانت احدى القضايا الكبرى في زمن المعتصم . وهي قد تكون قضية سياسية ، سببها اصطدام نفوذ الأفشين المتعاظم بدسائس البلاط ، ولكنها ألبست الثوب الديني . وفي تفاصيلها اضطراب وروايات . وأوسع اخبارها ما يرويه الطبرى ونستخلص منه : ان التهم التي وجهت للأفشين كانت عديدة ، وأنها لم تكن بنت أيام محدودة ، ولكنها شكوك تراكمت حتى اقنعت المعتصم بخيانة قائده الاعظم .

والافشين فارسي من سلالة ملوك الصغد ، واسمه حيدر بن كاوس . دخل هو وابوه في خدمة المعتصم (وبرز اسمه بقوة بعد هزيمته لبابك ، وبعد واقعة عمّورية فأضحى القائد الاول في الدولة ، ويظهر أن ذلك أثار فيه الأعجمية . وأول . ما انكشف من امر الأفشين ، ما أخبر به عبد الله بن طاهر ، من انه في الأيام الأخيرة من حربه لبابك ، كان لا تأتيه هدية ولا تجتمع عنده كمّية من الدنانير ، الا أرسلها سرّا الى موطنه في أشروسنة . فأمر المعتصم ابن طاهر بتقصّي ذلك الامر دوما .

ثم انكشفت صلة الافشين بالمازيار الثائر . وقبض ابن طاهر على بعض رسائله اليه .

كما صادر المعتصم من المازيار نفسه رسائل اخرى . وابن العبري يعزو لهذا السبب القبض على الأفشين .

ثم ثار منكجور الفرغاني سنة 225 هـ وذلك ان المعتصم طالبه باموال عظيمة كتب صاحب البريد انه احتجزها لنفسه ، في بلدة بابك (البند) فلم يعترف بها . فعزله الخليفة فثار . وطلب المعتصم من الأفشين ، احضار هذا العامل الثائر فبعث بجيش اليه . ولكن المعتصم عرف ان منكجور انما خلع (الطاعة) بأمر الافشين وانما وجه الجيش الآخر مددا له . ويرى اليعقوبي ان هذا هو سبب القبض عليه .

وأحسّ الافشين تغير المعتصم عليه ، فهم بالهرب ، عن طريق أرمينية ، فلم يتمكّن وفكّر بعمل وليمة للمعتصم وقواده يسمّهم بها ، ثم يهرب الى أشروسنة ، ويستميل الخزر على أهل الاسلام فاستغرق تدبير ذلك زمنا ، انكشف فيه امره ، فقبض عليه المعتصم (في ذي القعدة سنة 225) ولا شكّ انه كان لدسائس البلاط أثرها في ذلك كله . ولئن انفرد الدينوري برد نكبة الأفشين الى وشايات احمد بن أبي دؤاد فحسب (ولم يذكر موضوعها) فقد يعني ذلك انها ساهمت في نكبته ولو لم تكن السبب الرئيسيّ

ويظهر ان المعتصم كان يتخوّف امر الافشين ومقتله . ولخشيته ان يتسرّب الشك الى نفوس القواد الآخرين رأيناه يعقد محكمة لمناظرته ، يرأسها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وعضواها احمد بن أبي دؤاد القاضي واسحق بن ابراهيم صاحب الشرطة وقصّد جلسة المحاكمة لا يفهم منها سوى انها مجموعة من التهم ، تجمّعت لدى المعتصم ودلته على ان الافشين غير صحيح الاسلام . وانه كان يسعى للقضاء على سلطان العرب والمسلمين . وتتلخص هذه التهم في :

آ ــ ان الافشين جلد اماما ومؤذنا بنيا مسجدا في أشروسنة .

ب ــ وجد عنده كتاب محلّى بالذهب والجوهر والديباج فيه كفر بالله ووجدت بعض الاصنام مزينّة بالجـــوهر .

جـ ــ انه يأكل المخنوقة ، لانها أرطب لحما ، في رأيه ، من المذبوحة . ويقطع شاة سوداء كل اربعاء بالسيف ، ويمشي بين نصفيها ، ويأكل لحمها .

د ــ لم يختـــتن .

هـ ــ يكتب اليه أهل أشروسنة " الى اله الآلهة من عبده فلان .

و ــ اعترف الأفشين لأحد الموابذة قائلا : " اني دخلت لهؤلاء القوم (يعني العرب والمسلمين) في كل شيء أكرهه ، حتى أكلت لهم الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير اني الى هذه الغاية ... "

ز ــ كتب اخو الأفشين (خاش) الى أخي المازيار (قوهيار) انه لم يكن ينصر هــــذا الدين الابيض غيرى وغيرك ، وغير بابك . فأما بابك فانه بحمقة قتل نفسه . ولقـــــد جهدت ان اصرف عنه الموت فأبى حمقة الا أن دلاه فيه ... فان خالفت ، لم يكـــن للقوم من يرمونك به غيرى ... فان توجّهت اليك لم يبق احد يحاربنا الا ثلاثة : العرب والمغاربة والاتراك الخ ... (وننتصر عليهم) ويعود الدين الى مالم يزل عليــــه ايام العجــم .

وقد ردّ الافشين هذه التهم عن نفسه بقوة . وهاجم الشهود الذين شهدوا عليــه ببعضهـــا .

آ ــ اعترف الأفشين بالتهمة الاولى وعلّلها بأن المؤذن والامام حوّلا دار أصنام الـــى مسجد خــلافا للاتفاق الجارى مع ملوك الصغد .

ب ــ اعترف بالكتاب والاصنام . ولكنه قال انه مما ورثته عن ابي ، وليس لي حاجة لجواهر فأبيعهـا . وفي الكتاب آداب الملوك ، التي أصبحت فيما بعد كفرا ، وكنت استمتع بالأدب وأدع الكفـــر .

جـ ــ ينفي التهمة ويهاجم الموبذ الذى شهد عليه . ويقول : انه غير مسلم لتصحّ شهادته على مسلم ويلتفت اليه ، فيوبّخه على قلّة وفائه . وينفي ان يكون باستطاعته الاطـــلاع على اعمال الأفشين في بيته .

د ــ لا ينفي ذلك ولكنه يعلّله بأنه خاف على نفسه الاختتان ، وانه لم يعلم في تركـــه خروجا على الاسلام. هـ ــ لم ينف هذه التهمة ولكن قال : كانت هذه عادة القوم لأبي وجدى ولي قبل أن ادخل الاسلام فكرهت ان اضع نفسي دونهم فتفسد طاعتهـــم

و ــ ينفي التهمة (و) يقول في الاخيرة : ان المازيار يعترف على اخيه واخـــي بتهمة لا تلزمني .

ويتضح من مجموع المحاكمة ان اسلام الافشين كان سطحيا . وأن كره العرب وحكمهـــم كان أســاس التفكير السياسي لديه . ويذكر ابن خلكان انه كان يحسد ابا دلـــف العجلي أشدّ الحسد لأنه عربي وشجاع . ولعلّه لهذا فكّر في ارجاع الدين الخرمي والسلطة الفارسية . ولكن مما يستلفت النظر ما ذكر من وجود تمثال من الخشب في بيته ، عليـــه حلية كثيرة من الجوهر . مع انه ليس في الخرّمية اوغيرها من ديانات الفرس ، مـــــن تماثيل . فهل كان بوذيا متأثرا بالبوذية ؟ في صباه على الأقل ؟ على أى حال ، فقد ردّ الافشين الى سجن بني خصيصا له ، في قصر الجوسق ، مرتفعا شبيها بالمنارة ، جعل في وسطها ، قدر مجلسه ، والحراس عليه . وقد أماته المعتصم جوعا اذ امر بمنـــــع الطعام عنه الاّ القليل ، فكان يدفع اليه ، في كل يوم ، رغيف خبز حتى مات سنة 236 هـ فهل خشي المعتصم قتله وصلبه ؟ أم تورّع عن ذلك ؟ .

ثـورات العلـــويين : لم تعرف هذه الفترة (218 – 247 هـ) من ثـــورات العلويين ، سوى ثورة واحدة ، جرت في اوائلها . وكانت تحمل صفات الثورات العلويـة الاولى . بينما كانت الدعوة العلوية تأخذ مجارى سرية أخرى سيتمخض عنها ، فـــي العصر العباسي الثاني ، حركات انقلابية خطـيرة .

ثار سنة 219 هـ بعض الزيدية الجارودية وهم الذين يرون أن الامامة شورى ، في ولد الحسن والحسين . فمن خرج منهم شاهرا سيفه ، يدعو الى سبيل ربّه ، وكـــان عالما عارفا فهو الامام . وهذا الامام الذى ثار بهم هو : محمد بن القاسم (ابـــن علي بن عمر بن الحسن بن علي بن ابي طالب) وكان زاهدا يسكن الكوفة ، ويظهـــر انه كان متأثرا ببعض رأى المعتزلة ، في القول بالعدل والتوحيد . وقد هرب خـــوف بطش المعتصم له الى خراسان .

وتنقّل في كورها ، كمرو وسرخس وأبيورد والطالقان ، داعيا الى الرضا من آل محمد فتبعه خلق كثير . ولكنه لم يكن أهلا لتنظيم الدعوة ، فلم تكن حركته خطرة . واستطـاع عبد الله بن طاهر ان يقبض عليه ، في الطالقان ويبعث به الى السجن بسامراء .... ، وكان ذلك آخر العهد به ، اما اصحابه فظلّوا يؤمنون بحياته ، وعودته المقبلة وانتظاره .

ثورات الخــوارج : سجّل الخوارج ثورة محمد بن عمرو الشيباني في ديار ربيعـة وكانت احدى ثوراتهم الضعيفة الأخيرة ، على للأنسى ان امامتهم في عمان كــــانت ما تزال قائمـــة .

ثانيا – ثورات الاقاليــم : وهي ثورات اقليمية محدودة . دفع اليها الظلم أحيانا وشجّع عليها ضعف المركز ، او الحقد على العصبية التركية . وقد كانت تمهيدا للحركات الانفصالية القريبة . ويمكن ان تحصر اماكن هذه الثورات تقريبا فيما بين أرمينية الـــى الشام الى الحجاز ونجد ، وامتدّ بعضها لشمالي افريقية . وقد كان معظمها فــــي عهد الواثق .

1 – ثورات أرمينية وأذربيجان: يظهر ان وعورة تلك المنطقة الجبلية التي تمتدّ ما بـــين الموصل الى اطراف قزوين من جهة والبحر الأسود من جهة اخرى ، كانت تسمح بكثـــير من الاضطراب لأخلاط السكان التي كانت تملؤها : فهناك عناصر فارسية هزمت يـــوم هزم بابك ، وعناصر كردية وارمنية ، ضعيفة الولاء للدولة وبعضها (كالأرمن) كان قسم منهم يسكن أرض بيزنطة . كما سكنت المنطقة عناصر عربية من بني ربيعة ، وتغلب ، وشيبان خاصة . وكان معظمهم خارجيا . وهذا ما يفسر لحدّ ما تكرار الحركات الثورية هناك : فقد ثار جعفر الكردى بين الموصل وأذربيجان وأرمينية في زمن المعتصم . ولعلّ ثورته كانـــت واسعة ولكنها أخمــــدت .

ثم انتقضت أرمينية مرة أخرى ، زمن الواثق : تحرّك بها – على قول اليعقوبي قوم من العرب والبطارقة (الأرمن) والمتغلّبين ." وتغلّب ملوك الجبال والباب والأبواب على ما يليهم . وضعف امر السلطان ..." وقد وجّه الواثق خالد بن يزيد بن مويد اليهم فاستطاعت هيبته ان تردّ الى الطاعة معظم المنطقة . الا أن وفاته عادت بالبلد " الى أقبح احواله " فتولّى الامر ابنه محمد واستطاع ان يضرب ويجبس ، ويحرق الدورفي نصيبين التي كانت على ما يظهر من اهمّ مراكز الثورة .

وهزم صاحبها اسحق بن اسماعيل الأموى ، ففرّ الى تفليس . غير ان الاضطراب كان على أشدّه في عهد المتوكل . وتزعّم الأرمن بقراط بن أشوط الذى "كان يقال له بطريق البطارقة " وعزم على الانفصال . فأرسل اليه المتوكل قائدا كاتب البطارقة ، فأجابه بعضهم . وخرج اليه بقراط نفسه بالأمان . فحمله ، مع ابنه نعمة ، الى المتوكل . ويظهر ان القائد العباسي خالف بهذا شرط الأمان . فاجتمع البطارقة مع ابن اخي بقراط ، وهاجموا ذلك القائد في الشتاء وقتلوه .

وعاد اليهم الجند العباسي بقيادة بغا الكبير . فأتاه ثائران بالأمان فحملا الى المتوكل وقتلا ، بينما فتح بغا معقل البطارقة ، وقتل منهم ثلاثين ألفا ، وسبي منهم خلقا كثيرا ... أما اسحق بن اسماعيل في تفليس ، فرفض المجيء بالأمان فحاصره بغا ورماه بالمجانيق والحريق ، حتى مات من اصحابه / 50 / وقتله ، وبعث برأسه الى سامراء . على ان بغا هزم بعد ذلك واجتمع عليه الثائرون ، بعد ان كاتبوا الروم ، وصاحب الخزر في خلق عظيم . فأنجده المتوكّل بمحمد ابن خالد الشيباني الذى استطاع تهدئة المنطقة ، بالأمان واللين .

وقد حدث في أذربيجان سنة 234 هـ ايضا ثورة قادها (محمد بن البعيث) وكان متغلّبا على ناحية يقال لها (مرند) ، وقد ثار لخلاف نشب بينه وبين حمدوية ابن علي ، عامل الخليفة هناك . ولعلّ السبب كان ظلم العامل للناس . وقد استطاع ابن البعيث حين حمل الى الخليفة ان يتّهم العامل ويلقيه في السجن بدلا منه ورجع بعد ذلك الى بلده خلسة وأظهر المعصية والخلاف ، فأطلق الخليفة حمدوية من السجن لقتاله . ولكنه قتل . ثم وجّه اليه جيشا آخر ، فلم يفز ، حتى حاربه بغا الصغير المعروف بالشرابي ، وأسره ، وحمله سامراء ... حيث مات في السجن سنة 235 .

2 – ثورات الشام : استمرت الشام مهملة من بني العباس ، متركة لعصبياتها الذابحة ، ولأملها بالسفياني المنتظر . فكثرت ثوراتها لا سيّما في حمص ودمشق غير أنا نلاحظ أن بجانب ثورة بعض المجموعات المسيحية في لبنان التي قد تكون متصلة بالبيزنطيين فان بعض المسيحيين في الداخل وحمص خاصة يشاركون السكان الآخرين

ثورتهم ، ويتابعون العمل معهم ، رغم ما يلاقونه من أذى شديد . وهذا يدل على ان بعض الثورات في الشام ، كان نتيجة سوء السياسة العباسية ، وظلم الولاة. ويظهر من ارسال المتوكل ، صاحب ديوان الخراج سنة /240/ هـ (أي سنة الثورات الكبيرة) الى الشام ، لتعديل أرض دمشق والأردن وتحميل كل أرض ادنى ما تستحقه ، أن سوء توزيع الضريبة والخراج كان يساهم في اضرام النقمة على بني العباس وأهم الحركات هي :

1 ـ ثورات حمص على عاملها سنة 240 هـ ثم سنة 247 هـ سنة 250 هـ والسنين التالية حتى حطت اسم الكوفة الصغرى لكثرة بوائقها وخروجها . ولقي اهل حمص مرّ العذاب من صلب ، وهدم وقتل وجلد في ذلك .

2 ـ وخرجت ايام المعتصم سنة 224 هـ على واليها ابي المغيث الرافعي . وظلت مضطربة الحال تثور المعارك حولها ، وفي مروجها بين قيس ويمن : ولما مات المعتصم تغلب القيسية على دمشق وغوطتها والمرج برئاسة ابن بيهس الكلابي . فاستطاع قائد الواثق رجاء بن ايوب الحضاري ان يهزمه عند (كفر بطنا) في الغوطة .

3 ـ ووثب اهل دمشق مرة اخرى سنة 240 هـ بعامل المتوكل لظلمه وعسفه وطلبه لثارات كانت بين قومه وبينهم ، منذ أواخر العهد الأموي فقتلوه على باب الخضراء وسلبوا رجاله وماله . وصاح المتوكل من لدمشق ؟ وليكن في صولة الحجاج . فأشير عليه بأفريدون التركي ... ولكن بغلته قتلته على باب المدينة .

4 ـ وفي خطط الشام اخبر يفهم منه ان الحرب لم تكن تهدأ بين صاحب دمشق او بعلبك ، وبين المردة في جبل لبنان . وان الامير هاني * (؟) انتصر عليهم في حروب كثيرة ، حتى لقب بالغضنفر ابي الاهوال . وبلغ خبره الخليفة ، كما كتب اليه خاقان الترك كتابا يشكره فيه ويشجعه .

لعل اهم ثورات الشام ثورات تميم اللخمي ابي حرب سنة 227 هـ وهو يماني من اهل الغور خلع الطاعة لسبب شخصي ، وجعل على وجهه برقعا لئلا يعرف ، حتى عرف (بالمبرقع) . وأخذ يحرض على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر " ويذكر السلطان فيعيبه " ويظهر ان ظلم العباسيين واهمالهم ، سمحا لدعوته بالتوسّع فاستجاب له قوم من الحرّاثين ، واهل القرى " . وقالوا : " هذا هو السفياني " ولما كثر جمعه ، دعا اهل البيوتات . فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية ، وقوم من اهل دمشق حتى بلغ عدد اتباعه : بين خمسين ومائة الف . عسكر بهم في بعض جبال الأردن . وخشي

القائد العباسي ، الذي بعث به المعتصم ، لقتاله ، لما رأى أمة كبيرة من حوله ــ فانتظر وصاله ، حتى جاء وقت الحرث . فتصرّم عنه الناس الى أرضهم ، وبقي في الفين فهاجمه وأسره ، وحمله الى سامراء ، وكان المعتصم في مرضه الأخير فسجن في المطبق بعد ان اوقف بباب العامة ، ونودي عليه .

٣ ــ ثورات الاعراب (في البادية العربية والحجاز) : وهذه بادرة جديدة في الدولة تدل على ضعف الحكم واهماله . كما انها تسجل بدء ذلك الدور الهدّام الذي لعبه البدو في شؤون الدولة العباسية ، منذ هذه الفترة حتى سقوطها : فمن قبل خلافة الواثق كانت بطون قيس وبنو سليم خاصة يفرضون نفوذهم على ما حول المدينة ويأخذون من الأسواق ما يريدون بالسعر الذي احبوا ثم اعتدوا على بني كنانة وباهلة ومزّقوا حملة بعثها عليهم عامل المدينة . وشعروا بقوتهم ، فقطعوا طريق الحجّ بين الحرمين وبايعوا بالخلافة رجلا منهم . . . فأرسل الواثق سنة ٢٣٠ هـ بغا الكبير اليهم في الشاكرية والأتراك والمغاربة . فهزمهم وصلبهم على الشجر . ثم دعاهم للأمان فاجابوه . وأبقى لديه منهم زهاء الف من الرهائن في الأغلال ، عرفوا بالشر والفساد . وكان بنو هلال قد اعانوا بني سليم ، فدعاهم بغا للهدوء فأجابوه ، وأخذ منهم زهاء (٣٠٠) رجلا سجنهم في المدينة ، ولما نقبوا وحاولوا الهرب ، فتك بهم اهل المدينة .

وفي سنة ٢٣١ تغلّبت فزارة مرة على فدك . فبعث اليهم بغا بحملة ، فزعوا منها الى الشام . ثم جاءته جموع من بطون غطفان وفزارة وأشجع وثعلبة فاستحلفهم ألاّ يتخلفّوا عنه متى دعاهم . ثم اخمد حركة بني كلاب وحبس منهم في المدينة الفا او الفين وثلاثمائة .

وفي تلك السنة نفسها ، شكا الشاعر عمارة ، حفيد جرير الخطفي ، للخليفة الواثق من بني نمير وفسادهم في البادية ، واغارتهم على اليمامة ، وما جاورها . فسيّر الواثق اليهم بغا الذي انتصر عليهم بعد معارك ، كان ان يقضي عليه فيها . ولما قدم بعض ساداتهم بطلب الأمان ، آمنهم وآنسهم وأبقى حوالي /٨٠٠/ رجل ساقهم مع مساجين المدينة الى سامراء .

٤ ــ ثورة افريقية : وهنا ايضا اتفقت كلمة بعض البربر في برقة ، مع قوم من قريش (من بني اسيد بن ابي العيص) فوثبوا بعاملهم . فتوجّه اليهم رجاء الحضاري الذي كان اوقع بابن بيهس في دمشق ، وبالمبرقع في فلسطين ، فوصل الجيزة سنة /٢٢٨/ ولكنه لما وصل برقة ، هرب من كان فيها . وظفر بجماعة منهم ، وعاد بهم . ونكث (البجاة) سكان الجنوب الشرقي من مصر عهدهم مع المسلمين بتأدية /٤٠٠/ مثقال تبر ، قبل ان يطبخ ويصفّي ، الى عامل مصر . وامتنعوا سنة ٢٣٧

عن أداء الخراج ، وخرجوا فقتلوا من كان يعمل على التخوم ، بينهم وبين مصر في استخراج الذهب والجوهر . وسبوا ذراريهم ونساءهم . واعلنوا ان المعادن كانت لهم ، فهم لا يأذنون للمسلمين في دخول أرضها ... حتى خاف المعدنون من المسلمين وانقطع عن الخزينة مورد الخمس الذى كانت تتقاضاه منهم . كتب بذلك صاحب البريد الى المتوكل فاضطرب لبعد الشقة ووعورة الأرض. ولكنه بعث حملة ، طلب من عامل مصر رفدها . كما أمدها بالمؤن في النيل . فهزم (البجاة

وأجاب رئيسهم

(علي بابا) للشروط السابقة ودفع خراج السنوات الاربع الثائرة ، وحمل الى سامراء حيث استقبل بحفاوة ... ويروى انه كان يحمل صنما معه يعبده ، فاستنكر اهل سامراء ذلك وقد تسرّب الاسلام تدريجيا في القرن الثالث الهجرى الى البجاة وشملهم جميعا في القرن الذى تلاه .

٥ ـ السياسة الخارجية : كانت العلاقات الخارجية الاساسية في هذه الفترة مقصورة على الروم . ولم يكن فيها جديد . فهي فصول اخرى من قضية الحدود التي ستمتدّ قرنين آخرين دون طائل .

وعاصر هذه الفترة من اباطرة بيزنطية الامبراطور تيوفيل (٨٢٦ ــ ٨٤١) وخلفه من بعده ابنه ميخائيل (الثالث السكير) وكان عمره ست سنين فقامت بالوصاية عليه امه تيودورا حتى سنة ٨٥٦ م ثم تسلّط على الامبراطور منذ سنة ٨٦٢ م عمّه بارداس الذى حمل لقب قيصر ووكيل للامبراطور وولي العهد حتى قتل سنة ٨٦٦ م .

بدأت سنوات المعتصم الاولى (منذ سنة ٨٣٣ م الى سنة ٨٣٧ م) بهدوء على الجبهة البيزنطية ، دون صلح رسمي . فان ابا اسحق ــ كما نعلم ــ بويع بالخلافة في تلك السنة نفسها . وعاد مسرعا الى بغداد ، بعد ان أمر بجمع الجيش والعودة ، وهي الخطة الحكيمة التي كان وضعها اخوه المأمون ، لدرء الروم بهدم ما بدىء ببنائه من الحصون ، وصرف من كان المأمون اسكنه هناك الى بلادهم .

وسبب الهدوء يرجع الى انشغال الطرفين بما لديهما من مشاكل : فالمعتصم كان عليه التخلّص من بابك ومن الزط أولا ، وتيوفيل كان مشغولا بحرب صقلية الفاشلة . ولهذا ما كاد امبراطور بيزنطة ينتصر انتصاره الهام سنة ٨٦٧ م تحت اسوار قصريانة في صقلية ، على عبد السلام ابن عبد الوهاب قائد بني الأغلب وأسره ، حتى التفت للجبهة الشرقية . فاتصل ببابك ، أو أن بابك هو الذى اتّصل به ، لما اشتدّ

عليه الحصار . فكتب يحرّضه على غزو العرب ، ليخفّف الحصار عليه ، وانه لم يبق على باب الخليفة احد ، ولا قوة ، لانه وجّه كل جيوشه ضد الخرّمية ، حتى انه اشرك فيها طاهيه ، وحائك ملابسه . (ويستغلّ بابك هنا لقبي القائدين جعفر الطبّاخ وايتاخ الخيّاط وتظاهر بابك — في قول زيلييف — بأنه مسيحي .

مشى تيوفيل في مائة الف من الجند ، بينهم البرغر (البلغار) والصقالبة ، وغيرهم وبينهم فرقة من اصحاب بابك الفرس والاكراد . الذين هربوا من مواقعه اسحق بن ابراهيم (في منطقة همذان) ويسمي العرب رئيسهم (برسيسة ولعلّه في الأصل نرسيس ويسمى في بعض المصادر (نصرا) ايضا . ولعله هو تيوفوب — في رأي فازيلييف — وهاجم الروم حصن زبطرة وهو من ثغور الجزيرة الهامة . وتميّز أكراد نصر بفظائعهم في البلدة ووحشيّتهم . فأحرقت المدينة ، وقتل الذكور من أهلها ، وأسر النساء والأطفال . وشمل القتل المسيحيّين ايضا ثم تركت سميساط رمادا . ولم تلاق ملاطية نفس المصير ، لانها فتحت ابوابها ، وأطلقت أسرى الروم فيها ، وعاد تيوفيل الامبراطور خوف هجوم عربي عليه ليستقلّ في القسطنطينية استقلالا رائعا ويبني قصرا وقناة لتخليد نصره . . . ولكن الهاربين من زبطرة وصلوا سامراء ، فاهتزّ الخليفة ، واهتزّ الناس لأبنائهم . ودخل الخليفة المعزول ، ابراهيم بن المهدي على المعتصم ، فأنشده بعض ما حرّضه . ورويت قصيدة استفزته . فأمر بعمامة الغزاة ، فاعتمّ بها ونادى لساعته بالاستعداد للحرب . على انه لم يكن يستطيعها قبل ان تنتهي من امر بابك نهائيا ، فلم يبعث اذ ذاك بغير نجدة لأهل زبطرة ، بقيادة عجيف ابن عنبسة استطاعت ان تردّ الهاربين من اهلها ، وتؤامنهم وان مزّقها البيزنطيون لقلّتها . ثم قبض في تلك الفترة على بابك وصلبه . فتفرّغ وجيوشه ، للحملة الانتقامية التي توجّهت في السنة التالية سنة ٨٣٨ م الى عمورية ، ورغم نبوءات المنجمين بالفشل .

ويروى الطبري في سبب استهداف عمّورية بالذات ، ان المعتصم قال : أى حصون الروم أمنع وأقوى ؟ فقيل له عمورية . فانه لم يقصدها مسلم . منذ ظهور الاسلام . وهي عين المسيحية واساسها . وهي عند الروم أشهر من قسطنطينية . . . وقد يفهم من الخبر ان المعتصم قرّر قصد عمورية ، وهو في سامراء . والأرجح ان هذا القرار تمّ خلال الحملة ، كما يستنتج من كتاب الفخري ويظهر ان اختيار عمّورية كان لأنها مسقط رأس الأسرة المالكة البيزنطية . وهي اذ ذاك في أزهر ايامها . وكان ميخائيل الثاني قد رفعها الى أسقفية رئيسية مستقلة . ثم رفعت الى مطرانية (أى أبرشية) وكانت ذات حصن قوى ، عليه أربعة وأربعون برجا . والمصادر الرومية تجعل زبطرة مسقط رأس المعتصم لايجاد التقابل بين فتحي زبطرة وعمّورية .

وقد مشى المعتصم في جيش متجهز كما يقول الطبري " جهازا لم يتجهز مثله خليفة قط من السلاح والعدد والآلات وحياض الأدم والقرب والبغال والحواشن والزرنيات وآلة النار والنفط " واما عدد الجيش فكان ضخما فالمكثر يقول خمسمائة الف والمقل مائتي الف وأمر المعتصم ان يكتب على الالوية والتروس اسم عمورية .

وعند سبسطبة (سروج) قسم المعتصم جيشه الى فرقتين : بعث اولاهما بقيادة الأفشين عن طريق الحدث ، الى أنقرة وسار بالثانية فبعث قسما منها مع أشناس من الدرب وتبعه بعد يومين ليلتقي الجميع عند انقره وقد اصطدم الأفشين بامبراطور بيزنطه عند (دزمون) وهزمه في الضباب والمطر الكثيف وشاع ان الامبراطور فقد والواقع انه هرب اذ بلغه ائتمار الموجودين معه ، وتنصيبهم تيوفوب امبراطورا أو بلغه خبر مؤامرة القسطنطينية التي بلغها انه مات ، فارتد الى العاصمة بعد ان ركز جيشه في عمورية بقيادة خاله باطس حاكم الأناضول .

وقد دمرت جيوش المعتصم انقرة التي كانت أخليت حين وردت اخبار المعركة وتوجهت القوى العباسية الى عمورية . وقد قاوم البيزنطيون فيها بعنف غير أن أسيرا عربيا (كان تنصر لدى الروم) دل المعتصم على نقطة ضعيفة في السور ، فركز الهجوم عليها فاستسلم قائدها وفتحت البلدة (١٣ غشت ٨٣٨م) وفي اليعقوبي والمسعودي تفاصيل الانتقام الرائع فيها لزبطرة . وقد كانت الغنائم من الوفرة بحيث امر المعتصم " لكثرة السبي والغنائم ان لا ينادى على السبي أكثر من ثلاثة أصوات ، وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة ، وعلى المتاع جملة واحدة " .

وقد حاول امبراطور بيزنطة انقاذ المدينة . فبعث حملة بحرية الى أنطاكية — على ما يذكر ميشيل السوري — فنزلت ميناء سلوقية ، ونهبت التجار ثم فرّت . فلما بلغ الأمر ابا اسحق امر ببناء حصن وسط الميناء . كما حاول تيوفيل ان يترضّى المعتصم ، فبعث اليه بالهدايا قبل سقوط المدينة ، وبرسالة يعتذر فيها عن مذابح زبطرة ، وأنها لم تكن برأيه وعرض بناء زبطرة وارجاع السبي واطلاق جميع الأسرى . ولكن المعتصم رفض مقابلة رسوله .

وكان من النتائج المباشرة للفتح ان قرر المعتصم المسير الى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة في فتحها برا وبحرا بمعنى أن المشروع الذى كان وضعه المأمون وانطوى بموته السريع قد استيقظ الآن في رأس المعتصم واصبح مشروعه هو أيضا ولكن لم يقيض له ان يتحول الى التنفيذ لأن الخليفة اكتشف مؤامرة في الجيش للتخلص منه وتوليه العباس بن اخيه المأمون .

وقد تزعم المؤامرة عجيف بن عنبسة ، القائد العربي الذى ضاق بتقريب المعتصم لقواده الاتراك وباغضائه عن سوء تصرفهم معه — فاتفق عجيف مع العباس والقواد العرب وبعض الاتراك ايضا وأجلوا تنفيذ الأمر الى ما بعد فتح عمورية . ولكن المعتصم عرف بالمؤامرة فنكل بأصحابها ابشع التنكيل . . . فلم ينجم عنها داخليا سوى زيادة انصراف الخليفة الى أتراكه أما خارجيا فقد أنهت مشروع فتح القسطنطينية في تلك السنة على الأقل ورأى المعتصم أن يرجع فينظم استعداده من جديد .

ويظهر انه امر اذ ذاك ببناء اسطول (في الساحل السوري ؟) تمهيدا للغزو . فاستمر بناؤه اربع سنوات (مات خلالها كل من المعتصم وتيوفيل) وقد جاء الاسطول في (٤٠٠) سفينة وحاول بقيادة قائد عربي اسمه ابو دينار مهاجمة القسطنطينية ، واتخذت العاصمة العدّة الكافية لدفع العاصفة المنتظرة . ولكن الحملة فشلت تماما . اذ أدركت الاسطول عاصفة عند رأس كيريوت (خلدونية) ، فلم يعد منه الى سورية الا سبع سفن .

اما تيوفيل فلما علم بنية المعتصم المسير الى القسطنطينية ، اضطرب لأن بقية الفرق البيزنطية المهزومة لم تكن من القوة ، بحيث تحمي العاصمة المهدّدة ، بالاضافة الى مشاكل الدولة في صقلية . ولهذا بعث تيوفيل يطلب النجدة من دوقات البندقية ومن ملك الفرنج ومن بلاط الاندلس . كما بعث وفدا الى المعتصم ، عليه البطريق باسيل ، يعرض مائتي قنطار (؟) فداء لأسرى عمّورية ، وبعض اقربائه وخاصته منهم بصورة خاصة . ولكن المعتصم رفض العرض . اما السفارة التي وصلت الى البندقية فيظهر انها كانت لطلب المعونة ضد العرب في صقلية . وقد كانوا تسربوا في تلك الفترة الى ايطاليا ووصلوا في " البرالطويل " حتى روما . وربما كان تيوفيل قد طلب المدد قبلها من ملك الفرنجة لويس (ابن شارلمان) . ولكن ظروف هذا الملك لم تكن مواتيه لمعونة بيزنطة ، فلما مات سنة ٨٤٠ م بعث تيوفيل يفاوض ابنه (لوثر) في تزويج ابنه لويس من ابنة تيوفيل ... وقطعت المفاوضات بموت الامبراطور . واما السفارة الى الاندلس فوصلت في نوفمبر الثاني ٨٣٩ الى عبد الرحمان الثاني (٨٢٢ — ٨٥٢ م) ولكن عبد الرحمن لم يعجل بامداد تيوفيل ، بسبب أزماته الداخلية : في مدريد والبطاة وقرابة . وكل ما فعل أنه أرسل اليه سفيرا هو يحيى الغزال ، العالم الشاعر . ولم تنحل هذه الوفادة عن شيء .

واذا كان هذا كله يدلّنا على أثر فتح عمّورية في سياسة بيزنطة ، فان أثره في نفس تيوفيل كان اعظم . وكانوا يروون في القرن العاشر ان الامبراطور أصيب من ذلك بحمى شديدة أكثر فيها من شرب الماء المثلج ، حتى مات ، بعيد وفاة خصمه المعتصم بأسبوعين .

وقد استبدّت قصة عمورية بالخيال الشعبي ، لا في القرن التاسع وحده ، ولكن في القرون التالية . وبقي ذكرها فيما عرفه الروم باسم " الملحمة العربية " . كما حفظ البيزنطيون قصص المدافعين باسم " اخبار شهداء عمورية الـ ٤٢ " واسماء الذين اسلموها بعنوان " الخونة الذين سلّموا عمورية " وكان صدى النصر بالمقابل لدى العرب عظيما . وقد تجلّى في مثل قصيدة أبي تمام .

وقد عادت الغزوات بين العرب وبيزنطة ، الى سابق عهدها ، بعد عمّورية ، من هجمات محلية محدودة قتل في احداها (سنة ٨٣٩م) نصر الكردي (تيوفوب) وذبح جماعته الخرّمية ووضع الملح في رأسه وارسل الى المعتصم . وقد تسربت هذه القصة الى ملحمة السيد بطال .... وارسل امبراطور الروم وفدا يقترح السلم وتبادل الأسرى

ويقدّم الهدايا . واجابه المعتصم بوفد مثله ويهدايا معه وان رفض ... الرسمي واعدا باطلاق ضعف عدد الأسرى المسلمين الذين يطلقهم الروم . والسبب في هوادته أنه كان في تلك الفترة مشغولا بمشكلة الأفشين . فكانت هذه العلاقات هدنة غير رسمية بين الطرفين ، حتى وفات الخصمين المتواقتة .

وبالرغم من بعض الهجمات المحدودة ومن محاولة البيزنطيين استعادة كريت ، دون طائل فاننا نلحظ منذ سنة 844 ميلا في الامبراطورية الرومية ، ولدى الواثق أيضا لاقامة العلاقات السلمية عن طريق فداء الأسرى : فقد وصل بلاط الخليفة مفاوض رومي باسم الامبراطور سنة 230 أعاده الواثق مصحوبا بأحمد بن ابي قحطبة الى بيزنطة ، لمعرفة عدد أسرى المسلمين هناك . وجرى الفداء في عاشوراء سنة 231 (845) حيث كان يجرى دوما على نهر اللامس ويظهر ان اسرى المسلمين كانوا اكثر من اسرى الروم ، فقد وجه الواثق الى اسواق بغداد في ابتياع الرقيق من ممالك الروم ، وأخرج من قصره النساء الروميات العجائز وغيرهن حتى تمت العدة . . . وفي هذا الفداء كان الامتحان بخلق القرآن لمن يفتدى ، هذا الامتحان الذى اضحى رمز (المواطنة) في عهد الواثق . وابن الاثير يذكر نظام فداء الاسرى بين الطرفين .وق

وقد استمر الهدوء النسبي على الجبهة البيزنطية (حتى سنة 851م) سنة 236 هـ ثم غزا علي بن يحيى الأرمني ثلاث صوائف متتابعة (851 و 852 و 853) فقابله الروم بهجمة بحرية مفاجئة على دمياط ، ولعلّ الخطة البيزنطية كانت تشمل الهجوم على كريت ، لضرورة عزلها وقطع اتصالها بمصر ، التي كانت دار صناعة لها ومكان بناء الاسطول .

وكانت الفتكة المفاجئة بدمياط قاسية . قامت بها ثلاثمائة سفينة نزل منها بالبلدة مائة يقودهم ابن قطونة في خمسة آلاف رجل ، وقد قاومهم السكان ببطولة ، بعد أن هجروا المدينة لأن الجند الدفاع كان قد استدعى الى حضور حفل بالفسطاط . وأحرقت البلد بعد نهبها .

واقتاد الروم حوالي الف أسير ، من الاقباط والمسلمين واليهود . وفعل الروم مثل ذلك باشتوم (قلعة) تنيس . وحملوا البابين الحديديين اللذين كان المتوكل بناهما للقلعة . ثم عاد الروم مرة ثانية لدمياط سنة 853 ـ 854 وعاد مرة ثالثة سنة 859 فقصدوا الفرما (بلوزيوم) . وقد كان لهذه الانتصارات الرومية ، والهجمات ، أثر خطير في نمو البحرية العربية اذ دفع التفكير الجدى كما يقول فازيليف ـ في انشاء اسطول بمصر . ومنذ ذلك الوقت ـ على مايرويه المقريزى ـ بدأت مصر اهتمامها الجدّى بذلك ، حتى أصبح امر البحر اكبر الامور شأنا فبنوا السفن وجعلوا للبحارة مثل عطاء الجند . وانزلوا الامراء الرماة في الاسطول . . . حتى اضحى الانخراط في الاسطول من دواعي الاحترام ، وهذا هو الاسطول الذى سيكون له اكبر الشأن في النصف الثاني من القرن العاشر ايام الفواطم خاصة .

أما في الجبهة البرية فهاجم الروم سنة 855م عين زربة ، وأسروا من بها من الزط . ولكن هذا الحادث لم يعقبه نتائج سيئة . بل جرت في آخر السنة مفاوضة على الفداء الذى تم في

السنة التالية . ومما يستوقف النظر ان العرب كانوا يفتدون الاسرى المسيحيين أيضا لدى الروم وهو امر يدل على وجود روح المواطنة أيضا لا روح التدين فحسب ، لدى كل من المسلمين والروم . وقد تم فداء 785 رجلا و 125 امرأة تلك السنة . ولكن يذكرون ان الامبراطورية (تدورة = تيودورة) كانت قد قتلت (12) الف اسير لديها رفضوا التنصر .

وقد عادت الهجمات المتبادلة بسرعة ، بعد الفداء . ولعل اهم احداث الجبهة البيزنطية في تلك الفترة ، هرب جماعة البيالقة (البوليسيين ، وهم فرقة مسيحية خاصة كانت تؤدي أجل الخدمات للروم على الجبهة) من جانب الروم لجانب العرب ، بسبب محاولة الحكومة البيزنطية اعادتهم الى الأرثوذكسية واضطهادهم ، وشنقهم بالآلاف . فأدى ذلك الى هدم الحدود الشرقية البيزنطية بينما بنى البوليسيون مدينتين في منطقة سيواس الحالية (على حدود أرمينية) وجعلوا يحاربون الروم ، يساعدون المسلمين ضد الروم

وإذا حاول الامبراطور حين بلغ رشده سنة 859م ان يقوم بعمل حربي فوصل في هجمة مفاجئة ، حتى منابع الفرات ، جوابا على غزو عمورية . وارفق بهجمة بحرية على دمياط . الا ان اضطراب الأمر معه ، الجأه الى قبول عرض الفداء الذي جاء به نصر بن الأزهر رسول المتوكل . (راجع تفاصيل زيارته لبيزنطة والفداء في الطبري وابن الأثير) . وقد تم الفداء سنة (860م) وأعقبه الامبراطور بغزوة ، اضطر لأن يقطعها اذ ظهر الروس امام عاصمته وهددوها . ولم يستغل العرب الفرصة الا في هجمات محلية ناهبة مبددة .

العصر العباسي الثاني أو عصر نفوذ الأتراك
(247 ـ 334 هـ 861 ـ 945م)

تحسن الاشارة قبل البحث الى بعض المراجع الخاصة بهذا العصر، بجانب تلك المراجع التي مرت معنا .

1 ـ المراجع العربية القديمة :

الطبرى	(الجزء الاخير) معاصر	اخوان الصفا	الرسائل
عريب بن سعيد القرطبي	صلة تاريخ الطبرى	البغدادى	الفرق بين الفرق
الصابئ (هلال)	تحفة الامراء في تاريخ الوزراء	اليعقوبي	تاريخه (الجزء 2)
		ابن حوقل	المسالك والممالك
الشهرستاني	الملل و النحل	ابن خرداذبة	المسالك والممالك
مسكوية	تجارب الأمم (معاصر)	قدامة بن جعفر	الخراج وصنعة

2 ـ المراجع العربية الحديثة :

احمد امين	ظهر الاسلام	بندلي جوزى	من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
حسن ابراهيم	تاريخ الاسلام السياسي (الجزء 2)	الدورى	دراسات في العصور العباسية المتأخرة
حسن ابراهيم واخوه	النظم الاسلامية		
عبد الفتاح الرنجاوى	النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية		

3 ـ المراجع الاجنبية :

من الضرورى الرجوع الى مواد (دائرة المعارف الاسلامية) دوما . وهناك بجانبها :

مجموعة كامبردج القرون الوسطى (للبحث في علاقات العرب و الروم) .

و هناك كتب اخرى في موضوعات متفرقة تتعلق بهذا العصر و توضيحه :

Bouden (H)	The life and the time of Ali.B.Issa (The good vizier)
Casanova	La doctrine secrête des Fatimides d'Egypte.
De Goeje	Mémoire sur les Carmathes d'Al-Bahrain.
Ivanov	The rise of the Fatimides.
Lowis (B)	The origin of Ismailism.
Massignon	La passion d'Al-Halladj.
Lane-Poole	Mohammadan Dynasties.
Levy	A Bagdad Chronicle.
Muir	The Caliphate its rise, Decline and fall.
Noldeke	Shetches From Eastern History.
Tritton	The Califs and their non Muslim subjects. (مترجم للعربية حديثا ـ بعنوان " اهل الذمة في الاسلام ") .
Sarton	Introduction to the history of science.

(مترجم للعربية حديثا ـ بعنوان "اهل الذمة في الاسلام") .

يمتد هذا العصر حسب اصطلاح المؤرخين مائة وسنتين (من 232 الى 334) وقد كنا الحقنا عهد المتوكل منه بالعصر الاول فهو يمتد اذن مابين (248 ـ 334) سبعا وثمانين سنة ، كان سلطان الخلافة العباسية خلالها يمتد من اطراف تونس الى مصر في افريقيا ومن اليمن الى منابع الفرات الى اذربيجان وما وراء النهر وحدود السند في آسيا . وفي اطراف هذه الرقعة كانت تقوم بعض الدول المستقلة بعض الاستقلال او كله : فتونس ويلحق بها صقلية للأغالبة وفي اليمن الدولة الزيادية وفي عمان كانت تقوم اما مة الخوارج الاباضية وفي خراسان دولة بني طاهر .

وتاريخ هذه البلاد في العصر العباسي معقد الصورة : فلاول مرة نرى اهتمام المؤرخين يتوزع بين مناطق العالم الاسلامي بعد ان كان متمركزا في العراق ثم نجد العوامل الاقتصادية والاجتماعية تثور وتنتشر بأشكال دينية عنيفة ويرافق ذلك نمو الفكرة والحضارة وتوزع في المراكز وصبغات محلية . . . بينما تكون السلطة العباسية الفعلية آخذة في المغيب والجهاز العباسي من وزارة ودواوين ينحط الى الحضيض .

ويمكن ان نجمل ميزات هذا العصر في النقاط التالية :

1 ـ ضعف الخلفاء ضعفا متزايدا بشعا اذ بدأ العصر بانهيار في منصب الخليفة مريع تبعه فترة من اليقظة والقوة لم تلبث عوامل الضعف ان طوتها واسلمت خلافة بغداد لأيدي الديلم .

2 ـ تسلط قواد الجيش الاتراك على الدولة وصراعهم العنيف مع خلفائها وجهازها الاداري وهذا ما جعل المؤرخين يعتبرون هذا العصر : دور النفوذ التركي .

3 ـ فوضى الادارة الداخلية مما سمح لحرم البلاط أن يسيطرن وللفتن الداخلية ان تظهر وللطبقات السفلى أن تكثر وتقوى وجعل الرشوة والظلم ينتشران في وظائف السلطات وأشاع المصادرة وعدم احترام الملك بين الناس وزاد في التذمر لدرجة مكنت المذاهب المتطرفة من ان تبرز الى الوجود .

4 ـ تفكك الدولة العباسية وظهور عدد كبير من الدويلات المتصلة بالخليفة اتصالا اسميا .

5 ـ انتهاء تكون المجتمع الاسلامي واتضاح ميزاته .

6 ـ بلوغ الحضارة الاسلامية فترة النضوج تمهيدا لبلوغها في العصر التالي فترة الأوج .

وسندرس هذا العصر سياسيا ضمن نقاط ثلاث : الخلفاء والجهاز الاداري ، ثم

السياسة الداخلية، فالسياسة الخارجية، ونختم ذلك باستعراض للحياة الاجتماعية والحياة الفكرية .

1 ـ الخلفاء والجهاز الاداري

توالى على عرش الخلافة العباسية فيما بين (247 ـ 334 هـ) اثنا عشر خليفة هم :

1 ـ المنتصر بالله (247 ـ 248 هـ)
2 ـ المستعين بالله (248 ـ 252 هـ)
3 ـ المعتز بالله (252 ـ 255 هـ)
4 ـ المهتدي بالله (255 ـ 256 هـ)
5 ـ المعتمد على الله (256 ـ 279)
6 ـ المعتضد بالله (279 ـ 289 هـ)
7 ـ المكتفي بالله (289 ـ 334 هـ)
8 ـ المقتدر بالله (295 ـ 320 هـ)
9 ـ القاهر بالله (320 ـ 322 هـ)
10 ـ الراضي بالله (322 ـ 329 هـ)
11 ـ المتقي لله (329 ـ 333 هـ)
12 ـ المستكفي بالله (333 ـ 334 هـ)

ويمكن ان نسجل حول هذه المجموعة الملاحظات التالية :

1 ـ الخلفاء في هذه الفترة جميعا من ولد المعتصم : تعاقب على العرش اولا اثنان من اولاده، ثم خمسة من احفاده، ثم كانت الخلافة في أحفاد ابنه المتوكل .

2 ـ الصفة البارزة فيهم هي الضعف وقلة الهيبة ونضال الترك بدون طائل حتى غدا ضعف الخلفاء مجالا للتندر والاشفاق بين الناس . والنضال مع الترك بدأ منذ عهد المتوكل وحاوله الخلفاء جميعا من بعده فكان جزاؤهم على ذلك يتراوح بين الخلع والقتل والسمل . وهذه الصور الهزلية التى سنراها لخليفة في قفص وآخر يجر على وجهه من صدر مجلسه وثالث يقام في الهاجرة ويضرب ورابع يسمل ثم يستعطي في المسجد، هذه الصور اذا قورنت بعهود الخلافة الاولى بينت لنا الدرك الذى انحط اليه هذا المنصب الاسلامي الأكبر .

وحين انتهى العصر العباسي الثاني كان عدد الخلفاء الذين خلعوا عن العرش سبعة وكان عدد من قتل منهم (عدا المتوكل) ستة، كما كان في بغداد ثلاثة خلفاء احياء مخلوعين مسمولي الاعين هم : القاهر والمتقي والمستكفي، واما قضية ولاية العهد فقد تعطلت تماما ولا نكاد نجد سوى خليفة واحد وصل الى الخلافة بعهد من سلفه ودون تدخل الجيش وقد حاول (الراضي) في اواخر العصر ايجاد منصب جديد في الدولة تجتمع في يده السلطات حتى الحربية منها ويكون

اليه الامر كله : فأقام " امرة الامراء " ولكنه زاد في شلل الحكم بسبب المنافسة على المنصب كما ان وجود الخلافة لم يعـــد له معنى مع هذا المنصب الجديد واما الوزارة فقد بطلت منذئذ ولم يبق غير اسمهـــا .

3 — برزت بالتدريج في هذا العصر الصفة الدينية للخلافة وهي صفة لم تكـــن لها من قبل . فلما اشرف العصر على نهايته لم يكن للخليفة العباسي من سلطة حتى على قصره بينما كان يخطب وده (بالمال او بالقوة) كل ولاة العالم الاسلامي تقريبـــا ليمنح ولايتهم في مناطقهم الصفة الشرعية طائعا او مرغما ، ومن هنا اخذت الخلافة الاسلامية تقترب في الشبه من بعض المؤسسات الاخرى . ورأينا المستشرق ميـــور يشبهها بالامبراطورية الجرمانية المقدسة والمستشرق آرنولد يعقد عدة صفحات لبيان وجوه الشبه والخلاف بينها وبين الامبراطورية الرومانية المقدسة والبابويـــة (راجع كتاب الخلافة — لآرنولد) .

وهذا الطابع الديني الذى ارتدته الخلافة مع ذلك الضعف/الخزي أصابهـــــــا انعكسا كلاهما في القاب الخلفاء اذ اخذ يلتصق بها لفظ الجلالة وتبدو فيهـــا صفات الترهل والانحطاط ويسبقها في الوقت نفسه لقب الامام : فمن المنصور الى الهادى الى المأمون نجد الظل الديني يظهر بالتدريج في اللقب ثم يأتي المعتصم بالله وفي الاعتصام نوع من الاتكالية ظهرت واضحة في لقب المتوكل على الله ثم جاء المستعين بالله ... فالمكتفي بالله ... فالراضي بالله ... فالمستكفي بالله .... فالطائع والمطيع والقائم بأمر الله ... وهي القاب واضحة الدلالـــة .

4 — واخيرا انقسام البيت الخلافي وخضوعه للأحقاد بين اولاد الخلفاء : فما يلي واحد منهم الخلافة حتى يسجن او ينفي او يخلع او يقتل من يقدر فيهم الطمع بمكانه ، وقد لعبت دسائس الحاشية في هذا الانقسام ، كما افسح المجال الواسع لتدخل النساء (من الجوارى الوالدات) في الحكم .

وقد نتسائل عن السبب الذى ابقى على الخلافة الاسلامية بعد هذا فلم تنقض او تلغ ولعلنا نستطيع ان نرد ذلك الى :-

1 — الصفة الدينية التي تسربلت بها الخلافة فزادت مع الايام توطدا وحرمة في قلب الناس .

2 — انقسام الترك المسيطرين على الخلفاء وعدم اتفاق كلمتهم الا على تحديدهـــم .

3 — ظهور بعض الخلفاء القادرين الذين أعادوا الامل بالخلافة .

4 — عدم سيطرة الخليفة على شيء من الأمر — في نهاية هذا العصر — فينازعه المنازعون عليه .

5 — هذا الى ان الخليفة العباسي مجال للاستغلال المسيطر عليه ، يستغل كل العالم العباسي لمصلحته : في المال والنفوذ .

ويمكن ان ندرس خلفاء العصر العباسي الثاني في مجموعات ثلاث :

1 — خلفاء السنوات التسع : وهم الاربعة الاوائل : المنتصر ، المستعين ، المعتز ، والمهتدي .

2 — عصر الموفق : وخلفاؤه هم : المعتمد (اخو الموفق) والمعتضد والمكتفي .

3 — عصر المقتدر : ويشمل الخلفاء الخمسة الآخرين : المقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي .

1 — خلفاء السنوات التسع (أزمة الترك)

المنتصر : (247—248هـ/861—862): بايعه قتلة ابيه ليلة القتل وتلقى في اليوم الثاني بدار الخلافة البيعة الخاصة ، وتبين لنا صورة البيعة العامة التي بعث بها المنتصر الى الامصار (راجع الطبري) وما فيها من أيمان مؤكدة محرجة مبلغ قلقه وخوفه ، وبالرغم مما اعلن رسميا عن مصرع المتوكل (من أن الفتح بن خاقان نديمه قد قتله فقتل به) فان الناس عرفوا الحقيقية بسرعة وتحدثوا بانه " لايطول له العمر بعده وشبهوه — كما يقول المسعودي — بشيرويه بن كسرى . . .

على ان ضمير المنتصر كان يعذبه ولم يهدئ من قلقه ترحله السريع عن مكان الجريمة " المتوكلية " الى سامراء ولا اتهامه للاتراك وشتمهم وقوله عنهم " هؤلاء قتلة الخلفاء " ويعزو بعضهم موته السريع بعد ستة اشهر الى وخز ضميره او الى السم .

وقد اجبره الاتراك منذ الايام الاولى لحكمه ان يخلع اخويه (المعتز والمؤيد) من ولاية العهد فحملهما على التنازل . . . ويقولون انه ضمهما اليه بعد ذلك واوضح لهما انه كان مجبرا من الاتراك على مافعل .

المستعين : (248—251/862—866م) : وهو احمد بن محمد بن المعتصم أي ابن اخي المتوكل . اما عن اختياره وبيعته فيقول الطبري وابن الاثير انه " اجتمع الموالي وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأوتامش ومن معهم فاستحلفوا قواد الاتراك والمغاربة والأشروسنية على ان يرضوا بمن رضي به بغا الكبير وبغا الصغير واوتامش وذلك بتدبير احمد بن الخصيب (وزير المنتصر) فحلفوا وتشاوروا وكرهوا ان يتولى الخلافة احد من ولد المتوكل لئلا يغتالهم واجمعوا على احمد وقالوا : لاتخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم فبايعوه .

وهكذا كان المستعين صنيعة الاتراك اذن ويظهر لنا ان اختياره لم يكن مرضيا لجميع الترك فقد " انكر بعض القواد البيعة ففرق المستعين في الناس والجند أموالا طائلة " ...

وكان طبيعيا ان يكون المستعين آلة بيد الترك الذين اضحت قصة الخلافة اذ ذاك قصة تحاسد هم ودسائسهم تسلط عليه اول الامر اوتامش وشاهك الخادم واحمد بن الخصيب وباغر ومع هؤلاء جميعا ام المستعين فتصرفوا ببيت المال كما يشتهون وحسدهم باقي الترك فدبروا لاحمد بن الخصيب حتى نفاه الخليفة الى المغرب . ثم تآمر (وصيف) و (بغا) على اوتامش الذي كانت له السلطة الحقيقية فثار عليه الجند يطلبون الأرزاق ولما خرج لتهدئتهم قتلوه ولكن مقتله افسح المجال لباغر قاتل المتوكل وهو قوي " يخشى سُأسه على قول الطبري ويخاف شره " فسعى وصيف وبغا في تدبير المكائد له من جديد وللخليفة معه .

وشعر باغر والخليفة كلاهما بالامر . فاما الخليفة فبعث الى المتآمرين يقول في ذلك : " ما طلبت اليكما ان تجعلاني خليفة وانتما جعلتماني واصحابكما ثم تريد ان تقتلي ؟ " ولعله قربهما اليه اثر ذلك . واما باغر فجمع اليه الجماعة التي قتلت معه المتوكل مع من يثق به من اصحابه واتفق معهم على قتل المستعين ووصيف وبغا جميعا وحمل ابي المعتصم الى الخلافة . ولكن المؤامرة لم تتم بل تمت بالمقابل مؤامرة اخرى لوصيف وبغا على باغر فقتل وثار اصحابه وتأزم الموقف الدرجة اضطر معها الخليفة للفرار من سامراء ذات ليلة . ويظهر انه فر مسرعا اذ انه ترك علامات الخلافة في قصره . ولعل هذا الفرار الى بغداد في دجلة كان باقتراح من وصيف وبغا وانهما وجدا في البقاء ببغداد بعد ذلك حلا للازمة . فلحق بالخليفة " جلة العمال والكتاب وبني هاشم والاتراك الذين في جانب وصيف وبغا " ويظهر انه في هذه الفترة قال احد الشعراء فيه :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا يقول ماقالاله كما تقول الببغا

وقد اضطرب الترك الباقين والفراغنه وغيرهم لهذا فانتقال العاصمة ضربة سياسية بارعة تفقدهم كل نفوذ وكل دور رئيسي في الحكم وتجعل الخلافة تستند بدلا منهم الى اهل بغداد فبعثوا وفدا يسترضي المستعين ولكنه ابى الرجوع وان وعدهم بارسال ارزاقهم بانتظام من بغداد .

ولم يقبل جند سامراء بهذا فقرروا خلع المستعين واخرجوا المعتز والمؤيد (ولدى المتوكل) من السجن وبويع المعتز بالخلافة فوجد بذلك خليفتان : في سامراء وبغداد وقامت

الحرب الاهلية الثانية وكان حصار بغداد الثاني .

تهيأ الطرفان للحرب التي دامت عدة اشهر : فجعل المستعين امر الدفاع عن بغداد لمحمد بن عبد الله بن طاهر (صاحب شرطة بغداد وولي خراسان في وقت واحد فجدد سورها وحفر لها الخنادق واحكم ابوابها ونصب لها الحاميات والمجانيق الضخمة وفتحت مياه الانهر على طريق سامراء لقطع طريق الاتراك . وجند محمد الطاهري بعض البغداديين وفرضوا الفروض عليهم واستعان ببعض الخراسانيين القادمين للحج كما ضم اليه قسما من العيارين برئاسة عرفائهم ، وكتب المستعين بقطع الميرة عن سامراء كما طلب الى ولاه الخراج ارسال الوارد الى بغداد دون سامراء ....

اما المعتز فكان اكثر حماسا وتزايدا وقد اوكل امر الهجوم على بغداد لاخيه (الموفق) ابي احمد بن المتوكل (ومعه كلباتكين التركي) .ثم طوق بغداد بحصار دام اشهرا .

ويظهر ان طول حصار بغداد جعل الاسعار فيها ترتفع وتكاثر اهل القرى المجاورة في البلد فزادوا في صعوبة التموين حتى مالت عواطف الناس عن المستعين .

اما الجند فكانوا في حماس له الان ابن طاهر القائد نجح (الموفق) على ما يظهر في استمالته ، ويقول المسعودي ان ابن طاهر " .... كاتب المعتز وجنح اليه ومال الى الصلح على خلع المستعين " .... ولكنه لم يجرؤ أن يعلن الصلح بين الناس الا على انه بقاء للخليفة في منصبه على ان يكون المعتز ولي عهده وقد اكتشف الناس الحقيقة فهجموا على دوره ونهبوها فلم يهدئهم سوى وساطة المستعين .

واما الصلح الذي عقده ابن طاهر فقد تنازل فيه المستعين عن الخلافة شريطة الأمان له ولأهله وولده وما حوته ايديهم من املاكهم وعلى ان ينزل مكة هو ومعه من يشاء من اهله وان يدفع له مال معلوم وضياع تقيمه (اليعقوبي) .

وبينما كان الموفق يتوج المعتز في سامراء كان المستعين يسير الى واسط يصحبه احمد بن طولون التركي .... ولكن الاتراك لم يطمئنوا فأوحوا الى المعتز بقتله ووافقتهم على ذلك قبيحة ام المعتز .... فقتل .

المعتز : (252ـ255هـ/866ـ889م):انتصر المعتز ولكن على حساب كرامة العرش الذي اعتلاه ونظر الناس نظرة اليأس الى منصب الخلافة . وتدلنا القصة التي يرويها صاحب الفخري على مبلغ تدهور قيمة الخلافة بين الناس ، ذكر انه " لما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ؟ وكان

بالمجلس بعض الظرفاء فقال : انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره و خلافته ... فقالوا :
فكم تقول انه يعيش وكم يملك ؟ قال : مهما اراد الاتراك فلم يبق في المجلس الامن ضحك " .

على ان المعتز الشاب حاول رغم كل شيء على مايظهر التخلص من النفوذ التركي
و قد عفا عن وصيف وبغا وجاء بهما لسامراء ولكنه كان يخشى بغا الصغير خاصة
(فلا يخلع سلاحه عنه خوفا منه) ومال لاجتناب المغاربة و الفراغنة دون الترك واستقدم
بعض الجنود من خراسان ايضا ثم ارغم على تنحيتهم بتأثير وصيف وبغا و شعر ان الترك
يأتمرون مع اخيه المؤيد لخلعه فسجن اخاه ثم قتله ونفى اخاه الثاني الموفق الى بغداد
ثم نجح فعلا بقتل بغا و لكن الاتراك تنبهوا لسياسته المناهضة لهم فاستغلوا فراغ الخزينة
من المال وعدم دفعه للارزاق بصورة منتظمة فشغبوا عليه بزعامة صالح بن وصيف . وجمعت
مشكلة الرواتب كلمة المغاربة و الفراغنة معهم فلجأ المعتز الى امه يستعين بما لهـا
(وكانت مع بعض القواد وافراد العائلة الخلافية قد نهبوا بيوت المال) فانكرت ان يكون
معها خمسون الف دينار له (وقد وجد لديها فيما بعد مليون و ثمانمائة الف دينار عدا
المجوهرات) فدخل جماعة على المعتز جروه من رجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس
و خرقوا قميصه واقاموه في الشمس في الدار فكان يرفع رجلا ويضع اخرى لشدة الحر .....
و كان بعضهم يلطمه و هو يتقي بيده .... ثم اشهدوا عليه انه خلع نفسه فأمنوه لكنهم
مالبثوا ان اوكلوا به من يعذبه فمنعه الطعام و الشراب و كان يطلب حسوة ماء من البئر فيمنع
ثم ادخلوه سردابا وجصصوا عليه .

المهتدى : (255-256/ 689-870م) اسرع الاتراك بحمل محمد هذا من منفاه في
بغداد الى سامراء وقلدوه الخلافة لما عرف من تقواه ، اما الناس في هذه الغمرة من الفوضى
فكانوا مأخوذين بما يجرى وقد قال شاعر في مطلع عهد المهتدى .

اصبح الترك مالكي الأمر والعالم مابين سامع و مطيع

أما المهتدي فما كان له سوى الدعاء و البكاء ، قال الطبرى : " رفع المهتدى
يديه الى السماء وقال اللهم اني أبرأ اليك من فعل (موسى بن بغا) و اخلاله بالثغر واباحته
العدو ... اللهم تول كيد من كايد المسلمين ... اللهم اني شاخص بنيتي واختيارى
الى حيث نكب المسلمون ... اللهم فآجرني بنيتي اذ عدمت صالح الاعوان ثم انحدرت دموعه
يبكي .... " .

على ان المهتدي ان عدم القوة فانه لم يعدم البراعة و الدهاء لمحاربة نفوذ الاتـــراك :

1 ـ كان متدينا فاراد بذلك التقرب من العامة و رجال الدين وجمعهم حوله فبنى قبــة المظالم وجلس فيها للعام و الخاص وأمر ـ كما يقول المسعودي ـ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحرم الشراب و اخراج القيان و المغنيين من سامراء ونفاهم الى بغداد و ابطل الملاهي وقرب العلماء ورفع منازل الفقهاء ... وكان يصرح انه يريـد ان يكون من بني العباس بمنزلة عمر الثاني من الامويين و انه ليستحي ان يكون في بني امية عمر ولا يكون للعباسيين مثله . ولا شك انه كان يريد ان يساعده ذلك على تقويــة مركزه وقد ارضى به العوام و زاد في حماستهم له ولكنهم تفرقوا عنه امام قوة الـترك .

2 ـ حاول الاقتصاد بسبب افلاس الخزينه فقلل نفقات مائدته من (10) آلاف درهــم الى مائة فقط " وامر باخراج آنية الذهب و الفضة من الخزائن فكسرت وضربـــت دنانير ودراهم " .

3 ـ حاول تفرقة الجيش بضرب زعماء الاقوياء ببعضهم البعض : فقدم المغاربة و الفراغنه اولا ثم سعى لتفريق الترك و اجتذب الأبناء منهم (ولكنهم مالبثوا ان تركوه) ثم اغرى بايكباك القائد بقتل موسى بن بغا و مفلح (وكانا في خراسان يحاربان مساور الشارى مقابل القيادة العامة للجيش ولكن بايكباك اطلع موسى على امر المهتدي و اتفقــا ضده فقابل المهتدي ذلك بان جمع من الموالي بسامراء (15) الفا وثبوا علـــى بايكباك وقتله .

و قد استغل الاتراك مصرع قائدهم كحجة للشغب و انما كانت حجة ظاهريــــة و السبب الحقيقي " مساواة الفراغنه لهم في الدار و دخولهم معهم ووضح ان التدبير انما جرى في قتل رؤسائهم حتى يقدم عليهم الفراغنه و المغاربة " الطبرى " وكانت حرب في شوارع سامراء بين الاتراك و الخليفة انتهت بجرحه واسره و خلعه بالرغــم منه ... وقتل بعد ان عذب اربعة ايام وبايع موسى بن بغا والاتراك لاحمد بن المتوكل و لقبوه المعتمد على الله .

ع ـ عصر الموفق (دور اليقظة) : لم يكن الموفق خليفة ولكنه اخو المعتمد و المتولي لامره وكان كل شيئ في الدولة وخلفاء فترته هم ثلاثة : المعتمد و المعتضد و المكتفي

المعتمد : (256-279هـ/870-892م) احمد بن المتوكل (من ام ولد اسمهـا فتيان) .

انتصر الاتراك في فترة السنوات التسع وكان رائدهم دوما مصلحتهم الخاصة وكان آخر نصر لهم البيعة للمعتمد : ولكن عدة عوامل سمحت لهذا الخليفة بالاستقرار طويلا على سرير الخلافة .

1 - ضعفه واهتمامه بذاته دون الدولة حتى (لم يبق له من الخلافة الا اسمهـا) .

2 - ضعف الاتراك الذين فقدوا في فترة الفوضى كبار قوادهم ولم يبق منهم من يرهب سوى موسى بن بغا ولما كان الخليفة صنيعته فلم يبق من مجال للنزاع في البلاط ، هذا الى ان الجند شغلوا في عهد المعتمد بالثورات الكبرى : ثورة الزنوج وثورة الصفارين ومشكلة ابن طولون .

3 - تسلّط الموفق طلحة اخي الخليفة على الحكم . قال صاحب الفخرى : " كانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع : كان هو واخوه الموفق كالشريكين في الخلافة للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بامرة المؤمنين ولاخيه طلحة الأمر والنهي وقود العساكر ... وإذا كان النضال مع الاتراك قد حذف مؤقتا من مشاكل الدولة لاخلاص موسى بن بغا وقوة الموفق فان النضال الاخوي بين (صاحبي الخلافة) كان قائما في السر : فقد قسم المعتمد الدولة بين ابنه واخيه : فخصّ ابنه جعفر (المفوض الى الله) بالقسم الغربي من المملكة حتى طريق خراسان وضم اليه موسى بن بغاه واعطى لاخيه طلحة الموفق البلاد الشرقية (حيث كان الصفارون) والسواد (حيث يثور الزنج) وجعل المعتمد ولاية عهده لابنه اولا ثم لاخيه سنة 261 . ولكن الموفق غضب لهذه القسمة وانتظر الى ان ينتهي امر الثورات لينقضها وعرف المعتمد منه ذلك فما كاد امر الزنج يتجه للاضمحلال سنة 269 بعد ان كان هدأ امر الصفّارين سنة 265 حتى خرج المعتمد بحيلة التصيد من سامراء يريد الالتجاء لواليه على مصر (والتغلب على الشام ايضا) احمد بن طولون ولكن عامل الموصل اسحق بن كنداج - وكان من انصار اخيه - اقنعه بالعودة بعد ان أطبق بالقيود على من معه من القواد وحمله الى سامراء فلم يدخل بيت الخلافة ولكن حجر عليه في دار ووكل به خمسمائة رجل يمنعون النّاس من الدخول عليه ولم يعد له حل ولا ربط . يقول السيوطي : " وهو اول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به " طلب مرة ثلاثمائة دينار فلم يجدهـا .

وشهدت دمشق مؤامرة لانقاذ المعتمد : اذ جمع ابن طولون مجلسا من القضاة والفقهاء والاشراف من اهل الشام والثغور ومصر شهد على كتاب فيه خلع الموفق من ولاية العهد لخلافه مع الخليفة وحصره ايام. على ان المؤامرة لم تثمر فقد توفي ابن طولون بعد اشهر ولم ينتج عنها سوى عداء الموفق للطولوني الابن : خمارويه .

وقد نقل المعتمد عاصمته الى بغداد سنة 275 او نقل بالاصح اليها ونستطيع ان نعتبر هذه النقطة رمزا لخلاص الدولة من الكابوس التركي على انه استمر امر الخلافة في يدي الموفق بعد ذلك يديره بما عرف به من ثقافة في الادب والنسب والفقه ومن سياسة عادلة للملك ومن مهارة حربية حتى توفي بالنقرس سنة 378. ولحق به اخوه المعتمد فجأه بعد سنة حتى أرجف الناس انه سم ، ذلك ان القواد اجتمعوا بعد وفاة الموفق فبايعوا ابنه ابا العباس بولاية العهد الثانية بعد ابن عمه المفوض الى الله ولكن امر المعتمد ضعف لدرجة اشهد بها على نفسه خلع ابنه والبيعة لابن اخيه ثم مالبث ان توفي .

<u>المعتضد</u> : (279-289هـ/892-902م) ابو العباس احمد بن الموفق طلحة .

نشأ في حجر ابيه الموفق وتمرس على يديه بالحرب وقد تأثر عهده لحد كبير بمزاياه الشخصية التي كانت كثيرا ماترينا فيه نفحة من العباسيين الاوائل : فقد كان حساسا سريع الانفعال وهذا مايفسر الذى اثر عنه من سرعة التدبير وسرعة الغضب وسرعة العاطفة وشدة العدل والحب للعلويين كما كان نشيطا لحركة ولهذا وصف بالشجاعة مع انه لم يكن موفقا دوما في حروبه وكان يغلب عليه الخلق العسكرى ولهذا كان قاسيا في الحق شديد الحساب للعمال كثير الغيرة على هيبتهم .

على انه من الضرورى ان نلاحظ ان بعث الدولة هذا لم يأت بشكل فجائي ولا كان بجهد المعتضد وحده ولكن كان نتيجة سني النضال الصعبة التي صرف بها المعتز والمهتدى من جهة ونتيجة جهود ذلك الامير العبقرى والحازم (الموفق) الذى اخرجه البيت العباسي ولقب بحق " بالمنصور الثاني " من جهة ثانية . لقد امتحنت الخلافة العباسية بالترك امتحانا قاسيا فتكشفت عن بعض الحيوية وقد اعانها على الخلاص ان الاتراك لم يكونوا مدفوعين في تهديمها بهدف معين سوى الانانية والمصلحة.كما ان امراء الاطراف اخذوا يعتبرونها مصدرهم الروحي فلم يساهموا في هدمها ان لم يعينوها .

اما المعتضد فاستفاد من اعمال سالفيه ليصل بالدولة الى الغاية :

أولا : انقاذ الخزينة من الافلاس المزمن : بوضعها على اساس رصين لاسيما في العراق فاصبحت ضرائب الارض وحسن نظام الري باعادة الترع وحفر الجديد منها واقامة الجسور وأعان المعتضد للزراع بتقديم البذور لأنه ادرك اثر كل ذلك في توفير الضرائب وضمن السواد للطائي مقابل مبلغ يكفي نفقاته اليومية واهتم بتنظيم الضرائب لاسيما في المناطق الذي اخضعها حديثا كالجزيرة و الجبال وحاول الى هذا اصلاح طرق الجباية واهتم بحماية الزراع من عبث الموظفين والجباة وقام باصلاحات مالية هامة هي :

أ ـ تأخير موعد جباية الخراج من أبريل الى يونيه ليتفق ذلك وموعد نضج الزرع (وذلك على الرسم الفرسي القديم) وسمي الموعد الجديد بالنوروز المعتضدي .

ب ـ أبطال ديوان المواريث الذي اوجده المعتمد وكان يتناول الناس منه ظلم كثير في مواريثهم ويتقلد الجباية فيه اناس يجرون مجرى عمال الخراج صرفهم المعتضد ورد اعمال المواريث الى ما اوجب الله ورسوله .

جـ ـ أنشأ ديوان الدار للاشراف على الدواوين المختلة التي تنظر في الأمور المالية و تنظيم اعمالها .

وبهذا الشكل كثر وارد الخزينة حتى قيل انه لم يرتفع سواد العراق لاحد بعد عمر بن الخطاب بمثل ما ارتفع له ايام المعتضد وحتى اجتمع له تسعة آلاف دينار من الوفر " بعد النفقات الراتبة والحادثة " و اطلاق الجارى للاولياء في سائر النواحي وجميع المرتزقة بها وبالحضرة " واراد ان يسكبها نقره واحدة متى تمت عشرة آلاف الف و يطرحها على باب العامة ليبلغ الأطراف ان له هذا المال وهو مستغن عنه .

ثانيا : كفي المعتضد مشكلة الجيش و الترك فقد كان قائده (بدر) مخلصا له اخلاصا خلق نوعا من الوئام بين القوة الادارية و العسكرية مما اعاد للخلافة عزها بالرغم من ان بدرا كان نافذ الكلمة في البلاط كله .

ثالثا : عني المعتضد بتوطيد السلام وتجديد الروابط مع انحاء الدولة العباسية : فأخمد الحركات الثائرة بأن ضرب الاعراب والأكراد في شمال العراق ووسطه و قضى على ثورة الخوارج في الجزيرة وانزل بقرامطة العراق ضربات قوية حتى اخمد حركتهم واعلن ولاته على زيادة الهيبة والحكم واقسهم في الوقت نفسه واما الامراء المنفصلون فاتبع

معهم سياسة اللين و المساومة و لم يترك الفرص السانحة لاخضاعهم فاستغل الخصومة القائمة بين آل دلف و كانوا شبه مستقلين في منطقة الجبال فضمهم للدولة وشجع الخصومة بين الصفارين و السامانيين فتخلص بهذا الشكل من الصفارين واقام العلاقات الودية مع السامانيين ومع الطولونيين بمصر ايضا بعد ان استرد منهم الجزيرة ذلك انه اتفق مع خمارويه الطولوني سنة 285 على منحه ولاية مصر والشام وولده ثلاثين سنة من الفرات الى برقة وجعل اليه الصلاة والخراج و القضاء على ان يحمل له من المال عن كل عام مضى مائتي الف دينار وعن كل عام مقبل ثلاثمائة الف دينار . ويظهر ان المعتضد تأثر في عقد الاتفاق بما توافر لديه من الاخبار عن قيام الدولة الفاطمية في المغرب فأحب ان يجعل الطولونيين حجابا حاجزا بينه وبينهم وزاد في تألف خمارويه بان تزوج من ابنته قطر الندى في حفل بقي مثلا للترف وضاهى عرس بوران على المأمون .

وقد توفي المعتضد بعد عشر سنوات من الحكم (ربيع الآخر سنة 289) وورث الخلافة ابنه .

المكتفي بالله : (289-295هـ/902-908م) ابو محمد علي

هو ابن جارية تركية تدعى (جيجك) (زهر) ويمكن ان يعتبر عهده استمرار العهد ابيه سواء في العناية بالخزينة (اذ وفر فوق الذى وفره ابوه اربعة ملايين دينار مع انه مبذر) او في السيطرة على الجيش (اذ قضى على قائد ابيه بدر واعطى امرة الجند لمحمد بن سليمان الكاتب) او في اخماد فتن الثائرين (فقد قضى على ثورات القرامطة في بادية الشام وسورية) او في اعادة النفوذ العباسي للولايات المنفصلة (فاسترد سورية ثم قضى على الطولونيين سنة 294) او في العناية بالبناء و العمران . فأكمل قصر التاج الذى كان بناه ابوه وبنى مسجدا بساحة البلاط. على ان المكتفي لم يرث عن ابيه حزمة و قسوته فوقع تحت تأثير وزرائه و المقربين اليه ولاسيما مولاه (فاتك) كما أن لينه سمح بأن ينشأ بين الكتّاب كتلتان (تنقسمان لاسباب شخصية ولاختلاف في الآراء السياسية) جماعة آل الفرات وجماعة آل الجراح وقد ظهر التضارب جليا بينهما بسبب مشكلة العهد .

فالمكتفي الذى كان عليلا منذ طفولته اظهر في مرضه الاخير انانية و ضعفا غريبين : اذ انه لم يشأ ان ينقل الخلافة الى ابناء عمه (رغم محاولة وزيره ذلك مرتين) مع ان اخاه جعفر (المقتدر فيما بعد) كان طفلا ، وقد جمع القضاة وبين بحضورهم انه يرشح اخاه و لكنه مات دون عهد صريح فترك للوزراء والقادة والكتّاب فرصة استرداد نفوذهم والتحكم من جديد في امر العرش .

3 ـ عصر المقتدر (فترة الانهيـــار) (1) :

يعتبر هذا العصر فترة حاسمة في تاريخ الخلافة العباسية لا لشأن الخليفة فيـــه ولكن لضعفه وللظروف التي ألقي فيها العرش العباسي وللنتائج التي ترتبت على ذلك.

المقتدر : (295ـ320 هـ/908ـ932م) ابو الفضل جعفر بن المعتضد .

هو ابن جارية اغريقية تدعى (شغب) عرفها التاريخ باسم (السيدة) حمل لقب الخلافة وهو طفل لايتجاوز الثالثة عشرة بمؤامرة من كتّاب الدولة : اذ كان آل الجراح يميلون لابن المعتز بينما يرشح آل الفرات المقتدر وكان وزير المكتفي العباس بن الحسن مترددا اثناء مرض الخليفـــة بين الكتلتين حتى اقنعه ابن الفرات بعدم تولية ابن المعتز الذى " عرف الامور وحنكته التجـــارب وعرف دار هذا ونعمة هذا ..... والبيعه للمقتدر لانه كما قال "صبي لايدرى اين هو وعامـــة سروره ان يصرف من المكتب ... فاذا كبر يكون الوزير قد حبّب نفسه اليه بسابقة يده عنـــده . ثم يبين للوزير سوء معاملتهم لابن المعتز وان اقل مايتوقعونه منه اذا استخلف : الاهمـــال ويضيف ابن مسكوية ان ابن الفرات قال للوزير :"لا تسلم هذا الامر لمن يدعك تدبره انـــت ؟ وقـد مال الوزير لهذا الرأي ليلة وفاة المكتفي ولما ابدى بعضهم من خطورة النـــاس لصغـــر سن المقتدر اقنعه ابن الفرات بامكان التخلص من أي تذمر بتوزيع ارزاق صالحة مقدمة للجنـــد وبويع المقتدر ، وانتصر بذلك الرأى المخرب للدولة وبدأ عهد اجمع المؤرخون من ابن الاثير الى ميور على انه " هوى بالدولة الى الحضيض " .

كان المقتدر طفلا أسيئت نشأته بالترف والمفاسد : ضعيف الاراءة شديد السكـــر (حتى صار ذلك من عادات البلاط) كثير الصلاة والصوم ايضا (اذا صح) مبذرا لدرجة الاستهتار حتى بجواهر الخلافة (كخاتم الرشيد الذى اشترى بثلاثمائة الف دينار والدرة اليتيمة التي تـزن ثلاثة مثاقيل وقد قدمها لاحدى حظاياه ...) مهملا باتفاق المؤرخين لايهتم كثيرا لشؤون الدولة (فلم يكتسب اى خبرة بالسياسة) وكان طبيعيا مع طول عهده الذى دام ربع قرن ان تؤثر صفاته هذه كل التأثير في توجيه الدولة العباسية .

---

(1) الف المستشرق بودن كتابا قيما عن العصر باسم " علي بن عيسى وعصره " وهو اهـم الوزراء الذين ظهروا في هذه الفترة وقد لخصه الاستاذ عبد العزيز الدوري في بحث من كتابه الجيد (دراسات في العصور العباسية المتأخرة) .

وقد خلع المقتدر مرتين لسببين مختلفين واعيد . ويمكن ان نلخص ميزات عصره الاساسية في النقاط التالية :

1 - اوقعته تربيته وضعفه وصغر سنة منذ مطلع عهده تحت تأثير نساء البلاط فاستمر خاضعا له طول خلافته : سيطرت عليه امه (شغب ، السيدة) وقهرماناتها (ولاسيما ام موسى) الهاشمية التي اتهمت بالسعي لنقل الخلافة لاحد احفاد المتوكل (وثمل) القهرمانه التي كانت تجلس للمظالم وبعض الجوارى الاخريات وكانت السيدة هي الشخصية الاولى في الدولة وابنها يعاملها بمنتهى الاحترام حتى لم يكن ليرد لها أى طلب في عزل او تولية لأى منصب مهما سما . ولا شك ان تأثيرها (رغم بذلها الجهد) وتأثير حاشيتها كان ضارا فقد كن على جانب محدود من الثقافة وعلى شيئ كثير من قصر النظر وسرعة الغضب لأتفه الامور

2 - أدى به ضعفه واهماله الى تدمير الجهاز الادارى الذى ذهبت به اهواء الكتاب والحاشية فأول مالقيه منهم ان آل الجراح غضبوا لفشل مرشحهم ابن المعتز ولم يكن قد مضى على خلافة المقتدر سوى اشهر حين ائتمروا فقتلوا وزيره وبايعوا صاحبهم باسم المرتضي بالله وحاصروا قصر الخليفة واعلنوه مخلوعا واعتقدوا ان بغداد ستؤيدهم في ذلك . ويظهر ان الخليفة الطفل قبل وأبدى استعداده للتنازل الا ان حرسه وعلى رأسهم الخصي مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال (خال المقتدر) ثبتوه ومشوا الى الثائرين ففاجؤوهم وانتزعوا ابن المعتز فسجنوه حتى قتل .

ومشى الجهاز الادارى بعد هذه الحادثة الاولى الى الضعف والتدهور بخصومة الطبقة البيروقراطية وانقسامها على نفسها : فمع ان عزلهم وتوليتهم كانتا بيد الخليفة الا انهم خطوا على شخصيته الضعيفة حتى حطمتهم اخيرا قوة الجيش . ويكفي مثلا لذلك ان نذكر ان المقتدر استوزر خمسة عشر وزيرا بينهم من وزر مرتين وثلاثا وبينهم من كان سقاء وبائع تمر وكان يتبع كل وزارة من هذه الوزارات نكبة لحاشية الوزير ايضا ومصادرة لاموالهم جميعا وقتل احيانا . ولم يدمر هؤلاء ادارة الدولة بحسدهم وتنافسهم ولكن بجهلهم وبيعهم للوظائف احيانا كثيرة .

3 - ادى تبذيره المفرط الى زعزعة ركن الدولة المالي . فقد انفق كل ماكان جمعه ابوه واخوه من كنوز الدولة في سنين قليلة ويقدر ابن الاثير ماانفقه في عهده بسبعين مليون دينار " تبذيرا وتضييعا في غير وجه " سوى ماانفقه في الوجوه الواجبة وهو لا يزيد في تقدير مسكويه عن بضعة عشر مليونا ، وكان مدة حكمه يشكو قلة المال مع ذلك .

ويجدر ان نلاحظ ان هذا كان من بيت مال الخاصة أي مال الخليفة وهو غير بيت المال او خزينة الدولة التي ضعفت وارداتها جدا بكثرة الثورات وانقطاع الولايات وزيادة النفقات وتدابير بعض الوزراء لتملق الشعب او رجال البلاط وسوء طرق الجباية . ولا شك ان انانية الوزراء عدا علي بن عيسى المصلح لعبت الدور الثاني بعد اسراف الخليفة في ايقاع الأزمة المالية بالدولة وبالتالي في ارباك وضعها السياسي ولا سيما امام الجيش .

4 ـ عاد الجيش الى التدخل في السياسة : وكان اهم العوامل التي عادت به وجود مؤنس الخادم الخصي والأزمة المالية وخصومات الكتاب والاداريين الكبار الذين كثيرا ماجرّوا الجيش لمنازعتهم . فقد كبرت قيمة مؤنس في البلاط منذ قضى على خلافة ابن المعتز فاخذ يتدخل في تعيين الوزراء وعزلهم وكان الجيش كثيرا مايشغب مطالبا برواتب متأخرة او بأرزاق اضافية وكان شغبه يزداد بازدياد ازمة الخزينة ولكن قوة الوزراء ومتانة الجهاز الاداري نسبيا في النصف الاول من خلافة المقتدر قلل من خطر الجيش اذ ذاك .

ولعل اول اصطدام علني بين الجيش والادارة يبدأ منذ وزارة ابن الفرات الثالثة ثم كان الجيش تارة يشغب وتارة ينهب الناس وتارة يستقبل الوزير بالسهام وزادت الحالة سوءا حين ساءت العلاقة بين الخليفة ومؤنس وحين كان بعض الوزراء يتفقون مع الجيش ضد الخليفة لاسباب سياسية فينحرون قوتهم بايديهم ، و هاج الجند مرة بزعامة نازوك و ابي الهيجاء و هاجموا البلاط فاضطر المقتدر للفرار بينما حمل الجنود الى سرير الخلافة اخا له بايعوه و لقبوه القاهر بالله واستمرت خلافته ثلاثة ايام ولما لم يستطيع اعطاء الجند ارزاق سنة اضافية عادوا الى المقتدر فحملوه الى السرير الخلافي من جديد ... وسلموه اخاه فعفا عنه .

ولقد حاول المقتدر ـ ولكن بعد فوات الوقت ـ تفريق عناصر الجيش فلم يفلح اذ كان مؤنس يوالي اوامره للخليفة امرا بعد امر فلا يطيق لها ردا .

انقطعت اطراف الدولة عنها و تغلب المتغلبون على مابأيديهم فلم يبق بيد الخليفة بعد المقتدر بقليل سوى مابين بغداد وواسط .

ويلخص ابن الاثير عهد المقتدر قائلا " انحرفت فيه هيبة الخلفاء وضعف امر الخلافة " وقد مهد ذلك العهد لظهور سحابة سوداء جديدة من تدخل الجيش التركي عادت تغشى كما في فترة السنوات التسع البيت العباسي بادئة بالمقتدر

نفسه : اذ ان الخلاف بينه وبين قائده مؤنس احتدم لدرجة اللجوء للسلاح وبالرغم من ان " السيدة " رجت ابنها الا يخرج للحرب فقد خرج مكرها وذبحه بعض رجال مؤنس وسلبوه حتى ملابسه (26 شوال سنة 320 هـ) وترك في مكانه حتى مر به رجال من الأكارين فستره ببعض الشوك ، وبمقتله نحرت الخلافة العباسية ولم تقم لها قائمة من بعد وانتهى امرها بعد سنوات الى الخضوع لسلطة اجنبية .

القاهر بالله (320-322 هـ/932-934) : هو أبو منصور محمد بن المعتضد وقد حمله الى الخلافة مؤنس الخادم (وكان يود او يعين لها ابا العباس بن المقتدر فثناه الجند عن عزمه) ولعل القوم اتعظوا بحكم المقتدر وخافوا من تدخل الحريم من جديد فاتفق امرهم على البيعة للقاهر لانه كما قال عريب صاحب الصلة : كهل ولا ام له فنرجوا أن تستقيم امورنا معه . غير ان صفات القاهر لم تكن تؤهله لاقامة الدولة من عثرتها فقد كان : فقيرا جدا (فلم يستطع دفع دراهم البيعة للجند على العادة الجارية) شديد الحب للمال (حتى عذب السيدة وأماتها بعد اسابيع في طلبه) كثير الادمان للشراب شديد الحقد والغدر والقسوة .

وبالرغم من انه فتك بمؤنس وبعض القواد الآخرين الا انه لم يستطع ان يقمع مؤامرات فرق الجيش التي طوقت القصر ذات يوم (16 جمادى الاولى 322 هـ) فقبضت على الخليفة وهو ثمل والقته بالسجن . وقد رفض التنازل لابن اخيه ابي العباس فاجبر على ذلك وسملت عيناه حتى سالتا على خديه وهو اول خليفة او امير يسمل في الاسلام ولعل هذه العادة تسربت الى العرب من البيزنطيين .

وقد عاش القاهر بعد ذلك سبعة عشر عاما وكان اولا في دار الخلافة حتى نقلة المستكفي منها وبلغ به العوز أن خرج في يوم جمعه الى جامع المنصور ملتفا بقطن جبته وفي رجله قبقاب من خشب يطلب الصدقة فاعطاه بعض الهاشميين (500) درهم ورده الى داره ولما علم بذلك المستكفي سجنه حتى مات .

الراضي : (322-329 هـ/934-940م) ابو العباس احمد بن المقتدر : جيء به من السجن الى الخلافة . وربما كانت اخلاقه الشخصية رضية من ثقافة واسعة وشعر وحب للبذل والبناء ولكنه لم يستطع ان يرفع شيئا من هيبة الخلافة ولا استطاع ان يقوم بعمل .

كان الراضي كما قال ابن الاثير " ليس له حكم " وقد قال هو عن نفسه مرة " كأنــــي بالناس يقولون أرضي هذا الخليفة ان ... امره عبد تركي حتى يتحكم في المال ويتفـــــرد بالتدبير ؟ ولا يدرون ان هذا الامر افسد قبلي وادخلني فيه قوم بغير شهوتي فسلمت الـى (جند) يتسحبون علي ... فآمر بأمر فلاينفذ ولا يمتثل ويسألني كلب من كلابهم امرا فـــلا املك رده وان رددته غضبوا وتجمعوا . بل سلب لقب امير الامراء من الخليفة حتى الامتيازات بالشارات فشاركه بها .

واهم احداث عهد الراضي :

1 - ماأحدثه في نظام الحكم من أبتكار منصب (امير الامراء) لانقاذ الدولة ولكنه زاد في تقييد امورها بسبب منافسة القواد على حيازته لاسيما وصاحبـــــه يشارك الخليفة في شاراته .

2 - بطلان الوزارة حتى لم يعد للوزير سوى (السواد) واللقب واما الدواوين والعمل فلأمير الامراء .

3 - تقلص سلطة الخليفة من كل مكان حتى لم يعد عمله يشمل سوى قصره .

وتوفي الراضي دون عهد سنة 329 فوليه اخوه :

المتقــي : (329-333 هـ /940-944م) ابو ابراهيم ابن المقتدر : وصل الخلافـــة بعد مؤتمر أمر قائد الجيش (بجكم) بعقده من وزير الراضي سليمان وكـــل من تقلد الوزارة من قبله ومن اصحاب الدواوين والقضاء ووجوه البلد . ويشاورهم الكوفـــي كاتب بجكم في الأمر . وتقلد المتقي الخلافة باتفاقهم . وبالرغم من تقاه وحسن خلقه فانه كان على مايقولون " سيئ الطالع " منذ صغره " ولم يفارقه البؤس " وبالرغم من انه لم يكن يملك من الامر شيئا فانه اصطدم بالجند الاتراك بزعامة توزون فهرب من بغداد الى حماية الامـــراء الحمدانيين في الموصل (سيف الدولة وناصر الدولة) وقد اعاده الاخوان الى عاصمته ولكنهما اضطرا للتخلي عنه لرعاية ممتلكاتهما الخاصة في الجزيرة ولأن توزون اخرجهما من بغـداد .

وقامت مؤامرة اخرى هرب على اثرها المتقي مرة ثانية الى تكريت وانهزم الحمدانيـون امام توزون الذي جاء في طلبه وهربوا به الى نصيبين فهزموا ثم اتى الرقة كالطريد ولما اعيـاه الامر واستنجد عبثا بمختلف الامراء سلم نفسه للقائد توزون بعد المواثيق والأيمان المتتالية وبالرغم من أن توزون استقبله بمظاهر الاحترام الا انه مالبث ان غدر به اذ باع العرش لاحد طالبيه (المستكفي فيما بعد) بستمائة الف دينار وقد سفرت بينهما الجارية الشيرازية (حسن) فقبض

توزون على المتبقي واجبره على الخلع ثم سلمه الى الجارية فتولى سمله غلام سندي لها ...

وظل المتقي مسجونا بعد ذلك خمسة وعشرين سنة حتى مات سنة 357 هـ ولم يكن هذا الذي سمل من اجله وسجن بالملك الذي يستحق المنافسه لاسيما وقد احتل القرامطة غرب العراق واحتل البويهيون جنوبه حتى قرب بغداد .

المستكفي : (333-334 هـ/944-946م) عبد الله بن المكتفي بن المعتضد .

وهو ابن جارية اسمها " املح الناس" ولم تقر عينه بمنصب وليه بالمال وهو بين امرأة جشعة رفعته بدسائسها الى الخلافة وبين الجنود الترك الذين اضحوا سادة بغداد حتى لقد عين توزون بين يدي الخليفة غلاما من قبله يتجسس عليه ...

وقد بلغ من هوان الخليفة ومقامه ان لقب المستكفي (بالمستعطي) وان ذهبت الرسوم وصارت دار الخلافة - كما قال ابن الاثير - طريقا لكل من لم يردها وكان كل من وصل الى المستكفي اجلسه بين يديه .

واذا كان الموت قد خلص المستكفي من توزون فانه قد خلفه ابن شيرزاد فما لبث الخليفة ان بعث يستنجد منه بالبويهيين ، ودخل معز الدولة البويهي بغداد فرحب به الخليفة وقلده امرة الامراء ولقبه ... فلم تسعد الدولة بهذا الوافد الاجنبي الجديد اذ غدا هو السيد الآمر ... وذات يوم والناس وقوف قدم اثنان من خدم الدولة فجذبا المستكفي من يديه عن السرير وجراه بعمامته ونهب حرم الخلافة بينما سيق الخليفة ماشيا امام معز الدولة الى بيته .. وقد رضي المستكفي ان يخلع شريطة ألا يقطع شيئ من اعضائه غير ان المطيع (الخليفة الذي تلاه وهو اخو المتقي) امر ان يسمل انتقاما لاخيه فلم يقدم على ذلك سوى خادم صقلبي كان المستكفي قد ضربه مائتي سوط وحبسه فقال " انا اكحله " وقام بالمهمة سنة 334 . وظل المستكفي بالسجن بعد ذلك حتى مات سنة 338 .

اما بغداد والخلافة فقد اصبحتا في قبضة البويهيين منذ هذه الايام لخص البيروني الوضع الخلافي منذ هذه الفترة والتي مائة سنة بعدها بقوله : " ان الدولة والملك قد انتقلا في آخر ايام المتقي واول ايام المستكفي من آل العباس الى آل بويه والذي بقي في ايدي الدولة العباسية انما هو امر ديني اعتقادي لا ملك دنياوي والقائم من ولد العباس الآن (مطلع القرن الخامس) هو رئيس الاسلام لا ملك .

الوزارة الوزراء :

ا - الوزارة : يمكن القول أن مؤسسة الوزارة توطدت في العصر العباسي الثاني

وأصبحت جزءا اساسيا هاما من جهاز الحكم واضح العمل ثابت الرسوم (التقاليد).

1 ـ وبالرغم من سيطرة الجيش في هذه الفترة فقد غدا الوزير " مقدما على جميع القواد " مع انه ليس اكثر من رئيس للكتاب ومع ان الدولة قامت في الاصل على اساس حربي.

2 ـ تحدد عمل الوزير واتضحت سلطاته فهو رئيس الكتاب (ومعنى الكتابة اذ ذاك الادارة رئاسة الديوان) اذن فهو الرئيس الاداري الاول المشرف على جميع الدواوين ولديه سجلاتها الهامة وقد يحتفظ عنده بصورة من الوثائق الهامة (ومتى عزل نقلت الى دار من يخلفه في الوزارة وبعض الرقاع الهامة السرية يحفظ في سقط خيزران وتختم بخاتم الوزير) واهم من هذا ان الوزير اضحى المسئول عن مالية الدولة فهو الذي ينظم الدخل ويفرض الضرائب ويسقطها ويحصل على الاموال من النواحي (ابن الاثير) وهو الذي يعين العمال ويحاسبهم ويحدد رواتب الموظفين (المرتزقة والكتاب...) كما كان اليه فض كتب الاقطار والاجابة عليها. وبيده الاشراف على ديوان النفقات (او نفقات دار الخلافة). اما الصفة الحربية فقد ندر بين وزراء العصر العباسي الثاني من كانت له (مثل الحسن بن مخلد وزير المعتضد).

3 ـ صار للوزارة رسوم ثابته معروفة (تقاليد، بروتوكولات) فكان الوزير لاينتقى الا من الكتّاب وقد اشير على المقتدر بتعيين احد القضاة وزيرا فقال " لو فعلت ذلك لافتضحت عند ملوك الاسلام والكفر لانني اكون بين امرين اما ان تتصور مملكتي بانها خالية من كاتب يصلح للوزارة فيصغر الامر في نفوسهم او انني عدلت عن الوزراء الى اصحاب الطيالس فانسب الى سوء الاختيار ". وترتيب مراسم التعيين فكان الخليفة يخلع على الوزير عند تعيينه قباء اسود وسيفا بمنطقة وعمامة سوداء (وهي ملابسه الرسمية ايام المواكب والاحتفالات) فيركب الوزير بها من دار الخلافة الى بيته وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ويبعث اليه الخليفة مالا وثيابا وطيبا وطعاما واشربة وثلجا.

وكان الوزير، حتى مطلع القرن الرابع الهجري، يدير الضياع العباسية في السواد كاقطاع له رواتب وزارى (يحصل للوزير منها مائة وسبعون الف دينار في السنة) ثم اجرى له رزق ثابت قدره خمسة آلاف دينار في الشهر ثم صارت بسبعة آلاف دينار فيما بعد كما كان يعطى لكل ولد من اولاده خمسمائة دينار في الشهر (وهو مبلغ يساوى في الجملة مرتب وزير).

وعينت دار للوزير كانت حتى عام (320/932م) هي دار المخرم على شاطئ دجلة (ويبلغ ذرعها 300 الف ذراع مربعة) وقد تحول الوزير منها الى دار احد ابناء الخلفاء لتقطع تلك الدار وتباع ارضها الغالية الثمن وتصرف اثمانها في مال الصلة لبيعة القاهر بالله .

وعلى باب الوزير كان يقف العدد العديد من الحراس وكان في مجلسه غلمان مسلحون يسيرون بين يدي الوجوه من الناس ويخرجون بين يدي الوزير يجرون السيوف .
وكان رسم الوزير الا يذهب الى دار الخلافة الا في ايام الموكب (اي يومي الاثنين والخميس) ويساير الوزير اذا ركب واحد من كتابه الاربعة الذين يتولون الديوان وله في دار الخلافة غرفة مفردة ينتظر فيها اذن الخليفة ومنذ سنة 312 صار يجلس في غرفة الحاجب ليتقرب منه فكان هذا دليلا على تناقص منزلته .

ب - الوزراء : اهم مايلاحظ في سيرتهم في العصر العباسي الثاني :
1 - ان نفوذهم مشى صعودا وهبوطا مع نفوذ الخلفاء فكما تكرر خلع الخلفاء وأهين بعضهم ونكب وقتل وكما ظهر فيهم بعض الاقوياء الذين اعادوا عز الدولة فكذلك تكرر خلع الوزراء وأهين معظمهم ونكب وقتل وظهر فيهم الى هذا اكفاء مصلحون يذكرون ببعض وزراء العصر الاول لكن استبداد الاتراك وظروف الخلافة كانت تأخذ على ايديهم فتمنعهم عن العمل .

على ان اقالة الوزير ومصادرته لم تكن برأي الخليفة الا في عهد المعتضد فقط وكانت برأي اخي الخليفة (الموفق) في عهد المعتضد وفيما عدا ذلك فقد كانت اقالته وتعيينه ومصير وزارته اما بيد القواد الترك او برأي الجند وشغبهم او بسبب دسائس البلاط واهواء نسائه وقهرماناته . ومعظم الوزراء تحطموا بسبب الأزمة المالية المزمنة في خزينة الدولة وعدم استطاعتهم الموافقة مابين حاجات الدولة وأطماع الناهبين الاقوياء فيها وبين الموارد التي تشح باستمرار .

وربما نتبين اضطراب امر الوزراء ، واضطراب الجهاز الاداري كله من ورائهم ، اذا نحن عرفنا انه قد ولي الوزارة في الفترة التي ندرسها (وهي لاتزيد عن سبع وثمانين سنة حوالي ستين وزارة او اكثر (فيما استطعنا تعداده) وزر منهم في عصر المقتدر (14) وزيرا وقامت بعد المقتدر حتى سنة 334 أى خلال اربع عشرة سنة تسع عشرة وزارة

2 - نبغت في العصر الثاني (كما في العصر الاول) اسر مختلفة ايضا تسلم الوزارة عدد من ابنائها وذلك ان طبيعة الحكم الارستقراطية كانت تؤدي الى ان يسلك الابن وظيفة ابيه في الديوان ويرتفع بارتقائه فيما يشبه الاحتكار للمنصب وهكذا كان هناك جيل لاحق لكل طائفة من اصحاب المناصب السابقين فكان وجوه الحضرة هم اولاد الوزراء والكتاب والامراء والاشراف وكان اولاد الوزراء هم الطبقة العليا من ابناء العمال .

ونعد بين هذه الاسر : بني وهب ، وبني الفرات ، وبني خاقان ، وبني مخلد ، وبني الجراح ، وبني الخصيب ، وقد تحولت اسر الكتاب الى مايشبه الاحزاب السياسية فكان لهم رأيهم في الظروف والخليفة والموقف ولكل اسرة انصارها الذين يأتون معها الى العمل متى صارت اليها الوزارة وينكبون بنكبتها ، وقد حاول بعض افراد هذه الاسر لعب دوره السياسي لاسيما في عهد المقتدر وخان بعضهم الخليفة واتفق مع القواد ضده لاسيما في السنوات الاخيرة القلقة .

3 - انحطت مكانة الوزارة في نهاية هذا العصر حتى اشتريت من الخليفة شراء او بالرشوة في بعض الاحيان (كما فعل ابن مقلة ذات مرة والخاقاني وغيرهما) حتى وليها شيخ في الثمانين من العمر كان سقاء وبائع تمر ثم أثرى بضمان الخراج (كحامد بن العباس) وحتى تجرأ في النهاية (في مطلع العصر العباسي الثالث) ، معز الدولة البويهي على ضرب وزيره المهلبي امام الناس مائة وخمسين مقرعة ولكنه لم يعزله من وزارته .

ويرى المستشرق متز أن سنة 334 (946) كانت اهم سنة في تاريخ الوزراء اذ دخل فيها بنو بويه الى بغداد وقام كاتب الامير البويهي الذي غلب على تدبير الامور مقام الوزير ولكن يظهر ان سلطة الوزير العباسي انتهت قبل ذلك بقليل منذ ظهور امرة الامراء . يقول صاحب الفخري " واستبد ابن رائق اميرالامراء بالامور ورد الحكم في جميع الامور الى نظره ولم يبق للوزير سوى الاسم من غير حكم ولا تدبير " . وهكذا نجد ان منصب امرة الامراء لم يسلب الخليفة حكمه فقط ولكن سلب الوزير ايضا معه . اما اشهر وزراء العصر العباسي الثاني فهم :

1 - آل وهب : وهم اسرة عراقية الاصل من قرية من أعمال واسط . كانوا نصارى ثم اسلموا وخدموا في الدواوين في العصر العباسي الاول . واول من نبه ذكره

منهم ابو ايوب سليمان بن وهب وكان كاتبا في بعض دواوين المأمون بين يدي محمد بن يزداد كلفه المأمون ذات ليلة بكتاب فاحسن فصار يعتمد عليه (انظر القصة في الفخرى) ويظهر انه ارتقى في اعمال الواثق فيما بعد ثم اصابه غضبه فحبسه مطالبا اياه بالاموال وافرج عنه يوم مات الواثق . وقد وزر للمهتدي ، وقد كتب عنه صاحب الفخرى من انه " احد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلا وادبا وكتابة في الدرج والدستور واحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم " .

ومن وزراء هذه الاسرة : عبيد الله بن سليمان ويصفه صاحب الفخرى بأنه كان "من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب بارعا في صناعته حاذقا ماهرا لبيبا جليلا " وقد وزر عبد الله للمعتمد وهو آخر من وزر له . فلما توفي الخليفة ظل على الوزارة لابن اخيه المعتضد حتى ادركته الوفاة سنة 288 ويظهر ان شيئا من النقمة ادركت المعتضد عليه في النهاية وكأنه كان عازما على مصادرته ، فحضر القاسم بن عبيد الله واستعان ببدر المعتضدي وكتب خطا بألفي الف دينار فاستوزره المعتضد " وورث الابن عمل ابيه واستمر على وزارة المعتضد ثم على وزارة المكتفي حتى توفي . واتفق ان اجتمعت للقاسم الظروف والمواهب التي تسمح له برفع شأن منصبه وتعظيم امره شخصيا بين الناس ، فقد كانت الخلافة في تلك الفترة في مرحلة يقظة وقوة وكان القاسم رغم ماعرف به من رقة الدين يجمع معه عددا من الصفات ~~المتناقضة~~ تفترته ففيه الى الكرم والذكاء جبروت ودهاء يعده صاحب الفخرى معه " من دهاة العالم ومن افاضل الوزراء " . وقد ولي الوزارة من اولاده اثنان ايضا : الحسين بن القاسم وقد وزر للمعتضد ولم يكن بارعا في صناعته ولا شكرت سيرته في وزارته ولم تطل له المدة عدة اشهر حتى عجز واختلت الاحوال عليه وظهر للمقتدر ذلك منه فقبض عليه وصادره ثم بقي الى ايام الراضي وابعد عن العراق فلما تولى ابن مقلة الوزارة تقدم بقتله وارسل اليه من قطع رأسه وحمل الى دار الخلافة في سفط

محمد بن القاسم وزر للقاهر بتأثير مؤنس قائد الجيش فلم يتمكن من الوزارة ولا طالت ايامه ثم قبض عليه القاهر ونكبه .

2 _ آل خاقان : اسرة تركية اتصلت بالخلفاء العباسيين وخدمتهم ومنها الفتح بن خاقان الذى قتل مع المتوكل . وقد وزر منها في العصر العباسي الثاني :

عبد الله بن يحيى خاقان كان وزيرا للمتوكل حتى مقتله ثم لما عقد الامر للمعتمد اتفقت الآراء على استيزاره فاحضر واستوزر على كره شديد منه وكان خبيرا بأحوال الرعايا والاعمال وضابطا للأموال فبقي على وزارة المعتمد حتى توفي .

وبعد قرابة ثلث قرن استدعى الخليفة المقتدر: ابا علي محمد بن عبيد الله الخاقاني هذا وخلع عليه خلع الوزارة فاقام على ادارة الدولة سنتين كانتا من اسواء العهود . فقد كان محمد عاميا ، وقد اشرك ابنه عبد الله معه في العمل الا ان الابن كان سكيرا ولم تكن له القدرة على الادارة فكان من نتيجة ذلك ان اهمل الاثنان قراءة الرسائل وتركا الاجابة عنها الى الكتاب فتكدست الاشغال وتوقف العمل الاداري . وكان الخاقاني يبيع الوظائف ويكثر من التوليه والعزل لاعن عدم تقدير للمسؤولية ولكن ليقبض الرشاوى . وقد انتهت وزارته من التولية بالسجن بعد ان اخفق في السياسة المالية واضطر للاستدانه من الخزينة الخاصة . وقد وزر من آل خاقان ايضا : ابو القاسم عبد الله بن محمد وكان المقتدر لايميل اليه ويقول : ابوه خرب الدنيا وهو شر من ابيه (ولكنه عين بتأثير (ثمل) القهرمانه ونصر القشوري ومؤنس ولكن عجزه في معالجة الازمة المالية حمل على عزله).

3- آل الفرات : هم اسرة عراقية من اعمال دجيل (في الذي يرويه الصولي) ويصفهم الفخري بأنهم من أجل الناس فضلا وكرما ونبلا ووفاء ومروءة . وقد كونت هذه الاسرة وانصارها منذ عهد المكتفي مايشبه الحزب السياسي وبتأثيرها استخلف المقتدر وكان اقوى خصومها آل الجراح اول من وزر منهم ابوالحسن علي (ابن محمد بن موسى بن الفرات) وقد كان احد الكتاب الاربعة الملازمين للعباس بن الحسن وزير المكتفي وهو الذي اشار عليه بألا يحول الخلافة لابن المعتز ولكن الى المقتدر لانه صبي لايعرف شيئا ولايستطيع شيئا ، فلما قتل العباس في فتنه آل الجراح الكتّاب على المقتدر استدعى ابن الفرات وقلده الوزارة فسرعان مااستطاع تهدئة الأمور . وكان ابو الحسن واسع الثروة بلغ دخله قبل الوزارة مليون دينار وكان في ابن الفرات شهامة رفعت اليه رقعة فيها اسماء المتآمرين مع ابن المعتز فأحرقها دون أن يفضّها ، وزور رجل كتابا على لسانه الى صاحب مصر فلم يشأ نكبته بل احسن اليه ومنح اقاربه واصحابه احسن الوظائف في الدواوين فلما احسن تغير الحال عليه لم يشأ ان يستعين بهم في شراء رضى الخليفة . وقد ولي ابن الفرات الوزارة ثلاث دفعات للمقتدر نفسه وقد عاونه في الحكم ابنه في المرة الثالثة واكسبته الخدمة الطويلة خبرة بشؤون الوزارة وادارة الدولة (فاستطاع ان يسيطر على حياة الدولة الاقتصادية المتشعبة سيطرة كاملة حتى استحق ان يقول فيه علي بن عيسى لما كذب عليه بموت ابن الفرات "اليوم ماتت الكتابة") . على انه لم يكن يتورّع عن مد يده الى خزانه الدولة بل اضاف هو واخوه كثيرا من ضياع الدولة الى املاكهما ووجدت عنده حين صودر ذات مرة اموال من بيت مال الخاصة . كانت وزارة ابن الفرات الاولى في عهد المقتدر بعد فتنه آل جراح ومقتل الوزير العباس بن الحسن. وكان ابن الفرات يخشى نفوذ مؤنس الخادم ولذلك خصص مرتبات لافراد الاسرة المالكة ليقوى نفوذه في البلاط كما الغى الضرائب التي يستثقلها الناس ونهب لنفسه الكثير ولم يفكر كيف تتحمل الخزينة تلك التدابير فأفلست حتى انه لم يجد المال الكافي لشراء مايلزم من الماشية يوم النحر ولما استنجد

بالخزينة الخاصة رفض الخليفة اعانته واصطلحت عليه مع افلاس الخزينة دسائس الخاقاني ابي علي وعداء مؤنس فقبض عليه ونهبت دوره . ولما عاد ابن الفرات ثانية للوزارة انشأ ديوانا خاصا (ديوان المرافق) لاخذ جزء من ثروة الموظفين على اساس ارتشائهم ، ولكنه لم يحسن التدبير فقد تعهد قبل استيزاره بدفع الف دينار للمقتدر وخمسمائة دينار للسيدة والافراد يوميا كما زاد في الرواتب مرة اخرى وكان فوق ذلك مبذرا في نفقاته فقصرت الخزينة عن تنفيذ وعوده ونفقاته ، وشغب الجند ولجأ ابن الفرات الى الخزينة الخاصة مرة اخرى فاستطاعت دسائس عدوه ابن مقلة ان تسقطه . ولما وصل ابن الفرات للمرة الثالثة الى الوزارة خلع الخليفة عليه وعلى ابنه المحسن فتتبع الابن الجماعة المعزولة قبله (وهي حامد بن العباس وعلي بن عيسى) بكل قسوه وعذب عليا وغرمه ونفاه الى واسط ليتجنب خطره في بغداد كما ان والده اتبع سياسة الارهاب مدعيا ان اعتداله مع اعدائه في السابق ادى بهم الى محاولة تدميره وقبض على (حامد) وحصل منه ومن غيره بالللين على مبالغ كبيرة من المال . . . غير ان ابنه المحسن طلب من ابيه تسليمه اليه ليأخذه بالعنف واقترح على الخليفة ان يشترك مع والده في الوزارة فتم له ما اراد . ورغم غضب واحتجاج والده نكل بحامد ودبر مقتله وعذب عددا كبيرا من الكتاب من جماعة آل الجراح واغضى ابوه عن تصرفاته لان الاموال الحاصلة من المصادرات كانت كبيرة وصادر ضياع علي بن عيسى ابن الجراح ونفاه بعد واسط الى مكة غير ان هذه السياسة العنيفة اخفقت لما اثارته من سخط عام وغضب مؤنس الخادم على ابن الفرات فعزل وسجن وعامله الوزير الخاقاني (عبيد الله بن ابي علي) الذى خلفه في الوزارة باللين اولا ثم بالشدة وان عامل ابنه بمنتهى القسوة حتى جعله يوقع على دفع ثلاثة ملايين دينار . . . وقد لاحظ الخاقاني ميل المقتدر الى ابن الفرات فحرض الجيش على المطالبة بقتله وقتل ابنه وكان ذلك . وقد بعث هذا البيت الفراتي باثنين آخرين الى الوزارة بعد ذلك هما : ابو الفضل جعفر بن الفرات ، وزر للمقتدر فلم تكن له سيرة مأثورة كما يقول الفخرى ولا طالت ايامه لأن المقتدر قتل في عهده فاستتر ، وابو الفتح الفضل بن جعفر وقد وزر للراضي باشارة امير الامراء ابن رائق الذى ظن ان الفضل يستطيع جذب الاموال له لانه جمع الى التهور وعلو النفس تجربة واسعة على انه فشل في ارضاء ابن رائق فعزل .

4 — آل الجراح : هي اسرة قديمة من الكتاب برزت كتلة سياسية في خلافة المكتفي وتزعمها محمد ابن داوود بن الجراح الذى كان يرى استخلاف ابن المعتز بعد المكتفي وتنافس في ذلك مع آل الفرات الذين كان هواهم في المقتدر الصغير على ان محمد بن داوود قتل ونكبت كتلته من آل الجراح حين فشل وفشل ابن المعتز معه في اغتصاب العرش من المقتدر بعد استخلافه باربعة اشهر . . . وكان خصمه الحسن بن الفرات يفضل خلاصه . وكان من ابرز شخصيات الاسرة بعد محمد ابن اخيه ابو الحسن علي بن عيسى بن داوود الذى نفي الى واسط ثم سمح له بالمسير الى مكة وهذا الرجل هو اعظم عبقرية سياسية انتجها العصر العباسي الثاني وسيرته هي سيرة عصر

المقتدر كله . تخرج علي في دواوين الخلافة مع اهله بني الجراح وكان شديد التدين والورع والزهد . قال الصولي : (وما اعلم انه وزر لبني العباس وزير يشبه علي بن عيسى في زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه . . . وصدقاته ومبراته كان يصوم نهاره ويقوم ليله ويخرج نصف مايرتفع له في السنة في ابواب البر وسبل الخير (ويبلغ دخله نيفا وثمانين الف دينار كل سنة) على ان هذا كله لم يكن ليحميه امام خصومه ولم يمنعه تقاه ايضا من ان يكذب على الخليفة حين راسله ليقر بما عنده من اموال فكتب انه لايقدر على اكثر من ثلاثة الاف دينار فلما ضيقوا عليه استجاب لدفع ثلاثمائة الف دينار يعجل منها ثلثها في ثلاثين يوما . وكان متمسكا بالوقار ما رؤى قط مبتذ لا وكان قليل المبلاة حتى انه لم يستطع ان يغير طبعه في كلامه مع الخليفة فحفظ عليه على ان هذا لم يمنعه من ان يتذلل ذلة في ايام شدته حتى يقبل حين عزل اول مرة من الوزارة يدى ابن الفرات ويدى ابنه الحسن وعمره آنئذ عشرسنين . وذكروا انه لم يقلد ابناءه الاعمال مدة وزارته (متز) على انه لم يشذ في الواقع عن الطريقة المألوفة في تعيين الاقارب والاصدقاء وان اكتفى بالقديرين منهم واستخدم مع ذلك انصار خصمه ابن الفرات . اما في الكتابة فيظهر انه كان شديد البراعة وقد قال فيه الوزير الخصيبي مرة : (وله مذهب في الترسّل لايلحقه فيه احد ولا ابن الفرات) وقال الصولي ماوزر لبني العباس مثله في كتابته وحسابه قال (الفخرى) انه كان شيخا من شيوخ الكتّاب . واما في ادارة الامور فيكاد ينعقد الاجماع بين المؤرخين القدماء والمحدثين على انه الوزير الاول في عصره ومثال الموظف الدؤوب . كان يشتغل مدة وزارته بجد من الفجر حتى صلاة العشاء ورأى من الضرورى احيانا اشغال الدواوين في الليل وقد قال الفخرى عنه : (كانت ايامه احسن ايام وزير ولقبه الناس بالوزير الصالح) . يبرز اسم علي بن عيسى لأول مرة في مؤامرة آل الجراح على المقتدر وينفى بسبب ذلك الى مكة ثم يرجع الى بغداد فاستوزره المقتدر في اول وزارة له (28 ذى الحجة 304) الى (25 جمادى الاول 306) وقد وصل علي بن عيسى للوزارة والادارة مرتبكة والخزينة فارغة بتفريط سلفه الخاقاني ولاحظ ان اضطراب الوضع المالي هو الذى حطم الوزيرين السابقين فجعل يشتغل باندفاع غريب لتدبير اصلاح عاجل للحالة . وادرك ان سبب الازمة كثرة الصرف (لنفقات الوزيرين قبله والخليفة) وقلة الدخل الناجمة عن كثرة الاضطرابات والثورات الدخلية خلال القرن الثالث . فكان على علي بن عيسى معالجة تلك الاوضاع والسعي لموازنة الدخل والخرج فبدأ بفارس حيث أدت الاضطرابات الى هجرة عدد كبير من الفلاحين فأضيف الى ضرائب الباقين شيء باسم (التكملة) فارهقهم بذلك . وسن ضريبة على الاشجار المثمرة (كانت الغيت منذ زمن المهدى) الغى بعض الضرائب المرهقة (كضرائب الخمور بديار ربيعة والمكس في مكة وضرائب المرور على نهر دجيل (قارون) . وحارب الفساد في الادارة وقرر اصلاحها فاعلن سياسته في منشور اصدره الى العمال بيّن فيه أنه لايصرف عاملا دون محاكمته ولكنه انذر العمال على سوء التصرف او السرقة . . . وحاول تطهير الادارة من عمال السوء . يقول مسكوية : وقلد بعد ذلك الدواوين جماعة وعزل جماعة وفعل مثل ذلك بالعمال . كما حاول وضع

حد المرشوة (المرافق) التي كانت سائدة متفشية والتي كانت تسجل احيانا في حسابات الدولة .
وكتب الى العمال بالنظر في تظلم الشاكين ضد الجباة والموظفين . فكانت النتيجة ان زاد ارتفاع (الانتاج والخراج) وقيل قد رفع الحيف والظلم فشد الناس للازدياد في العمارة (مسكويه) . وبلغ من اهتمامه برخاء الرعية ان يصدر الاوامر باصلاح المساجد والمستشفيات القديمة في انحاء المملكة وبنى اخرى جديدة يقول مسكويه : ثم عمر البيمارستانات وادار الارزق لمن ينظر فيها وازاح علل المرضى والقوام وزاد على مستشفيات بغداد الاربعة خامسا من ماله الخاص وأنشأ ديوان البر للنظر في اموال الوقوف والصدقات وكانت تصرف على الحرمين وفي الجهاد ضد البيزنطيين . وخير تعليق على سياسة علي بن عيسى قوله مسكويه : فساس الدنيا احسن سياسة ورسم للعمال الرسوم الجميلة وانصف الرعية وازال السنن الجائرة ودبر امر الوزارة والدواوين وسائر امور المملكة بكفاية تامة وعفاف وصون وديانة فبانت بركته على الدنيا وعمر البلاد وتوفر الارتفاع واستقامت امور المملكة وعادت هيبة الملك وصلح امر الرعية . ثم حاول علي تقليل النفقات فالتفت الى الرواتب فوجدها عالية جدا فاسقط اكثر مازاده الخاقاني في وزارته وفي دواوين الجند واقطاعاتهم وكانت هذه الزيادة قد لحقت القواد وسائر اصناف الجند ولحقت الخدم والحاشية وجميع الكتاب والمتصرفين وكانت كثيرة فلما اسقطها عاداه الناس وشنّعوا عليه بالضيق والشح وقطع الارزاق . وقد بذل علي كل جهده لتثبيت اسس المالية على اساس متين لحل مشكلة اضطرار الدولة الى جباية قبل موعدها لتخليصها من صعوبة الاستدانة عند الحاجة فانشأ اول مصرف رسمي عرفه الاسلام بالاتفاق مع جهبذين يهوديين على تسليف الدولة ما تحتاجه من اموال لقاء فائض (ربا) معين وسلمها الجباية الاهواز كضمان ، كما انه استعمل اعتماد (كريدى) هذا المصرف للاقتراض من التجار متى دعت الضرورة وقد استمر هذا المصرف في اعماله مدة تزيد على عشر السنين . ومع هذه التدابير والاعمال الاصلاحية الواسعة فقد عزل علي بن عيسى بعد ثلاث سنوات من الجهد : اسقطه عداء الحاشية له بسبب ما أضرّها من تدابيره المالية ودسائس ابن الفرات عليه واخيرا غضبة ام موسى القهرمانه التي قدمت اليه وهو في مجلس هام (المنظر في امر القرامطة وتهديدهم بغداد) قائمة بسيطة تطلبها السيدة فوضع القائمة جانبا فغضبت ولم تقبل عذره وزاد الطين بلة انها جاءت الى داره قبيل العيد بطلبات فاخبرت انه نائم ولا يمكن ازعاجه فلم تغتفر له ذلك واخذت تسعى عليه وكان لابد من اقالته وسجنه . وجاء الوزارة بعده ابن الفرات (في وزارته الثانية) ثم حامد بن العباس وهو سقاء في الاصل وبائع تمر وبلغ الوزارة بماله ولئن مشى من واسط الى بغداد بأبهة عظيمة فانه لم يمض على وصوله فترة وجيزة حتى ظهر جهله بآداب البلاط وبشؤون الدولة فغضب المقتدر ولام حاشيته فاقترحوا عليه تعيين علي بن عيسى مساعدا لحامد فرضي وطلب من علي ان يكون كاتبا او نائبا لحامد (في الظاهر والوزير على الحقيقة كما قال نصر الحاجب) فرضي علي بعد تردد وسرعان ماتركزت السلطة بيده حتى صار لايستشير الوزير في شيئ من امور الدولة . ولم يبق لحامد من الوزارة سوى السواد

والظهور في المواكب وكان اسم الوزارة لحامد وحقيقتها لعلي .(1) وقد كره حامد ذلك الوضع واقدم على انقاذ نفوذه بضمان ضرائب السواد والاهواز وأصفهان بزيادة اربعمائة الف دينار سنويا على الضمان المعد . فعارضه علي وحذره الخليفة مما يكون من جور في ذلك ولكن المقتدر قبل العرض ولما حاول حامد التعويض على خسارته هذه باحتكار الحبوب في العراق أدى ذلك الى ثورة في بغداد من الغلاء ثلاثة ايام وولوة الجند حتى فسخ الضمان . لكن الضائقة المالية التي اوجدها ابن الفرات لم تزل ووقع ثقل تدبيرها على عاتق علي فبدأ بعمل تقدير دقيق للوضع المالي ونظم جريدته المشهورة (قائمة الوارد) سنة 306/918 معتمدا في تقدير الدخل على آخر سنة مالية تامة (اى سنة 304 هـ/916م-917م) بينما احصى النفقات على الجاري . فوجد عجزا يزيد عن مليوني دينار سنويا وكان تقديره لسنة اعتيادية ولكن النفقات للسنين الثلاث الاولى من وزارة حامد لم تكن اعتيادية اذ صرفت مبالغ كبيرة للقضاء على ثورة ابن ابي الساج بينما كلف الدفاع عن مصر ضد الهجوم الفاطمي (307هـ/919-920م) وارد مصر وسوريا السنتين . فاضطر علي للاقتصاد في النفقة وبدأ تخفيف الرواتب التي زادها ابن الفرات. وعزل اخيرا حامد ومعاونه علي بن عيسى بعد خمس سنوات من الوزارة (ربيع الاول 312) وحبسا ونكل بهما ثم قتل حامد على يد الوزير الجديد ابن الفرات (في وزارته الثالثة) وابنه ونفي علي وتعاقب على الوزارة بعد ذلك الخاقاني (ابوالقاسم والخصيبي ابو العباس) ثم عاد علي بن عيسى من جديد .كان تعيين علي بن عيسى هذه المرة باقتراح مؤنس الخادم الذى عقدت بينه وبين علي المودة كان من اثرها ان عين في وزارة الخاقاني عاملا للخراج على مصر و الشام وكان الوضع المالي سيئا جدا فيهما فحاول تنظيم الجباية في كل منها وادت تدابيره في مصر الى بعض التذمر اذ فرض الجزية حتى على الرهبان والقسس فاحتجوا للمقتدر الذى اعفاهم وها هو ذا مؤنس يقدمه للوزارة فيصل اليها والحالة المالية مؤلمة ويحاول تحسين الوضع فاستخدم اولا كتابا اكفاء كل الكفاءة . وكان عليه نفسه ان يقرأ التقارير ليل نهار وان يشغل الدواوين في الليل احيانا .ولتصفية القضايا المالية جعل التقارير عنها تعمل اسبوعيا بدل الشهرية والحسابات تقدم يوميا ثم انقص الرواتب كثيرا والغى الرواتب غير الضرورية ووجد الكتاب يشتغلون ساعات طويلة لقاء اجور قليلة فلم يزد في ارزاقهم حتى صار مكروها يلقى السب والشتم علنا من بعضهم وطلب علي من المقتدر ان يهتم بحراسة الخزينة بعد ان برهن له ان السرقة قامت بدورها في تفريغها حيث اظهر له سبحة جوهر ظن المقتدر انها في الخزينة بينما وجدها في سوق الفسطاط . وبعد شهور من وزارته جابهته مشكلة نفقات الجيش فقد اضطرب الفرسان مدة اسبوع ونهبوا الدور والحوانيت وحتى بعض قصور الخليفة كالثريا ولم يهدأوا الا بعد ان وعدهم مؤنس باجابة طلباتهم فوجد صاحب ديوان الجيش لم يدفع لهم الرواتب عدة شهور فعزله وصرفه واستطاع ان ينفذ وعد مؤنس وحمله هذا الحادث على اعادة النظر في مرتبات الجيش وارزاقه الا انه استقال اخيرا . وكان سبب استعفائه ان الجند طلبوا زيادة في مرداتهم فوافق المقتدر على زيادة دينار واحد لكل جندى فلم يقبل بذلك ، وعين ابن مقلة بعده . وقد اضطربت

1 — وقد قال شاعر بصدد ذلك : هذا سواد بلا وزير وذا وزير بلا سواد

كما قال آخر مخاطبا عليا : أنت الوزير وأنما سخروا بلحية حامد

الامور فعلا بعده . واصاب الخزينة عجز مزمن لاتصلح الاصلاح من بعده فسليمان بن الحسن الذى اعقب ابن مقلة في الوزارة وجد في بيع الضياع السلطانيةمورده الاول لسد النفقات ولكن هذا المورد لم يكف لسد العجز والكلواذاني وجد وضعه في منتهى الحرج فديوان السواد ومعض الموارد رفعت من اشرافه ومنعه مؤنس من تعقب بعض المدينين للدولة والتجأ الى الخزينة الخاصة لاقتراض (70) الف دينار فأغضب المقتدر واضطر للاستقالة . وينهت اسم الوزير المصلح بعد ذلك فلايسمع به الا قليلا اذ ان الراضي كلفه بالوزارة بتأثير الجيش فامتنع واظهر العجز فاستشاره فيمن يوليه فاشار باخيه على ان يساعده بنفسه وهو : عبد الرحمن بن عيسى وقد كان رشحه علي اخوه للوزارة زمن المقتدر الا انها لم تصله الا في زمن الراضي غير انه لم يكن لعبد الرحمن من سيرة تؤثر وما استطاع البيت الجراحي ان يخرج فيه مثيلا لعلي فلم تطل ايامه واختلت الامور عليه اذ ان الازمة المالية كانت وصلت حدا من السوء بعيدا فبينما انحصرت سلطة الخليفة في بغداد وما حولها لم تنقص النفقات الامبراطورية وظهر استحالة موازنة الدخل والخرج ولما اشتدت الأزمة (رجب 324 يونيو 936م) واضطر عبد الرحمن لطلب قرض من الخليفة قدره عشرة آلاف دينار غضب الراضي وامر بسجن الاخوين واغرمهما .

5 - آل الخصيب : اول من وزر منهم احمد بن الخصيب وكان كاتبا للمنتصر بن المتوكل فلما آلت الخلافة للمنتصر استوزره . يقول صاحب الفخرى : " كان احمد مقصرا في صناعته مطعونا عليه في عقله وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه ما اراد " وقد لعب احمد دوره السياسي الهام يوم انتخب المستعين بعد موت المنتصر غير انه لم يتمتع بالوزارة في عهد الخليفة الجديد سوى شهرين . واخرج البيت الخصيبي وزيرا آخر هو ابو العباس احمد ابن عبيد الله بن احمد . ومع كونه صالح الادب وجيد العقل ومليح الخط والبلاغة "ويذكر له العفة والورع عن مال السلطان ومجانبة الخيانة الا انه على مايظهر لم يكن يصلح لتولي الوزارة في الظروف التي احاطت به : فقد كان مهملا للاعمال ، منهمكا في اللهو ، ثملا في اغلب الاوقات فتراكمت الاشغال تراكما بشعا . . . وكان ينتبه مخمورا لافضل فيه للعمل ، واخفق في ادارته اخفاقا ذريعا ولما ضعف مورد المصادرات وزاد شغب الجند سقط وصودرت امواله .

6 - آل مخلد : اولهم الحسن بن مخلد وهو من (دير قنى) وكان كاتبا للموفق فلما احتاج المعتمد الى وزير حين وفاة وزيره الخاقاني قدمه له اخوه الموفق فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق . ويظهر انه كان بارعا في عمله دقيقا ، يصفه الفخرى بانه كان "احد كتاب الدنيا" وكان له دفتر خاص يسجل فيه لنفسه اصول الاموال ومحمولاتها ونواتجها فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق مافيه بحيث لو سئل من الغداة على اى شيء اجاب من خاطره " دون مراجعة دستور" . وقد تسنى لسليمان بن الحسن ان يصل الى الوزارة ايضا اربع مرات اولاها في زمن المقتدر واثنتان في زمن الراضي واستمر لزمن المتقي . وقد كانت وزارته

الاولى باشارة علي بن عيسى الذى عهد اليه بديوان المال .. وقد كان امره ضعيفا زمن الراضي لتغلب اصحاب السيوف على الحكم فاستدعى الخليفة ابن رائق لامرة الامراء .

7 _ آل مقلة : هم بيت متواضع في الاصل اول من برز منه أبو علي محمد بن محمد بن علي ابن مقلة " كان في ابتداء امره _ كما يقول الفخرى _ يخدم في بعض الدواوين في كل شهر بستة دنانير ثم انه تعلق بابي الحسن علي بن الفرات واختص به وكان ابن الفرات كالبحر سماحة وجودا فرفع من قدره .. فمكث بين يديه يعرض رقاعا في مهمات الناس وينتفع بسبب ذلك حتى علت حالته وكثر ماله وتعلم منه الشيء الكثير . وقد ساعده على الارتفاع والتقدم خطه الجميل وهو صاحب الخط المشهور الذى اضحى تضرب بحسنه الامثال وهو اول من استخرج هذا الخط ونقله من الوضع الكوفي الى هذا الوضع وتبعه ابن البواب . ويمكن ان نرى في ابن مقلة مثالا لرجال البلاط والحاشية في اواخر العصر العباسي الثاني فهو شره للمال يجمعه فيرشي من اجله ويرشى . وقد عمل على تحطيم ولي نعمته ابن الفرات حتى استوحش هذا منه وصادره مرة على مائة الف دينار أدّتها عنه زوجته ويعزى الى ابن مقله انه اوقع بين القاهر وجنده . وقد سعى عند بجكم وعند الخليفة الراضي على ابن رائق وكان هذا آنئذ سيد بغداد وامير الامراء ولئن عوقب على ذلك بقطع يده النفيسة ثم بقطع لسانه فيما بعد فانه لم ينته حتى سجن في نهاية الأمر على أسوأ حال . وقد قيض لابنه ، في ايام محنته ، ان يلي الوزارة وهو ابو الحسين علي : وزر للمتقي ولم تطل ايامه اذ خلع المتقي وعزل ابو الحسين معه .

القواد : يمكن ان يعتبر العصر العباسي الثاني عصر القواد والجيش . فان امور الخلافة من تعيين الخلفاء والوزراء الى الولاة والكتاب والعمال كانت في ايديهم ، وتاريخ العصر الثاني هو ، لحد كبير ، تاريخ اعمالهم واضطراباتهم واهوائهم . وهكذا انتهى الخليفة عند ختام العصر لان يصبح مصدر شرعية السلطة لا مصدرا للسلطة نفسها ولم تعد الامبراطورية الاسلامية عباسية ولكنها غدت " مملكة الاسلام " وغدا " عمل الخليفة " قطعة من قطائع تلك المملكة يتسلط عليها ، كما يتسلط على غيرها ، من يملك القوة الكافية . وظهر الى جانب الخليفة رأس آخر للدولة دعي باميرا الامراء وقرن اسمه في الخطبة والسكة باسم الخليفة رمزا لحيازته السلطة الفعلية بجانب سلطة الخليفة الدينية ... واما الوزراء فاصبحوا ظلا لاسلافهم " سوادا " فقط دون حكم وكذلك كتاب الخلافة ودواوينها . ويمكن ان نلاحظ في تاريخ القواد في هذا العصر الملاحظات التالية :

1 _ كان معظمهم من الترك لا كلهم والباقون من اجناس مختلفة اخرى اهمها الديلم الذين غلبوا في ختام العصر .

2 _ كان معظمهم ارقاء مماليك وبعضهم متطوعين احرار وبعضهم عتقاء كما كان بعضهم من الخصيان .

3 - كانت المصالح الخاصة والشخصية هي التي تسيرهم دون ان يكون لهم هدف معين ولعل سبب ذلك انهم لم يكونوا بذوي ثقافة سابقة او حضارة وتاريخ يؤثران فيهم او دين يستطيع ان يناضل الاسلام ، هذا الى انهم حديثو عهد بهذا الدين فهم متحمسون له كل الحماس والى انهم متنافسون فيما بينهم ولم يكن يجمعهم الا طلب المال ولعلهم لهذه الاسباب جميعا ابقوا على الخلفاء العباسيين فلم يستبدلوا بهم غيرهم وكانوا يترضونهم احيانا .

4 - جرى في القيادة ماجرى في الوزارة من توارث المنصب لكن لم ينته ذلك الى تشكيل اسر كبيرة وانما كان افراد الجيل الثاني من القادة المسمون بالأبناء يتوارثون القيادة والنفوذ عن آبائهم واحيانا عن الاخوة : كوصيف وابنه صالح وبغا وابنه موسى وألتامش وابنه موسى وبدر وابنه محمد وطولون وابنه احمد وغريب الخال وابنه هرون . . . الخ .

5 - ظلوا اطيلة العصر العباسي الثاني في نضال مع الخلفاء والجهاز الادارى عامة : فقد عينوا (عدا المتوكل) عشرة خلفاء واشتركوا في تعيين الاثنين الباقين وعزلوا وولوا الجمهرة الكبرى من الكتاب (عدا افراد معدودين) وكان الخليفة يشفع عندهم في بعض من يغضبون عليه فلا يشفع . واكبر منفذ كانوا ينفذون منه للتسلط على الخلفاء هو تحريض الجند على المطالبة اما برواتب متأخرة او بأعطيات اضافية اوأرزاق تسلف مقدما وكانت هذه الارزاق طائلة حسب انها تبلغ سنة 252 ومبلغ مائتي الف دينار في السنة وهو خراج المملكة لسنتين بينما كانت أطراف العالم العباسي تنقطع عن مركز الخلافة والثورات المتتابعة تستنفد مافي الخزائن والأزمة المالية مزمنة دائمة . . . .

6 - ظهر امر القواد ونفوذهم في السنوات العشر الاولى من مطلع العصر وفي السنوات العشرين الاخيرة منه وهدأ شغبهم في اواسطه اذ ظهر في البيت المالك من استطاع ان يضبط الأمر (الموفق) ويعطي الامر من بعده لابنه ثم احفاده وكان المتنفذون في الفترة الاولى من الترك جميعا ومن القواد الحربيين ولكنهم في الفترة الاخيرة كانوا خليط من الأمم وتسرب اليهم الحجاب والخدم فاصبحو قادة ايضا كما برز في النهاية الديلم الذين آلت اليهم بوصول بني بويه الى بغداد .

7 - يلاحظ ان تسلط الترك على الخلافة ودخولهم حتى قلب الجزيرة العربية وغلبتهم على العرب في ملكهم قد انعكس في عقائد العصر الدينية وظهرت (احاديث) وضعت على لسان الرسول لتبرير ذلك وتسجيله ، فكأنما كان الناس يرون الترك بلاء نازلا وقدرا مقدورا لاراد له اما القادة فيمكن ان نعد من بينهم (دون ان ننسى معهم ايتاخ الذى قتله المتوكل) .

أولا - في فترة السنوات التسع: وصيف : غلام المعتصم وقد تولى الحجابة له قيادة قسم

من الجيش ثم اشترك في اختيار المتوكل للخلافة واضحى حاجبا له ثم قرر المتوكل الفتك به وقبض ضياعه واعطاه للفتح بن خاقان فادى ذلك لائتمار وصيف بالخليفة/ ثم اشترك وصيف في اختيار المستعين ثم اضحى

حاجباً له وغلب عليه وولي له الاهواز وكان معه حين انحدر هارباً الى بغداد ثم رضي عنه المعتز . لكن الاتراك قتلوه سنة 253 في بعض مشاغباتهم بعد ان كان غزا الروم عدة غزوات .
وخلفه ابنه صالح الذي اجتمع اليه انصار ابيه حتى صار في منزلته واهم ماتي اخباره على مايظهر انه أغرم بقبيحة ام الخليفة المعتز (او اغرمت هي به) فوثب بالاتفاق معها على وزير المعتز وعلى الحسن بن مخلد صاحب ديوان الضياع وبعض الكتاب الآخرين فحبسهم واخذ اموالهم وضياعهم واذاقهم الوان العذاب وغلب على الامر حتى لم يقبل فيهم شفاعة الخليفة حتى دخل نفس المعتز ان يجمع عليه الاتراك ولكن صالحا سبقه بالضربة فاثار عليه الجند والتمس المعتز من امه خمسين الف دينار ليسكتهم فانكرت عليه المال وانتهى الأمر بجر المعتز من صدر ايوانه والتجصيص عليه وصيرصالح الخلافة الى المهتدي بينما اختبأت ام المعتز لديه . ثم تزوج منها رغبة في مالها - على مايظهر - اذ تبين ان لديها مايقرب الفي الف دينار ومن الزمرد الذي لم يرد مثله ومن الحب الكبار من الزمرد . . وكيلجة ياقوت لم ير مثله ايضا كما روى ابن كثير . ثم انه هجرها فكانت تدعو عليه لانه هتك سترها وقتل ولدها واخذ مالها و. . . وقد انتهى امر صالح الى القتل . . .

بغا الكبير : مات سنة 248 في مطلع خلافة المستعين فعقد الخليفة لأبنه موسى على اعمال ابيه كلها وولي ديوان البريد . مات وله من المتاع والضياع ماقيمته عشرة آلاف دينار وترك عشر حبال جوهر قيمتها ثلاثة آلاف دينار وغير ذلك .

موسى بن بغا : هو ابن خالة المتوكل وكان له اخوة عديدون وقد ارتفعت منزلته وتولى القيادات المختلفة في زمن ابيه واشترك في قتل المتوكل . وقد كان مقيما بأطراف الشام على حرب اهل حمص حين قامت الفتنه بين المستعين والمعتز فكتب كل منهما اليه يستميله وبعث اليه بألوية يعقدها لمن يختار من اصحابه فركب مسرعا الى سامراء فكان مع المعتز ومن اكبر انصاره حتى بعد موته . . . وحاول المهتدي تحطيمه فكتب سرا الى بايكباك القائد مع موسى يغريه بالقيادة العامة للجيش ويأمره بقتل موسى بن بغا ولكن بايكباك لم يطمئن الى صدق الخليفة فاطلع موسى على الرسالة ويظهر انه اتفق معه على ان يظهر بايكباك الولاء للمهتدي ثم يقتله . . . ورجع بايكباك الى سامراء ولحق به موسى فشعر المهتدي بتآمرهما وجمع من استطاع جمعه من المغاربة والاتراك وقبض على بايكباك فلما شغب اصحابه قتله فلم يبق بين الاتراك من زعيم كبير سوى صالح ابن وصيف مع المهتدي وموسى بن بغا ضده . وقد انتهى صراعهما بمقتل صالح ثم مصرع المهتدي واشترك موسى بن بغا في اختيار المعتمد من بعده وتفرد اذ ذاك بالزعامة والقوة فانتهت الفتن الداخلية سنوات . . وقد كان موسى خارجا لحرب الزنج مع الموفق اخي المعتمد حين حضرته الوفاة بيغداد سنه 264 هـ .

بغا (صغير) الشرابي : من غلمان المعتصم ايضا حارب معه في جبهه الروم وقد دبر بنفسه

قتل المتوكل واختيار المنتصر ثم المستعين من بعده . ثم ولي فلسطين لهذا الاخير وانحدر معه الى بغداد وكان من بين مقدمي قواده وقد رضي عنه المعتز بعد ذلك وكان من مقدمي عهده وصيّر اليه ماكان لوصيف (عند قتله) من وظائف واملاك . وتفرد بغا بالتدبير غير ان الوحشة دبت بين المعتز وبغا بدسائس الحاشية وائتمر كل منهما بالآخر وانكشف للخليفة عزم بغا على الفتك به فهرب هذا الأخير الى اطراف الموصل وهو يقدر — كما يقول اليعقوبي — ان أكثر الاتراك وغيرهم سيلحقونه فلم يلحقه احد فانصرف راجعا في زورق فأخذه اصحاب صالح ابن وصيف وكلموا المعتز بأمره فأمر بضرب عنقه . . . ونهبت داره وتنبي ابنه فارس الى المغرب سنة 254 بينما نصب رأسه في سامراء ثم في بغداد واحرقت جثته .

اوتامش (التامش): كان غلاما للواثق وقد اختص بالمنتصر ومن اجله قتل اوتامش اباه المتوكل ثم اشترك في انتخاب المستعين للخلافة وغلب عليه حتى اضحت السلطة الفعلية في يده واطلق الخليفة يده ويد شاهك الخادم (وهما ام المستعين) في بيوت المال . وقد تآمر عليه الجند فقتلوه وقتلوا كاتبه شجاع بن القاسم سنة 249 .

ابو محمد باغــر : احد قتلة المتوكل ايضا وقد اضحى صاحب الامر الاول في عهد المستعين عقب مقتل اوتامش وقد اتسع اقطاعه — وكان شجاعا يتوقاه بغا (الشرابي) وغيره ويخافون شره وقد اتفقوا مع الخليفة على قتله . . فقتل سنة 251 ولما شغب اصحابه فر المستعين وصاحباه في حراقة الى بغداد . . .

بايكباك : غلب هذا القائد على امور المعتز والمهتدى من بعده وقد صار اليه بعض المناصب بمصر زمن المعتز (فقام بإعطائها لاحمد بن طولون) فاستمر بايكباك الى عهد المهتدى الذى قتله فشغب اصحابه وحاربوا الخليفة حتى قتلوه .

احمد بن طولون : طولون الأب مملوك تركي ممن اهداهم نوح بن اسد الساماني عامل بخارى الى المامون وقد مات سنة 240 ويقال ان احمد كان ابنه بالتبنّي وقد انشأه على التقشف والعفاف واول ما ظهر امره حين اقتاد المستعين بعد خلعه الى واسط ورفض ان يقتله . ثم ولي نيابة الديار المصرية للمعتز سنة 254 وبدأ بها الدولة الطولونية منذ ذلك الحين .

ثانيا — في عصر الموفق : لايبرز في هذه الفترة اسم كبير بين القواد سوى اسم الموفق اخي الخليفة المعتمد فقد شغل القواد بالحروب عن التبث السياسي وأبرز الاسماء اولئك الذين حاربوا صاحب الزنج على السواد : مثل محمد المولد ومفلح الخاقاني ومسرور البلخي وسعيد الحاجب واسحق بن كنداج صاحب الموصل والجزيرة المعتمد واخيه واخيرا بدر (ويعرف بالكبير وبالحاجي والمعتضدى) وهو مولى المعتضد وقد ولي له شرطة بغداد ثم كان على نيابة فارس واتفق ان توفي المعتضد وهو هناك وحول وزيره القاسم الخاقاني الخلافة الى المكتفي . وقد دبر الخاقاني مقتل بدر بينما كان في طريقه الى بغداد .

ثالثا — في عصر المقتدر : ان نفوذ القواد برز بالتدريج في هذا العصر نتيجة ضعف الخليفة المقتدر وخرق الوزراء والكتاب وسرعان ماتحول الى نضال بين السلطة الادارية والجيش . واذا اسم نازوك الحاجب او هرون بن غريب الخال (ابن خال الخليفة) او ابي الهيجاء او محمد

ابن ياقوت الحاجب او مؤنس الخازن في زمن المقتدر فانما كانت اسماء ثانوية بجانب اسم مؤنس الخادم الخصي الذي شغلت اخباره مع الخليفة النصف الثاني من عهد المقتدر وكان مركز الدائرة فيها .

مؤنس : بدأ ظهوره منذ الايام الاولى للمقتدر اذ استطاع ان يثبته في فتنه آل الجراح لتنصيب ابن المعتز واستطاع ان يفاجئ الثائرين ويمزق شملهم ويقتل الذين بايعوا بالخلافة واضحى مؤنس بعد ذلك صاحب الكلمة الاولى في البلاط يتدخل (ومعه نصر الحاجب وشمل القهرمانه) في تعيين الوزراء وعزلهم وكان الجيش كثيرا مايشغب مطالبا برواتب متأخره او اضافية ولكن متانه الادارة نسبيا ووجود وزراء اقوياء كابن الفرات في النصف الاول من خلافة المقتدر (سنة 295ـ320 هـ) خفف من خطر الجيش اذ ذاك . ولعل اول اصطدام علني بين الجيش وسيده مؤنس وبين الادارة كان في وزارة ابن الفرات الثالثة فقد كان مؤنس يبغض ابن الفرات ويكن له كل سوء . وسعى ابن الفرات في ابعاده عن بغداد واقترح على الخليفة ارساله الى الرقة بحجة ان بقاءه في العاصمة يجعله خطرا على السياسة العامة . وقنع الخليفة واضطر مؤنس للخضوع لرغبته ولكن مؤنسا استدعي الى العاصمة عند سقوط الوزير . وكانت لمؤنس يد في تعيين ابي القاسم الخاقاني ومنذ ذلك الوقت ضاعت هيبة الوزارة لاسيما بعد مقتل ابن الفرات اذ لم تبق شخصية تجابه مؤنسا فصار يتصرف بالذي يشاء حتى تطاول القواد على الخليفة مرارا وهددوه . وكان استيزار علي بن عيسى بعد ذلك نتيجة لالحاح مؤنس ومع هذا فقد شغب الجيش اسبوعا يطالبون بالارزاق ثم شغب حين عاد منتصرا من حرب القرامطة .

وزاد الوضع سوءا حين عاد مؤنس فساءت العلاقة بين الخليفة وقد تآمر مؤنس مع كبار الجند على الخليفة . وأتى المتآمرون بأخ للمقتدر (هو القاهر) فجعلوه خليفة ووضع مؤنس حرسا على القصر ورجع الى داره ولكن نازوك لم يثق بهم فاستبد لهم فشغبوا بعد ايام ثلاثة يطالبون ارزاق سنة اضافية ولم يكن لدى القاهر مايعطيهم فارسل نازوك لتهدئتهم ولكنه كان ثملا فخاف وهرب وادركه الجند فقتلوه . . . واختفى القاهر وضج الناس طالبين من مؤنس ارجاع المقتدر فأعاده مؤنس . . وباع الخليفة املاكه واثاث بيته ليفي بمطالب الجيش لاسيما الفرقة التي عادت للعرش . وانتظر مؤنس بعد ان ارجع المقتدر للخلافة ان يستشيره الخليفة في كل امر فلما لم يفعل ساءت العلاقة بينهما فكان مؤنس يراقبه بينما كان المقتدر يبحث عن حليف مأمون جديد فوجد ضالته في ياقوت حاجبه الجديد (وقد كان واليا على فارس) وفي ابنه محمد فغدا النزاع بين مؤنس والمقتدر امرا لا مفر منه . . . ويظهر ان مؤنس اراد زحزحه ياقوت وابنه من الحجابة والشرطة فحرض الجند على الهيجاء (صفر سنة 329 هـ ـ مارس 931 م) فقاموا بهجوم منظم على القصر يطالبون بطردهما ثم اسفر مؤنس عن العداء فاحتج للخليفة طالبا بعد شهرين صرفهما فرفض الخليفة واخبر مؤنسا ان باستطاعته ترك بغداد ان لم يرقه الوضع (مسكويه) فغضب

مؤنس وخرج الى الشماسية وخابت محاولة المقتدر للتفاهم معه حتى اخرج له ياقوت ومحمد ابن ياقوت وعندئذ رجع مؤنس واستولى على الامر واسند الحجابة لابن رائق . ولكن الخليفة عاد يناضل مؤنسا فصرف وزيره سليمان ليستوزر الحسين بن القاسم فألح مؤنس في تعيين عبيد الله الكلواذاني فعين . . . ولكن الأزمة المالية وهجمات القرامطة على الكوفة جعلت الحالة المعاشية صعبة وزاد وضع هذا الأخير تأزما بهجوم الجيش على داره فاستقال (رمضان 319) ووافق مؤنس حين ذاك على استيزار الحسين بن القاسم وقبل للخليفة ببعض الطلبات الاخرى ولعله كان يشعر ان زمام الجيش نفسه قد أفلت منه وأنه لا وزن له لولا جماعته الذين تحت لوائه وحسن سياسته . . . ولهذا تراجع أمام حزب الخليفة الذى كان يقوى ويحاول ضرب الجيش بعضه ببعض . وشكا مؤنس للخليفة تلك الدسائس ورجاه عزل الوزير ونفيه الى عمان فرفض طلبه فانتقل مؤنس الى ظاهر بغداد ولكن الوزير كان اكتسب تأييد الرجالة بدفع رواتبهم فحاول عقد صلح معه ولكن رسول مؤنس أهين فمشى بمن معه الى الشمال (محرم 320 يماير - فبراير 931) وكان ذلك نصرا سياسيا للخليفة ووزيره الذى شرّف بلقب عميد الدولة ونقش اسمه مع اسم الخليفه على النقود . وظهر موقف مؤنس ضعيفا عند تركه بغداد ولكن الصدف وبراعته في القيادة وحنكته قوت مركزه فقد سافر شمالا ولكنه كان يعرف ان العمال في طريقه قد القيت اليهم الاوامر بالقبض عليه ان امكن كما تخلى الكثيرون من اتباعه عنه فاراد الالتجاء للحمدانيين في الموصل لصداقته معهم ولكنهم عارضوا في مجيئه وطمعوا من وراء ذلك استرجاع ثقة الخليفة فلم يعبأ وسار اليهم وهزم جيشهم ودخل الموصل وبهذا قوى مركزه ورجع اليه من كان قد تركه وانضمت اليه بعض فرق الخليفة من الثغور . ولكن حالة بغداد اذ ذاك كانت في منتهى السوء من اعتداءات مرداويج في ايران على الخلافة وكثرة الغزوات البيزنطية دون من يصدها . . . وادرك الوزير (الفضل بن جعفر اذ ذاك) انقلاب الظروف فمال لاسترضاء مؤنس وتلقى مؤنس رسالته بحذر وتقدم عند حلول الخريف الى بغداد ثم تبين ان تصرف الوزير كان تصرفا شخصيا لان الخليفة حين سمع بقدوم قائده المتمرد بعث اليه بجيش يرده . ولم يقف جيش الخلافة في وجه مؤنس فتراجع امامه الى بغداد وعاد مؤنس فعسكر في ظاهرها وانقسم الرأي في البلاط وتردد المقتدر لانه كان يميل الى تحدّى مؤنس ولكن جيشه لا يعتمد عليه وربما ثار ان لم تدفع له الرواتب . وفكر المقتدر بالمسير الى واسط حين وصول رسول مؤنس يقترح اقامة تسوية بين الطرفين . وعلى الرغم من موافقة الخليفة على الحل الا ان العواطف طغت عليه فأمر بالحرب وكانت النتيجة مقتله (شوال 320 اخر دجنبر 932) ورعب مؤنس لمصرع الخليفة اذ كان يشعر ان سلطانه مرتبطا بسلطان سيده ولكنه الآن بيده الموقف وعليه اقامة خليفة جديد . وقد مال مؤنس اول الامر الى ابي العباس بن المقتدر لتقواه لكن جماعته ثنوه عن عزمه فوقع الاختيار على القاهر واجلسه مؤنس في دست الخلافة . ولم يرتح مؤنس لهذا الاختيار لفقر القاهر وعدم قدرته

الوفاء بشروط مؤنس ومنح الدراهم للجند يوم البيعة ولكنه قبله مرغما . وبقي عليه ان يختار الوزير الملائم فاسند الوزارة لمحمد بن علي بن مقلة . ولكن سرعان ماظهر محمد بن ياقوت من جديد وسرعان ماتسلط على الخليفة حتى اوجس منه الوزير خيفة فوشي الى مؤنس بأن القاهر ومحمد يتآمران ضده فهرب ابن ياقوت وبقي الخليفة في قصره يحيط به الحرس لئلا يتصل بأنصاره وشدد مؤنس الرقابة عليه . غير ان الجيش لم يكن متماسكا كله مع مؤنس واستغل القاهر الموقف للتخلص من ابن مقلة الوزير وصاحبه مؤنس .. ولكن هؤلاء كانوا قد ائتمروا به ليولوا بدلا منه محمد ابن المكتفي . ولكنهم فشلوا في خطة التنفيذ وكشف الامر للقاهر واستطاع القبض على مؤنس بالحيلة اذ ارسل الخليفة يطلب مقابلته مدعيا انه لا يستغني عن مشاورته وسداد آرائه وتردد مؤنس اولا ثم جاء الخليفة فلقي ماكان لقيه اصحابه من الحبس ولما شغب اصحابه بعد اسابيع يطلبون اطلاقه صدر امر القاهر بقتله وقتلهم جميعا (شعبان 321 - غشت 933) ثم قتل ابن المكتفي . وتلت مقتل مؤنس فترة من الاضطراب امتدت ثلاث سنوات حتى ابتكر الخليفة الراضي سنة (324 هـ 936 م) منصب "امرة الامراء" وفي هذه الفترة برز اسم قائدين :

سيما الشرابي : وهو رئيس من رؤساء فرقة الساجية كان اداة في يد محمد بن علي بن مقلة الذي اوغر صدره على الخليفة القاهر واستعمل منجما ليقنعه ان الخليفة يريد القبض عليه فثار بالجند ضده فتم خلعه وسمله وتعيين الخليفة الراضي في مكانه . ثم ان ابن مقلة ضمن لسيما كمية من المال وتعهد بدفع نصف مليون دينار عطايا للبيعة فعمل سيما على تعيينه وزيرا ..

محمد بن طغج الاخشيد : كلمة الاخشيد كما يروى المسعودي لقب ملوك فرغانة وهي بمثابة النجاشي وقيصر وكسرى والاصبهبذ وابو بكر محمد بن طغج هذا من اولاد ملوك فرغانة . اختص جده بالمعتصم وزاق ابنه محمد معه خلو الحياة ومرها وتقلب في خدمة قواد كثيرين . وقد رفع الى منصب الولاية في مصر 323 م فاستقل فيها وامتدت رقعة ارضه من مصر الى الشام الى الحرمين فاليمن وذلك ان محمد بن رائق الخزري عين من قبل الخليفة أميرالامراء بحكم على مصر سنة 328 فاوقف الاخشيد الخطبة للخليفة العباسي وهزم ابن رائق القادم اليه عند العريش ولم يمض هذا من عقد الصلح معه على ان يلي ابن رائق الشام ويدفع له ابن طغج مقابل ولاية مصر (140) الف دينار سنويا ، وربما كان هذا العمل السياسي براعة منه للاحتفاظ ملك فلما مات يحكم ورجع ابن رائق الى العراق استرد الاخشيد الشام دون حرب ودخلت الحجاز في حوزته . وبالرغم من انه لم يتمتع بالراحة في ملكه الواسع لظهور الحمدانيين ومناوأتهم له فانه ظل محتفظا بقوة كبيرة دفعت المتقي لان يعتمد عليه في نصرته ضد توزون كما دفعت المستكفي من بعده لان يعرض عليه امرة الامراء بعد موت توزون .

امرة الامراء : خطرت فكرة هذا المنصب للراضي في سنة (324هـ - 936م) كحل لأزمة

الخلافة لعلها تضع حداً لذلك النزاع القاسي بين الادارة والقوى المسلحة بتوحيدهما في يد واحدة ولئن كانت الفكرة لفته سياسية بارعة الا أن الراضي لم يوفق للشخص الذي يستطيع ان يملأ ذلك المنصب فكان المتطلعون اليه من الكثرة وتعادل القوة بحيث ادى ظهوره في جهاز الحكم العباسي الى ابشع التنافس رأسا وانتهى الامر بزيادة مشاكل الدولة . ولم يكن اللقب جديدا في الناس حين أعطي لابن رائق سنة 324 ولا كان هذا اول من حمله فقد حمله قبله على مايظهر من كلام مسكويه : هرون بن غريب الخال في عهد المقتدر سنة 316 ويذكر ميتز ان مؤنسا الخادم كان يحمل لقب امير الامراء واذا خطب لامير الامراء على المنابر بعد اسم الخليفة فقد خطب قبل ذلك سنة 323 لمحمد بن ياقوت الذي اسندت اليه الحجابة ورئاسة الجيش فدعا له الائمة في طرفي بغداد حتى انكر الراضي ذلك فرجعوا عنه وكذلك الامر في السكة غير ان الامر السابق لسنة 324 كان شيئا عرضيا وغير رسمي ثم اصبح بعد هذا له حدوده وجزءا من نظام الحكم .

محمد بن رائق الخزري رائق غلام للمعتضد وقد ولي ابنه محمد هذا شرطة بغداد زمن المقتدر ثم تكلف والي واسط والبصرة ورجا ان يعين حاجبا في عهد الراضي ثم بذل المال ليعين وزيرا فلم يفلح غير انه لما اضطرب امر الراضي وفشل وزراؤه الواحد بعد الآخر في معالجة الازمة المالية التي استحال تعديلها بسبب انفصال الولايات وكثرة النفقة اضطر الخليفة لقبول اقتراح ابن رائق عليه وهو ان يقوم بتجهيز النفقات العامة ودفع رواتب الجيش ان عهد اليه بالقيادة والادارة العامة . . . وانفذ اليه اللواء والخلع مع بعض الديلم والخدم : وعرفه انه — كما قال مسكويه — جعله امير امراء ورد اليه تدبير اعمال الخراج والضياع واعمال المعادن في جميع النواحي وفوض اليه تدبير المملكة وامر بان يخطب له على جميع المنابر وان يكنّى" بمعنى ان ابن رائق اضحى قائد الجيش الاعلى و المتسلط الاول على جباية الضرائب وادارة الحكومة المركزية ويشارك الخليفة في بعض اشاراته كذكر اسمه في خطبة الجمعة وهكذا اعترف الخليفة بزوال كل سلطة له حتى بالمشاركة في بعض شاراته بينما بطل امر الوزارة منذئذ . غير ان ادارة ابن رائق فشلت لاعماله ومنافسة الامراء والولاة له لاسيما ابو عبد الله البريدي الذي طمع بالامرة حتى انحرف الراضي عنه . . . على ان الراضي لم يكن من القوة بحيث يزيح ابن رائق فلما بلغه أمره انه يتهمه بالانحراف عنه دعاه الى بغداد وخلع عليه مرتين في يوم واحد . واخيرا دعا الخليفة الامير بجكم فحارب ابن رائق وانتصر عليه سنة 326 فعاد ابن رائق في السنة التالية فحاربه من جديد وبينما فر الخليفة الى الموصل كانت بغداد تسقط في فوضى مريعة ليست مصائب الحرب بشيئ أمامها وكثرت المصادرات وفتن الناس بين الحنابلة والشيعة والعيارين . . . الخ وضت بجكم وخشونة ادارته . . . على ان ابن رائق لم يستطع نزع امرة الامراء من بجكم حتى توفي سنة 329 فعاد ابن رائق من الشام الى بغداد فتسلم الامرة ولما

لحق به منافسه ابو عبد الله البريدي اليها ليحاربه فر بالخليفة الى الشمال حيث كان يحكم الحمدانيون في الموصل . وقد استطاع الحمداني ناصر الدولة ان يقتل ابن رائق ويرجع بالخليفة الى بغداد فيتسلم امرة الامراء لنفسه .

بجكم : قائد ديلمي لم يكن يعرف من العربية الا القليل . كانت فيه كل خصال الجند المرتزقة انتقل من خدمة (ماكان) الديلمي الى خدمة مرداويج حتى قتل هذا الاخير فذهب في مئات قليلة من الترك والفرس الى ابن رائق وانضم اليه حوالي (200) من غلمان مرداويج الديلمي. فطلب اليه ابن رائق ان يكاتب كل من بالجبل من الاتراك والديلم بالمصير اليه فصار اليه عدد وافر منهم وعند ذلك استقل بجكم بدوره السياسي الخاص فأزال اسم ابن راىق عن اعلامه وترك الانتساب اليه وحاربه حتى اخرجه من بغداد فخلع عليه الراضي خلع المنادمة وجعله امير الامراء ، ولكن بجكم حمل الى بغداد كثيرا من ضروب الغلظة التي اقترنت بحياته الجندية وحين دخل واسط طالب اهلها بالمال واشتد في تعذيبهم حتى كان يضع على بطن الرجل طستا فيه جمر فذكره بعضهم انه في دار الخلافة وليس في الرى واصبهان . . . وقد ابغضه البغداديون حتى كانوا يحرضون الصبية والعيارين على الهزء به وتلقوا ابن رائق حين عاد الى بغداد بالفرح . وقد استقر بجكم في واسط حيث التف حوله بعض الندماء فكان لايفهم مايقولون واستصفى منهم لمشورته الطبيب سنان بن ثابت الصابي الذى راض مزاجه حتى لان خلقه كما يقول ابن كثير فلما مات الراضي امر بجكم كاتبه (الكوفي) في بغداد ان يجمع الناس لانتخاب الخليفة الجديد المتقي ولم يتدخل في تعيينه وانما جدد له المكتفي امارته. . . . وكان بجكم شجاعا شجاعة نادرة . وقد قتل سنة 329 في معركة مع جماعة من الاكراد شاء ان يسلبهم مامعهم ، وظهرت امواله التي تنيف على الفي الف دينار فاخذها المتقي .

ناصر الدولة ابو محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان : امير بدوي يمثل كل خصال البدو ، كان حمدان جده رأس بني تغلب واستطاع ان يستولي سنة 277 هـ 890 م على قلعة ماردين في الجزيرة العليا بالتحالف مع الخوارج وقد اسره الخليفة اذ ذاك وعفا عنه بعد ان هزم ابنه الخوارج . وفي سنة 292 هـ 905 م عين ابو الهيجا (اخو الحسين) اميرا على الموصل من قبل المقتدر وبقي في حكمها حتى توفي سنة 317 هـ 929 م يساعده في ذلك ابنه الحسن منذ 308 هـ 920 م ثم مالبث الحسن (ناصر الدولة) ان بسط سلطانه على الجزيرة كلها وشمالي سورية فلما اضطر المتقي الى الفرار للموصل سنه 330هـ 941 م مع امير الامراء ابن رائق . . وقد غدر بأبن رائق وهو عنده وانحدر ابو محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان بالخليفة الى بغداد فخلع المتقي عليه ولقبه ناصر الدولة وعلى اخيه علي ابي الحسن ولقبه سيف الدولة الا ان ناصر الدولة الحمداني لم تطل ببغداد اذ ازدادت الاحوال سوءا .
وسن ناصر الدولة على الناس من الضرائب مالم يسمع بمثله وغلت الاسعار غلاء عظيما ومات الناس

جوعا ووقع فيهم الوباء فكانوا يبقون على الطريق اياما لا يدفنون حتى اكلت الكلاب بعضهم وكثر الجراد في هذا الوقت فصاده الناس وانتفع الضعفاء بأكله وصيده وكان نعمة من نعم الله وعز كل شيء من الاطعمة والملبوسة وزاد في ضيق الناس بالحمدانيين ماسمعوه من تضييقهم على الخليفة وانتزاعهم ضياعه وضياع والدته . وهكذا استوحش الخليفة منهم ولم يطل الامر حتى وقع الخلاف بين سيف الدولة وبين القائد توزون فلما عاد هذا منتصرا من قتال البريديين (الذين كانوا استولوا على جنوب العراق) سبقه الحمدانيون بالخروج الى بلدهم هاربين بينما تلقى توزون بالخلع والأبوق والاساور ولقب امير الامراء .

توزون : برز اسم هذا القائد ايام دخول البريديين الى بغداد وهرب ابن رائق والمتقي الى الموصل اذ عظم النهب بالعاصمة فاقام ابو الحسن البريدي (توزون) على الشرطة بشرقي بغداد ونوشتكين على غربها . واخذ بعض القواد فبعث بهم رهائن الى اخيه ابي عبد الله في واسط ... على ان بغداد رفضت البريديين وهتف العامة ضدهم لما قاسوه من نكبات وغلاء وقحط ومصادرة ... وشعر البريدي بسمو امرة يجيكها توزون ضده فهربه من بغداد وقدمها الخليفة فآثره (توزون) على شرطتها ثم لما انتصر على البريديين صارت اليه امرة الامراء .

على ان المتقي مالبث ان اصطدم في كثير من الشؤون مع توزون ثم استمع لدعائس من قال له ان قائده باعه للبريديين بخمسمائة الف دينار ستؤخذ منه فترحل هاربا الى الحمدانيين من جديد ولحقه توزون فالتقى بجيش بني حمدان في شمال سامراء فهزم ناصر الدولة ثم انهزم مرة اخرى عند الموصل فهرب بالخليفة الى نصيبين . واقبل توزون يترضى الخليفة ويرجوه الرجوع الى بغداد فاخبره المتقي انه انما استوحش من اتفاقه مع البريدي فان آثر رضاء الخليفة فعليه ان يصالح الحمداني ليعودا الى بغداد فتم الصلح على ان الخليفة لم يرجع الى بغداد بل انحدر الى الرقة أملا في نصرة عامله على مصر محمد بن طغج الاخشيدي الذي لقيه فيها . وكاتب توزون محمدا وبذل للخليفة كل أمان مؤكدا ذلك بالايمان والعهود .... على ان هذه الايمان والعهود لم تحم الخليفة حين عاد الى بغداد من الخلع والسمل لقاء مال اخذه توزون من المستكفي . أما بغداد فكانت على عهدها من الفوضى والغلاء ... واستقبلت العاصمة وهي على هذه الحال خلافة المستكفي الخليفة الجديد ، ولكن توزون توفي بعد قليل من هذه الخلافة سنة 334 .

ابو جعفر محمد بن يحيى بن شيزراد : هو كاتب كان لهارون بن غريب الخال ثم صار من اصحاب بجكم ثم كان كاتبا للبريدي ثم تركه واختص بتوزون فلما مات مولاه وعزم كما يذكر ابن الاثير على نقل امرة الامراء الى ناصر الدولة بن حمدان لكن الجند أبوا عليه ذلك وحلفوا له يمين الطاعة وأقرهم المستكفي على ذلك . على ان ابن شيزراد اضطر لزيادة ارزاق الجند بغية استرضائهم فصادر لذلك الاموال وفرض الفروض على الكتاب والتجار فهربوا وضاعت هيبة الحكومة مع ان امارته لم تدم اكثر من ثلاثة وعشرين يوما ودخل بغداد بعد ذلك البويهيون .

السياسة الداخلية

يجب ان نحدد قبل الخوض في سياسة العصر العباسي الثاني الداخلية رقعة البلاد التي تناولتها هذه السياسة ، فقد كانت في الغالب لاتشمل غير العراق وما حوله . ويجب الانتباه في تاريخ العصر الثاني الى ذلك الاضطراب الدائم وتلك المنازعات العديدة المتنوعة بين مختلف قوى الدولة حتى ليخيل للباحث ان تاريخ هذا العصر سلسلة اضطرابات داخلية مملة تعطينا فكرة سوداء قاتمة عنه . ولكن يجب ان نذكر ايضا أنه رغم كثرتها وخطرها ليست هي كل الحياة السياسية في ذلك العصر . ونستطيع ضمن هذا التحفظ ان ننظر الى العصر العباسي الثاني على انه عصر نزاع وصراع عنيفين لم تخرج منها الدولة الا والحكم الاجنبي قد نزل بها .

1 ـ نزاع البيت المالك العباسي : وقد مرت بنا صور من هذا النزاع في المتوكل وابنه المنتصر ثم في المنتصر واخوته ثم المعتز واخوته ثم في الموفق واخيه المعتمد ثم في المقتدر وابن المعتز في ثم في المستكفي والمتقي الخ ... ومعظمهم لا قتل او خلع وسمل شهيد المنازعة على كرسي الخلافة .

2 ـ نزاع الوزراء : وامثلة هذا النزاع تكثر منذ زمن عصر المقتدر ومن ابطاله ابن الفرات وعلي بن عيسى وابن مقلة .

3 ـ نزاع القواد : وقد ظهرت منازعتهم بمظهرين :

أ ـ بثورات على الخلافة لاسيما في مطلع العصر ونهايته .

ب ـ بتنازعهم فيما بينهم كنزاع وصيف وبغا من جهة واوتامش وابن الخصيب من جهة اخرى ونزاع صالح بن وصيف وموسى بن بغا الخ ... وقد كان يزيد في شر هذا النزاع انه لم يكن يحركهم سوى الاطماع الشخصية فلما ظهر منصب امرة الامراء تركز هذا النزاع من حوله ولكنه لم يخمد . وقد اضيف الى اضطراب الجهاز الحاكم اضطرابات الرعية المحكومة ولعلنا نستطيع ان نصنف تلك الاضطرابات في مجموعات فمنها حركة المبادئ كثورات العلويين والخوارج ومنها حركات الشعوب والمناطق . كالزنج وثورات ايران .. وما نتج عن ذلك من انفصال الاقاليم تدريجيا عن سلطة الخلافة المركزية .

أولا ـ حركات العلويين : نستطيع ان نعدها اهم حركات هذا العصر فقد تطورت الحركة الشيعية فيه تطورا واسعا : في المبادئ خاصة وفي اساليب العمل وفي طبقات المتشيعين كما توفر لها زعماء عباقرة استطاعوا ان يدعموها بطابعهم فبقيت بعض مبادئهم وافكارهم بين بعض الشيعة الى اليوم واستطاعوا الى ذلك ان يقتطعوا بعض المواضع من الخلافة لاقامة دول فيها طبق تلك المبادئ التي كانت في بعض الاحيان هدامة . ولعله من الضروري لفهم الحركة الشيعية عامة ان نرجع بها الى جذورها الاولى قليلا فقد كان لعلي بن ابى طالب

اولاد ثلاثة : الحسن والحسين ومحمد بن الحنيفة :

آ — فاما فرع محمد بن الحنيفة فيضم فرقتي الكيسانية والهاشمية فرقة ابي هاشم الذى تنازل عن ارثه . ان بعض الباحثين يد - بهما في الحركات الايرانية الثائرة كالبابكية وما اليها وقد انضمت فلولهم الى الحزب الحسيني الاسماعيلي .

ب — واما فرع الحسن فقد تطلع الى الخلافة ونهض لابي العباس السفاح ولاخيه ابي جعفر في ثورة محمد ذى النفس الذكية (بن عبد الله المحض) واخوته ففتك بهم المنصور ثم الهادى ثم فتك بهم الرشيد واستطاع بعضهم (ادريس الهرب) الى المغرب واقامة الدولة الادريسية.

ج — واما الفرع الحسيني فقد خلا له الجو بعد الضربات التي وجهت لبني الحسن لاسيما وقد كان الحسينيون يكرهون ابناء عمهم ويمالئون العباسيين عليهم ولهذا احسن بنو العباس معاملتهم واتفق ان اطلع البيت الحسيني زعيما عبقريا هو جعفر الصادق الذى تتمركز من حوله وحول ابنائه معظم الحركات العلوية الخطرة في العصر العباسي الثاني وما بعده . وبنو الحسين اعتبروا (في فلسفتهم التي ظهرت فيما بعد) ان حق الخلافة فيهم دون بني الحسن لان الحسن كما قالوا امام مستودع والحسين هو الامام المستقر. و بين الزيدية والاثني عشرية الحسين كان ائمة الشيعة المعروفة ومن حولهم قامت فرق الشيعة الكبرى الثلاث وهي الزيدية والاسماعيلية والقرامطة برزت في العصر العباسي الثاني ولم يكن هذا الانقسام في فرق الشيعة الا ليزيد في نشاط الحركة العلوية وتوسعها بسبب مايصيبها من ضربات دامية تثير لها العطف .

1 — الزيدية : (اتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين) وهم اقرب الفرق الى المذهب السني ويقولون بجواز امامة المفضول مع وجود الافضل (كابي بكر مع وجود علي) ومن هؤلاء ظهر في العصر العباسي الثاني افراد تمكنت نتائج حركاتهم من اللعب بالخلافة العباسية قرابة قرن كامل تقريبا . ففي سنة 249 ثار يحيى بن عمر (بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن طالب) في الكوفة بسبب مرقف المتوكل من الشيعة واجتمعت اليه الزيدية ودعا الى الرضا من آل محمد الا ان الحركة اقتصرت عمليا على الكوفة واستطاع محمد بن عبد الله بن طاهر ان يرسل جيشا فيتغلب عليه بسهولة سنة 250 و يقتله ويفرق اصحابه .

وفي السنة التالية أى سنة 250 قاد الحسن بن زيد (ابن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي زين العابدين) الثورة بطبرستان وكان عمال سليمان بن عبد الله (عم محمد بن طاهر امير خراسان) والي طبرستان قد اساؤوا السيرة فيها : « ومما زاد في الوضع سوءا ان الخليفة اقطع محمد بن عبد الله (حاكم بغداد 851-867) من صوافي السلطان قطائع في طبرستان على حدود الديلم وكان بحذائها ارض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها تحطبهم ومراعي مواشيهم وأدى ذلك الى ثورة عامة قادها الحسن بن زيد واستطاع ان يتغلب بها على طبرستان

وجراجان وان يجمع كلمة سكانها (250-270 هـ/864-884م) ثم خلفه اخوه محمد بن زيد الذى ضم اليه الديلم سنة 277 وبقي يحكم حتى فتح السامانيون المنطقة سنة 287 هـ-900م .

الثورة الثالثة للزيدية : وقد عاد الزيدية فظهروا من جديد في طبرستان سنة (301 هـ-913-914م) بزعامة الحسن بن علي الأطروش العلوى (ناصر الحق) الذى نشر الاسلام بنجاح بين الديالمة والطبريين وكانوا وثنيين ومجوسا وجذبهم الى جانبه وبقوا يخلصون له حتى آخر حياته . ولا يمكن ان نفسر انتشار الزيدية في الواقع الا اذا ذكرنا ان بلاد الديلم وطبرستان كانت بجانب روحها القومية وعدائها للعباسيين تنوء وترزح تحت نظام طبقي يعطي الجاه والثروة لجمهرة من الشيوخ او الرؤساء (الكتخداهية) ويضع العبء على الجماهير فاتفق العلويين مع الجماهير ودافعوا عن مصالحهم وبذلك اكسبوا حركتهم صبغة شعبية سببت نجاحهم وقد قضى الاطروش على التنظيم الاقطاعي وعلى تلك العوائل الحاكمة المنفصلة في الديلم . وبقيت طبرستان بيد عائلته حتى سنة 314 / 928م حين فتح مرداويج المنطقة وانشأ الامارة الزيادية . ومن اهم النتائج التي نتجت عن هذه الحركة العلوية في الديلم انها اثارت فيهم روح التوسع وقضت على الاقطاعية وفتحت المجال لظهور عاطفة توسعية مالبثت ان غمرت بغداد واخضعتها لسيوف الديالمة البويهيين .

2 - الامامية : وهذه الفرقة تعتقد بالامامة والشفاعة والغيبة والرجعة والعصمة . وتعرف الشيعة الامامية بالاثني عشر اماما هم علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي زين العابدين فمحمد الباقر (اخو زيد صاحب الزيدية) فجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضا ومحمد الجواد وعلي النقي والحسن العسكري الزكي ومحمد المهدي الحجة . وهذا الاخير طفل اختفى سنة 265 وهو في العاشرة من عمره فسمي بالامام المنتظر وصاحب الزمان والقائم بالامر والحجه والمهدي ... وما زال انصاره ينتظرونه الى اليوم لان الله اخفاه عن اعين الخلق . ويعتقد الامامية ان في ايدي ائمتهم مقادير العالم الذى يحيا بوجودهم ويهلك بدونهم ... وهناك صلوات خاصة بهؤلاء الائمة ... وشأن هذه الفرقة في العصر العباسي الثاني انها كانت تمد طائفة الامامية الاسماعيلية (سنشرحها فيما بعد) بكثير من الدعاة امثال ابن حوشب وابن فضل اليمني وابى عبد الله الشيعي (مؤسس دولة الفاطميين) الذين كانهم ملوا انتظار رجعة الامام فمالوا الى المذهب الاسماعيلي .

الاسماعيلية : وهذه هي الفرقة الرئيسية الكبرى من فرق الامامية وجهود العلويين في الواقع لم تكن تتمثل في حركات الافراد (كما في الزيدية) بقدر تمثلها بحركات الفرق) . والاسماعيلية حركة متشعبة النواحي فهي دينية اجتماعية فلسفية سياسية وقد بدأت بتمازج عدة فرق من الغلاة ولم تتخذ شكلا واحدا ولا اقتصرت على اسم معين بل ظهرت باشكال وصور متعددة

في نظريتها وتنظيماتها . فكانت دائمة الضم لفرق جديدة وآراء جديدة اليها دائمة التجزوء الى شعب متنازعة وقد استطاعت كما قال لويس أن توجه السخط الاجتماعي والديني في البلاد الاسلامية باتخاذها حق العلويين الشرعي في الحكم وسيلة للدعاية السياسية وبمزجها الداخلي لمبادئ من جميع الاديان والفلسفات مع نزعة قوية لتحكيم العقل في مذهبها الديني وباستغلالها التذمر الاجتماعي والاقتصادى وتنظيماتها الدقيقة كجزء اساسي من فاعليتها . اما اسباب ظهور الحركة الاسماعيلية فلاشك ان وضع الخلافة كان مساعدا على انتشار هذه الحركه وهي ثمانية فهناك ضعف العباسيين السياسي وتقلص سلطتهم الى جانب خيبة امل الناس فيهم لان حكمهم لم يحقق السعادة والسلم الموعودين . وهناك تذمر الطوائف من العناصر غير العربية من حكم العرب ومن سيادة دينهم ومحاولة التخلص من الكابوس الأجنبي السياسي الروحي واضيف الى هذا ظروف جديدة هي انتشار الفلسفة اليونانية التي قوت الشك وفتحت بابا لمقاومة الدين وهناك قلة ثقافة الطبقة العاملة وتسرب الخرافات اليهم مما سهل عليهم قبول أي مبدأ . وهناك التبدل الاقتصادى من الجديد الناتج عن انتقال المجتمع عن انتقال المجتمع من طور زراعي الى تجارى والذى أدى الى الاتحاد بين مصالح الاغنياء العرب وغيرهم وبين مصالح الفقراء من موالي وعرب على اساس اقتصادى . وهناك بذور الغلو التي لعبت دورها في الدعوة العباسية ولكن حيويتها الكامنة اكتسبت شكلا واتجاها جديدين عن طريق خبرتها المكتسبة عن طريق صلتها بالمجتمع ومن فشلها المتكرر منذ مجئ العباسيين وقد ادرك رجال الحركة الاسماعيلية هذه الظروف فاستغلوها بشكل عجيب ووجدوا في الكوفة بيئة مناسبة لها . فهي معادية للعباسيين علمية في ميولها وهي مجمع الثقافات والاديان القديمة . ومركز الغلو الذى استغله العباسيون ثم ناؤوه فاتجه ضدهم . وفي بيئة الكوفة الزراعية الصناعية التجارية يتمثل التباين الاقتصادى . ففيها الفلاحون وهم اما اجراء لاملكية لهم او اقنان محرومون من الحرية الشخصية . والسكان مزدحمون وفيها اقلية تمتلك الاراضي الواسعة لان الملكية الواسعة هي السائدة فيها حينئذ . وكان المالكون عربا وغير عرب وكان الفلاحون خليطا من فرس ونبط أي سكان العراق قبل الاسلام وعرب . ولذا كان طبيعيا ان يكون الانقسام فيها على اساس اقتصادى والكوفة مركز تجارى هام لوقوعها على طريق الحج . ولكنها مركزا ترده قوافل البادية ولانها مركز صناعات مهمة كصناعات العطور والنسيج . مما كون فيها طبقة صغيرة مثرية من ارستقراطية التجار واصحاب المعامل اضافة الى ارستقراطية الزراع فكان تذمر الفلاحين والصناع قويا . ثم ان الكوفة مركز ثقافة هامة . وقد انتشرت الفلسفة اليونانية وحركة الزندقة بين المثقفين فوسعت الشكوك بينهم وزعزعت آراءهم الدينية الاسلامية كما ان بيئة الكوفة كانت مركز الجهل والاساطير وتفشي الخرافات . حتى ان بعض العقائد الوثنية القديمة كانت متفشية بين العوام مما جعلهم على استعداد لنبذ عقائدهم

متى تبين لهم ان المصلحة تقتضي ذلك . ومع انه يصعب تحديد مبدا الحركة الاسماعيلية ومع شعورنا بانها متممة للحركات الثورية السابقة كالحركات الخرّمية . وانها نتيجة تضافر تيارات وظروف اجتماعية معقدة الا اننا نلحظ ان اولياتها في حياة جعفر الصادق وفي الكوفة . وتجمع اكثر المصادر على ان ابا الخطاب كان اول منظم لحركة لها صفة باطنية واضحة . وكان ابو الخطاب من اتباع الصادق ثم غلا في ادعاءاته فنسب الى الصادق قوى الّهية وادعى النبوة وانه خليفة الصادق وبشر بمبادئ غريبة كالاباحة والتنوير (او تكرار الحلول) واليه ينسب المبدأ الاسماعيلي الناطق والصامت وقال بالتأويل غلا غوا ان تبرأ الصادق منه ولكنه نجح في تكوين فرقة تسمى الخطابية ومركزها الكوفة وقد قتل سنة 138/755 ويؤكد كثير من المصادر على الصلة بين الخطابيين والاسماعيلية فتبين ان ميمون القداح وأتباعه هم تلاميذ ابي الخطاب ويعتبرونه منشئ المذهب الاسماعيلي . وقد تبرأ جعفر الصادق من ابنه اسماعيل كما تبرأ من ابي الخطاب . ويروى انه فعل ذلك لاستهتار اسماعيل بالشراب ولكن هناك مايشير الى سبب اخطر من ذلك هو وجود الصلة بين اسماعيل والخطابية أي مع الغلاة الثوريين . وتوفي اسماعيل قبل والده بعد ان التفت حوله جماعة من الاتباع ثم انقسم اتباع اسماعيل بعد وفاة الصادق (سنة 148/765) الى طائفتين :

آ - فرقة قالت امامة اسماعيل بن جعفر من بعد ابيه وانكرت موت اسماعيل في حياة ابيه وقالوا كان ذلك على من قبيل التدليس من ابيه على الناس لانه خاف فغيبه عنهم .... وانه هو القائم وهذه الفرقة هي الاسماعيلية الخالصة .

ب - فرقة قالت بامامة محمد بن اسماعيل بعد والده " لايجوز غير ذلك (لان الامامة لاتنتقل من اخ الى اخ " (وذلك لأن الاثني عشرية ترى انتقال الامامة بعد جعفر الى ابنه موسى الكاظم اخي اسماعيل) وهذه تدعى المباركية نسبة الى المبارك مولى اسماعيل واليهم انضم قسم من الخطابية ومن هذه الفرقة تشعب القرامطة وينسب الدور الاكبر في تنظيم الحركة الاسماعيلية وفي وضع مبادئها الى عبد الله بن ميمون القداح وهو ذو شخصية أحاطتها الروايات بضباب من الاضطراب والابهام .

يخبرنا ابن رزام بان عبد الله بن ميمون القداح كان واسع الاطلاع في جميع المذاهب والاديان وانه ادعى معرفة الغيب واستعمل الحمام الزاجل لنقل الاخبار بسرعة كما انه وضع نظام التنشئة على سبع درجات في الدعوة . اما اصله فمن (قورج العباس) في الاهواز ولكنه سكن (عسكر مكرم) فاخرج منها الى ساباط ابي نوح وفيها اكتشف الناس زيف ادعاءاته واخرجه الشيعة والمعتزلة الى البصرة حيث التجأ الى أحد افراد اسرة عقيل بن ابي طالب ودعا لمحمد ابن اسماعيل . وكان يصحبه في طريقة الى البصرة احد رجاله وهو الحسين الاهوازي . ثم طاردته الحكومة في البصرة فهرب مع الأهوازي الى (سليمة) وبقي مختفيا فيها حتى وفاته .

وكان يرسل الدعاة من مخبئه الى العراق لبث دعوته . واقتفى اولاده اثره في توجيه الدعوة بعد وفاته حتى نجح احدهم في انشاء الدولة الفاطمية في شمالي افريقية . ويؤكد مؤرخو العرب وبعض المستشرقين (مثل دي غوية = دوساسي) وجود سبب أو دافع سياسي لدى عبد الله بن ميمون وهو رغبته في القضاء على سلطان العرب وعلى الدين الاسلامي الذى جلب اليهم تلك السلطة وارجاع مجد ايران ثانية . ويسمي ايڤانوف مجموع الروايات عن عبد الله بن القداح "اسطورة القداح " ويرى انها من اصل متأخر . ويرجّح انها من النصف الثاني للقرن الرابع الهجرى وانها من اختراع ابن رزام ثم انتشرت في كل مكان . ثم يفسر نشؤ تلك الاسطورة بان العقل في القرون الوسطى لم يكن يفكر بالتطور او بالعمل المجتمع للاجيال . وانه لم يدرك التدرج المعقد الذى انتج المذهب الاسماعيلي المنظم . وبيّن ان المذهب كان وثيق الصلة في شكله وجوهره بنجاح الحركة السياسية وتوسعها وغاياتها السياسية وهكذا ينفي ايفانوف اثر عبد الله بن ميمون في الحركة الاسماعيلية ويرى ان الروايات نسبت اليه تطور الحركة خلال اجيال ويخمن وفاته بين 160-180 هـ . اما المستشرقون لويس فيرى ان ميمون وابنه عبد الله من أتباع الصادق المحترمين وفي وقت ما اتصل ميمون بالغلاة الذين كان يتزعمهم ابو الخطاب (واسماعيل) فقام بدور يذكر في تكوين مبادئ تلك الفرقة وتنظيم دعوتها . وبعد مقتل ابي الخطاب صار لتعاليمه الرئاسة وقام بتربية محمد بن اسماعيل فنشأه على مذهب الباطن .

اذن فقد كان لعبد الله بن ميمون دور مهم في اوائل الدعوة الاسماعيلية وهذا ما جعل المؤرخين - شأنهم في كثير من الادوار التاريخية - ينسبون اليه تطورات ظهرت بعده . ومما ساعد على ذلك - كما يظهر - ان عبد الله اخرج الدعوة من نطاقها الضيق وبث لها الدعاة في انحاء الشرق الادنى فاعتقد بعضهم انه هو مكونّها . وعلى كل حال فقد بدأ المؤرخون بالكتابة عن الحركة الاسماعيلية حين اخذت تهدد الوضع القائم . ويمكن ادراك خطورتها واتساع رقعتها في القرن نظرة الى فروعها المختلفة فمن القابها الاسماعيلية، الباطنية، القرامطة، والسبعية، والتعليمية، وهذه الاسماء شبه مترادفات ويؤكد كل من فروعها وشعبها مظهرا للحركة العامة فالقرامطة هم الذين روّعوا الخلافة في العراق والبحرين في القرن الرابع والحركة الاسماعيلية في اليمن والحركة الفاطمية في شمال افريقيا والانسكلوبيديون - اخوان الصفا - الذين حاولوا نشر المعارف والفلسفة بشكل مبسط بين الجماهير والحشاشون المزعجون في سوريا وايران في القرنين الخامس والسادس . كلهم فروع للحركة نفسها . ومع انه كانت لهم دعوة في كل زمان ومقالة جديدة بكل لسان أنهم فروع للحركة ذاتها .

بيد أن ذلك لا يمنع من ان تكون لهم مبادئ عامة مشتركة سنكتفي بسرد بعضها مما كان له الاثر الفعال في حركتهم . فأهمها مبدأ الباطن وكان له الدور الرئيسي في نشر الدعوة بين جماعات مختلفة المذاهب والاديان . فيقول الشهرستاني "اشهر القابهم الباطنية " وانما

لزمهم هذا اللقب لحكمهم بان لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا وقال مثل ذلك عنهم الديلمي والبغدادي وابن الجوزي .

وهكذا كانت النصوص المقدسة لاتفقه ولا تعرف تماما بمجرد ادراك معناها المفهوم الظاهر للعامة والجهال ومن تمسك بذلك المعنى الظاهر لاقى صنوف العذاب والعناء ومن ادرك الباطن لقي السعادة في الدارين وعاش عيشة راضية . ولذلك فيجب تأويل النصوص ومعرفة دخليتها لكي تفهم الشرائع فهما صحيحا . ويرى بعض مؤرخي الفرق ان الغرض من التأكيد على الباطن هو ابطال الشرائع والانسلاخ عن للدين بينما رأى آخرون ان غايتهم الاساسية سياسية اجتماعية . وان طريقة التأويل كانت خير وسيلة لاستخدام الكتب المقدسة لجميع الاديان لتحقيق غرضهم في جمع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة المنشودة .

ولكن الباطن لايعرف الا قليل من الخواص فهذا القليل يستقي معلوماته عن الباطن من مصدر مقدس واحد يرجع اليه في جميع العلوم ولا يلتفت الى العقل اصلا . وذلك هو الامام "للشرائع باطن لايعرفه الا الامام " الذى يشاوي في العظمة والاطلاع على حقيقة كل شيء . فالشريعة اذن معرفة الامام والاستنارة بعلمه الباطن . ولذلك اتفق الاسماعيليون على انه لابد في كل عصر من امام معصوم يرجع اليه ليهدى الناس الى سواء السبيل ويجب ان نتذكر بان الامام عليه وحي بل يتلقى علمه عن النبى (ص) لانه خليفته .

ويظهر ان الاسماعيليين اكتفوا اول امرهم بالقول بامامة اسماعيل وابنه محمد ولكن نظرتهم تطورت واصبحت شاملة يتضح فيها اطلاعهم على الاديان المختلفة فقسموا تاريخ البشرية الى حلقات نبوة عددها تسع اذ قالوا ان العقل الكلي يتجسد بين حين وآخر في شخص نبي (الناطق) وكل نبي يخلفه ائمة (الامام = الصامت) اولهم يدعى الاساس وهو الملازم الحميم للناطق ومستودع علمه وكل نبي (وهو يظهر عند كل تجسد جديد) يعلم الناس الحقائق الروحية لهدايتهم بشكل اكمل كما يقتضي تطور الفهم البشرى . وآخر حلقة نبوة هي دورة محمد بن اسماعيل (القائم) وفيها ظهر لاول مرة علم الباطن او حقيقة نواميس الانبياء فمحمد بن اسماعيل هو خاتم النبيين ويرى لويس ان هذا الاختفاء مع وجود فكرة الابوة والنبوة الروحية عند الاسماعيلية كان مدعاة لتكوين سلسلتين من الائمة المستقرين اوقات الخطر كما ان ذكرويه واولاده قاموا بالدور نفسه وجذور الحركة الاسماعيلية كما نرى مغمورة في الغلو . وقد نستطيع ان نتبين اثرين ظاهرين فارسي ويوناني : فالاثر الفارسي قوى فيها حتى ان الاستاذ براون يعيره الاهمية الكبرى . اما المؤرخون المسلمون فيؤكدون اهمية دور الثنوية والمجوس "في الحركة ويعتبرونها عنصرا رئيسيا في نشوئها كالبغدادي والمقريزى وابن النديم . ويحاول مؤرخوا الفرق دوما اظهار المذهب الاسماعيلي كمذهب ثنوى .

بعض الباحثين كالمستشرقين ماسينيون وايفانوف ير فضان هذه التهمة ويحاولان نفيها ولكنه

مما لاشك فيه ان هناك صلة وثيقة بين آراء الاسماعيلية والآراء التي تتمثل في الحركات الدينية في ايران كالزراديشتية والخرمية والبابكية ؛ ففكرة التأويل مانوية في الاصل وفكرة النبوة الدورية معروفة عند الكيسانية والآراء في الحلول والرجعة والتناسخ معروفة لدى الغلاة وفكرة اسناد الامامة الى شخص معروفة عند بعض فرق الغلاة قبل الاسماعيلية وقد ادرك المؤرخون المسلمون ذلك حتى قالوا ان المزدكية والخرمية والبابكية والاسماعيلية حركة واحدة . ويذكر ابن الجوزي ان من اسمائهم الزدكية .

ويؤكد المؤرخون بجانب هذا على تأثرهم بالفلسفة اليونانية فيقول الشهرستاني : "ثم ان الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج " ويقول الديلمي : " ومن وجدوه (الاسماعيلية) فيلسوفا فهو منهم " ويظهر هذا جليا في رسائل اخوان الصفا الذين كانوا كما يظهر اسماعيليين حاولوا قلب المجتمع عن طريق نشر الثقافة والفلسفة بشكل مبسط بين الجمهور . ولعل اروع ما في الحركة الاسماعيلية تنظيمها وأساليب دعايتها العجيبة التي تدل على ادراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الادنى وعلى فهم دقيق لمصادر التذمر عندهم فقد كانوا يعتنون باختيار دعاتهم كل الاعتناء ويزودونهم بارشادات مهمة تتفق وروح البيئة التي يدعون فيها .

يقول براون : " الداعي شخصية فارسية تماما بأوصافها ، واساليبها لم تتغير منذ زمن ابي مسلم حتى اليوم (في البابكية) وكان الداعي يتظاهر عادة بمهنة معروفة ـ تجارة ـ طبابة كحالة . وكانت اولى غاياته ان يأخذ بألباب من حوله ويحملهم على الاعتقاد الراسخ بتقواه وصلاحه . وللوصول الى ذلك كان يكثر من الصلاة والصوم واعداد الصدقات حتى يكوّن لنفسه شهرة بالصلاح ويجمع من حوله حلقة من المعجبين به . وكان يهتم كثيرا بمعرفة عقائد سامعيه فيخاطبهم باللهجة المناسبة . لذا كانت تلك اللهجة تختلف باختلاف مذهب المدعوا ودينه .

ولما كان الناس مختلفين في ذكائهم وفي استعدادهم لقبول المبادئ الاسماعيلية فانهم اتبعوا طريقة التنشيئ بأن جعلوا الدعوة الى درجات التنشيئ سبعا ويظهر كذلك عند قرامطة العراق . فالديلمي يشير الى احد كتب الاسماعيلية الاولى وهو كتاب البلاغات السبعة " ويوضح درجات الدخول في الدعوة فيقول " ولهم البلاغات السبعة وهي : كتاب البلاغ الاول للعامة . كتاب البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلا ، كتاب البلاغ الثالث لمن دخل المذهب سنة ، كتاب البلاغ الرابع لمن دخل المذهب سنتين ، كتاب البلاغ الخامس لمن دخل في المذهب ثلاث سنين . كتاب البلاغ السادس لمن دخل في المذهب اربع سنين . كتاب البلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر " ومن هذا يتبين وجود حدّ زمني بين للانتقال من درجة الى درجة في المذهب . وتعرف هذه الدرجات بالاسماء التالية :-

1 ـ الذوق والتفرس اي معرفة نفسية المدعو ومدى استعداده لقبول الدعوة .

2 - التأنيس . 3 - التشكيك أي جرّ المدعو الى الشك المنتظم في عقائده .
4 - التعليق أي اخذ القسم . 5 - الربط . 6 - التدليس . 7 - التأسيس .
8 - السلخ أو المسخ .

واهم ماترتب على ظهور الاسماعيلية في العصر العباسي ظهور فرقة :

القرامطة : وهي الفرقة التي لعبت دورا هاما وخطرا في هذا العصر ويتفق جمهور المؤرخين على ان حركة القرامطة كانت جزءا من الدعوة الاسماعيلية ولدينا روايتان عن مبدا الدعوة في العراق ومايمكن استخلاصه من هاتين الروايتين هو ان احمد بن عبد الله القداح ارسل داعية الى منطقة الكوفة فنجح في بث الدعوة فيها . وكان اهم من استجاب له حمدان الملقب (بقرمط) فعهد اليه الداعي برئاسة الدعوة عند وفاته او عند عودته الى الشام .

ويفهم من المؤرخين ان اصل تسمية القرامطة مأخوذة من قرمط لقب حمدان ولا يهمنا هنا اختلاف الكتاب في تفسير معنى اللقب .

اما حمدان قرمط فلعله كان نبطيا من قرية في سواد الكوفة " وكان يميل الى الزهد ويظهر انه كان " أكرا بقارا " ويعتقد دوساس بأنه رجل طموح خصب القريحة اظهر حماسا عظيما للدعوة ولا شك انه قام بدور خطير في حركة القرامطة . ويجب ان لا يغرب عن بالنا ان الظروف كانت عونا له وفي صالحه . فقد كان لحركة الزنج وما اورثته من تخريب وفوضى في جنوب العراق اثر حاسم في تسهيل نشر الدعوة في مختلف جهاته . وقد حاول حمدان التحالف مع صاحب الزنج فقابله وفاوضه . ولكنه اخفق في ذلك وبعد القضاء على حركة الزنج لم تفكر الحكومة في اتخاذ تدابير جديدة لقمع حركة القرامطة الناشئة . اتخذ حمدان مقره في كلواذى مقربة من بغداد ليكون على صلة بالدعوة في ايران ورئيسه القداحي (الذي عينه الامام) في عسكر مكرم ، وليرقب مجرى الاحوال في بغداد عن كثب ولعله كان يطمح الى بث الدعوة في العاصمة نفسها ونجح في ذلك لحد ما ويجعل ابن النديم بدء فعاليته سنة 261 هـ وقد نجح حمدان فعلا في نشر دعوته في السواد مستغلا الظروف السيئة التي كانت . فكان يأخذ من كل تابع - بعد ان يقسم يمين الولاء والاخلاص للامام - دينارا = ويفرض عليه يوميا خمسين صلاة ثم عيّن اثني عشر نقيبا لتنظيم الدعوة ونشرها وهذا التنظيم مما يدل على انتشار الحركة ودرجة تأثيرها بأساليب الدعوة العباسية . وقد انضم اليه علاوة عن السواديين بعض العرب الذين اتّخذ بعضهم لبث الدعوة بين كثير من القبائل بنجاح وهذا مازاد في قوة حزب حمدان . وكان اكبر رجال حمدان وساعده الايمن نسيبه عبدان الذي كان اليه الاشراف المباشر على الدعاة كما يظهر . ومن بين الدعاة الآخرين المشهورين ذكرويه الذي ادرك عبدان مزاياه فولاه منطقة واسعة من السواد . كما عين ابا سعيد الجنابي لجنوب ايران . وكان لعبدان عدد كبير من الدعاة يذهب كل منهم مرة في الشهر على الاقل لزيارة منطقته . ويظهر ان عبدان كان فقيه الحركة القرمطية في هذا الطور وألف عدة كتب من كتبها الهامة ، وأظهر حمدان مقدرة فائقة في التنظيم . في صنع بعض التدابير التي تكشف لنا عن

اهمية العامل الاقتصادي والاجتماعي في الحركة وتلقي ضوءا على سر انتشارها وقد اشار النويري الى ذلك بشيء من التفصيل فيذكر سلسلة من الضرائب فرضها حمدان بالتدريج . اذ بدأ بضريبة بسيطة من جميع الاتباع باسم الفطر وقدرها درهم على كل رجل او امرأة او طفل وبعد مدة فرض ضريبة الهجرة وهي دينار واحد على كل بالغ . ولعلها كانت لغرض انشاء دار الهجرة ، وكان الاتباع ملزمين بدفعها بالتضامن فيساعد الغني منهم الفقير . ثم فرض عليهم ضريبة البلغة وقدرها سبعة دنانير يدفعها كل من اراد ان يشارك في " عشاء المحبة " وهي أكلة لذيذة قال لهم حمدان انها طعام اهل الجنة ارسله اليه الامام واخبرهم ان هذه درجة يدركها الانسان في العقيدة وان أهل البلغة هم المقربون . وبعد ذلك طلب من الاتباع خمس اموالهم . وقام باحصاء دقيق لاموال اتباعه وامتعتهم حتى ان المرأة كانت تدفع خمس غزلها . واخيرا فرض عليهم نظام الألفة الذي نراه اول مثل للاشتراكية طبقّ في الاسلام . ثم نصح اتباعه بشراء الاسلحة استعدادا للثورة كما يظهر وقد تمت هذه التدابير سنة 276 هـ وبعد ان تأكد حمدان من سيطرته على اتباعه حللّ لهم ترك الفرائض الدينية وقتل اعدائهم واخبرهم بان الدين معرفة الامام وطاعته فقط . ثم جمع الدعاة وقرروا اختيار محل ليكون " دار هجرة ينحازون اليه ويحتمون فيه " فاختاروا قرية قرب الكوفة تدعى " مهاباد " ونقلوا اليها الاحجار واحاطوها بسور قوى أنشؤا فيها بناية واسعة فلجأ اليها عدد كبير من الرجال والنساء من مختلف المناطق وكان ذلك سنة 277 هـ .

وفي الوقت نفسه سارت الدعوة بنشاط خارج العراق فبدأت في اليمن سنة 266 هـ 879 م على يد ابن حوشب الذي ارسله احمد بن عبد الله من العراق . وفي سنة 270 هـ اصبحت علنية . وفي سنة 293 عرفت بغداد انهم غلبوا على " سائر مدن اليمن " .

وأرسل عبدان ابا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الى جنوب ايران فاظهر مقدرة كبيرة ولاقت تعاليمه الاولى نجاحا كبيرا . فبشر بأن الله غضب على العرب لانهم قتلوا الحسين وانتخب شعب الأكاسرة الذين هم وحدهم ايدوا حقوق الامام وقال بان تعاليم محمد فيها كثير من الخطأ ونجح ابو سعيد في تطبيق مبادئه الاشتراكية واشرف بنفسه على ادارة اموال جماعته ولكن الشرطة اكتشفت فعاليته وصادرت امواله فهرب واختفى ثم دعاه حمدان الى مقابلته في كلواذى وأراد استغلال تعاليمه في منطقة اخرى . فزوده بالدراهم والتعاليم وارسله الى البحرين حيث لاقى نجاحه الاكبر كما سنرى .

وفي هذا الحين شعر قرامطة العراق بقوتهم وبدأوا بحركاتهم العسكرية فثاروا في مناطق متعددة في جنوبي العراق . وفي ذي الحجة سنة 288 هـ أنجز المعتضد غلامة بدر الذي هاجمهم على غرة فقتل منهم .. مقتلة عظيمة .. ثم تركهم خوفا على السواد ان يخرب اذ كانوا فلاحيه وعماله " وفي اوائل سنة 289 هـ ثاروا مرة اخرى في العراق وانتشروا في سواد الكوفة . فدحرهم الخليفة واسر احد رؤسائهم الذي يعرف بابي الفوارس فقتله . وان العامة كانت تتجمهر لتشهد ذلك

حتى فرقتهم الشرطة اخيرا . وفي هذه السنة نسمع اول مرة شيئا عن القرامطة اتبـــاع ذكروية في الشام .

وهنا تعترضنا مشكلة مهمة وهي تخلي حمدان قرمط وعبدان وخروجهما على رئيسهم الاكبـــر ويفسر النويرى ذلك بان حمدان الذى كان على صلة مبدئية بالسلمية لاحظ تعابير غير مألوفـــة في رسائله تدل على تبدل مهم ، فساوره الشك في الامر وارسل عبدان ليتحرى الوضع فعـــرف عبدان ان احمد بن عبد الله قد توفي فخلفه ابنه الحسين ولما اجتمع عبدان بالحسين بن احمد سأله عن الامام المدعو له وعن حجة ذلك الامام فاجاب حسين باستغراب : " ومن هو الامام اذن ؟ فقال عبدان : انه محمد بن اسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذى دعا له احمد بن عبد اللـه ابن ميمون وكان حجته فاستنكر القداحي ذلك وقال : ان الامام كان والده وانه حل محلة الآن . وعندئذ ادرك عبدان حقيقة القداحيين وانهم انما خدعوا الناس وارادوا اجتذابهم نحو صفوفهم بأن اتخذوا اسم محمد بن اسماعيل ذريعة .

ويعتقد أنّ حمدان وعبدون ادركا من هذه الحادثة ان المهدى ليس الا رئيس الدعاة سعيد ابن عبيد الله الذى هرب من سلمية . واذن فالامام المستور ماهو الا أسطورة خدعا بها . فانفصلا عن الدعوة وتلا ذلك اختفاء حمدان القريب وقتل عبدان . وكانت حركات القرامطة بالشام والعراق بين سنة 289 ـ 294 بزعامة ذكرويه . وعلى اثر ذلك من انفصال حمدان خمدت فعاليات القرامطة في العراق ولكنهم أبدوا نشاطا في الشام بزعامة ذكرويه بن مهرويه الديداني . ولمـا اطلع اتباع عبدان بعد مقتله على دخيلة الأمر اضطربوا واخذوا يبحثون عن ذكرويه لقتله فاختفى ثم بيّن النويرى أن ذكرويه عندما ادرك ان عامة اهل السواد الذين هم خارج حدود منطقتـه كانوا على الضد منه فكر في نشر دعوته بين القبائل في بادية الشام ولكن الطبرى ينسب هذا الاتجاه الى حزم المعتضد وتتابع جيوشه لسحق قرامطة العراق مما سد المجال لذكرويه في السواد .

ويقول الطبرى ان ذكرويه اراد استغواء من قرب الكوفة من أعراب أسد وطيئ وتميم وغيرهم مـــن قبائل الاعراب فأرسل اولاده اليهم وادعوا انهم من نسل محمد بن اسماعيل وانهم لاجئـــون اليهم خوفا من السلطان ثم بدؤوا فيهم بالدعاء الى رأى القرامطة فلم يقبل ذلك احد منهـــم اغني من الكلبيين الا الفخذ المعروف ببني العليص بن ضمضم بن عدىّ وقد لبى البدو دعوة يحيى (بن ذكروية وهو القاسم الذى حل محل ابيه) بحماس لانه ادعى لهم انه من نسل محمد ابـــن اسماعيل (ابو عبد الله بن محمد بن اسماعيل او على قول آخر محمد بن عبد الله بن محمد ابـــن اسماعيل) وان له آيات ، فاستغوى الأعراب وأخبرهم ان ناقته التي يركبها مأمورة وانهم اذا تبـــ تبعوها في مسيرها ظفروا ، وسار البدو مع يحيى الى الفرات وهاجموا فرقة عباسية (آخر سنة 289 (اكتوبر ـ نوفمبر 902) غربي الفرات قرب الرقة فهزموها وقتلوا قائدها ثم هاجموا الرصافـــة وأحرقوا مسجدها ثم ساروا الى الشام فلما وصلت الاخبار الى طفج (عامل هارون بنى خمارويه

على الشام ، ومؤسس الامارة الاخشيدية فيما بعد) سار ضدهم بحملة تأديبية صغيرة والظاهر ان معلوماته عنهم كانت غير جدية فظنهم عصابة من البدو فهزموه هزيمة منكرة وهرب الى دمشق وضيقوا عليها الحصار حتى اشترك العامة في الدفاع عن مدينتهم . واخيرا جاءت النجدة من مصر ودارت معركة حامية بين يحي الشيخ والطولونيين امام دمشق في جمادى الآخرة 290 - مايس 903 وانتهت بهزيمة القرامطة ومقتل يحي الشيخ وهكذا كان دور الزعيم قصيرا .

ثم خلفه اخوه الحسين المشهور بصاحب الشامة لوجود شامة على وجهه " ذكر انها آتيه " وادعى انه احمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل ودعا الى مثل مادعا اليه اخوه فاجابه اكثر اهل البوادى وغيرهم من سائر الناس واشتدت شوكته . ثم جمع ثالث الاخوة وهو ابو الفضل محمد قوة من القرامطة وقام ببعض الغارات على جنوبي الشام فقاست منه طبرية خاصة الأمرين ثم انسحب الى الصحراء ويظهر ان عبيد الله المهدى ترك الرملة في طريقه الى شمال افريقيا بعد القبض على صاحب الشامة .

ونستطيع ان نعزو اخفاق ذكرويه هذا الى عدة عوامل منها :

1 - لم يكن لهم الوقت الكافي للتنظيم ولعل الحركة بدأت قبل اكتمالها .

2 - كان أنصارها من البدو في الدرجة الاولى ولم يكونوا جيشا نظاميا وقد تهدمت معنوياتهم منذ الاخفاق الأول .

3 - لم يكن هناك من تعاون وثيق بين هؤلاء البدو واهل القرى .

4 - لم تكن قيادتها ذات كفاءة ومقدرة ولم تكن لها خطط منظمة حتى انحطت فعاليتها الى غزوات نهب وسلب .

5 - كما ان توتر العلاقة بين المهدى وأبناء ذكرويه وسياسة المهدى السلبية كانت عاملا في تضعضع الحركة .

واذا رجعنا الى ذكرويه (حسب رواية الطبرى والنويرى) وجدنا انه كان يشرف على سير الحوادث من مخبئه فخاف ان تحطم الهزائم معنوية اتباعه فكتب اليهم واعلمهم ان مما اوحي اليه به ان المعروف بالشيخ واخاه يقتلان وان الامام الذى يوحى اليه يظهر بعدهما ويظفر . كما انه ارسل داعيته ابا غانم الى بادية الشام سنة 293 فجمع حوله الاتباع وتمكن من نهب عدة مدن متطرفة (البصرى واذرعات وطبرية وهيت) ودعا نفسه بالمناصر فجهز الخليفة جيشا لتأديبه ولكن الانقسام بين اتباعه أودى بحياته اذ قتله احد بني كلب تقربا من الخليفة .

ودب الشقاق على اثر ذلك الحادث بين قرامطة الشام فارسل ذكرويه داعية له " من اكرة السواد " يدعى القاسم بن احمد اخبرهم بغضب ذكرويه وانهم قد ارتدوا عن الدين وان وقت ظهورهم قد حضر وقد بايع له بالكوفة اربعون الف رجل وفي سوادها اربعمائة الف رجل على رواية الطبرى وطلب اليهم ان يسيروا الى الكوفة ليلحقوا به فجاؤوا سنة 293 وانضم اليهم اتباع ذكرويه في

السواد " ومن عربي ومولى ونبطي " وكان القرامطة يسمونه ولي الله كما انه لم يكن يسمح الا للقلائل برؤيته .

وبعد ان نظم ذكرويه قواته هاجم فرقة عباسية قرب الكوفة سنة 293 وفي السنة التالية هاجم قوافل الحجاج ونهبها وقتل الكثيرين من اهلها فأرسل المكتفي قائده وصيف بن صوراتكين فانتصر على القرامطة في معركة حاسمة واسر ذكرويه وهو جريح فتوفي في الطريق الى بغداد سنة 294 وحمل رأسه اليها (وكتاب استتار الامام يجعل مقتله قبل الهجوم على سورية) .

وكان انتصار وصيف بن صوراتكين ضربة حاسمة لهذا الفرع من القرامطة ولكنها لم تستأصلهم بل بقيت منهم شراذم متفرقة في بعض الجهات حتى سنة 316 هـ فسير المقتدر بعض الفرق من الجيش للقضاء عليهم وكان لهم الفوز المبين وأخذت اعلامهم وهي بيضاء وقد كتب عليها نريد ان نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم الوارثين " فكانت هذه الضربة الأخيرة لقرامطة العراق هي التي طهرت السواد منهم .

وختاما نقول ان حركة قرامطة العراق والشام باءت بالاخفاق بالخلاف بين زعمائها القداحيين وللتنازع بين الشيوخ الثائرين وللمقاومة العنيفة التي لاقوها من الخلفاء العباسيين وخاصة الخليفة العظيم المعتضد .

المعنى الاجتماعي والاقتصادي لحركة القرامطة : تأثرت الحركة القرامطية في العراق بظروف بيئتها الاجتماعية والاقتصادية فقد كان منظمها الاكبر حمدان قرمط قرويا يعرف المساوئ التي كان يشكو منها اهل السواد .

ولفهم روح الحركة يجب ملاحظة امرين :

1 - روح الجماعات التي انضمت اليها . 2 - المبادئ التي يشرف بها .

انتشرت الدعوة القرمطية بين الفلاحين الذين كانوا يئنون من ضغط الجباة وجشع الملاكين . ومما زاد وضعهم سوءاً ثورة الزنج التي نشرت الدمار في سواد البصرة يؤيد هذا مايرويه الطبرى من ان البطائي الذي اخمد ثورة سنة 289 توقف عن التنكيل بالقرامطة " خوفا على السواد من ان يخرب اذ كانوا فلاحيه وعماله " وبذلك انتشرت بين اهل الحرف وعوام المدن الذين كان مستوى معيشتهم واطئا . وكانوا لايفهمون الشريعة ويرون ان اوامرها اشياء يمكن تركها متى تطلبت المصلحة ذلك وهذا الجهل جعلهم طعاما سهلا للدعوة القرامطية الماهرة .

والخلاصة ان القرامطة قالوا بان الانبياء والحكام كانوا سبب استعباد الجماهير وشقائهم ماديا وانهم يريدون ارجاع المساواة الاجتماعية وانشاء الرفاه المادي وقد حاول حمدان تطبيق ذلك بانشاء مجتمع اشتراكي لأتباعه في السواد ففي سنة 276 هـ فرض على اتباعه نظام الألفة وبموجبه تجمع اموال القرية في عمل واحد ليشترك الجميع في التمتع بها ويختار الداعي من اهل القرية من رجلا ثقة يتسلم كل ما يملكه اهل القرية من مال ومتاع وحلي ودواب وهو من ناحيته يكسو العريان ويسد حاجات الناس

الاخرى حتى لايبقى فقير بينهم . وكان كل فرد يشتغل بجد واخلاص ليحتل المكان الذى يليق بخدماته لخير المجموع فالنساء يأتين بما يحصلن عليه من الغزل وحتى الاطفال يسلمون الجعل الذى يحصلون عليه من نطارة الحقول وليس للشخص أيّ ملك عدا سيفه وسلاحه . وقد قال حمدان لاتباعه انهم في غنى عن المال لأن الارض لهم .

ومن هذا نتبين أن حمدان اعتقد انه لايستطيع ازالة التذمر الاجتماعي الاقتصادى الا بإنشاء المساواة المالية . ولذا كان من الضرورى قطع دابر الفقر . وخير وسيلة لذلك هي اشتراكية المال . وقد قوبلت تدابيره بكل حماس لاسيما وانه جعل مايعطى للفرد يتناسب وحاجته "بينما جعل مركزه الاجتماعي يتناسب وقابلياته لخدمة المجموع لهذا فلا نعجب اذا علمنا ان نظام الملك اعتبر الحركة القرمطية استمرارا لحركة مزدك الاشتراكية في العصر الساساني تلك الحركة التي كان اساسها توزيع المال حسب الحاجة " (1) .

ولكننا لاندرى كم استمر نظام حمدان . ولعله انحل بانفصاله عن الدعوة الاسماعيلية الا ان آراءه لم تمت فقد تسربت الى البحرين .

قرامطة البحرين : التفت القرامطة هناك حول زعيم لعله احد دعاة حمدان القرمطي وهو الحسن بن بهرام وقد اشتهر بأبي سعيد الجنابي ويظهر انه كان داهية حديدى العزم فاستطاع أن يجمع الاعراب حول عقيدته منذ سنة 283 ويفسر اوليرى انضمامهم اليه بانهم كانوا كعادة البدو على استعداد للانضمام لكل حركة ثورية مادامت تتيح لهم فرصة للسلب والنهب وقد سار بهم ابو سعيد الى البصرة وكان واليها احمد الواثقي قد احاطها بالاسوار المنيعة ولكن قواته التي ارسلها لصد أبي سعيد هزمت واحتوى القرمطي على معسكرها وأحرق الأسرى .

وتمكن أبو سعيد من الاستيلاء على هجر بعد حصار سنتين ثم اتخذ مدينة الاحساء عاصمته لدولته التي اعلنها سنة 286 وكانت اطماعه من البعد بحيث ارسل اليه الخليفة المعتضد جيشا يقوده العباس بن عمرو الغنوى (وقد جعله والى اليمامة والبحرين) فهزم العباسيون وأسر العباس فأطلقه ابو سعيد ليحمل الى المعتضد رسالة بالايتعرض بعد اليوم له .

وكانت دولة الجنابي تمتد حتى الطائف حين اغتاله احد خدمه سنة 306 فخلفه ابنه سعيد الذى ثار عليه اخوه الاصغر سليمان أبو طاهر وقتله ويظهر ان قرامطة البحرين كانوا يعتبرون انفسهم تابعين للدعوة الاسماعيلية الفاطمية فقد ورد على ابي طاهر كتاب من عبيد الله المهدى بتوليته مابيده .

وقد اشتبك سليمان مع جيوش الخليفة المقتدر مرارا وهزمها في البصرة والكوفة واستطاع سنة

---

(1) تظهر هذه النزعة ايضا لدى اخوان الصفا الذين اكدوا على ضرورة العدل الاجتماعي وعلى شرف العمل وأهمية اصحاب الحرف الـخ ....

307 استباحة البصرة وتخريبها وتجرّد بعد ذلك للبطش بقوافل التجار والحجاج فأوقع بها تكرارا وعاث في أحياء العرب وبسط سلطانه على نجد وعلى عمان ووصلت غزواته بعض بلاد الجزيرة فدفعت له الجزية .. وفي سنة 316 كاد يأخذ بغداد لولا دهاء مؤنس الذي بعث بدجلة بزوارق مملوءة بالفاكهة المسمومة فمات من اكلها عدد كبير من القرامطة.
ويتراجع ابو طاهر بعد خسائر فادحة . لكن هذه الهزيمة لم تمنعه في السنة التالية 317 من ان يقوم بحملة جريئة اضطرب لها العالم الاسلامي اذ اغار على مكة في موسم الحج (~~يناير~~ 930) في ستمائة فارس و900 راجل فقط فنهب هو وأصحابه الحجيج وقتلوهم في المسجد الحرام وقلع باب البيت وقبة زمزم والحجر الاسود وفرق كسوة الكعبة على اصحابه ونهب دور اهل مكة وأقام الخطبة لعبيد الله المهدى بدل الخليفة العباسي (المقتدر) ثم عاد بالحجر الاسود الى الاحساء وقد بذلت حكومة بغداد خمسين الف دينار لردّه ، فأبى زاعما انه فعل ذلك بوحي من الامام وانه لايرده الا بأمر منه فبقي عند القرامطة حتى سنة 339 ثم ردّوه بطلب من الخليفة المنصور الفاطمي .

ويستنتج اوليرى من هذا ان أبا طاهر قام بهذه الحملة بناء على تعليمات سرّية وردته من القيروان (مقر الفاطميين) ويظهر ان ذلك غير صحيح لان المهدى الفاطمي غضب على أبي طاهر وكتب اليه (يلعنه) ويطلب رد الحجر الى مكانه ولكن القرمطي أبقاه عنده وفرض بالعكس نفوذه على مكة وجعل على الحجاج سنة 323 أتاوة يؤدونها اليه مقابل حمايتهم والمحافظة على ارواحهم (المقريزى) .. ولا شك انه كان لهذه الحوادث أثرها الكبير في تهديم هيبة البيت العباسي لاسيما اذا تذكرنا عجزهم عن رد الحجر الاسود وهو ماهو عند المسلمين الى مكانه .

وبقي أبو طاهر يهاجم الشام والعراق ودفعت له الجزية حكومة بغداد لتنجو من عدوانه حتى توفي سنة 332 .. وثارت الحرب الاهلية بين أخيه وبين ولده الاكبر كما ثارت من بعد ذلك بين ابنائه الخ ... واستمر الحكم في البيت الجنابي حتى سنة 390 وقد انفصلوا خلال ذلك عن الفاطميين وحاربوهم ووثب عليهم في النهاية بعض بني ثعلبة (الاصفر الثعلبي) فقطع دعوتهم ودعا للطائع العباسي وبقي الحكم في بنيه .

واما في البحرين فالتدابير الاقتصادية رغم اتصافها بنزعة يسارية قوية فانها لم تكن اشتراكية تماما لعدم وجود ذينك التطور والتعقيد ، وهكذا بقيت الملكية الفردية ولكن الحكومة قامت بدور مصرف زراعي ـ صناعي لتسليف الزراع والصناع الاموال عند الحاجة ولتشجيعهم في اعمالهم ومنع الربا لحماية الناس من جشع المرابين واحتكرت الحكومة التجارة الخارجية وحاولت فتح الاسواق لها في الخارج لبقى امر الصادر والوارد لفائدة الشعب والحكومة .

وضربت الحكومة ـ على " طريقة التدابير " التي اتخذت مرة في اليونان القديمة نقودا من الرصاص

لاتقبل خارج البحرين لمنع تسرب الثروة الى الخارج . وانشئت طواحين مجانية للشعب وللتخفيف من اعباء النساء . وخفضت الضرائب والغي الخراج في الاحساء للترفيه عن الزراع وانشئت بالمقابل مزارع حكومية لتوفير الدخل للخزينة كما تقوم بخدماتها الاجتماعية اي ان حكومة البحرين حاولت رفع مستوى المعيشة وتوفير الرفاه للشعب بجميع طبقاته . ولعل التطرف في المبادئ كان في السواد اقوى منه في البحرين وذلك لرسوخ التقاليد والاساطير الدينية فيه اما نظام الحكم في قرامطة السواد . فكان مطلقا بينما كان في البحرين شوريا رغم انه كان وراثيا في عائلة الجنابي ذلك انها كانت وراثة مقيدة برأي مجلس الشورى الاعلى المسمى بمجلس العقدانية ويتألف من (12) عضوا كما كان على الرئيس ويسمى السيد ان يستشير ذلك المجلس الذي يضم ابرز شخصيات الدولة في القضايا العسكرية والسياسية والادارية . وهذا النوع من الحكم الشوري كان يتناسب مع النزعة البدوية للحرية ومع التقاليد المتوارثة لدى قبائل العرب . ويمكن ان نضيف الى هذا ان نزعة القرامطة في السواد كانت اممية بينما كانقرامطة البحرين عربا وقال احدهم .

تولى بني هاشم وهذا نبي بني يعرب

وكان الحاكم في البحرين كما في السواد هو القائد الاعلى للجيش غير ان جيش البحرين كان من العرب فقط (وكان اهم عمل للعرب الخدمة العسكرية لان العبيد كانوا يقومون بفلاحة الارض) . وقد وضع ابو سعيد نظاما حربيا دقيقا يستطيع بمقتضاه اعداد جيش قوي من رعاياه (يذكرنا ببعض نظم افلاطون في الجمهورية) فصار يجمع الاطفال في دور خاصة وعين لهم قواما يشرفون على مصالحهم واجرى عليهم ما يحتاجون اليه واخذ يدربهم على ركوب الخيل واستخدام الاسلحة الحربية لينشؤوا كما يقول المقريزي — نشأة عسكرية — .

ثانيا : الخوارج : بينما كانت الحركات العلوية تتطور تطورا يبعدها أحيانا عن التعاليم الاسلامية ويدخلها في الفلسفة ويجمع من حولها الناقمين على اختلاف اسباب نقمتهم بتبنيها المشاكل الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الاسلامي الخ . . . كانت الحركات الخارجية تصفي حسابها وتنكمش وتؤلف جماعات صغيرة موزعة في العالم الاسلامي في سجستان وفي هراة وفي ديار ربيعة وعمان وفي المغرب او الارجح انها ماكانت على اتصال بتلك الامامة الخارجة التي قامت منذ العصر العباسي الأول واستمرت قائمة في عمان في العصر الثاني ومن أئمتها .

السلط ابن مليك (237 — 273) : ويظهر ان الفوضى الداخلية دبت في هذه الامامة مابين سنة 280 فتتالى فيها خمسة ائمة في هذه الفترة وضعف الحكم حتى غلب عليه (مع وجود الائمة) بعض قواد بني العباس (مثل احمد بن ثور سنة 280) وتمكن من هزيمة الاباضية مع انهم في مائتي الف وحمل رؤوس قتلاهم الى بغداد وثم تغلب على عمان بنو شامة بن لؤي في عهد الخليفة المعتضد ثم استطاع محمد بن القاسم الشامي ان يفتح عمان بمعونة الخليفة ويتولاها من قبله ويقيم

الخطبة فيها لبني العباس ، ونجح في جعل الحكم وراثيا في ابنائه من بعده على ان امارته مالبثت ان ضعفت لما قام من خلاف بين عائلته سنة 305 استمر حتى سنة 317 اذ استولى ابو طاهر القرمطي على عمان وخطب بها لعبيد الله المهدى خليفة الفواطم في المغرب ، ولم تعد البلاد الى النفوذ العباسي حتى زمن البويهيين سنة 354 وهذا كله يعني ان الحركة الخارجية في عمان قد اضمحلت كحكم سياسي ولكنها على التأكد لم تمت كمذهب ديني ذى ائمة واتباع .

واما الحركات الخارجية الاخرى في انحاء العالم العباسي فلم تثر في منطقة الجزيرة خاصة ويتبين من اخبارها ان الخوارج فيها كانوا من الاعراب والاكراد كما ان بعض الشراة كانوا أشبه بالجند المرتزقة يؤجرون سواعدهم .

2 ـ حركات الاقاليم : كثرت هذه الحركات ثم انتهت الى تفكيك الدولة العباسية بنتيجة ضعف اسباب التذمر . واذا كانت الدعوات العقائدية التي مرت معنا كالعلوية في طبرستان والقرامطية في السواد والاسماعيلية في تونس .... قد اتسعت واستقرت في بعض المناطق فانها لم تكن بالحركات الوحيدة ، وهناك عوامل اخرى مختلفة وتيارات كانت تلعب دورها وتستفيد من ضعف السدة الخلافية لتقيم اضطرابات مختلفة المقصد والنتيجة .

1 ـ عوامل اقتصادية حركة الزنج في السواد مثلا وأثارت عده مرات بغداد وانحاء العالم العباسي .

2 ـ ظلم الولاة وقد كان سببا في ثورات حمص ودمشق وطرسوس وبعض جهات ايران .

3 ـ التعصب الديني الذى وضح في حركات الحنابلة ببغداد .

4 ـ الاطماع الشخصية سواء من ولاة الدولة العباسية انفسهم (كابن طولون والاخشيد) او من المغامرين الثائرين (كبني بوية والحمدانيين والسامانيين) .

واذ انتهت العوامل الاولى في تحطيم قوى الدولة الواهية فقد ادت اطماع الطامعين هذه الى الاجهاز على الوحدة السياسية في الدولة .

ولعله من الضرورى ان نذكر ان انقسام الدولة العباسية لايمكن ان يعد دليل تدهور الا في الناحية السياسية وناحية الحكم المركزى وفي نظرنا نحن في العصر الحالي الذى يقيس قوة ومنعة الامبراطورية بمقدار تماسكها السياسي ويعتبر الوحدة اساس القوة . واما في الدولة الاسلامية اذ ذلك فلسنا نجد دليلا على تأخر مصر في عهد الاخشيديين والفاطميين وكم اشاد الرحالون بمناقب السامانيين وعدلهم وشريف اعمالهم وما كان لدولتهم من منعة .. ونجد اكثر من هذا ان تفكك الدولة افسح المجال لايجاد بؤر حضارية متعددة الوجوه في مختلف مناطق الاقطار والدول في نواحي النشاط الاقتصادية والسياسية والفنية والثقافية ، واذا تنكرت الايام فلبغداد فقط التي كان يصب عليها كل نتائج العالم الخلافي فتوزعه بين المناطق من بعد ذلك . وربما كان

من الملاحظات ذات المعنى ان انتشار الدين الاسلامي في هذه الفترة قد ازداد بدل ان يتوقف لا سيما في الشرق وافريقيا . فقد فتحت سنة (313 ـ 925م) بلوخستان وكانت حتى ذلك الحين على الوثنية وبعد ذلك بمدة (سنة 349) اسلم من الاتراك نحو مائتي الف ـ على قول مسكويه ـ ثم امتد الاسلام الى حدود نهر التاريم واخضع السلطان محمود بن سكتكين (صاحب الدولة الغزنوية) بلاد واسعة من الهند للسلطة الاسلامية وفي افريقيا توغل الاسلام في السودان عبر الصحراء الكبرى في عدة نقاط .

ونستطيع ان نقسم حركات الاقاليم ، حسب النتائج التي ترتبت عليها ، الى قسمين :

1 ـ ثورة طبقية ومحلية لم تنته الى غير اجهاد الدولة .

2 ـ ثورة استقلالية انتهت بظهور الدويلات المنقطعة .

أولا : الثورات الطبقية والمحلية وأهمها :

أ ـ ثورة الزنج : هي ثورة طبقية محدودة استهدفت تحرير الزنوج ولعلها اول صرخة اجتماعية خطرة تكشف عن مدى ما بلغه استغلال الرقيق في العصر العباسي الثاني من قسوة وعن مدى جشع المتمولين ذلك الجشع الذي انعكس في حقد الزنج الاسود على كل شيء ...... واسهاب الطبري في ذكر الثورة وتفاصيلها ـ وقد عاصرها في شبابه ـ يدل على مدى خطورتها ومقدار تهديدها لكيان الدولة العباسية .

قامت ثورة الزنج في رمضان سنة 255 ودامت اكثر من اربع عشرة سنة حتى صفر 270 هـ اي في الفترة التي كانت فيها الخلافة العباسية تصفع مرة بعد اخرى بيد الاتراك ثم حاولت النهوض على يد الموفق وقد ملأت الثورة برعبها منطقة السواد السهلية مابين مصب دجلة (شط العرب) الى واسط الى دجيل وغزت مرات عديدة ماوراء ه ، من ارض الاهواز (عربستان اليوم) .

المنطقة ماتزال الى اليوم تحتفظ بمسافات واسعة من البطائح والادغال كما ان الارض حول دجلة العوراء كانت مقطعة شبكة كثيفة من الاقنية والترع يقدرها الجغرافيون العرب بمائة الف قناة . ومثل هذا الوضع في المنطقة يساعد على حرب العصابات ويعرقل حركات الجيوش المنظمة وقبل ثورة الزنج بها باربعين سنة فقط كان قد ثاروا حتى بين ادغالها واقنيتها الزط وعجزت عنهم جيوش المأمون .

واما الزنج فوجدوهم في هذه المنطقة قديم وقد حملوا اليها منذ القرن الأول وتجمعوا فيها تدريجيا كأرقاء وعبيد يجمعون من الصومال ومن زنجبار للعمل في المزارع واتفق في القرن الثالث ان تحول المجتمع الاسلامي في العراق عامة من التطور الزراعي الى الطور التجاري ونشأت طبقة رأسمالية واسعة الثراء جلبت الرقيق لاستغلال السواد بأعداد كبيرة واستخدمته بشكل جماعات تتراوح بين 1000 و 5000 عبد ويذكر الطبري ان احدى الجماعات على نهر دجيل بلغت (15) الفا . وهذا التكتل ساعد على ايجاد شعور بالمصلحة المشتركة بين العبيد ضد اسيادهم .

وكان عمل الجنود كسح السباخ لجعل الارض قابلة للزراعة وللاستفادة من الاملاح المتجمعة كما يعملون في الزراعة . ولكنهم كانوا يشتغلون دون مقابل تقريبا على قوت قليل من الطحين او التمر والسويق . وكانت رابطة (الولاء) التي كانت تربط العبد بسيده في المجتمع الاسلامي معدومة عندهم لانهم ماكانوا في نظر اسيادهم اكثر من آلات ولا كانوا يعرفون أسيادهم الا من خلال العرفان المراقبين لعلمهم وطبيعي مع الشغل الشاق والوضع المعاشي المنخفض ان يكون أي وعد بتحسين حالهم اغراء كبير لهم .

على ان الثورة في الواقع ، وان اخذت اسم الزنج لم تقتصر عليهم ،: ولئن اجتمع فيها زنج الصومال وشرقي افريقيا والعبيد الفراتيون (نسبة للفرات) والنوبة فقد اجتمع اليها بعض الاعراب الساخطين على الخلافة وحاربوا مع الزنج ، وترد الاشارة اليهم عدة مرات اثناء الكلام عن فتك البصرة سنة 257 كما ان بعض جموع الاعراب التي كانت تفشل امام جيوش الخليفة كانت تلتحق بالزنج (كبني باهلة سنة 258) وسارقي كسوة الكعبة سنة (266) .

وقد تعاون بعض اهل القرى مع صاحب الزنج وقد روى الطبرى انه "...قد اتى عليه اهل الكوخ (وهي قرية هناك) ودعوا له بخير وامدوه من الانزال بما اراد" ويرى نولدكه انه "لولا مساعدة الفلاحين وتغاضيهم لصعب تموين جيوش الزنج الجرارة" ولعل في هذا دليلا على تذمر الفلاحين من الملاكين ايضا .

ويظهر ان رابطة اللون اتت ببعض القوة للزنج ايضا فقد انضم اليهم الجنود السود الذين فروا من جيوش الخلافة حين توالت هزائمها كما انضم اليهم العبيد ويقدر نولدكة ايضا انه قد يكون القليل من اصحاب الحرف في المدن قد اشتركوا مع صاحب الزنج .

اما صاحب الزنج ، ومطلق تلك الاحقاد والفتنة ، فهو رجل مغامر اذا نظرنا الى اسمه : بهبوذ والى اصله من (ورزنين) احدى قرى الري ويظهر كأنه من اصل فارسي ولكنه تسمى بمحمد بن علي وزعم انه عربي فانتسب اول الامر على مايروى الطبرى الى عبد القيس ثم الى زيد بن علي (ابي عيسى بن زيد اولا ثم بعد خراب البصرة الى يحيى بن زيد) ولكن المؤرخين ينكرون صحة نسبه العلوي ويسمونه بالمدعي لآل ابي طالب ولكنهم لا يناقشون اصله العربي فكأنهم يقبلون ذلك .

على انه كان دون شك كتلة من الطموح والصبر وهدوء التفكير ، ويظهر انه حاول القيام قبل حركة الزنج بحركة مشابهة لها في البحرين فانتهى الأمر بين انصاره واعدائه الى فتنة فترحل عنها ولكنه احتفظ على مايظهر بعدد من الانصار لحقوا به الى السواد وكان منهم بعض كبار قواده (كسليمان ابن جامع) ولما ورد الى البصرة سنة 254 فشل في دعوته وهرب الى بغداد رغم ملائمة الجو له بما في البصرة من غنى تجارى ومن فتن بين جماعتي البلالية والسعدية وذلك بسبب يقظة عامل البصرة ولكن هذا العامل عزل في السنة التالية فرجع بهبوذ ، واخرج أنصاره من السجن وسرعان مابدأ العمل .

مكث اول الامر يدرس اوضاع الزنج - كما يظهر في رواية الطبري - فيسأل " عن اخبار غلمان الشورجيين وما يجرى لكل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر " ولما ادرك اوضاعهم استطاع بسرعة ان يكسبهم الى دعوته بأن شدّد التأكيد على الناحية العادية . فقد جاء في اول خطب له في الزنج " ذكر ماكانوا عليه من سوء الحال وان الله قد استنقذهم به من ذلك وانه يريد ان يرفع اقدارهم ويملكهم العبيد والاموال والمنازل ويبلغ بهم اعلى الأمور . . . "

ولعلنا من هذه الكلمة ومن اعمال صاحب الزنج فيما بعد نستطيع ان نستخلص مبادئه وافكاره ومنها يظهر :-

1 - انه قصد الى تعديل الاوضاع الاجتماعية لطبقة معينة هي طبقة العبيد الزنوج . ولم يكن له برنامج اجتماعي شامل ولا قصد الى الغاء الرق فقد حرر العبيد كلما سنحت له الفرصة ولكنه كان يسترق اسرى المسلمين ويخطئ مؤلف سياسة نامة حين يجعل مبادئ صاحب الزنج هي مبادئ مزدك كما يخطئ آخرون حين يجعلونه اشتراكيا فلم يكن يجول بخاطره انشاء اى نوع من الاشتراكية ولعل هذا كان من اسباب عدم اتفاقه مع القرامطة .

2 - ألبس صاحب الزنج حركته ثوبا دينيا ، ومع ان عامة الزنج كانوا بدائيين ولا يفهمون العربية ولا يملكون اى ثقافة غير ان بعضهم كان متدينا ويجيد العربية فلا بد من تزويده بحجة شرعية للقيام على العباسيين فادعى أن العناية الالهية - كما قال الطبري - أرسلته لانقاذ العبيد المظلومين وانها ترشده وتساعده وادعى العلم بالغيب كما يقول السيوطي ويزيد ابن الجوزى أنه ادعى النبوة والرسالة .

3 - بالرغم من ادعاء بهبوذ النسب العلوى الا انه لم يبشر بمبادئ شيعية بل كان من الناحية السياسية على المذهب الخارجي الذي ينكر مبدأ الوراثة في الحكم ويرى ان الخلافة للأفضل من المسلمين ولو كان " عبدا حبشيا كان رأسه زبيبة (على الحديث الشريف) وقد صرح المسعودي كأن انه ؟ " كان يرى رأى الازارقة وكتب على لوائه " ان الله اشترى من المسلمين انفسهم " . . (الآية) . ولعل هذا يفسر لماذا اكتفى بوضع اسمه واسم ابيه على علمه دون ذكر اصله ولماذا وضع السيف في اعدائه واسترق نساءهم وأطفالهم على الطريقة الخارجية .

ويمكن ان نقسم حرب الزنج الى فترتين :-

الاولى : فترة الانتصارات وقد ساعد عليها اضطراب الخلافة وضعف قياداتها وقلة خبرة جيوشها بالمنطقة وبوسائل صاحب الزنج : وقد تولى في هذه الفترة على القيادة العباسية عدد من القواد لم يستطع احد منهم ان يقوم بشيء جدّى وكل مارجعوا به هو الهزيمة بعد الهزيمة : (جعلان القائد ثم سعيد الحاجب ثم منصور بن جعفر الخياط ثم محمد المولد ثم الموفق ثم موسى بن بغا) .

ثم حاصر الزنج البصرة اقتصاديا حتى اذا انتهزوا منها غرة هاجموها والناس في صلاة الجمعة

(17 شوال 257/18 شتنبر 871) من جهات ثلاثة وأعملوا فيها السلب والقتل بقيادة المهلبي (علي بن ابان) ثم عاودوا الكرة بعد ثلاثة ايام وفتكوا بها فتكا مريعا قتل فيه مايقارب (300) الف من السكان وسبي النساء والاطفال حتى حصل كثير من المقاتلين على عشرة ارقام والتهمت النار ثلاثة أطراف من المدينة وقد خلد ابن الرومي هذه النكبة وما بها من دمار هائل ودماء بقصيدته المشهورة :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام

ولم يكن صاحب الزنج يقصد الفتح والاحتلال المنظم بأنه لم يكن يستقر في البقاع التي يهاجمها ولا ينظمها وكل همه انحصر في شفاء الاحقاد وفي النهب ولهذا نراه يحتل الاهواز ثلاث مرات بلغ قتلاه في آخرها (50) الفا وينهب ويسبي كل مرة ويفتك بواسط فتكة كتلك التي اصابت البصرة بينما كانت الخلافة مشغولة بمسير يعقوب بن الليث الصفار الى بغداد ولقد تقرب الزنج كثيرا من ذلك البلد العظيم ايضا .

الثانية ـ فترة الهزائم : ويمكن ان نعتبر بدأها منذ تسلم الموفق (اخو الخليفة المعتمد) القيادة العامة ، فهاجم م ابنه سنة 267 مدن صاحب الزنج (المدينة المنيعة) اولا قرب واسط فخربها وانقذ (5) آلاف اسيرة منها ثم (المدينة المنصورة) وبالرغم من حصانتها (اذ كانت تقوم خلف خمسة اسوار امام كل سور منها خندق) فقد استطاع الموفق الاستيلاء عليها بالتطويق وبشق الانهار والترع من حولها بتطويق الزنج في البحر . ولما استطاع استخلاص الاهواز منهم اقتصروا على مدينتهم الاولى والاخيرة : المختارة وفيها عدد ضخم يزيد على (300) الف ويرى الطبري ان الموفق لما اشرف على المدينة "...... تأملها فرأى ان منعتها وحصانتها بالحصون والخنادق المحيطة بها وما عوز من الطرق المؤدية اليها ، ولم يكن مع الموفق اكثر من (50) الفا ولكنه ضرب الحصار حول المختارة وقامت خطته على عدة نقاط :

آ ـ مطاولة العدو بالحصار ولهذا بنى مدينة لجيشه وهي (الموفقية) تجاه المختارة .

ب ـ قطع المؤن عن الزنج بأن اكثر من السفن المراقبة في دجلة وبعث الى كل مكان في بنائها والاكثار منها واقام بالمقابل في بلدة الجديد لاسواقا للبيع والشراء . وبلغه ان السماكين يذهبون للمختارة بصيدهم وان بعض الاعراب يتاجرون معها فمنع ورود السمك بتاتا وأنشأ اسواقا للأعراب خارج البصرة كي لايقع شيء من مبيعاتهم بين الثائرين . ولم يستطع صاحب الزنج خرق الحصار الاقتصادي رغم محاولاته .

ج ـ تتبع سياسة شراء القواد فاستأمن اليه عدد منهم واخذوا يفضحون عنده خطط الزنج كما ان بعض الزنج كان يهرب طالبا للقوت ويستأمن .

وقد اشتد القتال اول الامر وحطم الموفق بعض اسوار المختارة تدريجيا الا انه اصيب بسهم اقعده فتراخى القتال ثم شغل الموفق بمشكلة هرب اخيه المعتمد فتقوى صاحب الزنج من جديد

وبقي ماتهدم من اسواره ، ولكن الموفق عاود الهجوم سنة 269 .

وبينما كان بعض قواد الزنج يستأمنون للموفق ومنهم الشعراني قائد مؤخرة الزنج وشبل ابن سالم حتى لقد كاد يستأمن انكلاى ابن صاحب الزنج نفسه كانت النجدات تصل الموفق من سامراء والشام وكان المتطوعون يتكاثرون والاموال تتدفق . . . وهكذا استطاع العباسيون دخول المختارة بعد هجومين سنة 270 واخذوا قصر صاحب الزنج ثم لاحقوه في القلاع التي تحصن بها وقطعوا تموينه باحراق بيادره ولما هرب قبض عليه وقتل كما قتل ابنه واصحابه وبقيت شرزمة من جماعته واستعصت في الادغال ثم اضطرب لطلب الأمان كما ان بعض الزنج ثاروا بعد مدة في واسط فأخمدت حركتهم .

ونشر الموفق بعد ذلك على العالم الاسلامي كتابا بانتهاء الغائلة ولكن بعد ان كان السواد قد تخرب وقتل فلاحوه وافتضح للناس ضعف الخلافة .

ب — ثورات الشام : وقد جرى معظمها في فترة الاضطراب الاولى بين قتل المتوكل وتوطيد عهد المعتمد وكانت مراكزها متعددة كما كانت بواعثها متعددة .

فثار القطامي في الاردن ويوسف بن ابراهيم التنوخي في المعرة و نشبت عدة ثورات في حمص وفلسطين . وارادت الخلافة ان تتخلص من هذه الثورات في المعرة وحمص وفلسطين مرة واحدة فولت الشام كله الى احد قوادها وفشل مشروع الخلافة فعزل القائد مكانه ابو السلج الاشروسني على حلب ومحمد بن اسرائيل على حمص وعيسى بن شيخ (وكان ثار في فلسطين) على الرملة . ان اهل حمص الذين تزعمهم ابن عكار واخرجوا من بينهم عاملهم وهزموا بعد عدة وقعات وقتل زعيمهم فعاد الوالي للبلد . وأما فلسطين فلم يكتف ابن شيخ منها بالرملة بل تغلب عليها جميعا كما تغلب على دمشق واعمالها وامتنع من حمل المال الى العراق كما صادر المال الذاهب الى الخليفة من مصر فعزله المهتدي سنة 256 وعين بدلا منه اماجور التركي . واستطاع اماجور وهو امير مهاب شجاع ان يدخل دمشق رغم قلة اصحابه (كانوا 400 او 700) بعد ان واقع اصحاب عيسى بن شيخ (وكانوا في الذي يروونه 20 الفا) ولعل اماجور واقع حامية دمشق فقط على بابها ولعل الآلاف العشرة كانت جيش عيسى كله في فلسطين . ولكن اماجور لم يهاجم ابن شيخ في مقره فاضطر الخليفة لان يكتب الى عيسى طالبا اموال مصر ولما رفض أداءها حرك عليه ابن طولون والي مصر الجديد ولكنه كفي شره اذ كان عيسى قد زحف يحاصر دمشق وشدد عليها الحصار فخرج اماجور بواقعه وانتهت المعركة بمقتل ابن عيسى (منصور) وبالقبض على قائده ابي الهيجاء وقتله وصلبه وبهرب الاب المفجوع الى الرملة ثم ترحّله بعياله الى صور والتحصن بها .

واستخلف المعتمد في تلك الفترة فوجد عيسى يعود فيسيطر على فلسطين فأرسل اليه الحسين الخادم (المعروف بعرض الموت) يعطيه الامان لنفسه وماله وولده والصفح عما كان منه وتوليته

أرمينية ففعل ذلك وشخص من البلد (في جمادى الآخرة سنة 257 هـ) وسلم ماكان في يده الى اماجور ولم يودّ من الاموال درهما واحدا ...... (اليعقوبي).

ويمكن ان نضيف لأحداث الشام حادثة طرسوس زمن المعتمد فقد تآمر اهلها مع حاكم أذربيجان وأرمينية ومع العائلة الساجية للانتقاض على الدولة والاشتراك معه في غزو ارض الخليفة ولكن الخلافة كانت اذاك قوية فتمكن المعتضد من اخمادهم واحرق ميناء طرسوس الحربي وهذا ما اضعف قوتها البحرية امام الروم في المستقبل.

جـ - ثورة بغداد : وهي عديدة ونستطيع ان نعدها نكبات كتلك التي كانت تصيبها في الجماعات : فقد ثارت - ولم تكن قد عادت بعد عاصمة - لمصرع عمر بن عبيد الله الاقطع وعلي بن يحيى الارمني في الثغور وسنة 249 ولقرب مصرعيهما من مصرع المتوكل، واتفق العامة مع الامناء والشاكرية في النقمة على الترك وفتحوا السجون ونهبوا دور الحكام وقطعوا احد جسرى بغداد واخرج المتمولون من اموالهم التبرعات لمن تطوع من الناس لحرب الروم.

وثارت ثانية على عبد الله بن طاهر يوم نكب بالمستعين وأجبره على البيعة للمعتز و اذا استراحت بعد ذلك حين اضحت عاصمة وحين عادت الخلافة قوية فانها مالبثت ان وقعت في عهد المقتدر بالفتن من حنبلية وسنية - شيعية وتلصص.

فقد غدا الحنابلة في مطلع القرن الرابع قوة خطيرة متعصبة كان من اهم اعمالها ثورتها عند موت الطبري المؤرخ ومنعها الناس من الصلاة عليه لانه قال ان ابن حنبل ليس بفقيه ولكنه محدث ورد عليه في كتاب واضطر مشيعوه لدفنه في بيته. وقد تزعم الحنابلة بعد ذلك (البربهاري) وكان يثير الفتن ويهدد الأمن حتى منعت الشرطة اجتماع حنبليين وحتى نشر الراضي كتابا في الرد عليهم وتهديدهم بالسيف ان لم يرتدوا.

واما ثورات الشيعة والسنة فلم تكن قد استشرت بعد وان بلغت حد القاء الناس النيران على دور بعضهم بعضا وستبلغ سنة 361 حد احراق الكرخ كله واحتراق (17) الف نسمة فيه و300 دكان و33 مسجدا.

انفصلت عدة دول عن الدولة العباسية في الشرق وفي الغرب، ويمكن ان نسجل ظهور تلك الدويلات الاسلامية حسب التتابع الزمني في القائمة التالية :-

استقل منذ العصر العباسي الاول :

1 - الدولة الاموية في الاندلس — منذ سنة 138 ثم قامت بالترتيب
2 - الادارسة في مراكش — منذ 172 حتى قضى عليها ابوعبدالله الشيعي
3 - الاغالبة في تونس — منذ سنة 184 حتى سنة 296
4 - الزيادية في اليمن — منذ سنة 203 حتى 402
5 - الطاهرية - خراسان — منذ سنة 205 حتى 259

6 - الدلفية كردستان — منذ سنة 210 حتى 285

ثم استقل في العصر العباسي الثاني :

7 - العلوية - طبرستان — منذ سنة 250 حتى 316

8 - الصفارية - سجستان — منذ سنة 253 حتى 290

9 - الطولونية - مصر — منذ سنة 254 حتى 292

10 - السامانية - توكستان — منذ سنة 261 حتى 389

11 - الساجية - اذربيجان — منذ سنة 266 حتى 318

12 - القرامطة - البحرين — منذ سنة 278 حتى 390

13 - الفاطمية - القيروان ثم مصر — منذ سنة 297 حتى 567

14 - الزيارية في جرجان — منذ سنة 316

15 - الحمدانية - الموصل ثم حلب — منذ سنة 317 حتى 380

16 - الاخشيدية - مصر — منذ سنة 320 حتى 358

17 - البويهية بغداد نفسها — منذ سنة 334 حتى 447

ويلاحظ ان معظم هذه الدول قد استمر الى العصر العباسي الثالث القرن (4 - 5)الهجري ويلاحظ ان الدولة الفاطمية استمرت الى مابعده ، فالدراسة الموجزة التي سناتي بها لهذه الدول ليست اكثر من لمح لا تتم الا بعد دراسة حياة ذلك العصر الثالث وسندرس اهم هذه الدويلات حسب المناطق .

(دول ايـــــران)

الدولة الطاهرية : (205 -259 هـ) : بنو طاهر عائلة من وجهاء خراسان على مايظهر ، كان لها نفوذها المحلي قبل ان تبدأ دولتها في زمن المأمون فجدها مصعب عين لولايه بوشنج (حول هرات) وخلفه عليها ابنه الحسين سنة 199 (814) وتلاه حفيده طاهر (الذى لعب دورا واسعا مع ابنه عبد الله في خلافة المأمون وفتح بغداد له) ويظهر ان هذا النفوذ كان قويا بدليل ان الخليفة حاول دفع طاهر عن خراسان رغم انه اعطاه ولاية الجزيرة ورئاسة شرطة بغداد والاشراف على المعادن في السواد ولم يمنحه اياها الا بتعهد شخصي من الوزير الذى سعى له بها احمد بن ابي خالد وقد تحققت شكوك المأمون في طاهر الذى اسقط اسم الخليفة من الخطبة سنة 207 (822) ولكنه مات فجأة .

ولئن عين المأمون ابنه طلحة بدلا منه لازاله الشكوك التي ثارت حول وفاة طاهر الفجائية الا ان التولية في حد ذاتها تدل على ما لآل طاهر من نفوذ محلي قوى في خراسان أما تولية عبد الله بن طاهر بعد اخيه سنة 213 فكانت نتيجة ثقة المأمون به وبقابلياته ولكنها اكسبت العائلة صفة وراثية في الحكم وزادت من نفوذها المحلي زيادة لم يصلها احد من قبل وثبت

عبد الله من اصول عائلته لدرجة لم يعد ممكنا نقلها بعد ذلك لولاية اخرى فلم يجرأ المعتصم رغم كرهه لعبد الله ان يعزله واكتفى بتشجيع الخطط السرية لقتله وكان عبد الله كيسا فلم يتمرد حين علم بسؤ امرة المعتصم عليه ولم يغادر بلده حتى الى الحج رغم تدينه .

ولما توفي عبد الله فكر الواثق بتولية اسحق بن ابراهيم المصعبي ولكنه عدل عن ذلك رأسا وعهد بالولاية لطاهر بن عبد الله سنة 230 واخيرا ولي محمد بن طاهر سنة (248) وكان ميله الى اللهو والمجون سببا في سقوط امارته بيد يعقوب الصفار سنة(259) (872م) .

ويلاحظ على الطاهريين انهم كانوا من الارستقراطية وانهم كانوا نظريا على الأقل يمثلون السلطان العربي فلم تنعكس فيهم الميول القومية ولا الشيمية . ويوصف حكمهم بحق انه "استبداد مهذب " بمعنى انهم لم يفضلوا العامة بل حموهم ضد الظلم الارستقراطي وشجعوا التعليم وعنوا بالزراعة لاسيما في حكم عبد الله الذى اهتم بشؤون المزارعين لدرجة انه استدعى الفقهاء ليضعوا له كتاب(القنى) يحسم به مشاكل الرىّ المتفاقمة . وأوصى عماله بالفلاحين لأن الله يطعمنا بأيديهم ويرحمنا بدعائهم .

ولم تكن صلات الطاهريين بالخلافة العباسية سيئة وكانوا يدفعون الجزية بانتظام وكان بالفها السنوى سنة 321 بمقدار 38 مليون درهم من وارد الولايات البالغ 48 مليونا وكانوا بحكم ظروفهم وطريقتهم في الحكم انصارا للعباسيين مخلصين وامتد نفوذهم الى كومان والرىّ وخراسان وما وراء النهر بالاضافة الى شرطة بغداد وولايتها في بعض الاحيان وقد سمح المنصب الاخير لمحمد بن طاهر ان يلعب دورة في الفتنة بين المستعين والمعتز سنة 251 . وقد وافق دور قوتهم (زمن عبد الله بن طاهر) عهد قوة الخلافة كما كان دور ضعفهم موافقا لفترة تضعضعها . ويظهر ان اتفاقهم مع الخلافة كان في اتباع السنة وفي طريقة الحكم حملهم على التعاون في كثير من الظروف معها فقد حاربوا محمد بن القاسم العلوى بخراسان والمازياني في طبرستان والخوارج في سجستان وكانوا دواما يبعثون بنتائج انتصاراتهم الى الخليفة لانهم بذلك انما يخدمون مصلحتهم والمصلحة العباسية في آن واحد .

والقضاء على كل حركة حولهم كان ضرورة سياسية ... ولعله لهذا السبب ظلت العلاقات قائمة بين الطاهريين والخلافة ولا نستطيع بالتالي ان نعتبر بني طاهر مستقلين كل الاستقلال عن سامراء .

<u>الدولة الصفارية : (253 ـ 290 هـ)</u> : لم يكن للصفاريين ذكر في موطنهم بسجستان حتى كثر تعدى الخوارج في المنطقة وعجز الطاهريون عن حماية الناس فتطوع بعضهم لهذه الحماية وكان بين المتطوعين اخوان يعقوب من بلدة (قونين) قرب عاصمة سجستان هما يعقوب بن الليث واخوه عمرو وكان احدهما يعقوب يعمل صانعا عند أحد الصفّارين بخمسة عشر درهما في الشهر والثاني عمرو يعمل نجارا قاد الفرقة التى تطوع فيها الاخوان درهم ابن

نصر الذى مايزال يزعج والي سجستان حتى غادرها واصبح درهم حاكمها الفعلي . وقد برز يعقوب في الجيش فعينه القائد حاكما في (بست) ثم غطت شخصيته على درهم فتخلى له عن الرئاسة (محرم 247 هـ/ 886 م) وبدأت دولة الصفار بالظهور .

نشر يعقوب الأمن وضمن المواصلات ثم اخذ يتوسع في منطقة كابل وخوس السند ثم في مكران ، واخيرا فتح هرات وبوشنج سنة 253 ثم صارت اليه كرمان سنة 256 وقد كان المعتز اعطاها له ولوالي فارس (علي بن حسن) ليوقع الخصومة بينهما ولكن يعقوب دحر مزاحمه واخذ منه فارس (مؤقتا) وأرسل يؤكد ولاءه للخليفة ببعض الهدايا ثم بعث يفاوضه لبعض الولايات .

واراد الموفق ان يصرف يعقوب عن الاتجاه نحو العراق بتشجيعه على التوسع في الشرق فلما اراد يعقوب فتح فارس مرة اخرى سنة 258 هـ (871 م) وصلته رسالة بتوليته على بلخ والاراضى الشرقية حتى الهند ولما لاحظ ضعف الطاهرى الأخير قرر مهاجمته ولم يعدم وسيلة يتعلل بها لذلك ادعى ان محمد الطاهرى ألجأ بعض اعدائه فدخل نيسابور سنة 260 (873 م) واسر الطاهرى وكتب للخليفة انه انما فعل ذلك استجابة لطلب الخراسانيين لانهم ملوا الفوضى الناتجة عن ضعف محمد وبعث كرمز ولاء للخليفة رأس خارجي ظل ثلاثين سنة في جوار هرات يتسمى بأمير المؤمنين .

ولم ينفعه هذا التقرب من الخليفة ولا نفعه دحره في السنة التالية لحسين بن زيد العلوى صاحب طبرستان وكتابته للخليفة بكسر الخارجين عليه واسر ستين من آل علي فنفوذ آل طاهر كان قويا في قصر الخلافة لدرجة ان الموفق جمع حجاج الولايات الشرقية سنة 260 ببغداد وقرأ عليهم منشورا يلعن الصفار واعتباره خارجا ، فأجاب يعقوب على ذلك بالسير الى فارس واحتلالها واخذ الاهواز من بغداد .

واضطرب الموفق لهذا فقد اضحت الخلافة اذ ذاك بين نارين : الزنج والصفار وحاول الموفق استرضاء الصفار بقراءة منشور بولية المشرق وشرطة بغداد ايضا وأرسل اليه سفارة تتألفه ولكن يعقوب الذى فقد كل احترام للخلافة صمم على المسير الى بغداد واجاب بكل تحد انه سيقرر في بغداد نفسها مايريد ، ولكن الدائرة دارت عليه قرب دير العاقول سنة 262 وقد حضر الخليفة المعتمد بالبردة والقضيب تلك المعركة وانقذ محمد بن طاهر من الأسر وعين من جديد واليا ولكن ولاية صورية على خراسان اذ لم يغادر بغداد .

وفيما كان يعقوب يعد العدة لهجوم جديد ويرفض التفاهم مع الموفق فاجأه الموت سنة 265 بعد ان ثبت نفوذه في جنوب ايران فقط وبايع الجند لأخيه عمرو (265 ـ 287 هـ ـ 879 ـ 900 م) من بعده ولم يكن لعمرو ما لأخيه من صفات : كان يعقوب يقيم حكمه على القوة ويعتبر السيف اساس حقه ويوجه كل اهتمامه للجيش ويبقى دوما الجندى البسيط الذى ينام مع جنده على الارض ويرتدى ملابس القطن الا انه لم يظهر نبوغا في الادارة ولم يربط ولاياته بنظام واحد

بل كان يثقلها بالضرائب ويصادر بعض المثرين . . . . وانا اتهم من قبل المؤرخ القزويني بانه شيعي فان ذلك لم يكن واضحا فيه بل لم يكن واضحا فيه اىميل وان كان جمع في الغالب من حوله كل العناصر المتذمرة من الطبقات الشعبية .

كان يعقوب كل ذلك ولكن اخاه عمرا جنح الى الهدوء والسلم فصالح الخليفة على ان يوليه خراسان وفارس واصفهان وسجستان وكرمان والسند وحكم بغداد العسكري وسامراء فاصبح بنظر الفقهاء على الاقل الحاكم الشرعي لها ، كما انه حاول التفاهم مع الطاهريين فولى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائبا عنه في بغداد ولكن هذا الهدوء لم يستمر طويلا اذ ان احد الثوار فتح نيسابور سنة 266 داعيا لإرجاع الطاهريين اصحاب الحق الشرعي وخطب باسمهم فأفسد ذلك من علاقة عمرو بالطاهريين . . . وفي سنة 271 ساءت علاقة عمرو ببغداد ايضا فان الموفق بعد ان اخضع الزنج اراد استرجاع فارس وفاوض عمرا في ذلك ولكن دون جدوى فجمع الخليفة حجاج خراسان وقرأ عليهم كتابا باقالة عمرو وامر بلعنه على المنابر . ثم فتح الموفق بعد سنتين بلاد فارس وهزم الصفار ، ثم لم يلبث بعد ان عينه على كل الولايات (بما فيها فارس) سنة 275 لكنه عاد فعزله سنة 276 (يناير 890) .

ولما كان عهد المعتضد اعترف بعمرو حاكما لخراسان وارسل اليه العهد مع لواء نصبه عمرو في صحن داره بنيسابور ثلاثة ايام ليراه الناس ، وطلب عمرو من الخليفة ان يوليه ماوراء النهر ويعزل عنها السامانيين فقرئ على حجاج خراسان مرسوم بذلك 285 ولكن عهد هذه التولية لم يكن اكثر من ورقة لان مركز السامانيين في ماوراء النهر كان قويا فقال عمرو لما قدم اليه العهد "وما اصنع به فان اسماعيل بن احمد الساماني لايسلم الي ذلك الابمائة الف سيف وكان عمرو في هذا ساعيا الى حتفه اذ ان جيشه تحطم قرب بلخ سنة 287 (900م) واسر هو نفسه وارسل الى بغداد فسر الخليفة بذلك ولبث في الاسر سنتين ثم قتل سنة 902م والخليفة على فراش الموت .

ويلاحظ في سياسة عمرو الداخلية ان سلطته كانت تعتمد على القوة والمال وعلى ترضي الطبقات الفقيرة لنوال تأييدها : ولهذا نراه يهتم خاصة بضمان الموارد الكافية لدولته وكان له ثلاثة بيوت للمال : فوارد الخراج والضرائب لنفقات الجيش وما يتحصل لدولته من الضياع والاملاك الخاصة لنفقات البلاط وما يجبى من المكوس وللاحداث والمصادرات يكون للهدايا والمنح للمقربين . وقد ضبط عمرو الرعية بنظام التجسس القوي الذي اقامه .

اما موقف الصفّارين من الخلافة فبالرغم من تأثر علاقاتهم بالخليفة بين مدّ وجذر فانهم كانوا دوما يخطبون له ويضعون اسمه على النقود (حتى حين كانت العلاقات مقطوعة ببغداد) ويظهر من اقامة علم العهد بصحن دار الصفار في نيسابور عدة ايام ان نفوذ الخلافة الديني كان قويا بين الجماهير وان العلماء والمتطوعة ماكانوا يعترفون بشريعة سلطة الصفار

الا بعد وصول كتاب العهد .

ولكن هذه العلاقة الاسمية مع الخلافة لم تسلم من التهجم : فقد كان يعقوب اول من ادخل اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة ** وكان عمرو اول من نقش اسمه على الدنانير ولم يكن قد تجرأ الطاهريون على ذلك ويظهر ان الجزية السنوية لم تكن تدفع لبغداد بانتظام فكانت هذه سنة لغيرهم .

ونرى من جهة اخرى ان كون الصفاريين من السنة جعلهم حلفاء طبيعيين للخلفاء ضد العلويين والخوارج ولكنهم كانوا اول من تهجم على سلطة العباسيين وانقص سلطتهم الدنيوية الى الحد الادنى .

الدولة السامانية : (262 ـ 389 هـ) في تركستان : (سامان) الجد الاعلى للعائلة وسمي على يد الوالي الاموي أسد بن عبد الله القسري وسمى ابنه على اسم الوالي . فكانت العائلة من النبلاء الزرادشتيين في بلخ فبرز اولادها في خلافة المأمون حتى اشار الخليفة سنة 819 على والي خرسان بتوليتهم بعض النواحي فكان (نوح على سمرقند) واحمد على فرغانة ويحيى على الشاش والياس على هراة واذا كانت وفاة الأخير قد أفقدتهم هراة فانهم حافظوا على سلطانهم فيما وراء النهر وطال العمر باحمد حتى اجتمع اليه حكم سمرقند وفرغانة والشاش وقسم من الصغد وبعض المدن التركية سنة 855 فلما توفي تسلم رئاسة العائلة وحكم المنطقة ابنه نصر سنة 864 واتخذ سمرقند مركزا له ولم يمض على ذلك عشر سنوات حتى ضم نصر اليه بخارى بدعوة من اهلها الذين دعوه وخطبوا له . وفي السنة التالية وصل عهد الخليفة المعتمد (سنة 262 ـ 875) بتولية نصر على ماوراء النهر كله .

ولكن نزاعا اخويا قام بين نصر واخيه اسماعيل اذ ألقت سيرة اسماعيل (نائب بخارى) في القضاء على اللصوص واسترضاء النبلاء الشك في صدر اخيه وانتهى النزاع الطويل سنة 888 بأسر نصر فعامله اسماعيل بكل احترام وخاطبه كرئيس لا كأسير وأبقاه في سمرقند كرئيس اسمي للعائلة حتى توفي سنة 892 .

وصار الحكم بعد وفاة نصر لاسماعيل وجاء عهد الخليفة بذلك سنة 893 واستطاع السامانى التوسع بضم اشروسنة الى ولايته ثم الحاق خراسان بها بعد أسر صاحبها (عمرو الصفار) ثم السيطرة على طبرستان بعد هزيمة محمد بن زيد العلوي فيها .

واذا لم يظهر بعد اسماعيل امير قدير فان توطد حكم السامانيين في ماوراء النهر ومتانة الادارة السامانية مكنتهم من المحافظة على الحكم مائة سنة . ويسترعي الانتباه ان نصرا الثاني حفيد احمد اتهم بميول اسماعيلية فتآمر ضده الحرس فاضطر لأن يتنازل لابنه نوح سنة 943 وبدأت منذ ذلك الوقت بوادر الاختلال تظهر في الاسرة السامانية اذ تعاظم نفوذ الحرس التركي وصار اليهم اللعب بالامراء الضعاف والتدخل بالسياسة واسقاط هيبة

الوزراء بسبب اختلال الادارة واضطراب الامور المالية حتى غدت الخزينة تشكو الافلاس المزمن وكان ذلك صورة مصغرة لما كان يجرى قبل ذلك بقليل في بغداد ..

وبدأت الدولة السامانية بالتقلص كما جرى في الخلافة بتأثير الثورات الداخلية (وقد كان لمطامع الحرس التركي يد كبيرة فيها) فظهر البويهيون في الغرب وتزعم القرخانيون قبائل الترك بين فرغانة وحدود الصين في الشرق طلبتكين (احد قواد السامانيين) امارة مستقلة في غزنة سنة 962 وفي سنة 977 اصبح مولاه سبكتكين اميرا لها فوالى السامانيين وكان يخمد لهم الثورات وقد كافؤوه على اخماد احدى الثورات الخطيرة سنة 994 بتعيين ابنه محمود لولاية خراسان وكان ذلك نواة الدولة الغزنوية اذ ان محمودا استطاع بعد وفاة والده واسترداد السامانيين لخراسان ان يدحر الجيش الساماني ويأخذها منهم سنة 909. وفي الوقت الذي دخل فيه القرخانيون بخارى انتهى الحكم الساماني .ومراقبة علاقات السامانيين مع الخلافة لاسيما في الفترة التي سبقت الفتح البويهي للمراقب تبين لنا انها كانت علاقات شكلية واهية : فليس هناك مايدل على دفعهم الجزية بانتظام ومنح الخليفة لهم حق ذكر اسمهم في الخطبة كما نقشوا اسماءهم على الدنانير بجانب اسم الخليفة .

ولكن السامانيين بسبب اتباعهم المذهب السنّي كانوا بحاجة الى عهود التولية من الخلفاء ليضحوا الحكام الشرعيين في نظر الناس بالرغم من انه لم يكن للخليفة يد او رأي في تولية الامراء وعزلهم ، كما ان القضاء على كل نزعة تخالف مذهب الخلفاء بما وراء النهر كان في مصلحة السامانيين أيضا ولهذا طارد نوح الساماني الاسماعيلية واضطهد انصارها وصادر املاكهم . وكان بنو سمان يبعثون الى الخليفة برؤوس الخارجين عليهم (يطلبون منه الشكر على ردّ الثائرين على الدولة بناحيتهم) .

اما علاقة السامانيين برعاياهم فكانت علاقة حسنة جدا اذ نحن صدقنا المقدسي فهو يمتدح سيرتهم في الحكم واجلالهم للعلم فيقول :"كان من رسومهم مثلا انهم لايكلفون اهل العلم بتقبيل الارض بين ايديهم ويذكر ان في امثال الناس " لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليبست " ... ولعل هذا الاطراء من جانب المقدسي كان لأسباب شخصية ولم يمض على كتابته أكثر من عشرين سنة حتى انتهى حكم السامانيين واجتاح الترك دولتهم من الشمال الى الجنوب .

على ان لاشك في ان السامانيين ساروا سيرة حسنة في الرعية وعنوا بحماية الزراع والفلاحين من ارهاق وكان حكمهم الحكم المستبد العادل ولكنهم كانوا النبلاء فلم يستطيعوا تمثيل النزعات الشعبية كما مثلها أبو مسلم مثلا وان كنا نستطيع ان نرجع مبدأ النهضة الفارسية الفعلي الى عهدهم فقد ادعى السامانيون انهم من نسل بهرام (جوبين) زعيم الساسانيين الذى هرب الى الترك سنة 591 م . وكانت اللغة الفارسية هي لغة معظم أمرائهم وأفتى

العلماء بجواز الصلاة باللغة الفارسية وشجع السامانيون الشعراء الفرس حتى من صرح من هؤلاء الشعراء بما يخالف الاسلام . قال الشاعر الرودكي السمرقندى " لامعنى لتولية الوجه نحو القبلة والقلب منجذب الى القدسية المجوسية " . وصرح الدقيقي وهواول من حاول نظم الاساطير الايرانية بعلاقته بالزرادشتيه فيقول : " اختار ابربعة اشياء من كل الخير والشر في الدنيا : شفقة الحبيب بلون الياقوت وزمزمة العود والخمرة القانية ودين زرادشت " . والى عهد السامانيين يرجع نقل تفسير الطبرى الى الفارسية .

دول الشام ومصر

الدولة الطولونية في مصر

254 ـ 292 ـ 868 ـ 905

احمد ابن طولون : مرت بنا كلمة عن اصله وانه قد عرف بعلو الهمة وحسن الادب والشغف بالعلم ومصاحبة الزهاد كما اشتهر بحب الغزو فخرج الى طرسوس مرات لحرب الروم وتزوج من ابنة (بارجوج) احد كبار الاتراك في دار الخلافة فساعده على تولّي بعض أعمال طرسوس وفي سنة 254 تقلد بايكباك ولاية مصر فاستخلف احمد بن طولون على حاضرتها فقط .

ولم يكن هذا الوضع يرضي ابن طولون فهو يحكم الحاضرة دون غيرها ويحكمها من قبل شخص اخر يستطيع ان يعزله متى شاء ثم ان (ابن المدبر) وهو عامل الخراج كان ينافسه ويدأب للايقاع به عند الخليفة أضف الى هذا وذاك الأماكان من تأرّث العداء بينه وبين (الموفق) اخي الخليفة العباسي وصاحب الأمر والنهى في دار الخليفة . وقد عمل ابن طولون وتغلب على هذه الصعاب .

(آما ابن المدبر فقد كان داهية وله انصار أقوياء وقد عرف ابن طولون من عيونه الذين استمالهم بالهدايا والعطاء ان ابن المدبر كان يدبر له وقيعة وأنه يتهمه بالسعي للاستقلال بمصر فكان من حسن الحظ أن عين حميه بارجوج واليا على مصر فاستخلفه على الولاية كلها فتخلص من ابن المدبر باقصائه عن مصر ثم استقل بخراجها ايضا سنة 263 .

واما الموفق فكان واليا على القسم الشرقي من الدولة العباسية وفي سنة 256 امتنع والي الشام عن دفع الجزية الى الخليفة وطمع في اخذ مصر فطلب الخليفة الى ابن طولون ان يغزو الشام على ان تكون له ولايتها فخرج ابن طولون لكن الموفق خشي ازدياد نفوذه فعمل لدى الخليفة على صرفه عن الشام .

على ان حلم الاستيلاء عليها لم يزايل ابن طولون فخرج سنة 264 واستولى على جزء كبير منها لكنه اضطر للعودة سريعا الى مصر حين اتصل به نبأ خروج ابنه العباس عليه . وقد فر العباس الى برقة وكتب اليه ابوه ينصحه بالرجوع لطاعته فلم يذعن وفي سنة 368 بعث اليه بجيش وقبض عليه وسجنه بالفسطاط .

ومازال الموفق يدس الدسائس لابن طولون ويحث موسى بن بغا (صاحب النفوذ في القسم الغربي من الدولة) على طرده من مصر والشام حتى جمع موسى جيشا لغزوها لكن امنيته وافته قبل تحقيق غرضه .

وقد استعد ابن طولون للدفاع عن مصر فبنى حصنا منيعا يحميه ويحمي اسرته كما انشأ السفن الحربية وحصن الثغور . ثم خرج سنة 265 الى الشام مرة ثالثة فاستولى عليها واوغل فتوجه الى آسيا الصغرى وكان له الفضل العظيم في قتال البيزنطيين وردهم عن سورية حتى أجلاهم عن كيليكيا .

قام ابن طولون بكثير من ضروب الاصلاح في مصر فبنى حاضرة جديدة لمصر هي مدينة القطائع بعد ان ضاقت على جنده الكثير الحاضرة الاولى وأقام فيها العمائر الكبيرة وبنى جامعا لايزال يذكره الناس حتى الآن باسمه وعين في الجامع طبيبا لمن يتداوى . وحفر خليج الاسكندرية ورمم منارها . غير ان اهم عمل انساني خلّد اسم ابن طولون ولم يسبقه اليه احد في مصر هو بناء البيمارستان سنة 259 . وهو مستشفى كان يقيم فيه المرضى بلا مقابل كما كانت تصرف لهم الادوية بالمجّان من غير تمييز في الدين او الجنس وقد جعل ابن طولون في البيمارستان حمامين للرجال والنساء وكان يتفقده كل جمعة ويواسي مرضاه .

توفي ابن طولون سنة 970م بعد ان استردت مصر في عهده شيئا كبيرا من قوتها وعظمتها واستقلالها . وعرفت عهد رخاء ورخص واستمرار ونهضة في الفنون والآداب والصناعة لم ترها منذ زمن طويل .

خمارويه بن احمد بن طولون (270 ـ 282 هـ / 883 ـ 895م) :ـ حين توفي احمد اجتمع الجند على ماقضت به العادة في ذلك الوقت وولوا مكانه ابنه خمارويه وكان في العشرين من عمره ثم اقر الخليفة هذا التعيين وقد ظلت مصر في عهده كما كانت في عهد ابيه مطمح أنظار المتنافسين من قواد الترك ومثار حسد الموفق وكان اول اعمال خمارويه أن بعث بجيش كثيف الى الشام يؤيد الاسطول . ولكن (الواسطي) قائد جيش خمارويه خان مولاه وانضم للموفق وحرّضه على قتل خمارويه .

وخرج الموفق من بغداد وانضم اليه بعض الولاة واستولى على دمشق ثم تقدم جنوبا الى الرملة حيث دارت بينه وبين خمارويه موقعة كبيرة انهزم فيها خمارويه وعاد الى الفسطاط لكن بعض فلول جيشه انقضت على العدو وهو يجمع الاسلاب فهزموه وحين علم خمارويه بما تم قوى عزمه وخرج ثانية الى الشام سنة 273 فدخل دمشق وحارب حروبا طويلة جعلت اعدائه يخشون بأسه .

وتم الصلح بينه وبين الخليفة على ان تكون ولاية مصر والشام له ولاولاده من بعده ثلاثين سنة .

وقد انتهز خمارويه ضعف الموصل والانبار فاستولى على الرقة وبسط نفوذه على الموصل والجزيرة وهاجم البيزنطيين في آسيا الصغرى عدة مرات وقد صفا الجو لخمارويه بعد موت الموفق فرضي عنه

الخليفة المعتضد واصبح يحمل سنويا الى دار الخلافة (300) الف دينار وكان من أثر تحسن علاقته مع الخلافة ان تزوج الخليفة نفسه من قطر الندى ابنة خمارويه وأسرف الوالد في تجهيز ابنته حتى بنى لها على رأس كل مرحلة في الطريق الى بغداد منزلا فخما تنزله وجهزه بجميع وسائل الراحة .

آثار خمارويه :- اشتهر بحبه للترف وأنشأ في قصر ابيه حجرة سماها بيت الذهب نقشت جدرانها بالذهب الخالص كما أقام مايشبه حديقة الحيوان وبنى القصور المختلفة .

ويدلنا بذخه على وفرة موارد الثروة في مصر في زمنه . غير ان اسرافه قد أفقر خزانة الدولة. ويرى بعض المؤرخين ان زواج قطر الندى كان زواجا سياسيا رمى الخليفة من ورائه الى اضعاف ثروة مصر ليسهل عليه تحطيمها .

سقوط الدولة الطولونية :- توفي خمارويه في دمشق سنة 282 هـ فخلفه ابنه ابو العساكر ولكن الناس لم يرضوا عنه وافتى الفقهاء بعزله فقبض عليه ومات في سجنه وخلفه هارون ابن خمارويه وكان صغيرا فاغار القرامطة على الشام في عهده سنة 290 وهزم امامهم وبعث الخليفة بأسطول هزم الاسطول الطولوني واستولى رجال الخليفة على مصر ونهبوا (القطائع) عاصمة الطولونيين وازالوا الدولة الطولونية بعد الحكم الذى دام 38 سنة .

بعد الطولونيين :- استمر الاضطراب في مصر اثر عودتها الى سلطان العباسين المطلق وذلك لضعف الولاة والقواد وعمال الخراج .

وظلت مصر في هذه الفوضى الى ان وليها محمد بن طغج الاخشيدى سنة 323 هـ ودخلت مصر في عهده في طور جديد من التقدم والاصلاح .

الدولـــة الاخشيـــديـــة

323 ـ 358 / 935 ـ 969م

الأخشيد :- اسس هذه الدولة محمد بن طغج الاخشيدى من اولاد ملوك فرغانه وكان يلقب ملوكها بالاخشيد كما يلقب ملك الفرس (كسرى وملك الروم قيصر) .

وقد اتصل طغج بخدمه الطولونيين فولاه خمارويه دمشق وطبرية وكان لطغج شأن كبير في خلع ابي العساكر جيش بن خمارويه سنة 283 وساعد العباسيين على استرداد مصر ولكن وزير الخليفة في بغداد غضب عليه فحبسه هو وابنيه فتوفي في السجن سنة 294 فأطلق الوزير الابنين وأدخلهما في خدمته واشتهر محمد بن طغج بالشجاعة والمهارة الحربية وفي سنة 306 أنابه (تكين) والي مصر والشام على بعض اعمال فلسطين ثم على الاسكندرية ثم ولاه الخليفة على مصر سنة 323 مكافأة له على رد غزوة الفاطميين عنها .

تخلص ابن طغج من خطر الفاطميين بالصلح سنة 324 ثم غضب من الخليفة سنة 328 فقطع له الخطبة مدة لأنه عين ابن رائق بدلا منه على مصر وجهز جيشا يحارب الشام من شمالي

الرملة وتعهد بدفع جزية سنوية كبيرة له (140 الف دينار) .

وقد دعاه لذلك خوفه من تجدد القتال مع الخليفة ومن غزو الفاطميين له من الغرب وغزو الحمدانيين من الشمال وأيد الاخشيد خطة المسالمة هذه بتزويج ابنته من ولد ابن رائق وقد عادت ولاية الشام كلها الى الاخشيد بعد وفاة ابن رائق من غير حرب سنة 330 كما اعترفت مكة والمدينة بنفوذه .

وبعد ان فرغ الاخشيد من ابن رائق تفرغ لحرب الحمدانيين اصحاب حلب فخرج بجيش كثيف سنة 333 لحرب سيف الدولة الحمداني فهزمه في حمص واستولى على حلب نفسها ولكن الاخشيد رغم عقد الصلح مع سيف الدولة ترك له حلب كما تعهد بدفع جزيه سنوية له .

ويظهر ان الاخشيد قصد ان يبقى الحمدانيون درعا في وجه البيزنطيين بصدهم عن بلاد الشام ..

توفي الاخشيد سنة 334 في فلسطين ودفن في بيت المقدس بعد ان ثبتت قدمه في مصر والشام والحجاز وأصبح من القوة بحيث أخذ البيعة من الناس لابنه (انوجور) وقد أقر الخليفة العباسي نظام الوراثة الذى سنّه الاخشيد .

كافور :- كان (أنوجور) في الخامسة عشرة من عمره حين مات ابوه فقام بتدبير أمره ابو المسك (كافور) خادمه . وكان عبدا اشتراه محمد بن طفج بثمانية عشر دينارا ولما آلت مصر للاخشيد جعل كافورا (أقابك) أى مربيا لولديه لما توسمه فيه من الهمة والنجابة .

وقد حاول سيف الدولة فتح مصر في اول عهد انوجور فأخذ دمشق وسار نحو الرملة ولكن كافور ردّه واخرجه من دمشق وغنم غنائم كثيرة أذاعت شهرته وصار يلقب (بالاستاذ) ودعي له على منابر مصر والشام والحجاز . واتيح له ان يكسب محبة الناس والقواد بالعطايا والهبات .

وقد كبر انوجور فوجد السلطة ليست له فتنافر مع كافور وانقسم الجند فريقين لكن موت انوجور سنة 349 انهى القضية . كما انهاها مع علي بن الاخشيد الذى تولي الأمر بعد ذلك واستوحش من كافور ثم توفي سنة 355 وحاول كافور دون تعيين ابنه لصغر سنه وحصل من الخليفة العباسي على كتاب بتقليده ولاية مصر .

وقد حل في عهد كافور كثير من البلاء والبؤس والغلاء بمصر وقاسى الناس تسع سنوات شداد من القحط وفشا الموت والوباء وحتى كانت الجثث تلقى في النيل بدل دفنها لكثرتها وعم السلب والنهب واضطرب الامن في البلاد حتى أن حراس كافور من الاتراك والروم ثاروا عليه لانه لم يستطع دفع رواتبهم وتوفي كافور سنة 357 / 968 فحل بمصر البؤس والفوضى واستلم ادارتها الوزراء حتى انتهز المعز لدين الله الفاطمي الفرصة وكانت الخلافة العباسية في شغل ضد غارات البيزنطيين فهاجم قائده جوهر الصقلي مصر سنة 358 واستولى عليها وتوغل في بلاد الدوله العباسية بالشام حتى وصل الى الفرات .

البويهيـــون والخلافة العباسية

نستطيع ان نوجع في بحث بني بويه وعصرهم بعد المراجع العامة من كتب التاريخ والادب الى المراجع الخاصة التالية :-

ذيل تاريخ مسكويه	ابو شجاع (القاهرة 1921)
تجارب الأمـــم	مسكويه
تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، عبد العزيز الدوري	
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري	أدم متـــز
الآثار الباقيـــة	البيروني
المنتظم في تاريخ الامم (ج 5)	ابن الجوزي
الفخري في الاداب السلطانية	ابن الطقطقي
الرسالة القشيرية	القشيري
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم	المقدسي (البشاري)
الادب في ظل بني بويه	محمود غناوي الزهيري
دراسات في العصور العباسية المتأخرة	عبد العزيز الدوري

هذا عدا ماجاء في الكتب الاجنبية ومنها :

I - Art. Buwahids : Encyclopedie de l'Isaam

2 - Minorsky : Les domination des Dailamites

3 - Bouden : The life and tlmes of Ali bon Issa

العصر العباسي الثالث أو عصر نفوذ آل بويه (334 - 447 هـ / 946 - 1055م) :

العصر البويهي هو تلك الفترة من تاريخ العباسيين التي تبدأ باستيلاء بني بويه علـــى بغداد سنة 334 هـ (946م) وتنتهي باخراجهم منها على يد السلاجقة سنة 447 هـ (1055م) وليست هذه التسمية في واقعها صحيحة لأن العالم العباسي كان قد تفكـك فلا يمكن ان يعتبر التاريخ الاسلامي في هذه الفترة عباسيا ولأن البويهيين لم يحكموا العالم الاسلامي العباسي كله ليسمى العصر بويهيا . ويلاحظ ان المؤرخين المسلمين بدؤوا منـــذ مطلع الفترة (الربع الأول من القرن الرابع) يهجرون كلمة (الخلافة العباسية) او ما فـــي معناها الى اصطلاح آخر كان اكثر انطباقا على الواقع التاريخي وهو مملكة الاسلام وتمتـــد من كاشغر في اقصى المشرق الى السوس الأقصى في المغرب وانها تقطع في نحو عشرة أشهـر لكن الحكم لم يكن اليد واحدة في المملكة الاسلامية فان خلافة الأمويين في الاندلس كانـت قائمة وللأدارسة حكم المغرب كما كان العبيديون (الفاطميون) بدؤوا بالظهور في تونـس اما باقي عمل امير المؤمنين على اصطلاح المؤرخين العباسيين فكان هؤلاء المؤرخـــون يعددونه تعدادا من يصفي حسابه ويوردون تفككه جزءا جزءا . ويلاحظ من ترتيب ايرادهم لهذه الاجزاء انهم يعتقدون تباينها على مصدر واحد لعله ابن مسكوية في تجارب الأمـــم

فهم يقولون : تغلب كل رئيس على ناحية وانفرد بها فارس واصبهان والري والجبل في أيدي بني بويه وكرمان في يد محمد بن الياس والموصل وديار ربيعة وديار بكر ومصر في ايدى بني حمدان واصبحت مصر والشام في يد محمد بن طفج وخراسان في يد نصر بن احمد والاهواز وواسط والبصرة في يد البريديين واليمامة والبحرين في يد ابي طاهر القرمطي وطبرستان وجراجان في يد البديلم ولم يبق في يد الخليفة الا بغداد واعمالها . (مسكويه ، ابن الاثير ، ابن الجوزى ، المسعودى ، ابو الفداء . . . . ويعلق المسعودى على هذا بأنه أشبه بفعل ملوك الطوائف بعد موت الاسكندر على ان شبحا لسيادة الخليفة العباسي ببغداد ـ كما يقول متز ـ ظل ماثلا في الاذهان وكان اصحاب الاطراف وملوك الدول المنقطعه يعترفون للخليفة بالسيادة ويقدمون له الدعاء في المساجد ويشترون منه ألقابهم ويرسلون اليه الهدايا كل عام . وكان المنصب فحسب هو مظهر سلطان الخليفة ، كامبراطور الجرمانية القديمة المقدسة ، يحكم المانيا وليس له عليها الا سلطان قليل . . . وفي هذه الفترة من الضعف فقد تجرأ الناس على لقب الخلافة : فاتخذه الفاطميون سنة 297 ثم إتخذه أمويو الاندلس سنة 350 بعد ان كانوا يلقبون انفسهم بأبناء الخلائف ولكن قيمة اللقب قد هبطت حتى تجرأ حاكم سني صغير في سجلماسة سنة 342 على التلقب به .

الخلفاء :ـ بالرغم من أن فترة العصر العباسي الثالث تزيد كثيرا على قرن واحد فانه لم يتوال على عرش الخلافه سوى اربعة خلفاء استمر رابعهم عشرين سنة في العهد السلجوقي التالي :ـ

1 ـ المطيع (334 ـ 363 هـ / 946 ـ 974م) .
2 ـ القادر بالله (381 ـ 442 هـ / 993 ـ 1031م) .
3 ـ الطائع (363 ـ 381 هـ / 974 ـ 992م) .
4 ـ القائم بالله (422 ـ 467 هـ / 1031 ـ 1075م) .

ويمكن ان نستدل سلفا من قلة عدد الخلفاء واستمرار خلافة هؤلاء الاربعة قرنا وثلث القرن (133) سنة ومن ان كلا من الثاني والرابع كان ابنا لسابقه (القادر هو ابن عم الطائع) ان عهدهم كانت هادئة بعيدة عن العواصف وما ذاك لقوتهم ولكن لفقدهم السلطة فقدا كاملا "فليس للخليفة الا مجرد اسم " كما قال معاصرهم ابن العميد . وربما كان في القابهم مايشعر بموقفهم الضعيف بصورة عامة فمن مطيع الى طائع الى قادر الى قائم بأمر الله . نكاد نرى ان الخلافة تتدهور وان يقظتها قد تبدت نحو ما في عهد القادر ولم يكن قادرا حقا ولكن قد سجل لنالقبه هذا عودة احترام الناس للمنصب الخلافي في عهده .

المطيع :ـ أتى به معز الدولة بن بويه بعد ان أجبر المستكفي على ان يخلع نفسه وقد انتقم المطيع لاخيه (المتقي) من المستكفي فأمر بسمل عينيه . ويعلق ابن الاثير على خلافة المطيع بقوله : "والحرمة قائمة بعض الشئ فلما كانت ايام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث ان الخليفة لم يبق له وزير وانما كان له كاتب يدير اقطاعه واخراجاته لاغير . . . . " ويظهر

ان هذا التضييق لم يدم طويلا فان معز الدولة استخلف المطيع بيمين عظيمة الا يبغيه سوءا ولا يمالئ عليه عدوا فلما حلف الخليفة واستوثق البويهي منه أزال عنه المتوكل وردّه الى دار الخلافة .

ونال المطيع فالج وكان يستره فما زال يزداد حتى ظهر وتعذرت عليه الحركة وثقل لسانه فتنازل عن الخلافة لابنه (الطائع) بدعوة من الحاجب سبكتكين وصار يسمى الشيخ الفاضل .

الطـــائـع : وكانت ملامحه تضرب الى البياض والشقرة وحسن الجسم والقوة ، وقد وصفـــه ابن العميد بقوله : " كان جوادا كريما الا ان يده كانت قصيرة مع بني بويه فانهم كانـــوا الملوك وليس للخليفة الا مجرد الاسم " .

وقد خلعه عن العرش بهاء الدولة البويهي خلعا مهينا اذ أظهر تقبيل الارض بين يديـــه بينما كان بعض الديلم يجذبون الخليفة من يديه وهو يستغيث ولا يلتفت اليه . ونهبت الـدار واخذ مافيها من الذخائر . وحضر تلك الجلسة الشريف الرضي . واجبر الطائع على خلـــع نفسه ففعل واعطيت الخلافة سنة 381 لابي العباس احمد بن اسحق بن المقتدر الذى تلقب بلقب القادر على ان الطائع بقي مكرما لدى الخليفة الجديد اثنتي عشرة سنة حتى مات .

القـــادر : (ابو العباس احمد) : هو من أطول الخلفاء العباسيين حكما (41) سنة . عرف بلحيته الطويلة الكثة المخضوبة وبأنه كان من اهل الديانه و الستر وادامة التهجد بالليل وكثر البر والصدقات . كان يأخذ ثلثي الطعام الذى يهيأ لافطاره ويقسمه بين جامعين كبيرين . وكان يلبس زىّ العوام ويقصد الاماكن المعروفة بالبركة مثل قبر معروف الكرخي وتربة ابن بشـــار وكان يتخفى ويغير زيّه ليتعرف على احوال رعيته . على ان الخلافة لم تستفد شيئا يقويها مـن محاولاته هذه وان استفادت دون شك منه في اسباغ الرواء الديني عليها .

ويقول عنه ابو شجاع (في ذيل تجارب الأمم) ان اربعة من ائمة السياسيين اشتهروا بفضائل افردوا بمزاياها هم السفاح والمنصور والمعتضد ثم القادر بالله الذى قدر من صلاحها مالـم يقدر عليه سواه وسلك من طريق الزهد والورع ماتقدمت فيه خطاه فكان راهب بني العباس حقا وزاهدهم صدقا ساس الدنيا والدين واغاث الاسلام والمسلمين عليها واستأنف في سياسة الأمـر طرائق قويمة ومسالك مأمونه سليمة هي الآن مستمرة والقاعدة عليها مستقرة لم تعرف منه زلـــه . ولا ذمت له خلة فطالت أيامه وطلبت اخباره . . . .

وقد كتب ابن الاثير عن القادر : " كانت الخلافة قبله قد طمع فيها الديلم والاتراك فلمـــا وليها اعاد جدتها وجدد ناموسها وألقى الله هيبته في قلوب الخلق فاطاعوه احسن طاعـة وأتمهـــا . . . . "

اما واقع سلطه القادر فيمكن ان نعرفها من كتابه الذى اجاب به بهاء الدولة البويهي علـــى تعيينه خليفة بدل الطائع اذ عهد اليه بالامر كله وقال له : اصبحت سيف امير المؤ منيـــين

النبيذ لاعدائه المستبد بحماية حوزته ورعاية رعيته والسفارة بينه وبين ودائع الله عند بريته .
ونعرفها ايضا من الخبر الذي اورده ابن الاثير اذ ذكر انه " عقد مجلس حلف فيه بهاء الدوله للقادر بالله على الطاعة والقيام بشروط البيعة وحلف له القادر بالوفاء والخلوص واشهد عليه ان قلده ماوراء بابه .

وقد استمرت علائق البويهي بالخليفة حسنة حتى لقد تزوج الخليفة من ابنة بهاء الدولة واستمرت كذلك في عهد سلطان الدولة (ابن بهاء الدولة) وذلك لأن الخليفة لم يكن يتدخل في صغيرة من الامر او كبيرة ولا نكاد نسمع عنه طوال عهده سوى ماذكر عن تدخله لبقاء الحكم في بيته باعطاء ولاية العهد لابنه من بعده سنة 311 . فأما اخبار الدولة العباسية واحداثها فتركزت من حول البيت البويهي .

القائم بأمر الله :— (ابو الفضل) كان أبوه لقبه بالغالب بالله فعدل عنه الى هذا اللقب. وامه ام ولد روميه تسمى بدر الدجى (وقيل قطر الندى) وكان على سنة ابيه في التدين. والورع والزهد والعلم ، يقول ابو المحاسن (في النجوم الزاهرة) : كان في وجهه اثر صفار من قيام الليل . وكان يسرد الصوم (أى يتابعه) .

وقد عاصر هذا الخليفة في عهده الطويل (الذى دام 45 سنة) الخليفة الفاطمي المستنصر في عهده الاطول ايضا (60 سنة) يسجل في تاريخ الخليفة القائم سوى ثورة البساسيرى الذى حاول بها صاحبها وليس في بغداد ، نقل الخلافة الى الفاطميين لولا تدخل السلاجقة . . .ولكن ذلك كان بعد انتهاء العصر البويهي في العراق وبعد ان استنجد القائم نفسه بطغرل بك السلجوقي واستدعائه الى بغداد للتخلص من مفاسد الحكم للبويهي .

بنو بويه : بلاد الديلم : كانت بلاد الديلم في القرن الرابع الهجرى تشمل مابين خراسان شرقا والجبال جنوبا واذربيجان في الغرب .

اما الديلم فربما كانوا في الاصل غير ايرانيين ولكنهم سكنوا المنطقة في جنوبي بحر قزوين وتكلموا لهجة ايرانية شمالية تختلف عن لهجة فارس (الجنوبية) ولكنهم في العصر الاسلامي كانوا قد اندمجوا م الايرانيين . وكان تنظيمهم الاجتماعي " اسريا " ورؤساء العوائل فيه (الكتخدا — رب البيت) هم اصحاب السلطة أرستقراطية المجتمع . ولم يقض على هذا النظام الا حين جاء الحسن الاطروش فاستبدل به نظام التعاون بين مختلف طبقات الشعب . ومنزلة النساء عندهم حسنة . ويذكر مسكويه : " كن يجرين مجرى الرجال في قوة الحزم وأصالة الرأى والمشاركة في التدبير " .

ويظهر ان الديلم لم يكونوا على درجة راقية في الحضارة كبقية الايرانيين ، كان معظمهم أكرة وفلاحين ، والفرس كانت تسمى الديلم اكراد طبرستان وكان يحتقرهم البغداديون ويرونهم جهالا خشنين ، ويشيد الكثيرون بشجاعتهم وجمال وجوههم وقاماتهم .

اما في الدين فيظهر ان موجات الاديان المختلفة قد وصلت اليهم دون ان تستأثر بهم فقد وصلتهم الزارادشتيه كما عرفوا المسيحية ، ويذكر المسعودى ان فيهم من جهل كل الاديان المعتبرة . ولم يستطع الاسلام ان ينفذ اليهم لوعورة ارضهم . واضطر المسلمون في العصر الاموى للتحصن في مناطقهم ببعض القلاع التي كان اقامها الساسانيون لنفس الغاية.

وبقي الديلم وثنيين او زرادشتيين حتى قبيل للقرن الثالث الهجرى ثم تسرب الاسلام اليهم بطريقة سلمية على يد احد العلويين الزيدية (175 - 791 م) الهارب من اضطهاد بغداد فقوبل مع اصحابه هناك مقابلة الحليف .

وقد استطاع هؤلاء الائمة ان يحتلوا مركز مقاومة جديد من بغداد وخراسان .

وقد قاده اول الامر سنة 250 الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل ضد الوالي سليمان ابن عبد الله (عم محمد بن طاهر امير خراسان) الذى ضم اليه بعض مراعي الديلم المشاعة وفيها محتطبهم ومسرح سارحتهم ونجح الحسن في مساعدة الفلاحين وكسبهم ولما مات سنة 270 خلفه اخوه محمد بن زيد فبقي فيهم الى ان فتح المنطقة السامانيون سنة 287 (900 م) . ثم ثار بالمنطقة سنة 301 الحسن بن علي الاطروش ناصر الحق فنشر الاسلام بينهم وعدل ، ويظهر انه كان للحركة صبغه شعبية فقد قضى على سلطة الكتخداهيه وبقيت البلاد بيد عائلته حتى سنة 314 هـ / 928 م حين فتح مرداويج المنطقة وأنشأ الامارة الزيارية المسلمة . وهكذا نجحت الدعاية العلوية حيث عجز السلاح فتحول اكثر الديلم الى الاسلام على المذهب الشيعي الزيدى في الوقت الذى تديلم فيه الائمة انفسهم فجعلوا قضية السكان المحليين قضيتهم الخاصة . ولم تعد البلاد دار حرب بالنسبة الى المسلمين فتوقفت الحملات عليها منذ مطلع القرن الرابع كما توقف اخذ الرقيق منها .

ويظهر ان الاسلام في الديلم المتأخرين فعل بهم مافعل بالعرب وما فعله بالترك من حماس وحب المغامرة ولاسيما وان الائمة بدوا بتعويد الديلم على التوسع بقيادتهم الحملات خلال منطقة قزوين الجنوبي لحماية المراعي المشتركة .

لم يكن مرداويج ديلميا ولكن من سكان جيلان اقرباء الديلم وهو مؤسس الدولة والسلالة الزيارية التي كانت اول سلاله تثبت مركزها غرب اراضي السامانيين في ايران وامتد نفوذها في غربي ايران حتى الاهواز ولكنها استقرت اخيرا في منطقة جرجان واستمر حكمها حتى سنة 418 هـ / 1029 م

كان مرداويج خشنا حتى ذكر المؤرخين ان الاسلام لم يكن عميقا في قلبه لانه فعل بابناء المسلمين وبناتهم فعل الكفار فاعمل فيهم السبي وتملك من الغلمان والجوارى في قول المقل خمسين الفا ويرفعها المكثر الى مائة الف . وكان ايرانيا في طموحه كما كان رجلا متفائلا عريض الآمال والمشروعات كان يقول : " انا اراد دولة العجم وابطل دولة العرب " .

وقد سأل - كما يذكر متز - عن تيجان الفرس وهيئتها فمثلت له فاختار صفة تاج كسرى فعمل

له تاج من الذهب جمعت فيه انواع الجواهر وضرب له سرير من الذهب قد رصّع بالجواهر فجلس عليه وجعل عليه منصة عظيمة وجعل امامه سريرا من الفضة عليه فرش مبسوط ودون ذلك كراسي مذهبة ليترتب اصحاب الاقدار مراتبهم في المجالس . وكان ينوي قصد بغداد وكتب الى احد عماله ان يعد له ايوان كسرى منزلا ويعمره كهيئته قبل الاسلام .

وقد اطاف به شياطين الدهاة فزخرفوا له صورة ملك سيظهر وتجبى له كنوز الارض فاظهر انه ذلك الملك وقرر ان يسير الى بغداد فيقبض على الخليفة ويولي اصحابه مدن الاسلام بأسرها في شرق الارض وغربها مما في يد ولد العباس وغيرهم . ويقول المسعودي : واسترسل في مثل هذا الخيال .....

على انه لم يستطع تحقيق ذلك ، فقد اتفق ان قرب اليه بعض الترك وجعلهم حراسه دون الديلم ، فوجد الديلم عليه ثم اتفق ان عاب هو الترك ذات يوم لسبب تافه (أزعجه شغب دوابهم) فاتفقوا على الفتك به وهجموا عليه وهو في الحمام وقتلوه . وقد استطاع اخوه وشمكير وابنه قابوس ان يحتفظا من امارته الواسعة بامارة صغيرة في جرجان .. اما بقية ميراثه فآل الى بني بويه وهم بعض قواده .

بنو بويه :- ان تعاقب عدد من رؤساء الديالمة على المسرح السياسي في ايران منذ مطلع القرن الرابع يدل على القوة الكامنة في بلاد الديلم هذه القوى التي ادت اخيرا الى ظهور اهم سلالة ديلمية : البويهيين . مؤسسو الدولة اخوه ثلاثة : علي (وهو فيمابعد عماد الدولة) وحسن (ركن الدولة) واحمد (معز الدولة) وابوهم بويه ابو شجاع الذى منح العائلة اسمه ليس اكثر من صياد فقير في قرية كياكليش على بحر قزوين ... على ان كتب التاريخ بعد نجاحهم حملت عليهم انسابا مختلفة يصلهم بعضها بالعرب وبعضها بملوك الفرس وهي في مجموعها ليست اكثر من محاولة لتمجيد الاسرة تربط حاضر البويهيين الزاهي بماض زاه ايضا شأن مايجرى للملوك والامراء الذين تظهر قوتهم مرة واحدة .

ويرافق غموض النسب البويهي غموض آخر في نشأة الاخوة الثلاثة ، فكان يذكر عنهم مايشبه الخرافة ، وكان لشيوع التنجيم والطلسمات اثره في صياغة كثير من القصص عنهم وعن تنبؤ المنجمين لهم (راجع الفخرى) وعن حلم بويه الأب ذات يوم والتفسير الذى فسر به حلمه الخ . على اننا نستنتج من كل مايذكر فقرهم الاول حتى ان معز الدولة كان يحتطب الحطب على رأسه كما ذكر عن نفسه (في رواية ابن خلكان) وقد نشأ الاخوة الثلاثة على المغامرة على مايظهر ودخلوا اول مادخلوا في خدمة (ماكان) القائد يجربون حظهم .

وقد برز علي أكبر الاخوة بمهارته الحربية حتى أضحى هو واخوته ، من القواد الرئيسيين في جيش ماكان بن كاكي الذى ظهر في خدمة العلويين في بلاد الديلم . فلما هزم هذا على يد مرداويج وانتقل لخدمة السامانيين اتضح انه لا يستطيع القيام بنفقات جيش كبير فطلب الاخوان

(ابو الحسن علي ، وابو علي الحسن) اللذان كانا معه بصراحة ان يسمح لهما بمفارقته وانتقل الاخوان لخدمة عدوه مرداويج دون ان يروا في ذلك شيئا .

فسر مرداويج ببني بويه اول الامر . وتميز علي بسرعة عنده ، بما اظهر من سماحة وشجاعة وسعة صدر فولاه مرداويج بلاد الكرج (بين الريّ وهمدان) سنة 932 بينما كان اخوه محمد ابن بويه يفتح اصبهان . . . وقد أحسن علي البويهي الى الناس هناك ولاطف عامل البلد ليشكره في كتبه وضبط الناحية وافتتح بعض القلاع الخربة واتفق ان اختصم بعض زعمائها فأفضوا اليه بما كامن بعض الدخائر الجليلة فاستولي عليها وانفقها في استمالة الناس ولاطف قواد مرداويج وأفضل عليهم . . . وحتى ثارت شكوك مرداويج فارسل اليه بجيش يطرده فرأى علي البويهي من الحكمة ان يجمع ضرائب المنطقة لمدة سنة ويسير جنوبا الى اصفهان (وكان مرداويج قد ردها للخليفة) ففكر علي بالدخول في خدمة الخليفة لولا ان والي اصفهان (المظفر بن ياقوت) رفضه فاستطاع علي ان يستولي على البلد .

واغتاظ مرداويج فارسل اخاه واشمكير بعد اصفهان فاستردها من علي البويهي الذى انسحب نحو الغرب فاحتل ارجان سنة 321 (933م) ثم جاز نصرا باهرا على والي الخليفة في فارس سنة 322 (934م) . وفي السنة نفسها استطاع احمد بن بويه (وكان عمره حوالي 19 عاما) احتلال كرمان . . . وكان هذا يعني ان الخليفة لم يعد له من ايران سوى حدودها الغربية مادام البويهيون قد احتلوا جنوبها وكان الزياريون في شمالها (الريّ واصفهان) والسامانيون في خراسان وما ورائها .

وقرر مرداويج ان يضرب البويهي نهائيا وبعث اليه بجيشين ولكن عليا فاوضه وتملقه قبل ان يحاربه وقدم له الهدايا والطاعة وبعث باخيه الحسن رهينة عنده فرضي مرداويج لانه كان اذ ذاك يضع مشروع فتح بغداد والقضاء على الخلافة العباسية ولكن مشروعه قتل معه سنة 323 (935م) فعاد البويهي يعمل لحساب اطماعه .

وتجرى هنا مناورات وحروب صغيرة بين المتنفذين في ايران الغربية وجنوبي العراق تنتهي بان يضطر البريدي ابو عبد الله (صاحب السواد) لطلب الصلح من علي البويهي الذى اصبح له كل الحكم مابين اصفهان والريّ الى كرمان ويبعث الخليفة بخلعة السلطنة والمنشور اليه شريطة ان يدفع (800) مليون درهم ولكن عليا يحتال على رسول الخليفة فيأخذ الخلعة ويقرأ المنشور على الناس ولا يدفع شيئا بل يموت الرسول عنده .

ويزداد طموح البويهيين فنسمع سنة 328 (939م) لاول مرة بأن اكبر الاخوة يريد التوجه لفتح العراق . ثم يهاجم الاخ الصغير ممتلكات الخليفة خمس مرات بين سنتي 331 334 (942 - 945م) موغلا في كل هجمة اكثر من سابقتها في العراق . . بينما كانت اسرة البريديين تنحل في الجنوب (البصرة) واميو الامراء توزون يموت (بالصرع) فتآمر عامل واسط مع احمد بن بويه للتقدم نحو العاصمة التي كانت تشكو الفوضى وسوء الادارة والازمة المالية فهرب الاتراك شمالا حين علموا بمقدمه ، ودخل احمد بن بويه في مخابرات

سرية مع الخليفة انتهت بدخول بغداد دون مقاومة في مطلع 946م (17 يناير) سنة 334هـ وتقدم ابو الحسين احمد الى الخليفة فأخذت له البيعة للمكتفي بالله واستخلف له باغلظ الايمان ولخواصه وحلف المكتفي لابي الحسن بن بويه ولاخويه وكتب بذلك كتابا ووقعت فيه الشهادة عليها . ثم قام الخليفة فطوق أبا الحسين وسوّره وعقد له وجعله أمير الامراء .

الاسرة المثلثة :- لم يكن الاخوة الثلاثة متفقين في العمل لواحد منهم بل كان كل منهم - رغم تساندهم - يعمل لحسابه الخاص ولهذا فقد استقر اصغرهم احمد (ابو الحسن) في بغداد بينما بقي اخوه الاوسط الحسن (ابو علي) في الريّ واصبهان (شمال ايران) بعد ان استخلصها من وشمكير اخي مرداويج ، واما الاخ الاكبر (علي ابو الحسن) وهو سبب مجد البويهيين فاقام في فارس وكرمان (جنوب ايران) فتألف من هؤلاء الاخوة الثلاثة أسرة حاكمة واحدة في ثلاثة مواقع .

ويمكن ان نقف من البويهيين قبل البحث ، عند بعض الامور العامة :

1 - الألقاب :- بدأ بدخول البويهيين الى بغداد ، نمط جديد من الالقاب في تاريخ الدولة العباسية اذ يذكرون ان الخليفة لقب احمد البويهي بلقب " معز الدولة " ومنح أخاه الحسن لقب "ركن الدولة " وأخاه عليا لقب " عماد الدولة " وضرب القابهم على السكة ولقب المستكفي نفسه امام الحق ، كما ان بعض البويهيين تلقب بألقاب السلطنة والملك ، على ان بعض المستشرقين ينكر تلقيب الخليفة للبويهيين ويقول (لين بول) ، ان المستكفي لم يخلع على معز الدولة سوى لقب امير الامراء ومن الخطا ان نقول انهم تلقبوا بلقب السلطان لانهم لم يتخذوا لأنفسهم هذا اللقب قط على السكة وانما استعملوا القاب امير وملك فحسب ومع ذلك فان نفوذهم كان مطلقا كنفوذ أي سلطان في بغداد .

2 - كان بنو بويه بعيدين عن الثقافة عامة وعن الثقافة العربية بوجه خاص ، ولم يقتبسوها الّا اقتباسا محدودا في اجيالهم الاخيرة على مايظهر . فمعز الدولة حين جاء بغداد وملكها احتاج الى من يترجم له كلام الوزير علي بن عيسى . وقد بقيت اسماء البويهيين فارسية (كرستم وخسرو وبهرام وكامرو ...) على ان هذا لم يمنع نشؤ طبقة من الكتاب المشاهير في العربية تحت ظلهم (كابن العميد وابن عباد) . وينسبون الى بعض البويهيين بعض الشعر .

3 - كان البويهيين ماهرين في جمع المال من كل وجه وفي ادخاره حتى يكون بين ايديهم دوما ، وكان ركن الدولة صاحب الريّ على ماقال مسكويه : " لايستجيب الى عمارة نواحيه خوفا من اخراج درهم واحد من الخزانة ويقنع بارتفاع مايحصل للوقت " وقد جمع عضد الدولة بما كان فيه من حرص ثروة هائلة كما ترك فخر الدولة (387 هـ) (لم يكن عصره المتأخر عصر غنى) من المال ماذكر الصابئ انه يبلغ (284ر 875ر 2) دينار ومن الورق والنقد والفضة (790ر 860ر 100) درهما ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح وضروب المتاع الشئ الكثير . وبلغ من شحه ان مفاتيح خزانته كانت

في الكيس الحديد مسمرا عليها بالمسامير لا تفارقه . وذكر ابن الجوزي عن بهاء الدولة انه جمع من الاموال مالم يجمعه احد من بني بويه وكان يبخل بالدرهم الواحد ويؤثر المصادرات.

4 - كانت العائلة البويهية متضافرة التضافر الوثيق ومرتبطة بالطاعة التامة لاكبرها في الاجيال الاولى فقط . والفضل في ذلك يرجع لعماد الدولة (علي بن بويه) فمعز الدولة مثلا ، وهو اصغر الاخوة الثلاثة وكان حاكما على العراق اذ ذاك جعل يقبل الارض بين يدي اخيه علي حين لقيه سنة 363 بأرجان وكان يقف قائما عنده فيأمره بالجلوس فلا يفعل ولما مات الاخ الاكبر انتقلت الرياسة الى اخيه الثاني ركن الدولة في الريّ فكان معز الدولة لا يخالف له أمرا وكان ركن الدولة يأمره بانفاذ الجيوش فيفعل . ولما ايقن معز الدولة بالموت أوصى ابنه بطاعة ركن الدولة واستشارته في كل مايعرض له من مهم وكذلك ابن عمه عضد الدولة لانه أسن منه وأقوم بالسياسة .

ولما اراد عضد الدولة هذا ان يأخذ العراق من يد ابن عمه معز الدولة بعد ان رأى عدم كفايته وسمع أبوه حال اولاد اخيه من القبض عليهم رمى بنفسه عن سريره . واقبل يتمرغ ويزبد ويمتنع عن الأكل والشراب اياما ، وقد غضب والد عضد الدولة على ابنه وأمره ان يخرج من بغداد ويسلمها لابناء عمه فيخرج منها طاعة لأبيه بعد ان كان قد أقام فيها واتخذ لنفسه بها داراً .

البويهيون في العراق

توالى على الحكم في بغداد والعراق من البويهيين احد عشر رجلا . ومعظمهم حكم بجانب العراق بلاد فارس ايضا وهم :

1 - معز الدولة احمد (334 - 356) :- وهو اصغر اخوته . كان حاد الطبع سريع الغضب بذي اللسان . يكثر سب وزرائه والمحتشمين من حضمه وكان المهلبي الوزير من فحشه وشتمه مالاصبر لاحد عليه بل كان يضربه بالمقرعة .

اما في علاقته بالخليفة وبالناس فقد كان قاسي السياسة : وثب بالخليفة المستكفي فلم يرحم قدره وقبض اموال وزيره المهلبي يوم مات بعد ان كان وزر له ثلاث عشرة سنة .

وكان لا يأبه كثيرا لحقوق الرعية فيستخرج الاموال من غير وجوهها ويقطع قواده وخواصه ضياع السلطان ويسامحهم ويقبل الرشى واتسع الخرق حتى صار الرسم جاريا أن يخرب الجند اقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها بما يختارون بغية كسب الفرق .

وقد اهمل معز الدولة الادارة ، وبالرغم من انه عني احيانا بالريّ وسد بثوق الانهر وعمل اول الامر على اعمار الموات والمخرب من الارض الا انه فوض تدبير كل ناحية الى بعض الوجوه من خواص الديلم فاتخذوها مسكنا وطعمة والتحف عليهم المتصرفون الخونة فبطلت العمارات وخربت

البلاد واغتاض العمال عما يذهب من اموالهم . بالمصادرة والحيف على الرعية .

وقد كان معز الدولة يحارب بعض الثائرين في البطائح حين اعتراه المرض الذي ذهب به .

ولما شعر بدنو أجله عهد بالحكم الى ابنه عز الدولة وأوصاه باليقظة والتحرز من ناحيه اعدائه وخاصة من الترك الذين كانوا هم السواد الاعظم من جنده وان يجريهم على ارزاقهم وأوصاه بمدارة الديلم ليكتفي خطرهم وبطاعة عمه ركن الدولة وابن عمه عضد الدولة . وباقرار كاتبيه ابي الفضل العباس بن الحسين وابي الفرج محمد بن العباس لاخلاصهما وكفايتهما ...

2 - عز الدولة بختيار (356 - 367) : - كان أبرز مايميزه قوة جسدية هائلة وشجاعة مشهود بها وقد بلغ من قوته - على مايذكر ابن العميد - ان كان يمسك الثور العظيم بقرنيه من غير اعوان ولا احبال يقبض على قوائمه ويطرحه وكان يبرز للأسود ويصيدها .. ولكنه فيما عدا ذلك فاشل يرثي له " وكان يجب ان يقضي اوقاته في الصيد والاكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد .

ولم ينفذ عز الدولة أي وصيه من وصايا ابيه فهو - على قول مسكويه - :

آ - قد أهمل الأمور وأقبل على الشهوات واستثقل لمباشرة التدبير حتى سقطت الهيبة وانبسطت العامة وأغار بعضها على بعض وظهرت الاهواء المختلفة والنيات المعادية وفشا القتل فالسلطان قاصر اليد والرعية هالكون والدور خراب والاقوات معدومة والجند متهارجون ..

ب - أثار سخط كاتبيه وفرق بينهما .

جـ - اما كبار الديلم ووجوههم فانه نفاهم من مملكته طمعا في اقطاعاتهم واموالهم واموال المتصلين بهم فتبسط اصاغرهم واستلانوا جانبه وتحالفوا عليه وطالبوه بزيادة في رسومهم واضطر للنزول على حكمهم ثم عجز عن ارضائهم .

د - واما الاتراك فانهم نظروا الى ماتم للديلم من الحكم فعملوا مثل عملهم في الاشتطاط والتسحب والمواجهة بالمخاطبة الغليظه واضطر الى التدبير عليهم والراحة منهم وابتداء بسبكتكين (وكان معز الدولة يثق به وأشار على ابنه الا يقطع امرا بدونه) وكان متحرزا متيقظا فما تم عليه شيء من تدبيراته فتحزب الاتراك وصاروا يدا واحدة وتحركت الاحقاد والحفائظ .

هـ - اما سبكتكين فلما رأى انصراف عز الدولة عنه وطمعه في اقطاعاته واموالة " انصرف عنه " .. واقتصر على التراسل على ايدي المتوسطين .. وكان له عيون وجواسيس من خاصة حاشية عز الدولة وكان لايخفى عليه شيء من حركاته ((وقد انتهى الامر بين الاثنين الى السلاح .

وقد أضاع عز الدولة امارته بسوء تدبيره في النهاية : عرض عليه سبكتكين اقتسام موارد العراق بينهما فرفض وبعث يستنجد بعمه ركن الدولة في الري وابن عمه عضد الدولة في فارس كما كتب الى أبي تغلب بن حمدان يطلب معونته .. وبالرغم من ان سبكتكين قد أعطي من قبل

الخليفة الطائع امرة الامراء ولقب نصر الدولة الا ان الخطر على عز الدولة لم يأت منه اذ توفي في الطريق الى الحرب وجاء الخطر من عضد الدولة (ابن عمه) اذ حرض عليه الجند وحرضه عليهم ثم تقرب من الخليفة وعمّر له دار الخلافة من ماله وقدم اليه الهدايا و وصل الى ان عقد للخليفة على ابنته بينما كان شأن عز الدولة يضعف حتى عزله جنده الاتراك .

غيران ركن الدولة (والد عضد الدولة) غضب من ابنه لهذه الاعمال ، وبالرغم من ان عضد الدولة بعث رسولين قديرين لاقناع ابيه فان قوة الشعور العائلي احبطت مساعيه عند ابيه حتى لقد هدده ان يسير اليه ان لم يردّ على ابن عمه عمله . فانسحب عضد الدولة من بغداد بعد ان استخلف عز الدولة على الولاء .. ثم ماكاد ركن الدولي يتوفي سنة 366 حتى قصد ابنه عضد الدولة العراق وحارب ابن عمه بختيار في واسط وانتصر عليه واحتل بغداد . ولم ينفعه الالتجاء الى الحمدانيين في الموصل لان الجيش الذى قدمه ابو تغلب بن حمدان لنصرته هزم في تكويت وأسر بختيار فسيق الى بغداد وقتل كما قتل معه وزيره ابن بقية .

3 ـ عضد الدولة (فناخسرو) ابو شجاع 367 ـ 372) : ـ كان عضد الدولة يحمل طابع اهل الشمال فهو ازرق العينين اشقر اصهب الشعر ، أعمشي . وبالرغم من ان ابا شجاع (صاحب الذيل) يصفه بأنه كان " ملكا كامل العقل ، شديد الهيبة كثير الادعاء والغرور .

بلغه عن الوزير ابن بقية (وكان ابن عمه بختيار) امور ساءته فطلبه منه ، فسلمه اليه عز الدوله بعد ان سلمه فطرحه عضد الدولة الى الفيلة وهي العقوبة الأولى من نوعها في الاسلام .

ويذكرون ان عضد الدولة تعلق بحب جارية من جواريه فخاف على نفسه منها فأغرقها .

اما في السياسة فعضد الدولة دون سائر اسرته هو الذي يمثل السيد الحاكم تمثيلا حقيقيا وقد خضعت لسلطانه في آخر امره كل البلاد بين بحر الخزر وكرمان وعمان فلا بدع ان يلقب نفسه (شاهنشاه) ملك الملوك لاول مرة في الاسلام بعد ان كان هذا اللقب يشعر من قبل بالتجرؤ على مقام الالوهية . وقد ظل هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك بني بويه فكان ايضا احياء لرسوم الشرق القديمة . ويمكن ان نجمل ملامح سياسته الداخلية في عدة نقاط :

1 ـ عني بالادارة كل العناية وقد ذكر ابو شجاع في الذيل نظام عضد الدولة البويهي في عمله . ويظهر منه مقدار يقظته وتنظيمه . وكان يعنى بمعرفة الاخبار وسرعة وصولها ، وقد وسع نطاق الجاسوسية . وكانت اخبار الدنيا عنده حتى لو تكلم انسان بمصر رقي اليه ذلك . فكان الناس يحترزون في كلامهم وافعالهم من نسائهم وغلمانهم . وأضاف الى هذا انه عني بتوطيد الامن فطهر السبل من اللصوص ومحا أثر العابثين من قطاع الطريق ويحكى انه دسّ على بعض اللصوص ومحا أثر العابثين من قطاع الطرق ويحكى انه دس على بعض اللصوص في احدى القوافل بغلا عليه حلوى مسمومة فهلكوا من اكلها . وأعاد النظام الى صحراء الجزيرة

الغربية وصحراء كرمان وكانت اشهر بمخاوفها حتى رفعت الجباية عن قوافل الحج وزال ماكان يجرى عليها من القبائح وضروب السيف .

وتتجلى مواهب عضد الدولة السياسية في اختياره لولاته : فقد ولى على الجبل وهمذان والدينور ونهاوند واسد باد وغيرها بدر بن حسنويه الكردي (المتوفى سنة 405 هـ 1014 م) كما اخرج غلى يد عضد الدولة القائد امير الجيوش (المتوفى سنة 401 هـ - 1010 م) وهو الذي ولاه بهاء الدولة تدبير العراق لاعادة النظام اليها فقدم بغداد سنة 392 هـ - 1002م والفتن قائمة فقتل وصلب وغرّق . وقد رمي عضد الدولة نفسه بالقسوة وسفك الدماء والغدر بمن أمنه ويظهر ان ذلك كان من لوازم سياسته التي مشت فيها الصدقات والوان الكرم بجانب السيف والفتك .

2 - انتهج الدولة سياسة العمران الايجابية :

أ - عنى ببغداد : وبالرغم من ان فارس لا العراق كان مركز الدولة وكان قاضي القضاة يقيم في فارس ويستخلف اربعة خلفاء على اربع بغداد . وبرغم بغض عضد الدولة لبغداد وكثرة غضبه من اهلها فقد امر بعمارة منازلها واسواقها وكانت مختلة قد أحرق بعضها وخرب بعضها الآخر وابتدأ بالمساجد الجامعة وكانت في منتهى الخراب فهدم ماكان متداعيا منها واعاد بناءها وألزم ارباب العقارات بالعمارة فمن قصرت يده عن ذلك اقترض من بيت المال وأجبر من كانت له دار على الشط من الاولياء والحاشية ان يجتهد في عمارتها وتحسينها . . فملأت الخرابات الزهر والخضرة والعمارة بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح الجيف والاقذار . وجلبت اليها الغروس من فارس وسائر البلاد .

ب - واما في الاماكن الاخرى فقد اقام للحجاج السواقي واحتفر الآبار واستفاض الينابيع وأدار السور على مدينة الرسول . وبنى كثيرا من الابنية في فارس كما بنى دارا بشيراز عظيمة كان فيها (360) حجرة .

جـ - اهتم بالثقافة وكان يحب العلم والعلماء ويجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والاطباء والحسّاب والمهندسين . وكانت له ولحاشيته عدة كتب مشهورة فيها العلماء وكان يحب الشعر ويقوله وينقده . وقد أفرد في داره لأهل الخصوص والحكماء والفلاسفة موضعا يقترب من مجلسه . وأمر بادرار الارزاق على قوّام المساجد والمؤذنين والأئمة والقرّاء . وبنى مارستانا كبيرا ببغداد . اما صدقاته فتجاوزت أهل الملة الى أهل الذمة .

د - اهتم عضد الدولة بالزراعة والري : ومما يذكر له انه حول من البادية قوما فأسكنهم فارس وكرمان فزرعوا وعمروا البرية .

3 - غير ان عضد الدولة بقي رغم هذا الحاكم الاجنبي عن رعيته . ولم يكن أبا لها بل

كان الراعي الذي يحسن العناية بغنمه لينتفع منها باكبر نصيب وقد احدث في آخر ايامه رسوما جائرة وزاد الرسوم القديمة وكان يتوصل الى أخذ المال بكل طريق . وكان دخله في آخر عمره ثلاثمائة الف الف وعشرين الف الف درهم في السنة .

توفي عضد الدولة (في شوال سنة 372) وله من العمر سبع واربعون سنة ودفن في النجف .

صمصام الدولة (372 - 376 هـ وشرف الدولة (376 - 379 هـ) : هما ابناء عضد الدولة . وشرف الدولة اكبرهما ولكنه كان في فارس فبايع الامراء والقواد صمصام الدولة بالحكم ولقبه الخليفة الطائع بشمس الملة وخلع عليه وورد في عهده تقليده الامور فيما بلغت الدعوة (للعباسيين) من جميع الممالك ...

على ان العلاقة الطيبة بين صمصام الدولة والخليفة ، تلك العلاقة التى استمرت حتى النهاية لم تنفع صمصام الدولة في بقاء الامر له ، فقد نازعه اخوه شرف الدولة وكان على فارس والاهواز كما كان يمتد نفوذه - حسب رواية ابن العميد - على الري واصفهان وشيراز (ويمما على اصفهان فقط) .

وعرف صمصام انه لايقوم لاخيه فارسل اليه الكتب يطلب الصلح ويبذل الخضوع . ولكن هذا الصلح لم يتم في الواقع وقد سار شرف الدولة من الاهواز الى واسط سنة 376 فاستولى عليها . وقد قدم صمصام الدولة على اخيه الذى استقبله استقبالا حسنا ثم لم يلبث ان قبض عليه وسار به الى بغداد ولما ثار الديلم في الاتراك ولتنتصر عليهم ونادوا بعودة صمصام الدولة هدد شرف الدولة بقتله فرضخوا وتمكن من توحيد صفوفهم ثم ارسل أخاه فاعتقل في احدى قلاع فارس . بينما كان الخليفة منذ وصول شرف الدولة قد استقبله وهنأه بالظفر وتوجه وطوقه وسوره . وكتب له عهدا . وولاه ماوراء بابه وعقد له على لوائين ولقبه شاهنشاه .

وكان شرف الدولة يميل الى مرضاه أخيه وايثار الرفق به ولكن سعاه السوء من الحاشية مالبثوا ان غيروه فأمر بسمله . وقبل ان ينفذ الامر في صمصام الدولة بمعتقله ورد النبأ بوفاة أخيه شرف الدولة ولكن لناظر القلعة نفذ السمل .

وليس يسجل في سياسة شرف الدولة سوى :

1 - عنايته بالعدل " ورفع أمر المصادرات وقطع اسبابها " ومحاولته تخفيض الاسعار في العراق بتنظيم جلب الاقوات من بلاد فارس في البحر .

2 - تقليده احد المتغلبين على البطائح في السواد اميرا عليها باسم مهذب الدولة.

3 - منافسته لعمه فخر الدولة .

وقد توفي شرف الدولة في الثامنة والعشرين من العمر بعد ان عهد بالأمر لأخيه الاصغر بهاء الدولة (فيروز ابو نصر 379 - 403) .

سار بهاء الدولة الى دار الخلافة بعد وفاة اخيه بخمسة ايام فخلع عليه الطائع الخلع السلطانية

ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة وقرئ عهده بين يديه بالتقليد ، وكان ظالما غشوما سفاكا للدماء حتى ان خواصه كانوا يهربون من قربه وقد جمع من المال مالم يجمعه أحد من بني بويه ، وليس في ملوك بني بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة :

1 ـ احتال بهاء الدولة على ابن اخيه شرف الدولة : ابي علي وقتله ليصفوله الجو .

2 ـ مال مع الاتراك ليضعف نفوذ الديلم .

3 ـ اختلف مع صمصام الدولة فقد هرب هذا الامير الاعمى من معتقله في فارس واستطاع ان يجمع جيشا ينتصر به قرب شيراز سنة 380 على بهاء الدولة وينتزع منه صلحا يعترف له بحكم فارس وانتهى الامر بعد ذلك بمقتل صمصام سنة 388 على يد ابناء بختيار الذين استولوا على فارس .

4 ـ اختلف مع فخر الدولة صاحب الري فقد طمع هذا باحتلال العراق بتشجيع وزيره المعروف الصاحب بن عباد الذي كان يرجو ان يكون وزيرا ببغداد .. ومشى فخر الدولة فاحتل الاهواز ولكن جيوش بهاء الدولة ردته واستردت ما أخذ من جنوب العراق كما صادرت امواله الطائلة في ارجان .

5 ـ اختلف مع اولاد بختيار (عز الدولة) اصحاب فارس (بعد مقتل صمصام) لكن بهاء الدولة استمال الديلم الذين كان يعتمد عليهم ولدا بختيار واستطاع ان يستولي على فارس سنة 389 .

6 ـ اختلف مع الخليفة الطائع فلم يتردد في القبض عليه وخلعه .. بحجة حبس احد خواصه .

7 ـ استرد منطقة البطائح ممن ثار بها (القائد ابو العباس بن واصل) واعادها لصهره مهذب الدولة .

8 ـ اضطر ان يحارب قرواش بن المقلد امير بني عقيل الذي كانت له السيادة فيما بين الموصل الى الكوفة والمدائن والانبار فخطب للحاكم بامر الله الفاطمي سنة 401 ، وبالرغم من تشيع بهاء الدولة فقد حاربه حفاظا على النفوذ البويهي واضطر لاعادة الخطبه للخليفة العباسي .

وقد انتهت هذه الحياة المضطربة بوفاة بهاء الدولة وهو في الثانية والاربعين من العمر سنة 403 ونقل من ارجان الى مشهد علي بن ابي طالب بالكوفة وخلفه رسميا ابنه .

سلطان الدولة : (403 ـ 415 ابو شجاع) : وكان عمره ثلاث عشرة سنة غير ان الحكم لم يصف لسلطان فقد كان اخوته اعظم المناوئين له وهم : قوام الدولة ابو الفوارس ومشرف الدولة وجلال الدولة وقد ولاهم سلطان على المناطق لكنه مالبث ان اختلف مع بعضهم .

جلال الدولة : (416 ـ 435) : وقد استطاع الوصول الى الحكم في بغداد بعد

مناوأة محدودة من ابن اخيه سلطان وذلك بدعوة من الجند ومن الخليفة القادر .
ولكن كثيرا من المصاعب المالية والعسكرية كانت تمنعه الهدوء . فقد ثار عليه الاتراك الذين ولوه ثلاث مرات لمصلحة اخيه سلطان المسمى (ابا كليجار) وكانت الحروب بينه وبين ابن اخيه لاتنقطع في السنين الاولى . وبلغت الفوضى ذروتها في بغداد سنة 423 وارغم السلطان على الهرب ثلاث مرات من حاضرة الخلافة ...

ابو كاليجار (عماد الدولة 435 ـ 440) : استطاع ان يحرم ابن جلال الدولة (فيروز) من السلطة بعد موت ابيه ويستولي عليها بشجاعته وفتكه وحيلته . واهم مايسجل في عهده ظهور الخطر السلجوقي في المشرق فحاول تقوية الجبهة الشرقية ضدهم باستمالة حكام البلدان الشرقية وتقوية اسوارها .. ويظهر ان أبا كاليجار لم يكن يطمع باكثر من ابقاء سلطته لانه كان في الوقت نفسه يبذل الحب والولاء في السر للفاطميين في مصر ولدعوتهم في ايران والعراق كي لايترامى الخلفاء العباسيون على السلاجقة السنيين . واما الوسيط بين البويهيين والفاطميين فهو المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الدعاة .
توفي ابو كاليجار سنة 440 وله من العمر اربعون سنة بعد حكم فارس والاهواز مدة خمس وعشرين سنة وسلطته لم تدم الا اقل من خمس سنوات .

الملك الرحيم : (ابو نصر فيروز 440 ـ 447) : وقد كان اخوته الكثر عبئا عليه واعداءه كما استفحلت في الناس الدعوة الفاطمية على يد ارسلان التركي المعروف بالبساسيري واستدعى الخليفة ارطغرل بك السلجوقي الى بغداد فأنهى الحكم البويهي .

البويهيون في فارس

لم تفترق فارس خلال الحكم البويهي عن العراق الّا في زمن الاخوة الثلاثة مؤسسي الاسرة ولهذا لانقف من بويهيي فارس الّا عند مؤسس الامارة البويهية في فارس وقد مر معنا شيء عنه :
عماد الدولة : (علي بن بويه 320 ـ 338) :- لم يكن يمثل خصال السيد الحاكم بقدر مايمثل خصال القائد الذكي . يقول متز : (كان اشبه بتاجر مخادع . وكانت له مواهب الاكراد الاذكياء العمليين فمن ذلك انه تقلد من الخليفة الراضي اعمال فارس على ان يحمل له في كل سنة بعد جمع المؤن والنفقات مائة الف الف درهم فأرسل اليه الوزير ابن مقله بالخلع واللواء ورسم للرسول الّا يسلم اللواء والخلع الّا بعد تسلّم المال . فلما وصل الرسول استقبله خارج شيراز واحتال حتى تسلم اللواء والخلع منه ودخل بهما شيراز واقام الرسول يطلب المال مدة فلم يدفعه حتى مات) .
على ان ابرز ميزة فيه حبه لأخويه وعلاقته المتينة بهما ولم يكن له ولد فقال عن أخويه :
ولقد أصبحت وأمسيت وما مناي على الله الّا العافية وسلامتهما وابقاؤهما اخواي بالنسب وابناي بالتربية وصنيعتاي بالولايات ...

ولم يكن لعماد الدولة من عقب يرثه فاستدعى ابن اخيه في الريّ : عضد الدولة فعهد اليه بالأمر وتوفي سنة 338 .

وتولى على أحكم فارس من بعده : عضد الدولة ثم شرف الدولة وصمصام الدولة ثم بهاء الدولة وصمصام الدولة واخيرا عماد الدولة وفي عهد الملك عبد الرحيم خسر البويهيون فارس للسلاجقة.

البويهيـــون في الريّ وهمـدان واصبهان

حكم البويهيون منطقة الجبل هذه (مثلث الريّ . همدان . اصبهان) مابين سنتـــي 320 ـ 366 ثم تتمزق على ايدي اولاد ركن الدولة فتنفصل وتظل لبعض البويهيين حـتى سنة 420 حتى يأخذها الغزنويون . اما همدان واصبهان فتبقيان لبعض بني بويه حـــتى تفترقان على يد بني كاكويه منذ سنة 412 ثم تندمجان مع الاراضي السلجوقية بعد ذلك سنة 429 .

علاقــة الخلفـاء بالبو يهيـــــين

لم يكن دخول البويهيين الى بغداد ، منذ يومه الاول ، سببها بدخول الامراء الآخريـــن وما كان مجرد استبدال امير بأمير . يكون العصر البويهي متمما لعصر أمير الامراء فـــي اتجاهاته اذ ان البويهيين اتخذوا اللقب وحلوا محل الامراء السابقين ولكن بعض الاوضـــاع الجديدة التي ظهرت جعلت " الخلافة " وهي رأس نظام الحكم تنتقل من سيّئ لأسـوأ .

1 ـ انشأ البويهيون امارة وراثية في قلب العاصمـــة الخلافة : منفصلة عن الخليفة نفسه ولاسباب سياسية كان بنو بويه يصدرون الاوامر المهمة باسم الخليفة وتوقيعه كما كانوا يطلبـون منه توقيع المراسلات والمقاولات مع اهل الضمان .

2 ـ جاءوا على رأس جيش اجنبي احتل " عل " الخليفة وعاصمته فساد الاتجاه العسكرى في مؤسسات الدولة ويلاحظ ذلك في كل اعمالهم وفي طريقة الادارة التي اتبعوها .

3 ـ كان بنو بويه شيعة زيدية لايعترفون بحق العباسيين في حكم العالم الاسلامي ولم يبق البويهيون هؤلاء الخلفاء الا لاعتبارات سياسية . فقد اراد معز الدولة نقل الخلافـــة لأبي الحسن محمد بن يحيي الزيدى فحذره خواصه من سخط الناس ومخالفتهم لان " عامـة الناس كما يقول البيروني في الاقطار قد اعتادوا الدعوة العباسية ودانوا بدولتهـــــم واطاعوهم طاعة الله ورسوله ورأوهم اولي الامر . . . " وبينوا له مزية كون الخليفة عباسيــا "فانك اليوم خليفة تعتقد انت واصحابك انه ليس من اهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلـــوه مستحلين دمه " وبينوا له الخطر على مركزه في حالة تعيين خليفة علوى قائلين : " ومـتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته فلو أمرهـــم بقتلك لفعلوا " . وان السلطة ستصبح بيد الخليفة اما هو فسيكون مجرد تابع " اذا بايعته

أطاعه الديالمة ورفضوك وقبلوا أمره فيك " فأعرض الامير عن عزمه مؤثرا ابقاء الخلافة للعباسي الضعيف ، فغالبا في ذلك حب السلطة على المبدا .

وضمن هذه الملاحظات العامة نستطيع ان نفهم موقف الامير البويهي من الخلافة والخلفاء هذا الموقف الذي تميز باحتقار الخلفاء والتعدّي على سلطتهم والقابهم وشاراتهم وابن الاثير يفسر ذلك قائلا : "وكان من اعظم الاسباب في ذلك ان الديلم كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقّيها فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة " .

آ - قلة احترام الخلفاء : لاحاجة للقول ان خلفاء العصر البويهي كانوا من اختيار البويهيين فلم يكونوا يحترمونهم وقد تجلى هذا سريعا ثم تكرر في احداث كثيرة من عزل واهانة وسجن ومصادرة وتهاون : فبعد اثني عشر يوما من دخول البويهيين بغداد (21 جمادى الآخرة 334 و 29 يناير 946) خلع معز الدولة المستكفي بتهمة التآمر مع قواده ضده وبمحاولة الاستنجاد بالحمدانيين كما انه لم يرض عن قبضه على رئيس الشيعة .

وكان الخلع بصورة مزرية (اذ تقدم ديلميان بحضور معز الدولة فجذبا الخليفة من يديه على وجهه وعمامته في عنقه وساقاه ماشيا بين يدي معز الدولة الى دار البويهي حيث اعتقل وبينما كان معز الدولة يبايع المطيع الله كانت دار الخليفة تنهب حتى لم يبق فيها شيء .

ولما هاجم ناصر الدولة الحمداني بغداد سنة 335 " سجن معز الدولة الخليفة " فلما اخفق الحمداني استحلف " معز الدولة انه لايبغيه سوءا ولا يمالئ له عدوا ثم أزال التوكيل عنه وأعاده الى داره " .

وفي سنة 381 هـ (990م) طمع بهاء الدولة باموال الطائع وأخذ املاكه ونفذ ذلك بصورة بشعة اذ زار الخليفة وبينما هو جالس تقدم اصحابه " فجذبوا الطائع بحمائل سيفه من سريره وتكاثر الديلم فلف في كساء وحمل الى بعض الزبازب (السفن) وأصعد الى الخزانة في دار المملكة ثم خلع .

وقد كان الخليفة يزار ولا يزورا حدا الا ان عضد الدولة تجاوز ذلك عند مجيئه من همدان الى بغداد سنة 370 نزل بجسر النهروان " وطلب من الطائع ان يتلقاه فخرج الطائع وتلقاه " وقد يكون من باب التمثيل المضحك أو من الفترات الشاذة أو من الاحترام للدين (؟) مايذكره مسكوية عن حفله العهد الى عضد الدولة سنة 369 اذ " جلس الطائع على السرير وحوله مائة بالسيوف والزينة وبين يديه مصحف عثمان وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وهو متقلد سيف النبي (ص) وضربت ستارة بعثها عضد الدولة لتحجب الخليفة فلا تقع عينيه على احد من الجند قبله . ودخل الاتراك والديلم . . ووقف الاشراف ثم أذن لعضد الدولة فدخل ورفعت الستارة فقبل عضد الدولة الارض . فارتاع زياد القائد وقال بالفارسية : ماهذا ايها الملك ؟ أهذا هو الله عز وجل فالتفت الى عبد العزيز بن يوسف وقال له أفهمه ان هذا خليفة الله في الارض ثم استمر يمشي ويقبل الارض سبع مرات فالتفت الطائع الى خالص الخادم

فقال استدنه فصعد عضد الدولة فقبل الارض دفعتين فقال له : ادن الي أدن الي فدنا وقبل رجليه وثنى الطائع يمينه عليه وأمره فجلس على كرسي بعد ان كرّ عليه اجلس وهو يستعفي فقال له : اقسمت لتجلس . فقبل الكرسي وجلس . . . . " .

ب - التعدّي على سلطة الخليفة عمليا ونظريا على السواء : فان انشاء الامارة البويهية الوراثية في قلب الخلافة أزال سلطة الخليفة وبعد ان كان للخليفة وزير وللامير كاتب انعكس الوضع الآن وصار البويهيون يتدخلون حتى في تعيين كاتب الخليفة واستأثر بنو بويه بالاموال بينما خصصوا للخليفة راتبا فجعل معز الدولة للمستكفي خمسة آلاف درهم في اليوم ثم خفض ذلك عند تعيين المطيع الى الفي درهم وبعد ان افتتح البصرة سنة 336 قطع معز الدولة ذلك الراتب عن الخليفة وأعطاه ضياعا تدر عليه مائتي الف دينار سنويا . ولكن البويهيين كانوا يتجاوزون احيانا على وارد هذه الضياع حتى نقص واردها الى خمسين الف دينار في السنة .
وكان الامير احيانا يجبر الخليفة على اعطائه المال كما فعل بختيار سنة 361 اذ طلب (400) الف دينار بحجة الجهاد فاضطر الخليفة الى بيع جواهره واثاثه لاجابة الطلب وقد ارسل المطيع قبل دفع المبلغ الى بختيار (سنة 361) يتضح منه اعتراف الخليفة بزوال سلطته قال المطيع : " الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي والي تدبير الاموال والرجال .
واما الآن وليس لي منها الا القوت القاصر عن كفائي وهي في ايديكم وأيدي اصحاب الاطراف فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه . وانما لكم مني هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكنون به رعاياكم فان أحببتم ان اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار ايضا وتركتكم والامر كله " .

وفي سنة 381 كتب القادر عند تعيينه للخلافة الى بهاء الدولة يقول : " اصبحت سيف امير المؤمنين على اعدائه والحاظي دون غيرك بجميل رأيه والمستبد بحماية حوزته ورعاية رعيته والسفارة بينه وبين ودائع الله عنده " .

اما من الناحية النظرية فقد سلب البويهيون الخليفة كل سلطة سلبا شرعيا . فقد جعلوا الخلفاء يفوضونها اليهم تفويضا رسميا علنيا ففي سنة 369 وفي حفل مهيب فوض الطائع الى عضد الدولة السلطان قائلا : " فقد رأيت ان افوض اليك ماوكل الله تعالى اليّ من امور الرعية في شرق الارض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي واسبابي فتول ذلك مستخيرا بالله " . وانتهى كلامه قائلا : " آمرك بما أمر الله به وأنهاك عما نهاك الله عنه وأبرأ الى الله عما سوى ذلك " . وفي سنة 381 اجتمع الاشراف والقضاة والشهود عند القادر وسمعوا يمينه بالوفاء لبهاء الدولة و " لفظه بتقليده ماوراء بابه مما تقام به الدعوة " .

ولم يقتنع البويهيون بالسلطة وحيازتها بل شاركوا الخلافة في امتيازاتها الاخيرة في شاراتها فالخطبة في بغداد كانت رمز السيادة السياسية للخليفة فلم يمض ربع قرن حتى اغتصب

البويهيون هذا الامتياز وأدخلوا اسمهم مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة . بدأ عضد الدولة ذلك سنة 369 ثم جرى على ذلك الامراء بعده . ومعنى الخطبة للامير اعتراف بسيادته في بغداد واختلف عضد الدولة ذات يوم مع الطائع فحذف اسمه من الخطبة شهرين (جمادى الاولى - رجب 364) .

وتسلم البويهيون السكة وهي الرمز الثاني للخليفة : فحذفوا لقب امير المؤمنين واكتفوا بذكر إسم الخليفة على النقود في حين ذكر الامير البويهي اسمه ولقبه وكنيته وأضيف احيانا اسم رئيس العائلة البويهية والقابه بل وحتى القاب ولي العهد في بعض الاحيان .. وكل ذلك على النقود المسكوكة في بغداد وقد أدى اشراف البويهيين على السكة الى ان نقشوا عليها احيانا القابا لم يمنحهم اياها الخليفة فقد وجد لقب شاهنشاه لعضد الدولة على قطعة نقود تاريخها 370 مع ان هذا اللقب لم يمنح رسميا لبني بويه الا زمن جلال الدولة .

وكان من شارات الخلافة قرع (الدبادب) على الابواب في اوقات الصلوات الخمس وقد حاول معز الدولة ان يساهم في هذا الامتياز فاخفق ولكن عضد الدولة أجبر الخليفة الطائع سنة 368 على منحه هذا الامتياز ثلاث مرات في اليوم ثم تجاوز سلطان الدولة ومن أتى بعده المرات الثلاث الى خمس رغم احتجاج الخليفة .

وتجاوز عضد الدولة المألوف في الرسوم بان تشبه بولاه العهود ففي سنة 367 ركب الى دار الخلافة فخلع عليه وتوج وطوق وسور " وعقد له الخليفة لوائين بيده احدهما مفضض على رسم الامراء والآخر مذهب على رسم ولاة العهود ولم يعقد هذا اللواء الثاني لغيره ممن يجري مجراه . وكتب (الخليفة) له عهدا وقرأ العهد بحضرته ولم تجر العادة بذلك " وانما يدفع العهد دون قراءته .

وربما حلم عضد الدولة نفسه لابولايه العهد فقط ولكن بالخلافة ايضا لعقبه يقول مسكوية :

" دبر عضد الدولة سنة 369 ان يقع بينه وبين الطائع له وصلة بابنته الكبرى " ففعل ذلك وعقد العقد لعضد الدولة على ابنة الخليفة بحضور اعيان الدولة والقضاة لعله يرزق منها ولدا يتولى العهد وتكون الخلافة لبني بويه ويصير " الملك والخلافة مشتملين على الدولة البويهية " على حد قول مسكويه .

ج - وقد نتساءل عما بقي للخليفة من سلطة بعد كل هذا : بقي له ان النفوذ الديني

اولا : يقول البيروني (وقد كتب هذه الكلمة في خلافة القائم) ان الدولة والملك قد انتقل من آل العباس بني بويه والذي بقي في ايدى العباسيين انما هو أمر ديني اعتقادي لاملكي دنياوى " . فالخلفاء رأوا تركيز جهدهم على الدين واعتباره حمى لهم امام النفوذ البويهي .

ويتبع هذا ان الخليفة في أضعف حالاته يتمتع بسلطة التعيينات للوظائف ذات الطابع الديني (الخطط الدينيه) كالقضاء . وقد ضمن احدهم سنة 350 منصب القضاء بمائتي الف درهم

سنويا من الأمير البويهي فرفض الخليفة تعيينه أو استقباله . ورفض القاضي الذي أتى بعده احكامه .
وفشل بهاء الدولة في تعيين احد الشيعة لمنصب قاضي القضاة بسبب معارضة الخليفة . ومن
الخطط الدينية وظيفة الأئمة في المساجد ووظيفة المؤذن السخ .. وهذا مايوضح لنا
لماذا كان الفقهاء والقضاة والوعاظ حزبا يؤيد الخلفاء . وقد استعمله الخلفاء وسيلة لتهديد
البويهيين في ادوار ضعفهم الاخيرة .
ويمكن ان نتبين هذا الموقف من رجال الدين فيما كتبوه . فان الفقهاء في ذلك العصر أخذوا
يؤكدون ان الخليفة هو الرئيس الاعلى للمسلمين كما فعل الماوردى (في الاحكام السلطانية)
وقد اضطر البويهيون لمراعاة نفوذ الخليفة الشرعي رغم طموحهم وتسحّبهم عليه . ولم يكن
يعتبر الامير منهم او من غيرهم شرعيا مالم يصدر عهد الخليفة بتوليته ويجرى تسليم العهد في
حفل رسمي ويختم بقسم من الخليفة للامير بخلوص النية ومن الامير للخليفة بالولاء وصدق الطاعة .
وبقي للخليفة ثانيا : سلطة منح الالقاب . ولما كان الامراء شغوفين بها فقد كان الخليفة
يستعملها في التملّق والارضاء وكان حذرا في منحها ماهرا في ابتكار اللقب المناسب في كل
مناسبة ففي سنة 367 منح عضد الدولة لقب تاج الملة . وفي سنة 381 لقب القادر بهاء الدولة
بلقب غياث الأمة ولما زيد في القاب جلال الدولة سنة 429 لقب شاهنشاه الاعظم ملك الملوك
وخطب بذلك على المنابر رجم العامة الخطباء واستفتي الفقهاء فلم يجزه منهم الّا اثنان وأنكره
الماوردى المشهور ولكن اللقب استمر استعماله في سنة 430 منح جلال الدولة لقب الملك
العزيز ... وقد استطاع الخلفاء في نهاية العهد البويهي ان يرفضوا منح اللقب . كما فعل
القائم أبي كاليجار اذ رفض تلقيبه بلقب (السلطان الاعظم مالك الأمم) .

د - وربما كان من الضرورى اتمام صورة العلاقات بين البويهيين والخلافة بذكر علاقتهم
بالفاطميين اذا نحن وضعنا جانبا تلك الفكرة التي خطر مرة لمعز الدولة باعطاء الخلافة
للعلويين ثم تراجع عنها لانكاد نجد من علاقة واضحة بين الفاطميين والبويهيين .
غير ان الداعية الفاطمي الكبير " المويد في الدين هبة الله الشيرازى " أورد في كتابه
(السيرة المؤيدية) نصوصا هامة تبين :

1 - انتشار الدعوة للفاطميين بين الديلم خاصة وفي مناطق العراق وشيراز وفارس على
يد المؤيد .
2 - ان البويهي الآخر أباكاليجار نفسه قد مال (أو دخل ؟) في الدعوة .
3 - ان حركة المؤيد وحركة البساسيرى من بعده سنة 450 قد كادت تنجح لولا ظهور
السلاجقة في بغداد .

ويظهر ان المعركة السياسية الداخلية في بغداد بين الخليفة والامير البويهي دعت كلا
من الطرفين الى تهديد الآخر بالقوة التي قد يلجأ اليها عند الحاجة : فالخليفة جعل

يهدد البويهيين الشيعة بالسلاجقة السنيين النابتين في الشرق .
والبويهيون اخذوا يضغطون على الخليفة باظهار الميل الى الفاطميين وخليفتهم أنذاك المستنصر بالله . ويظهر ان الفاطميين فاوضوا البويهي أبا كاليجار في نقل الخلافة من بغداد اليهم أو طلبوا منه الانحياز لجانبهم الا ان سياسة البويهيين كانت تقضي بالتهديد دون اعطائهم السيادة .
ويشعر الخليفة العباسي بالمقابل بهذا التقارب الفاطمي — البويهي ويرى مقدار الخطر الذي يتهدد الخلافة العباسية من حركة المؤيد الشيرازي في الدعوة فيبعث سفيرا من قبله الى أبي كاليجار في شيراز يطلب منه تسليم الداعية الفاطمي ويعمد الخليفة بعد ذلك الى التهديد فيقول : " وانه اذا سومح في بابه وأهمل تسليمه في يد صاحبنا (يعني السفير) فقد أخر جتمونا من عهدة الأيمان والعهود بيننا وبينكم (بين بني العباس وبني بوية) واحوجتمونا الى الاستنصار من ينصرنا عليكم (يعني التركمانية) ولكن أبا كاليجار لم يأبه لهذا التهديد وظل يتقرب من الداعية ويسمع محاضراته ويدرس كتب الاسماعيلية حتى اصبح الديالمة على قول الداعية المؤيد (الى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين) ولو ان أبا كاليجار " استقصى الأمر لوجد ندماءه اكثرهم بذلك داعين وبشعاره منادين " .
ولعلنا نلمس في هذا سببا من اسباب انفصام العرى نهائيا بين بني بوية والعباسيين واتجاه خلفاء بغداد الى الامراء السلاجقة السنّة .

الوزارة والوزراء في العهد البويهي

1 — الوزارة في العهد البويهي : — لقد سجل ظهور مؤسسة الوزارة في العصر العباسي الاول بدء انتقال نظام الحكم الاسلامي من العهد الاقطاعي الى عهد التنظيم البوروقراطي . وبالرغم من عدم وجود حدود معينة لسلطات الوزير فان الوزارة تكاملت شيئا فشيئا ، وعلى حساب الوزراء الذين تولوها ، حتى اضحى الوزير الشخصية الاولى في الادارة الحكومية وأضحى مقدما على جميع القواد مع انه ليس اكثر من رئيس للكتاب ومع ان الدولة قامت في الاصل على أساس حربي .
" وكان هذا الوضع الجديد احياء لنظام تسلسل المراتب والتدرج الى ان تنتهي المناصب برئيس اعلى وهو النظام القوى الذى عرفه الشرق القديم ، على ان قيمة الوزير في الدولة العباسية انحطت منذ عهد المقتدر وتسلط مؤنس الخادم (قائد الجيش) على الجهاز الادارى ، ولم تنجح محاولة الخليفة الراضي في ضم الوزارة الى القيادة في منصب امير الامراء في انقاذ الجهاز الادارى من التدهور . كان دخول البويهيين الى بغداد نهاية ذلك التدهور .
آ — فما دامت سلطة الخليفة العملية قد انتهت فمن الطبيعي ان يرافق ذلك ويتبعه تنحية سلطان الوزراء . وهكذا كانت سنة 334 (946م) اهم سنة في تاريخ الوزراء العباسيين اذ ألغي المنصب بالنسبة للخلافة ، فالعهد البويهي لم يكن فيه وزراء (خلافيون) بل قام كاتب

الامير البويهي الذى غلب على تدبير الامور مقام الوزير ويطل كما يقول مسكويه رسم الوزارة . وقد تكلم هلال الصابئ في كتاب (تحفة الامراء) عن وزراء العهد البويهي (فسماهم كتاب الايام الديلمية) على ان هؤلاء الكتاب اتخذوا لانفسهم لقب الوزارة وان كانوا وزراء لغير الخلفاء . ولذلك يحكى ان جوهر الصقلي يوم فتح مصر توقف عن مخاطبة ابي الفضل جعفر بن الفرات في كتابه اليه (بالوزير) ولم يخاطبه بذلك الآ بعد مراجعته وقال : ماكان وزير خليفة .

ب - ولم تكن مهمة الوزير عند أمراء الاطراف مثلها عند وزير الخليفة فقد كان للوزير الخليفي صفة ادارية دوما دون الصفة الحربية وتفرد الفضل بن سهل وزير المأمون بلقب ذى الرياستين " وربما كان ذلك لخبرته في شؤون السيف والقلم " كما انه لم يحول الوزارة قائد خبير الآ الحسن بن مخلد (وزير المعتضد) . اما عند بني بويه (والسامانيين) فقد كان الوزير يقوم بمهام الوزارة والقيادة معا . ونجد امثال الصاحب بن عباد الاديب المبرز يقود الجيوش في وزارته .

جـ - الآ الوزير البويهي لم يكن مطلق السلطة وانما هو موظف عادى . ولا يشترط فيه سوى رضى الامير عنه وهو يحتمل مقابل ذلك الهوان والقهر : فمعز الدولة ضرب وزيره المهلبي مائة وخمسين مقرعة وكان يشتمه على ملإ . وجاء بختيار فاستوزر صاحب مطبخه : لابن بقية سنة 362 وكان يقدم الطعام اليه ويحمل الفطائر بيده ويتشح بمناديل الغمر ويذوق الالوان عند تقديمه اياها " وقد قبض عضد الدولة على ابي الفتح بن العميد وزير ابيه فسمل عينيه وقطع أنفه لاتصاله بالعدو . وأذاق ابن بقية ميتة شنيعة تحت أرجل الفيلة .

د - وقد أحدث عضد الدولة أمرين في منصب الوزارة لم يعهدا قبله : أولهما انه اتخذ وزيرين معا . والثاني انه قبل وزارة الذميين فأحد هذين الوزيرين كان نصرانيا وهو ابن منصور نصر بن هارون ،وقد أبقي عضد الدولة نصرا في بلاد فارس بينما أخذ معه الى بغداد المطهر ابن عبد الله الذى التاث عليه أمر اللصوص في البطائح وخشي ريبة عضد الدولة فانتحر بقطع شريان يده . ولم يكن الوزيران على وفاق بل كان كل منهما يدبر لصاحبه .

وقد مشى بهاء الدولة على رسم أبيه في اقامة وزيرين سنة 382 وجعل احدهما مدبرا لشؤون العراق . ولما مات الصاحب بن عباد سنة 384 بعد ان دبر امور الوزارة خير تدبير وقعت مساومة شائنة حول هذا المنصب اذ ان أحد الولاة أرسل يضمن الوزارة بثمانية آلاف ألف درهم فبذل الوزير الذى كان على الوزارة ستة آلاف ألف درهم على اقراره فيها فأشرك السلطان فخر الدولة بينهما في الوزارة وسامح كلا منهما بألفي الف درهم من جملة مابذل وجمع بينهما في النظر ورتب امرهما على ان يجلسا في دست واحد ويكون التوقيع لأحدهما يوما وللآخر العلامة . وكانا يتقارعان على من يخرج لقيادة الجيوش ثم سعى بينهما السعاة ودبر احدهما للآخر فقتله .

هـ ـ ولم يبرأ الوزراء من الغرام بالالقاب كغيرهم : مما يدل على فساد القيم في المجتمع اذ ذاك ففي عام (411 هـ ـ 1020 م) اكرم الامير البويهي وزيره في بغداد فأمر بان تضرب الدبابا امام داره في اوقات الصلاة ولقبه كذلك بوزير الوزراء . ويعلق هلال الصابي صاحب تحفة الامراء على هذا بقوله : " ان مخاطبة الملوك المدبرين لوزرائهم بمثل هذا اللقب هي من انقلاب الرسوم وتغير حقائق الاشياء " . وفي سنة 416 هـ (1025 م) خلع جلال الدولة ببغداد على وزيره ولقبه (علم الدين ، سعد الدولة ، امين الملة ، شرف الملك) فكان هذا الوزير اول من لقب بالالقاب الكثيرة . . . ولكنه هو وامثاله بالمقابل لم يكن له أيّ سلطة اذا قورنوا بوزراء العهد الاول .

و ـ ويمكن ان نضيف الى هذا كله ان وزراء البويهيين تميزوا بالصفة الادبية ونعد بينهم كاتبين من اشهر كتاب العربية : ابن العميد (الذى طالما قيل انه قد ختمت به الكتابة) والصاحب بن عباد .

2 ـ وزراء العهد البويهي : هم في العدد كثيرون يبلغون حوالي سبعين وزيرا وقد وزر بعضهم عدة وزارات متقطعة .

المهلبي :ـ ابو محمد الحسن ، وكان وزيرا ذا كفاية عظيمة وهو من آل المهلب من سادة الاسلام الاولين . وكان للمهالبة في البصرة منذ القرن الثالث دور عظيمة عرفت بحسنها وكان ابو محمد قبل الوزارة في شدّة عظيمة حتى لقد تمنى الموت مرة ثم صلحت حاله فنراه سنة 326 وكيلا لابي زكريا السوسي من كبار رجال المال في بغداد ثم نراه مرة اخرى يستولي على بغداد سنة 334 (946 م) الى ان وردها معز الدولة البويهي ونرى ابا جعفر الصيمرى يستخلفه على الامور في بغداد ثم يغنيه عنه في حضرة معز الدولة فيحسن موقعه عند البويهي ويميل اليه ويقربه فيشتد ذلك على الصيمرى ويتطلب الذنوب ويطيل لسانه بالوقيعة . ولما مات الصيمرى سنة 339 استكتب معز الدولة المهلبي وآثره على جميع الكتاب ولكنه لم يخاطب بالوزارة الا سنة 345 .

وكان الاصفهاني صاحب الاغاني منصرفا الى المهلبي كثير المدح له ويصفه بان له نظما كالدر ونثرا رقيقا . . ولكن المهلبي كان الى جانب ذلك قائدا محنكا . وقد هزم صاحب عمان حين غزا البصرة وغنم منه وكان خارجا الى عمان ايضا سنة 352 حين مات بعد ان بقيت وزارته (13) سنة دبر فيها اكبر ديوان في الدولة على قول مسكويه . وكان مخلصا في المحافظة على النظام والعدل وقد رد رسوم الضرائب الى ماكانت عليه قبل ظلم البريديين وكان يؤدب العيابين كما فعل مرة بحاجب قاضي القضاة الا انه كان قاسي الخصومة وقد تعقب مرة احد العمال فنقر على كل ماله واستعمل في ذلك المكر والدهاء والبطش .

على عادة العصر ولهذا يذكر مسكويه هذه الحكاية معجبا بذكاء المهلبي وصدق تخمينه ورضى معز الدولة عنه .

ولقي المهلبي هذا النصير نفسه من مولاه معز الدولة حين توفي .. وكان الامير البويهي كثيرا مايشتمه وينتهره وقد ضربه مرة مائة وخمسين مقرعة هذا برغم انصياع معز الدولة لمشورة المهلبي احيانا كما جرى حين صرف همه عن ترك بغداد فابقاه بها وجعله يبني بها قصرا له .
وكان ندماء المهلبي الهيان الفضل وسادة الادب وذوى العقل والعلم يجتمعون عنده على الطعام والشراب والمذاكرة . ويتكلم مسكويه في حديث قصير عن صفات المهلبي وسخائه ومآثره وان يكن غير متحمس له .

ابن العميد : (299 _ 360) :- ابو الفضل محمد بن الحسين ابي عبد الله الكاتب الملقب بالعميد . وكان ابوه وزيرا للقائد مرداويج وهو الذى ساعد عماد الدولة علي ابن بويه على الخروج من وجه مرداويج الى الكرج . فعرف له فضله . وأصل الاسرة من بلدة قم ولكن بعض الكتاب يرجح انه عربي لا فارسي .
أخذ ابن العميد العلم في بغداد على مايقال وقد رحل اليها مرة أو مرتين وهو وزير وكان يحبها ويعجب برجالها وحضارتها ولا نعرف من استاذته سوى ابن سمكة المفتي الذى علمه الاعتزال وعلوم الاوائل ولم يمنعه مااشتهر عنه من الاعتزال والقول بالحكمة (الفلسفة) من ان يصبح اعظم شخصية في منطقة كل من فيها شيعة .
واذا شئنا فانا نجد لابن العميد صورة واضحة لدى مسكويه خازنا لدار كتبه مدة طويلة وقد بقي في نفسه لابن العميد أثر قوى حتى ان التوحيدى يهزأ بابن مسكوية ويعيبه بانه يفسد قوله لكثرة مايذكره .
ومما سجله مسكويه لمولاه ابن العميد القدرة على الحفظ وكان في حداثته يخاطر رفقاءه الادباء الذين يعاشرهم على حفظ الف بيت في يوم واحد .. وكذلك شعره الذى جد فيه وهزل فانه في اعلى درجات الشعر فاما المنطق وعلوم الفلسفة والالهيات منها خاصة فما جسر احد في زمانه ان يدعيها بحضرته الا ان يكون مستفيدا أو قاصدا قصد التعلم دون المذاكرة .. ثم انه كان يختص بغرائب العلوم الغامضة كالهندسة والطبيعة والحركات الغريبة وجر الثقيل ومعرفة مركز الاثقال واخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة الى الفعل .. كما يتحدث مسكويه عن مزاياه الحربية بذكر مهارته في " عمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون وحيل في الحروب مثل ذلك واتخاذ اسلحة عجيبة بسهام تنفذ امدا بعيدا عظيمة ومرايا محرقة على مسافة بعيدة جدا .. ثم يذكر بعد هذا مهارته الفنية فيقول انه كان له : " لطف كف لم يسمع بمثله ومعرفة بدقائق علم التصوير وقد رأيته يتناول التفاحة او مايجرى مجراها فيبعث بها سالمة ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قد خطها بظفره لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة وفي الايام الكثيرة ماتأتى له مثلها " .
ويتمم مسكويه الصورة بذكر ادارته : فيقول " فأما اضطلاعه بأمور الملك فقد دلت عليه رسالته

التي يخبر فيها باضطراب امر فارس وسوء سياسة من تقدمه لها وما يجب ان تتلافى به حتى تعود الى احسن احوالها " فان هذه رسالة تتعلم منها صناعة الوزارة " ولما حصل بفارس علّم عضد الدولة وجوه التدابير السديدة وصناعة الملك التي هي صناعة الصناعات ولقنه ذلك تلقينا صادف متعلما لقنا . حتى قال عضد الدولة مرارا : " ان ابا الفضل بن العميد كان استاذنا " وكان لا يذكره في حياته الا قائلا عنه انه الاستاذ الرئيس .

اما معاملته لاصحابه فكانت تقوم على الحب والاحترام والرعاية وكان اذا دخل عليه اديب أو عالم متفرد بفن سكت له واستحسن كل مايسمع منه حتى اذا اتفق ان سأله عن شيء منه تدفق حينئذ بحره .. " وما اكثر من خجل عنده من المعجبين بأنفسهم " .

ونستنتج من هذه الصورة جميعا ان ابن العميد كان بالنسبة لعصره مثال الرجل الكامل المثقف ثقافة تجمع بين العلم وعلوم الاوائل والماهر في الحرب وامورها مهارته في الادارة وذي الذوق الفني المرهف والعشرة الجميلة والهيبة البالغة . وقد توفي ابن العميد في همذان سنة 360 .

الصاحب اسماعيل بن عباد (326 - 385 / 938 - 995) : كان ابوه وزيرا لركن الدولة وهو اول من لقب بالصاحب من الوزراء لانه كان يصحب ابن العميد (الأب) أو انه كان يصحب الامير البويهي الذي استوزره وهو مؤيد الدولة ثم بقي هذا اللقب لكل من تولى الوزارة من بعده .

كان الصاحب في اول امره معلما في قرية ثم ترقت به الحال بعد ان صار كاتبا حتى بلغ منصب الوزارة في عهد مؤيد الدولة ثم فخر الدولة من بعده سنة 373 .

وقد بلغ من حسن تدبيره ان الامير الشاب الذي استوزره والذي له ابن عباد مملكته لم يكن يخالفه في أمر من الامور بل حكّمه في كل شيء وكان يجلّه بكل ضروب الاجلال ولما مات الصاحب عمل له مايعمل فحضر جنازته مخدومه فخر الدولة وجميع اعيان المملكة وقد غيروا لباسهم فلما خرج نعشه صاح الناس صيحة واحدة وقبلوا الارض لنعشه ومشى فخر الدولة امامه وقعد للعزاء اياما .

وليست شهرة ابن عباد الحقيقية في السياسة ولكنها في الادب . وقد بلغ من حب الصاحب للعلم والادب كما يقول انه كان يرسل الى بغداد خمسة آلاف دينار كل عام تفرق في الفقهاء وأهل الادب . من جهة اخرى يذكرون ايضا ضآلة عطاياه " فكان لايزيد على مائة درهم وثوب الى لخمسمائة وما يبلغ الى الآلاف نادر .. " وقد كان من قلة توفيق الصاحب انه أغضب التوحيدي أبا حيان فأثار على نفسه الذم من أقذع الالسنة في عصره وكتب أبو حيان رسالة مشهورة في ذم الصاحب وشكله وطريقته وأدبه وسياسته .

السياسة المالية للبويهيين (1)

كان الامر الاساسي الذي يطيح بالخلفاء والوزراء في اواخر العصر العباسي الثاني هو

(1) نعتمد في هذا البحث الهام القيم الذي قدمة الدكتور الدوري في كتابه " تاريخ الحياة الاقتصادية " وخاصة في كتابه " دراسات في العصور العباسية المتأخرة " .

الازمة المالية . وكان فراغ الخزينة علة مزمنة انحط على مذبحها كل الجهاز الحاكم وجاءت الفوضى التي ملأت عهد امرة الامراء فزادت الخزينة فراغا بسببها لحق السواد خاصة من فوضاها وتخريبها : فقد انهار نظام الريّ وكثرت البثوق على ضفاف القنوات وأهملت المساحات الواسعة من الاراضي اما لانعدام الأمن أو لانعدام الايدي العاملة وتدهورت الزراعة في الوقت الذي انحطت فيه الصناعة ايضا وفرق الصناع من السواد والعراق كلة وتضعضعت الخطوط التجارية العالمية المارة بالبصرة . وكان من عقابيل ذلك النقص المستمر في موارد الخزينة .

وجاء البويهيون فأبدى بعضهم كمعز الدولة وعضد الدولة رغبة صادقة في اصلاح نظام الريّ ولتحسين شؤون الزراعة ولكن اهمال الآخرين وقلّة خبرة البويهيين بصورة عامة في الادارة وسوء تصرفات الجيش اضرت بالسكان وجعلت عصر البويهيين عصر تدهور مالي بالنسبة للعصور السابقة.

اما معز الدولة : فوصل بغداد وكان أول همه تخفيف وطأة الخراب في البلاد ويقول مسكويه انه سأل علي بن عيسى " الدنيا خراب والامور على ماتراه من الانتشار فأشر بما عندك في اصلاح ذلك " فأجاب علي وهو الخبير العريق " ومن اول مانظر به الامير وقد مه سد هذه البثوق فهي اصل الفساد وسبب خراب السواد " فقال معز الدولة " وقد نذرت لله عند حضوري في هذه الحضرة الّا أقدم شيئا على ذلك ولو انفقت فيه جميع ما أملك " . وقد عني معز الدولة فعلا بنظام الريّ منذ سنة 334 . وكان من تأثير ذلك ان " عمرت بغداد وبيع الخبز النقي عشرين رطلا بدرهم " .

وعمد الى السواد فقوى بعض انهره وبعث أبا الفرج بن ابي هشام سنة 334 لتنفيذ سياسة احياء الموات والعمل على اعادة الزراعة الى الاراضي التي خربتها الحروب والظلم .

ولكن معز الدولة لم يستطع اتمام هذه السياسة بما يناسبها اذ ان فراغ الخزينة والحاجة للمال بسبب نفقات الجيش وقلة خبرته جرته الى اتباع سياسة زراعية هدامة تناقض الاصلاح ومسكويه يعطي وصفا دقيقا ناضج التحليل لـ ا : ففي السنة اسنة 324 " أقطع معز الدولة قواده وخواصه واتراكه ضياع السلطان وضياع المستترين ز" . ولما كان الجند لايهمهم سوى جمع المال فقد احتفظوا بالاقطاعات المربحة وردّوا الخاسرة . وكان الربح والخسارة نتيجة العمارة ورخص الاسعار وعوض الخاسرين عن اقطاعاتهم وتممت لهم نواقصها بينما تمسك الرابحون باقطاعهم ولايمكن "الاستقصاء عليهم في العبرة (أي أخذ حقوق الخزينة منهم) .

ومن جهة اخرى فان جشع الجند للمال خرب بعض الاقطاعات الجيدة واتسع الخرق " حتى صار الرسم جاريا ان يخرب الجند اقطاعاتهم ثم يردها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون " . واما الاراضي الزراعية التي لم تقطع فأعطيت بالضمان لاكابر القواد والجند من جهة والى اصحاب الدرازيع والمتنفذين من المدنيين من جهة اخرى .

ويعزى اخفاق اصلاحات معز الدولة الى محاولته القيام بعمليتين متضاربتين : اصلاح نظام

الرى واحياء موات الارض من جهة وايجاد اقطاعات عسكرية زراعية من جهة اخرى . ولم يكن الجند بذوي نظام أو تعفف كما لم يكن للحكومة من سلطة تضبطهم . وقد يكون معز الدولة بدأ بالعمل الاول في فورة من الحماس العاطفي ثم اهمله واعتمد على الطريقة الثانية باقي حكمه وعلى أي حال فقد أثرت سياسته الاقطاعية هذه في الخزينة تأثيرا سيئا بسبب تضاؤل المورد الاساسي لها من خراج الارض وارتفاعها . هذا بالاضافة الى انفاقه الزائد على الجند اذ " اسرف في تمويلهم وتخويلهم " فافلست خزينته . ويقول مسكويه " فتعذر عليه أن يدخر ذخيره لنوائبه أو ان يستفضل شيئا من ارتفاع . ولم تزل مؤونته تزيد وموارده تنقص حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفا على حد منه بل يتضاعف تضاعفا متفاقما وأدى ذلك اخيرا الى شغب الجند وارتباك السياسة الداخلية . وكانت حملة معز الدولة على الموصل نتيجة لضائقته المالية ولقلة المحمول اليه من النواحي كما يقول مسكويه .

وانفق معز الدولة قسما من ماله على البناء ومع هذا فقد خلف عند وفاته (400) الف دينار أنفقها خلفه باسرع ماينفق مال . .

جاء بختيار (عز الدولة) الى الحكم دون فهم للسياسة أو الادارة بل " اشتغل باللهو واللعب ومعاشرة المساخر والمغنين والنساء " . ولم يكن يهمه الا جمع المال اللازم لترفه وجنده . ويلخص مسكويه وضعه كما يالي : " وكان لاينظر في دخل ولاخرج وانما يلزم وزيره تمشية الامور من حيث لايغنيه ولا ينصره ولا يمنع احدا من جنده شيئا فاذا وقفت اموره قبض على وزيره واستبدل به فلا يلبث الامر ان يعود الى التياث والانحلال الى اسوأ ماكان " ولذلك فاننا لن ننتظر سياسه مالية معينة من وزرائه ولا القيام باصلاحات تذكر بل اتخذوا المصادرة والتعدي على املاك الموظفين والناس وسيلة لجمع المال لارضائه وارضاء جنده .

استهل وزيره ابو الفضل بن العباس الحكم بمصادرة الحاشية واسرع في جباية الخراج وفرق الاتراك على المقاطعات ليحصلوا على مخصصاتهم فأرضى الجند في تلك السنة على قول مسكويه . ولكن سرعان ماقامت المصاعب في وجه الوزير بعد ذلك اذ عجز عن سد النفقات من هذا المورد فأدت الضائقة المالية ودسائس الحاشية الى تبدلات وزارية سريعة وكل طامح للوزارة يضمن لبختيار سد النفقات ومصادرة الوزير الموجود على مقدار من المال : تولاها على هذا الشكل تولى ابو الفضل الوزارة ثم نكبه ابو الفرج بعد رشوة سبكتكين ووعده بأخذ تسعة ملايين درهم ثم عاد ابو الفضل الى الوزارة بعد وعد باستحصال سبع ملايين درهم من ابي الفرج .

وسار الوضع المالي من سيء الأسوأ طيلة ايام بختيار ، ففي سنة 362 جاء ابن بقية للوزارة بعد أبي الفضل فجمع من المال من مصادرة الوزير السابق وانصاره أفاده مدة قصيرة . . واستمرت الضائقة المالية وهي على اشدها دون ان يفكر بحل لها . فارتكب من الظلم والغشم "ماغطى على فظائع سلفه " فانقطعت موارد المال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة وهكذا عمت الفوضى المالية لسوء نظر بختيار واهماله الامور

ولجشع وزرائه وجنده فلاقت البلاد الامرين من حكمه . ولعل البلاد ذاقت بعض الرفاهية على يد عضد الدولة (369 - 372) فقد كان اقدر البويهيين الذين حكموا العراق وأبعدهم نظرا في السياسة والادارة .

يدأ عضد الدولة اصلاحاته الزراعية سنة 369 هـ / 979 م وهدف الى امرين : اصلاح نظام الريّ وتنظيم الجباية . ففي منطقة بغداد وجد كثيرا من القنوات التي تروي المدينة ومايحيط بها من الارض مسدودة قد اندفنت مجاريها فأمر بحفرها واعادة بنائها . وكرى كثيرا من انهار السواد المخربة وبنى القناطر على افواهها لتنظيم مجرى الماء . وطلب من الرعية الاهتمام بها ووضع الحراس في بعض النقاط العامة لحراسة القنوات والسدود في الليل والنهار .

واضاف عضد الدولة الى هذا اصلاح الجباية فوضع لها نظاما ثابتا . وأخر افتتاح الخراج الى النوروز العضدي ليتفق ونضج الغلات " وكان يؤخذ سلفا قبل ادراك الغلات " وألحّ على العدل والانصاف في الجباية فأمضيت للرعية الرسوم الصحيحة وحذفت منها الزيادات والتأويلات وشجع الزراع على عرض مظالمهم ليرجع حقوقهم حتى من المقتطعين العسكريين وعني باختيار الامناء للاهتمام بمصالح السواد وتحسينه .

وكانت هذه الاصلاحات ممكنة في عهد عضد الدولة لقوته التي ارجعت الأمن وضبطت الجند ولرغبته الصالحة في تحسين الاوضاع وللخبرة التي اكتسبها البويهيون في الحكم بالعراق خاصة . على ان الرفاه لم يدم طويلا اذ عاد الشقاق الى البويهيين وسادت الفوضى بعد عضد الدولة ولم يخلفه احد له من الوقت والقابلية ومايستطيع به الاستمرار على اصلاحات سلفه واذا استثنينا سد بثق النهروان سنة 385 وحفر قناة موازية لنهر بيان سنة 395 فاننا لانكاد نسمع بعد عضد الدولة الا الحديث عن الفقر والخراب وتكرر فيضان دجلة الذي خرب الارض والغلات لعدم تنظيم مياهه وقد شهدت السنوات العشرة الاخيرة من القرن فيضانين جارفين له وهكذا نجد ان الحكم البويهي حوى احيانا حكاما قديرين ووزراء بعيدي النظر حاولوا المحافظة على نظام الريّ وساعدوا الزراع وحموهم من الجند وسعوا لوضع الجباية على اساس عادل ولكن التخريب كان هو الاغلب . وكانت الملكيات الخاصة هي النوع السائد من الاراضي قبل الفتح البويهي اما الاقطاع فكان شأنه ثانويا والنوع الشائع منه هو الاقطاع المدني اما بعد الفتح البويهي فشاع الاقطاع العسكري حتى غمر انواع الملكية الاخرى وبلغ أوجه في العهد المملوكي .

انهيار الحكم البويهي

لم يساهم واحد في تحطيم الحكم البويهي ولا كان التدهور فيهم ناتجا عن قلة خبرتهم وحدها بل كانت هناك عوامل هدامة عديدة تنخر في جسم الدولة البويهية منذ تأسيسها وأهمها نظرة البويهيين الى الحكم وتكوين الجيش بالاضافة الى سياستهم المالية والادارية والى اضطراب التوازن الاجتماعي في عهدهم . فلما ظهرت اخيرا القوة السلجوقية وجهت اليهم الضربة القاضية .

1 - النظرة الى الحكم وتفكك البيت الحاكم :- كان البويهيون في بدء عهدهم يشعرون كما رأينا بأن المملكة هي ملك عائلي يوزع بينهم ولكنهم كانوا يشعرون الى جانب ذلك برابطة معنوية تشدهم الى بعضهم بعضا . ويعترف كلهم بسيادة كبير العائلة ...
وقد اضطرب هذا الشعور سريعا بعد الجيل الاول وظهر فقده بظهور عضد الدولة .
على ان قوة هذا الحاكم جمعت في يديه كل الملك البويهي تقريبا في الريّ وشيراز وبغداد ومدن العراق حتى عمان فلم يظهر أثر التفكك العائلي في الدولة ولم يخرج البيت البويهي بعد عضد الدولة جيلا صالحا للحكم وبدأت منذ عهد اولاده فترة الانهيار التي اشبهت لحد كبير انهيار الخلافة العباسية . فقد ظهر النزاع الاخوي والعائلي بين افراد الاسرة البويهية الذين طمع بعضهم بأملاك بعض وانتهى بعضهم الى السمل والقتل وكثير منهم كانوا اطفالا حين يصلون الى السلطنة كما كانوا يموتون في ريعان الصبا . وقد كان البويهيون الاوائل يعتبرون المملكة ملكا أسريا يوزع بينهم ويشعرون برابطة ادبية يعترفون معها بسيادة كبير العائلة (على الطريقة الديلمية) وظهرت بوادر التشمت العائلي عند الجيل الثاني منهم ومثل ذلك اساءة بختيار التصرف مع ابن عمه ومحاوله عضد الدولة اغتصاب عمل بختيار واغتصابه لهذا العمل فعلا بعد وفاة أبيه ، وتجريده لاخوته من اعمالهم . . وحكم بهاء الدولة في بغداد حكما طويلا مضطربا وشغلت السنين الاخيرة بالنزاع بين الحفدة حتى تقدم طغرل بك على رأس السلاجقة فاحتل بغداد وسجن آخر ملك بويهي (الملك الرحيم) ثم افتتح فارس . . واختفت بذلك فروع البويهيين في الريّ وبغداد وشيراز على التعاقب بنتيجة غزو اجنبي .

2 - ظهور النزاع بين عناصر الجيش البويهي كما أعوزه النظام وحركته أطماع المال :- فقد كانت كتلة الجيش مؤلفة من عنصرين اساسيين : المشاة الديلم والخيالة الترك . وكان الديلم يحاربون على شكل صفوف تكّون حائطا من الدروع الملونة الزاهية لكنهم كانوا يحتاجون للخيالة من الترك لتقوية الهجوم كما كان الترك اقوى سلاحا في الدفاع من الديلم . وبالرغم من وجود بعض العناصر الاخرى كالعرب والاكراد والزط في الجيش البويهي (كجيش عضد الدولة في رواية مسكويه) فان العنصرين الرئيسيين كانا صاحبي السيطرة والكلمة الاولى ، ومع وجود المناقسة الطبيعية الناتجة عن التكالب على الامتيازات والنفوذ بين الفريقين فان سوء سياسة الامراء البويهيين تجاه الجيش بتقريب فريق دون آخر على حساب الآخر أو باثارة بعضهم ضد بعض عدا قسم الجيش على نفسه وجعله يعصي امراءه ويصبح الخطر الرئيسي على الناس ومصدر البلاء .
وقد بدأ تخليط الامراء البويهيين منذ دخولهم العراق فبعد ان كان الشرف والنفوذ للديلم أخذ معز الدولة بتقريب غلمانه الاتراك وبزيادة اقطاعاتهم والاسراف في تمويلهم حتى أفرغ

خزينته " وأدى ذلك على مر السنين الى الاخلال بالديلم فيما يستحقون من اموالهم ود اخلتهم المنافسة للاتراك لحسن احوالهم . وقادت الضرورة الى ارتباط الاتراك وزيادة تقريبهم والاستظهار بهم على الديلم " ففسد الفريقان : اما الاتراك فبالطمع والضراوة واما الديلم فبالضر والمسكنة واشرأبوا الى الفتن وصارت هذه المعاملة لقاحا وسببا لوقوع ما وقع فيها .

وهكذا ظهر سخط الديلم على معز الدولة سنة 341 اذ ثار روزبهان الديلمي في الاهواز فلما سار معز الدولة لتأديبه شغب الديلم واظهروا استياء كان في نفوسهم عليه وكاشفوه وواجهوه بكل ماكره . وأخذوا يستأمنون الى روزبهان فلما أخذ لمعز الدولة الثورة بمعونة غلمانه الاتراك ازداد الوضع سوءا لان الامير اسقط الديلم الروزبهانية " وأعرض عن سائر الديلم وأقبل على الاتراك واصطنعهم " ولم يحاول توضية الديلم بل زاد حقدهم بأن رفع سنة 347 منزله الاتراك كل طبقة الى ماهو اعلى منها وزاد في اعطياتهم واقطاعاتهم فأساؤوا التصرف . وتكالبوا على جمع المال حتى اشتغلوا بالتجارة . . في نفس الوقت الذى استمر اهمال الديلم وابعادهم . واستحكم بذلك العداء بين الديلم والترك حتى لم يعد بالامكان ازالته واخفقت محاولة بختيار في هذا الصدد سنة 359 .

وارتكب بختيار حماقة سياسية دفعه اليها افلاس الخزينة والطمع فقد ادخل بيده سنة 363 في اقطاعات سبكتكين قائد الاتراك وشجعه الديلم على ذلك فثار الترك وا خرجوه من بغداد حتى اضطر للاستنجاد بعضد الدولة .

وعاد بهاء الدولة الى تقريب الترك سنة 379 لانهم اكثر ولاء من الديلم . ولكن البويهيين كانوا دوما في مشاكل مع الاتراك لان بني بويه كالديلم شيعة والاتراك سنيون . وهذا الخلاف للمذهبي في الجيش كثيرا ماأدى الى زيادة الفتن ببغداد بتحمس كل فريق لأتباع مذهبه من سكان العاصمة .

ويضاف الى هذا اخيرا ضعف البويهيين بعد بهاء الدولة وجشع الاتراك والديلم على السواء مما أدى الى استبداد الجند واستئثارهم بموارد الاراضي والشغب المستمر لزيادة المخصصات وأسوأمن ذلك تدخلهم المستمر في السياسة العامة . فهم في ثورات مستمرة في سني : (418 ـ 419 ـ 422ـ423 ـ 427 ـ 440 ـ 446) يطالبون عزل هذا الامير أو تولية ذاك ولا يهدؤون إلّا بأعطيات الصلة فأفرغوا الخزينة واضعفوا الامراء وأفسحوا المجال للعيّارين كي يخلوا بالأمن ويرهقوا الرعية حتى اضطرب الأمن وعمت الفوضى وساد الفقر والدمار .

3 ـ افتقر البويهيون الآخرون واضمحلت مواردهم المالية . يقولون : وخلت المملكة لاسيما أيام جلال الدولة وقطعت عنه المادة حتى اخرج ثيابه وآلاته وباعها في الاسواق وخلت داره من حاجب وفرّاش وبوّاب . وصار اكثر الابواب مغلقا وانقطع ضرب الطبل له في اكثر الايام

الانقطاع الطبالين . وليست هذه الصورة غريبة بعد العز القديم ولا كانت عواملها وقتية ، وانما تعود باسبابها الى البويهيين الاوائل والى سياستهم الاقتصادية الفاشلة . فان الفتح البويهي كان حدا فاصلا بين فترتين في تاريخ العراق الاقتصادي فقد أثر في زراعتها وأضر بالتجارة وبنظام الصيرفة كما أدى الى انحطاط مستوى المعيشة : فقد قاسى الفلاحون في العصر البويهي الكثير من الضرائب العالية ومن قلة الرقابة على الجباة ومن تدهور نظام السوق وسياسة معز الدولة في الاقطاع العسكري أو في اعطاء الاراضي بالضمان لم ينتج عنها الا خراب الاراضي الزراعية ولم تنج الاملاك الخاصة من الخراب أيضا . فقد أدى الظلم الى انتشار (نظام الالجاء) وسرعان ما امتلك الجند الاتراك ما الجئ اليهم من الارض " فملكوا .. البلاد واستعبدوا الناس " واستمر ذلك الى مابعد القرن الرابع .

ونتج عن اهمال القنوات حدوث فيضانات مختلفة كما أدى سوء الوضع الزراعي (بجانب الفتن والفوضى السياسية وصعوبة المواصلات وتعديات الاعراب) الى تكرر الغلاء والمجاعات .

وشمل الشلل الاقتصادي المدن فركد الانتاج وانحط مستوى المعيشة فيها . فبغداد العظيمة الشهيرة بترفها وعمارتها تدهورت للدرجة التي قال فيها المقدسي (حوالي سنة 375) :

" فاما المدينة فخراب وهي كل يوم الى وراء مع كثرة الفساد . والفسق وجور السلطان " .

ويقولون في كلمة أخرى : " انه (أي العراق) بيت الفتن والغلاء وهو في كل يوم الى وراء ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء . ثم ثمار قليلة وفواحش كثيرة ومؤن ثقيلة " .

4 - الفشل الاداري :- اذا استثنينا بعض الفترات التي لا تجاوز السنوات لم نجد في البويهيين حاكما تخلى عن صفة القائد العسكري المرتزق وما كان اهتمامهم بحسن الحكم ولكن باستغلال الحكم ولهذا سجلوا في الادارة فشلا ذريعا أدى الى مضاعفات اجتماعية خطيرة قاسى العراق بسببها كما قاسوا هم اشد المصاعب :

آ - سلطوا الجند وتسلطوا هم بدورهم على الناس : وقد شعرت بغداد بوطأة سادتها الجدد منذ دخول البويهيين اليها اذ أنزل معز الدولة اتراكه وديلمه دور الناس " ولم يكن يعرف ببغداد مثل هذا التنزل فصار من هذا اليوم رسما وصار ذلك عبئا ثقيلاً على المدنيين .

وكثيرا ماكان الجند يهجمون على الدور وينهبون الاموال ويعتمدون على السكان .

وكان الوزراء (لاسيما في عهد بختيار) يلجؤون الى مصادرة الناس لجمع المال اللازم لسد النفقات بعد ان فرغت الخزينة . واستعمل الوزير ابو الفضل الجواسيس ليتعرف الى اموال الناس على قول مسكويه ثم كان خلفه في الوزارة (ابن بقية) أشدّ منه ظلما واكثر تطرفاً في المصادرات حتى ارتبك الوضع وسقطت الهيبة وانبسطت العامة وأغار بعضها على بعض وفشا القتل ..

فانقطعت موارد الاموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة ونتج عن ذلك وضع لخص وصفه مسكويه بقوله : " الرعية هالكون والدور خراب والاقوات معدومة والجند متهارجون " .

ب - السياسة المذهبية : والبويهيون هم المسؤولون عن تلك الخصومات المنيفة التي ملأت عهدهم بين الشيعة والسنة . وقد كانت من اهم العوامل في نشر الفوضى والدمار بما

تكبد منها اهل بغداد خاصة من خسائر في النفوس والاموال .

وتشيع البويهيين لم يكن على مايظهر الا لسبب سياسي هو تكوين حزب من الشعب يناصرهم بدليل احجام معز الدولة عن مبايعة احد العلويين بالخلافة وقد استمر البويهيون على سياستهم المذهبية حتى اواخر القرن الرابع ثم لاحظوا سوء المنقلب منها على سلطانهم فأخذوا بالعكس في ضرب الشيعة .

قرّب معز الدولة الشيعة على حساب السنة ولعن الخلفاء الثلاثة الاول علنا وأدخل السبّابات وعمل يوم غدير خم عيدا رسميا .

الا ان اصحاب السلطة في العصر البويهي لم يكونوا على اتفاق في هذه السياسة بل كانوا ينقسمون حزبين : حزب الاتراك ومن حولهم وهم يؤيدون السنة وحزب الديلم وكانوا يؤيدون الشيعة فجر ذلك أمر الويلات على البلاد .

وكانت أول فتنة مذهبية كبيرة سنة 348 ثم توالت الفتن حتى نهاية العصر البويهي وكلفت الناس ثمنا باهظا في النفوس والاموال . ونرى في ابن الاثير لوحده ذكرا لاكثر من عشر حوادث كبرى من الفتن . ففي سنة 361 ارسل الوزير ابو الفضل حاجبه لتهدئة فتنة في الكرخ وكان الحاجب يتعصب للسنية فألقى النار في عدة اماكن من الكرخ " وهي مجمع الشيعة ومعظم التجار " فاحترقت " وكان عدة من احترق 17 الف انسان و300 دكان وكثير من الدور و33 مسجدا ومن الاموال ما لا يحصى " . وتكرر احتراق الكرخ سنة 363 اذ استغل سبكتكين السنة في ثورته على بختيار فقوّد من رؤسائهم القواد وعرّف العرفاء ونقّب النقباء وحملهم على الدواب وصار له منهم جند .. بينما ثار الشيعة بجانب الديلم . وفي سنة 381 " وكثرت الفتن بين العامة ببغداد وتكرر الحريق في المحال واستمر الفساد ((وفي سنة 407 احترق نهر طابق ودار القطن وكثير من باب البصرة)) .

وفي سنة 422 تخرب في الفتنة عدة اسواق من الجانب الغربي ثم تجددت الفتنة فالتهمت اسواقا اخرى . وهكذا حتى اضحت الفتن المذهبية امرا عاديا في حياة بغداد .

جـ — فوضى العامة : والامراء هم الذين جرّؤوا العامة عليهم وهم دهماء فلا ثقافة ولا نظام وقد كانوا يستنجدون بهم في الأزمات . ففي سنة 334 استعان ابن شيرازاد بالعامة والعيّارين لمحاربة معز الدولة وفي سنة 361 استنفر سبكتكين العامة بأمر بختيار لمحاربة البيزنطيين " فثار من العامة عدد كثير بأصناف السلاح والسيوف والرماح والقسي حتى استعظم ماشاهده منهم " وكانت السياسة البويهية المذهبية تزيد من جرأة العوام ايضا غير ان هذه القوى التي لاضابط لها انطلقت في بغداد خاصة فلم يعد من الممكن لملمتها فيذكر المؤرخون مثلا ان العوام الذين جمعهم سبكتكين بدل ان يسيروا الى الغزو سنة 361 (لانقاذ حلب) اقترفوا في العاصمة نفسها انواع الفظائع من قتل ونهب وتدمير وانتهاك حرمات " وعجز السلطان

عن اصلاحهم واطفاء ماأثار من ثائرتهم حتى صار ذلك سببا لخراب بغداد " واند مجت فتن العامة غالبا بالفتن المذهبية حتى بلغ من سوء الوضع ان صمصام الدولة اراد سنة 410 ارسال نائب عنه الى العراق فقيل له " العراق تحتاج الى من فيه عسف " لكثرة الفتن فيه .
على ان كلمة عامة وعوام ترد دوما في الاخبار مرفوقة بكلمة (عيارين) ويظهر ان المؤرخين لم يفهموا هذه الحركة ولا روحها فاعتبروا اصحابها لصوصا منحطين ومن الضروري ان نقف عندها وقفة قصيرة لما تحمل من معنى اقتصادي اجتماعي ولما لعبت من دور في حياة العراق وغيره في العصور العباسية المتأخرة .

هم جماعة يمثلون تكتل طائفة من الطبقة العامة جمع بينها التباين الاقتصادي الطبقي وسوء الوضع المعاشي للعوام والفوضى السياسية وبالرغم من ان بعض من اشترك بحركتهم كان مدفوعا بحب الغنيمة الا ان حركتهم هي في الواقع ثورة ضد الاسياد السياسيين وضد اسياد المال ولم يعدم العيارون حجة فقهية لنهب اموال الاغنياء فهذا احد قطاع الطريق يبرر عمله قائلا :
" ان هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لانهم منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت اموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فقراء اليها فان اخذوا اموالهم (ولو كره التجار) كان ذلك مباحا لا بعين المال مستهلكة بالزكاة وهم مستحقون للزكاة شاء ارباب المال أم كرهوا " .

والبحث في تنظيمات العيارين ومبادئهم الخلقية يقود الى التذكير بالفروسية الاوربية في القرون الوسطى . فقد كانت للعيارين تنظيمات خاصة ودرجات في الرئاسة ومن القاب رؤسائهم في القرن الرابع (المتقدم) و (القائد) و (الامير) ولهم مراسيم معينة وحفلات خاصة لقبول الاعضاء الجدد .

كما كان لهم مبادئ خلقية يزعونها وطريقة يسيرون عليها . وما حركة الفتوة فيما بعد الا سليلة حركتهم . يقول ابن الجوزى انهم (يسمون طريقتهم الفتوة وربما حلف احدهم بحق الفتوة فلم يأكل ولم يشرب) . ومن مبادئهم الخلقية الكرم والصبر الشديد على الأذى وأن (الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرم ولا يهتك ستر امرأة) فالعفة وعدم المجون من الاخلاق الاساسية عندهم . وهم يؤكدون على الأمانة . ومن عناصر فتوتهم الرفق بالضعفاء والفقراء فالبرجمي العيار " كان . . فيه فتوة وله مروءة ولم يعرض لامرأة ولا الى من يستسلم اليه " وكان يحمي النساء ولا يسمح بالتعرض لهن ويذكرون عن ابن حمد ان ان " فيه فتوة وظرفا . . ولا يفتش عن امرأة ولا يسلبها " .

وفعاليات العيارين لم تقو الا في الربع الاخير من القرن الرابع الهجرى . واستمرت على قوتها حتى نهاية العهد البويهي ومن ابرز متقدميهم البرجمي الذى استطاع ان يكسف السلطان وان يستبد ببغداد خمس سنوات (421 ـ 425) وبلغ من شهرته وعجز الحكومة ان " العوام ثارت بجامع الرصافة ورجموا الخطيب وقالوا : ان خطبت للبرجمي والا فلا تخطب لخليفة او ملك

وتمهد سنة 425 بحفظ الأمن فكان يجبي ضرائب الاسواق وارتفاع المواخير والقيان لنفسه ،
وكانت معظم هجمات العيارين على التجار والاسواق قبل كل شئ فهم ينهبون بضائعها ويفرضون عليها الضرائب وجعلوا همهم مهاجمة دور المثرين والبارزين لنهبها أو لفرض الضرائب عليها وقضوا على الأمن في بغداد وأعجزوا الحكومة عن اخضاعهم فكان سكان بعض المحلات يهجرون محلاتهم ليتخلصوا منهم كما فعل قسم كبير من اهل الجانب الغربي من بغداد سنة 441.
اما حوادث القتل والحرق التي نتجت عن فتنتهم فهي كثيرة كما ان الفوضى التي نشروها عرقلت الاعمال الحضرية المفيدة واعاقت حركة التجارة والصناعة .

ذ ـ غزوات الاعراب : وقد جاءت هذه الغزوات نتيجة للفوضى المركزية التي زادت في فعالية الاعراب وتنفذهم فعاثت شيبان في الجزيرة حتى اخضعها عضد الدولة . ومنذ الربع الاخير للقرن الرابع استولت عقيل على منطقة الموصل وغرب الفرات واستولى بنو أسد على الحلّة وتنفذت المنتفك وخفاجة في جنوب العراق . وكانت هذه القبائل في خصومات مستمرة نشرت الفوضى والخراب كما انها كانت تغزو المزارع والقرى والمدن . وقد وصل الاعراب في تهبهم سنة 425 حتى اطراف بغداد ولا قى الحجاج والتجار والفلاحين منهم الأمرين .

5 ـ ظهور القوة السلجوقية :ـ وقد استطاعت هذه القوة ان تحل محل الحكم البويهي المنهار دون كبير عناء .

الحمدانيـــون

والشـــام في عصرهـــم حتى الفتح الفاطمي

حول الحمدانيين يمكن الرجوع الى المراجع التالية بصورة خاصة :

ابن الاثير الكامل
ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق
ابن الشحنة الدار المنتخب في تاريخ مملكة حلب
صائغ (القس سليمان) تاريخ الموصـــل
مسكويـــه تجارب الأمم (1)
الثعالبـــي يتيمة الدهـــر

هذا الى المرجع الفرنسي

Marius Canarol : Les Ha danides

(1) هناك دراسة لسامي الكيالي بعنوان (سيف الدولة وعصر الحمدانيين) وكتابان لكامل الغزي وراغب الطباخ عن تاريخ حلب ايضا .

(2) هناك كتاب صدر منذ قرن للمستشرق فرايتاغ له نفس الاسم تقريبا هذا عدا دراسة لصدر الدين الهندي عن سيف الدولة وعدا دراسة للمستشرق كانارد نفسه عنه ايضـا .

ويلحق بهذه المجموعة عدد من المراجع الاضافية ولها احيانا ضرورة كبرى في بعض النواحي مثل :

كمال الديـــن .. زبدة الحلب (طبع فريتاغ منه مايتعلق بسيف الدولة) .

كمال الديـــن .. بغية الطالب (لخصه سوفاجه ثم طبع) .

المتنبي }
أبو فـــراس } الديوانـــان الشعريـــان .

الاطار الجغرافـــي للحمـــدانيـــين

يرجع الحمدانيون في اصلهم الى عرب الجزيرة واحدى اماراتهم كانت في شمال العراق والاخرى في شمال سوريا وكانت علائقهم الواسعة مع البيزنطيين .

أولا : الجزيرة : يشمل هذا الاسم في العرف العربي : ديار بكر ، وديار مضر ، وديـــار ربيعة .

آ — ديار بكر : المنطقة الجبلية الكثيرة الهضاب الممتدة الى الجنوب من منابع دجلـــة ولاتدخل فيها تلك المنابع ولكن يسيل فيها دجلة الأعلى وروافده . وأهم المراكز فيها آمـــد (ديار بكر حاليا) . والى الشمال الشرقي من آمد نجد ميّافارقين .

ب — ديار مضـــر : وتشمل المنطقة الممتدة اليوم مابين الفرات والبليخ .

ج — ديار ربيعـــــة : وهي تشمل مناطق الخابور وروافده منذ المنابع حتى ضفاف دجلة بين تكريت في الجنوب وجزيرة ابن عمر في الشمال .

وتقوم على الضفة الشرقية من دجلة عدة مواقع هامة منها جزيرة ابن عمر وقد كانت مطوقة بنهـــر دجلة من جهات ثلاث .

وقد كانت جزيرة ابن عمر مركزا تغلبيا ويعزو المؤرخون العرب تأسيسها الى الحسن ابـــن لمـــؤ بن الخطاب التغلبي الذي رفع من شأنها .

واهم بلدان الضفة الغربية لدجلة منذ جزيرة ابن عمر والموصل : وهي مركز ديار ربيعة والجزيرة . يسيل نهر دجلة عند اقدامها .

سكـــان الجزيـــرة في القرن العاشـــر الميـــلادي

يتبين من خلال النتف والاسماء والاخبار العابرة التي يذكرها الكتاب ان سكان الجزيـــرة هم في الجملة من القبائل العربية مع عدد من العناصر الاخرى لاسيما في شمال وفي شرقـــي دجلة . وقسم كبير من سكان المدن ، حتى المسلمين منهم ، ليسوا من اصل عربي ولكـــن فيهم آراميين (ويدعوهم العرب النصارى) وهم الطبقة المسيحية من سكان المدن ولا سيمـــا في ديار ربيعة ، أو بقايا من شعوب غير سامية أهمها : الارمن والاكراد . ويدعي الفلاحون من سكان البلاد وبصورة عامة : النبط .

اما الارمن فكانوا العنصر السائد في شمال دجلة وعند منابع الفرات ويختلطون احيانا بالاكراد بينما يملأ الاكراد المنطقة الشرقية من دجلة وبعضهم رحّل والآخرون مستقرون ويسجل المسعودى اكرادا مسيحيين يعقوبيين أما غالبية الأكراد فمن المسلمين وقد شاركوا في الحركات الخارجية ويتكون السكان العرب في الجزيرة وبصورة عامة من المضريين في ديار مضر ومن ربيعة بما فيها البكريين في الشمال والشرق . والعرب الذين سكنوا الجزيرة انما تكونوا بنتيجة هجرات متعاقبة في ازمان مختلفة . على ان أكبرها بدأت قبل حوالي قرن واحد من الفتح الاسلامي فهاجرت ربيعة نحو مملكة اللخميين ، هاجر منها : تغلب بن وائل ، وتمير ابن قاسط وشيبان (من ولد بكر من وائل إخي تغلب) وقد امتد البكريون هؤلاء الى اقصى حدود المنطقة اللخمية وهناك وجدتهم الفتوح الاسلامية . ومنهم كان المثنى بن حارثة .

وفي الوقت نفسه تقدمت قبائل من مضر وخاصة (القيسية) عن طريق بادية الشام وعبرت الى الجزيرة ويذكر الاصطخري ان توطنهم في هذه البقعة انما كان قبل الاسلام .

ودخل هذا المدد المستمر من الهجرة بين بادية الشام ومن ورائها نجد وبين المناطق الزراعية في الهلال الخصيب في مرحلة هامة بعد الفتح الاسلامي . وقد تم خاصة زمن معاوية حين كان واليا على الشام والجزيرة من قبل عثمان فما كان من قبل عفويا وغير منظم من الهجرة اضحى توطنا منظما .

اما ديار ربيعة فقد احتلتها شيئا فشيئا هذه القبائل وتحولت قبائل تغلب في مطلع العهد الاموى ضمن مثلث زواياه في الجزيرة ومنبع وجزيرة ابن عمر . ثم تجاوز التغلبيون دجلة شرقا في الزمن العباسي ووصلوا في الشمال الى اطراف ماردين حيث يقيم بنو شيبان البكريون . وعلى أى حال فان قيمة التغلبيين في شرقي الجزيرة كانت كبيرة في القرن العاشر وهذا ما يسهل تفسير وصول الحمدانيين الى السلطة هناك وفي تلك الفترة . على انه كانت هناك قبائل اخرى من ربيعة في المنطقة وهناك بين نتف الاخبار اسماء كثيرة منها .

اما البكريون فلا يذكر المؤرخين منهم في الجزيرة الا بني شيبان ومقامهم الرئيسي على مايظهر على الضفة الشرقية لدجلة كما يفهم من ابن خلدون وكان منهم على قوله اكبر عدد من زعماء الخوارج في ربيعة .

ويتبين من مجموع هذا ان الجزيرة عربية السكان وكانت عروبتها اوضح من عروبة البقعة التى تمركز فيها الحكم العباسي في جنوب العراق ووسطه . وموقعها الهام المتوسط بين بيزنطة والشام والعراق وايران واذربيجان وارمينية بالاضافة الى خصبها ومياهها ومدنها هو الذى يفسر محاولة الحمدانيين الطامحين ، وهم قبيلة من تغلب ، ان يقيموا فيها دولة تكاد تكون مستقلة على انقاض الخلافة العباسية المتداعية .

ثانيا : الشام : كان الشام مقسوما الى عدة اجناد هي من اقصى الجنوب :

1 ـ جند فلسطين وعاصمته الرملة يضم فلسطين عدا الجليل حتى منطقة آدوم (النقب).

2 ـ جند الأردن ويتألف من الجليل ومن الغور حتى اطراف البادية من شرقي الاردن ، ومركزه طبريا ومن مدنه الهامة عكا ، صور ، بيسان ، الناصرة .

3 ـ جند دمشق ويتضمن مناطق عدة : الغوطة وحوران (بما فيه الجبل) والساحل منذ صيدا وبيروت وجبيل حتى طرابلس . وعرقة : وكان اسم جبل صفير يطلق على كتلة لبنان الشرقية وعلى جبال حرمون معا كما يمتد الى سلمية .

4 ـ جند حمص وكان يضم من سوريا الشمالية ثم قسمه يزيد بن معاوية الى جند حمص وجند قنسرين ثم فصل هارون الرشيد بدوره العواصم عن جند قنسرين .

ويضم جند حمص منطقة الساحل منذ طرابلس الى انطرطوس (طرطوس) وقد كانت اهم ثغر في جند حمص ، بحصانة سورها .

واخيرا اللازقية التي كانت من سواحل حمص ومن الثغور البحرية .

وسفوح الجبل العلوي الغربية كانت مغطاة (في القرن التالي) بالحصون وبعضها كان دون شك موجودا في القرن الذي ندرسه .

ويتبع جند حمص المنطقة الصحراوية التي في شرقة منذ النبك حتى تدمر ولم تكن هذه البلدة ذات قيمة زمن الحمدانيين بعد ان هدم مروان الثاني اسوارها . واهم منها بلدة سلمية وان كانت قد تخربت بدورها على يد القرامطة سنة 290 .

جند قنسرين : يمتد شمالا حتى انطاكية وتيزين ومنبج . ومركزه حلب لاقنسرين .

وفي هذا الجند معرة النعمان (معرة حمص قديما وربما كانت منسوبة للنعمان بن بشير الانصارى حاكمها في عهد معاوية) .

واما حلب عاصمة الحمدانيين فكانت هي مركز الجند . ترجع قيمة حلب في الدرجة الاولى الى انها عقدة مواصلات كبرى : بدأت اول الامر قلعة تجارية ثم تحولت الى مركز مدني تحت الحكم السلوقي والبيزنطي وقد وجد المسلمون عند الفتح بعض العرب في (حاضر حلب) بجنوب غربي السور ووجدوا مدينة مربعة الاسوار وقلعة مرتفعة على الجانب الشرقي من السور ولم تتوسع حلب توسعا مدنيا كبيرا زمن الامويين واهملها العباسيون واستعادت شيئا من النشاط زمن الحمدانيين ولكنه نشاط موقت .

جند العواصم : مراكزه الرئيسية هي منبج وتيزين وانطاكية . وقد سميت بذلك لانها تعصم المدن التي امامها والمدعوة بالثغور . ومركز هذا الجند انطاكية وقد خسرت الكثير من شأنها الثقافي والحربي والتجاري في العهد الاسلامي وان بقيت مركزا مسيحيا كبيرا وفيها عدد من الكنائس . وقد كانت تأخذ قيمتها من انها اقوى نقطة في نهاية خط العواصم .

سكـــان سوريـــا الشماليـــة

هم في مجموعهم من العرب الخلص أو المستعربين . على انه كان ثمة دون شك بعض العناصر غير العربية من أكراد وآراميين يدعون (النبط) وجراجمة وزط ولكن المصادر لا تتكلم عن هذه المجموعات في هذا القرن الرابع الهجـــرى .

اما العنصر العربى فيعود قسم كبير منه في سوريا الشمالية الى ماقبل الفتح العربى وقد دخلوا سوريـــة كما دخلوا العراق وأسسوا فيها الدول كما في حمص (القرن الاول ق . م .) وتدمر القرن 3 ونجد بـــين الاسماء الآرامية السائدة اسماء عربية خالصة . ومنذ القرن الاول ق م كانت قبائل عربية رحالة تحتل شمال سورية حتى خط يمتد من افامية حتى بالس وفي القرن الثالث هاجمة سورية موجة هامة من العرب مع قبائـــل قضاعة اليمنية (ومنها تنوخ) التي كانت في بادية الشام وقد اضحت هذه القبائل نصف متحضرة في القرن السادس حين بدأت قبائل تغلب (من ربيعة) تنتقل من مواقع بني تنوخ .

وكانت منطقة حلب عربية منذ قبائل الفتح العربى ونجد التنوخيين في حاضر حلب بينما نجد حلب نفسها تسكن فيما بعد من بعض الهاشميين ومن حول حلب قبائل قيس اما قبيلة كلاب (بن ربيعة ابن عامر بن صعصعه) فهي في حلب منذ القرن الثالث الهجرى ، مستقرة فيها ومنها حكام حلب . وسيف الدولة اخذ حكم المدينـــة منهم . وكانت بقاع الكلابيين تمتد شمالا حتى دلوك اما اقرباؤهم بنو عقيل فكانوا يتنقلون في كل تلك المنطقة ايضا وفيهم ثار نصر بن شبيث العقيلي على المأمـــون .

وكان بنو كعب بن ربيعة يتنقلون بين حلب وسلمية . كما نجد ذكرا لبني تميم في خناصره سنة 295 هـ حيث لجؤوا من الجزيرة وبين هذه العناصر القيسية في شمال سورية نجد احيانا بعض اليمنيين كما في حاضر قنسرين على اننا نستطيع ان نقول بصورة عامة ان شمال سوريا كان مملوءا بعناصر مضرية قيسية في غالبيتها .

نشـــأة الحمدنيـــين وأصلهـــم

الحمدنيون من عرب تغلب المدويين : وحمدان هو ابن حمدون بن الحارث بن لقمان بن رشيد بن المثنى حتى عدى وحتى تغلب هذا على الأقل حسب الذى يذكره ابن خلكان . بينما عد ابن خلدون والهمدانـــى الحمدانيين من موالي تغلب . بيد أن الرأى الأرجح أنهم عرب أقحاح بدليل أن ابن حوقل الذى لم يكن يميل اليهم لم يشعر الى مثله ولو كانوا من الموالي لاعتمد على ذلك في مهاجمة ظلمهم .

واول اسم يبرز في الحمدانيين هو اسم حمدان بن حمدون في منطقة الموصل والجزيرة ايام الاضطرابـــات الخارجية هناك في عهود المعتز والمهتدى والمعتمد أى بين (252 - 279) والجزيرة منذ العهد الاموى " حرورية مارقة " وقد اندمج حمدان في الحركة الخارجية ولقبه الطبرى في حوادث سنة 267 بلقب (الشارى) ويظهر ان خارجية حمدان كانت ناتجة عن مصلحة سياسية للقبيلة لا عن عقيدة خالصة فكل القبائل من ربيعة واليمن والاكراد كانت ترى في المذهب الخارجي أنذاك نوعا من الخروج على نظام الحكم الفاسد ، وثورة على المركزية الابتزازية التي يظهرها الحكام العباسيون . ولعل خارجية حمدان كانت منذ خرجت الموصل من يـــد الحاكم التغلبي خضر (وكان عينه لها موسى بن بغا) .

وهنا يجب ان نلاحظ ان الحمدانيين لم يكونوا حين دخلوا التاريخ ، شيوخ بدو يعيشون تحـــت

الخيام ولكن اقطاعيين ذوى اراض زراعية واخرى رعوية كما يجب ان نضيف الى ميزات بني تغلب ايضا انهم كانوا مؤسسي مدن كرحبة مالم بن طوق وجزيرة ابن عمر (الحسن بن عمر بن الخطاب) وكانوا يطمحون الى الحكم السياسي ويحاولون توسيع حدود سلطانهم على المناطق المجاورة . وقد كان يتبعهم بعض القبائل الكردية ولهذا يتكلم الطبرى عن " اكراد حمدان " على الضفة الشرقية لنهر دجلة . وقد وصل الحمدانيون بنفوذهم الى الغنى الواسع وكان لحمدان من المال والعلاقات الاقتصادية ماجعل له كاتبا مسيحيا هرب معه هو : زكريا بن يحيى وحمل اثناء هربه (300) الف دينار .

الحسين بن حمدان : لم يكن يقل عن أبيه رغبة في العظمة ورفع اسم بيتته ولكنه بدأ حياته بالاتفاق مع الخليفة اتفاقا مخلصا وقائما في الوقت نفسه على المصلحة . واعتمد عليه المعتضد في اعادة نفوذه الى مصر وطريق خراسان وقد جمع الحسين من حوله جيشا للخليفة ولكن من عشيرته ولمجد بيته حمل ذكره الى كل مكان لا الى الجزيرة وحدها .

ولعل ادق مهمة عهد المعتضد بها الى الحسين هي محاربة احلافه القدماء من الشراه في الجزيرة وقد اختاره لهذه المهمة باشارة القائد الاعلى بدر المعتضدى لمعرفته بالمنطقة والخوارج وقد قام بها وقبض على هارون الشارى واعطاه الخليفة ان يتمنى ثلاث منى عليه : فطلب اطلاق سراح ابيه ووضع الضرائب عن تغلب وتأسيس جيش من 500 فارس تغلبي يتولى قيادته . ومنذ ذلك الوقت أصبحت بغداد لا الجزيرة مجال فعالية الحمدانيين واضحى العمل للخلافة لاضدها همهم الذى يعملون له . وقد اشترك الحسين في الحروب : كما كلف الخليفة المعتضد الحسين بن حمدان بمهام أخرى : ضد آل دلف في الجبل وضد القرامطة وضد الطولونيين في مصر . وضد قبائل تميم وكلب وغيرو أسد في الجزيرة وحتى حلب .

هذه الاعمال المختلفة التي دامت خمس عشرة سنه ابرزت مواهب الحسين العسكرية وجعلته يحتل مكانا مرموقا لاسيما بعد سجن محمد بن سليمان القائد الاول . ولا شك ان كونه عربيا (ولعله العربي الوحيد بين القواد) جعله في موقع منافسة مع القادة الآخرين وكانت جمهرتهم من الترك مثل محمد بن اسحق بن كنداجيق ، ووصيف بن صوراتكين الـــخ .. وهذا ماجعله يفكر كغيره في دخول المعترك السياسي . وجاءت الفرصة في تلك المؤامرة التي حاول بها اصحاب ابن المعتز توليته للخلافة بدلا من المقتدر الصبي (سنة 296) وكان الحسين القائد الاول في دعم ابن المعتز فلما فشل امام المقاومة أخذ اهله وفر الى الموصل وتابع مسيرة منها نحو الشمال ... والغريب ان أمرا جاء من الوزير ابن الفرات الى أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان أخي الحسين وحاكم الموصل منذ سنة 293 بمطاردته وطارده عشرة ايام وكان في طريق العودة ذاهبا الى بغداد حين فاجأه الحسين على الطريق وكبده خسائر فادحة تقوى بها مركزه للدرجة التي استطاع ان يبعث اخاه الثاني ابراهيم فـي

طلب الامان له من بغداد . وعاد الى العاصمة بعد اشهر غالي الرأس ورد اليه اخوه عشرة آلاف دينار كان استلبها منه اثناء مطاردته . ولكنه ابعد عن المركز الى حكم بلدتي قم وقاشان في الجبل .

ولم يطل الحسين المقام في فارس فعاد الى بغداد وعاد ابن الفرات فعينه حاكما الديار ربيعة سنة 298 واضطر بحكم موقعه ان يحارب البيزنطيين كما جرى سنة 301 .

امارة الموصل : ومنذ سنة 313 هذه نستطيع ان نبدأ الكلام عن الامارة الحمدانية في الموصل اذ ان الحسن بن ابي الهيجاء (ناصر الدولة فيما بعد) تولى الموصل لابيه وبدأ بذلك عهد السلالة الحمدانية .

وفي سنة 315 نرى ابا الهيجاء بين المدافعين عن بغداد ضد القرامطة حين هاجموا السواد ووصلوا اطراف العاصمة وقد اشار بقطع الجسور عليهم ولكن الحوادث دامت حتى نهاية 316 ونراه غائبا عنها في دينور فهل اشتبه بأمره ؟ وهل لهذا علاقة مع سكوت الشاعر ابي فراس عن حمايته بغداد في قصيدته المشهورة .

عزل ابو الهيجاء اخيرا عن دينور بدسائس البلاط في الغالب ثم اعيدت له وكان البلاط مقسوما بين حزبين : حزب مؤنس الخصي امير الجيوش وحزب ابن غريب الخال والتحقق ابن حمدان بمؤنس واتفق معه على خلع المقتدر وخلع فعلا سنة 317 وبكى الحمداني ساعة الخلع وذكّر الخليفة المخلوع بأخطائه وعدم سماعه النصيحة وانقياده للنساء والخدم ثم اضاف " .. وبعده فنحن عبيدك وخدمك " ونصب بدلا من المقتدر اخوه القاهر الا ان شغب الجند اعاد المقتدر الى الخلافة من جديد ولما بعث الخليفة بالامان الى الحمداني رجع الرسول اليه برأسه .. لان بعض الخدم كان قد قتله .

1 - تأسيس الامارة : كان الحسن بن ابي الهيجاء على الموصل حين وصله خبر مقتل ابيه في مطلع سنة 317 مشغولا بتهدئة الاضطرابات الدامية في اسواق المدينة ولم يتهيأ له اخمادها الا بتدخل العلماء . وقد خلق موت ابي الهيجاء ازمة في العائلة اذ كان زعيمها غير منازع لا بمكانته فحسب ولكن بمقامه من البلاط العباسي ومن امير الجيوش مؤنس .

ولم تتدخل الخلافة في الضغط على العائلة الحمدانية ولا في طردها مما في يديها من عمل سوى الموصل سحبت من يد الحسن مدة قصيرة ثم عاد فاحتلها سنة 318 غير ان الخطر الحقيقي كان من اعمام الحسن الذين انتهت دسائسهم بان ولي (نصر) واخوه (سعيد) معا - على قول ابن الاثير - امارة الموصل بينما اخذ الحسن الجانب الغربي من ديار ربيعة مع نصيبين وسنجار والخابور ورأس العين وديار بكر لقاء مال يحمله .

على ان حكم الجزيرة وتعاون العائلة الحمدانية وولاءها للخليفة كل ذلك سجتاز امتحانا صعبا امتحانا صعبا بثورة مؤنس القائد المشهور على الخلافة وخروجه من بغداد باتجاه الموصل ..

كانت الاوامر اعطيت للحمدانيين من بغداد بحرية لكن الحمدانيين الذين يعرفون لـــه ايديه عليهم وقعوا في حيرة من الوفاء له او متابعة الولاء للخليفة واجتمع اركان العائلـــة جميعا وقرروا حربه لكنه هزمهم وقضى في الموصل ستة أشهر وكان الحسن أثناءها يهيـــئ نفسه للحصول على امارة الموصل والجزيرة وقد احتفظ بنفوذه في الموصل حتى في بقاء مؤنـــس فيها .

على انا لانعلم متى تم للحسن حكم الموصل ولا كيف عادت اليه مع ديار ربيعة ولكننا نجـــده في الموصل سنة (322 هـ ، 934م) ولقد كاد يخسرها سنة 323 بنتيجة امتعاض الخليفة الراضي منه ذلك ان الحمداني كان دوما قليل الوفاء بما للخزينة عليه ولم يكن الخليفـــة يستطيع ان يطالبه علنا حتى لايلجأ كغيره الى العصيان وتضطر الخلافة لاخضاعه بجيش كثير التكاليف كما حاول سعيد بن حمدان منافسة ابن اخيه على عمله . فسعى العم للموصـــل سرا — كما يقول مسكويه — على ان يسير اليها في بعض الغلمان فقط وكأنه يريد مفاوضـــة الحسن على المال المكسور على ان هذا / ادرك الامر وترك عمه يدخل الموصل ثم قبض عليه واذاقه ميتـــة شنيعة . ويظهر انه كان للوزير علي بن عيسى الجراح يد في هذه المؤامرة الواسعة وفـــي اعلام الحسن بما يدبّر ضده في الخفاء .

وما كان ينتظر في بغداد هذا المصير لسعيد الحمداني ولهذا تأثر الخليفة وأمر الوزير ابن مقلة بالمسير على رأس حملة تأديبية الى الموصل وحلف ابن مقلة ان يجازي الحسن الحمدانـي او يدفع له 10 ملايين دينار ، واتبع الحسن خطة ابيه وجده التقليدية فأخلى الموصل مـــن الثروة والمؤونة وحمل عياله الى احدى القلاع الجبلية وتحصن في أعلى المنطقة بأرمينيا ودخل ابن مقلة الموصل فبدأ بجباية الاموال وحصل بعض اموال السنين اللاحقة ايضا .

ولعب الحمدانيون (سهل بن هاشم) في بغداد لعبة بارعة اذ استطاعوا بالمال ان يستكتبوا أبا الحسين ابن الوزير كتابا الى ابيه يوهمه ان مؤامرة تدبر ضده في بغداد وعليه الّا يتأخر في الموصل . فاضطر ابن مقلة للعودة ولقد حاول ان يغري الحسن بالاستســلام ولكنه رفض ان يستسلم لرجل " لاذمة له ولا شرف " كابن مقلة وكان من القوة والحصانـــة بحيث قدم له عدد من امراء ارمينية الجزية والخضوع . فاعطى الوزير حكم المنطقة لبعـــض القادة وانسحب .

وعاد الحسن فهاجم الموصل مخرجا منها صاحبها (علي بن خلف) واضطر لمحاربة بقيـــة القادة في جزيرة ابن عمر وفي نصيبين .

بقي على الحسن بعد هذا ان يجعل بغداد تقبل بالامر الواقع وكان هذا سهلا اذا تذكرنا ان تكاليف حملة ابن مقلة اقامت ازمة مالية في خزينة الدولة ومشكلة مع التجار المقرضين فسرعان مااعترف الخليفـــة للحسن سنة 324 بحكم الموصل وديار ربيعة وديار بكر وديـــار

مضر جميعا مقابل جزية سنوية قدرها سبعون الف دينار . وهكذا عاد الحسين يرسل المراكب محملة بالاغذية وبالطحين خاصة الى بغداد فرخصت الاسعار . وكان يبعث ما يوزع باسمه على الفقراء والعلويين مما جعل له سمعة واسعة .

وهكذا سجلت مطالع سنة 324 انشاء امارة الموصل الحمدانية التي تضم الجزيرة كلها مابين الفرات ودجلة وقد ساعد الحسن على التوطد ان العراق كان قد وقع في الفوضى حتى اضطر الراضي الى خلق منصب امرة الامراء فيه أي اقامة دكتاتورية عسكرية منحها لابن رائق الخزرى فاستطاع الحسن ان يبعث باخيه علي ليقمع سلطة علي بن جعفر الديلمي في ديار بكر وليقضي على فوضى القبائل في ديار مضر كما استطاع ان يقوى قوته العسكرية بمن هرب من ضباط الجيش من بغداد اليه . وكان عمل آخر ينتظره في الايام المقبلة .

2 - امرة الامراء وأطماع الحمداني : لم يدخل الحمداني في نضال مع ابن رائق مبدة امرته للامراء ولكن ما ان ولي هذا المنصب بجكم التركي حتى تهيأ الحمداني لاتجاه جديد في سياسته فقطع الاموال عن بغداد وربما كان لعنجهية هذا الامير العربي اثرها في تقدير هذا الموقف منه تجاه ذلك المرتزق التركي الذى اضحى سيد الخلافة العباسية. وقرر الخليفة (الراضي)وبجكم ان يجبروا الحسن على الخضوع بالقوة وربما وجداه اقرب الولاة بجوارهما فقامت اول حملة سنة 327 مشى على رأسها الخليفة وكبار حاشيته ومنهم الصولي المؤرخ . واحتل بجكم بعد معركة دامية مدينة الموصل بينما الحسن فر الى الشمال : الى نصيبين ثم الى آمد .

كان الحسن يأمل قبل ذلك ان تساعده في بغداد سمعته كمتشيع وصاحب فضل على الفقراء وحام للحدود البيزنطية في كسب رضى الخليفة وارسل الحبوب كعادته الى بغداد ولكن شيئا من ذلك لم يفده وقد حاول بعض رجال الخليفة ان يثنوه عن عزمه بالمسير الى الموصل فعائدهم الراضي ولم تنفع في اقناعه حجة وكان على الحسن ان ينتظر اضطراب الاحوال في بغداد ليرجع الخليفة وبجكم عن ارضه وقد حدث ذلك وظهر ابن رائق في بغداد ورأى بجكم ان جنده يتسللون الى العاصمة هربا من حرب العصابات التي تشن عليهم في مختلف المواقع فقبل مفاوضة الحمداني الذى انفذ يطلب الصلح ويعجل (500) الف درهم فقبل الخليفة العرض وعاد مع قائده الى بغداد واتفقا مع ابن رائق على توليته طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورها وجند قنسرين والعواصم .. اما الحسن فعادت اليه الموصل وديار ربيعة وبكر .

وتسرع الاحداث في بغداد بالتعاقب : يموت بجكم والراضي ويتعرض الخليفة الجديد (المتقي) لهجوم ابي الحسن البريدى فيستدعي ابن رائق لنصرته فاذا لم تنفع النجدة واحتل البريدى بغداد وترحل المتقي وابن رائق يطلبون حماية الحمداني في الموصل الذى اصبح لحد كبير سيد الموقف .

ويظهر ان الحسن خاف وصولهما اليه فبعث اليهما باخيه علي ينجدهما على الطريق ولكنهما ظلا يتابعان المسير الى الموصل مما اثار شكوك الحسن فلما وصلوا اليه غادر البلد الى الجبال المجاورة حتى استوثق منها فقدم يسلم ويعرض المعونة . ولكنه على مايظهر قرر اذ ذاك ان يتخلص من ابن رائق ويحتل مكانه لدى الخليفة . . واغتاله فعلا سنة 330 وهو عنده كما يروي مسكويه واعلن الحسن عند الخليفة انه اطلع على مؤامرة من ابن رائق لقتل الخليفة فسبقه للامر .

وكان لهذا العمل عند الحمداني نتيجتان هامتان : فتح له الطريق الى امرة الامراء من جهة والى التوسع الاقليمي في غرب الجزيرة وفي سورية ايضا من جهة اخرى وهي منطقة ابن رائق التي اضحت دون حاكم . والواقع انه لم تمض ايام على مصرع ابن رائق حتى خلع الخليفة على الحمداني لقب ناصر الدولة وجعله امير الامراء وبعث اليه بالخلع والاساور والعقود واللواء . ومنح الخلع وغيرها لاخيه علي ولابن عمه الحسن بن سعيد .

اعمال امرة الامراء : كان على الحمداني ، ان اراد استحقاق اللقب فعلا ان يرجع بالخليفة الى بغداد . ويظهر ان الخليفة لم يدفعه للترحل وانه لم يقرر ذلك حتى قدم عليه منها توزون في غلمانه مطرودا من العاصمة من قبل البريدي الذي احتلها وتمت الرحلة وفر البريدي دون قتال من بغداد في شوال 330 (حزيران 942م) واضحى امر بغداد والخلافة يتعلق الآن مباشرة بسياسة الحسن الحمداني ناصر الدولة .

لاشك انه وصل الى بغداد مملوءا بالنوايا الحسنة : يريد القضاء على اعداء الخليفة ، وهم في الوقت نفسه منافسوه ، واعادة النظام في الجهاز الاداري والمالي وتوطيد الامن والهدوء في بغداد والعراق الخ . .

وكان هو سيد الخليفة والجهاز الحاكم معا ولكن هذا لم يكن يعني شيئا ذا قيمة .

والافلاس المزمن الذي تشكو منه خزانة الدولة لم يكن ممكن المعالجة الا عن طريق اموال السواد واموال الجزيرة لان باقي المناطق ، على مايظهر لم تكن تدفع شيئا . والسواد كان جنوبه في يد البريدي وكان الخراب يعمه سفلا وعلوا والجزيرة لاتكفي وحدها لاقامة خلافة قوية في بغداد .

1 - السياسة الداخلية : حاول ناصر الدولة تنظيم امر الوزارة والدواوين بتعيين من يتوسم فيه الكفاءة ولكنه سرعان ماعاد الى طريقة غيره بتغيير الوزراء وبالمصادرة والظلم وعمل وزيراه الكوفي وابن مقاتل اعمال غيرهما من الاثراء غير المشروع . وبالرغم من ان الحمداني حمل معه ثروة وافية من الموصل لاصلاح الامور وكانت لديه مشاريع هامة لاصلاح الاراضي الزراعية واعادتها الى الانتاج ولكنه لم يبق في امرة الامراء الوقت الكافي لتحقيق مشروعاته . وما كانت سياسته المالية احسن من سياسة اسلافه فقد اعلن على الملاء انه لن يزيد الضرائب الا على التمر والمواد المستخرجة منه (السكر) ولكن التمر كان مادة غذائية رئيسية للبغداديين فتقبل

الناس ذلك بالتذمر . ومنع من ارسال المال الى جنوب العراق لشراء التمر لئلا يغني البريدى فنتج عن ذلك غلاء شديد ببغداد ويذكر الصولي اضافة لذلك انه ابتكر انواعا من الضرائب كانت مجهولة قبله وبالرغم من انه اعلن تأخر الجباية الى النوروز المعتضدى (11 يونيو) الا انه لم يحقق ذلك فبدأت الجباية في أبريل وكانت المجاعة تلف بغداد حين غادر ناصر الدولة امرة الامراء في يونيو . اما معاملة الحسن للخليفة فقد وضع ناصر الدولة يده ، كغيره ، على املاك الخليفة واملاك امه وضمها لنفسه ولم يترك له غير بعض الاقطاع فكأنه رده الى وضع واحد من الرعايا ولم تكن قسوة الحمداني احيانا على الخليفة المتقي في غير محلها . . ولكنها كانت على كل حال تعديا على الخلافة .

ولعل اهم اعمال ناصر الدولة قضية رفع قيمة الدينار الذهبي بالنسبة للدرهم الفضي فلم يكن الدينار يساوي اكثر من 10 دراهم بعد ان كان ثمنه زمن المعتضد (قبل اربعين سنة) 20 درهما (ولعل السبب في هبوطه ان الذهب كان يغزو في هذا القرن الولايات الشرقية من الدولة العباسية) فضرب ناصر الدولة دنانير عرفت بالابريزية من الذهب الخالي يساوي واحدها 13 درهما على قول الهمذاني . ويشير مسكويه الى انها كانت اثمن الدنانير ولم ير مثلها منذ عهد البرامكة .

اما أمن بغداد فبالرغم من كل تشديد الحمداني وظلمه فانه لم يستطع ان يقره وان يمنع اللصوص وغيرهم من العبث بالبلد .

2 — الحرب ضد البريدى : كانت هم الحمداني الوحيد منذ وصول بغداد كان يفكر في الهجوم على واسط ولهذا عسكر هو واخوه على الطريق اليها حين وصلا العاصمة . ولم يكن قد مضى شهران على ذلك حتى مشى البريدى نحو بغداد وتهيأ حتى الخليفة فيها للرحيل واضطر الحسن ان يرسل أخاه عليا وابن عمه الحسين بن سعيد مع قواد الترك لصده وانتصر الحمدانيون في المعركة واستعرض الاسرى في شوارع بغداد وحملت الخلع الى علي الحمداني ومنحه الخليفة لقب " سيف الدولة " . . . اما بغداد فكانت تهلل كلها للامير الشاب لانها لم تنس بعد مظالم البريدى . . وعسكر سيف الدولة في واسط ولكن ناصر الدولة لم يكن في وسعه ان يقدم (500) الف دينار كل شهرين لهذه الفرق المعسكرة والتي كانت جمهرتها من الترك المرتزقة كما انه كان على حق في ان يخشى اكبر قواد الترك توزون لما يعرف من تقلبه

3 — ثورة الترك : وقد ثار الترك بالفعل (مايو 943) واضطر سيف الدولة لترضيتهم ولكن مطالبهم تزايدت منذ ان شاع ان توزون قد يصبح امير الامراء ويفهم من بعض المؤرخين ان رسولا خاصا قد وصل توزون بكتاب من المتقي يدعوه فيه للتخلص من الحمدانيين وأولهم سيف الدولة ونهب مخيم سيف الدولة بالفعل في المعسكر واضطر للهرب الى بغداد مع مائتين من اصحابه .

4 — الانهيـــــار : وهكذا وجد ناصر الدولة نفسه دون جيش ولا مال وفي مركـــز حرج لاسيما وقد برز في مصر اسم الاخشيد اذ ذاك . وبالرغم من عقد المصاهرة الذي عقده ناصر الدولة مع بيت الخلافة بتزويج ابنته من ابي منصور ، ابن الخليفة المتقي (ولعله حلـم من وراء ذلك بالعرش الخلافي) فان ناصر الدولة لم يكن يستطيع الاعتماد على معونـــة الخليفة بعد الذي كان منه تجاهه . . وبالرغم من ان ناصر الدولة حاول مضطرا انقاذ الموقف بالابكار في الجباية فان ذلك لم يفده شيئا اذ شهد ربيع تلك السنة مجاعة غريبة تبعها وباء كان الناس فيه يموتون جماعات و يبقون في الطرقات لايجدون دافنا سوى بطون الكلاب .
بينما كان الناس في القرى يأكلون الجراد الذي هاجمهم في تلك الفترة .
وهكذا تعاونت المجاعة ، مع الغلاء وكثرة الضرائب والمصادرات وغلاء العملة على تبغيض ناصر الدولة للناس وأضيف الى ذلك غضب الجند الذين لم تدفع لهم رواتبهم والخصومات الدينية بين العباسيين والتغلبيين كما ان الشيعة كانوا يمارسون طقوسهم رغم معارضة الخليفة ورجال السنة واخيرا وصل الامر لدرجة تفكير الخليفة بالقبض على الحمداني ومحاولة بعض الغلمـان تسميمه .

5 — الهرب من بغــــداد : وهكذا قرر ناصر الدولة الهرب من بغداد الى الموصل في من بقي له . . ولم يرض هذا الحل التجار لانهم كانوا يخشون الفوضى ولا الخليفة لانه خشي مجابهة الموقف وحده وحاول ابقاء الحمداني عدة ايام اخرى دون طائل . ولم يكن يفكر بالطبع بترك امرة الامراء وكان يفكر بالعودة القريبة ولكنه ماكاد يصل الموصل حتى كان توزون قد أحرز اللقب . ولم يستطع سيف الدولة الذي كان تأخر عن اخيه منعه من دخول بغداد .

6 — النضال لامرة الامراء من جديـــــد : لم يكن اتفاق الخليفة مع توزون اتفاقا يدوم فسرعان مازينت الحاشية للمتقي ان يلتحق بناصر الدولة في الموصل وقت المفاوضات وارسل ناصر الدولة جماعة من عنده يقودهم ابن عمه الحسين تسلموا الخليفة من ظاهر بغداد (فــــي غياب توزون بحرب البريدي) والتقت جمهرة الجيش الحمداني بالقادمين عند تكريت وعلـــى رأسها سيف الدولة . ولم يصل ناصر الدولة ألا بعد الحاح الخليفة بحضوره .
وبديهي ان كتلة الجيش الحمداني ماكانت تقصد استقبال الخليفة وانما احتلال بغداد ولكن توزون فهم ذلك فترك واسط وعاد يلحق الخليفة وحين التقى بالجيش الحمداني حاربه وهزمـــه بخيانة بعض قواد سيف الدولة وهزم بجيشه الذي كان يحوي بجانب الفرق العربية والكرديـــة مجموعات من الديلم والترك والقرامطة ، وفاوض توزون ناصر الدولة على حل معقول غير ان الخليفة رفض الاتفاق واضطر ناصر الدولة لمعاودة الحرب من جديد وهزم اخوه سيف الدولـــة هزيمة اخرى سنة 332 دخل توزون على اثرها الموصل بينما كان الحمدانيان والخليفة هاربيـــن شمالا نحو نصيبين . ولم يكن توزون يريد الموصل ولا كان الحمداني يرغب في حربه ولهذا دخلا

في مفاوضات لم يرض بها الخليفة فترك نصيبين الى الرقة التي كانت من املاك الحمدانيين ولكن الاخشيد كان قد اخذها منذ عهد قريب والغريب ان سيف الدولة لحق بالخليفة لا بأمر من اخيه ولكن لمتابعة نجمه الخاص على ماسوف نرى ، وقد كان هناك لمراقبة المتقي اكثر مما كان يريد مساعدته .

7 - نهاية الحكم : قطعت المفاوضات بين توزون بترك الموصل للحمداني كشرط من شروط رضى الخليفة وعودته الى بغداد . ولعل ذلك كان لمعرفة الخليفة بقيمة هذه الامارة الموالية الوحيدة التي بقيت تدر عليه المال (3,600,000 درهم حسب الاتفاق) بينما كان توزون يعود لبغداد لينتظر الخليفة كان ناصر الدولة يتسلم امارته التي تشمل عدا الموصل وديار ربيعة وبكر ومنطقة العواصم وجند حمص وكان يعترف لتوزون بحكم السواد وما يفتحه منه دون ان يهاجم احدهما الآخر .

وقد سجلت هذه الاتفاقية بدء سياسة جديدة توسعية للحمداني . كانت اعقل واقل طموحا وقدمت لاسرته (ان لم يكن له) نتائج اكثر قيمة واطول عمرا . ووضعت نواة امارة سورية الحمدانية .

3 - محاولات التوسع : كان ناصر الدولة يدرك ، حتى قبل امرة الامراء ، ان السلطة لا تكون دون سيطرة كاملة على اكثر من ولاية واستغلال عائداتها .

آ - في اذربيجان : وهي ولاية مسلمة في مجموعها وكان حكمها اذا فائدة مزدوجة بالنسبة للحمدانيين . فهم يضمنون من جهة الا يقوم بها متغلب يعيبهم جواره والخوف من اطماعه ويطمئنون من جهة اخرى الى ولاء امراء ارمينية خلفهم اثناء الحروب مع البيزنطيين .

وقد كانت اذربيجان في الغالب تجتمع اما مع الجزيرة او مع ارمينية لحاكم واحد . انه منذ سنة 323 خضع قسم من اذربيجان للحكم الحمداني فاضطر الحسن الحمداني لارسال ابن عمه الحسين كي يستعيدها . وعلى كل حال فان حملة اذربيجان قد فشلت .

ب - في ارمينيا : وقد لقي فيها الحسين الحمداني نجاحا اوفى . ولم يكن مقصده فيها الفتح والتوسع بقدر ماكان القصد لبسط النفوذ على منطقة نصف مستقلة مجاورة ولا يمكن ان تؤخذ عنوة .

وقد اهتم الحسن الحمداني بارمينية مبكرا ولقد رأيناه يزورها طريدا ويتلقى الجزية من امرائها سنة 323 ولكن يظهر ان هذه الجزية انما اخذت من اقرب الامراء لديار بكر فقط لا من كل الامراء . وقد فرض هذا النفوذ بصورة اوسع في السنة التالية سنة 324 واستطاع سيف الدولة اثناء حملة على بيزنطة سنة 328 ان يزيد في سمعته ليشق طريقا الى العواصم الجزرية عبر ارمينية . ويظهر مما يرويه المؤرخون ان الحمدانيين كانوا ينظرون الى امراء ارمينية كاقطاعيين تابعين لهم . وقد طلب سيف الدولة من بعضهم تسليم بعض الحصون الهامة فسلموها .

جـ ـ في سورية (تأسيس الامارة في الشام) : يلاحظ في تاريخ سورية الاسلامية ان وسطها وجنوبها غالبا ما اتصل بمصر في الحكم بينما تشكل المنطقة الشمالية وحدة ادارية تنضم اليها احيانا بعض أقسام الجزيرة وشمال العراق وسيتضح هذا الوضع اكثر فاكثر خلال العهود المقبلة من اتابكية وايوبية ومملوكية . .

كانت سورية الشمالية منذ سنة 324 تخضع للاخشيد بمصر وبعد أن فصلت عنه أعطيت لابن رائق فدخلها سنة 328 (939 ـ 940م) ويدخل بعدها حمص (وكانت ملحقة بها) وتبعته بعد ذلك دمشق ولكن عماله لم يستطيعوا الدفاع عن المنطقة ولكن سلطة الاخشيد لم تكن قوية في المنطقة وقد ارسل ناصر الدولة لولايتها بعد ان اضحى امير الامراء عاملين لم يصطدما بالاخشيديين ولكن ببعض العمال المحليين ويضطر أحدهما لخوض معركة ضد الوالي القديم قبل ان يدخل حلب سنة 331 وسرعان ماياتي الاخشيد الى دمشق ويتصل بعاملي ناصر الدولة فلاتاتي سنة 332 حتى يكون القائدان قد دخلا في خدمة الاخشيد ويضطر ناصر الدولة لارسال حملة جديدة تسترد البلاد .

ويجب ان نعزو نجاح الاخشيد في الشام الى فشل الحمداني في بغداد اكثر منه لبراعة الاخشيد في السياسة والقتال وبالرغم من ان الحمداني اضطر لان يساند الخليفة ضد توزون فانه لم ينس في الوقت نفسه ان يرسل حملة تسترد له شمال الشام قادها ابن عمه الحسين بن سعيد .

لكننا لانعرف سبب عدم ايساره قيادتها لأخيه علي سيف الدولة .

وبينما كان الخليفة يترك الحمداني ويفاوض الاخشيد ليدخل في حمايته باعتباره اقوى ولاه الخلافة كان ناصر الدولة يفكر في تقوية مركزه في االشام قبل ارتباط الخليفة بالأخشيد ، ليضع الاثنين امام الامر الواقع .

واستطاع الحسين ان يحتل الرقة بعد احراق بعضها وسمل حاكمها ولما مشى الى حلب انسحب منها عاملا الاخشيد واستمر الحسين الحمداني يمشي حتى حمص التي فر صاحبها وعادت سورية الشمالية للحكم الحمداني وعلى طريق الفرات اليها في الرقة كان الخليفة يفكر في استدعاء الاخشيد اليه .

ويمكن ان نفترض جفوة في هذه الفترة بين ناصر الدولة واخيه سيف الدولة لعل مردها الى قيادة الحسين بن سعيد في الشام بدل سيف الدولة . وعلى أي حال فقد ترك سيف الدولة ديار بكر ونصيبين ، حيث كان ، والتحق بالخليفة في الرقة ولعب عنده دورا كدور امير الامراء ، على مقياس مصغر . وقد حاول بعض حاشية الخليفة قتله ولكنه قتلهم على طريقة اخيه . .

ولم يكن مسير الاخشيد من مصر لملاقاة الخليفة بقدر ماكان لاسترداد سورية الشمالية من الحمدانيين وقد استطاع قائده ان يتولى على حلب التي تركها الحسين الحمداني الى الرقة لعل الخليفة يستقبله ولكن ابواب البلد سدت في وجهه أولا ثم قبله الخليفة وعنفه على عمله . ووصل الاخشيد

الى حلب اعطى الخليفة قوة استطاع معها ان يسفر عن عدائه للحمدانيين فارسل الى الاخشيد في حلب كتابا بملاقاته في الرقة ، ورأى سيف الدولة قبل ذلك أن من الانسب ان يترك البلدة فغادرها الى حران ليراقب الاحوال ولحق به ... قليل الحسين .. على ان مقابلة الاخشيد للخليفة لم تنجح (لاسباب عدة) ففتح ذلك آفاقا جديدة لسيف الدولة .

فقد استغل عودة الاخشيد الى مصر فطلب الى اخيه ناصر الدولة المعونة ليخرج من شمال الشام عامل الاخشيد وقبل ناصر الدولة بعد تردد وقد وصل ذلك المدد في صفر 333 شتنبر اكتوبر ليسير الى سورية . وجاءت الظروف في جانبه فانه لم يكن عند يانس الخادم عامل الاخشيد جند كاف وكان مؤيدوه الكلابيون في منطقة حلب اقرب الى قبول حكم عربي تغلبي منهم لحكم خادم تركي عدا انهم كانوا منقسمين وكان لسيف الدولة في البقعة عيون واعوان استطاعوا ان يعقدوا بينه وبين ابي الفتح عثمان ابن سعيد الكلابي صلة اتفقا بها على ان يسلم الكلابي البلد حال وصول سيف الدولة بل خرج اخوه ابي الفتح الكلابي لملاقاته على الفرات ، ودخل سيف الدولة حلب بينما هرب منها يانس الى مصر (ربيع الاول 333 – أكتوبر 944) وخضع مابين حمص وانطاكية لنفوذه دون كبير عناء وخطب فيها للخليفة المستكفي الجديد ولاخيه ناصر الدولة ولنفسه .

ولن تمضي سنوات ثلاث على هذا حتى يتوطد الحكم الحمداني نهائيا في المنطقة ويتحقق حلم ناصر الدولة بالتوسع الغربي ولكن لحساب اخيه الاصغر وتتألف امارة حمدانية في الشام تكسف امارة الموصل وتستأثر دونها باهتمام المؤرخين .

4 – ناصر الدولة والبويهيين : لم يظهر ناصر الدولة أي اهتمام ظاهر بمشكلة الخلافة أو امرة الامراء بعد اتفاقه مع توزون واذا كان هذا قد سمح له ولاخيه بان يعملا على توطيد وتوسيع الامارة الحمدانية فان ناصر الدولة ظل في الواقع يراقب تقلب الامور في العاصمة منذ مقتل توزون حتى استيلاء معز الدولة البويهي عليها واذ ذاك تنكر للبويهي الجديد ، ولما تحمل معز الدولة لحربه مشى ناصر الدولة من جهته للقائه (سنة 334 هـ – 946م) والتقيا قرب سامرا .

استطاع الحمداني ان يضلل البويهي في هجمة من هجماته عبر دجلة وان ينفذ من جنوبه ، على غفلة منه فانهزم ناصر الدولة واتجه بفلول جماعته نحو الشمال (مطلع سنة 335 هـ – 946م) .

وقبل البويهي بسرعة عرض التفاهم مع الحمداني ، وربما كان السبب في ذلك مجاعة بغداد وان لا مجال لانهاء الا بخصوب الجزيرة فعقد بين الطرفين عقد خلف معز الدولة بحضور الخليفة ان يرعاه وتكون الجزيرة بموجبه والشام الاخشيدية كلها لناصر الدولة ولا يدفع شيئا عن الجزيرة وانما يدفع عن الشام ومصر عند اخذهما بقدر مايدفع الاخشيد على ان يسمح بمسير المؤن الى بغداد دون ضريبة أو عائق .. ولم يكن هذا الاتفاق بالاتفاق الذي لا يقدر الحمداني معناه وقيمته وانه

يعترف له بكل الولايات الغربية من الخلافة . . انه في الواقع يعكس لنا مدى مطامع ناصر الدولة في تلك الفترة .

ومضت السنوات بعد ذلك وبينما كان البويهي يتقوى سنة بعد اخرى كان ناصر الدولة على وضعه وكلما قدر ان الظرف موات له منع المال عن بغداد فيتهيأ البويهي للحملة عليه في الموصل حتى يدفع . كانت اول هذه الحملات سنة 337 . وكانت الحملة الثانية سنة 347 اثر محاولة حاول بها الحمداني احتلال بغداد سنة 345 وبعث اثنين من ابنائه وصلا قربها بينما كان معز الدولة مشغولا بالاهواز وفشل الحمدانيان بسبب عودة البويهي لبغداد .

ولما مشى معز الدولة نحو نصيبين فر ناصر الدولة نحو ميافارقين ويئس من الموقف فتوجه الى اخيه في حلب ويظهر ان سيف الدولة لم يكن على استعداد لنجدة اخيه بالجيش ضد امير الامراء فنصحه بالمفاوضة وبالرغم من حزب الحرب الذى كان يحيط بناصر الدولة فقد قبل الرأى ولكن البويهي رفض التعاقد معه بعد ان عرفته التجربة مبلغ ارتباطه بعهوده حتى توسط سيف الدولة بالامر ولكن هذا كان بدء انهيار ناصر الدولة سياسيا اذ ان المفاوضات جرت باسم سيف الدولة الذى اعتبره سيد بغداد امير سوريا والجزيرة ، حلب والموصل معا . وتم الاتفاق سنة 348 في الموصل على ان يدفع سيف الدولة 000ر 900ر 2 درهم .

اما الحملة الثالثة على الموصل فكانت سنة 353 (964م) ولم يكن سببها في هذه المرة تقاعس ناصر الدولة أو تأخره في الجزية ولكن رغبة معز الدولة في الفتح .

وبالرغم من وصول المال الى بغداد فان معز الدولة تهيأ للمسير الى الموصل . ونجهل السبب في ذلك وابن مسكويه لايصرح ، وحاول الحمداني عبثا تفادى الحملة بالمال وبعث (300) الف درهم كنفقات لها ولما لم يجد اخيرا امام عناد معز الدولة الا ان يهرب كالعادة الى نصيبين فلما لحق به البويهي أتم طريقه نحو ميافارقين . . وضاعت آثاره واقبل معز الدولة يستخبر بخبره في كل مكان ويهاجم كل بقعة دون طائل . بينما استطاع ناصر الدولة واولاده ان يجمعوا قواهم ويحتلوا الموصل ويغتنموا غنائم كثيرة من المال والعتاد والمؤونة .

وقرر معز الدولة أن يتحمل ويرجع ولكن بعض الحمدانيين استسلموا اليه (منهم ابن لناصر الدولة وابن عم له هو اخو ابي فراس . .) فلم يقبل اذ ذاك عوضا بالصلح من ناصر الدولة ويظهر ان اولاد الحمداني لم يكونوا على وفاق معه وقد بدأ ابنه الامير ابو تغلب في انتهاج سياسة شخصية وأبدى استعداده للاتفاق مع البويهيين وتم الاتفاق فعلا على ان يدفع ابو تغلب عن حكم ديار ربيعة والرحبة (600) الف درهم مقدما و 000ر 200ر 6 عن السنوات الاربع المقبلة 356 ـ 359 . وخرجت امارة الموصل بهذا الشكل من محنة سنة 353 سالمة في الحقلين العسكرى والسياسي معا بدهاء ابي تغلب الا ان حكم ناصر الدولة الذى انتهى بالنسبة لمعز الدولة سنة 347 انتهى الآن عمليا بظهور ابنه ولم يعد بالامكان ان يستمر .

وقد احدث موت سيف الدولة 356 تأثيرا قويا على اخيه الاكبر ناصر الدولة وجعله يفكـــر في الخطر البيزنطي والبويهي ومشاكل الاسرة الــخ . . ولا شك ان موت معز الدولة البويهي في السنة نفسها خفف على ناصر الدولة ولكنه لم يمنعه من ان يحسب لمعز الدولة . الاميرالجديد كل حساب ، فلم يفكر في مهاجمة بغداد رغم اغراء حاشيته له .

ويذكر المؤرخون ان ناصر الدولة اضحى حاد المزاج بعد موت اخيه مختل العقل وهذا مايفسر قلة احترام ابنائه وحاشيته له في اخريات ايامه واخيرا اتفق اولاده (عدا واحد منهم هو حمدان) على تسليم السلطة لابي تغلب وعلى حجر الاب في قلعة تجاور الموصل بقي فيها سنتين حـــتى توفي سنة 358 .

ابو تغلـــب :(عدة الدولة فضل الله الغضنفر 328 ـ 368) وهو اكبر اخوته الذيـن يبلغ عددهم سبعة عدا البنات . ويظهر انه كان ذا نفوذ على اخوته منذ صغره فقبلوا جميعا بأمارته عدا اخيه حمدان (وهو من أم اخرى) فقد كان اعطاه ابوه حكم نصيبين وماردين والرحبة فضم اليهما الرقة والرافقة من املاك عمه سيف الدولة وهدد بالاستنجاد بالبويهيين والقرامطة وبالفاطميين والبيزنطيين ايضا ان لم يفرجوا عن ابيه المحجور عليه .

الحرب الاخوية : وحارب ابو تغلب اخاه بعد ان تأكد من حياد عز الدولة البويهي وتأكـد من جهة اخرى ان الفاطميين والقرامطة بعيدون ولا يجرؤ حمدان على دعوة الروم . . واستوثق من بغداد بعقد اتفاق يعطيها بموجبه 000ر 200ر 1 درهم سنويا فتقوى بذلك مركـــزه الشرعي امام اهله عدا انه اطمأن الى حياد البويهيين .وجرت المعركة الاخوية في الرقة حيث اعتصم حمدان ولم يستطع ابو تغلب ان يحتل البلد فاتفق مع اخيه على ان يجعل له حكم الرحبة ولكنه كان يخدع اخاه في الواقع فما كاد يرجع الى الموصل حتى الجأه للفرار . . .

وراح حمدان يشكو الامر لبختيار البويهي وتدخل عز الدولة بين الاخوين فاعيدت الرحبة لحمدان ولكن الى حين واضطر حمدان لان يهرب منها عبر الصحراء الى دمشق ثم يعود ليواقع ، على طريق الفرات وعلى الخابور اخاه (ابا البركات) الذي يقود جيش ابي تغلب . وتوفي ابو البركات في احدى المعارك وارسل حمدان جثمانه الى الموصل .

وهكذا جرى في الحمدانيين بعد الجيل الاول ماجرى في البويهيين ايضا من انقسام عائلـي اخوي وحلف ابو تغلب على الانتقام رغم اعتذار حمدان .

وفي اواخر سنة 361 هـ وبعد عدة معارك بين الجانبين كان الامر قد استتب لابي تغلب واخذ كل ارض اخيه حمدان وامواله التي حملت على ستين بغلا من ماردين وضم اليه اخوته عدا الذين في بغداد والذي في السجن .

علاقات ابي تغلب مع ابن عمه في حلـــب : كانت علاقات الاخوين ناصر الدولة وسيف الدولـة حسنة بصورة عامة وقد آل الامر في حلب الى ابي المعالى ابن سيف الدولة في الوقت الذي آل

فيه الحكم الى ابي تغلب في الموصل . على ان النفوذ النظرى الذى آل لابي تغلب من ابيه على امارة حلب لم يكف أبا تغلب على مايظهر فحاول ان يقبل البويهيون الاعتراف لامارة الموصل بالنفوذ على امارة حلب كما حاول بعد ذلك ان يقتطع بالقوة بعض اراضي حلب المجاورة له .
ولكن ابا تغلب سيحاول عاجلا أو آجلا الحاق ديار بكر ومضر بامارته .

وقد استطاع ان يأخذ ميافارقين وديار بكر اولا من ام حسن (ابنة الحسين بن سعيد الحمداني وزوجة سيف الدولة وأم ابي المعالي) سنة 358 وحصنت المدينة خوفا عليها من الخطر البيزنطي بينما كان ابو المعالي مشغولا بحماية عاصمته في سورية . وضم ابو تغلب بعد قليل ديار مضر باحتلال حران سنة 359 وتطلع بعد ذلك الى سورية لولا البويهيون .

النضال ضد بختيار : كان ثمة اتفاق بين كل من بختيار وابي تغلب وفي سنة 360 يعقد لابي تغلب على ابنة بختيار على صداق (100) الف دينار ويعقد له حكم ديار مضر وديار ربيعة والموصل اربع سنوات على جزية سنوية قدرها 000ر 200ر 6 درهم ويمنح الخليفة لابي تغلب الخلع واللواء ويلقبه عدة الدولة (سنة 360 هـ / 971م) . على ان وجود الاخوين حمدان وابي طاهر في بغداد كفى على مايظهر خلال ثلاث سنوات (360 ـ 363 هـ) لان يثير بختيار ضد ابي تغلب . ووعد حمدان بزيادة المال لبغداد اذا عهد اليه بالولاية بدل اخيه . . ولكن ابا طاهر هرب الى الموصل ومشت حملة البويهي سنة 363 اليها .

وفر ابوتغلب على التقليد الحمداني من الموصل الى سنجار تاركا البلدة دون مؤونه ولا موظفين ولا طواحين ثم حاول ان يهاجم بغداد نفسها واضطر عز الدولة لمفاوضته واتفق معه على بقاء عمله في يده على الشروط السابقة .

وبعد ان اعاد ابو تغلب الى الموصل زحف عز الدولة من جديد عليها ففر ابو تغلب الى تل عفر (سنة 364 / 974) وقبل من جديد بالشروط الاربعة الاولى وبان يدفع الجزية ذهبا وترسل اليه زوجته ويستثنى من عمله ماردين (لاخيه) ولكن حمدان لم يرجع اليها وبقي مع عز الدولة الذى عاد الى العاصمة سنة 364 فعينه لحلوان وطريق خراسان وبدأت العلاقات تتحسن بين البويهي والحمداني ابي تغلب بعد ذلك حتى لقد استنجد به عز الدولة في حربه ضد سبكتكين فأعانه وجاء بغداد بنفسه .

مع عضد الدولة : وبعد سنتين ، حين يتحول بختيار الى امير تابع لابن عمه عضد الدولة نرى عضد الدولة يرعى لابي تغلب عمله ومكانته ، ولكن بختيار يمر قرب تكريت ويتفاوض مع ابي تغلب ويسلمه اخاه الهارب حمدان الذى يسجن اولا ثم يقتل مقابل معونته على استلام الامر في بغداد . ولكن جيوش الحمداني والبويهي تنهزم عند سامراء سنة 367 ويقع بختيار اسيرا في يد عضد الدولة ويقتل بينما يفر ابو تغلب فاذا لاحقه البويهي ترك له الموصل يفتك بها ليهرب الى الشمال . واحتاط عضد الدولة سلفا فجلب معه المؤن والموظفين وتسلم املاك الحمداني ـ وهو اكبر اقطاعي في المنطقة ـ ورفض كل عرض للصلح . .

ولقد حاول الحمداني ان يستنجد بثائر بيزنطي (سكليروس) ولجأ لأرضه ولكنه لم يستفد شيئا ورأى بالعكس ان حصونه المنيعة بالجزيرة : ميافارقين وارزن تسقط في يد قواد عضد الدولة ثم سقطت آمد .واخفق ابو تغلب وللمرة الأخيرة في المفاوضة مع عضد الدولة فقرر الفرار الى الخليفة الفاطمي بمصر العزيز بالله . انه لم يفكر باللجوء الى حلب لان ابن عمه ابا المعالي اعترف بسلطان عضد الدولة . الذي أتم فتح جميع القلاع في ديار ربيعة وبكر وعاد الى بغداد (اواخر سنة 368 / يونيو 979) .

نهاية أبي تغلب : كانت هذه النهاية في سورية : اذ نزل أبو تغلب في المزة بظاهر دمشق وطلب الى الخليفة الفاطمي نجدته ليقم له فتنة حاكمها . بمعنى انه عرض عليه خدماته . ولكن العزيز استراب به لاسيما حين طلب حضوره الى مصر فرفض فارسل الخليفة الفاطمي جيشا ضد كل من صاحبها ابي تغلب وصاحب دمشق معا . وتدخل الحمداني في بعض الامور المحلية عند طبريا فكلفه ذلك الأسر ثم القتل على يد القائد الفاطمي سنة 368 اما أهله وبينهم زوجته فاعيدوا الى حلب ثم الموصل ثم بغداد .

و كانت هذه نهاية امارة الموصل الحمدانية لان محاولات اخوى ابي تغلب لانشائها بعد عدة سنوات انتهت بالفشل ...

امـــارة حلـــب الحمدانية

1 — تأسيس الامارة : حين احتل سيف الدولة حلب سنة 333 ظهر كأنه لن تكون من الشرعي ، امير مصر وسورية ردة فعل بالرغم من انه اخبر المستكفي الخليفة وكتب اليه الخليفة بحقه في البلاد . ويظهر ان الحرب التي وقعت بين الطرفين في السنة التالية لم يكن سببها غضب الاخشيد بقدر ماكان سببها اطماع سيف الدولة فان بعض المؤرخين يذكرون ان الاخشيد وجه جيشه الى الشام بقيادة كافور حين علم بمسير الحمداني نحو حمص .

والتقى الجيشان عند الرستن وانهزم كافور هزيمة كسب بها سيف الدولة اربعة آلاف اسير عدا الغرقى في العاصي والقتلى والهاربين ففر كافور الى حمص فدمشق فالرملة ..

وهكذا اضحى وسط سورية مع دمشق بعد شمالها بيد الحمدانيين . وقد استطاع سيف الدولة ان يكسب قلوب الدمشقيين حين وجه اليهم من عين الجسر (على بعد 40 كم من دمشق) كتابا يؤ منهم فيه على اموالهم واشخاصهم ومصالحهم التجارية .

وعلى أي حال فقد دخل سيف الدولة دمشق (شعبان سنة 333 / ابريل 945) بينما كان الاخشيد يصل من مصر الى الرملة ويكتب الى سيف الدولة بالصلح على ان يأخذ كل مابيده عدا دمشق ويدفع له مقابل ذلك المبلغ الذي كان دفع مثله لابن رائق في هذا الصدد . غير ان سيف الدولة رفض وسقطت دمشق بيد الاخشيد .وترحل سيف الدولة نحو الشمال وطالت المطاردة بين الطرفين حتى معرة النعمان وفي شمالها عند قنسرين جرت المعركة وانتصر الاخشيد بحيلة

حربية مما اضطر سيف الدولة للانسحاب من حلب نفسها الى الرقة وانتهب الاخشيد حلب وما حولها .

فلهوم الاخشيد وشعوره بالضعف أمام / الا يجاور البيزنطيين مما يفسر لنا مفاوضته الغريبة لسيف الدولة (ربيع الاول 334 هـ) على ان يترك له حلب وحمص وانطاكية . وان يدفع له فوقها مبلغا من المال كل سنة . وقد تأيد هذا الصلح بزواج سيف الدولة من ابنة أخي الاخشيد (وبعضهم يجعلها ابنته) . وهكذا صار في يد سيف الدولة منطقة واسعة تمتد من جنوب حمص حتى خط العواصم في الشمال .

وبعد شهرين توفي الاخشيد في دمشق وحمل جثمانه الى القدس ولم يكن وريثه انوجور بالرجل الذي يخشى جانبه فمشى سيف الدولة الى دمشق وتسلمها من يانس المؤنس (حاكمها للاخشيديين) . ولكنه اساء السياسة في الناس فزاد في الضرائب وألحّ في طلب اموال الاخشيد وتردد في فرض المصادرات على مالكي الغوطة .. ثم امتدت اطماعه الى مصر فزحف بنفسه الى فلسطين (خريف سنة 946م) وعسكر عند وادي اللجون حيث قابله الجيش الاخشيدي فانهزم سيف الدولة واسرع بالانسحاب من دمشق الى حمص فحلب .

وقد نعجب من ان تنتهي هذه الفترة الحربية التي دامت ثلاث سنوات والتي دارت دائرتها في الغالب على سيف الدولة تنتهي باتفاق في مصلحته ويتوطد حكمه . فلم تكن الاخشيديون بهذه السهولة عن حكم شمالي سورية بعد ان أخذوه بسيفهم وبحقهم من ثلاثة خلفاء (المتقي والمستكفي والمطيع) ؟ ولم فضلوا المفاوضة مع سيف الدولة المغلوب ؟

فبالنسبة الى الوضع الاقتصادي نلاحظ ان طريقا من الطرق العالمية الهامة للتجارة كان يمر من حلب الى الاسكندرونة قادما من خليج البصرة لكن الاضطراب المستمر في العراق اضاع على هذا الطريق قيمته وجعل البضائع تفضل الطريق القديم المار بعدن والبحر فالقصير فالنيل . فالاهتمام بمصر اثمن من حيث النتيجة من العناية بشمال سورية .

ومن الناحية الاخرى الحربية نجد امتلاك شمال سورية لا يهم صاحب مصر هجوميا او دفاعيا الا اذا شاء السيطرة على الجزيرة أو مهاجمة البيزنطيين ولكن الاخشيد لم يكن بذي مطامع توسعية بعد اواسط الشام - كما ظهر من اعماله - ولا بذي رغبة في الجهاد .

لاشك ان سورية الشمالية رد ء وحصن دون أي غزو بيزنطي لسورية الوسطى أو ضد أي متطلع يأتي من الشرق ولكن ليس من الضروري ان تكون تحت الادارة المباشرة للاخشيديين . فاذ احكمها سيف الدولة دافع عنها وعن ارض مصر وراءها دون ان يكلف صاحب مصر شيئا .

كانت امارة حلب تضم عدا جند حمص وقنسرين منطقة كيليكيا على الحدود وعاصمتها طرطوس (وقد تبعت الحمدانيين سنة 335 / 946م) وديار مضر وديار بكر .

2 — عهد سيف الدولة : اجتذب هذا الأمير بنشاطه وروحه المغامرة الكثير من اعضاء اسرته فأعطى الذين يثق بهم منهم مناصب هامة في الامارة فجعل انطاكية وما حولها من العواصم لابي العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان ومنبج لابي فراس الحارث (وكانت سنه لاتزيد عن 16 عاما) وحمص لابي وائل تغلب بن داوود بن حمدان الخ .. على انه من الطريف ان نجد بين قواد سيف الدولة الرئيسيين احد اولاد اخيه ناصر الدولة محمد فهل ترك أباه لأمر أم انه في حلب بمهمة لأبيه ؟ .

اخضاع الساحل : كان على سيف الدولة في السنتين الاوليين من حكمه ان يخضع المنطقة الساحلية الممتدة الى الغرب من نهر العاصي .

اخضاع القبائل : وأضاف سيف الدولة الى ذلك في تلك الفترة ان ضمن عدم اعتداء الكلابيين (من قيس) على بني كلب (من يمين) فيما بين حمص وكفر طاب فلما اخل الكلابيون بالعهد عاتبهم بمعركة لعب فيها ابو فراس الشاعر دورا واسعا رغم فتوته ، ثم اوقف سيف الدولة القتال بحمله حين سمع استغاثة النساء .حول حران .

3 — العلاقات الخارجية لسيف الدولة :

سيف الدولة مع اخيه : كان من حسن حظ سيف الدولة انه لم يكن يشكو في امارته الا من حركات البدو ولم يكن مضطرا لرد اطماع امير مسلم عنها فقد عقد صلات سلمية مع الاخشيديين وكان البويهيون والخليفة بعيدين عنه ويعتبرون امارته جزءا من امارة الموصل فلم يتصل سيف الدولة بالبويهيين الا في مشكلة اخيه ناصر الدولة .

اما ناصر الدولة فكان ينظر لاخيه كتابع له ويطلب نجدته لاكأخ فحسب ولكن كعامل من عماله ايضا ولئن تقاعس سيف الدولة عن النجدة فقد كان ذلك يرجع في وقت واحد الى انشغاله ببعض الحركات عنده أو بحرب البيزنطيين والى كرهه التدخل في شؤون اخيه وامور العراق ومع ان ناصر الدولة فرض نفوذه على ديار بكر/ولكن سيف الدولة ولكن هذا ظل على احترامه لاخيه . وتظل علائق الاخوين حسنة حتى سنة 347 حين طرد معز الدولة ناصر الدولة من الموصل ثم من نصيبين فجاء الاخ الطريد الى حلب في شتاء قاس واستقبله اخوه على اربعة فراسخ من المدينة وجلس ناصر الدولة في القصر على نضد اعلى من نضد سيف الدولة وخلع له امير حلب حذاءه ، وتقبل الاخ الاصغر في صمت كثيرا من عنجهية أخيه " شيخ بني حمدان " ومساوئه . وقد اضطربت العلائق الاخوية موقتا في هذه الفترة ولكن سيف الدولة ظل مع ذلك على موقفه . على ان الضربة البويهية التي أحنت رأس ناصر الدولة قابلتها ضربة اخرى بيزنطية احنت رأس اخيه سيف الدولة وذلك حين احتل البيزنطيين حلب وخسر اميرها في بغداد والموصل كل هالة المجد التي تحوطه . وهكذا ثار عليه هنا وهناك عدد من الثائرين ولم يستطع اخوه ناصر الدولة ان ينجده كما لم يستطع سيف الدولة بالمقابل ، وهو مريض ، وحلب مهددة ان

ينجد اخاه ضد البويهيين سنة 353 . وشهد الاخوان معا .

العلاقات مع اذربيجان وارمينية : يظهر ان سيف الدولة حلم باقامة مملكة واسعة تمتد بين البحر المتوسط وبحر قزوين فحاول ضم ارمينية لكن محاولته سرعان ماباءت بالفشل .

العلاقات مع القرامطة : لم تصبح العلاقات بينهم وبين سيف الدولة حسنة الا حين رأى سيف الدولة ان من مصلحته مداراتهم ويظهر انه كان يرسل اليهم الهدايا .

العلاقات مع الجزيرة : ظل سيف الدولة دوما يهتم بالجزيرة كملجاء له وكان يعتبر ميافارقين في الغالب امارته الاولى دون حلب وما كانت تتمتع به من اسوار وابراج وخندق تجعلها مرجعاً لعبيده . وكان في ميافارقين دوما قسم من عائلة سيف الدولة امه واخوته وزوجته وبعض اولاده وكان يكثر من التردد عليها لاسباب سياسية وعائلية معا .

واخيرا ايام سيف الدولة : رافقت الايام الاخيرة من عهد سيف الدولة ازمة حادة هدمت أو على الاقل زعزعت الكيان الذي بناه .

أ - حملة البيزنطيين على حلب سنة 359 : لم يعكر صفو الهدوء الذى امتد بعد اخماد ثورة القبائل شيء في امارة سيف الدولة فهدأت منذ سنة 344 حتى سنة 351 حين عبر الجيش البيزنطي الحدود وضربوا قوة الامير وسمعته ضربة قاصية .

ب - حركات التمرد : تمرد سنة 350 احد عمال سيف الدولة على طرطوس ابن الزيات تقطع اسم الامير من الخطبة وخطب للخليفة المطيع غير ان حركته انتهت - على قول مسكويه - بانتحاره بعد ان قاومه الاهلون .

واخطر من هذه الثورة : حركة مروان العقيلي وهو قائد قديم لسيف الدولة نجده معه منذ سنة 338 وكان عاملة على السواحل فثار سنة 354 واحتل حمص والتقى عند كفرطاب مع الجيش الذى ارسله ضده نائب سيف الدولة في حلب هزم الجيش ثم دخل مروان حلب .

على ان اخطر هذه الثورات ثورة انطكية ، وقد اثارها كغيرها سقوط هيبة سيف الدولة وغيابه عن حلب . فان كيليكيا قد وقعت في يد نقفور فوقاس بما في ذلك طرطوس واتفق ان مقدم طرطوس رشيق النسيمي خرج منها بعد ان سلمها للروم الى انطاكية وخدمه هناك رجل يعرف بالحسن ابن الاهوازي وكان يضمن الارحاء بالمدينة وزين له الخروج فاستولى على انطاكية وبعث يفاوض الروم على ان يحكمها باسمهم مقابل (600) الف درهم في السنة ثم زين ابن الاهوازى لصاحبه فتح حلب وأراه كتابا مزيفا من الخليفة يخوله ارض سيف الدولة فقرىء الكتاب على المنابر . والتحق برشيق جماعة من مرتزقة الديلم فروا من جند سيف الدولة بحلب ففرق فيهم الاموال التي جباها أو نهبها فصار له (5) آلاف محارب .

واستطاع رشيق احتلال قسم من حلب بينما اعتصم قرغوية (نائب سيف الدولة) بالقلعة وبالقسم الجنوبي الشرقي من البلدة ثلاثة اشهر ثم تمكن في خروج مفاجئ من ارغام محاصريه على ترك حلب

وقتل في المعارك بعد ذلك رشيق نفسه .

غير ان الثورة دخلت بعد ذلك في طور جديد اذ اعلن ابن الاهوازى احد الديلم اميرا في انطاكية وحكم باسمه .

وبالرغم من ان سيف الدولة لم يكن يفكر على مايظهر بالرجوع الى حلب ورغم انه كان مريضا مشلول الجانب الايسر وكان مشغولا بمبادلة الاسرى البيزنطيين فقد وجد ان الحالة بلغت درجة الخطورة . فتوجه محمولا الى شمال سورية (سنة 355 / سنة 966) والتقى بجيوش ابن الأهوازى على نهر الذهب وهزمه وفر الديلمي وصاحبه ابن الاهوازى ولكن بني كلاب اسلموها الى سيف الدولة الذى حولهما الى القتل . وجوزى وجهاء انطاكية بينما استقبل الامير استقبالا حارا البطريق كريستوفر الذى قاوم الثوار وفضل الاعتكاف في دير سمعان .

موت سيف الدولة : تعاورت على الامير منذ سنة 350 ادواء عديدة فالج نصفي اعقبه قولنج واما الداء الاخير الذى ذهب به فهو حصر البول . على ان سيف الدولة ظل يحتفظ الى نهاية حياته بوعيه الذكي وبمعنوياته القوية .

وزاد الطين بلة موت ولديه ثم اخته في دفعات متتالية سنة 352 وقد كان عائدا من شيزر حيث التجأ من هجمات البيزنطيين حين توفي سنة 356 بعد ملك 23 سنة ونقل جثمانه الى ميافارقين . وأسند خده الى اللبنة التي أمر بصنعها من غبار الحروب الذى علق به في حروبه مع الروم .

اخلاف سيف الدولة : سعد الدولة (ابو المعالي شريف) : لم يكن قد بقي لسيف الدولة من اولاده الخمسة عند موته سوى ولدين : ابنته ست الناس وابنه ابي المعالي شريف الذى لم يكن له من العمر غير خمس عشرة سنة . وكان العبء الذى تركه سيف الدولة لوارثه ثقيلا فقد كان هناك بجانب اطماع ابي تغلب صاحب الموصل ، اطماع البيزنطيين واطماع الفاطميين الذين حلوا محل الاخشيديين وكانوا يعتقدون بحقهم المطلق في حكم العالم الاسلامي ويحاولون تحطيم الخلافة العباسية وكل امير تابع لها . واخيرا اطماع الامراء الصغار من اتباع الحمدانيين .

وفي تلك الاثناء لحقت بابي المعالي خسارة على يد ابن عمه حمدان الذى احتل الرقة ثم ضمت لاملاك الموصل ثم ثار به ابو فراس الشاعر (اخو أمه) وكان سيف الدولة قد اعطاه حمص فحسب ان في وسعه ان يكون الوارث الروحي لسيف الدولة .

وفي الوقعة التى جرت جنوب شرقي حمص دارت الدائرة على ابي فراس وقتل (سنة 357 / 968) وخسرت الامارة الحمدانية في ذلك احد اركانها البارزين .

مشكلة العاصمة : اضطر ابو المعالي في نهاية سنة 357 الى ترك عاصمته فلم يرجع اليها الا بعد عشر سنوات . ذلك انه كان مهددا بحصار بيزنطي وخاف ان يقع اسيرا في

ايدى الروم فاستمع لنصيحة قرغوية وانسحب الى بالس بينما كان الجند البيزنطي يخرب شمالي سورية حتى طرابلس فلما انتهى المد البيزنطي وجد ان حلب وبوحي من قرغوية غلام ابيـــه قرفض دخوله اليها .

وجعل الامير الشريد يفتش عن ملجأ فلم تقبله سروج ورفضته حران واضطر ان يوجه الى ميافارقين ولكن . . في 300 جندي فقط . واغلقت امه ابواب المدينة في وجهه ثلاثة ايام حتى تتأكد مـن نياته . ولم يكن له من مطمع سوى ان يسترجع عاصمته فأعطته من المال ما انشأ به جيشه من جديد وبينما كان البيزنطيين يخربون شمال سورية من جديد خلال شهرين حتى طرابلس .

وكتب اليه احد غلمان ابيه يقدم عليه في معرة النعمان فذهب وتقوى بها وحاصر حلب ثلاثـة اشهر (سنة 358) ولكن الخطر البيزنطي عاد فاحتل انطاكية ثم مشى الى حلب فانسحـــب ابو المعالي الى المعرة ثم حماه فحمص بينما كان الروم يحتلون حلب (سنة 359 / 969) ويفرضون على قرغويه وغلامه بكجور معاهدة يأخذون بموجبها الجانب الغربي والشمالي مـن امارة حلب وتبقى المنطقة الممتدة بين جوسية وشرقي جبال العلويين وجنوب نهر الساجور بيد قرغويه وغلامه بكجور ويدفعان عنها الجزية للروم . وهي نوع من معاهدات الحامية ثم تقع الجفوة بين قرغويه وبكجور . ولا ندري سببها وعلى أي حال فقد زار بكجور ابا المعالي في حمص ثم عـاد الى حلب فقبض على قرغويه . . ولكن الامير الحمداني كان من الضعف بحيث لم يفكر بالمسير الـى حلب .

اما سيدا حلب وحمص فقد جهدا في ان يتماسكا بقدر الامكان بين البيزنطيين والفاطميين المتحاربين على الساحل السوري دون أن يثيرا حقد أي منهما . على اننا نستنتج من بعـض الاخبار ان ابا المعالي لم يكن يسكن حمص في هذه الفترة ولعله كان مستقرا في ظاهرها امـا بكجور فقد ظلم الحلبيين حتى كتبوا لابي المعالي بالمسير اليهم ومشى هذا في جنوده ومعـه بعض القبائل فاضطر على الطريق لفتح معرة النعمان قبل ان يضرب الحصار حول حلب (شوال سنة 366 / 977) واستنجد بكجور دون طائل بالبيزنطيين لان ثورة كانت قد اشتعلت فـي السنة الاولى من حكم باسيل الثاني .

ودام حصار حلب اربعة اشهر ثم دخل ابو المعالي المدينة بمعونة بعض حراسها بعد عشـر سنوات من تركها واعتصم بكجور في القلعة ولما نفذت مؤونته طلب الامان ولم يقبل المفاوضة الا بحضور وجهاء بني كلاب . وسلم القلعة سالمة ونال الامان لنفسه ولاودموأعطي بجانب ذلـك حكم حمص . واخرج قرغويه من السجن ليخدم سيده حتى موته سنة 380 (990) .

وهكذا عاد ابو المعالي الى امارة ابيه ولكن بعد ان اقتصرت على الجزء السوري لان ابناء عمه اهتبلوا الفرصة ليضعوا ايديهم على املاك الجزيرة ديار بكر وديار مضر . وقد مر معنا كيف استولى ابو تغلب على هذه الديار منذ سنة 358 وسنة 360 .

العلاقات مع البويهيين والفاطميين : اعاد الاحتلال حلب الى ابي المعالي بعض الهيبة والسمعة وقد عبرت عن ذلك خلافة بغداد واميرها البويهي .

ولعلنا نرى في هذا الاتجاه نوعا من الانقلاب في سياسة سعد الدولة الذى ظل حتى الآن على علاقة طيبة مع الفاطميين ولا نعرف بالضبط مدى هذه العلاقة ولا متى بدأت ولكن جوهر الصقلي بعد ان فتح الفسطاط سنة 358 كتب لسيده المعز لدين الله يقول ان الحمدانيين بعثوا يبدون الولاء ويعدون بموافاته قريبا في مصر . ويذكر المقريزى في الخطط ان المعز حذر قائده من الاتصال بالحمدانيين في تهديد أو وعيد فاذا كتبوا اليه فليجبهم اجابة طيبة ولا يدعون أحدا اليه فان جاء بعضهم فليكرمهم دون ان يسلمهم أى قيادة عسكرية .

وبالرغم من هذا فبعض المصادر تذكر اقامة الخطبة في حمص وفي حلب منذ سنة 360 للمعز كما تذكر ادخال نص " حي على خير العمل " على الآذان وربما كان هذا صحيحا بسبب وضع ابي المعالي وحاجته للمساعدة وربما كان هذا ايضا تعليل عدم تعرض القائد الفاطمي (جعفر ابن فلاح) فاتح سورية وغلامه فتوح الذى وصل انطاكية لاملاك الحمدانيين في شرقة .

على ان آخرين من المؤرخين يذكرون ان الصبغة الشيعية لامارة حلب لم تظهر الا بعد سنة 367 وينقض ذلك انه من غير الممكن ان يجمع ابو المعالي بين الولاء للخليفتين المتناحرين دون ان ينكشف أمره وفي الوقت الذى كان عضد الدولة البويهي فيه يجمع اطراف الملك البويهي كله في يده ويهاجم ابا تغلب في الموصل ويخرجه من ارضه وجد مصلحته ان يقبل ولاء الحمداني الحلبي لا ولمنطقة حرام موالية له بينه وبين الفاطميين عدا انه لم يعد بحاجة لسورية كي يرضي بها ابن عمه بختيار صلحا (بعد ان مات) . .

وهكذا تم الاتفاق بين ابي المعالي وعضد الدولة وعاد للحمداني تقريبا معظم ملك ابيه بعد ان جعل البويهي ديار مضر . وقد كان هذا الاتفاق في مصلحة ابي المعالي من جهة لانه يجعله يأمل بتأييد البويهيين في كل الصعوبات التى قد تنجم عن وجود البيزنطيين عند ابواب حلب وعن معاهدة سنة 359 وربما حسب ابو المعالي انه في امكانه التخلص من فرائض هذه المعاهدة ولكن البويهيين لم يستطيعوا في الواقع معونته في هذه الناحية لانه اضطر بدورة للقبول بتعهدات قرغويه وبكجور فيها من قبل ودفع الجزية ثم مات عضد الدولة سنة 372 فلم يقم البويهيون من بعده بأى مساعدة للحمداني .

امارة حلب بين بيزنطة والفاطميين (الحماية البيزنطية) : ماكاد بكجور يصل حمص حتى بدأ الاتصال بالفاطميين واستغل علاقة ابي المعالي ببغداد ليزداد تقربا من القاهرة . ولاندرى السبب في ذلك وربما كان للجزية السنوية البيزنطية يد في المباعدة بينه وبين صاحبه فكان لابد من الفتور بينهما . واذا كان بكجور اقوى في المواهب من صاحبه واكثر غنى بما في يده فان سعد الدولة كان قد تقوى كل القوة في وضعه الجديد وأرجع لامارة حلب بعض تألقها . وكان مقدرا لهذا الفتور

ان ينقلب قريبا الى خصومة مسلحة شديدة فسرعان ما اضحى الخصمان يمثلان منافسة الامبراطوريتين البعيدتين : بيزنطة والقاهرة على سورية الشمالية : فقد أتم البيزنطيون نفوذهم على سعد الدولة بظهورهم امام اسوار حلب لمجرد تأخره عن دفع الجزية السنوية سنة 371 واجبروه على دفعها ووجد الخليفة العزيز في شخص بكجور الآلة التي توصل نفوذه الى حلب فمد الى مساعدته .

وهكذا ماكاد ابو المعالي يحرم بكجور من حمص سنة 372 / 982 حتى ارسل هذا يذكر خليفة القاهرة بوعده ويطلب نجدته لفتح حلب نفسها . ولم يكن بكجور قد نسيها بعد وقدم جيش فاطمي اعاد دمشق للحكم الفاطمي وذهب قسم منه بصحبة بكجور فنصب الحصار حول حلب . وقد كان مقدرا لبكجور النجاح لولا مساعدة البيزنطيين لابي المعالي ولولا احجام وزير مصر عن مساعدة بكجور المساعدة اللازمة .

وهكذا ماكاد بكجور يعلم بمسير البيزنطيين من انطاكية حتى رفع الحصار وانسحب الى حمص وقد يكون مسير الروم بطلب من ابي المعالي لان القائد البيزنطي لم يتوقف امام حلب الا ريثما يتأكد من دفع صاحبها للجزية ثم مشى نحو حمص التي تركها بكجور للنهب البيزنطي سنة 373 وعادت حمص الى سعد الدولة منهوبة مهدمة محروقة وتوسع ملكه ولكن غصبا عنه لابقوته ولم يظهر الحمداني أي حماس بعد ذلك للاستفادة من اضطراب الجزيرة كي يعيد سلطاته اليها وكانت تبعية حلب للبيزنطيين من الوضوح بحيث لم يستطع البويهيون ان يستخلصوا من امبراطور الروم باسيل الثاني اعترافا بسيادتهم الاسمية عليها حين فاوضوهم لتسليم الثائر البيزنطي (سكليووس) .

وبمجرد ان خفت حدة الخطر البيزنطي سنة 376 حتى اعترف سعد الدولة بالخلافة الفاطمية وخطب للمعز على منابر حلب وتلقى منه الخلع . ثم ما ان مالت القاهرة مع بكجور واعانته على محاصرة الحمداني حتى استنجد ابو المعالي بالبيزنطيين فاعانوه من حامية انطاكية بجيش نصره على بكجور سنة 381 (مايس 991) وقد سقط بكجور بعد ذلك بيد سعد الدولة فقتل واستولى الحمداني على ثروته التي تقدر بـ (800) الف دينار .

وبعث الخليفة مصر يهدد ابا المعالي بالجيوش ان لم يرسل ثروة بكجور واولاده فأهان الحمداني الرسول وصفعه واجبره على ابتلاع الرسالة .

موت سعد الدولة : بقي سعد الدولة بعد طرد الرسول الفاطمي ظاهر حلب يتهيأ لغزو مصر ولكن المرض داهمه ومات وشيكا ودفن في مسجد بظاهر الرقة في رمضان 381 هـ 991 م بنفس داء الفالج الذي مات به أبوه . على ان حكم سعد الدولة دام خمسا وعشرين سنة لم يفعل سوى أن أبرز بوضوح انهيار امارة حلب .

ابو الفضائل سعيد (سعد الدولة) : كان موت سعد الدولة فشلا لمشروع غزو مصر . وسببا في ان يفر بعض قواد الامير الجديد الشاب الى مصر ويلتحقوا بالفواطم ويستقبلوا هناك

الاستقبال الكبير . وبالرغم من ان الحمدانيين لم يكونوا خطرا كبيرا على الفاطميين فان هؤلاء اضحوا منذ امارة سعيد الدولة خطرا على الامارة ، وعلى حلب . ولهذا كان تاريخ سعيد الدولة هو قصة المحاولات التي قامت بها مصر لفتح حلب . وكان الامير الحمداني أبعد من ان يستطيع صد الغزو بوسائلة الخاصة ولا كان هو ولا غلامه لؤ لؤ يتمتعان بشعبية واسعة . ولا كانت بغداد في وضع تستطيع معه مساعدة حلب وهي

غارقة في الفوضى سنة 381 فلا يمكن ان تأتي المساعدة الا من بيزنطة التي كان يرتبط معها ابوه بمعاهدة (تبعية) وجددها هو بدوره بعد توليه الامارة . ولكن المساعدة كانت تعدل في خطرها الهجوم الفاطمي لانها قد تحيل امارة حلب الى ولاية بيزنطية .

محاولات الفتح : بدأت الغزوات الفاطمية سنة 382 ولم تهدأ كل عهد العزيز . فمنذ هذه السنة وصل لاخضاع الشام القائد الفاطمي التركي منفوتكين فاحتل دمشق من مغتصبها ولكن المصادر لاتتفق بعد على سرد اعماله التالية ويرى المستشرق كانار انه يمكن تنظيم اخبار الغزوات الفاطمية على الشكل التالي :

1 ـ في مطلع سنة 382 هـ (مارس 992) خرج منفوتكين من دمشق قاصدا حلب ومعه 30 الف محارب واحمد بن محمد القشيري كمعاون له ويرافقه رجل يدعى ابن المغربي كان عند الحمدانيين وقد ارسله الفاطميون للاستفادة من خبرته ولادارة المناطق المفتوحة فبادر ابو الفضائل وغلامه لؤ لؤ لارسال مبعوث منهما يجدد العهد الذي كان عقده سعد الدولة مع الامبراطور البيزنطي ويطلب المعونة العسكرية فكلف صاحب انطاكية ومعونته .
واستطاع منفوتكين ان يحتل حمص وحماه ويهزم الحمدانيين عند افامية ثم يحاصر حلب ولما وصل البيزنطيون قامت بينه وبينهم بين حلب وانطاكية ومرعش عدة معارك كان الحمدانيون فيها بجانب البيزنطيين . . ولما عاد منفوتكين لحصار حلب (مايس 992) احرق لؤ لؤ كل البيادر في المنطقة ليمنع الفاطميين من المؤن . . ثم وجد ان المعونة البيزنطية غير كافية فرشا كلا من القيشيري وابن المغربي لاقناع القائد بترك الحصار هذه السنة والعودة في السنة المقبلة وقبل ان تأتي موافقة الخليفة على ذلك كانت الجيوش في طريق العودة . ولكن امارة حلب كانت قد خسرت على أي حال جند حمص للفاطميين .
ولا يظهر ان الحصار عاد في السنة التالية التي عمل فيها الخليفة العزيز على اعادة تنظيم الادارة العسكرية لجيشه في سورية وعلى توطيد أقدام الفتح الفاطمي باحتلال بعض القواعد الهامة كشيزر وفامية ووصل الفاطميون حتى انطاكية .

2 ـ عاد منفوتكين في ربيع سنة 384 (994) لحصار حلب وتكرر هذه المرة ـ على مايفهم من الاخبار ـ ماجرى في المرة الاولى اذ حوصرت المدينة مرتين فصل بينهما فترة من التدخل البيزنطي ولم ينته الحصار الاخير الا بمجيء الامبراطور باسيل بشخصه .
ومع ان ابن ظافر المؤرخ ذكر ان معاهدة عدم اعتداء عقدت بين صاحب حلب والخليفة

الفاطمي العزيز سنة 385 (995) فاستمرت قائمة حتى سنة 399 (1008) ولكن يظهر ان ذلك غير واقع أو ان المعاهدة على الاقل لم تعقد سنة 385 ولا في حياة العزيز بالله .

فاننا نجد استعدادات كبيرة حربية وبحرية تتخذ في مصر في هذه السنة . وتأخذ فكرة فتح حلب شكل عمل من اعمال الجهاد . ويقرر العزيز ان يأتي بنفسه الى الشام ولكنه توفي قبل ان يغادر مصر سنة 386 (996) بينما كان منفوتكين يعيد النفوذ الفاطمي بين دمشق ومعرة النعمان وانطرطوس . اما امارة حلب فقد صغرت رقعتها جدا ويظهر أنها كانت قد خسرت ديار مضر واخذها العقيليون (الذين أقاموا سلالة حاكمة في الموصل منذ سنة 386) . ويظهر ان الحاكم بالله ، خليفة القاهرة الجديد لم يكن شديد الحماس لمشروع فتح شمال الشام فلم يكمل فكرة ابيه وفي سنة 389 / 999 ظهر الامبراطور البيزنطي من جديد في سورية ووصل في تغلغله حتى بعلبك وجبيل وبيروت وفاض الخليفة الفاطمي على عقد هدنة معه فعقدت سنة 1001 على أن تدوم عشر سنوات .

موت أبي الفضائل وامارة لؤلؤ : توفي ابو الفضائل مسموما سنة 392 وربما كان ذلك بتدبير من لؤلؤ الغلام لينفرد بالحكم وقد استطاع سنة 394 ان ينفي ولدى سعيد الدولة واهله جميعا من حلب الى مصر (بالاتفاق مع الفاطميين .. ؟) ويستخلص حلب لنفسه ولابنه منصور . على انه ظل في الوقت نفسه على علاقات حسنة مع بيزنطة . ولما توفي سنة 1009 خلفه ابنه منصور الذى تلقى من خليفة القاهرة لقب مرتضى الدولة وقبل من الفاطميين اقراره على حلب وهذا يعني انا نستطيع اعتبار حلب ضمن النطاق الفاطمي منذ سنة 1009 .

وقد حاول الحمدانيون العودة الى حلب مستغلين ظلم منصور للناس وهجاء الشعراء له وصاحب المحاولة هو ابو الهيجاء بن سعد الدولة وكان لاجئا في القسطنطينية ولكنه فشل وعاد فالتجاء الى بيزنطة من جديد . ولكن ايام منصور بن لؤلؤ لم تطل لان سياسته القاسية اثارت ضده القبائل وقادها صالح بن مرداس لحصار حلب واضطر منصور للفرار الى بيزنطة بينما سلمت سنة 1016 / 406 لحاكم افامية الفاطمي . ويخرج عن نطاق البحث الحمداني امارة حلب بعد ذلك ففي سنة 415 / 1025 تسقط المدينة بيد صالح بن مرداس ويقيم فيها السلالة المرداسية التي ستستمر حتى سنة 472 / 1079 .

السياسة المالية للحمدانيين

في امارة الموصل : اتبع الحمدانيون في الفترة التي اضحى لهم الحكم فيها بين الموصل ونصيبين سياسة تهدف الى تعبئة جميع الموارد المالية للبلاد في سبيل خدمة الامراء وربما كانت هذه السياسة من وحي الوضع الجغرافي للحمدانيين الذين كانوا محصورين بين البيزنطيين في الشمال الغربي وبين حكومة بغداد المعادية في الجنوب الشرقي . ولكن المستشرق متز

يعللها على شكل آخر بانهم بدو فيقول انهم " جاروا على الرعية جورا عظيما وهو مايفعله اهل البادية الذين لايعملون ولايحسنون لشيء تعهدا وكانوا اسوأ جميع حكام القرن الرابع والترك والفرس الذين حكموا في هذا القرن هم جميعا كالآباء لرعيتهم اذا قورنوا بالحمدانيين ... " .

الحروب مع البيزنطيين

المميزات العامة لهذه الحروب : نعرف ان مناطق الحدود مع الروم كانت تحمل اسم الثغور عند المسلمين لانها معرضة لهجمات العدو وانهم يقسمونها الى ثغور شامية وثغور جزيرية والثغور الجزيرية التي كانت تمتد بين مرعش وملاطية ، فكانت تعرف ايضا باسم الدروب .

وقد اقتضى بين ظهور الحمدانيين على المسرح السياسي (في اواسط القرن التاسع) وبين اندثار حكمهم قرن ونصف القرن لم تنقطع فيها الحروب على طول الجبهة البيزنطية بين المتوسط وارمينية وفي داخل مناطق الحدود في الطرفين . وقد مرت هذه الحروب خلال هذه الحقبة الطويلة بمراحل عدة ولكنها كانت دوما تحمل طابعا واحدا لدى البيزنطيين والمسلمين على السواء . هجمات سريعة من النهب والتخريب تتغلغل احيانا لمسافات بعيدة داخل ارض العدو ، وكمائن تقام في سلاسل طوروس لاسيما عند عودة الغزاة وهدنات قصيرة لتبادل الاسرى .

ويمكن ان نلاحظ ان الجانب المسلم سجل في هذا العصر الذي ندرسه تراجعه نهائيا عن فكرة الاحتلال وقد اضحى الهدف ، عند المسلمين ، الجهاد والغنيمة لا الفتح واذا اهتموا بحصون الحدود فلقطع طريق الهجوم على العدو ولاستخدامها نقطة انطلاق الى داخل ارضه عند الغزو ، اما البيزنطيون فانهم على العكس اخذوا يتجهون شيئا فشيئا نحو احتلال المواقع واسترداد الامارات التي كانت قد ضاعت منهم وقد توضح هذا الهدف منذ عهد ليون السادس .. وبالرغم من تعدد الجبهات البيزنطية في صقيلية وايطاليا والبلغار فان حدود بيزنطة مع العرب بدأت تسير نحو الشرق بعد ان ظلت تتقلص وتتراجع غربا منذ الفتح العربي الاسلامي الاول في القرن السابع ، وهذه هي نتيجة الانقلاب الكبرى في الجبهة الرومية .

واذا أخر ظهور سيف الدولة هذا الزحف نحو الشرق فان الاحتلال النهائي للمواقع وضمها الى بيزنطة استمر في عهد رومان الثاني ثم نقفور فوقاس وحنا تزيميسيز واضحت كيليكيا وقسما من سورية الشمالية ومن ارمينية بيد بيزنطة .

وما اعمال سيف الدولة خلال عشرين سنة الا محاولات دفاعية انتهت بالانهيار .

ولقد ادهشت الانتصارات البيزنطية المسلمين وعزوها — كما فعل ابن حوقل — الى ضعف ايمان المسلمين وفساد الحكام الذين جعلوا همهم التمتع بالرغد لا العمل للجهاد ولم ينتبهوا الى التقدم والتنظيم اللذين حققتهما في بيزنطة السلالة المقدونية .

والمسعودي يعترف بهذه الحقيقة بينما ابن حوقل يجهلها ويرى ان بيزنطة اضعف في الموارد والقوة الحربية من الامبراطورية الفاطمية .

والواقع ان ضعف العباسيين لم يكن السبب في نصر البيزنطيين ولكنه كان سببا مساعدا اعانهم

على النصر واذا شئنا ان نعدد اسباب الظفر البيزنطي فيجب ان نبدأ البحث عنها في بيزنطة نفسها :

1 - في عدد الاباطرة الاكفاء والقادة والوزراء الذين جددوا نشاط الدولة .

2 - في الشعب ، ولاسيما شعب الاناضول ، والعناصر الارمنية المهاجرة لاراضي بيزنطة واذا كان الشعب مؤلفا من عناصر جنسية مختلفة فانه جميعا كان يتمتع بايمان ديني واحد ويمتلئ عجبا بنكون زراثته للامبراطورية الرومانية .

3 - في تنظيم الدولة تنظيما سياسيا واجتماعيا واقتصاديا هو على أي حال اقوى من تنظيم الخصوم .

ولو قارنا بين خطتي الطرفين في الحرب من مسلمين (حمدانيين) وبيزنطيين لوجدنا ان الطرف المسلم لم يكن له قبل دخول الفاطميين في الموضوع ، أي خطة هجومية ولا فكرة رائدة وتجري الغزوات حسب صدفة الظروف وتتعلق اتجاهات الحملات الاسلامية في معظم الاحيان لابخطة موضوعية ولكن بمجرد الرغبة في استباق الهجمات البيزنطية وضرب مراكز انطلاقها بينما نجد الاباطرة والقواد البيزنطيين يقودون الجيوش حسب خطة مرسومة يجتهدون في تطبيقها وغالباماكانت تنجح .

ويمكن ان نقسم حوادث الحروب البيزنطية في الفترة الحمدانية التي نتكلم عنها الى ثلاث مراحل :

1 - فترة ماقبل سيف الدولة (قبل سنة 333) واذا شئنا ان نعطيها اسمها الجغرافي قلنا انها فترة الحروب الجزيرية (مابين النهرين - ارمينية) .

2 - الفترة السيفية منذ سنة 333 حتى سنة 356 (944 - 967) وهي فترة حكم سيف الدولة في حلب وقد تحطمت عليه وحده كل شدة الهجمات البيزنطية وتحمل وحده كل ثقلها . واذا اعطيناها اسما جغرافيا سميناها فترة الحروب السورية - الجزيرية (اعلى مابين النهرين وشمالي سورية) .

3 - فترة مابعد سيف الدولة (356 - 394) (967 - 1003) أي انها تنتهي بانتهاء السلالة الحمدانية في حلب رغم ان هذه السلالة كانت عمليا منذ سنة 969 ، تحت الحماية البيزنطية . وقد استمرت الحرب في هذه الفترة سواء في الجزيرة أم سورية . ولم تكن الحروب البيزنطية في سورية ، في السنوات الثلاثين التي ختم بها القرن العاشر حربا مع الفاطميين وكان الطرفان يتنازعان على امارة حلب . وقد أضحى قائد الحرس الوطني البيزنطي أبرز قائد لن أهمية كنه نظرياً من قائد الاناضول ولكنه يبرز في الفترة التي ندرسها وكأنه القائد الاعلى لاسيما في الحالات التي لايشترك فيها الامبراطور في الحرب . ويلقب هذا القائد الدمستق

اعمال سيف الدولة الاولى : انه منذ ان عهد ناصر الدولة لاخيه الشاب سيف الدولة بديار بكر صار عليه ان يحمي الحدود ويقوم بواجب الجهاد . ويستنتج من مقارنة

النصوص التاريخية ان ناصر الدولة لم يتوجه ضد بيزنطة الا في حملة واحدة قادها في قلب عمالة مابين النهرين . اما سيف الدولة فانه بالعكس بدا منذ هذا الوقت المبكر بأخذ صفة (الغازي) ويكسب شعبية كبيرة في بغداد . وسنجده بعد الآن (324 / 936) لا يدع سنة لا يخرج فيها للجهاد او يرسل البعوث .

ويذكرون ان اول حملة له كانت سنة 324 ضد سميساط ولكنه اضطر لتركها بسبب ثورة احد قواده عليه . وكانت الحملة الثانية سنة 326 وصل بها حتى حصن زياد فاحتله وداهمه الجيش البيزنطي بقوة تعد على زعم المؤرخين (200) الف فترك الموقع وقامت معارك عنيفة مع فرسان بيزنطة فيما بين حصن زياد وحصن سلام خرج منها سيف الدولة منتصرا وغنم العرش الذى كان يجلس عليه الدمستق حاكم ايكوس لمراقبة جنده .

وكانت الحملة الثالثة سنة 328 حين استجارت به قليقلة فنفذ اليها من ميافارقين وهرب الروم بعد ان هدموا البلدة التي بنوها تجاه قليقلة لاحكام الحصار واستمر في تقدمه شمالا محتلا خلال ذلك عددا من الحصون .

ويغيب اسم سيف الدولة بعد هذه الانتصارات غيابا طويلا يشغل خلاله الامير بمشاكل بغداد (328 — 335 / 940 — 945) .

2 — الفترة السيفيـــــة

333 — 356 — 944 — 967

يمكن أن نقسم حروب هذه الفترة الى ثلاثة مراحل : الأولى : 333 — 344 هـ / 944 —955م

المرحلة الأولـــى : في 8 ربيع الاول 333 / 29 تشرين الاول 944 دخل سيف الدولة الى حلب فأضحى بهذا الشكل مسؤولا عن جميع الجبهة مابين ارمينية وشمال سورية في املاكه وبالرغم من اهمية الاسطول البحرى لسيف الدولة فانه لم يفكر به وجعل كل همه في الحروب البرية التي كان يقود منها سنويا غزوة واحيانا غزوتين وثلاثا ويضر بها اضرارا واسعا بأرض بيزنطة حتى لقد اضطر الامبراطور مرات لطلب الهدنة .

1 — يذكر المؤرخون سنة 333 خبر غزوة بيزنطية في منطقة مرعش وصلت حتى قرب انطاكية اجاب سيف الدولة عليها بحملة قادها حتى عربسوس والصفصافة (عمالة ليكاندوس) وفاجأ الروم ليلا ففروا تاركين له الغنائم والاسرى .

2 — في سنة 336 / 947 كانت امارة سيف الدولة قد استقرت تماما في حلب . وهكذا هاجم الروم سنة 336 / 948 منطقة الحدث — مرعش فردهم الحمداني عنها ثم هاجموها في السنة التالية ولم يجد سيف الدولة (الحدث) لانشغاله بحرب أخرى فسقطت في ايدى الروم وعادوا في نفس السنة مرة اخرى فاحتلوا مرعش وكانت لهم معركة امام طرسوس مع حامية المدينة

وعبثا حاول سيف الدولة انجاد مرعش فانه هزم .

3 - أفاد الروم من سفر سيف الدولة الى ميافارقين فدخلوا بقيادة ليون فوقاس في ارضه الشامية حتى (بوقا) في سهل العمق ويهزمون نائب سيف الدولة في حلب وهو ابن اخيه محمد بن ناصر الدولة الا ان الدولة البيزنطية تصاب بهزيمة كبرى عقب ذلك في حملتها البحرية على كريت فتنشد السلام مع سيف الدولة .

4 - غزوة المصيصة : عاد سيف الدولة من ديار بكر الى حلب وهو واثق من امارته فاقام جيشا من 30 الف مقاتل انضم اليهم من طرسوس اربعة الاف وقيمة الحملة كانت في عيني الامير انها كانت اولى غزواته من حلب واولى غزواته الكبرى ولعله لذلك استأذن بها الخليفة على مايقول ابن الحمداني . وأخذ معه شاعره المتنبي واولاد عمه : ابا فراس وابا زهير مهلهل وكلاهما فارس شاعر . وليست لدينا تفاصيل وافية عن هذه الحملة .

ثم مشى سيف الدولة في طريق العودة عن طريق نهر هالس . ولكنه علم بتجمع الروم في شمالي خرشنة فعاد اليهم وهزم الدمستق هزيمة مباغته وقرر العودة بغنائمه التي كان بينها (80) شخصية من كبار الروم اسرى . ويظهر ان جماعة طرسوس فارقته بعد ذلك والجموعات البدوية تقدمته فسمح ذلك للروم ان يطبقوا ضده خطة عسكرية قديمة باقامة كمين له على دروب طوروس وفاجأ الكمين سيف الدولة في ممر صعب فخسر خمسة آلاف قتيل وتمكّن بمشقة أن يفتح لنفسه طريق الهروب الى حلب .

مفاوضات الهدنة ونصر مرعش : مع أن الروم ظلوا خلال ثلاث سنوات (953 - 956) يحاولون عقد هدنة مع الامير الحمداني فقد رفض سيف الدولة وبأحتقار كل عرض للهدنة ولم يزده تكرار العروض الا امتهانا لقيمة الامبراطورية البيزنطية . وهكذا فقد دخل سيف الدولة ارض بيزنطة سنة 953 .

مشى سيف الدولة أولا الى حران حيث تلقى ولاء بعض القبائل الثائرة ثم عاد الى دلوك حيث التقى بجمهرة الجيش ومشى به الى اعالي مجرى الفرات مخربا مناطق زبطرة وعزفة وملاطية .

واراد العودة عن طريق آخر غير التي قدم عليها فالتقى بجيش قسطنطين فوقاس وقامت بين الطرفين معركة امية خسر بها سيف الدولة فرقة الديلم في جيشه بينما خسر الروم فرقة الارمن ولما لم يستطع المرور عاد الى منطقة ملاطية فاجتاز نهر الفرات عند حصن المنشار زارعا الدمار في طريقه سائقا الاسرى معه . ولكنه علم اثر ذلك ان العدو هاجم سورية فاسرع باتجاه حلب ولما وصل دلوك كان الروم قد رجعوا منها باتجاه حدودهم فلحق بهم واستطاع مع (600) فارس فقط أن ينتصر على جيش الدمستق وان يسترد منه الغنائم والاسرى وجرح برداس فوقاس القائد واسر اصغر ابنائه قسطنطين (فمات مريضا في حلب) (يونيو 953) .

كانت هزيمة مرعش مطلعا لسلسلة من الهزائم تتابعت على الجيش البيزنطي وعلى السياسة البيزنطية بنتيجة قلة كفاية الامبراطور (بورفيروجينت) والدمستق برداس فوقاس امام قوة الامير الحمداني ومواهبه الحربية .

وقد طلب الامبراطور الهدنة من جديد سنة 954 (343 هـ) ثم في السنة التالية وارسل في كل مرة وفدا الى حلب ولكن العرض رفض . وقد حاول برداس فوقاس حصار الحدث فساق سيف الدولة جيشه نحوها وباغت المحاصرين واضطرهم للفرار .

وكانت هزيمة فوقاس امام الحدث آخر اعماله الحربية اذ انتهت فيها دمسقية التي سمحت لسيف الدولة ان يجعل حدوده متينة ويجعل يده في الحروب في العليا . وعين الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس (ابن برداس) بدلا من ابيه الشيخ سنة 954 - على قول فازيلييف - أو سنة 955 وبتولي نقفور الدمستقية يبدأ طور جديد في الحروب العربية الرومية اذ تبدأ القوة البيزنطية بالتكتل والتنظيم بينما تبدأ قوى سيف الدولة بالضعف ويظهر جانب نقفور عدد من القواد الآخرين امثال ليون وحنا تزيميسيز (الامبراطور المقبل) وباسيل ليكا بين بينما لايظهر في جند سيف الدولة قواد اكفاء كهؤلاء .

عمليات سنة 345 (ربيع وخريف سنة 956) : وعسكر سيف الدولة على بحيرة شمشاط بعد ان كان خرج من حلب في بداية سنة 345 هـ بينما كان فرسانه يغزون الناحية ثم وصل حصن زياد (أي دخل منطقة حنا تزيميسيز) وقد كان يحمل معه بعض الزوارق والاطواف فعبر بها نهر ارزناس وعبر فرسانه النهر سباحة ووصل تل البطريق وعاد مثقلا بالغنائم واحرق في هذه الاثناء عدة بلاد ولكنه لم يستطع ان يأخذ بلدة !دادم) عنوة لحصانتها .

وعلم سيف الدولة وهو على دادم ان العدو قطع عليه خط الرجعه فتراجع ولكنه اضطر لمواجهة الروم في احد الدروب (درب الخياطين) وقامت معركة حامية هزم فيها الروم بعد ان فقدوا اربعة آلاف من رجالهم بينهم البطريق ابن البلنطس وابن فاشر (فارس النصرانية) .

ولحق سيف الدولة بالفلول حتى طبرش ثم عاد الى آمد (صفر مايس) .

ثم وجّه حملة الخريف التي بلغت خرشنة وصارخة واكتسبت سيف الدولة عددا من شخصيات الروم اسرى الا ان الروم على الطرف الشمالي من الجبهة كانوا قد احرزوا نصرا هاما ضده فقد وصلوا الى ميافارقين وخربوا واحرقوا الناحية كلها .

يقظة بيزنطة الحربية (346 - 347 / 957 - 959) : تبدأ بيزنطة في السنوات التالية سيرها العسكري الصاعد بينما كان نجم سيف الدولة يأفل دون ان يسانده أو يعقبه في الامارة رجل جديد يمجده العسكري .

استطاع نقفور فوقاس ان يحتل حصن الحدث سنة 346 ورأى انه لا يستطيع الاحتفاظ به مادامت سميساط ليست في يده فهدم اسواره وطرد اهله الذين مشوا الى حلب ومن الغريب انه لم تبدر

أية ردة فعل من سيف الدولة ويظهر ان ذلك يعود الى ظهور نوع من عدم الولاء والخيانة في صفوف غلمانه وجنده .

وبدأ النصر العسكري البيزنطي بتكرر بعد ذلك فقد هاجم حنا تزيمسيز الجزيرة (347-958) فوصل آمد وارزن وميافارقين وكان سيف الدولة مشغولا بهرب اخيه اليه من البويهيين فتولى غلامه التركي نجا الدفاع في عشرة آلاف جندي ولكنه هزم تاركا خمسة آلاف قتيل وثلاثة آلاف اسير ثم استطاع الروم احتلال سميساط وانتصروا على سيف الدولة عند ابواب سورية امام بلدة رعبان في اواخر سنة 958 ويمتدون لما بعدها لولا ان صدهم الحمداني .

معركة مغارة الكحل (349 / 960) : يموت في اواخر سنة 959 الامبراطور قسطنطين بورفيروجينت ويخلفه رومان الثاني الذي يستبدل بنقفور فوقاس اخاه ليون فوقاس فيجعله دمستق الشرق وقبل ان يجرى هذا التبدل كان حنا تزيمسيز في ربيع سنة 959 قد هاجم الجزيرة وحاصر على التوالي آمد وميافارقين ثم ظهر في ناحية نصيبين في ديار ربيعة وخرب عدة بلدان في المنطقة كما هاجم ديار مضر حول الرها وحران . وماكاد يترك حصار آمد وميافارقين ويعود حتى كان ليون فوقاس يعبر كيليكيا الى طرسوس ثم تركها فمشى شمالا الى الهارونية فاحتلها وأخذ 1500 اسير ثم دخل ديار بكر فلما اسرع سيف الدولة لصده مني بهزيمة قوية فقد فيها عددا من فرسان اهله وأسر ابن اخيه : محمد بن ناصر .

ولم تمض على هذه الاحداث اشهر حتى كان سيف الدولة قد عاد فهيأ حملة هامة ذات فرعين لضرب المواقع العسكرية الحيوية للروم : عهد غلامه نجا بالهجوم من حدود ديار بكر بينما قرر لنفسه المسير في الطريق التي اوصلته مرة الى خرسيانه . وحاصر نجا حصن (ذي القرنين) وهو لديار بكر وهزم (البطريق ميشيل) الذي لقيه رغم التفوق العددي للروم وأسر قائدا اسمه (طرنيق) ولعله ارمني ولكنه لم يستطع ان يحتل الحصن .

واما سيف الدولة فقد رفده جماعة من طرسوس كما في سنة 339 ومشى في قوة كبيرة (30 الف مقاتل) فوصل حتى خرشنة وعلم ليون فوقاس به فدبر له كمينا في طريق العودة يدعوه الروم (اندراسوس) والعرب (مغارة الكحل) او (الكجك) وليس يعرف موقعه بالضبط وربما كان في شمالي مرعش . وبالرغم من نصيحة اهل طرسوس لسيف الدولة ان يسير معهم في طريقهم الى طرسوس فقد رفض وفوجئ بعد ذلك بالقوى البيزنطية الكامنة في حماية الغابات .

وتكبد الامير الحمداني خسائر فادحة وا ستطاع النجاة في عدد من رجاله بينما استرد فوقاس كل الاسرى الذين كان سيف الدولة جمعهم في حملته واستطاع ان يأسر بالمقابل عددا هائلا من جند الحمداني بينهم عدد من القادة المرموقين . . وكان ذلك اواخر سنة 960 (15 رمضان سنة 349) وفي هذه المرة احتفل فوقاس احتفالا كبيرا بنصره في (السرك) في القسطنطينية .

بهذه الواقعة يبدأ الانهيار السياسي والعسكري لسيف الدولة بسبب الضغط البيزنطي المتذايد

عليه وينتهز بعض الامراء من حوله الفرصة ليستقلوا عنه أو يثوروا عليه .

عودة نقفور فوقاس الى الشرق والاستيلاء على عين زربـــة : أعيد نقفور فوقاس دمستقـــا للمشرق بعد انتصاره في كريت فوضع خطته على اساس التمركز في كيليكيا ومهاجمة الحمدانيين في سورية نفسها . وحدثت العمليات الحربية التي تمت على الجبهه الحمدانية البيزنطية بين أوخر سنة 961 حتى مطالع سنة 963 .

وكان مركز الدمستق خلال هذه العمليات بلدة قيسارية كما انها كانت مركز تجمع الجيوش . وقد جمع نقفور على قول المؤرخين (160) الف مقاتل وعددا هائلا من آلات الحصار واتجه بهـا نحو عين زربة واستولى عليها .

بعد هذه العمليات بقليل جرت عمليات موضعية اخرى كان الغرض منها اشغال القوى الحمدانية لئلا تفكر حلب بغزوة انتقامية ، والتمكين للقوى الرومية على الحدود تمهيدا للعمليات المقبلـة وقبل ان تنتهي سنة 962 جرت عمليات خسر بها الحمدانيون دلوك ورعبان ومرعش وأسر فـي هذه المعارك حول منبج ابو فراس الحمداني ويظهر ان قائد هذه العمليات لم يكن نقفور نفسه .

حصار واحتلال حلـــب : كان نقفور في قيسارية يهيئ حملة كبيرة على العاصمة حلب وكانـت طلائع مشروعه هذه واضحة من العمليات التي تمت في شرقي كيليكيا ثم في شمال منطقة حلب . مشى نقفور في نهاية سنة 962م (ذي القعدة سنة 351 هـ) والذي يظهر ان سيف الدولـة فوجئ بهجوم الدمستق سريعا الى اطراف حلب لانه لم يكن ينتظر قدومه في فصل الشتاء الـى قلب الاراضي الحمدانية .

ولم يكن وضع سيف الدولة بالوضع الذي يؤمل منه الخير ومع ذلك فقد لقي العدو بجمع قليل عند ابواب المدينة وفقد في هذه المعركة عددا كبيرا من اهله فغادر في المساء المعسكر على حصانه في اتجاه بالس ولحق به حنا تزيمسيز فغير اتجاهه نحو قنسرين ومكث فيها يراقب الاحداث .

اما جيوش سيف الدولة فقد سحقت عند الباب الشمالي (باب اليهود) وتراجعت الى داخـل سور المدينة بينما كان نقفور ينهب ويحرق قصر سيف الدولة في ظاهر حلـب .

وشدد الروم الحصار واستطاعوا فتح ثلمة في السور فقاتلهم اهل حلب عليها ولما جن الليل عمروها واضطر الروم الى التراجع الى جبل الجوشن . ويظهر ان شرطة المدينة طمعت في نهب اموال الناس اذ لم ليس في حلب امير فقامت فتنة بين الطرفين استغلها الروم وتسلقوا الاسوار وفتحـوا الابواب .

استمر ذلك تسعة ايام ولكن القلعة لم تستسلم وقد لجأ اليها كثير / فحاصرها ابن اخت الامبراطور فقتل امامها فانتقم الدمستق لمقتله بقتل من معه من الاسرى وكانوا الفا ومائتي رجل .. وعـاد الى بلاده بعد ان طلب من زراع المنطقة بأن يتابعوا زرعهم لانه سيعود .

على ان هذه الضربة القاسية هي التي ذهبت بامارة حلب وخربت اهم مقاطعاتها ومحقت سكانها

وجيشها وثروتها . ولم يستطع سيف الدولة ان يقوم ببعض الاصلاحات الضرورية في عاصمته عند عودته الا باموال ارسلتها اليه اخته .

خسارة المصيصة وطرسوس : توفي الامبراطور بيزنطة في مارس 963 فرفعت الجيوش الى العرش نقفور فوقاس وصار حنا تزيمسيز دمستق المشرق. واقتضت هذه الاحداث انشغال الجيوش البيزنطية اكثر من ستة اشهر ولكن سيف الدولة لم يكن من القوة بحيث يقود حملة صغيرة ضد الروم وعاود الروم حصار المصيصة في نهاية سنة 353 (في صميم الشتاء) وعلى رأسهم الامبراطور نقفور نفسه ... وجمع جيوش الروم وسار الى المصيصة بنفسه فحاصرها وفتحها عنوة (رجب سنة 354) ووضع السيف في اهلها فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف ونقل كل سكانها الى بلد الروم وكانوا نحو (200) الف انسان اسرى .

وجاء دور طرسوس هذا (الرباط الهام للدفاع عن الحدود برا وبحرا) ويذكر المؤرخون ان المجاعة الجأت اهلها لمكاتبة نقفور مع اهل المصيصة كما انها لم تكن تنتظر أي مساعدة من سيف الدولة المشغول بفتن الجزيرة وبمرضه . فلما حوصرت البلدة استسلم اهلها للامبراطور .

وتروي احدى القصص ان جسد المأمون ظهر من قبره في محراب الجامع وأخذ نقفور سيفه . وقد وضع حاكم بيزنطي للمصيصة وآخر لطرسوس واضحت اهم مدن كليكيا بيد الروم .

ولم يقم سيف الدولة بأي دور في هذه العمليات وكل ماكان يحلم به هو الصلح مع الروم وتبادل الاسرى .

تبادل الاسرى (سنة 355 / 966) واعمال سيف الدولة الاخيرة : حدث ذلك التبادل قرب سميساط على الفرات اواخر يونيو سنة 966 .

ويذكر بعض المؤرخين خبر هدنة عقدت بين سيف الدولة ونقفور نقضها الروم في السنة نفسها وهاجموا الامارة الحمدانية من موضعين معا : هاجموا آمد ونصيبين وميافارقين في الجزيرة من جهة وهاجم نقفور بالس فاحتلها واخترق اطراف منبج ثم حاصرها (شوال 355 اكتوبر 966) ولكنه لم يسئ اليها لان اهلها اعطوه مايعدل في القدسية .

منديل الرها وهي القرميدة التي ظل منقوشا عليها ملامح السيد المسيح . ثم مشى من وادى البطنان باتجاه حلب . وعرض سيف الدولة عبثا دفع جزية للامبراطور فطلب هذا منه نصف سورية .

ففر الحمداني الى قنسرين ومنها الى شيزر . وبعد ان حارب نقفور اطراف حلب مشى نحو انطاكية ولكن نقص المؤن منعه من ان يبقى على حصارها اكثر من اسبوع فانسحب الى آسيا الصغرى .

وكانت هذه آخر مراحل الحروب التي شهدها سيف الدولة لانه عاد الى حلب وتوفي بها في فبراير 967 .

لقد كانت قواه منذ سنة 345 تنحط لاسباب داخلية وخارجية . ومنذ سنة 349 اضحى مدافعا بعد ان كان مهاجما وقد كان سقوط حلب نقطة الختام في مجده العسكري ولا شك ان بعض

حملاته (كحملة سنة 342 و 345) تعد من الحملات الفريدة في حروب القرون الوسطى — كما يقول المستشرق كانار — وقد اضفى بها على حلب حلة من المجد ولهذا لايرد اسمه في المؤلفات البيزنطية الا مقرونا بالملعنة والشتيمة .

فترة مابعد سيف الدولة

هذه الفترة ليست في الواقع حروبا حمدانية بيزنطية ولكنها حروب بين الروم واعداء جدد (الفاطميين) لم يلعب الحمدانيون فيها الا دورا ثانويا . وكان ضعفهم وتنازعهم الداخلي وعداء البويهيين لامارتهم في الموصل والفاطميين لامارتهم في حلب كافيا لكي لايجعلهم اعداء لبيزنطة بقدر ماكانوا فريسة لها . كانوا خسروا كليكيا وجيوش الروم دوما على ابواب الجزيرة كما كان الفاطميون يملكون حتى طرابلس ولم يظهر في الحمدانيين شخصية عسكرية تعدل سيف الدولة فلم يجد اخلافه غضاضة في الخضوع وفي التبعية للروم .

وكان الروم بالمقابل يهاجمون دوما فلم تصل حملة لارضهم وقد لاح من كلام نقفور واعماله مشروع استرداد سورية والارض المقدسة .

يقول كمال الدين : " انه صعد المنبر (في جامع طرسوس) وقال لاصحابه اين تظنون اني قائم ؟ قالوا : على منبر جامع طرسوس قال : ولكن على منبر القدس فقد كان هذا يمنع ذلك " .

وسواء صحت هذه القصة أم لم تصح فان فكرة حرب صليبية توسعية قد راودت خاطر نقفور والهبت مشاريعه .

ولم يجد الحمدانيون امامه سوى التملق والحيلة .

معاهدة سنة 359 / 569 : في نهاية سنة 968 ظهر نقفور من جديد على الحدود ودخل في (ذي القعدة 357 / أكتوبر 968) ديار مضر ثم وصل ارزن وميافارقين ثم عاد فدخل سورية وفر الامير الحمداني الى بالس تاركا حلب بحماية غلامه قرغوية . ومشى الامبراطور نحو انطاكية فهددها ثم تركها يمر بمعرة مصرين ثم بمعرة النعمان وكفر طاب وشيزر وحماه وحمص ويصلي في كنيستها ثم بعرقة وطرابلس ويعود نحو انطاكية عن طريق الساحل الطرسوس ومرقية وجبلة واللاذقية ولكنه لم يستطع احتلال المدينة بسبب نقص المؤن وكثرة الامطار . وحين عاد كان قد قضى شهرين بتخريب البلدان السورية وجوامعها وساق وراءه جموعا من الاسرى .

وقد استطاع احد قواده بعد سنة (أكتوبر 969) ان يحتل انطاكية . وكانت منذ زمن طويل غير تابعة لامارة حلب كما كانت حلب نفسها قد خرجت من يد الحمداني لقرغويه وجاء ابو المعالي لحصارها فاستنجد قرغويه بالقائد البيزنطي الذي فتح انطاكية واضطر الحمداني لفك الحصار عنها . . ولما وصل الروم اضطر صاحب حلب بعد ان حاصروه لمفاوضتهم واعلان خضوعه للامبراطور في معاهدة .

العمليات في سوريـــــة : لم تكن الحملة الكبرى التي قادها جنازتزيمسيز فوصل بها بعلبك ، ضد أبي المعالي الحمداني ولا ضد امارة حلب ولكنها جزء من مشروع نقفور ، وقد احتـــل الامبراطور البيزنطي حمص (ومن الغريب ان المؤرخين لا يشيرون الى وجود ابي المعالي بها) واحتل وهو عائد حصن برزويه وحصن صهيون وعددا من المواقع على الساحل كانت تابعة للحكــم البيزنطي بموجب معاهدة حلب ولكنها كانت عمليا تنكره .

تجديد معاهدة حلب مع الحمدانـــــي : ظل قرغوية ومن بعده بكجور يدفعان الجزيـــة السنوية للقسطنطينية حتى استولى ابو المعالي الحمداني على حلب سنة 367 / 977 .
وكان منتظرا الا يعتبر أبو المعالي نفسه مقيدا بمعاهدة قرغويه وبكجور او مرتبطا مع الروم بعقد لم يوقعه . ولهذا ساق الدمستق برداس فوقاس (وهو ابن ليون فوقاس) حملة ضد حلب سنـــة 371 وأجبر الحمداني في معركة امام احد ابواب المدينة (باب اليهود) على دفع الجزيـــة وتجديد المعاهدة .
وفهم أبو المعالي انه رغم اعترافه بنفوذ عضد الدولة البويهي لا يستطيع الخلاص من السيطـــرة البيزنطية .
وأفادت هذه المعاهدة أبا المعالي حين جاء بكجور بجيش فاطمي يحاصر حلب . فقد جاء برداس فوقاس فجعله يتركها وأخذ من صاحبها الحمداني جزية سنتين (800) الف درهم ولحق بكجـور في حملة تأديبية قاسية حتى حمص مخربا كل مايجده في طريقه ، خانقا في الكهوف من التجأ اليها سائقا من يجده في المدن اسرى ، ويظهر من قول بعض المؤرخين انه حاول الفتح المنظم فقد احتل اولا كلس في شمال حلب ثم رمى بالآت الحصار افامية وكفر طاب ولعل هذه الحملة لم تكن لمعونة الحمداني بل لعقوبته بسبب تأخر جزيته ، واتصاله بالفاطميين وبعض اعماله ضد البيزنطيين في منطقة (كالهجمة على دير سمعان) وفي مطلع سنة 376 جددت المعاهدة بين الحمدانيـين والبيزنطيين بعد ان اصبح برداس فوقاس حاكم انطاكية ودوقاسا على المشرق (دوق) .
وظل أبو المعالي في حماية بيزنطة حتى حاصره بكجور مرة اخرى سنة 381 (991) ودافـع عنه حاكم انطاكية بأمر من الامبراطور وتوفي ابو المعالي بعد ذلك بقليل .

امارة حلب في الحروب بين بيزنطة والفاطميين : لا يمكن القول حتى موت سعد الدولة ان بيزنطة كانت في حالة حرب سافرة مع الفاطميين رغم تجمعات اعوان القاهرة على حلب . بل لقد اضطــر الامبراطور باسيل الثاني سنة 377 (987) لان يعقد معاهدة صلح مع الفاطميين (الخليفة العزيز) بسبب مشاكله الداخلية والخارجية . على ان الاوضاع تغيرت منذ قرر العزيز احتـــلال حلب وتوالت منذ سنة 382 (992) حتى نهاية حكم العزيز سنة 386 محاولات الاحتـــلال وخرقت الهدنة مع بيزنطة .

نظـــرة اخـــــيرة :بالرغم من ان القرن العاشر الميلا دي بدأ والجبهة الاسلامية هـــي المسيطرة على الحدود الرومية وانتهى والروم على ا بواب آمد وحلب وفي انطاكية وانطرطو س . الا انه لاشك ان الاسرة الحمدانية أوقفت القوى البيزنطية ما لايقل عن ربع قرن ولعله ما مـــن اسرة في الاسلام تعد بينها عددا يوازى عدد المجاهدين الكبار في هذه الاسرة : كسيـــف الدولة والحسين بن حمدان وناصر الدولة وأبي فراس وأبي المشائر وهبة الله عدا غلمانهم الكثر. وقد وضعت الظروف السياسية الحمدانيين في مقدمة البلاد الاسلامية فصاغت لهم بذلك قدرهم التاريخي في حالتي الظفر (ايام سيف الدولة) أو الانهيار (ايام خلفائه) . وما كان تراجعهم امام الزحف البيزنطي ناتجا عن ضعفهم وضعف العالم الاسلا مي من ورائهم فحسب بل كان ناتجا في الوقت نفسه عن نمو القوة البيزنطية العسكرية وتحولها الى عهد التوسع .

==================

الدولـــــة الفاطميـــــة

(مختصر من كتاب تاريخ الاسلام السياسي : للدكتور حسن ابراهيم حسن الجزء الثالـــث ـ الطبعة القديمـــة)

---

1 ـ رياسة الدعــــوة : ادى تضييق الخلفاء العباسيين الخنـاق على الشيعيين عامة الى اختفاء أئمة الاسماعيلية ونشر دعوتهم في السر وفي بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسيـــة ليدرؤوا عن انفسهم ماأضمرة لهم العباسيون من حنق ونقمة . حتى ان محمد بن اسماعيل فـــر الى الري ، ثم استقر اخيرا بقرية نسب اسمها اليه وهو : محمد آباد . وسار ابنائه علــى منواله ، فاختفوا في خراسان ، وفي اقليم قندهار ، وفي السند ، وأخذ دعاتهم يجوبون البـــلاد لجذب الاشياع لهم .

وقد اتخذ أئمة الاسماعيلية مدينة سلمية من اعمال حماة بسوريا مركزا لنشر دعوتهم .وكانــوا يبعثون منها الدعاة الى كافة الاقطار الاسلامية ، ويعهدون في تنظيم الدعوة الى كبار الدعـاة الذين كان يطلق عليهم في هذا الدور ، وهو دور الستر ، نواب الأئمة أو الحجج ، وهـــؤلاء يرسلون دعاة من قبلهم لنشر المذهب الاسماعيلي في ارجاء العالم الاسلامــــــي .

ومن اشهر نواب الأئمة الاسماعيلية الذين انبروا لنشر هذا المذهب ، وكانت اليهم رياســة الدعوة ، ميمون القداح الذى وضع أسس المذهب الاسماعيلي ، حتى اعتقد بعض المؤرخيـــن انه هو محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق نفسه ، واعتقد بعض آخر انه كان يصدر في عملـــه

عن ميول شعوبية ترمي الى مقاومة الاسلام واعادة النفوذ الى الفرس ، وانه انما اتخذ قداحة العيون أو تطبيبها (هي عملية استخراج ماء من العيون) وسيلة لاخفاء اغراضه الاصلية وهي نشر المذهب الاسماعيلي ، ومهد بذلك لابنه عبد الله بن ميمون .

ووصف المقريزى عبد الله فقال : انه كان عالما بجميع الشرائع والمذاهب والسنن ، وانه اعتنق مذهب الشيعة ، لا للدعوة الى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق أو ابنه محمد ، انما وسيلة لتكوين دولة فارسية ، ويعتبر عبد الله المؤسس الحقيقي للمذهب الاسماعيلي الذى انتشر بين القرامطة وغيرهم .

وذكر النويرى أنه "كان من كبار الشعوبية رجل يسمى محمد بن الحسين بن جهار نجبار ، الملقب دندان ، وهو بنواحي الكرج واصبهان ، له حال واسعة وضياع عظيمة ، وهو المتولي على تلك المواضع ، وكان يبغض العرب ويذمهم ، ويجمع معايبهم .وكان كل من طمع في نواله تقرب اليه بذم العرب ، فسمع به عبد الله بن ميمون القداح ، ومايتنحله من بغض العرب وصنعه النجوم ، فسار اليه ، فاحضره دندان ، وفاتحه الحديث ، فوجده كما يحب ويهوى ، واظهر له عبد الله من مساوىء العرب والطعن عليهم اكثر مما عنده ، فاشتد اعجابه به وقال له : مثلك لاينبغي ان يطلب ، وان قدرك يرتفع ويجل عن ذلك ، فقال : انما جعلت ذلك ذريعة لما وراءه ، أ لقينه الى الناس والى من اسكن اليد على مهل ورفق من الطعن على الاسلام .

فاستوصد دندان ذلك وسر به ، وبعث لعبد الله القداح الفي دينار ، فقبل المال وفرقه في كور الاهواز وسواد الكوفة وبطالقان وخراسان ، وسلمية من ارض حمص .

اتخذ عبد الله الاهواز مركـــزا لنشر دعوته ، ولما اتصل خبره بواليها اضمر له الشر ففر الى البصرة ، وأقام في اسرة عقيل بن ابي طالب ، مدعيا انتمائه اليهم ، فحامت حولـــه الشبهات فرحل الى الشام واقام في سلمية الى ان مات بها .

وقد وضع عبد الله بن ميمون اساس الدعوة لبث عقائد المذهب الاسماعيلي أو مذهب السبعيـــة الذى يدعو الى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وابتدع لذلك الدعوة منظمة قسمها الـــى سبع درجات أو مراتب ، زيدت بعده حتى اصبحت تسعا في ايام الفاطميين . ولم يمت عبد الله حتى كانت الدعوة الاسماعيلية قد راجت في كثير من البلاد الاسلامية على ماسنرى .

خلفاء ابن ميمون القـــداح : لما مات عبد الله بن ميمون القداح خلفه في رياسة الدعـــوه الاسماعيلية ابنه احمد . ويرى ابن النديم ان الذى خلف عبد الله ابنه محمد . وذكر ابن عذارى والمقريزى والنويرى أن احمد هو الذى خلف اباه عبد الله وانه كان يلقب ابا الشلعلع . ويظـــهر ان عبد الله اتخذ من سلمية مركزا رئيسيا لنشر الدعوة ، وعين ابنه الحسين لرياسة الدعوة بهـــا ، كما عين ابنه احمد ابا الشلعلع في رياسة الدعوة في بعض مدن العراق ، وخاصة الكوفـــة وبغداد ، وعين احد اولاده لرياسة الدعوة في فارس . ولما مات الحسين بن عبد الله حـــول

سنة 260 هـ عهد عبد الله الى ابنه احمد ابي الشلعلع برياسة الدعوة في سلمية والعراق.

ومن ثم انتقلت اليه رياسة الدعوة بعد موت ابيه حول سنة 270 هـ ، واصبح وصيا على سعيد ابن اخيه الحسين الذي يزعم بعضهم انه عبد الله المهدي اول الخلفاء الفاطميين وقد بعث احمد هذا ابن حوشب لنشر الدعوة في اليمن ، كما بعث ابا عبد الله الشيعي الى اليمن فتلقى اصول الدعوة على ابن حوشب قبل رحيله الى المغرب .

ابو عبد الله الشيعي في بلاد المغرب : اتصل ابو عبد الله الحسن بن احمد بن محمد ابن زكريا ، وكان من اهل صنعاء باليمن ، بمحمد الحبيب ابي عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ، الذي آنس فيه الكفاية والذكاء ، فأرسله في سنة 278 هـ الى بلاد اليمن ، حيث اخذ اصول الدعوة الاسماعيلية التي نشرها عن ابن حوشب ولم يلبث ان اصبح من كبار اصحابه .

وكان ابو عبد الله يعتنق اول الأمر عقائد الاثني عشرية ، كما كان يعرف بالمعلم ، لانه كان يقوم بتعليم هذا المذهب قبل ان يعتنق مذهب الاسماعيلية . وقيل ايضا انه تولى الحسبة في احد اعمال بغداد .

ولما اتصل بابن حوشب موت الحلواني وابي سفيان داعي الاسماعيلية في المغرب ، عهد الى ابي عبد الله الشيعي بنشر الدعوة في تلك البلاد وقد سافر الى مكة حيث التقى بحجاج كتامة وصحبهم الى مصر وجذبهم اليه ببلاغته فطلبوا اليه المسير معهم الى بلادهم . ولما وصل بلادهم وهي في الجزائر اليوم (ربيع الاول 288 هـ) ، نزل بفج الأخيار بجبل وايكجان من ارض كتامة على مقربة من قسنطينة وأخذ ينشر دعوته بمساعدة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة . وقد حاول ابراهيم الثاني الاغلبي (261 ـ 289هـ) ان يجتذب ابا عبد الله اليه . ولما اخفق في محاولته ارسل اليه حملة (287 هـ) انتهت بالاخفاق ، كما ارسل اليه حملة اخرى حلّت بها الهزيمة ايضا .

وبالرغم من معاضدة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة كان مركز ابي عبد الله الشيعي محاطا بكثير من المصاعب ، فقد اثارت مساعدة هؤلاء لدعوته حنق كثير من زعماء المغاربة وفقهائهم . على ان هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا ان ينالوا منه ، لما اوتيه من الفصاحة والعلم والذكاء ، كما تمكن من القضاء على المؤامرات التي حاكها البربر ليحولوا دون نشر دعوته " فتكاثر الداخلون في طاعته رغبة ورهبة ، وتوافرت جموعه ، وقوى امره " واستقام له امر البربر وعامة كتامة.

وسقطت في يد داعي الشيعة مدن كثيرة . ومما ساعد على مدّ فتوحه ، موت ابراهيم الثاني الاغلبي سنة 289 هـ (902م) ، ولحاق ابنه ابي العباس عبد الله به في السنة التالية ، وتولية ابنه زيادة الله (290 ـ 296 هـ) الذي قضى ايامه في اللهو والترف ، وميل وزرائه الى عقائد المذهب الشيعي الذي اعتنقه اهالي هذه البلاد . ولم يلبث ابو عبد الله ان مدّ نفوذه الى جميع البلاد الواقعة الى الغرب من مدينة للقيروان التي أسسها عقبة بن نافع الفهري

في القرن الاول الهجرى ، وتبعد اربعة اميال عن مدينة رقادة .

ولم تنقطع الحرب بين جيوش ابي عبد الله الشيعي ، وجيوش زيادة الله الاغلبي بين سنتي 291 ، 296 هـ . وتعد موقعة الأربس من المواقع الحاسمة ، لانها ادت الى زوال دولة الاغالبة بافريقية ، واستقرار نفوذ الفاطميين ، وأدت الى فرار زيادة الله من رقادة ودخل ابي عبد الله الشيعي اليها والى القيروان ، ثم تخليص عبيد الله المهدى من سجنه بسجلماسة .

اتبع ابو عبد الله الشيعي سياسة تنطوى على الحكمة وبعد النظر ، واقرار العدل بين الناس ، كما يتبين من هذه الحكاية التى رواها ابن عذارى ، وهي ان ابا عبد الله لما استولى على مدينة طبنة في سنة 293 هـ أتاه والي هذه المدينة بعض عمال الجباية واعطوه الاموال التي جبوها من الاهلين ، فقال عبد الله لاحدهم : من اين جمعت هذا المال ؟ فقال له : من العشور ، فقال ابو عبد الله : انما العشور حبوب وهذا عين ، ثم قال : لقوم من ثقات طبنة : اذهبوا بهذا المال ، فليردّ على كل رجل ماأخذ منه ، واعلموا انهم امناء على مايخرج الله لهم من ارضهم ، وسنة العشور معروفة في أخذه وتفرقته على ماينصب كتاب الله عز وجل . ثم قال لآخر : من اين هذا المال الذى بيدك ؟ قال جبيته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضى عليهم، فقال : وكيف اخذته عينا ؟ وانما كان يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغني ثمانية واربعين درهما ، ومن المتوسط اربعة وعشرين درهما ، ومن الفقير اثني عشر درهما ؟ فقال له : اخذت العين عن الدراهم بالظرف الذى كان يأخذه عمر رحمه الله ، فقال ابو عبد الله : هذا مال طيب ، ثم امر احد الدعاة بان يفرقه على اصحابه . وقال لمن أتاه بمال الخراج : هذا مال لاخير فيه ولاقنى له ولاخراج على المسلمين في اموالهم . ثم أمر ثقات أهل طبنة برده على اهله ، وقبض مال الصدقة من الابل والبقر والغنم بعد ان قيل له انها قبضت الانعام على الاسنان الواجبة في الصدقات ، ثم بيعت وجمعت اثمانها ، فرضي بذلك وتجوّزه . فلما نظر اهل طبنة الى فعله سرّوا به ورجو ان يستعمل فيهم الكتاب والسنّة ، وانتشر فعله في نواحي افريقية ، فتاقت أنفس الناس اليه وكاتبوه ودخلوا في طاعته .

وكذلك يدلنا على حسن سياسة ابي عبد الله الشيعي ، هذا الحديث الذى دار بينه وبين اخيه ابي العباس حين اراد ان ينشر المذهب الاسماعيلي بين الناس بالعنف والاكراه ، فمنعه ابو عبد الله . يقول النويرى : " لما وصل ابو العباس ، اراد ان ينفي عن القيروان من يخالف مذهبه ، فقال ابو عبد الله : ان دولتنا دولة حجة وبيان ، وليست دولة قهر واستطالة " فاترك الناس على مذاهبهم " .

بذلك استطاع ابو عبد الله الشيعي ان يجهر بالدعوة لعلي وفاطمة ، فأمر بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الحسين وفاطمة ، وضرب السكة منقوشا على احد وجهيها

بلغت الحجة الله ، وعلى وجهها الآخر : " تفرق اعداء الله " . وكتب على السلاح " عدة في سبيل الله " ونقش على خاتمة الذي يختم به " فتوكل على الله انك على الحق المبين وعلى خاتمه الذي يستخدمه في الطبع على السجلات " وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته " . واذا ركب نودي في الجيش " ياخيل الله اركبي " . وكتب على افخاذ الخيل " الملك لله " وعلى اعلامه " سيهزم الجمع ويولون الدبر " .

وبذلك تكللت جهود الاسماعيلية في دور الستر بالنجاح . وتكونت لهم في شمال افريقيا دولة عرفت بأسم الدولة الفاطمية ، كما عرفت ايضا بأسم دولة العبيديين ، نسبة الى عبيد الله المهدي مؤسس هذه الدولة .

الدولة الفاطمية :
في بلاد المغرب ومصر) 297 ـ 567 هـ = 909 ـ 1171 م

عبيد الله المهدي (296 ـ 322 هـ) :ـ اختلف المؤرخون في نسب الفاطميين مذاهب شتى : فبعضهم يقول انهم ينتسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، ومن دعوا بالاسماعيلية ايضا ، وبعضهم ينكر صحة نسبهم الى اسماعيل ، ويقول انهم يرجعون في نسبهم الى رجل فارسي هو عبد الله بن ميمون القداح الاهوازي ، الثنوي المذهب ، الذي يقول بوجود الهين اثنين : اله النور واله الظلمة .

ولد سعيد بن محمد الحبيب في سنة 259 هـ في سلمية ، التي اتخذها الاسماعيلية مركزا لدعوتهم . وكان ابوه قد ارسل في سنة 270 هـ احد أشياعه ، ويسمى رستم ابن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي ، الى بلاد اليمن ، لنشر الدعوة الفاطمية فيها .

وسرعان مااعتقد اهالي اليمن في المهدي من آل علي وانتظروا ظهوره ، بفضل جهود ابن حوشب الذي ابتنى حصنا بجبل لاعة باليمن وتغلب على معظم ارجائها ، وبعث دعاته الى اليمامة والبحرين والسند والهند ، ومصر والمغرب . ولما اتصل بابن حوشب موت الحلواني وابي سفيان داعيي الاسماعيلية في بلاد المغرب عهد الى ابي عبد الله الشيعي وكان من اهل صنعاء بنشر الدعوة في بلاد المغرب . ولما استقر به المقام في هذه البلاد صادفت دعوته شيئا كثيرا من النجاح ، ارسل الى سلمية يدعو عبيد الله (المهدي) للحضور الى افريقية ، فرحب بهذه الدعوة . ولكن الخليفة العباسي المقتدر (295 ـ 320 هـ) علم بذلك فأمر بالقبض عليه .

من ذلك نقف على مدى الصعاب التي لقيها عبيد الله المهدي في طريقه الى المغرب ، وكيف افلت من القبض عليه في مصر حيث ظهر في زي التجار ، وكيف استغل الاموال الكثيرة التي حملها معه من سلمية في رشوة بعض الولاة في طريقه الى المغرب ليأمن الوقوع في ايديهم وكيف افلت من ايدي عمال زيادة الله بن الاغلب امير افريقية الذي وضع الارصاد والعيون

للقبض عليه . ولكن اليسع ابن مدرار امير سجلماسة ، التي اتخذها بنو مدرار حاضرة لولايتهم منذ سنة 160 هـ ، لم تجد معه الرشوة نفعا ، وسرعان ماقبض علي عبيد الله المهدي وحبسه ، ثم أخذ ابو عبد الله يواصل فتوحه ، على الرغم من وقوع المهدي في يد اليسع ، ويمد نفوذه على معظم ارجاء المغرب ، واستطاع اخيرا ان يدخل رقادة (رجب سنة 296 هـ) التي اتخذها ابراهيم الثاني الاغلبي (289 - 961م) مقرا لامارته ، ويزيل نفوذ الاغالبة ، ويبطل اسم الخليفة العباسي من الخطبة .

ظل عبيد الله المهدي في حبسه بسجلماسة ، حتى تم لداعي الشيعة الفتح والنصر ، فسار في قوة كبيرة الى هذه المدينة ، ولما سمع اليسع بن مدرار بوصول ابي عبيد الله الشيعي اليها ، هرب ليلا وحمل معه اقاربه وامتعته ، واطلق داعي الشيعة عبيد الله المهدي من سجنه (رجب 296 هـ) .

قرب المهدي من القيروان ، حيث سلم عليه اهلها بالخلافة ، وبايعوه على الطاعة ، وذكر اسمه في الخطبة ، وتلقب " المهدي بأمير المؤمنين " . ولم يلبث ان قسم على روءساء كتامة ، الذين ساعدوه على اقامة دولته ، ثم دون الدواوين اعمال هذه الدولة ، وجبى الاموال واستقر قدمه في هذه البلاد . وقد قتل عبيد الله المهدي داعيته وموطد اركان دولته أبا عبد الله الشيعي وكان موقف عبيد الله من داعيته كموقف المنصور العباسي من أبي مسلم الخرساني الذى كان جزاوءه القتل كذلك .

ولم يكتف عبيد الله المهدي بما احرزته جيوشه من نصر ظاهر وظفر ، وما استولت عليه من بلاد ، بل عمل على مدّ سلطانه الى مصر ، ووضع على أثر تأسيس دولته في القيروان ، الخطط لتحقيق سياسته ، وأعد في سنة 301 هـ (913م) جيشا من المغاربة تحت قيادة ابنه وولي عهده ابي القاسم ، وحباسة بن يوسف ، احد زعماء كتامة ، واستولى هذا الجيش على برقة ، ثم واصل السير ، حتى استولى على الاسكندرية ، وسار الى الوجه البحرى . ولكن الخليفة المقتدر العباسي بعث موءنسا الخادم على رأس جيش كبير ، قيل انه بلغ اربعين الفا أحل الهزيمة بالجيش الفاطمي وارغمه على العودة الى المغرب .

وفي سنة 307 هـ سار الى مصر جيش آخر بقيادة ابي القاسم بن المهدي واستولى على الاسكندرية ، فارسل الخليفة العباسي موءنسا الخادم الذى الحق الهزيمة بالفاطميين ، واحرق كثيرا من مراكبهم ، وارغمهم على العودة الى بلادهم (سنة 309 هـ) . ويقول الكندي عن الحملة الفاطمية الثالثة ظلت ثلاث سنين (321 - 324 هـ) وان معاهدة الصلح ابرمت بين الفريقين في سنة 322 هـ ولكن هذا الصلح لم يطل امده فقد انضم بعض زعماء المصريين الى جيش المغاربة الذى دخل الاسكندرية في ربيع الثاني سنة 324 هـ فبعث اليهم الاخشيد جيشا احل بهم الهزيمة وارغمهم على العودة لبلادهم .

على ان هذه الجهود التى قام بها الفاطميون في سبيل الاستيلاء على مصر ، لم يكن قد حان جني ثمارها ، اذ كان لابد من تأجيلها طوال عهد المهدى ، لان الخليفة العباسي كان لايزال من القوة بحيث يستطيع دفع الفاطميين عن هذه البلاد ، وكان على هؤلاء ان يعملوا للتغلب على سلسلة المصاعب الداخلية التي كان يثيرها وجههم الخوارج بالمغرب حينا بعد حين .

أقام عبيد الله المهدى بالقيروان التي اتخذها حاضرة لدولته الى سنة 303 هـ الى ان اختط مدينة المهدية على بعد مرحلتين جنوبي القيروان ، وقد ظلت هذه المدينة آهلة بالسكان الى سنة 543 هـ ، حين ارسل روجر النورمندى صاحب صقلية احد قوادة فاستولى عليها ، وبقيت في ايدى الفرنجة الى ان استولى عليها عبد المؤمن في سنة 555 هـ وقد مات عبيد الله المهدى في سنة 322 هـ .

القائم والمنصور (322 ـ 341 هـ)

ولى ابو القاسم الخلافة بعد أبيه عبيد الله المهدى ، وتلقب بالقائم ويقول الذهبي ان القائم كان كثيرة من الخلفاء الفاطميين ، ينقم على السنيين ، حتى انه امر بلعن الصحابة ، وان ذلك اثار غضب المغاربة ، وخاصة الخوارج الذين ثاروا على الفاطميين .

وكان اشد هذه الثورات خطرا واشدها بلاء ، تلك الثورة التي اشعل نارها ابو يزيد مخلد بن كيداد ، والتي استمرت طوال عهد القائم ، ولم تخمد الا في عهد ابنه المنصور

توفي الخليفة القائم في شهر رمضان سنة 334 هـ ، وخلفه ابنه ابو الطاهر اسماعيل الذى تلقب بالمنصور (334 ـ 341 هـ) . وقد ولد بالقيروان سنة 302 هـ (وقيل سنة 301 هـ) ، وكان حين ولي الخلافة في الثانية والعشرين من عمره ، وقد اشتهر الخليفة الجديد بالشجاعة ورباطة الجأش ، كما استطاع ان يؤثر في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب .

ثورة أبي يزيد :— وقد اخفى المنصور موت ابيه ، حتى لايؤثر في حماسة جيوشه ، التي كانت مشغولة بثورة ابي يزيد . وقد انقطعت العلاقات بين مصر وبلاد المغرب طوال عهد هذا الخليفة . لانه قصر كل همه ،وأنفق كل موارد بلاده للقضاء على هذه الثورة التى شملت كل ارجاء الدولة الفاطمية .ولما ولى المنصور الخلافة قويت جيوشه بانضمام صنهاجة وغيرها الى المهدية حيث مات متأثرا بجراحه (30 محرم 336 هـ) .

وقد تركت هذه الثورة شمال افريقية في حالة يرثى لها ، وأثرت في موارد الدولة الفاطمية ، حتى اصبح بيت المال خلوا من الصفراء والبيضاء كما يقولون . وقضى الخليفة الفاطمي المنصور البقية الباقية من خلافته في اصلاح ماأفسده ابو يزيد واعادة تنظيم بلاده ، فعمر البلاد واعادها الى ماكانت عليه قبل نشوب هذه الثورة ، وأنشأ اسطولا كبيرا ، وأسس مدينة

المنصورية في سنة 337 هـ على مقربة من القيروان ، واتخذها حاضرة لدولته ، وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الفاطميين ، الى ان قدم ابنه المعز لدين الله الى مصر سنة 362 هـ ، واتخذ القاهرة التى بناها جوهر في سنة 358 هـ حاضرة لدولته كما سيأتي . ويرجع الفضل فيما احرزه المنصور من نصر على ابي يزيد ، الى شجاعته واقدامه ، والى فصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب . وقد حكم المنصور سبع سنين وستة أيام ، ومات في يوم الجمعة آخر شوال سنة 341 هـ ودفن بالمهدية. وقد قيل في سبب موته انه خرج من المنصورية حاضرة ملكه للتنزه ، فاشتد هطول المطر وهبوب الريح ، حتى فاجأه المرض وأوهن جسمه ومات اكثر من كان معه . ولما دخل المنصورية اراد ان يدخل الحمام فنهاه طبيبه اسحق بن سليمان الاسرائيلي ، فاشتد عليه المرض ولازمه الارق فاعطاه منوما فمات .

المعز لدين الله (341 ـ 395 هـ)

1 ـ المعز قبل فتح مصر : كان المعز مثقفا يجيد عدة لغات : منها اللغة الطليانية التى تعلمها في صباه بجزيرة صقلية ، واللغة الصقلية التى كانت منتشرة في هذه الجزيرة ، كما عرف اللغة السودانية وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب ، فضلا عما عرف به من حسن التدبير واحكام الامور كما كان عليه آباؤه من قبل .

وفي عهده دانت له كافة قبائل البربر ، وأهمها قبيلتا بني كملان وبني مليل من قبائل هوارة ، وقد أبتا ان تزعنا للخلفاء الفاطميين من قبله . ويرجع الفضل في امتداد نفوذ المعز على كافة المغرب ، الى جوهر الصقلي وزيرى بن مناد الصنهاجي .

وقد بعث الخليفة جوهرا على رأس جيش كثيف لفتح مابقي من بلاد المغرب ، وكان هذا الجيش يضم كثيرا من رجالات المغاربة . وقد امعن جوهر في بلاد المغرب الاقصى يفتح مدنها مدينة تلو مدينة حتى وصل الى ساحل المحيط الاطلسي ، وارسل الى مولاه المعز هدية من سمك هذا المحيط ، اشعارا ببلوغ نفوذه اقصى بلاد المغرب غربا .

ولما دانت بلاد المغرب جميعها للمعز فكر في فتح مصر . ولاغرو فقد حاول الفاطميين فتح هذه البلاد من اجل ثروتها وهدوء الامر فيها ، واهمية موقعها الجغرافي من الناحيتين السياسية والحربية وقربها من بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، التي كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين . ذلك الى ان نجاح الفاطميين في فتح مصر يسهل عليهم الاستيلاء على المراكز الاسلامية القديمة ، وهي المدينة المنورة ودمشق وبغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين .

2 - فتح مصـــــر : من العوامل التى شجعت الخليفة المعز لدين الله الفاطمي على فتح مصـر ، استتباب الأمن في كافه ارجاء ابلاد المغرب بعد اخماد ثورة ابي يزيـد وانتشار الاضطرابات والفوضى في مصر اثر وفاة كافور سنة 358 هـ وضعف الخلافة العباسيـة واشتغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها . اضف الى ذلك تأييد الشيعيين في مصر للدعوة الفاطمية ، حتى انهم كتبوا الى المعز يطلبون اليه ارسال جيش لفتح هذه البلاد . وكان ليعقوب بن كلّس ، الذى استوزره كافور ، ثم هرب الى بلاد المغرب واتصل بالمعز اثر كبير في بيان حالة الضعف التي سادت مصر على اثر وفاة كافور . وحثّ الخليفة على المبادرة بارســال جيوشة اليها .

كان الاستعداد لفتح مصر قائما على قدم وثاق ببلاد المغرب منذ سنة 356 هـ (967م) فقد أمر الخليفة المعز بانشاء الطرق وحفر الآبار في الطريق ، واقام المنـازل على رأس كل مرحلة ، وجمع الاموال لنفقات هذه الحرب ، وجعل كاتبه جوهر الصقلي علـى رأس الجيوش التي أعدّها لغزو مصـــر . وفي اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الاول سنة 358 هـ.

سار جوهر نحو مصر ، زمرّ على برقة ، ثم استأنف المسير الى الاسكندرية ، ففتحت لـــه ابوابها من غير مقاومة ، ومنع جنده من التعرض للاهلين واستطاع ان يكبح جماح عساكره الذين وسّعت لهم الارزاق . ولما اتصل باهل الفسطاط نبأ وصول جيوش الفاطميين الى الاسكندرية واستيلائهم عليها ، ندبوا الويزير جعفر بن الفرات لمفاوضة جوهر في الصلح ، فاجابه جوهر الى ما طلب ، وكتب له عهدا فيه بأن يطلق للمصريين حرية العقيدة على اختلاف اديانهـم ومذاهبهم . وان يقوم بما تتطلبه البلاد من وجوه الاصلاح ، كما تعهد بنشر العـدل والطمأنينة في النفوس، بحماية مصر من عدوان المغيرين عليها .

ولما اتصل بالخليفة المعز نبأ فتح مصر ، سرّ سرورا عظيما ، وانشده شاعره محمد ابـن هانئ الاندلسي قصيدة طويلة جاء في مطلعها :

تقــول بنــو العباس هل فتحت مصـر فقل لبني العباس قد قضي الامر

وهكذا زال سلطان الاخشيديين والعباسيين عن مصر ، واصبحت البلاد ولاية فاطميـة وتحقق حلم الخليفة المعز ، ومن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين في تحويل حاضرة خلافتهم الى مصر ، واتخاذها مركز امبراطوريتهم الشاسعة الارجاء .

3 - امتداد سلطان الفاطميـــــين :- ولما تمّ لجوهر الصقلي فتح مصـر سنـــة 358 (961م) ، عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر حاضرة لولايته ووضـــع اساس مدينه القاهرة في 27 شعبان 358 وحاطها بسور كبير من اللّبن .وجهّ جوهر همّـه لمدّ نفوذ الفاطميين الى بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، التي كانت تابعة لمصر منذ ايـام الطولونيين كما تقدم . لذلك عهد الى جعفر بن فلاح احد قواد المغاربة من قبيلة كتامة بهذا الفتح ، لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة ، ولان جوهرا اراد بذلك ان يمده

عن مصر ، حتى لاينافسه في حكمها . ولما وصل جعفر الى الرملة ، لقيه جيش الحسن بن عبيد الله بن طفج والي الرملة ودمشق ، ودارت الدائرة على الحسن ، وأسر مع كثير من جنده ، وسيق الى الفسطاط ، ثم ارسل الى بلاد المغرب فبقي بها الى ان مات سنة 371 هـ .

استأنف جعفر السير الى طبرية واستولى عليها من يد واليها فاتك ، الذى كان يليها من قبل الاخشيديين ، دون ان يلقى مقاومة تذكر . ثم دخل دمشق في المحرم سنة 359 هـ ، واشعل النار في اسواقها ، وأذكى الفتنة بين اهلها الذين لعنوا الفاطميين على المنابر ولكنهم لم يجدوا بدًا ، امام قوة جعفر بن فلاح ، من طلب الأمان ، وخطب جعفر للخليفة الفاطمي على منابر دمشق في المحرم سنة 359 هـ . ولكن جعفر بن فلاح لم يحذو حذو جوهر في كبح جماح جنده ، والتأليف بين اهالي هذه البلاد ، بل حث المغاربة على قتل زعماء الشاميين ، وأثار نفوس الاهلين فلم يخلصوا له . واستمروا يدبرون الفتن والمؤامرات للخلاص

من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم في المذهب الديني . وكان من أثر سياسة جعفر بن فلاح ان استنجد اهل الشام بالقرامطة والاتراك ، الذى تفاقم خطرهم في عهد الخليفة الفاطمي المعز ، ولم يتم القضاء عليهم الا في عهد ابنه العزيز .

4 — قدوم المعز الى مصر : — بعد ان فرغ جوهر من بناء القاهرة وتأسيس الجامع الازهر ، واقامة الدعوة الفاطمية في فلسطين وسورية والحجاز ، بعث الى مولاه المعز رسولا ينبئه بذلك ، فسر سرورا عظيما ، وعزم على الرحيل الى مصر . وخرج من المنصورية حاضرة خلافته ، فوصل الى سردانية التي دانت هي وصقلية لسيادة الفاطميين واستخلف بلكين ابن زيرى بن مناد الصهناجي على افريقية وتوجه الى مصر باموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الاخطار ، وحمل معه جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافه قبله .

مر المعز على برقة ، ودخل الاسكندرية في يوم الجمعة 4 من شعبان 362 هـ (30مايو 973م) . ثم دخل القاهرة في يوم الثلاثاء 7 من رمضان 362 هـ ، (11 يونيو 973م) دون ان يمر على الفسطاط ، وكان الاهلون قد اقاموا له معالم الزينة على جانبي الطريق ، ظناً منهم انه سيشرفها بزيارته . ثم دخل بعد ذلك القصر الذى بناه له جوهر ، وخر ساجدا لله تعالى ، وصلى ركعتين في احدى ردهاته ، وصلى خلفه من كان معه .

واقام المعز اولاده وحاشيته وخدمه وعبيده في القصر ، وكان قد اعد به كل مايحتاج اليه
وفي اليوم التالي خرج اشراف مصر وقضاتها ووجهاؤها ورجال العلم فيها لتهنئة
الملوك ، ونزل جوهر في قصر أعده لنفسه يعرف بقصر الوزارة في القاهرة والاحتفاء به . وفي اليوم الخامس عشر من شهر رمضان 362 جلس المعز في الايوان الكبير من قصر على السرير الذى أعده له جوهر ، وأذن بدخول الناس عليه ، فدخل الاشراف ثم الأولياء [illegible] ووجوه المدينة . وكان جوهر يقدم الناس اليه طائفة بعد طائفة ، ولما فرغ من ذلك قدم الى مولاه المعز هدية

تدل على مقدار غنى مصر ورخائها . وبعد ان تقبل المعز ماقدم اليه من الهدايا والتحف أذن لجماعةالمهنئين بالجلوس في مجلسه ، وأمر باطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الاخشيديين والكافوريين وكانوا نحو الف .

وقد اصبحت مصر منذ ذلك الحين دار الخلافة ، بعد ان كانت دار امارة ، تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وغدت القاهرة بدل المنصورية ، مركز الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء . على ان نقل المعز مقر خلافته من المنصورية الى القاهرة ، افقد الفاطميين افريقية (تونس) ذلك ان بلكين بون زيرى بن مناد شيخ صهناجة احدى قبائل البربر ، سرعان ما اعلن استقلاله وأسس دولة الزيرية في سنة 362 هـ ، وحذا حذوه في ذلك الحمديون في سنة 398 هـ ولم تأت سنة 443 هـ حتى تقلص الحكم الفاطمي عن كل بلاد المغرب وذلك في عهد المستنصر الفاطمي .

وقد تسلم المعز مقاليد الحكم من جوهر الذى حكم مصر اربع سنين قبل وصول مولاه اليها وأخذ جوهر يتوارى عن مسرح السياسة المصرية ، ولم يعد الى الظهور الا في اواخر سنة 364 هـ حين تفاقم خطر الاتراك بزعامة افتكين ، وخطر القرامطة بزعامة الحسن بن احمد واستعصى على المعز كبح جماحهما ، فلجأ الى جوهر وولاه قيادة جيوشه . ويرجع اقصاء جوهر الى خوف المعز على نفوذه ان ينتقل اليه . وكان جوهر ، على الرغم من ذلك ، احسن حالا من غيره من القواد الفاطميين ، فقد قتل ابو جعفر اباسلم الخرساني ، الذى قامت الدولة العباسية على اكتافه ، وقتل عبيد الله المهدى ابا عبد الله الشيعي ، الذى انتشرت على يديه الدعوة الشيعية ، وتأسست الدولة الفاطمية في بلاد المغرب .

قضى المعز القسم الاول من خلافته في بلاد المغرب ، ولم يبق في مصر الا سنتين الا قليلا وفي عهده تأسست مدينة القاهرة ، وبني الجامع الأزهر ، وامتدت فتوح الفاطميين الى بلاد الشام وفلسطين ، وان كان نفوذهم لم يستقر نهائيا الا في عهد ابنه العزيز ، وخطب له على منابر الحجاز . وكان المعز ، كغيره من الخلفاء الفاطميين ، مغرما بعلم النجوم ، حتى كان يستشير منجمه في كل مايتعلق بحياته الخاصة وفي امور الدولة العامة ، كما اعتمد قائده جوهر الصقلي على المنجمين في تأسيس مدينة القاهرة وقد توفي المعز في شهر ربيع الآخر سنة 365 هـ ، بعد ان حكم اربعا وعشرين سنة .

العزيز بالله (365 — 386 هـ) : — يعتبر عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي عهد يسر ورخاء وتسامح ديني وثقافة . فلا غرو فهو اول من حول الجامع الازهر الى جامعة بمعناها المعروف الآن ، بعد ان كان معهدا خاصا بدراسة الفقه الشيعي واقامة الصلاة . ولد ابو منصور نزار الملقب بالعزيز بالله في يوم الخميس 14 المحرم 344 هـ بمدينة المهدية التي بناها عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية وقدم القاهرة مع ابيه المعز في سنة 362 هـ وخلفه في شهر ربيع الآخر سنة 365 هـ وهو في الثانية والعشرين من عمره .

1 — اتساع الدولة الفاطمية :— وقد اتسعت رقعة الدولة الفاطمية في عهد العزيز بالله

من بلاد العرب شرقا الى ساحل المحيط الاطلسي غربا ، ومن آسيا الصغرى الى بلاد النوبة جنوبا ، وزادت مملكته — كما يقول ابن خلكان — على مملكة أبيه ، وفتحت له حمص وشيزر وحلب وخطب له المقلد بن المسيّب العقيلي صاحب الموصل واعمالها في المحرم سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، وضرب اسمه على السكة والبنود ، وخطب له باليمن .

وفي ايام العزيز تفاقم خطر القرامطة وأفتكين ببلاد الشام وكان قد استعصى امرهما على ابيه المعز من قبل . ولم يكد العزيز يوطد سلطته في مصر ، حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين اللتين كانتا تابعتين لمصر في عهد الطولونيين والاخشيديين ، فوجه جوهر الصقلي لاستردادهما ولكنه اخفق ، وعاد الى مصر ، واشار على العزيز بحرب افتكين والقرامطة بنفسه . فالتقى العزيز بجيوشهما في الرملة ، ودارت الدائرة اخيرا على القرامطة وأفتكين (13 المحرم 368 هـ) وبذلك قضى الخليفة على هذه الفتنة بعد ان كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية الفتية ، وفرّ أفتكين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد ان بذل الخليفة الفاطمي لمن يأتي به مائة الف دينار .

2 — حالة الدولة الفاطمية : — وقد وجه الفاطميون في عهد العزيز الى بث اهتمامهم عقائد المذهب الشيعي ، واصبحت كل امور الدولة في ايدى الشيعيين ، أو بعبارة أخرى في ايدى المغاربة انصار الفاطميين ، وعزل ابو الطاهر القاضي السنّي ، وعين مكانه عبد العزيز ابن النعمان القاضي المغربي الفاطمي وقلّد العزيز يعقوب بن كلّس الوزارة (رمضان 368 هـ) ، فادار شؤون الدولة الفاطمية بمهارة وهمة . وقد بنى الخليفة العزيز كثيرا من المنشآت التي تدل على وفرة ثروة مصر في عهده منها القصر الغربي ، واهتم ببناء المساجد ، فأسس في سنة 380 هـ مسجدا اتمه ابنه الحاكم فنسب اليه ، وأسس قاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك وبنت الملكة تغريد زوجة المعز في عهده مسجد القرافة وقصر القرافة .

وقد نبغ في عهد العزيز طائفة من الشعراء والكتاب والاطباء والمؤرخين : ومن الشعراء ابو حامد الانطاكي الذى اقام بمصر زمنا طويلا ، ونظم معظم قصائده في مدح المعز والعزيز والحاكم ، وأشاد بذكر جوهر الصقلي ويعقوب بن كلّس . كما نبغ في الطبّ علي بن رضوان الذى ألف عدة كتب في الطب والفلسفة والمنطق . ونبغ الحسن بن ابراهيم بن زولاق الذى يعتبر حجة في تاريخ العصر الفاطمي الاول ، وابو الحسن على الشابشتي الذى ولاه العزيز خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه .

وكان العزيز رجلا متمتعا ، يميل الى الأبّهة ، كما كان خبيرا بالجواهر ، ابتدع نوعا جديدا من العمائم محلاة بخيوط الذهب ، وسروجا منطقة بالعنبر ، واقتنى كثيرا من الطرف يزين بها موائده ، وشغف — كخمارويه بن احمد بن طولون — بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان ، وكان مغرما بالصيد وخاصة صيد السباع ، وكان العزيز ذكيا

اديبا مستنيرا ، يجيد عدة لغات كأبيه المعز .

وكان العزيز فوق ذلك كريما محبا للعفو ، وصنيعه مع افتكين التركي خير مثل لذلك .

واشتهر العزيز بالتسامح الديني ، فكان يعطف على النصارى واليهود كما كان ابوه من قبله وتزوج بنصرانية ، وتوالى عطفه على الكنيسة القبطية ، وقلد عيسى بن نسطورس النصراني الوزارة ، كما عين منشا ابن ابراهيم اليهودي على بلاد الشام .

3 — موت العزيز :— ومات العزيز ببلبيس ، وكان قد خرج لحرب القرامطة ، في الثامن والعشرين من شهر رمضان 368 هـ ، وهو في الرابعة والاربعين من عمره .

الحاكم بامر الله (386 — 411 هـ) :— ولد ابو علي المنصور يوم الخميس لاربع ليال بقين من شهر ربيع الاول 375 هـ وقد عهد اليه ابوه في سنة 393هـ ، ثم بويع بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه ابوه ، وذلك في شهر رمضان 386 هـ ، وله احدى عشرة ونصف سنة ، وتولى الوصاية عليه مربيه واستاذه برجوان الخادم .

ويمكن تقسيم عهد الحاكم ثلاثة اقسام :—

الاول — من سنة 386 هـ الى سنة 390 هـ : وكان الحاكم في هذه المدة لايملك من امور السلطان شيئا ، اذ كانت السلطة في يد ابن عمار ، ثم في برجوان .

الثاني — من سنة 390 الى 395 هـ : وفيها كان للحاكم على حداثة سنه سلطة كبيرة أظهر فيها تعصبا شديدا للمذهب الفاطمي ، وبذلك اضطهد اهل الذمّة من ناحية ، والمسلمين من غير الشيعيين من ناحية اخرى .

ولكن الحاكم ، على الرغم مما أوقعه بأهل الذمّة فانه قلد الوزارة بعض النصارى ، كابن عبدون ، الذى تقلدها في سنة 400 ولكنه لم يلبث ان أقيل في المحرم 401 هـ ، وتربع على دستها رجل من المسلمين عزل بعد عشرة ايام ، وحل محله في الوزارة زرعة ابن نسطورس اخو عيسى بن نسطورس ، وظل فيها الى ان توفي في شهر صفر 403 هـ .

وقد اوغر كثرة تقليد النصارى للوزارة صدور المسلمين عليهم ، فعملوا على الايقاع بهم عند الخليفة الحاكم الذى اشتهر بالتقلّب في اهوائه وميوله .

الثالث — من سنة 396 الى سنة 401 هـ : ومما هو جدير بالملاحظة ان الحاكم بدّل سياسة التعصّب مدفوعا بعاملين ، هما تهديد حدود مصر من ناحية الغرب ، حين اغار عليها أبو ركوة ، الذى ادعى النسب للأمويين في الاندلس ، بجيش كبير من المغاربة ، واعلن انه أحق بامتلاك مصر من الفاطميين . وقد لاقى الحاكم صعوبة كبيرة في القضاء على ابي ركوة حتى أسر وصلب على احد ابواب القاهرة . اما العامل الثاني فهو ماقاسته مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنين (398 — 401 هـ) .

الرابع - من سنة 401 الى سنة 411 هـ : وقد بدأت سياسة الحاكم منذ سنة 401 هـ تظهر بمظهر اكثر تذبذبا وتقلبا واصبح عقله اكثر ارتباكا واضطرابا . اما سياسته مع غير المسلمين وخاصة النصارى فقد كانت تابعة لرأي جمهور الامة . ولم يكن استياؤهم راجعا لنحلتهم الدينية فحسب بل لانهم كانوا يشتغلون بجمع الضرائب .

وكانت سياسة الحاكم تمتاز مع رعاياه على اختلاف اديانهم ومذاهبهم بعنف كثير ، كما كانت تتمتاز ايضا بشيء كثير من التذبذب والاضطراب . فمن امثلة ذلك انه نقش سب الصحابة على جدران المساجد (صفر سنة 365 هـ) ، وحرم بيع الملوخية ، لانه أثر عن معاوية ابن ابي سفيان انه كان يحبها ، كما حرم اكل الجرجير ، لان عائشة رضي الله عنها كانت تأكله ، ونهى عن اكل نبات المتوكلية الذي ينسب الى الخليفة المتوكل ، كما نهى عن اكل القرع لان ابا بكر وعائشة كانا يحبان اكله . على ان الحاكم لم يلبث ان خفف من تشدده في مراعاة عقائد المذهب الفاطمي ، ليصلح بينه وبين رعاياه السنيين ، فأبطل لعن الخلفاء الأول وغيرهم من الصحابة ، وانشأ في سنة 397 هـ مدرسة لتعليم عقائد المذهب السني ، مما اساء الى سمعته عند الشيعيين . ولكن الحاكم الذي عودنا التقلب في سياسته واهوائه لم يلبث ان عدل عن سياسة اللين مع رعاياه السنيين على حين غفلة ، حين أمر في سنة 401 هـ باعادة الاذان على النحو الشيعي ، وأعاد عبارة حيّ على خير العمل المألوفة عند الشيعيين . ولم تكن سياسة الحاكم مع النساء اقل شدة وعنفا . فقد اصدر قانونا منع فيه النساء من الخروج سافرات ومن ان يتبعن الجنائز ، او يظهرن للناس في حالات منافية للأدب والحشمة ، ولم يلبث ان منعهن من الظهور في سطوح المنازل ومن دخول الحمامات العامة ، كما منع صانعي الاحذية من ان يصنعوا احذية خاصة بهن . وكان من أثر هذه السياسة أن قر النساء في البيوت سبع سنوات حتى ولي الخلافة الظاهر بن الحاكم (سنة 411 هـ) .

على أن سياسة الحاكم هذه ، وان قد اثارت سخط المصريين عامة ، ساعدت على اقرار الامن والمحافظة على الآداب العامة ، وقضت على الفوضى التي كانت سائدة في اوائل عهده . وفي عهده ظهرت طائفة الدرزية التي دعت الى الاعتقاد بألوهية الحاكم . مما اثار النزاع بينه وبين السنّيين ، ذلك النزاع الذي انتهى بقتله في سنة 411 هـ . وقد أنشئ في عهد الحاكم دار الحكمة التي كان يشتغل بها كثير من القرّاء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين ، وألحق بها مكتبة اطلق عليها دار العلم ، حوت كثيرا من امهات الكتب مما ألف في مصر وغيرها من البلاد الاسلامية .

ويعتقد الدرزية ان الحاكم اختفى في سنة 411 هـ ، وانه سيعود اذا زالت المفاسد المنتشرة في العالم ، فهو اذن الامام المنتظر عند هذه الطائفة .

الظاهر لاعزاز دين اللـــه (411 ـ 427 هـ) :- ولد ابو هاشم الظاهر في ليلـة الاربعاء في اليوم العاشر من شهر رمضان 395 هـ وولي الخلافة بعد قتل ابيه بأيام ، وذلك في شهر شوال 411 هـ ، وقد قامت عمته ست الملك بالوصاية عليه في الفترة الاولى من حكمه فأظهرت كفاية ممتازة في ادارة شؤون البلاد ، وبذلت العطاء للجند ، وظلت تشرف على اعمال الدولة الى ان توفيت سنة 415 هـ . وكان الظاهر سمحا ، عاقلا ، لين العريكة ، استطاع بحسن سياسته ان يكتسب عطف اهل الذمة ومحبتهم له ، فتمتعوا في عهده بالحرية الدينية كما وجه عنايته الى ترقية شئون البلاد وتحسين الزراعة .

ولم يبق الظاهر ببناء كثير من المنشآت ، لاشتغاله بالعمل على ضبط الامور في داخـل البلاد وخارجها ، وقد بني في عهده منظرة اللؤلؤ بالقرب من القصر الغربي الصغير وتعد من اجمل المنارات التي انشئت في القاهرة في عهد الفاطميين ، وكان الظاهر يتنزه فيهـا ، كما اتخذها بعض الخلفاء دارا للاقامة في وقت فيضان النيل .

ولم يتمتع الظاهر بالخلافة مدة طويلة ، فقد مرض بالاستسقاء ، وتوفي ليلة الاحـد منتصف شعبان 427 هـ . ولما علم وزيره الجرجرائي بذلك أخذ البيعة لابنه ابي تميم الذى تلقب المستنصر .

المستنصـــر (427 ـ 487 هـ) :- ولد ابو تميم محمد بن الظاهر يوم الثلاثاء ... لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر جمادى الآخرة 420 هـ ، وبويع له بالخلافة في يوم الاحد النصف من الشعبان 427 هـ ، وهو في السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة واربعة اشهر وكان اطول الخلفاء عهدا ، غير ان مصر لم تتمتع طوال هذه المدة بالرخاء والطمأنينة غـير فترة قصيرة ، ثم حدثت بها احداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثرها ان تزعزع مركـز الخلافة الفاطمية . امتد سلطان الفاطميين في القسم الاول من عهد المستنصر على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال افريقية ، وكان اسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة مـن المحيط الاطلسى غربا الى البحر الاحمر شرقا ، وكذا في صقلية واليمن والحجاز والموصـل ، بل في بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحوا من سنة . ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث ان خرج من سلطة الفاطميين فقد خرجت بلاد المغرب سنة 443 هـ ، وفي سنة 475 هـ زالت سلطة الفاطميين من بلاد المغرب الاقصى التي استولوا عليها من الأدارسة سنة 247 هـ ، واستولى روجر النورمندى على صقلية التي كانت تابعة للفاطميين منذ اواخر القرن الثالث الهجرى وخلع امير مكة والمدينة طاعتهم في سنة 462 هـ .

وعلى الرغم من المنازعات التي قامت في اوائل عهد الخليفة المستنصر بين التستري والفلاحـي وتدخل أم الخليفة في ادارة شؤون الدولة ، فان مصر قد تمتعت بشيء من الطمأنينة والرخـاء فقد أمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة (439 هـ) بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمـي وأبهته ، وما كانت عليه القاهرة في ذلك الوقت من يسر ورخاء .

غير ان هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر في ذلك الحين لم يدم طويلا ، فقد حلت بالقاهرة الايام السيئة ، وعاودتها المصائب التي لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها فقد عمّ الوباء والقحط مصر في سنة 446 هـ وانقطع ماء النيل ، فأهملت الزراعة ، وانتشرت المجاعة وعمّ الوباء الذى يعتبر اطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى ، وامتد ثماني سنين (446 ـ 454 هـ) ونكبت به جميع الامم الاسلامية من مصر الى سمرقند ، ودونت عنه قصص مروعة ، حتى قيل انه يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس ، وعدمت الاقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط ، ثم أكل بعضهم بعضا .

ويحسن بنا الا نطيل الكلام على عهد المستنصر الفاطمي الذى حكم الدولة الفاطمية اكثر من ستين سنة كما تقدم ، ولاسيما بعد ان تقلد بدر الجمالي الوزارة ، وحكم البلاد حكما مطلقا منذ سنة 466 هـ ، لان هذا يخرج بنا عن نطاق هذا الجزء الذى خصصناه لدراسة العالم الاسلامي من سنة 232 هـ الى سنة 447 هـ ، أى قبل تقلد بدر الوزارة بنحو عشرين سنة وقبل وفاة المستنصر باربعين سنة (اول شوال سنة 487 هـ) .

لذلك رأينا ان نرجىء الكلام على القسم الثاني من حكم المستنصر بشئ من التفصيل حين ندرس العصر الفاطمي الثاني (466 ـ 567 هـ) الذى يطلق عليه (عصر الوزراء العظام) أى العصر الذى استبدّ فيه الوزراء بالسلطة ، واصبح الخلفاء الفاطميون كالمحجور عليهم .

العصـــر الفاطمي الثانـــــي

ازدياد نفوذ الوزراء :— منذ النصف الثاني من عصر المستنصر ، وبخاصة منذ تولّي بدر الجمالي الوزارة استأثر الوزراء بالنفوذ والسلطان ، وبدأ عصر الوزراء العظام في الدولة الفاطمية . واصبح الوزير ربّ السيف والقلم ، بمعنى ان كل امور الدولة قد آلت اليه ، ونتيجة لذلك اصبح الخلفاء مسلوبي السلطة مع الوزراء الذين قبضوا على ناصية الحكم ، وعملوا على اختيار خلفاء لا يحولون بينهم وبين تنفيذ مشيئتهم ، فاستفحلت سلطة الوزراء وتضخمت ثرواتهم .

وبرز في هذا العصر عدد من الوزراء ، منهم : الافضل بن بدر الجمالي في عهد كل من المستعلي والآمر ، والاكمل بن الافضل في عهد كل من الآمر والحافظ .

المستعلـــــي : (487 ـ 495هـ = 1085 ـ 1101م) : بعد المستنصر تولـــى الخلافة المستعلي ، وفي عهده تم ظهور نفوذ الوزير الافضل ابن بدر الجمالي ، فقد حال دون تولية نزار اكبر ابناء المستنصر اذ اعتقد ان نزارا قد يضعف نفوذه ، ولذا عمل على تولية اخيه المستعلي بن المستنصر ، وكان صغير السن فحجر عليه الافضل واصبح هو مطلق التصرف في شؤون الدولة . الا ان نزار لم يقف مكتوف الايدى ازاء اقصائه عن العرش ، بل سار الى الاسكندرية وناصره واليها التركي ناصر

الدولة افتكين بعد ان مناه نزار بالوزارة ان هو وصل الى العرش . ولكن الافضل لحقه بهما ومعه عددا من الجند ، ودارت بين الوالي ونزار من جهة وبين الافضل من جهة اخرى معركة كبرى انتهت بهزيمة الافضل وارتداده الى القاهرة ، ولكنه عاد ثانية الى الاسكندرية وحاصرها ، وظل على حصارها سبعة اشهر ارتكب خلالها كثيرا من اعمال العنف ، حتى طلب أفتكين ونزار الامان ، فمنحهما اياه ، ولكنه امر بأرسالهما الى القاهرة حيث قتلا وصفا الجو للافضل بعد قضائه على تلك الفتنة ، فنقل الى داره التي شيدها سنة 501 هـ دواوين الحكومة .

الباطنية : وتعتقد الباطنية بخلافة نزار بن المستنصر فانه لما توفي المستنصر الفاطمي سنة 487 هـ ، وتدخل الوزير الافضل في تولية ابنه المستعلي دون نزار ، قام نزاع بين الاسماعيلية انصار الفاطميين في مصر : فذهب فريق منهم الى احقيّة المستعلي بالخلافة كما اصبح فريق آخر يعتقد في أحقيّة نزار .

وكان الفاطميون انفسهم باطنيين ، اذ كانوا في اعمالهم يصدرون عن العقائد الباطنية التي كان قوامها ادعاؤهم علم الباطن ، وان لهم قوى غير قوى البشر . وبذا نرى ان مذهب الشيعة الاول تأثر بما طرأ عليه من تغييرات عظيمة .

الآمر : (495 - 524 هـ = 1101 - 1130 م) : توفي المستعلي سنة 495 وخلفه الآمر . فكان مسلوب السلطة مع الوزير الافضل ابن بدر الجمالي . وفي عهد الآمر ظهر تعصّب الافضل للسنة ، كما يتجلى في اغلاقه سنة 513 هـ دار العلم التي أسسها الخليفة الحاكم وزودها بآلاف الكتب لبثّ عقائد المذهب الشيعي ، مذهب الفاطميين ، ثم أمر بالغاء الاحتفال بمولد النبي ومولد فاطمة وعلي ومولد الخليفة القائم بالأمر (الآمر) على ما جرت به عادة الشيعة . وكانت تلك الاوامر كافية لتقويض دعائم ملك الفاطميين ، الذين كانوا يعملون دائما على تقوية دعواهم ، على اعتبار انهم من سلالة علي بن أبي طالب . وعلى هذا الاساس عنوا عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى في ايام انحلال دولتهم .

لذلك دبر الخليفة مكيدة لقتل الافضل . ولما تم قتله تنصل من دمه وقتل قتلته اقتصاصا له حتى لا يعرف انه هو الذي حرضهم عليه . وعاد للآمر نفوذه بعد وفاة الافضل ، وأمر بنقل ثروة الافضل الى دار الخلافة ، وجعل على ذلك جماعة من الكتاب يقومون باحصائها وتم ذلك في اكثر من شهرين بين سمع الخليفة وبصره ، حيث كان يقضي صدر النهار في الجزء الذي عيّن من قصره لنقل تلك الثروة اليه ، ويقضي الجزء الباقي من اليوم في احدى دور الوزير ليعمل الاحصاء اللازم ، مما يدل على ان ثروة الافضل بلغت من الضخامة مبلغا كبيرا قدر بستة ملايين دينار .

وسرعان ما اضمحل نفوذ الآمر ، وعاد سيرته الاولى من الضعف ، بعد اعتلاء ابي على ابن الافضل كرسي الوزارة سنة 524 هـ في اواخر سني حكم الآمر . وعامل الآمر اهل الذمّة

معاملة تنطوي على العطف . ومن اهم اصلاحاته تجديد بناء قصر القرافة ، وبناء قصر الهودج في جزيرة الروضة لزوجته البدوية ، وانشاء جامع الاقمر ، وتوفي سنة 524 وخلفه الحافظ
الحافظ : (524 ـ 544 هـ = 1131 ـ 1149 م) :- يتميز عصر الحافظ كعصر من سبقه من خلفاء العصر الفاطمي الثاني بظهور نفوذ الوزراء وتلاشي نفوذ الخلفاء .
تقلد الوزارة في عهد الحافظ الوزير ابو علي احمد بن الافضل بن بدر الجمالي وتلقب بالاكمل فاستثر بجميع السلطات وشل يد الخليفة عن التصرف في شؤون الدولة ، وزاد على ذلك ان منع الناس من زيارة الحافظ الا باذن منه ، واستولى على ما في القصور من التحف ، ومنع ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة وأمر بالدعاء للامام المنتظر لانه يدين بمذهب الامامية . وفي سنة 525 هـ اتخذ الوزير الاكمل خطوة جريئة ضد الشيعيين بأن عيّن اربعة من القضاة ، اثنين من السنيّين . وأعطى كلاً منهم سلطة اصدار احكامه وفق مذهبه . وبذلك لم يجعل اصدار الاحكام حسب المذهب الشيعي دون سواه ، كما كان الحال منذ قيام الدولة الفاطمية في مصر واثارت سياسة الاكمل غضب الشيعيين فدبروا مؤامرة لاغتياله ، وتم لهم ما ارادوا .

وبموت الاكمل ، عاد الخليفة الى عرشه حالا ، الا ان ذلك لم يكن معناه تخلصه من سيطرة الوزراء ، فقد تخلص من الاكمل بن الافضل ليقع تحت سيطرة بهرام الارمني والي الغربية الذي قلده الحافظ الوزارة ، رغم نفور الناس من ذلك العمل ، وقد صدق ظنهم فان نفوذ الوزير بهرام سرعان ما تزايد وما لبث ان سأل الخليفة ان يأذن له باحضار اخوته وبني جلدته من ارمينيا حتى بلغ عدد الارمن في مصر بعد فترة يسيرة ثلاثون ألفا ، واتخذ هؤلاء خطة عدائية ازاء المسلمين فجاروا عليهم وصادروا املاكهم وبنوا كثيرا من الكنائس والاديرة معتمدين على تشجيع بهرام لهم ، وشكا المسلمون الى الخليفة الحافظ ظلم بهرام واهله وعشيرته ، وخاصة ان اخاه والي قوص ويدعى الباساك ، ظلم اهالي تلك البلدة واستباح اموالهم .

لما اشتد الحال ، استنجد المسلمون بوالي الغربية رضوان بن الولخشي . وفي مدينة سخا احدى مدن الغربية صعد رضوان المنبر وخطب في الناس خطبة بليغة ، حضهم فيها على الجهاد وجمع ثلاثين الف مقاتل سار بهم الى القتال لقتال بهرام . ولما كان رضوان يطمع ان يكون وزيرا ، امكننا ان نعرف ان القتال اصبح يدور من اجل كرسي الوزارة . وبدأ منذ ذلك الحين عهد تنافس وتطاحن للوصول الى ذلك المنصب . مما أدى الى اضطراب احوال الدولة الفاطمية وقرب نهايتها . وانتهى النزاع بين بهرام ورضوان بهزيمة بهرام والتجائه الى اخيه في قوص ، الا انه قبل وصوله اليها كان الاهالي قد قتلوا أخا بهرام ومثلوا بجثته فثار لموت أخيه ونهب المدينة وقتل كثيرا من اهلها وارحل الى اسوان . وبذلك خلا الجو لرضوان فتقلد الوزارة .

واشتد بعد توليه الوزارة على اعوان بهرام ، فصادر املاكهم ، وقتل الكثير منهم ، بل وعمل على ابادة الارمن . وكان رضوان اول من تلقب بلقب ملك من وزراء الفاطميين ، وتلقب

بذلك اللقب من جاء بعده من الوزراء في العهد الفاطمي .

وهذه الاعمال لم ترض الخليفة الحافظ فاحضر بهرام من اسوان واسكنه في قصره واحله من نفسه محل الاكرام والتعظيم ، فحقد رضوان على الخليفة ، وتحول التطاحن من خلاف بين الوزير بهرام والطامعين في منصبه الى الخلاف بين الخليفة ووزيره ، وازدادت الوحشة والنفور بين الفريقين . وضعف امر رضوان واضطر الى الهرب من القاهرة في سنة 533 هـ الى صرخد من اعمال دمشق ، وعاد بعد عام الى مصر على رأس جيش كبير وحارب جند الخليفة قرب باب الفتوح وانتهى الامر بهزيمة رضوان والقبض عليه وحبسه في قصر الخليفة وظل به حتى قتل . وبقتله انتهى هذا النزاع الطويل بين بهرام ورضوان . أما بهرام فانه اقام في قصر الخليفة مكرما ، يستشيره في مهام الدولة دون ان يقلده عملا رسميا ، وظل على ذلك الحال حتى توفي سنة 535 هـ ، فحزن عليه الخليفة حزنا عظيما وأمر باغلاق الدواوين ثلاثة أيام ، وسار بنفسه في جنازته يبكي بكاء شديدا وتوفي الحافظ سنة 544 هـ وخلفه الخليفة الظافر .

الظافر : (544 ـ 549 هـ = 1149 ـ 1154 م) : ـ يتميز عهد الظافر باشتداد النزاع بين الوزراء ، كما يتجلى في النزاع الذي دار بين الوزير ابن السلار ومنافسه ابن مصال . وقد طلب ابن السلار النجدة من نور الدين صاحب حلب ودمشق لينصره على منافسه ، وكان ذلك الالتماس ، من ناحية ذلك الوزير معناه السماح لنور الدين بالتدخل في شؤون مصر الداخلية . كما أدى طلب ابن السلار المساعدة من نور الدين الى نتيجتين خطيرتين : أولهما ـ ان مصر ظهرت بمظهر الضعف وعدم القدرة على صد هجمات الصليبيين الذين كانوا بدؤا غاراتهم على الديار المصرية طامعين في الاستيلاء عليها ، ففكر نور الدين بدوره في الاغارة على مصر . وثانيهما ـ ان الصليبيين ونور الدين اصبحا على علم باحوال مصر وخاصة النزاع المتواصل بين الوزراء المتنافسين وحالة الحزبية والعنصرية في الجيش ، وكانت النتيجه ان وقف المتنافسان (الصليبيون ونور الدين) على غزو مصر ، لبعضهما بالمرصاد .

دارت الحرب بين ابن مصال وابن السلار ، وانتهى الامر بقتل ابن مصال أولا وتبعه منافسه وفرح الخليفة بقتل ابن السلار فرحا شديدا لانه كان قد بدأ عهده بطرده من الوزارة وبتعيين ابن مصال ، ولكنه لم يصدع بأمر الخليفة ، وجمع اعوانه وحل محل منافسه في الوزارة بالقوه . ومع ان ذلك امرا عاديا في ذلك الوقت ، الا الظافر استاء من عمل ابن السلار . وسر الخليفة لما بلغه نبأ مقتل هذا الوزير ، حتى انه لما سمع بذلك نفح قاتله ابن عباس بن ابي الفتوح عشرين الف دينار .

وكان عباس والد نصر يتقلد الوزارة بعد مقتل ابن السلار ، فتآمر مع ابنه نصر على قتل الظافر وللوصول الى ذلك ذهب عباس الى قصر الخليفة ومعه الف سياف متظاهرين بالاستفسار عنه ، ولما تم له قتل الظافر سنة 549 هـ ، قتل اخوة الخليفة واتهمهم بالاشتراك في قتل اخيهم . الا ان حيلته لم تنجح وعرف القاتل الحقيقي ، وأثار عمله أشد مظاهر الاستياء ، حتى ثارت مدينة القاهرة ،

واضطر للهروب الى الشام ، وقتله في طريقه اليها جماعة من الصليبيين ارسلتهم اخت الخليفة الظاهر في اثره وقبضوا على ابنه نصر وارسلوه الى القاهرة ، فوضع في قفص من حديد وطيف به في المدينة بعد ان جدع أنفه وصلمت اذناه وصلب حيا على باب زويلة معلقا هناك عدة شهور ثم احرقت جثته .

الفائز : (549 ـ 555 هـ = 1154 ـ 1160 م) :ـ ترك الخليفة المقتول طفلا في الرابعة من عمره ، دعي له بالخلافة ، وتلقب بالفائز وفي عهده استنجد نساء القصر بالامير طلائع ابن زريق والي الاشمونيين ، لتخليصهن من حالة الفوضى السائدة واصلاح احوال البلاد . فسار الى القاهرة واستولى على دار الوزارة وتلقب بالملك الصالح .

وكان قوي الشكيمة . ومثالا للرجل الذي تحتاج اليه مصر في تلك الحقبة المضطربة من تاريخها . فتمكن من اعادة الامن الى نصابه ، وقتل القواد الذين كانوا يثيرون الفتن والدسائس . ودبرت لطلائع في عهد الفائز عدة مؤامرات لقتله ، فلم تنجح كلها ، وأخصها تلك التي دبرتها له عمتا الخليفة ، وتوفي الفائز سنة 555 هـ ، وطلائع لايزال في الوزارة .

العاضد : (555 ـ 567 هـ = 1160 ـ 1171 م) :ـ وبموت الفائز انتقلت الخلافة الى العاضد آخر خلفاء الفاطميين في مصر ، فعمل الوزير طلائع على الحد من سلطانه ، ولكن العاضد نجح في قتل طلائع سنة 556 هـ ، وأحل محله في الوزارة ابنه ابو شجاع العادل فظل في الوزارة سنتين ، حتى خلعه شاور والي الصعيد سنة 558 هـ وقتله واعتلى كرسي الوزارة ، ثم ظهر ضرغام امير البرقية وهي فرقة من الجند المغاربة من برقة وخلع شاور ، فهرب هذا الى الشام واستنجد بنور الدين ليعيده الى منصبه ، وليقف بنفسه على حقيقة الاحوال في مصر ، لاسيما وقد بلغه انها في اضطراب شديد ، وان قوتها الحربية ضعيفة جدا . وفي ذلك الوقت استنجد الوزير ضرغام بعموري ملك بيت المقدس .

لبّى كل من نور الدين وعموري طلب شاور وضرغام . فارسل نور الدين حملة بقيادة اسد الدين شيركوه ومعه ابن اخيه صلاح الدين الايوبي وكان صغير السن ، وحضر الصليبيون الى مصر بقيادة عموري نفسه . وتتابعت حملات نور الدين وعموري على مصر ، حتى بلغ عدد هذه الحملات ثلاثا ـ وانتهى الأمر بهزيمة الصليبيين ، وانتصار حملة نور الدين ، والقضاء على المتنافسين ، وتقلد الوزارة اسد الدين شيركوه الذي توفي بعد قليل ، فاسندت الى صلاح الدين الايوبي ، فحصر كل جهده في تنفيذ سياسة نور الدين في القضاء على سلطان الفاطميين .

سقوط الفاطميين :ـ عمل صلاح الدين منذ اعتلائه كرسي الوزارة على تثبيت مركزه في مصر فقتل شاور بعلم الخليفة الفاطمي ورضائه ، وتمكن بحسن سياسته من ان يكتسب ثقة الاهلين وأسند مهام الدولة الى انصاره وظل يعمل على اضعاف نفوذ الخليفة حتى جعله سجين قصره فأثار ذلك حنق اهل القصر وأتباع الخليفة وجنده من السودان ، ودبروا مؤامرة للقضاء عليه

ولكن صلاح الدين علم بهذه المؤامرة وقبض على زعيمها كبير الخصيان السود واسمه نجاح وقتله وأحل محله في البلاط الفاطمي بهاء الدين قراقوش وقتل كثيرا من السود انيين فثار منهم خمسون الفا للثأر لزعيمهم نجاح وللانتقام مما حدث فاشتبكوا مع جند صلاح الدين في المكان المعروف باسم (بين القصرين) واحرق في هذه الموقعة كثير من المنازل والشوارع وهزم السودانيين في النهاية وفروا الى الجيزة ومنها الى الصعيد ، واستمروا في ثورتهم الى ان قضى عليهم نهائيا (في سنة 572 هـ) . ولولا قضاء صلاح الدين على تلك المؤامرة لقضي عليه وعلى محاولته اقامة دولة ايوبية في مصر على غرار ما فعله احمد بن طولون .

بذلك توطّدت سلطة صلاح الدين في مصر فطلب من نور الدين أن يرسل اليه أباه واقرباءه فلبّى طلبه . وفي ذلك دليل على ان صلاح الدين اعتزم منذ حضر الى مصر ان يقيم ملكا لنفسه ولأسرته من بعده فيها . وكان من أثر انتصار صلاح الدين على الصليبيين في دمياط ان تعلّق به المصريون على اختلاف نحلهم ، شيعيين وسنيين ، ووثقت به الخلافة العباسية واستطاع ان يسند المناصب الدينية في مصر الى الفقهاء المتضلعين في المذهب السنّي وان يقضي على العناصر التي لم يثق بها في جيشه ، وانضم لصلاح الدين معظم رجالات الدولة أصبح الخليفة الفاطمي مسلوب السلطة ، ضعيف الجانب . وفي ذلك الوقت رغب نور الدين وهو من غلاة السنّة ، في احلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي ، وهو عمل معناه ازالة الدولة الفاطمية ، وعلم صلاح الدين برغبة سيده نور الدين ولكنه تردد في تنفيذ هذه الرغبة ، لانه خاف ان يثير هذا العمل اهالي مصر .

ولما صمم نور الدين على طلبه ، عقد صلاح الدين مجلسا من الامراء ، واستشارهم في ذلك فوافقه بعضهم ووعدوا بتأييده ورأى الآخرون خطورة هذا العمل . وكان في ذلك المجلس رجل فارسي يدعى " الامير " تعهد ان يقوم بهذه المهمة ، وصعد في يوم الجمعة الى المنبر قبل الخطيب ، ودعا للخليفة العباسي المستضيء ، فلم يحتج احد على ذلك وأمر صلاح الدين في يوم الجمعة التالية باقامة الخطبة للخليفة العباسي .

تم ذلك التغيير من غير ان يلقى مقاومة ، ودون ان يعلم الخليفة العاضد بذلك ، اذ كان مريضا ورأى اعضاء أسرته انه : " ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان نفجعه بهذه الحادثة قبل موته " وتوفي العاضد في 10 محرم 567 هـ قبل ان يتصل به أمر ذلك الحادث .

وجلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على القصر وما فيه من كنوز وطرائف واسكن اولاد العاضد واعمامه في جناح منه . وهكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد ، بعد ان حكمت مصر عصرا طويلا امتد من سنة 358 الى سنة 567 هـ . على انه يظهر لنا ان السبب الاساسي في القضاء على الخلافة الفاطمية ، يرجع غالبا الى الحروب الصليبية . فان تلك الحروب قد عجلت بزوال دولتهم الفتية ، لان اشتباك الفاطميين مع الصليبيين في الشام وعدم قدرتهم

على الوقوف امامهم ، والحيلولة دون امتلاكها لبيت المقدس قد اوقف نور الدين صاحب حلب ودمشق واوقف الصليبيين على ضعف الخلافة الفاطمية ، فتوجهت انظارهم لامتلاك هذه البلاد ، وأخذ كل منهما يعمل على امتلاكها ، وتم لنور الدين النصر في هذا الميدان وبدأت طلائع الدولة الايوبية في الظهور منذ اعتلاء صلاح الدين كرسي الوزارة .

علاقة الفاطميين بالعباسيين وبني بويه :- لاشك في ان قيام الدولة الفاطمية في المغرب أثار مخاوف العباسيين ، لأن استيلاءهم على هذه البلاد قد يساعدهم على بسط نفوذهم على مصر وبلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين بل قد يسهل لهم هذا الفتح الاستيلاء على بغداد نفسها قاعدة الدولة العباسية في ذلك الحين . لذلك نرى الخلفاء العباسيين يعملون على القضاء على محاولات الفاطميين لامتلاك مصر . ثم يحذو بنو بويه الشيعيون حذو الخلفاء العباسيين السنيين ، حتى لايتعرض سلطانهم في بلاد العراق للخطر اذا استولى الفاطميون عليها . وذلك يعلل مساعدة البويهيين للقرامطة في حروبهم مع الفاطميين .

ولولا خوف البويهيين على نفوذهم السياسي لحولوا الخلافة الى العلويين ، اذ كانوا يفضلون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية . وذلك نرى سلاطين بني بويه على اتصال بالفاطميين ، حتى انهم سمحوا لدعاتهم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في البلاد التي خضعت لنفوذ بني بويه . وقد حاول العزيزالفاطمي ان يجتذب اليه البويهيين الذين كانوا يعتنقون المذهب الشيعي ، فارسل في سنة 369 هـ - على ماذكره ابن الاثير الى عضد الدولة (367 - 372 هـ) ابن ركن الدولة رسولا من قبله ، وما زال يبعث اليه برسالة بعد رسالة ، فأجابه عضد الدولة بكلام يتضمن صدق الطوية وحسن النية .

على اننا نرى هذه السياسة التي كانت تنطوي على التردد وحسن النية تتبدل في اواخر أيام عضد الدولة ، بل نراه يتأهب لغزو مصر واستردادها من الفاطميين بعد ان اتضح له خطر دولتهم على سلطان آل بويه .

وقد قيل ان ماقام به عضد الدولة كان نتيجة لشكه في نسب الفاطميين ، حتى انه عقد مجلسا حضره بعض العلويين الذين اقروا بطلان هذا النسب ، ويقول المقريزي : " ثم ملك فناخسرو بن الحسن الديلمي بغداد ، فقرب مابينهما (أي بين العزيز وعضد الدولة) من المسافة ، فجمع العلويين ببغداد وقال لهم : هذا الذي بمصر يقول انه علوي منكم ، فقالوا : ليس هو منا ، فقال لهم : ضعوا خطوطكم بانه ليس بعلوي ولا من ولد ابي طالب ثم انفذوا الى نزار بن معد رسولا يقول له : نريد ان نعرف من انت ، فعظم ذلك عليه "

ويعتبر هذا العمل بدءا لتدوين لمحاضر المجالس العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري ، وأنكر فيها نسب العبيديين الى علي وفاطمة ، لان العباسيين لما ادركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب ، وهالهم اقامة الخطبة للحاكم

الفاطمي في بلاد الموصل ، ذكروا في القضاء على مذهبهم بالطعن في نسبهم الى علي وفاطمه ، أو باثارة الشك على الاقل في هذا النسب في نفوس المسلمين . ويروى أبو المحاسن في تاريخه انه : " في سنة 402 هـ شهر ربيع الآخر ، كتب الخليفة القادر العباسي محضرا في الخلفاء المصريين ، والقدح في انسابهم وعقائدهم ، وقرئت النسخ ببغداد ، وأخذت فيها خطوط القضاه والائمة والأشراف بما عندهم من العلم بمعرفة النسب الديصانية ، قالوا : وهم منسوبون الى ديصان بن سعيد الخرمي اخوان الكافرين ، ونطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها الى الله ، ومعتقدين ما اوجب الله على العلماء ان نشروه للناس " . وكتب خلق كثير في المحضر المذكور منهم الشريف الرضي والمرتضي اخوه ، وابن الازرق الموسوى ، ومحمد ابن محمد بن عمر بن يعلى العلويون ، والقاضي ابو محمد عبد الله بن الاكفاني ، والقاضي ابو القاسم الجزرى ، والامام أبو حامد الاسفرايني ، والفقيه ابو محمد الكشفلي والفقيه ابو الحسين القدورى الحنفي ، والفقيه ابو علي بن حمكان ، وابو القاسم التنوخي ، والقاضي ابو عبد الله الصيمرى ، . فلما بلغ الحاكم قامت قيامته وهان في اعين الناس لكتابة هؤلاء العلماء الاعلام في المحضر .

على ان مارواه ابو المحاسن في هذا الكتاب من ان الشريف الرضي كتب خطّه في هذا المحضر الذى نفي فيه نسب الفاطميين يعارضه هذه القصيدة المشهورة للشريف الرضي وفيها اعتراف صريح بان الفاطميين تجمعه بهم صلة النسب ، قال :

مامقامي على الهوان وعندى	مقول صارم وأنف حمى
البس الذل في بلاد الاعادى	وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه ابي ومولاه	ى اذا ضامني البعيد القصي
لفّ عرقي بعرقه سيد النا	س جميعا محمد وعلي

ولم يكن هذا كل مافعله العباسيون في سبيل مناوأة الفاطميين والقضاء عليهم .

ومن ثم نرى الفاطميين من ناحية اخرى يضاعفون جهودهم في نشر دعوتهم عن طريق دعاتهم ويصادفون كثيرا من النجاح في هذا السبيل ، على الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر في نفوس بعض المسلمين . ولذلك نرى الخلفاء العباسيين يكتبون في سنة 444 هـ محضرا آخر يطعنون فيه على الفاطميين وينفون نسبهم كما يكتبون في سنة 488 هـ محضرا آخر ايضا " لتنفير القلوب من الفاطميين وجمع القلوب حول العباسيين " .

على اننا نلاحظ تبدلا ظاهرا في سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد ابي كاليجار (435 — 440 هـ) الذى اتخذ من تقربه الى الفاطميين وسيلة لارهاب العباسيين ، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين اخذوا يهددون سلطان بني بويه ، حتى ان ابا كاليجار تقرب من المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى داعي الفاطميين في فارس ، الذى

تقلد فيما بعد منصب داعي الدعاة في مصر ، واتهم باعتناق عقائد الاسماعيلية مذهب الفاطميين كما تقدم .

ولكن المستنصر لم يفتر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين ، ولذلك نراه يؤيد ابا الحارث البساسيرى في خروجه على الخليفة العباسي القائم ، ويتعهد له بامداده بالمال والرجال .
ومن ثم يبعث داعيته الجرئ هبة الله الشيرازى سفيرا من قبله لاثارة حماسة جند البساسيرى وحثهم على اذكاء الثورة في وجه الخليفة العباسي . ولم يدخر الخليفة المستنصر الفاطمي وسعا في امداد البساسيرى بالاموال الضخمة والجند الذى أمر بانفاذهم اليه من بلاد الشام .

ولم يكتف المستنصر الفاطمي بذلك بل عمل على توحيد كلمة الاتراك بزعامة البساسيرى والعرب بزعامة دبيس بن علي بن مزيد امير عرب الفرات ، ولقبه بالقاب منها الامير ، وسلطان ملوك العرب ، وسيف الخلافة ، وصفي امير المؤمنين ، كما منحه ولاية مايفتح من البلاد شرقي نهر الفرات . وكان من أثر تدخل الخليفة الفاطمي ان انتصر البساسيرى وانصاره على جيوش الخليفة العباسي في موقعة سنجار سنة 449 هـ .

ولم يقف نشاط الفاطميين في مناوأة العباسيين عند هذا الحد ، فقد استطاع هبة الله الشيرازى ان يضم ابراهيم اخا طغرلبك الى الفاطميين ، على ان تكون الخطبة لهم ((أى للفاطميين)) بالخلافة والامامة مقدمة على خطبته . وكان من أثر ذلك أن ثار ابراهيم ينال على اخيه طغرلبك ، وانتهز البساسيرى فرصة نشوب الحرب بينهما ، وا ستولى على بغداد في شهر ذى القعدة سنة 450 هـ ، وقتل الوزير ابن مسلمة . لكن الخليفة " استذم بذمام قريش فحماه من القتل " . على ان زعزعة الحالة المالية في مصر ، وعودة هبة الله الشيرازى اليها ، وقيام المنافسة بين العنصرين العربي والتركي في جيش البساسيرى وعودة طغرلبك الى بغداد بعد ان قضى على فتنة اخيه ابراهيم ينال كل ذلك ساعد على القضاء على ثورة البساسيرى وقتله بعد أن أقام الخطبه للفاطميين على منابر بغداد سنة كاملة .

<u>علاقة الفاطميين بالحمدانيين والعقيليين والصليحيين</u> :- ومع ان الحمدانيين كانوا كبني بويه ، يعطفون على الشيعيين ، ويميلون الى مذهبهم كانوا يخشون ازدياد نفوذ الفاطميين السياسي ، لان في ذلك تهديدا لسلطانهم . لذلك نرى الحمدانيين يشجعون القرامطة على غزو بلاد الشام والخروج على الفاطميين ، بعد ان كانوا يدينون لهم بالطاعة ويعملون على نشر مذهبهم . فقد ذكر ابو المحاسن ان القرامطة بعثوا الى سيف الدولة يستهدونه حديدا ، فسير اليهم كثيرا ، وحمل ذلك اليهم في الفرات ثم في البر الى هجر كذلك نرى الحمدانيين يساعدون الحسن الاعصم القرمطي في حروبه التي شنها على المعز لدين الله الفاطمي ثم على ابنه العزيز بالله . ولاغرو فان جعفر بن فلاح القائد الفاطمي بعد ان استولى على دمشق ، هدد الحمدانيين في حلب بالاستيلاء على بلادهم اذا لم يقيموا الدعوة

الفاطمية على منابر بلادهم . على ان هذا التهديد اثار سخط الحمدانيين ، فعملوا على مساعدة القرامطة بزعامة الحسن الاعصم بالمال والرجال ليبعدوا خطر الفاطميين عن بلادهم

ولما استولى المقلد بن المسيب العقيلي على الموصل من يد الحمدانيين سنة 386 هـ وأسس فيها دولة العقيليين (386 ـ 489 هـ) عمل هؤلاء على التقرب الى الفاطميين وخطبوا لهم على منابرهم ، مما أثار حنق العباسيين والبويهيين عليهم ، حتى انهم فكروا في سنة 402 هـ في عقد مؤتمر كتب فيه محضر بالطعن في نسبهم لتنفير الناس منهم .

ويظهر ان هذا المحضر كتب على اثر اقامة قرواش بن المقلد العقيلي ـ الذى كان يميل الى الفاطميين ـ الخطبة للخليفة الحاكم الفاطمي . ويتبين ذلك من هذه الخطبة التي اقيمت للخليفة الحاكم الفاطمي على منابر العقيليين في الموصل والانبار والكوفة والمدائن في شهر المحرم سنة 401 هـ .

وقد راجت الدعوة الاسماعيلية في بلاد اليمن على يد علي بن محمد الصليحي (459 هـ) وكان ابوه من القضاة السنيين في هذه البلاد . وقد استمال عامر بن عبد الله الرواحي داعي دعاة الاسماعيلية في اليمن ، علي بن محمد الصليحي ، فتحول الى المذهب الاسماعيلي وهو في حداثة سنه وتفقه فيه ، ثم حل محل عامر بن عبد الله بعد وفاته ، وأحيا الدعوة الاسماعيلية القديمة وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام ابنائه على انفسهم . كما استطاع علي بن محمد الصليحي ان يحتل بعض قلاع اليمن ويقضي على منازعيه (سنة 439 هـ) ولما اشتد ساعده وقوى أمره واستقرت قدمه في هذه البلاد كتب الى صاحب مصر ، وهو معد المستنصر من بني عبيد ، ووجه اليه بهدايا ، فوجه معد المستنصر اليه رايات والقاب ، وعقد له الولاية . ولم يأت سنة 455 هـ ، حتى كان علي بن محمد الصليحي قد ملك معظم بلاد اليمن .

وقد استعان الخليفة المستنصر بعلي بن محمد الصليحي في ازالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز . واعادة سلطان الفاطميين عليها ، ولما تم له ما اراد نشر العدل وقضى على الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها فيها ، ولكنه لم يلبث ان قتل في سنة 459 هـ وهو في طريقه الى مكة ، وقام بالأمر من بعده ابنه الملك المكرم بن علي الصليحي (478 هـ) ثم قامت من بعده السيدة أروى الحرة الصليحية وزوجة المكرم (532 هـ)بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن تلك الدعوة التي لاتزال منتشرة على ايدى البهرة في الهند .

علاقة الفاطميين بالأمويين في الاندلس والزيريين في المغرب : — كان العداء بين بني امية وبني هاشم قديما باقي الاثر في الجاهلية والاسلام ، وكان العلويين يعتقدون ان الامويين اغتصبوا حقهم في الخلافة . فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب ومصر ، زاد حقد الامويين في الاندلس على هذه الدولة الشيعية بسبب اختلافهم واياهم في المذهب الديني ، وبسبب العداء التقليدى الذى استمر بين البيتين الهاشمي والأموى ، وقرب الدولتين بعضهما من بعض

وهذا يفسر لنا لماذا عمد الامويون في الاندلس الى انشاء اسطول قوّي يستطيع ان يقف في وجه المطامع الفاطمية ، ويهدّد ممتلكات الفاطميين . وكان للخلفاء الفاطميين انفسهم اثر كبير في اذكاء هذا العداء ، فقد اورد المؤرخون طرفا من هذه الرسائل التي تبودلت بين العزيز بالله الفاطمي والحكم المستنصر الأموى . ذكر ابن خلكان ان العزيز كتب الى الحكم المستنصر يسبه ويهجوه ، فرد هذا عليه بقوله اما بعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك .

ويقول ابن خلكان ايضا ان العزيز لم يردّ على الحكم وانه تألم لذلك أشد الألم .

ولم يقتصر هذا العداء على الامويين في الاندلس وحدهم ، بل شمل المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على اكتافهم ، فان بلكين بن زيرى بن مناد الصهناجي ، الذى ولاه المعز لدين الله الفاطمي بلاد المغرب قبل مسيرة الى مصر واتخاذه القاهرة حاضرة لدولته سنة 362 هـ ، لم يحفل هو ولا ابناؤه من بعده بنشر دعوة الفاطميين في بلاد المغرب ، بدليل ذيوع مذهب ابي حنفية في هذه البلاد ، حتى حمل المعز (ابن باديس بن المنصور بن زيرى ابن مناد) جميع اهل المغرب على التمسك بمذهب الامام مالك رضي الله عنه ، وحسم مادة الخلاف في المذاهب . بل لم يحفل المعز بلقب " شرف الدولة الذى لقبه به الخليفة الحاكم الفاطمي في سنة 407 هـ ، بدليل قتل الشيعيين في مدينة القيروان في مدينة القيروان في هذه السنة وقامت الحرب بين المستنصر الفاطمي والمعز الصهناجي ، واستعان المستنصر بقبائل بني هلال ، وخاصة بقبيلتي زغبة ورياح ، واستولى على القيروان سنة 449 هـ ، ففر المعز الى المهدية ، ثم لم يلبث ان قطع ابنه تميم الخطبة للمستنصر الفاطمي ، وخطب للقائم العباسي وظلت هذه الخطبة تقام للعباسيين حتى قامت دولة الموحدين على يد ابي عبد الله محمد ابن تومرت الذى تلقب بلقب المهدى ومات في سنة 522 هـ (1128 م) ثم قطع احد اخصائه من القواد ، وهو عبد المؤمن ، الخطبة للخليفة العباسي وتلقب بلقب امير المومنين .

تنظيم الدعـــوة الفاطميـــــة

1 - مراتـــب الدعـــوة : كان الاسماعيلية يخفون مايريدون أن يحملوا الناس على اتباعه ، ويتظاهرون امامهم بامور اخرى تحبب اليهم المذهب الذى يدعوا الى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق . لذلك ابتدعوا دعوة منظمة قسموها منذ نشأتهم الى سبع درجات ثم اصبحت تسعا في ايام الفاطميين ، وهاك ملخص هذه الدرجـــات :

الدرجة الأولـــى : كان ابو عبد الله بن ميمون ودعاته يعملون الناس كلا على قدر عقله ودينه ومذهبه ، وكانوا يجتذبون الناس بالوعود الكاذبة عن طريق تفسير رموز الدين ، واظهار بعض مشكلات القرآن والمسائل الشرعية والطبيعية .

وكان دعاة هذا المذهب اذا شككوا المدعو أو المريد وطلبوا منه حل هذه الرموز اخذوا عليه

العهود والمواثيق بان لايكشف سر هذه الدعوة ، وان يدافع عنها ، وان يتحمل في سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام .

الدرجة الثانية : واذا تمّ للداعي ماأراد ، دخل بالطالب في الدرجة الثانية ومؤداها ان فرائض الاسلام لاتؤدي الى مرضاة الله الا اذا كانت عن طريق الأئمة السبعة من ولد اسماعيل ابن جعفر الصادق ثم يكاشف المدعو بقوله ان الناس قد ضلوا لانهم لم يأخذوا عن أئمة نصبهم الله لهم . ويستدل على ذلك بأمور مقررة في كتب الاسماعيلية حتى يثبت ذلك في نفسه فاذا ثبت نقله الداعي الى الدرجة الثالثة . وبذلك يضمنون اساس مبدا الامامة في نفس المدعو ، فيتحول عن دينه أو مذهبه القديم .

الدرجة الثالثة : وفيها يكشف الداعي عن العقيدة بان الأئمة سبعة ، وان الامام الحقيقي هو السابع الذي يعلم كل رموز الدين وسرائره . ويستدل بذلك على ان الله جعل الكواكب السيارة سبعة وجعل السموات سبعا ، وجعل الارض سبعة ، وهؤلاء الأئمة هم ايضا سبعة : اولهم علي ، ويليه الحسن ، فالحسين ، فعلي زين العابدين ، فمحمد الباقر بن زين العابدين ، فجعفر الصادق ، فاسماعيل بن جعفر ، وبعضهم يتخطى اسماعيل ويلحق الامامة بابنه محمد . وهذا الامام السابع هو صاحب الزمان ، وان عنده علم الباطن وعلم التأويل ، وانه يعرف الاسرار ، وان دعاته هم الوارثون ، عند ذلك يذهب اعتقاد المدعو في الأئمة الاثني عشر (من بين طوائف الشيعة) لانهم اخذوا عنه ومن جهته رمزا فاذا انقاد المدعو لما القاه عليه الداعي في هذه الدرجة نقل الى الدرجة الرابعة .

الدرجة الرابعة : واذا وصل الطالب الى هذه المرتبة اعتقد ان محمد بن اسماعيل هو خاتم النبيين . وفي ذلك يقول الداعي : حيث ان عدد الأئمة سبعة ، كذلك عدد الرسل الذين جاؤا بالشرائع سبعة ولكل من هؤلاء الرسل صاحب يأخذ عنه دعوته ، ويكون ظهيرا له في حياته ، وخليفة له بعد وفاته ، وهؤلاء الأئمة السبعة الاصحاب او المساعدون هم الاساس والصامتون لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثرا واحدا هو أولهم . ولابد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاذ دورهم من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبي ينسخ شرع من مضى من قبله ، ويكون الخلفاء من بعده ، ثم يكون من بعدهم نبي ناسخ ، يقوم من بعده سبعة صمت أبدا ، وهكذا حتى يقوم النبي السابع من النطقاء فينسخ جميع الشرائع التي كانت قبله ويكون صاحب الزمان الاخير .

ومعنى ذلك ان النبي يأتي بشريعته هو الناطق : فالناطقون سبعة هم الانبياء . ولكل ناطق او نبي سوس وسته أصحاب صمت . مثال ذلك آدم جاء بتشريع فهو نبي ناطق وصاحبه وسوسه ابنه شيث الذي يليه ستة أئمة صمت ، ونوح ناطق أتى بشريعة نطق بها ، وصاحبه وسوسه ابنه سام ويليه ستة صمت ، وابراهيم الخليل نبي ناطق صاحبه وسوسه ابنه اسماعيل ويليه ستة صمت ، وموسى نبي ناطق صاحبه وسوسه اخوه هارون الذي يليه ستة ائمة صمت ، و عيسى

نبي ناطق صاحبه وسوسه بطرس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي ناطق اتى بشريعة الاسلام وصاحبه وسوسه علي بن ابي طالب . وانما يقصد الداعي من وراء ذلك ان يغير عقيدة المدعو في نفسه انه لاوحي بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، ويجعله يعتقد ان الوحي مستمر مع تولي الاجيال . ومن تقدم هذه المرتبة لايعلم سوى نظريات فلسفية لاتمت للاسلام بشيء حتى يصل به الاعتقاد الى ان محمد بن اسماعيل هو عبد الله بن ميمون ، وانه بمنزلة هارون من موسى او بمنزلة علي من محمد .

الدرجة الخامسة : وفي هذه المرتبة يقول الداعي للمدعو : ان لكل امام قائم ، حججا متفرقين في الارض عددهم اثنا عشر رجلا . ويستدل على ذلك بان البروج اثنا عشر وان نقباء بني اسرائيل اثنا عشر نقيبا ، ونقباء النبي صلى الله عليه وسلم اثنا عشر .

ويستدل على ان عدد الائمة سبعة بأمور منها أن الله تعالى خلق النجوم التي هي قوام العالم سبعة ، وجعل أيضا السموات سبعا ، والارض سبعا . ثم يقول الداعي للمدعو ان شريعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ستنسخ ، واذا كان فارسيا ذكره باذلال العرب له ، وحثه على التخلص من نيرهم وان كان عربيا اثار حفيظته على الفرس ، وان كان يهوديا أو نصرانيا حدثه بما يوافق عقيدته وميوله .

الدرجة السادسة : وفيها يفسر الداعي معاني شرائع الاسلام من صلاة وزكاة وحج وطهارة وغير ذلك ، ويقول ان هذه الفروض وضعت لتشغل العامة عن خلافاتهم وتبعدهم عن الفساد واذا اعتقد المدعو بصحة هذا القول ، ضعف اعتقاده في الدين واركانه . واما اذا انتقل الداعي الى الكلام في الفلسفة ، فيقول ان فلاسفة اليونان يعتمدون على العقل في شرح كل المسائل . وعلى كل مسلم ان يحكّم العقل في كل شيء ، وبذلك يحبب الى نفسه افلاطون وارسطو وفيثاغورث وغيرهم من الفلاسفة الذين يعتمدون على تحكيم العقل . واذا اخذ المدعو بهذه الآراء اصبح اهلا للنقل الى الدرجة السادسة . ولم يتعدّ هذه المرتبة الا القليل ، حتى ان كثيرين من مشهوري دعاة الاسماعيلية كأبي عبد الله الشيعي لم يتجاوزها .

الدرجة السابعة : وفيها يعلم المدعو ان الناصب للشريعة ، وهو النبي ، يستغني ولابد له من صاحبين يكون احدهما الاصل ، ويكون الآخر صدرا له .

الدرجة الثامنة : وفيها يقول الداعي للمدعو ان التالي يدأب في عمله حتى يلحق بمنزلة السابق ، وان الصامت في الارض يدأب في اعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء وان الداعي يدأب في اعماله حتى يبلغ منزلة السوس . فاذا اعتقد المدعو بذلك قال له الداعي ان معجزة النبي الصادق الناطق ليست غير اشياء تنتظم بها سياسة الجمهور .... فينتظم بذلك للنبي شريعة يتبعها الناس ، ثم يقرر الداعي ان القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها غير مايفهمه العامة وما يتبادر الى الذهن ، وليس هو الا حدوث ادوار عند انقضاء ادوار من

ادوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد وجاء على ترتيب الطبائع ، كما بسطه الفلاسفة في كتبهم . وعلى ذلك فليست معجزة النبي سوى اشياء تنظم بها سياسة الجمهور . وانما يقصد الداعي بذلك ازالة كل اعتبار عن كل مايسمى نبوة . ولم يعد للاسلام أى تأثير على نفسه .

الدرجة التاسعة : واذا ماانتقل المدعو الى الدرجة التاسعة ، اصبح جديرا بالتعمق في اصول المذهب الاسماعيلي . عند ذلك يحيله الداعي الى كتب الفلاسفة وما جاء فيها عن الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وعن العلم الإلهي ، واعتقد ان الوحي هو صفاء النفس وان النبي يجد في فهم مايلقى اليه ويتنزل عليه ، فيظهره للناس ، ويعبر عنه بكلام الله ذلك الكلام الذي ينزل به للنبي شريعته . فكأن النبي لايعمل شيئا ، اذ ان الوحي ينزل عليه فيظهره للناس ، وان الانبياء النطقاء اصحاب الشرائع ، انما هم لسياسة العامة ، على حين ان الفلاسفة انبياء حكمة الخاصة .

2 - داعي الدعاة : وقد اسندت رياسة الدعوة الاسماعيلية في عهد الفاطميين الى موظف كبير اطلق عليه " داعي الدعاة " وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه .

وكثيرا ماكانت وظيفتا قاضي القضاة وداعي الدعاة تسندان الى رجل واحد . ويساعد داعي الدعاة في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيبا ، وله نواب ينوبون عنه في البلاد ، وبذلك يعتبر الصلة بين الخليفة واتباعة من الاسماعيلية ، كما يتضح ذلك من قول المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي عند كلامه عن داعي الدعاة القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان في عهد المستنصر الفاطمي : " وتوجهت بعد ذلك الى الموسوم بالقضاء والدعوة الذي كان باب حظنا ، ونحن بالبعد والواسطة بيننا وبين مجلس الامامة " .

ومن اهم اعمال داعي الدعاة رياسة الدعوة الاسماعيلية ، وأخذ العهد على المريدين اما مباشرة او بواسطة نوابه في مصر وغيرها من البلاد التي ساد فيها المذهب الاسماعيلي والاشراف على محاضرات المجالس وتنقيحها ، وعرضها على الخليفة لاقرارها وتذييلها بامضائه والقاء هذه المحاضرات بنفسه في الاماكن المخصصة لها . ومن خصائص داعي الدعاة جمع النجوى من المؤمنين والمؤمنات (يعني الاسماعيلية) وتدوين اسم من يدفع اكثر من المال المقرر . وكان يجمع في عيد الفطر مال كثير يودع بعضه بيت المال . ولخطورة مركز داعي الدعاة . اسند اليه الفاطميون رياسة دار الحكمة ودار العلم الملحقة بها . ومن اشهر الذين ولوا وظيفة داعي الدعاة اسرة ابي حنيفة النعمان المغربي ، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازى .

3 - مجالس الدعـــــوة : ولقد خصص لداعي الدعاة مكان خاص بقصر الخليفة ، هـو دار العلم . وكان دعاة الاسماعيلية يتصلون به ويتلقون عنه الاوامر ، ويقدمون له في يومـي الاثنين والخميس ما اعدوا للمحاضرة في اصول المذهب الاسماعيلي . وكان داعي الدعاة يعقـد المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، ويجلس على كرسي الدعوة في الايوان الكبير ، فيحاضـر الرجال ، ويعقد للنساء مجلسا خاصا يسمى " مجلس الدعوة " حيث يلقنهن اصول المذهـب

واذا فرغ داعي الدعاة من القاء محاضرته على المؤمنين والمؤمنات ، اقبلوا عليه يقبلـــون يده فيمسح على رؤسهم بالجزء الذي عليه امضاء الخليفة .

وكان داعي الدعاة يتسلم كتب الدعوة التي تقرأ على الناس في القصر من سلفه المباشـــر اما هذه الكتب فهي من غير شك الكتب التي ألفها رجال من أمثال ابي حنيفة النعمان المغربي ويعقوب بن كلّس ، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، وغيرهم من كبار دعاة الاسماعيلية ومن اشهر هذه الكتب كتاب " رسائل الحاكم بامر الله والقائمين بأمر دعوته " وتتناول الكـلام عن الدروز " .

٢- الـــــدروز

1 - دعاة الـدرزيـــة : قامت في العصر الفاطمي طائفة من غلاة الاسماعيلية ألهـوا الحاكم ، وخرجوا بذلك على السواد الاعظم من الاسماعيليين المعتدليين الذين يمثلون المدرسة الاسماعيلية القديمة . وقامت هذه الحركة على ايدي الفرس الذين كانوا يقدســون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق الالهي المقدس للملوك . ومن اعظم الدعاة تأثيرا في هـــذه الحركة حمزة بن علي الزوزوني والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالاخرم ، ومحمد بن اسماعيل انوشتكين البخاري الدرزي الذين جهروا في مصر بتأليه الحاكم . وفد حمزة بن علي على مصـــر سنة 405 هـ وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون الى دار الحكمة التي اسسهـا الحاكم سنة 395 هـ . وأخذ ينشر في الخفاء الدعوة الى تألية الحاكم ، ثم جهر بهــذه الدعوة بعد ان لقي قبولا من ذلك الخليفة الفاطمي .

وقد وصف النويري الدور الذي قام به حمزة في بث عقيدة تأليه الحاكم في هذه العبارة :
قال : انه ظهر من دعاة الحاكم رجل يقال له حمزة بن اللباد الاعجمي الزوزوني ، ولازم الجلوس في المسجد الذي بناه خارج باب النصر ، واظهر الدعاء الى عبادة الحاكم ، وان الاله حـلّ فيه . واجتمع اليه جماعة من غلاة الاسماعيلية ، وتلقب بهادي المستجيبين . وكان الحاكـم اذا ركب الى تلك الجهة خرج اليه حمزة من المسجد وانفرد به ، وتمادى على ذلك وارتفـــع شأنه . واتخذ لنفسه خواص لقب بعضهم بسفير القدرة ، وجعله رسولا له . وكان يرسلــــه لأخذ البيعة على الرؤساء على اعتقاده في الحاكم ، فلم يمكنهم مخالفته خوفا على نفوسهــــم من بطشه .

وفي سنة 408 هـ جهر حمزة بن علي بدعوة الوهية الحاكم ، وصنف له كتابا فيه ان روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت الى علي بن ابي طالب ، وان روح علي انتقلت الى العزيز ، ثم الى ابنه الحاكم ، ، أى ان الحاكم قد اصبح في نظرهم آلهاً عن طريق الحلول .

ويظهر ان دعوة تأليه الحاكم التي قام بها حمزة بن علي قد اوهنت صرح الاسماعيلية ودعوتها المعتدلة في مصر . ولا غرو فقد عمل على ان يحلّ في رياسة هذه الدعوة محل ختكين داعي دعاة الاسماعيلية في هذه البلاد . ولولا مقاومة السنيّين والمعتدلين من الاسماعيلية لآلت رياسة هذه الدعوة الاسماعيلية الى حمزة منذ سنة 408 هـ . وقد شجع الحاكم هذا الداعي وانصاره ، حتى انه كثيرا ماكان يلتقي بهم في القرافة ويظهر عطفه عليهم وتودّده اليهم ، ويسأل حمزة عن عدد انصاره ومدى ماوصل اليه في هذه الحركة من نجاح .

وكان من أثر التشجيع ان غلا حمزة بن علي في تلقيب نفسه بالقاب متعددة مثل الامام ، والدليل على عبادة الله ، والداعي الى توحيد الله . والناطق بحق الله والبرهان على الله ، والرسول الذى ارسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وانه السبيل الى معرفة مولانا جل ذكره (أى الحاكم) ، والطريق الى توحيده ، والحجة الى عبادته .

ويعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي لمذهب الدرزية ، فقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغاني الاخرم ، ومحمد بن اسماعيل البخاريّ الدرزى في نشر عقائد هذا المذهب وشجع الاخرم سنة 409 هـ على الجهر بتأليه الحاكم . وكان الاخرم مشهورا بالجرأة والاقدام . ويظهر ان الاخرم فشل بعد ان اثار هذه الاضطرابات في جامع عمرو . فقد ذهب على رأس خمسين رجلا من انصار حركة التألية ، ودخلوا الجامع راكبين دوابهم ، وسلموا الى القاضي السنيّ ابن ابي العوام فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم . وأثار الاخرم بذلك حنق السنيين المصريين فانقضوا عليه وعلى رجاله وفتكوا بهم ، وتمكن هو من الهروب ولكنه قتل بعد قليل .

ولكن قتل الاخرم لم يضعف من عزيمة الاسماعيلية . فقد ظهر على أثر مقتله في سنة 409 هـ الداعي محمد بن اسماعيل الدرزى ، وكان قد وصل الى مصر سنة 408 هـ فرحب به الحاكم وأجزل له العطاء وقد سلك الدرزى في سبيل تأليه الحاكم مسالك شتى ، فألف الكتب في ذلك ، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم في نشر هذه الدعوة بين رجال البلاط والموظفين

ولم يكن هذا كل ماقام به الدرزى في سبيل نشر دعوته ، فقد تسمى بسند الهادى حمزة ابن علي وحذا حذو استاذه في نقل رياسة هذه الدعوة اليه ، فكتب الى ختكين داعي دعاة الاسماعيلية يطلب اليه الانضواء تحت لوائه ، كما كتب الى ولي عهد المسلمين عبد الرحمن

ابن الياس الذى كان يمثل عقيدة الحاكم التوحيدية والى غيرهم يدعوهم الى دعوته ، مما يدلنا على مدى تغلغل نفوذ انصار المذهب الدرزى . على ان ختكين قاوم هذه الحركة واشترك حتى مع السنيين في القضاء عليها ، وشكا الى الحاكم جرأة هذا الدرزى وانصارة وغلوهم . ووجدت هذه العقيدة انصارا بين المصريين طمعا في التقرب الى الخليفة الذى ناصر هذه الحركة وعطف عليها . كما أخذ الدرزى في قراءة كتابه الذى صنفه في عقائد المذهب الدرزى في الجامع الازهر ، مما اثار سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعيين وكادوا يقتلونه لولا انه هرب الى بلاد الشام ، واقام بوادى تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق ، وأخذ ينشر الدعوة في تأليه الحاكم ويقرأ على اهالي هذه الجهات كتبه التي لم تلق قبولا لدى كثير من المصريين الذين اضطهدوه ، واظهر الحاكم استياءه من دعوته خوفا من الرعية .

وقد استطاع الدرزى ان يستميل الى دعوته كثيرا من الانصار الذين اصبحوا يعرفون باسم الدرزية . ولا يزال هذا المذهب منتشرا في جبال لبنان وحوران .

وليس من شك في ان الحاكم كان يناصر هذه الدعوة ويشجع الدرزية في مصر أولا وفي الشام ثانيا ، لان ذلك كان يتفق مع ميوله ، بدليل انه اتخذ جواسيس من النساء في دور بعض الناس . وكان من واجبهن اكتشاف مايحدث فيها ، ثم تقديم تقاريرهن اله في اليوم التالى . فاذا اصبح الخليفة استدعى اهل هذه الدور للمثول بحضرته واخبرهم بما حدث في دورهم ، كما اتخذ جواسيس عهد اليهم ان يقدموا تقارير مستوفاه عن كل مايحدث في الطرقات ، حتى اصبح بعض الناس يعتقد انه يعلم الغيب .

وقد ادعى الحاكم تجسم الاله في شخصه ، وهو وان لم يصرح بذلك ، كان يوافق على آراء انصاره كحمزة بن علي والدرزى اللذين نسبا اليه الصفات التي لايتصف بها الا الله سبحانه وتعلى . كذلك اعتقد الناس ان بيده الحياة والموت ، واذا ظهر في الطرقات خروا له سجدا وقبلوا الارض بين يديه ومن أبى ذلك كان نصيبه الموت .

وقد شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمي هذا الاعتقاد ولم يترددوا في ان ينسبوا الى الحاكم بعض صفات الله ، وهم يقرؤن القرآن بحضرته .

وقد اعلن الذين اتبعوا سياسة الحاكم الدينية مايعتقدونه من عبادته و توحيده وتنزيهه

وأرغم من لم يقل بألوهية الحاكم على دفع الجزية كأهل الذمة .

2 – اهم مميزات الدرزيــــة : – قامت طائفة الدرزية في اوائل القرن الخامس الهجرى كما تقدم ، ولا تزال الى الآن تحتفظ بشيء من مميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الاسماعيلي . ولا يزال كثير من الاسس التي وضعها حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الاول قائما الى اليوم .

ومن اهم هذه الخصائص اتخاذ الدرزية تقويما جديدا يؤرخون به حوادثهم ، ويبدأ من سنة 408 وهي السنة التي ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن علي وانصاره ويعبرون عن ذلك بكشف المكنون ، أى ظهور التوحيد .

وفي هذه الخصائص اغلاق باب الاستجابة الخارجية ، بمعنى ان هذه الاستجابة تغلق ابوابها في وجه كل من لاينتمي اليها ، أى من لايكون درزيا ، أو موحدا على حد تعبيرهم . ويبررون ذلك بقولهم ان الدعوة قد ابطلت واغلقت الابواب ، فمن لم يؤمن بقي كذلك الى الابد ، ومن آمن فقد آمن بالردة . ومن ثم نرى الدرزية ينقسمون الى طائفتين :

الاولى : طائفة الروحانيين : وتكون الطبقة المستنيرة التي تلمّ باصول المذهب الدرزى ، وتنقسم هذه الطائفة الى رؤساء وعقلاء (أو عقّال) وأجاويد . فالرؤساء هم الذين بيدهم مفاتيح جميع اسرار الدرزية ، والعقلاء بيدهم الاسرار الداخلية التي تتعلق بالتنظيم الداخلى للمذهب ، والاجاويد بيدهم مفاتيح الاسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب .

والطائفة الثانية : هي طائفة الجثمانيـين : وتنقسم الى قسمين : الامراء الجثمانيين والعامة او الجهال . فالامراء الجثمانيون بيدهم شؤون الحرب والزعامة الوطنية ، والعامة أو الجهّال الذين لايعرفون من اصول المذهب الا اسمه ، ولا يحق لطبقتي الجثمانيين بحال من الاحوال ، الحضور في مجالس طائفة الروحانيين ، ويعتبرون جهالا مهما علا كعبهم في التعليم والثقافة .

ولا يسمح لاحد من اعضاء طائفة الجثمانيين بالانتظام في طائفة الروحانيين الا بعد اجتياز اختبار طويل صعب يظهر فيه استعداده لتلقي اصول المذهب الدرزي والاطمئنان الى انه سوف يصبح عضوا نافعا متفقها في عقائده ، بل بعد ان يؤخذ عليه عهد يتبرأ فيه من جميع الاديان والمذاهب ، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على اسرارها ، وقد وضع حمزة بن علي صيغة هذا العهد الذى اسماه " ميثاق ولي الزمان " وهاك نصه عن دى ماساسي :

" توكلت على مولانا الحاكم الأحد . الفرد الصمد ، المنزه عن الازواج والعدد ، أقر فلان بن فلان اقرارا أوجبه على نفسه ، وأشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز

امره، طائعا غير مكره ولا مجبر ، انه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والاديان والاعتقادات كلها على اصناف اختلافاتها ، وانه لايعرف غير طاعة مولانا الحاكم جلّ ذكره والطاعة في العبادة ، وانه لايشرك في عبادته احدا مضى أو حضر أو ينتظر ، وانه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع مايملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضي بجميع احكامه له وعليه ، غير معترض ولا منكر لشيء من افعاله ، ساءه ذلك أم سره ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره ، الذي كتبه على نفسه ، واشهد به على روحه ، وأشار به على غيره ، أو خالف شيئا من اوامره ، كان بارئا من البارى المعبود ، وحرم الافادة من جميع الحدود ، واستحق العقوبة من البارى العلي جل ذكره .. ومن أقر انه ليس في السماء آله معبود ، ولا في الارض امام موجود الاّ مولانا الحاكم جلّ ذكره كان من الموحدين الفائزين ".

كذا

وكتب في شهر كذا من كذا وكذا ، ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ، ومملوكه حمزة ابن علي بن احمد ، هادى المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشد سلطانه وحده .

وقد خلف حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية كثيرا من المؤلفات التي كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب ، ومنها نتبين انهم من غلاة الاسماعيلية ، وان مذهبهم لم يخرج عن المذهب الاسماعيلي في جوهره وقد اوضح الاستاذ فيليب حتّى ان الجيوش المصرية بقيادة ابراهيم باشا ظفرت بكثير من هذه المخطوطات في خلوات الدرزية ، أى في الاماكن التي كانوا يتخذونها مركزا لعباداتهم وذلك عند قيام الثورة السورية في وجه الحكم المصرى سنة 1838 م . ومن اشهر هذه المخطوطات "رسائل الحاكم بامر الله والقائمين بأمر دعوته " ويشتمل على 20 رسالة تتناول عقائد الدرزية .

وقد بنيت هذه الرسائل على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة ، لان الفلسفة وهي اساس الشريعة عند الفاطميين ، قد حلت في عهد الحاكم محل القرآن والسنة . كما نقف من هذه الرسائل على ان داعي الدعاة كان يعاونه مائة وواحد وخمسون داعيا بالاضافة الى ماكان يقوم به المؤذنون وخطباء المساجد من نشر المذهب الاسماعيلي . والرسالة الاولى ليس لها عنوان يدلّ على موضوعها ، ولكنها تعتبر تمهيدا للرسائل التي تليها ، وتعرض للكلام على العقائد التي استجدت في عهد الحاكم . ويقول كاتب هذه الرسالة : العالم ناطق الشريعة ، لأن ناطق الحقيقة الامام ، وهو مبدع الكل ، يعني العشرة لا الخمسة حدود الحق (الحقيقة) ، والخمسة حدود الشريعة ، وعلة علتهم ، والعلة العقل الكلي ، ومصدر صورتهم الدينية .

اما موضوع هذا الكتاب ، فهو بيان الدقائق بالاختصار في ابطال قوة من قال ان مولانا

هو الناطق والاساس ، ثم ذكر هذه الحجج العظمية التي هي السجلات .

وفي هذه الرسالة الاولى ايضا يفسر الداعي كلمة (امام) التي تقوم مقام (ذومعصة) وهو العقل الكلي الذي يربي الدعاة ، وعنه يتلقون العلم " لان السابق الحقيقي هو الامام الاعظم .. وان الامام الكلي هو الذي يربي الدعاة وعنه يأخذون العلم ، يعني الدعاة " .

وفي الرسالة الثانية وموضوعها " رسالة النساء " ويؤكد الداعي خطر تعدد الآلهة ويدافع عن ضرورة الاعتقاد بوحدانية الحاكم (الخالق الرزاق) و (علام الغيوب) . ثم يستطرد في الكلام فيقول " والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات " . ومن هنا نتبين انه ادخل في عهد الحاكم دين جديد مبني على هذه التعاليم التي قامت مقام القرآن والسنة . وقد جهر دعاة الفاطميين بهذا المذهب الجديد " وانقطعت المجالس .. اهل التأويل والاقاويل الباطلة من جهة المقام جل ذكره والكتاب .. وهذه الفصول التي تقدمت جميعها تشير الى بطلان الشرائع ودحض الألوهية من الاساس " .

اما الرسالة الثالثة عشرة وعنوانها " المناجاة " فهي تشمل الدعاء الذي كان يدعو به المؤمنون في مجلس الحكمة مثل " سرمدي الثبات " وغيرها من الصفات التي هي من صفات الله سبحانه وتعالى . وكأن الداعي يحث الناس على اعتناق مذهب الحاكم ونبذ غيره من المذاهب " التي هي باطل وزور " .

والرسالة الرابعة عشرة وعنوانها " الدعاة " دونت بنفس الاسلوب والروح الذي كتبت به الرسائل السابقة ، وفيها يوضح الداعي الاصطلاحات التي كان يلقنها من يدين بمذهب الحاكم . واليك هذا الدعاء من مخطوط القاهرة :

" سبحانك يامبدع الاشياء ، يامخترع العالمين ، ياصفوة العالمين ، سبحانك يامن تعزز بالكبرياء والجبروت ، سبحانك يامن تعاظم ان يكون كمثله شيء ، أو يلحقه وصف واصف ، سبحانك يامن تعالى عن المساوي ، سبحانك يامن لاتلحقه صفة ولا صفة شهدت وآمنت وايقنت بانك الله المبدع العزيز الواحد الأحد ، وانك باري لاباري لك ، وخالق لاضد لك ، وقادر لامقدور عليك ، وحاكم لامحكوم عليك ، اسألك يامولانا وسيدنا بعظيم جلال قدرتك ونور سلطانك ، اسألك يامولانا بأول شيئ ظهر من توحيدك وتنزيهك ونفي التشبيه عنك ، ان تمن علي بخالص معرفتك وحميد طاعتك ، والبلوغ الى مرضاتك والثبات على امرك والتجنب لنهيك ، والصبر على ماينالني في عبادتك من شدائد المحن والبلوى الواحمين ، بحقك على من يصرف هويته عن تسبيحك وتمجيدك الى سواك . لااصرف ذاتي الى غيرك ، تائب اليك معترف بألوهيتك ، متبرئ من كل عدولك . لاشريك له ولا دافع لامرك ، تجاوز عني واغفر ذنبي ، واجعل معرفتك التي مننت بها علي مخلدة في نفسي ، لااله غيرك ولا معبود سواك " .

على ان كثيرا من الناس قد انكروا هذه الصفات على مايشير اليه كاتب هذه الرسالة .

العهد السلجوقي في الخلافة العباسية : يعتبر العهد المنقضي بين دخول السلاجقة بغداد سنة 447 وسقوط بغداد بيد المغول سنة 656 العهد الاخير من تاريخ الخلافة العباسية بصرف النظر عن عهد احيائها على يد المماليك في (خلافة القاهرة) (659 ـ 923) ويسمى هذا العهد الاخير بالعصر العباسي التوابع أو العصر السلجوقي التركي وهو أطول العصور العباسية اذ امتد مايزيد عن قرنين وتتالى فيه من الخلفاء اثنا عشر خليفة هم :

1 ـ القائم بأمر الله (422 ـ 467) .
2 ـ المقتدي بأمر الله (467 ـ 487) .
3 ـ المستظهر بالله (487ـ512) .
4 ـ المسترشد بالله (512ـ529) .
5 ـ الراشد بالله (529 ـ 530) .
6 ـ المقتفي لأمر الله (530ـ555) .
7 ـ المستنجد بالله (555 ـ 566) .
8 ـ المستضيء بأمر الله (566ـ575) .
9 ـ الناصر لدين الله (575ـ622) .
10 ـ الظاهر بأمر الله (622ـ623) .
11 ـ المستنصر بالله (622ـ640) .
12 ـ المستعصم بالله (640ـ656) .

وجميع هؤلاء الخلفاء أتو سلالة واحدة في نسق واحد ، انتقلت فيهم الخلافة من الاب الى الابن عدا المقتدي فهو حفيد القائم وعدا المقتفي فهو عم الراشد وابن المستظهر وانما حول الخلافة اليه السلطان مسعود لاصطدامه مع الراشد الذي ترك بغداد دون عزل رسمي عن الخلافة وتشرد سنتين قبل ان يقتل على ابواب الري من قبل " بعض الملاحدة " على قول ابن الطقطقي .

1 ـ وصول السلاجقة الى الحكم

بدأ الزحف التركي الكبير من أواسط آسيا السهبية بشكل انزلاق عام بطيء ولكنه متصل من القبائل التركية باتجاه الغرب والجنوب الغربي . وفي القرن العاشر يمكن ان نميز ثلاث مجموعات قبلية رئيسية (الاويغور) المتمركزين في منطقة بركول وتيان شان و(الكارلوك) في أعالي وادي الارتيش وحتى بلدة كشغر واخيرا الغز او الاغوز كانوا في شمال بحيرة بلكاش وفي سهوب نهر سارى .

ظهور آل سلجوق :- مؤسس هذه العائلة هو سلجوق بن دقاق وكان يلقب (تيمور باليغ ومعناها ذو القوس الحديدية) وكان سلجوق ومن قبله ابوه دقاق زعماء في قبائل الغز والمؤرخون العرب يذكرون ان سلجوق أخذ من ملك الترك لقب (سباشي) ومعناه قائد الجيش . ولا يدل هذا الخبر الا على تقدم سلجوق وسمعته العسكرية في قومه .

وقد انفصل سلجوق بقومه عن مجموعة الغز الكبرى قبل سنة 985 وضرب مضاربه على الضفة اليمنى من نهر سيحون الادنى ، في جهات بلدة جند . وعلى هذا ففي هذه الفترة دخل السلاجقة في الاسلام ففعل بهم الايمان من الحماس والاندفاع للجهاد مافعله من قبل بالعرب .

وفي تلك الفترة كان النزاع على اشده في ماوراء النهر بين السلالة الايرانية السامانيــة والسلالة التركية القرخانية (امراء كشفر) فانحاز السلاجقة بلباقة الى جانب الامراء الايرانيين ضد ابناء جلدتهم الترك .

وقد افاد السلاجقة من فترة الاضطراب التى رانت على بلاد ماوراء النهر والنزاع الذى تأرث بين الأتراك القرخانيين والغزنويين . من الغزو والتى لاماضى لها ولا ثلافة فــي مطلع القرن الخامس الهجرى من أجل السامانيين وسرعان ماغدت تلك القبيلة السلجوقية .

والحديثة العهد في الاسلام ، سيدة القسم الشرقي من ايران . وكان من الممكن ان ينتهي هذا الحديث الفاجيء بكارثة المدينة بين أيدى هذه المجموعات البدوية التى ذكر ابـــن الاثير انها كانت ترى الكافور فتحسبه ملحا مرا ورأىسيدها طغرل بك لوزينجا فأكله فقال هذا قطماج طيب الا انه لاثوم فيه . ولكن روءساء السلاجقة كانوا من الذكاء بحيث فهموا بغريزتهم تفوق الحضارة العربية ـ الايرانية وبدلا من ان يهدموها عملوا على حمايتها ليحكموها .

ولما دخل طغرل بك نيسابور جعل الخطبة باسمه وصار يجلس يومين للمظالم في الاسبوع على قاعدة ولاة خراسان معلنا بذلك كله دخوله ضمن اطار الموءسسات والنظم الاسلامية ، وكان هذا القائد التركي الذى كلما اوغل في العالم العربي ـ الايراني اقتبس من هذه البلاد المعرقة في الحضارة مفاهيم ادارية وتحول من زعيم عصابة الى رئيس دولة وتجعل منه سيـــدا منظما مطلق السلطة وتوطد نفوذه على كل القواد الآخرين من أهله ، اثناء سير الجميع نحـو ايران الغربية .

كانت ايران الغربية (العراق العجمي) منذ زمن طويل بيد البيت البويهي (932 ـ 1055) ولكن السلطان محمود الغزنوى انتزع سنة 1029 معظم العراق العجمي من ايديهم واثناء الغزو السلجوقي كان آخر البويهيين الملك الرحيم خسروفيروز يملك مع لقب امير الامراء والعراق ، منطقة شيراز وفارس . ويظهر ان البلاد الايرانيه التى كانت في طريق التفكك السياسي رأت في التركي السلجوقي على خشونته ، وسيلة لاقرار النظام فتقبلته دون كبير أسف او ندم . ومهد ذلك كله للخطوة الحاسمة وهي دخول طغرك بك الى بغداد .

السلطان طغرل بك في بغداد (تأسيس الامبراطورية : في سنة 1055 (447) تلقى طغرل بك على مايذكر الموءرخ (البندارى) دعوة من الخليفة العباسي يدعوة الى بغـــداد فاستعد بعدة كبيرة للمسير واخترق جبال زاغروس من الممر المعهود في وسطها بين همـــذان وجلولاء ونزل بمعسكره في حلوان فما شاع الخبر في أوساط بغداد والعراق حتى عم الاضطراب الناس جميعا الا الخليفة : فقد كان الحكم البويهي قد بلغ مرحلة الانهيار الاخير دون ان يتزحزح كابوسه عن العباسيين وكان كل من الخليفة والامير البويهي قد وقعا معا تحـــت نفوذ مملوك تركي من القواد (من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة) اسمه : ارسلان ويعرف

بالبساسيرى نسبة الى مدينة بسا في فارس . وكان الملك الرحيم البويهي والبساسيرى معـــا في واسط حين علما بوصول طغرل بك الى حلوان فاضفوا من جديد الى بغداد وفي الطريق اخبر البساسيرى بأمر الخليفة ألا يرجع الى العاصمة بحجة انه "خلع الطاعة وكاتب الاعداء " وهم الفاطميون ورضي الاتراك بترك رئيسهم ونفيه أولا لكنهم ادركوا بعد فوات الوقت ان الخليفة انما قصد بعمله اقصاء البساسيرى ليفسح الطريق امام طغرك بك لدخول بغداد .

واستأذن طغرل بك الخليفة بدخول العاصمة فأذن له ويصف البغدادي بالتفصيـــل موكب التركي المغامر واستقباله في بغداد من كبار رجال الدولة واعيانها ثم قبضه على الملك الرحيم البويهي وتسييره الى الرى ثم التكريم الذى حازه طغرل بك من الخليفة الذى أمر بـأن يذكر اسمه بعده في خطبة الجمعة كما لقبه "ركن الدولة طغرل بك امام امير المؤمنيـــن "

واستطاع طغرل بك في السنة التالية ان يوطد سلطته في العراق وعلاقته ببيت الخلافة بتزويج ابنته من الخليفة القائم . وفي سنة 1058 اعترف الخليفة بالامر الواقع فجلس جلوسا عاما على سرير عال وعليه بردة النبي واجلس طغرل بك على كرسي وكلمه بواسطة ترجمان وولاه جميع ماولاه الله من بلاده وخاطبه بملك " المشرق والمغرب " واما اللقب الذى اضحى يعرف بـه فهو " السلطان " .

وفي الوقت الذى وصل به طغرل بك الى هذا الاوج الرفيع وجد نفسه امام تمرد من اخيه ابراهيم ينال الذى كان على الموصل فغادرها الى بلاد الجبل وبالرغم من ان طغرل بـــك تألفه ورجع به الى الطاعة الا ان ابراهيم عاد ففر منه الى همدان " وكان قد قيل ان الفاطميين كاتبوه وان البساسيرى قد استماله وأطمعه في السلطنه فلما عاد الى همدان سار السلطـان (طغرل بك) في أثره . وبينما كان طغرل بك مشغولا بأخيه يحاربه ويداوره كان البساسيرى يقبض على الخليفة القائم فيسجنه في الحديثة ويخطب على منابر بغداد للخليفة المستنصر الفاطمي ويدخل عبارة الفاطميين المألوفة في الأذان "حي على خير العمل " كما ارسل الهدايا الـى مصر ومن بينها عمامة الخليفة القائم وشباك جميل من شبابيك قصره كعلامة لما احرزه من نصـــر وبدا لفترة لاتزيد عن السنة كأن الخلافة العباسية قد انتهت وكأن خلافة الفواطم قد حلـــت محلها في عاصمتها بغداد .

وانتهى طغرل بك اخيرا من أمر اخيه وخنقه بوتر قوسه وقتل ولديه معه ثم عاد وليس له هـم

الا ان أيطلب العراق ليعيد الخليفة القائم الى داره . وقد راسل البساسيرى في اعادة الخليفة على الآ يدخل طغرل بك العراق ويقنع بالخطبة والسكة فلم يجب البساسيرى الى ذلك فلما تحمل الغز بجيوشهم الى بغداد انحدر البساسيرى بحرمه واولاده نحو الجنوب ناجيابنفسه وحمل الخليفة من الحديثة في البادية الى النهروان حيث لقيه طغرل بك فقبل الارض بين يديه واعتذر عن تأخره باعادته الى عاصمته بثورة اخيه ينال وموت أخيه داوود بخراسان واضطراره لترتيب اولاده في المملكة . ولم يمض على وصول الخليفة الى بغداد عشرون يوما حين وصلها رأس البساسيرى (وقد قتل في جنوب العراق) وطيف به في انحاء المدينة (5 ذي الحجة 451 مطلع اسنة 1060) .

هكذا توصل ذلك الزعيم الصغير لقبيلة اوغز ليس الى تنظيم قبيلته والى ان يصبح رئيس حكومة نظامية فحسب ولكن توصل لأن يقبل كممثل رسمي للخلافة العربية بل توصل لأن يعتبر في نظر العالم السني الاسلامي كالمنقذ للخلافة والمقيل لعثرتها .

ويمكن ان نقسم عهد الدولة السلجوقية الى عصرين :

1 ــ <u>عصر القوة</u> : وهو العصر الذهبي الذى تكونت فيه الامبراطورية السلجوقية ويمتد في الفترة الواقعة بين طغرل بك بغداد سنة 447 هـ وموت ملكشاه سنة 485 .

2 ــ <u>عصر الضعف والتجزوء</u> الذى قامت فيه دويلات الاتابكة وقد امتد حتى نهاية الدولة السلجوقية في بغداد سنة 590 .

1 ــ الامبراطورية السلجوقية

امتد عصر القوة السلجوقية فترة لاتزيد على اربعين السنة وعرف السلاطين السلاجقة خلالها باسم السلاجقة العظام ذلك ان السلطة الزمنية تركزت في عهدهم في يد واحدة وتوحدت تحت حكمهم عالم اسلامي واسع كان حتى الامس اجزاء متنافرة وقد عظم جيشهم بما انضم اليه من قبائل الترك النشيطة فوسع هوءلاء السلاطين ملكهم في جميع النواحي حتى غدت آسيا الغربية مرة ثانية مملكة اسلامية موحدة وأخذ جيش الاسلام يسترجع ماضي مجده فوصل الى البوسفور . وبدا كأن هذا العنصر المسلم الجديد ايقظ طموح الاسلام مرة اخرى للسيادة العالمية .

تعاقب على الحكم خلال هذه الفترة سلاطين ثلاثة : طغرل بك ثم ابن اخيه ألب ارسلان ثم

ملكشاه ويجب ان نلاحظ ان هؤلاء السلاطين لم يقيموا ببغداد ابدا الا ما بين سنة 484ـ 485 بل ولّوا عليها حاكما عسكريا يحكمها بالنيابة عنهم .

ألب ارسلان وملكشاه : توفي طغرل بك سنة 1063 م / 455 هـ بعد ان اقام الامبراطورية السلجوقية من ايران والعراق خاصة . وكانت حدودها في الشمال تمتد من ارمينيا الى اذربيجان واطراف بحر الخزر الى خوارزم الى ضفاف نهر جيحون ثم تمشي مع حدود السلطنة الغزنوية في بلاد الافغان الى كرمان وفارس ثم الى العراق والجزيرة العليا . ولكنه توفي دون عقب وعهد بهذا السلطان العريض الى ابن اخيه جغري بك : ألب أرسلان .

وبرغم قصر عهد ألب ارسلان الذي لم يدم اكثر من عشر سنوات فانه ترك الامبراطورية لابنه وقد زادت الحجاز والشام وآسيا الصغرى كلها تقريبا وكان في طريقه الى الحرب في ماوراء النهر حين قتل على سريره . ويكثر المؤرخون من ذكر تقاه وصدقاته وعدله وبالرغم من انه كان في الغالب أميًّا محروما من الثقافة الا انه على مايذكرون كان كثيرا مايقرأ تواريخ الملوك وآدابهم واحكام الشريعة . وولي السلطنة ابنه ملكشاه سنة 465 (1072) وله من العمر 17 سنة فقط .

وتوفي ملكشاه سنة 1092 / 485 بعد ان امتد سلطانه من مدينة كشغر في حدود الصين الى الاراضي المجاورة لمدينة القسطنطينية في الغرب كما شملت بيت المقدس وبلاد العرب .

السياسة الداخلية للسلاجقة العظام : يمكن ان يعتبر عهد السلطانيين ألب أرسلان وملكشاه عهدا واحدا متصلا فقد ظفر هذان الزعيمان التركيان (واولهما يكاد يكون اميا) بوزير ألمعي ، من نوابغ رجال السياسة في تاريخ الاسلام ويعتبر مؤسس الادارة السلجوقية وقد لقب عن جدارة : نظام الملك (1) .

---

(1) هو ابو علي الحسن بن علي بن اسحق فارسي من ابناء الدهاقين ولد في اطراف طوس بخراسان سنة 1019 وقد تفقه في العربية والحديث اوالدين واتصلت اسبابه بوالد الب ارسلان فاوصى به ابنه . وكان له من العمر اربعون سنة حين استوزره البارسلان قبل السلطنة فاستمر على وزارته ثم وزارة ابنه ملكشاه من بعده ثلاثين سنة ثم جرت السعاية به وتامر عليه بعض الحريم فاقصى . ومالبث ان قتل على بيد الاسماعيلية سنة 1092 .

كان هذا الوزير مثقفا عالما فبذل كل جهده لتنظيم هذه الامبراطورية العربية — الايرانية التي تحكمها اليوم قوة عسكرية تركية ساذجة . وقد فهم ملكشاه خاصة قيمة نظام الملك فجعل له الامر كله ويقول ابن خلكان : "فصار الامر كله لنظام الملك وليس للسلطان الا التخت والصيد " . وقد ترك لنا نظام الملك كتابا شرح فيه نظرياته في السياسة (سياسة نامه) وهي رساله فريدة في اصول الحكم ألفها اثر مناظرة علمية أمر بها ملكشاه .

وقد اضاف نظام الملك الى نشاطه السياسي نشاطا عمرانيا ذهب بفضله كله السلطان ملكشاه فقد ذكروا عن هذا السلطان انه ابتنى الجوامع والطرق واصلح الاسوار وحفر الاقنية وانفق الاموال الطائلة على محطات القوافل في المفاوز وعلى الرباطات وصنع بطريق مكة مصانع وغرم عليها اموالا طائلة وأبطل المكوس والخفارات في جميع البلدان . ويذهب ابن خلكان الى ان السبل في ايامه كانت ساكنة والمفاوز آمنة تسير القوافل مماوراء النهر الى اقصى الشام وليس معها خفير ويسافر الواحد والاثنان من غير خوف ولا رهب . ولاشك انا يجب ان نلمح وراء هذه الاعمال كلها عقل نظام الملك وتدبيره . أما العناية بالصحة العامة والنظافة ببغداد وغيرها مما ينسبه ابن الاثير الى الخليفة المتقي فاراجح انها تمت بعناية الوزير السلجوقي ومن مظاهرها منعه ارباب الحمامات من اجراء مائها الى نهر دجلة والزامهم بحفر آبار خاصة للمياه القذرة وأمره بغسل السمك في مكان خاص .

على ان العمل الكبير الذي حفظ لنظام الملك اسمه واعطاه السمعة العريضة في التاريخ هو عمله في مجال الثقافة والفكر فقد جمع في خاصة السلطان اعيان العلماء وحثهم على العمل والتأليف فظهر أمثال عمر الخيام والامام الغزالي والرحالة ناصري خسرو . واعظم اعمال نظام الملك في المجال الثقافي هو دون شك انه كان اول من أسس مدرسة عالية للعلم في الاسلام أقام منها عددا في انحاء البلاد، واشهرها المدرسة النظامية في بغداد (اسسها سنة 1065 — 1067) وتولى التدريس فيها الامام الغزالي ردحا من الزمن . ويمكن ان يعد عهد نظام الملك بالنسبة للتاريخ الفارسي بدء اليقظة القومية الفارسية .

توسع الامبراطورية :— تلك الامبراطورية التي بدأها طغرل بك واقامها دون خطة سابقة لم تبق على حالها ولكن خلفاءه من بعده ألب أرسلان وملكشاه اضافا اليها اضافات هامة في الغرب خاصة وفي الشرق وجاءت الظروف الخارجية سواء في بيزنطة او في الخلافة الفاطمية أو في ممالك الشرق معوانا للسلاجقة على النصر والتوسع . على اننا يجب ان نسجل قبل ذكر التوسع ملاحظتين :

1 — ان معظم الاعمال الحربية كانت تقوم من قبل اقرباء السلطان لحسابهم الخاص ولكنها كانت في النتيجة تدخل اسيا ضمن النطاق الاوسع للسلطنة السلجوقية .

2 — ان اهتمام السلاطين كان موجها دوما الى المشرق وبلاد ماوراء النهر يباشرون الحرب فيها بانفسهم . ولعلهم لهذا جعلوا مراكز حكمهم قريبة منها . ومع ذلك فأهم اعمال التوسع والحرب

السلجوقية كانت في الغرب : في أرض بيزنطة في الشام .

آ — التوســـــع في ارمينية وآسيا الصغرى : حين وصلت طلائع الترك ايام طغرل بـــك الى اطراف الحدود البيزنطية الشرقية كانت بيزنطة في حالة من الضعف لا تستطيع معهـــا القيام بأي جهد عسكري وبينما كان الترك السلاجقة يقدمون للعالم الاسلامي آلة حرب جديدة قوية كان البيزنطيين يفقدون قوة ذلك الجهاز الحربي الذي انشأه فوقاس وتزيمسيز (الشمشقيق) . وقد دخلت الامبراطورية في عهد من الاضطراب السياسي والفوضى . والثورة التي اوصلت اسحق كومنين الى العرش سنة 1057 لم تنجح في مسانده فأسلم العرش الى رجل مســالم كان يرأس مجلس الشيوخ هو (قسطنطين دوكا) فلم يستطع منع الفوضى من التغلغل فـي الادارة والجيش ...

وهكذا استطاعت المجموعات التركية الغازية ان تستغل ظروف البيزنطيين دون علـــم منها وتمــهيد عهد الغزوات العربية السابقة من جديد ونفذت أول مانفذت من المشـــرق الى ارمينية . ومنذ سنة 1048 كان طغرل بك احيانا وابراهيم ينال أو قتلمش احيانـــا اخرى يتوغلون أكثر فأكثر في الاراضي البيزنطية بأرمينية .

على ان موت طغرل بك سنة 1063 ووصول ألب ارسلان الى العرش غير الموقف قليلا وقد جاء السلطان بنفسه سنة 1064 فأخذ في ارمينيا (آني) ثم (قارس) وهدم المدينـــة الاولى ثم اضطر للرجوع الى ايران الشرقية بسبب ثورة اقربائه ولكن بعد ان فتح لجماعته طريق الاناضول . واقبلت الجموع التركية تخرب وتنهب حتى وصلت قيسارية وهدمتها سنـــة 1067 ومشت لما بعدها . واتفق في هذه السنة ان آلت الامبراطورية الى (رومـــان ديوجين) ممثل الحزب العسكري الاناضولي فحاول ان يعيد تنظيم آلة الحرب التي حلّ فيها المرتزقة النورمان والترك والروس محل الفرق الاناضولية .

وبالرغم من ان فرق السلاجقة المتنقلة لم تكن لتقاس بالجيش الامبراطوري فانهم تمكنوا من اسر أحد قواد بيزنطة (مانويل كومنين) عند سبسطية سنة 1070 وتوغلوا حتى قرب الساحل الايجي . وفي هذه السنة نفسها جاء ألب ارسلان نفسه فاحتل بلدة ملازكرد ثم خرب ملاطية وانحدر بعد ذلك نحو الرها فلم يستطع أخذها ووجه قواه ضد الامير المرداسي رشيد الدولة محمود صاحب حلب فأخذ عاصمته واضطره للخضوع له .

وقرر الامبراطور البيزنطي ملاقاة الب ارسلان فجمع جيشا يقدره المؤرخون بمائتي الف مـــن مختلف المرتزقة وتوجه به نحو ارمينية واستعاد ملازكرد وعلم السلطان السلجوقي وهو في اذربيجان بعد ترك حلب فعاد ولقي الروم جنوبي ملازكرد (غشت 1071) وكانت معركة تاريخية هزم فيها الجيش البيزنطي هزيمة لعلها اعظم كارثة في تاريخ بيزنطة وجرح الامبراطور البيزنطي فيها واقتيد اسيرا الى الب ارسلان . والمؤرخون اللاتين يعتبرون هذه الواقعة مبررا للحروب الصليبية لأنها

في نظرهم قد برهنت على عدم صلاح بيزنطة للدفاع عن المسيحية ضد الاسلام وعلى ضرورة تدخل اللاتين للدفاع . ان سنة 1071 هي التي أتت بسنة (1095) الحروب الصليبية

على ان الذى جعل ملازكرد كارثة وجر وراءها تلك النتائج التاريخية الخطيرة انما هو فوضى الدولة البيزنطية نفسها . ولم ينظر المنتصرون انفسهم الى نصرهم الا على انه يضع في ايديهم ارمينيا وقد يكسبهم انطاكية والرها . وعلى هذا الاساس فاوض ألب ارسلان اسيره الامبراطور وعامله في الوقت نفسه بمنتهى الاكرام والرعاية ، واعاده بعد فترة صغيرة محروسا الى أرضه . وبدلا من ان يستغل نصره اسرع الى ماوراء النهر سنة 1072 حيث توفي . والروم انفسهم هم الذين فتحوا ابواب آسيا الصغرى جميعا للغزاة الترك الصغار .

ومن الغريب ان السلطان الجديد ملكشاه لم يضع رجله في ارمينيا أو آسيا الصغرى وقد تم توغل الترك فيهما في عهده : شوهدت جموع الترك بعد اشهر من ملازكرد في (كريستوبوليس) الضاحية الآسيوية للقسطنطينية وكان الشاطىء الشرقي من البوسفور تحت رحمتهم واطراف العاصمة نهبا لهم . وقد كلف ملكشاه ابن عمه ابن سليمان بن قتلمش بحرب البيزنطيين فاستطاع هذا السلجوقي الصغير ان يسلب الروم لحسابه الخاص ثلاثة أرباع آسيا الصغرى ويؤسس فيها امارة تحولت فيما بعد الى سلطنة عرفت بسلطنة سلاجقة الروم دامت منذ سنة 1077 حتى 1302 وكانت عاصمتها نيقية أولا ثم قونية منذ سنة 1067 .

بينما كانت عائلة تركمانية أخرى : عائلة الدانشمند (دانشاه) تؤسس في شمال شرقي الاناضول حول سيواس واماصية وقيسارية امارة قوية مستقلة عن سليمان ، وان كانت متعلقة نظريا بسلطنة ملكشاه .

على اننا يجب ان لانشبه هذا الفتح ، الذى جاء نتيجة صدفة موفقة ، بالدولة التى نظمها نظام الملك لألب ارسلان وملكشاه في ايران انه لم يكن اكثر من غزوات نثا هبه مخربة (وتأسيس سلطنة سلاجقة الروم انما يرجع الى عمل السلطان قليج ارسلان الذى اعقب سليمان بعد سنة 1092) وهذا مايفسر كيف بقي ساحل البحر الاسود في شمال الاناضول وسواحل كيليكيا في الجنوب في يد الحاميات البيزنطية كما بقيت الرها وانطاكية في شمالي سورية في ايديهم ايضا حتى سنة 1087 و 1085 ولو أنها جميعا كانت منقطعة عن الامبراطورية الأم في القسطنطينية .

ب — التوسع في سورية : — كانت الشام منذ أواخر العهد الاموى نهبا موزعا لمختلف الحكام والتغلبين ولم تكد تعرف عهدا من الاستقرار والحكم الموحد الا في فترات محدودة كما في العهد الطولوني أو الاخشيدى ولما جاء العهد الحمداني استقر شمال سورية أو تنظيم على الاقل فترة من الزمن دون ان تظفر بمثل ذلك سورية الجنوبية . وما كاد يسقط بنو حمدان حتى تغلب على مابين الموصل ودمشق امراء الجماعات البدوية كبني عقيل في الموصل وبني مرداس الكلابيين في حلب ، ولئن كانوا كالحمدانيين من حيث الاصل الا انهم لم يكونوا

مثلهم في وضوح الاثر واتساع الحكم وكان العقيليون يتبعون بغداد بينما يتبع المرداسيون القاهرة . أما مابين دمشق ومصر فقد وقع في يد الفاطميين مباشرة وبقي الساحل منذ انطرسوس حتى انطاكية وما بعدها بيد الروم ينازعهم عليه الفاطميون دون طائل .

على ان الشام لم تعرف ، رغم الحكم الفاطمي الهدوء او الاستقرار ولا استطاع المرداسيون ان يكونوا دولة قوية في الشمال ينفصلون بها عن التبعية الفاطمية . وانقضى الثلثان الاولان من القرن الحادي عشر (مابين اواخر القرن الرابع وأواسط القرن الخامس) والشام على العادة التي عرفها في الحكومة منذ قرنين ـ نهب لمختلف المتغلبين ـ وقد حكم دمشق مرة حمال تراب اسمه قسام وحكم بلدة صور فلاح يدعى علاقة ، وتقاسم ثلاثة من زعماء البدو ملك الشام كله . وتقلد خراج الشام للفاطميين مرة يهودي اسمه منشا . وبرز بنو الجراح في بادية حمص وتغلب على دمشق بنو سنان ـ وكلهم من بني كلاب ـ وظهر في فلسطين والاردن زعماء بني طيء كما اصبح الاحداث والفتيان في دمشق وحلب وغيرها قوة توفع وتضع . وكانت الادارة الفاطمية أول الأمر من الحزم بحيث تفرض الطاعة والامن رغم ماكان عليه الولاة من ظلم وسفك ولكن هذه الادارة انحطت زمن الحاكم والظاهر والمستنصر انحطاطا غريبا لكثرة تبدل العمال واضطراب الأمن وغلاء الاسعار وتفرق البلاد وخصومات المتزعمين فيها وانحراف أهل الشام عامة عن الدعوة الفاطمية العلوية . وفي هذه الغمرة من الفوضى أطل السلجوقي على الشام .

كان أول اتصال بين السلاجقة والشام حين جاء ألب ارسلان سنة 463 / 1071 (قبيل موقعة ملازكرد) فحاصر حلب واستسلم له صاحبها محمود بن نصر بن صالح مرداس فأقره عليها وقطعت خطبة المستنصر العلوي وخطب للقائم العباسي ويظهر ان ألب ارسلان لم يكن يقصد الشام لأنه عاد الى اذربيجان وبعد ذلك انطلقت بعض المجموعات التركية تجوب حظها في الشام بقيادة قائد تركماني اسمه اتسز بن آبق (1) ولعل هذا القائد تجنب الاصطدام بقوى حمص أو دمشق أو حمص فاننا نراه يظهر فجأة في سنة 463 نفسها في فلسطين : فيحتل الرملة والقدس ويبسط سلطانه على كل المنطقة عدا عسقلان ويعود بعد ذلك فيحاصر دمشق وينهب غوطتها وأعمالها ويقطع الميرة عنها دون أن يظفر منها بطائل .

ويكرر حصار دمشق أربع سنوات متتالية ، يقصدها عند ادراك الغلات فيقوى بها ويضعف جند دمشق ويكثر بهم الغلاء حتى اضطرت المدينة للاستسلام سنة 468 لانعدام الاقوات واستسلم معها كل عمل دمشق ولم يطل فرح الناس بعودة الخطبة للمقتدي العباسي لأن اتز لم يكن يختلف في الظلم وسوء المسيرة عن الحكام السابقين . وقد خطر في باله ان يهاجم مصر

---

(1) يسمية أهل الشام الاقسيس . ويذكر ابن الاثير ان اسم ابيه (اوق) .

سنة 468 / 1076 ويلغي الخلافة الفاطمية فيها . فسار الى القاهرة وضيق على اهلها ولم يبق الا ان يملكها . ولكن يظهر ان جنده تفرقوا في تلك المناطق الخصبة للنهب فعدا عليهم السكان والجند الفاطمي واضطر الاقسيس للتراجع " على اقبح صورة " كما يقول ابن الاثير واغتنم أهل القدس هذه الفرصة ... عليه ولكنه قمع تلك الثورة بقسوة سنة 1077 / 469 وقاست الشام بعد ذلك ولاسيما دمشق عهدا من المجاعة والقحط لم يبق من اهلها سوى عشر العشر (1) .

كان اتسز يعمل في جنوب سورية لحسابه الخاص ضمن النطاق السلجوقي بينما كانت قوى سلجوقية أخرى قد بدأت تعمل في الشمال لحسابها أيضا :

- وكان الامير العقيلي صاحب الموصل (شرف الدولة مسلم بن قريش بدران بن المقلد ابن المسيب) قد ماشى النفوذ السلجوقي أملا في ان يستطيع تأسيس امارة تمتد من الجزيرة الى شمالي سورية . وفي سنة 1078 / 470 اقطع السلطان ملكشاه اخاه (تتش) مايفتحه في الشام فاتصل العقيلي بالامير السلجوقي واتفقا على اغتصاب حلب من القبيلة العربية المنافسة للعقيليين : بني مرداس (2) وضرب الحصار حول المدينة من الحليفين . وشعر مسلم بن قريش متأخرا بخطأ توطيد اقدام السلجوقيين في شمالي الشام فانسحب من الحصار .

وما كان الترك وزعيمهم تتش بالذين يعرفون حصار المدن فتركوها واتجهوا نحو الجنوب قانعين بما يجدونه من غنائم في الطريق .

في اثناء ذلك كان الفاطميون في مصر قد انفذوا جيشا بقيادة نصر الدولة الجيوشي لاسترجاع سورية ووصل هذا الجيش الى دمشق وحاصر اتسز فيها مرتين سنة 471 فاضطر القائد التركي الى الاستنجاد بالقوة السلجوقية القادمة في أواسط سورية تتش .

وما كاد القائد الفاطمي يعلم بمسير السلاجقة اليه حتى ترك حصار دمشق وهرب نحو الساحل ونزل تتش بمرج عذراء ثم دخل دمشق فاستقبله فيها اتسز غير انه مالبث ان قتله واضحى بدلا منه سيد المنطقة مابين أواسط سورية وحدود مصر .

وعاد تتش يحاصر حلب سنة 472 فلم يتمكن منها وان تمكن من اطرافها فملك بزاعة والبيرة وأحرق ربض اعزاز فلما عاد الى دمشق استدعى الحلبيون الامير العقيلي واعترفوا بنفوذه على ان يدير البلد مجلس من شيوخها . وكتب العقيلي الى السلطان ملكشاه السلجوقي يعده بدفع ثلاثمائة الف دينار عنها كل سنة .

---

(1) - صار سكان دمشق ثلاثة آلاف فقط وكان بها (240) خبازا فلم يبق سوى اثنين وتصيد الناس بعضهم بعضا في الازقة للذبح والاكل .

(2) - كان المرداسيون يحكمون حلب منذ نصف قرن وآخر امرائهم فيها الامير ابو الفضائل سابق بن محمود المرداسي .

ولعب الامير العقيلي دورا واسعا في هذه الفترة لم يقدر فيه تمام التقدير القوة السلجوقية فطمع بالاستيلاء على سورية كلها بمعونة الفاطميين وكاتبهم على ان تصل قواهم لنجدته عند دمشق وحاصر تتش فيها فعلا (مطلع سنة 476) ولكن الفاطميين لم ينجدوه وثار عليه اهل حران فانسحب من دمشق الى الجزيرة . وما لبث ان اصطدم بالسلجوقي الآخر سليمان بن قتلمش فكلفته تلك الخصومة حياته .

ذلك ان سليمان رأى ظهور امارة ارمينية في منطقة طوروس قطعت الطريق بين الاناضول وسورية وضمت اليها انطاكية وكان صاحبها فيلارتوس الارمني (والعرب يدعونه الفردوس الرومي) قد اساء الى جنده وسجن ابنه فأرسل الابن وشحنه انطاكية [1] يدعو سليمان لاحتلال المدينة . فأسرع سليمان لاحتلالها وبشر بالفتح السلطان ملكشاه سنة 477 .

ولكن الامير العقيلي بعث يطلب من سليمان الجزية التي كان يدفعها فيلارتوس فرفض ونهب العقيلي منطقة انطاكية وجازه سليمان بالمثل في حلب ووقعت الواقعة بين الاثنين فقتل شرف الدولة العقيلي . . . وبقتله سنة 477 هـ انتهى آخر دور للامراء العرب في الشام ووقعت البلاد بيد الترك في الغالب أو الشراكسة أو الاكراد .

على ان سليمان لم يستطع احتلال حلب من بعده وقد أثار مقدمها اذ ذاك (ابن الحتيتي) القوى السلجوقية كلها لعله ينجح في حفظ المدينة فقد كاتب السلطان ملكشاه في اصبهان يعده بتسليمها وكتب الى تتش في دمشق يستنجده بينما كان سليمان بن قتلمش ينتظر الفرصة المناسبة للاحتلال .

وبدأ النضال من أجل حلب (وسورية كلها من ورائها) بين الاميرين السلجوقيين : أولا سليمان صاحب الاناضول ، مابين نيقية وانطاكية وتتش أخي السلطان الاكبر الذى أعطاه اخوه مايستطيع فتحه من الشام ورفده بقائد مظفر هو (ارتق بن اكسب) الذى جعله تتش حاكما على القدس . وفي المعركة التي دارت قرب حلب قتل سليمان أو انتحر من اليأس سنة 1086 .

وكان لموت سليمان نتائج بعيدة المدى لأن ابنه قليج ارسلان كان بعد فتى فتقسم الامراء التركمان الاناضول فيما بين سنة 1086 و 1092 ولما وصل الصليبيون سنة 1097 الى الاناضول لم تستطع هذه السلطنة ان توقف سيرهم الى الشام ، هذا بالاضافة الى ان هوة من الدم فتحت فيما بين الفرع الاناضولي من السلاجقة وفرعي سورية وايران فلم يتفقوا بعد ذلك على أمر . وواجهوا الصليبيين منفصلين . وقد شل مصرع سليمان عذر حلب القوى التركية فلم تعد قادرة على ايقاف الزحف الفرنجي المقبل .

---

(1) كانت انطاكية في يد الروم منذ سنة 358 هـ .

أما تتش فقد بدا لفترة وجيزة كأنه على اهبة تأليف مملكة سلجوقية سورية متى تسلم حلب ولكن حلب لم تستسلم له واعلن مقدمها (ابن الحتيتي) إنه لا يسلمها الا للسلطان نفسه وكان السلطان — على مايظهر — يخشى توسع نفوذ اخيه تتش ولا ينتظر ان يتقرر مصير منطقة واسعة كبورية دون وجوده عدا ان حلب تدعوه فمشى من اصبهان عن طريق الموصل الى الشام .

واثناء ذلك استطاع تتش ان يدخل مدينة حلب ، بخيانة بعض حاميتها ، ولم تقاومه الا القلعة ، غير انه ماكاد يعلم بقدوم أخيه واحتلاله (الرها) من الروم في طريقه حتى حلب واتجه نحو دمشق . ورفض مواجهة اخيه بينما دخل ملكشاه حلب سنة 1086 وفرض تقسيما واسع النطاق لشمال الشام : فأعطى حلب الى قائده ومملوكه قيم الدولة آقسنقر سنة 1087 وضم اليه معها حماة ومنبج واللاذقية ، ومنح قائده الآخر (بوزان) الرها . وجعل للقائد ياغي سيان مدينة انطاكية . وتقبل من العائلة المنقذية مابيدها من البلاد (شيزر واللاذقية وكفر طاب وأفامية) وابقي لها شيزر . واقطع محمد بن مسلم ابن قريش العقيلي الرحبة واعمالها وحران وسروج والرقة والخابور . وزوجه باخته زليخة خاتون كما أقر القاضي ابن عمار على طرابلس وترك حمص لابن ملاعب المتغلب عليها . وأما تتش فقد بقي له دمشق وفلسطين . ولم يبد أي اعتراض على هذه القسمة التي عمل ملكشاه فيها على الحدّ من نفوذ أخيه ليحفظ على امبراطوريته الواسعة وحدتها ويذكر المؤرخون انه ضرب بسيفه في مياه المتوسط مؤكدا ان لأيحد سلطانه الا حدود الارض .

على اننا نجب ان نلاحظ ان دخول تتش في مسرح الحوادث بشمالي سورية ألقى سلطنه السلاجقة في الاناضول في الفوضى الاقطاعية كما ان تدخل اخيه ملكشاه . . . ألقى سورية في التفكك الاقطاعي ومنع من تشكيل دولة واحدة تستطيع ان تقف في وجه الصليبيين بعد اثني عشرة سنة . هذا بالاضافة الى ان حكم جنوب الشام لم يصف لصاحبها تتش فان الفاطميين لم يقطعوا املهم من استعادته فخرج بدر الجمالي الوزير الفاطمي المشهور فحاصر دمشق ولم يظفر منها بشيء ولكنه بعث بجيوش اخرى من مصر سنة 482 / 1089 قصدت الساحل وفتحته حتى عكا وصور وصيدا وجبيل .

ج — ضم الحجاز واليمن :— لم يتكلف السلطان ملكشاه شيئا في ضم الحرمين : مكة والمدينة اليه والى الخلافة العباسية فقد بعث اليهما يعلن قطع الخطبة للخليفة الفاطمي وصلتها للعباسيين سنة 479 فسار التركمان الى الحجاز جماعات صغيرة على مايظهر وبعد خمس سنوات كلف السلطان ملكشاه عددا من امراء التركمان (جبق ، توشك ، كوهوائين) بأن يحتلوا الحجاز ويفتحوا اليمن . فملكوا البلاد حتى عدن " وأساؤوا السيرة في أهلها ولم يتركوا فاحشة ولا سيئة الا ارتكبوها " كما يقول ابن الاثير .

3 ـ تجزوء الامبراطوريـــة ودو يلات الاتابكـة

كان موت ملكشاه سنة 485 موءذ نا بتفكك الامبراطورية السلجوقية لاسيما وقد سبقه الـــي الموت في السنة نفسها نظام الملك : منظم الامبراطورية وروحها الاداري وسرعان ماارجــع العالم الاسلامي الى عهد من التجزوء لعله اوسع واد هى من العهد الذى سبق السلاجقـــة ذ لك ان النزعات البدوية والاطماع الشخصية اللامركزية لدى الامراء السلاجقة والقواد والاتراك لم تكن قد تركت مكانها بعد لفهم الادارة و المنظمية واحترام الحكم الشرعي . يضاف الـــى هذا ضعف الشخصيات السلجوقية بعد ذ لك الجيل الاول وعدم ظهور سلالة أو امير جد يـــر بمتابعة أو احياء عهد الب ارسلان أو ملكشاه . ولهذا دب النزاع الاهلي بين أبناء البيـــت السلجوقي وتوزعت الامبراطورية السلجوقية الى عدد من الممالك والامارات لم يعد اصحابهـــا يفكرون بغير الاحتفاظ بها وهذا ماسمح لعدد من العوامل الاخرى ان تقوى أيضا وتعـــود فتهدم بدورها لا القوة السلجوقية فحسب ولكن قوى العالم الاسلامي كله .

من هذه العوامـــــــــل :

1 ـ نشوء واستفحال شأن الطائفة الاسماعيلية الصّباحية التي كانت عدوة للقوى الاسلامية والصليبية على السواء .

2. ـ دخول الصليبيين الى الشام واتجاه كل القوى المسلمة في العراق والشام ومصـــر الى مقاومتهم .

3 ـ الصراع بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة .

4 ـ ظهور الدولة الخوارزمية الفتية وابتلاعها بالتدريج املاك الدولة السلجوقية .

5 ـ قيام دولة الاتابكة بنتيجة نظام الاقطاع العسكرى الذى وضعه نظام الملك سنـــــة 480 .

امتد أثر هذه العوامل ـ على اختلاف في زمن ظهورها ـ الى مابعد انهيار الحكـــم السلجوقي نهائيا في بغداد سنة 590 وسندرس بالترتيب البيت السلجوقي على الحكم وصراعه مع الخلفاء العباسيين ونشوء دول الاتابكة خلال ذلك ـ لاسيما في الشام والجزيرة ـ واستفحال شأن الاسماعيلية موءجلين بحثي الحروب الصليبية وظهور الدولة الخوارزمية الى مابعد ذلك .

آ ـ النزاع بين ابناء البيت السلجوقـــــــــي : ـ ماكاد ملكشاه يموت سنة 485 حتى تحركت الاطماع في آل بيته جميعا : فقد خلف هذا السلطان اربعة ابناء هم : بركيارق وكان في الثانية عشرة من عمره ، ومحمدا وكان يصغره بستة اشهر وسنجر وكان في الثامنة من عمره أما الابن الرابع محمود فكان طفلا في الرابعة هذا بالاضافة الى عمين لهوءلاء الابناء همـــا : تتش صاحب دمشق وارغون أرسلان الذى كان اخوه ملكشاه قد ولاه خراسان (1) . ولم يكن اولاد ملكشاه من العمر بحيث يكون لهم اطماع وآمال ولكن كان لكل منهم حاشيته التي تهتـــم

(1) هذا عدا حفيد لملكشاه من ابنته (زوجة الخليفة المقتدى) هو " جعفر " الا انه لم يكن بذى وزن في النزاع السلطاني مما يدل على ضعف الخلفاء العباسيين ضعفا مطلقا .

بشؤونه وتحرص على ان يتولى السلطنة من يضمن لها مصلحتها الخاصة . اما العمّان فقد كان أقواهما وأبتمذ هما اطماعا هو تتش صاحب دمشق الذي كان غاضبا منذ تقسيم الشام سنة 1086 وقد اعتبر نفسه الوريث الشرعي الروحي لأخيه الاكبر ملكشاه . ولم يكن همّ ارغون ارسلان يجاوز الاحتفاظ باقطاعه في خراسان والاستقلال به .

ظهر النزاع بسرعة بين هذه القوى جميعا وقد ساعد عليه ان ابناء ملكشاه كانوا صغارا وانهم لم يكونوا من ام واحدة فقد كان اكبرهم بركيارق مثلا من أم تدعى زبيدة ومحمود اصغرهم من أم طموح هي تركان خاتون (اخت السلطان القرخاني) وأما محمد وسنجر فمن أم ثالثة . هذا بالاضافة الى ان كل واحد من مدعي الارث السلطاني كان في بلد : فتتش في دمشق واخوه ارغون ارسلان في خراسان وبركيارق في اصفهان ومحمود الصغير مع امه في بغداد والاخوان محمد وسنجر في الريّ ولكنهما كانا اضعف الفرقاء الآن في النزاع فلم يظهر لهما اسم في أول الامر اذ أقاما في ظل اخيهما بركيارق . ولم يكن من السهل التنبوء بغلبة احد المتنازعين على الآخرين لأن القوى كانت متكافئة عدا ان مفاجآت الخيانة في المعارك وصدفة مجيء قوات تركية جديدة مما وراء النهر تنضم الى هذا وذلك في الصراع كانت تترك النتيجة في يد الحظ اكثر منها في يد الحساب الدقيق .

ويمكن ان نقسم أدوار النزاع بين ابناء البيت السلجوقي الى ادوار ثلاثة :

الاول ويمتد منذ وفاة ملكشاه سنة 485 حتى وفاة ابنه محمد سنة 511 / 1117 وينتهي الثاني بموت محمود بن محمد هذا سنة 525 / 1130 ويمتد الثالث في الفترة الباقية حتى سنة 590 وخروج السلاجقة من بغداد وكان البيت السلجوقي قد فقد كل هيبة في هذه الفترة

الدور الاول :- توفي ملكشاه في بغداد وكان يجب ان يعقبه في السلطنة ابنه في اصفهان بركيارق غير ان ارملته الطموح (تركان خاتون) كتمت نبأ وفاته ليتسنى لها الوقت الكافي لتمكين صغيرها محمود من السلطنة يساعدها في ذلك وزيرها تاج الملك . فبذلت الاموال للامراء واستحلفتهم على تولية ابنها . وارسلت الى الخليفة المقتدي تطلب السلطنة لمحمود واقامة الخطبة له على المنابر . ولما اعتذر الخليفة بصغر سن الطفل اكرهته على الموافقة واقيمت الخطبة لمحمود ببغداد والحرمين الشريفين ولقب بناصر الدنيا والدين (أواخر سنة 1092) وبعثت تركان خاتون بالاوامر للقبض على ركيارق .

وهكذا بدأ بركيارق عهده في السلطنة (كآبائه من قبل) بالصراع مع الطامعين من أهله وأولهم اصغر اخوته : محمود . وقد نفذ القبض على بركيارق الا أن اصدقاء ومماليك الوزير القتيل نظام الملك والمخلصين للسلطان الأب ملكشاه انقذوه كرها بالوزير تاج الملك ومشوا به الى الريّ في حوالي عشرين ألفا ونادوا به سلطانا على البلاد ولم تتردد تركان خاتون في السير لحربه ولكنه استطاع ان يجتذب بعض جنودها ولما سارت الى اصبهان واحتلتها لقبها

جماعة بركيارق في (بروجرد) وانتصروا عليها وأسروا الوزير تاج الملك وقتلوه وحاصروا اصبهان طويلا حتى بذلت توكان مبلغا من المال رفع معه بركيارق الحصار ومنحها وابنها حكم اصبهان وفارس واعترفت له بالارث الباقي كله وبلقب السلطنة فرحل عنها الى همدان . غير ان منافسا جديدا كان قد ظهر لبركيارق في شخص عمه تتش الذي خرج على ابن أخيه وأجبر بعض الامراء على الانضمام الى صفه وزحف بهم وبقواته على ايران لكن هؤلاء الأمراء خذلوه ثم وعدد من جند تتش فاضطر للرجوع الى الشام كالمهزوم بينما كان بركيارق يستقبل الامراء والجند المتفرقين عن عمه ويصبح بحكم الواقع السلطان الوحيد .

وفي أواخر سنة 486 / 1093 قدم بركيارق بغداد فخطب له الخليفة في مطلع 487 / 1094 بالسلطنة ولقبه بركن الدين . ومات الخليفة في اليوم الثاني وأشرف السلطان الجديد على تعيين خلفه المستظهر (487 ـ 512 = 1094 ـ 1118) ولعب الحظ دوره في خدمة بركيارق فقد كانت توكان تكيد له حتى اضطر للقبض على ابنها محمود الا انها توفيت في هذه السنة نفسها وتوفي من بعدها ابنها ايضا في شهرين متتالين (ايلول وسبتمبر ونوفمبر) فتخلص من منافستها وعادت اصبهان وفارس اليه .

أما تتش فلم يكن قد عاد الى الشام الا ليعاود جمع القوى ويعاود النزاع للسلطنة العليا وقد بدأ فانتقم من الذين خانوه : فاستطاع في سنة 1094 (مايس ـ يونيو) أن يهاجم حلب ويهزم صاحبها واحتل حلب والرها ثم الجزيرة ومشى مرة أخرى عن طريق اذربيجان الى ايران فخضعت له الري وهمدان ... وكانت امبراطورية سلجوقية مركزها دمشق على وشك الظهور .

وكاد أمر بركيارق أن ينتهي في هذه الفترة لأنه ولم يستطع الوقوف في وجه عمه عند نصيبين في الجزيرة حين خرج له . ثم حين اجتاز زاغروس شمال الموصل ليصل قبله الى ايران تفرق عنه كل جيشه . ثم وصل اصبهان وكان اخوه الصغير محمود بها اذ ذاك فقبض عليه أهلها وكادوا يسلمونه لولا موت محمود الصغير بالجدري فدفعهم كرههم لتتش الى الالتفاف حول بركيارق وتوارد الامراء والمرتزقة والترك عليه بعد ذلك . واستطاع بهذا الشكل ان يلتقي مع عمه في معركة قرب الري (سنة 488 / فبراير 1095) قتل فيها تتش بعد ان تفرق عنه اصحابه . ومن المهم ان نلاحظ انه اذا تخلى الامراء في اللحظة الحاسمة عن تتش فذلك لأن فعالية هذا السلجوقي وقسوته المخيفة كانتا تزعجان رغبات الامراء في الاستقلال . وبالعكس فقد كان الذي يجذبهم الى بركيارق هو اهماله وضعفه . فنجاحه كان يعني الضعف النهائي للقوة السلجوقية في الوقت الذي كانت فيه طلائع الصليبيين تتحرك من الغرب .

ولم يفعل بركيارق شيئا لاستغلال نصره على عمه بضم سورية اليه واكتفى بحكم بغداد وايران. أما سورية فقد تركها بركيارق لابني عمه . رضوان ودقاق اللذين رحلا من بغداد عقب مقتل

ابيهما تتش فتمسك احدهما رضوان بحلب وجعلها قاعدة ملكه بينما وصل الثاني دمشق وجعلها مملكة له سنة 1095 ولم يتدخل بركيارق في أمر الاخوين بل تركهما الى تنافسهما الاخوى العنيد وترك كذلك لقريبه (قليج ارسلان) بن سليمان بن قتلمش (وكان موقوفا في اصبهان حتى ذلك الوقت) ان يرجع الى آسيا الصغرى . وهكذا اضحت الامبراطورية السلجوقية سنة 1096 مقسمة ، برضاء السلطان بركيارق وتحت نفوذه الاسمي الى ست ممالك ثلاثة منها بيد الفرع الرئيسي للبيت السلجوقي وهي : سلطنة ايران وبغداد في حكم بركيارق نفسه ومملكة خراسان وما وراء النهر ثم امارة اذربيجان والباقي بيد الفروع الاخرى وهو : مملكتا دمشق وحلب وسلطنة الاناضول . واذا تابعت هذه الممالك الاخيرة قدرها الخاص بعد الآن فان النزاع الاخوى لم ينقطع في السلطنة الرئيسية وقد مضى بركيارق بقية عهده (حتى سنة 498 / 1104) في نزاع متصل مع أخيه محمد صاحب اذربيجان .

ثار محمد سنة 1099 وانحدر من بلاده فاحتل الري التي هرب منها بركيارق بعد ان انفض عنه اصحابه ثم لما عاد للحرب مؤيدا من قبيلة بني مزيد العربية وزعيمها صدقة (وقد كانت تنزل على الفرات بين البصرة وهيت) هزم من جديد وكانت بغداد في هذه الاثناء كالباب المفتوح كلما انتصر احد الاخوين احتلها واقام له الخليفة فيها الخطبة .

والتجأ بركيارق الى اخيه سنجر في خراسان ولكنه رفض قبوله واضطر بركيارق للتشرد كغيره من المغامرين حتى اجتمعت له بعض الفرق وساعده الحظ فانتصر على اخيه محمد قرب همدان واحتل منه الري والعراق العجمي كله (ابريل 1101) وجاء دور محمد في الالتجاء الى خراسان حيث استقبل بحفاوة (لأنه وسنجر اخوان لأم واحدة) واتفق الاخوان على حرب بركيارق . . .

وتحدث السيوطي عن الاضطراب الذي ساد تلك الفترة قائلا مانصه :

" عم الفساد وصارت الاموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والسلطنة مطموعا فيها واصبح الملوك مقهورين بعد ان كانوا قاهرين . فدخل العقلاء بينهما في الصلح وكتبت العهود والايمان والمواثيق . . . " على ان يبقى لقب السلطنة والخطابة لبركيارق ويصبح محمد ملكا على اذربيجان والرى وهمدان وقزوين وديار بكر والموصل .

ولم يدم الصلح غير اشهر وعاد محمد للثورة فهزم ولما حاصره اخوه في اصبهان فر محمد الى اذربيجان وعقد صلح جديد سنة 1104 خسر به محمد ماكان اخذه من العراق العجمي في الصلح السابق .. غير ان بركيارق توفي في هذه السنة 1104 / 498 فأصبح طريق السلطنة مفتوحا لمحمد ولم يكن ظل ملكشاه الصغير (ابن بركيارق) الذى آل اليه اللقب وأوصى له ابوه بالحكم واستحلف القواد ليسد الطريق على محمد الذى اسرع فاستولى على بغداد وقبض على ابن اخيه وسجنه بعد ان حكم عدة اسابيع فقد بعدها السلطنة كما فقد بصره .

وبقي محمد سلطانا بعد ذلك تقام له الخطبة ثلاث عشرة سنة .

الدور الثاني : (ومن ادوار النزاع في البيت السلجوقي) ويمتد طوال عهد السلطان محمود بن محمد ابن ملكشاه (511 ـ 525 = 1117 ـ 1130) الذي أجلسه ابوه قبيل موته على عرش السلطنة وله من العمر اربع عشرة سنة .

أول من تحرك لانتزاع السلطنة منه عمه سنجر صاحب خراسان اذ تلقب بمعز الدين ومشى قاصدا بلاد الجبل والعراق بحجة ان اخيه صبي وتحرك محمود للقاء عمه فالتقى الجيشان عند الري (سنة 513 / 1119) وكاد سنجر يهزم لولا استعانته ببعض الفيلة فتراجع السلطان الصغير الى اصبهان ليجمع الجند بينما قطعت الخطبة في بغداد له وخطب السلطان سنجر .

ويظهر ان سنجر لاحظ اجتماع الامراء والجند على ابن اخية من جديد فكاتبه من جديد ان يصالحه وبذل له ان يجعله ولي عهده فأجاب محمود لذلك وسار اله عمه فتقبله سنجر بالاكرام وكتب الى الاقطار ان يخطب لمحمود من بعده واقطعه البلاد التي اخذها منه من حدود خراسان الى بلاد الشام عدا الري : أي همدان واصبهان وفارس وكرمان وخوزستان والعراق العربي واذربيجان مع ارمينية وديار بكر والجزيرة وبلاد الشام فضلا عن بلاد سلاجقة الروم (وكانت بيد قليج ارسلان) . لكنها سلطنة اسمية لأن السلاجقة الروم كانوا قد انفصلوا تماما عن الدولة السلجوقية منذ وفاة ملكشاه . وكانت الشام قد انقطعت بدورها وتشكلت فيها امارتان للأتابكة في دمشق وحلب بجانب اربع امارات صليبية تمتد على الساحل مابين الرها وفلسطين . وكانت بلاد الجزيرة واذربيجان وفارس وديار بكر وغيرها موزعة بين الاتابكة العديدين .

الدور الثالث : ـ ويبدأ بوفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة 525 / 1130 فقد انقسم السلاجقة على انفسهم الى معسكرات اربعة لكل منها اطماعه الخاصة في السلطنة ولكل مؤيدوه من القواد والجند ولابد لكل منها من الخروج والتمرد فقد اضحى الخروج على السلطان الجديد تقليدا دائما في البيت السلجوقي . معسكر يترأسه داوود ابن السلطان محمود الذي نودي به سلطانا عقب وفاة أبيه . ومعسكرات ثلاثة أخر على رأس كل منها عم من اعمام داوود وهم : مسعود وسلجوقشاه وطغرل .

ومع ان الاسم الاول في السلطنة كان للسلطان سنجر وكان مايزال حيا فان النزاع بين هؤلاء المتنازعين لم يكن على الاسم الثاني وانما كان على الاسم الاول نفسه .

ومن جهة أخرى فبالرغم من اتفاق مسعود وسلجوقشاه على مبدأ عزل ابن اخيهما داوود الا انهما كانا مختلفين فيما بينهما حول من تكون له السلطنة بعد عزل هذا العدو المشترك ولهذا دارت بين الفريقين حروب طويلة واستعان مسعود في هذا النزاع بعماد الدين زنكي (اتابك الموصل) .

وقد اتفق الاخوان مسعود وملكشاه على قتال عمهما واخيهما ومشى الحليفمعهما لذلك ولكنه لم يتم الطريقواضطر مسعود لمواقعة عمه في معركة عند همدان خسرها فأرسل اليه عمه يستدعيه فلما جاء اكرمه ولكنه نصب للسلطنة (طغرل) الثاني سنة 526 بهمدان وعاد الى خراسان (خوفا من سلطان ماوراء النهر) .

وسرعان ماهددت سلطنة طغرل : هددها اولا ابن اخيه داوود فهزمه طغرل ولكن الخطر الحقيقي جاءه من مسعود الذى خطب لنفسه في بغداد وعاد ينازع اخاه وابن اخيه معا على بلاد الجبل وفارسواذربيجان . واتفق ان توفي طغرل الثاني سنة 529 فاستولى مسعود على حصّته في ايران الغربية واستمر النزاع بين مسعود وسلجوقشاه وداوود (دون السلطان سنجر الذى شغل بظهور دولة خوارزم ودولة الخطا في ماوراء النهر) حتى سنة 532 اذ استقر أمر السلطنة لمسعود .

ويعتبر هذا السلطان آخر سلاطين السلاجقة الاقوياء . فقد استطاع ان يقف لحد ما ضد القوى التي تهدم السلاجقة واهمها الخلفاء العباسيون ويعتبر المؤرخون موته سنة 547 / 1152 بداية انحلال البيت السلجوقي في العراق وبداية انتهاء سعادته . فقد استطاع الخليفة المقتفي (530 - 555 = 1136 - 1160) من بعده ان يد م من سلطان السلاجقة وان يجعل منهم ألعوبة في يده .

وليس من تاريخ السلاجقة بعد السلطان مسعود من حدث هام سوىاستمرار النزاع العائلي والضعف فقد تعاقب على عرش السلطنة في اصبهان (دون ان تخرج عن نفوذهم بغداد) خمسة سلاطين هم بالترتيب : ملكشاه الثالث بن محمود ثم اخوه محمد (الثاني) ثم عمهما سليمان باشا (ابن محمد الاول ابن ملكشاه الاول) ثم انتقلت السلطنة الى ارسلان شاه ابن طغرل الثاني (ابن محمد بن ملكشاه الاول) ومنه الى ابنه طغرل الثالث الذى كان آخر سلاجقة العراق .

ويهمل المؤرخون ذكر شيء عن سلاطين السلاجقة في هذه الفترة ولعل في هذا دليلا على تفاهة موقفهم السياسي وضعفهم العسكرى في الوقت الذى كانت تنشأ فيه في الشام ومصر القوة الايوبية بقيادة يوسف بن ايوب (صلاح الدين) . ولم يذكر ابن الاثير مثلا خبر وفاة أرسلان وانتقال السلطنة لابنه طغرل سنة 571 في اكثر من سطر تحت عنوانه المعروف للاخبار الصغيرة (ذكر عدة حوادث) ...

أما سلطنة السلاجقة في ايران الشرقية (خراسان) فقد كانت قد انهارت منذ وفاة السلطان سنجر سنة 552 / 1157 الذى يعتبر اكبر السلاجقة المتأخرين بما حاوله من منع البيت السلجوقي من الانحطاط .

واذا نحن استثنينا لحد ما سلاجقة الروم ، فاننا نلاحظ ان سلاطين السلاجقة فشلوا

جميعا في جهودهم الانشائية ولم يوفقوا في اعادة ذلك الجهاز الحربي الساساني القديم أو ذلك الجهاز الذي انشأته الامبراطورية العباسية في القرن التاسع .

وقد ترك السلاجقة مكانهم في ايران لأتراك جدد : هم الخوارزميون الذين عاودوا محاولة السلاجقة لاقامة دولة تركية فارسية : تركية في جهازها الحربي ، فارسية في نظامها الاداري في الوقت الذي كان فيه الخطا ، المغول ، يستولون على التركستان معلنين قبل مائة سنة ابتداء المدّ المغولي المقبل بقيادة جنكيز خان .

ب — النزاع مع الخلفاء العباسيين : حين استدعى الخليفة القائم بأمر الله طغرل بك السلجوقي الاول لينقذه من تحكم البساسيري خاصة والبويهيين عامة أخطأ حين ظن باستدعاء السلاجقة السنّيين قد استعاد نفوذه وسلطانه وسرعان ما انهارت آمال العباسيين اذ وجد القائم ومن خلفه من بعده في السلجوقيين الكبار (طغرل وألب ارسلان وملكشاه) نسخا أخرى من البويهيين الكبار واذا كان البويهيون قد استبدوا بالسلطة فان السلجوقيين ورثوها منهم بدورهم ولم يعيدوا شيئا منها الى الخلفاء وظل هؤلاء يعيشون معزولين على اقطاعات مقررة لهم يأخذون دخلها كحالهم في العهد البويهي . وكل ما كان لهم من مظاهر الحكم هو الامور الشكلية : كذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة والاذن بالخطبة للسلاطين وضرب الدبادب على باب القصر وتقبيل الارض والاذيال .

وربما كان اشيء من اسباب الضعف العباسي يعود الى الخلفاء انفسهم فانهم كانوا قد انصرفوا الى الترف وحياة الدعة حتى قبل دخول السلاجقة بغداد فبنوا القصور الفخمة وبالغوا في الاحتجاب عن الرعية [illegible] ويذكر الرحالة اليهودي تودلة انه حين زار بغداد حوالي سنة 555 / 1160 كان الخليفة العباسي لايخرج من قصره الا مرة واحدة في العام حين يؤم الناس للصلاة في عيد الفطر . وبالرغم من ان قسوة السلجوقيين على الخلفاء لم تكن بدرجة القسوة البويهية ، وبالرغم من مظاهر الاحترام الشديد الذي كانوا يبدونه لهم فان ذلك كله لم يمنع السلاطين السلاجقة من عزل بعض الخلفاء أو طردهم أو قتلهم احيانا ولم يستطع العباسيون في مطالع العهد السلجوقي خاصة ان يبدو أي تمرد على أيّ رغبة سلطانية ومن اقرب الامثلة مايذكره الفخري من ان الخليفة المقتدي عزل وزيره عميد الدولة لالسبب الا لتحقيق رغبة للسلاجقة ثم عزل وزيره الآخر أبا شجاع اجابة لرغبة ملكشاه .

ولقد حاول ملكشاه المحاولة التي كان حاولها من قبله البويهيون (عضد الدولة) اذ زوج ابنته من الخليفة ليأتيه حفيد يرث سؤدد الترك ومجد العرب وجاء هذا الحفيد (جعفر) وقدم ملكشاه بغداد سنة 485 ليأخذ له ولاية العهد ويظهر ان الخليفة أبى ذلك فأرسل يطلب اليه مغادرة " لابد من ان تترك لي بغداد وتذهب الى أيّ بلد شئت " فطلب الخليفة مهلة شهر فلم يمهله ساعة ثم توسط وزير السلطان في مهلة عشرة أيام .... ولكن ملكشاه توفي خلال هذه المهلة .

ولم يستطع الخلفاء استرداد سلطتهم الضائعة اثناء الفوضى التي اعقبت موت ملكشاه ولا تدخلوا في الصراع الطويل بين ابنائه بل كان موقف الخليفة موقف الغنيمة التي تنتظر المنتصر . كان ينتظر نتيجة المعركة ليقف بجانب الغالب ويأمر بالخطبة له على المنابر . وكثيرا ماكانت هذه الخطبة تقطع وتوصل مرة بعد مرة وكثيرا ماكانت تشهد المنابر عدة اسماء خلال عدة اشهر كما جرى في الصراع بين بركيارق ومحمد بن ملكشاه .

على انا نشهد نوعا من اليقظة في المقام الخلافي اعتبارا من خلافة (المسترشد) وكان من عواملها ، بجانب طموح الخليفة ، ضعف السلاجقة وتناحرهم الدائم ، وكان من براعة الخلفاء السياسية انهم حاولوا اغتنام الفرصة للعمل على تحطيمهم : يؤثر عن المسترشد انه ماكاد يلي الخلافة حتى بدأ بالعمل ضد السلاجقة وقد لخص رأيه فيهم بقوله " فوضنا امورنا الى آل سلجوق فضعفوا علينا فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون " .

ووضع الخليفة خطته على اساس مقاومة نفوذ السلطان السلجوقي : محمود بن محمد الاول (ابن ملكشاه) ونشب الصراع بين الطرفين سنة 520 / 1126 وكان من نتيجة ان اعتذر السلطان السلجوقي في النهاية . وعاد الخليفة بنفسه يعمل على تقوية سلطته حين مات السلطان محمود سنة 525 / 1130 وجمع الجيوش لذلك . واتخذ من اختلاف افراد البيت السلجوقي فرصة للاستبداد بأمور العراق بل نجده اكثر من ذلك يعمل على ايقاع العداوة والبغضاء بين كبار السلاجقة كما نفهم من بعض ماأورده ابن الاثير عنه ، لعله يحصل في النهاية على اكبر مغنم وبلغت به الجرأة ان قطع الخطبة للسلطان مسعود سنة 529 / 1134 ليستخلص الحكم لنفسه في العراق فلم يكن بد عند ذلك من قيام الصراع بين الخليفة المسترشد والسلطان وكان من الممكن ان يكون للخلافة العباسية اتجاه تاريخي آخر لولا ان جند الخليفة خانوه فتمكن السلطان من اسره وكثير من خواصه وسجنهم جميعا في قلعة قرب (همدان) .

ولما بلغ اهل بغداد ذلك حثوا التراب على رؤوسهم في الاسواق وبكوا وضجوا على على مايقول السيوطي . وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة ومنعت الصلاة والخطبة ، ويمكننا ان نجد هنا وجها للشبه بين ماأضحى للخليفة من مكانة دينية في نفوس الناس وبين ماكان (ولايزال بعضه) للبابا من هذه المكانة في القرون الوسطى .

وقد اضطر السلطان الاكبر سنجر للتدخل حينذاك . كان لايزال يخطب له على المنابر قبل كل سلطان . ولا يزال يمارس على امراء السلاجقة وسلاطين همدان وبغداد نوعا من النفوذ الابوي منذ عهد ابن اخيه محمود بن محمد الاول . ويقر له هؤلاء بالتبعية بما يدفعونه له من جزية أو ضريبة سنوية . وقد خشي سنجر عاقبة ماأحدثه اسر الخليفة من اثر

سيئ في النفوس فكتب الى ابن اخيه مسعود يقول : "ساعة وقوف الولد غياث الدنيــــــا والدين (يقصد مسعودا) على هذا المكتوب يدخل على (امير المؤمنين ويقبل الارض بين يديه ويسأله العفو والصلح ويتنصل غاية التنصل . فقد ظهر عندنا من الآيات السماويــة والارضية مالا طاقة لنا بسماع مثلها فضلا عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل ودام ذلك عشرين يوما . . ولقد خفت على نفسي من جانب الله ، وظهور آياته وامتناع النــاس عن الصلاة في الجوامع ومنع الخطباء ، ما لا طاقة لي بحمله فالله الله تتلافى امره وتعيــد أمير المؤمنين الى مقر عزه) .

وعاد السلطان (مسعود) فاتفق مع الخليفة المسترشد على الصلح ، على ان يدفع الخليفة تعويضا ماليا للسلطان ويتعهد بعدم جمع الجيوش وعدم الخروج من دارة .
ويظهر ان مسعودا فعل ذلك على غير رغبة منه نزولا عند أوامر عمه (سنجر) لأنه دبــر مؤامرة استأجر لها بعض الاسماعيلية فلم يكد المسترشد يهم بمغادرة همدان حتى قتل فــي خيمته ومثل به سنة 529 / 1134 ولم يصل ابنه الراشد الى الخلافة الا بعد أن تعهــد للسلطان مسعود ان يرجع الى سيرة الخلفاء السابقين في الطاعة والعزلة والاكتفاء بالنفوذ الديني دون الحكم السياسي فقد كتب تعهدا على نفسه شهد فيه بعض قضاة الدولة انــه اذا حاول محاربة السلطان مسعود أو جرد السيف على اصحابه حق عليه (الخلع) مــــن الخلافة) . وتعهد بجانب ذلك ان يدفع للسلطان السلجوقي مبلغ (400) الـــــف دينار ثمنا للعرش .

على ان الراشد لم يكن يعتزم القيام بتعهداته . بل كان بالعكس يعمل على خطة ابيه في انقاذ النفوذ العباسي بالاضافة الى رغبته في الانتقام من مسعود قاتل أبيه ولهذا نجده يعتذر عن عدم دفع الاموال لرسول السلطان بحجة انه لم يجد شيئا في خزانة المسترشــد ولما تجرأ رسول السلطان على محاولة التفتيش حال الخليفة بينه وبين مايريد وحاول العمل على خلع مسعود وتولية ابن اخيه داوود مكانه . فألب عليه اتباعه من الامراء وعلى رأسهــم عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل ، وعمل الجميع على تولية داوود مكان عمه ولكن الحلف فشل وانهزم لسوء حظ الخليفة واضطر داوود للهرب الى بغداد بينما اصعد الخليفة الــى الموصل مع زنكي سنة 530 / 1135 .

ودخل مسعود بغداد بعد ذلك واستطاع ان يجمع العلماء والفقهاء والقضاة والاعيـان ويحملهم على الشهادة بظلم الراشد ونهبه الاموال وسفكه الدماء وشربه الخمر فأفتوا بحــق السلطان في خلعه واستبدال غيره به . وهكذا خلع الراشد وولي مسعود مكانه (عمه المقتفي لأمر الله) . . . وتنقل الخليفة المخلوع شريدا في البلاد يعمل عبثا على استعادة عرشـــه حتى دبر له السلطان مقتلا كمقتل أبيه بيد الاسماعيلية عند باب أصفهان سنة 532/1137 .

ولم يكتف السلطان مسعود هذه المرة بتعهد الخليفة الجديد المقتفي لأمر الله لـه بالولاء والطاعة والمال ولكنه صادر كل املاكه واشترط على المكتفي ان يجرده حتى من خيله كي لايستطيع مبادرة بغداد ويظل بها أسيرا في يده . ودخل السلطان وأخذ " جميع مافي دار الخلافة من دواب وأثاث وذهب وستور وسرادق ولم يترك في اصطبل الخلافة سوى اربعة أفراس وثمانية بغال برسم الخيل " .

واضاف الى ذلك انه وضع يده على كل أموال الدولة واصبح المتصرف في دار الضرب ولما ارسل السلطان وزيره سنة 531 / 1136 الى الخليفة المقتفي يطلب منه مائة الف دينار قال المقتفي : " ما رأينا أعجب من امرك . انت تعلم ان المسترشد سار اليك بأمواله فجرى له ماجرى وان الواشد ولي ففعل مافعل ورحل وأخذ ماتبقى ولم يبق الا الاثاث . فأخذته كله وتصرفت في دار الضرب وأخذت الزكاة . فمن أي وجه نقيم لك هذا المال ؟ وما تبقى الا ان نخرج من الدار ونسلمها . فاني عاهدت الله الآ آخذ من المسلمين حبة ظلمـا " .

هكذا أعيد خلفاء بغداد ، بسبب قوة السلطان ، مسعود الى حالهم في العهد البويهي أو السلجوقي الاول واستمر الخليفة المقتفي معزولا عن ساحة السياسة العامة حتى وفاة السلطان مسعود سنة 547 واذ ذاك كما يقول السيوطي عادت بغداد والعراق الى أيدي الخلفاء ولم يبق لها منازع . ذلك ان السلاطين بعد مسعود كان لهم من القوة السلجوقية الاسم فقط وكان لهم من تنازعهم العائلي مايشغلهم عن منازعة الخليفة فاستطاع الخليفة المقتفي سنة 551 / 1156 مثلا ان يرغم السلطان السلجوقي سليمانشاه على التنازل له عن كل حق في بغداد عن الخطبة . ولم يعد لبغداد سوى هذه الصلة الواهية بسلاطين همدان واصبهان ولم يعد هؤلاء يستطيعون تحويلها الى أقوى وأوسع من ذلك . على ان الضعف الذي أصاب السلاجقة وكان من أثره استعادة الخلفاء لسلطانهم القديم في العراق ولم يكن راجعا الى قوة الخلفاء ولكن الى عوامل أخرى ليس للخلفاء من يد فيها . منها مايرجع الى النزاع العائلي السلجوقي ومنها مايرجع الى النظام الاقطاعي العسكري الذي أوجده نظام الملك سنة 480 / 1087 ومنح بموجبه المقربون من البيت السلجوقي اقطاعات على سبيل الهبة أضحت فيما بعد امارات وراثية وأدت الى انقسام الشرق الاسلامي الى دويلات صغيرة مستقلة والى وقوعه في الشرق والغرب على السواء بيد القوى النائية أو المهاجمة . فوقعت الشام بيد الصليبيين . وبالرغم من عودة النفوذ الاسمي العباسي الى مصر ، بعد زوال الخلافة الفاطمية ، ومن الخطبة للخليفة في الشام والحرمين واليمن والخطبة للسلطان من بعده فقد كان الحكم كله للأيوبيين . كما كان الحكم في شمال الشام والعراق للأتابكة . وأما في الشرق فقد ظهرت قبائل (الخطا) وأسست

لنفسها دولة حول كشغر واشتد الصراع بينهما وبين السلاجقة (ممثلين في شخص سنجر) حتى أخذوا منهم ماوراء النهر . وظهر الخوارزميون فاقتطعوا أملاك السلاجقة في ايران كلها سواء سلطنة سنجر أو أولاد أخيه كما ورثوا الدولة الغورية التي كانت قد حلت محل الغزنويين ... كل ذلك واسم الخليفة فقط هو الذى يعلو المنابر . ولا علم له بما يجرى الا حين يبلغه المتغلبون ذلك ليجيز حكمهم على مابأيديهم .

وقد حسب الخليفة الناصر ، حين منع خوارزم شاه تكش مابيد طغرل الثالث السلجوقي من البلاد ان هو قضى عليه انه بزوال سلطان السلاجقة سيبدأ عهد جديد في حياتهم السياسية ولكن الخوارزمي الذى راقه مشروع القضاء على الدولة السلجوقية كان من جملة اسباب حماسه للعمل تطلعه الى النفوذ في بغداد وهو حين اهدى الخليفة رأس طغرل سنة 590 انما كان في الواقع يطلب ماكان له من امتيازات ، وسواء اكانت استعانة الناصر بالخوارزميين خطيئة سياسية أم لا فان اصحاب هذه الدولة الناشئة كانوا يعملون منذ زمن للحلول محل السلاجقة في أرضهم ومكانتهم في العالم الاسلامي العباسي . وقد كتبوا اسماءهم على السكة وخطبوا لأنفسهم ودخلوا مع الخلفاء في عهد طويل من الصراع لم ينته الا بقضاء المغول على هاتين القوتين معا الواحدة اثر الاخرى.

جـ - نمو القوة الاسماعيلية (الصباحية) :- ان الاسماعيلية التي نعنيها هنا ليست اسماعيلية القداح أو القرامطة أو الفاطميين ولكنها فرع من الدعوة الفاطمية عرفه المؤرخون بأسماء عديدة : فدا الاسماعيلية فلهم اسم الباطنية لأنهم يقولون بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تأويل تنزيلا (الشهرستاني) ولأنهم من جهة أخرى يحرصون على كتمان دعوتهم وغاياتهم (ابن خلدون) ويعرفون كذلك بالملاحدة لأن الناس اعتبروهم كذلك . وكما عرفوا في الشام أيام الصليبيين باسم الحشيشية لتعاطيهم لمخدر الحشيش . وقد يشار اليهم بالتعليمية أيضا والمزدكية (وهو اسم خاطئ) . وتدين هذه الفرقة في ظهورها الى جهد شخصية من أدهى الشخصيات في التاريخ هو : الحسن بن علي بن الصباح الحميرى . استطاع ان يسخر مختلف الظروف والاوضاع ليقيم لنفسه نوعا من الدولة الدينية موزعة بين عدد من الحصون وجيشا رهيبا من الاتباع يغرز له الخنجر في أى صدر شاء وعقيدة فكرية سرية مايزال المؤمنون بها في سورية والهند الى اليوم .

ومنذ استتب الامر للفواطم في مصر لم يخل المشرق ، وبلاد بني العباس من دعاة يروجون لاصحاب القاهرة في السر لاحلالهم محل عرش بغداد . وكانت مدارس الدعوة الشيعية في مصر تبعث بالأعداد الوفيرة من الدعاة الى كل مكان والى بلاد فارس خاصة وتعمل على تنظيمهم . وكان لهم في ايران مركز هام للدعوة يرأسه داع للدعاة وقد عرفتنا صدف الاخبار الى عدد من هؤلاء الدعاة هناك امثال هبة الله الشيرازى وعبد الملك ابن

عطاش (استاذ الحسن الصباح) واحمد بن عبد الملك . وكان الدعاة يتستّرون بستار الزهد

ويظهر مما تحدث به الحسن الصباح عن نفسه في شبابه ان الناس كانوا ينظرون الى المذهب الاسماعيلي على انه مذهب الفلاسفة ويتصورون امامهم (الخليفة الفاطمي في مصر) مفكرا من المفكرين . ولعل المذهب كان يجتذب اليه المثقفين .

على ان انحرافا هاما في تاريخ الحركة الاسماعيلية الفاطمية قد تحقق على يد :

الحسن الصباح (1) : دخل هذا الداعية في الاسماعيلية وهو حدث على يد أحد كبار الدعاة : ابن عطاش ويحدثنا انه تردّد في قبول الدعوة لأنها فلسفية ثم انتهى باعتناقها وصحب ابن عطاش الى الريّ وهو يضطرم حماسا واخلاصا للدعوة ... ولعل الحسن درس بعد ذلك الكيمياء والفلك وبعض السحر من مستلزمات التعمق في المذهب .

وقد استطاع الحسن ان يلتحق بخدمة السلاجقة عن طريق زميله نظام الملك فحظي لدى السلطان (ملكشاه) بفطنته . غير انه اقصي عن عمله حين حاول الايقاع بالوزير نظام الملك نفسه فخرج ناقما يلتمس لنشاطه افقا آخر ... في الخلافة الفاطمية بمصر وزين له ابن عطاش نزول مصر فخرج اليها في زيّ تاجر حوالي سنة 480 واستقبل فيها بمنتهى الحفاوة وتلقاه داعي الدعاة (الشريف طاهر القزويني) وعدة من كبار الشيوخ على الحدود ورحب به الخليفة المستنصر وأفرد له منزلا خاصا وجعل له مجلسا للدعوة مما يدل على انه كان احد اقطابها الموموقين في ايران وعلى صلة سابقة قوية (ولعلها مباشرة) مع الخلافة الفاطمية .

ولبث الحسن في مصر ثمانية عشر شهرا تعرف فيها الى دقائق الدعوة واساليبها ولكنه لم يظفر بالذى كان يطمع اليه من المكانة لأن الخليفة الفاطمي اذ ذاك كان زعيما روحيا فقط وكانت مصاير الحكم بيد أمير الجيوش بدر الجمالي . ودب الجفاء بين الصباح والجمالي بسبب طموح الرجلين ولما ثارت مسألة ولاية العهد واختار المستنصر (427 ـ 487 / 1035 ـ 1094) ولده نزارا لها أيده الحسن في هذا الاختيار ورفض بدر الجمالي الا ان تكون ولاية العهد للابن الصغير (الذى استلم الخلافة فيما بعد باسم المستعلي) لأن هذا الابن حفيد للجمالي من ابنته زوجة المستنصر .

---

(1) الحسن بن علي الصباح (نحو 430 ـ 518 / 1038 ـ 1224) ولد في طوس بخراسان لوالد فقيه يعتنق التشيّع الرافضي في الخفاء ويظهر الورع . وقضى الحسن صباه في طوس ودرس الفقه والحديث على المحدث الشهير موفق الدين النيسابوري وكان من زملائه في الدراسة عمر الخيام ونظام الملك . وكانت طوس مركزا علميا هاما اذ ذاك وفيها ظهر في العصر نفسه الغزالي كما تلقى فيها الحسن منذ حداثته مبادئ الدعوة الاسماعيلية .

وقد انتهى خلاف الجمالي والصباح باعتقال الحسن في احدى قلاع دمياط ثم فر من معتقله في احدى السفن الى الشام . وأقام حينا في حلب قبل ان ينتقل الى بغداد ثم خوزستان واصبهان ويزد وكرمان لبث الدعوة على طريقته الخاصة واستغلال عدد من العوامل في نشرها . وسيكون لانتشار أفكار الاسماعيلية في المشرق على يد الحسن الصباح سبب في دعوتهم بالاسماعيلية الشرقيين بينما لقب الفاطميون الاسماعيلية الغربيين .

لم يأت الحسن بن الصباح لاضعاف الشرق الاسلامي ولكنه استطاع ان ينتهز فرصة الضعف السلجوقي ليقوى سلطانه فنشأ بذلك عامل جديد من عوامل الضعف كان خطره في صفات العنف والفتك والخفاء التي اتصف بها . وقد وضع الحسن خطته على اساس استغلال الانقسام العائلي السلجوقي والانقسام العنصرى القائم في جهاز الحكم بين ترك وفرس وعرب والانقسام المذهبي القائم بين السنة والشيعة في ايران والعراق والذى زاده ، دعاة الاسماعيلية وضوحا وشدة . عدا ان اضطهاد العباسيين لهؤلاء الدعاة كان يزيد من حماسهم ومن عطف الناس عليهم كأقلية مضطهدة وعدا ان النظام الاقطاعي السلجوقي كان يقدم للمغامرين في ايران احسن الفرص للاستغلال . ويجب ان نضيف الى العوامل الماضية ايضا : سوء الحياة الاجتماعية واضطراب الحالة الاقتصادية في بلاد المشرق في ذلك الوقت فضلا عن التباين الواضح في توزيع الثروة بين مختلف الطبقات : فبينما كان الملاكون الكبار والتجار يستغلون الظروف المضطربة القائمة لزيادة ثرائهم كانت طبقة العامة وأصحاب الحرف والفلاحين تزداد فقرا وتدفع من جهدها اكلاف التخريب والضرائب والاتاوات مما أدى الى اندفاعها مع كل ثائر .

وقد دخل في مبادئ الصباح بعض العقائد والمبادىء الفارسية التي كانت قد أثيرت من قبل جماعات الراوندية والمقنعية والبابكية فلم تكن أفكار الصباح في بعض النواحي بعيدة عما ألفه عامة الايرانيين المستغلين من افكار سابقة . وقد جهد الحسن الصباح لنشر دعوته بين الطبقات الدنيا مبتعدا عن طبقة كبار العلماء والمفكرين بعكس التقاليد التي كان جرى عليها من سبقه من الدعاة الفاطميين .

كان الاسماعيلية السابقون للحسن قد بدأوا حركتهم العنيفة في ايران ، ايام وصله ، وكانوا قد ثاروا في انحاء همدان وحاربوا جند السلطان واستطاع احد كبارهم احمد ابن عبد الملك بن عطاش ان يستولي على قلعة شاه در قرب اصبهان فيجعلها قاعدة له . وحذا الحسن حذوه فاتجه بعمليته الى ولاية رودبار (في جبال البورز جنوب غربي قزوين) والى قلعتها المنيعة (الموت) التي بناها ملكشاه ومعنى اسمها (تعليم العقاب) . واستطاع دعاة الحسن ان يبثوا الدعوة بين جند القلعة ويفسدوا ولاءهم لحاكمها من قبل ملكشاه ابي مسلم (وهو صهر لنظام الملك) بينما كان الحسن نفسه يرتبط معه بروابط الصداقة لتشيع

كان فيه . وذات مساء وثب به واخرجه من القلعة (6 رجب 484 / 1090) واحتلها وبدأ بذلك مرحلة جديدة في حياته وحياة الجماعة الجديدة التي ألفها من حوله اذ صار لها مركز منيع وثبّت اقدامها في مايشبه الدولة الدينية - السياسية .

ولم يتمكن السلطان من استرداد آلموت حين بادر لذلك وبالرغم من انه ضيق الحصار عليها حتى اجهد من فيها وتشدّد هو ووزيره نظام الملك في استئصال اصحاب الصباح أتى وجوههم في البلاد فان ذلك كله لم ينتج عنه سوى سقوط نظام الملك قتيلا على يد فتى اسماعيل (رضا ن 485) بعثه عليه الحسن [1] . وانسحب السلطان بجنده عن القلعة تاركا لصاحبها ان يفرض نفوذه على منطقة رودبار كلها . وكان قتل نظام الملك أول اغتيال سياسي هام قام به الاسماعيلية ، وكان مطلع عهد جديد في العمل السياسي يستند الى الارهاب السري مع القتال العلني والدعوة الفكرية .

واذا صح ان مدبّر الاغتيال هو الحسن الصباح فان ذلك يعني ان جهاز الاغتيال الصباحي كان منظما سنة 485 أي بعد سنتين فقط من احتلال آلموت وان الصباح كان قد وضع خطته نهائيا للعمل .

ويظهر ان الحسن كان يدعو أولا للخليفة المستنصر ولابنه نزار بعده ثم تحول عن الدعوة لهما وأخذ يعمل لنفسه ولحسابه الخاص وربما كان ذلك عقب وفاة المستنصر سنة 487 وتولي ابنه المستعلي فقطع صلاته بمصر ووضع لفرقته التعاليم الفكرية (التي اختلف بها بعض الاختلاف عن تعاليم الفاطمية) . كما نظم الجماعة عمليا ووضع لها خطته المبتكرة في العمل السياسي الارهابي . ويظهر مقدار انتشار الافكار الباطنية وخطرها في تلك الاوقات من اهتمام علماء المسلمين المعاصرين بها واجهادهم أنفسهم في مناظرة الباطنية : فالشهرستاني يقول : انه كثيرا ما ناظر القوم فلم يظفر منهم بطائل . وانه كثيرا مانعي عليهم التسليم والتقليد دون الحجة والاقناع . وألف الغزالي (مواطن الحسن ومعاصره) رسالة في تفنيد المبادئ الاسماعيلية سماها : فضائح الباطنية حمل عليهم فيها حملة شديدة يلخصها قوله : " اما الجملة فهو انه مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض ومفتاحه حصر مدارك العلوم في الامام المعصوم ... " ويضيف قوله " ... والمنقول عنهم الاباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها وانكار الشرائع . الا انهم بأجمعهم ينكرون ذلك اذا نسب اليهم ... " .

وعلى أي حال فقد وطد الحسن بهذه الافكار لجماعته ، الجانب العقدي النظري ، ولئن لم يكن لهذه الافكار من قيمة فلسفية كبرى فان عبقرية الصباح تجلت في الجانب العملي من حركته ، يقول (فون هامر) الذي درس شخصية الصباح انه تكشّف في تنظيم طائفته عن خبرة واسعة بالناس وبالطبيعة البشرية : كان يعرف قيمة السر في الدعوة . ويعلم ان الالحاد

(1) هذه رواية ابن خلدون . وابن الاثير لايتهم الحسن ولا يروى اثر من القتل على يد باطني ويوحي كلامه بأن المتآمر هو السلطان ملكشاه .

والفوضى قد يساعدان على تقويض العروش الحاكمة ولكنهما لا يساعدان على بناء عروش جديدة.

واذا تميز تنظيم الحسن بجديد فهو انه اوجد طبقة الفدائيين وبذلك جعل الاغتيال المنظم وسيلة سياسية شائعة كما دبر مايلزمه من جهاز صمم أعمى وذلك نجاح الحسن وسلطانه لأنه زرع له الارهاب والرعب في كل مكان. وقد وصف لنا ادوارد براون نقلا عما كتبه الرحالة ماركوبولو في القرن السابع الهجرى (13 م) ماكان يفعله داعي الدعاة لتغذية جهاز الاغتيال دوما بالرجال الفدائيين عن طريق التربية منذ الصغر : ذكر ان زعيم الاسماعيلية أمر بانشاء حديقة غناء متسعة في واد بين جبلين وملأها بالشجر والقصور الفخمة المغشاة بالذهب. واجرى فيها قنوات الخمر واللبن والعسل والماء ونشر فيها الجوارى الحسان بالموسيقا والغناء والرقص ... وكان يحتفظ بقصره بعدد من الغلمان تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين يملؤهم يقينا بقدرته التي تفوق طاقة البشر ويعدهم بالجنة كما وصفت بالقرآن الكريم. ولكي يبرهن لهم على قدرته الخارقة في ادخالهم الجنة كان يخدرهم بمادة الحشيش ثم يحملهم الى هذه الحديقة جماعات صغيرة بين الاربعة والعشرة كل مرة. ويضيفون في الجنة ويمكثون فيها زمنا ثم يحملون بالطريقة نفسها الى قصر الداعي ليزدادوا ايمانا بأنه (نبي) حقيقي وليتمنّوا زيارة الجنة للغلمان الآخرين وليلقنّوا ان العودة الى الجنان تقتضي التضحية وبذل النفس حسب أوامر الداعي.

هذه الطريقة اكسبت جماعة الصباح اسم (الحشيشية) ولكنها هيأت له ولخلفائه من بعده سلاحا لاعمل له سوى تنفيذ رغائب من يملك الجنان. ويدرب الفدائيين على فن التخفي واستعمال السلاح وتعلم اللغات الاجنبية وكانوا يقتلون المسلمين وامراءهم ايام الجمع في المساجد ويقتلون في الشام امراء الصليبيين في الكنائس علنا ويتقبلون القتل بنفس راضية وقد يظهرون الدخول في المسيحية لتنفيذ تعليماتهم. ولم يكن القتل دوما عن مبدأ أو عقيدة و كثيرا ماكان يؤجر الاسماعيلية خناجرهم لامراء المسلمين والمسيحيين على السواء. وندر ان تفشل مؤامراتهم اذ يبدو من قصص اغتيالاتهم ان الداعية كان يرسل ثلاثة من الفدائيين اذا اخفق واحد منهم أتمّ مهمته الآخران. ولابد هنا من ان نذكر انا نلتقط هذه الملاحظات من سيرتهم في ايران وفي الشام خلال قرنين تقريبا ولعله لم يكن لهم دوما وفي كل مكان ذلك النظام الفدائي الغريب ولعله انما تكامل مع الايام.

ويمكننا ان نرجح انه حين توفي ملكشاه سنة 485 لم تكن قد برزت بعد الصفات الخاصة بجماعة الصباح وانما كانت احدى جماعتين اسماعيليتين قويتين في شمال غربي ايران. جماعة قلعة شاه در لأحمد العطاشي وجماعة آلموت الصباحية. وقد ذكر (دوبو) ان عددهم يقدر بمائة وستين ألف رجل موزعين على عدد من الحصون. ولسنا نعرف الكثير عن العطاشي لانقطاع أمره منذ سنة 500 ولكنا نعرف من منشور نشره السلطان محمد في تلك السنة ان ابن

عطاش " . . . كان يستبيح دماء المسلمين هدرا ويستحل أموالهم غدرا فكم من دماء سفكت وحرم انتهكت وأموال استهلكت وترات تجرعتها النفوس فما استدركت . . . و (كان منهم) ما كان عن حدثان امرهم باصفهان (وفي هذه الكلمة اشارة الى استفحال أمرهم بهذه المدينة لدرجة أنهم ثاروا بها) .

وقد بلغ من قوة الاسماعيلية ان السلطان بركيارق بعث يستعين بهم خلال الحرب التي ثارت بينه وبين أخيه السلطان محمود (المتغلب على اصبهان) وحرضهم على قتل امرائه ومحالفيه وقد نشط هذا الاعتراف السلطاني من قوى الاسماعيلية فتعقبوا بالقتل والاغتيال المنظم امراء السلاجقة والترك من حلفاء محمود وقتلوا عددا منهم . ولما ضج الناس من عبث الاسماعيلية واتهموا بركيارق بما لأتهم والميل مع مذهبهم وخشي الفتنة اذن بمحاربتهم . وسار بنفسه الى حصونهم وفتك بالكثير منهم ومن كبار دعاتهم .

وما كاد السلطان محمد بن ملكشاه يرث اخاه بركيارق في السلطنة منذ 498 حتى تجرد للتنكيل بالطائفة المتمردة لاسيما وهو يرى اعتداءها على الناس وفرضها الاتاوات على القرى والامراء . وجمع جيوشه سنة 500 فقصد اعظم قلاعها بمهده (شاه در) وضيق الحصار عليها . وحاول الاسماعيلية مهادنة السلطان بالمفاوضة فلم يقبل واستفتى الفقهاء في أمرهم فافتوا بقتلهم وطال الحصار فعاد الاسماعيلية يفاوضون على تسليم القلعة شريطة ان يسيروا الى قلاعهم الاخرى في شمال غربي ايران وتبقى جماعة منهم لحماية شاه در حتى يصل اخوانهم الى تلك القلاع ثم تسلم الحامية وتسير الى الحسن الصباح في آلموت فرضي السلطان ولكن ابن عطاش امتنع بشاه در بعد رحيل جماعته وأبى التسليم وأبدى مع القبضة الصغيرة من الرجال الذين بقوا معه جلدا عظيما في تحمّل اهوال الحصار ورفعوا الاخشاب والاسلحة على الاسوار والبسوها الثياب لايهام المحاصرين بكثرتهم . وكاد السلطان ييأس منهم لولا ان دله خائن على مدخل خلفي للقلعة فدخلها فلم يجد بها سوى ثمانين رجلا قتل معظمهم أما ابن عطاش فأسره وأمر به السلطان فشهر في اصفهان وسلخ جلده فتجلد وقتل ابنه والقت زوجته بنفسها من القلعة فماتت أما السلطان فاعتبر هذا نصرا مؤزرا اذاعه على عماله جميعا في الاقاليم .

ووجّه السلطان محمد بعد ذلك همه الى آلموت وبعث الى صاحبها الصباحي يدعوه الى الطاعة بالحسنى ويروى ان الحسن حين وفد حين وفد عليه رسول السلطان دعا امامه باثنين من رجاله وأمر احدهما أن يغرز خنجره في قلبه ففعل وهلك وأمر الثاني ان يلقي بنفسه من أعلى الحصن ففعل ثم قال للرسول " قل لمولاك يطيعني هذه الطاعة سبعون الفا من الرعايا المخلصين وصحت عزيمة محمد على قصد (آلموت) . فأرسل اليها سنة 505 / 1111 جيشا ضخما بقيادة الامير انوشتكين شيركير فاستولى منهم في منطقة روزبار على عدد من القلاع وغادر الاسماعيلية القلاع المفتوحة الى آلموت حتى غصّت بهم ومشت الحملات تترى في المنطقة حتى ضرب الحصار اخيرا على (آلموت) نفسها . وكان حصارا صارما بنى فيه أنوشتكين البيوت لجنده حول القلعة واستمر مقيما

حولها خمسة اعوام لتي خلالها الاسماعيلية الأهوال في جلب القوت والمؤن واشرفوا على الهلاك جوعا وكاد اليأس يحملهم على التسليم لولا وصول الاخبار بموت السلطان محمد سنة 511 فرفع أنوشتكين الحصار وارتحل بينما كان الاسماعيلية يهاجمون مؤخرة جنده للاستيلاء على القوت .

وذهب بوفاة السلطان محمد اكبر مناهض للباطنية كان من الممكن لو امتد به الأجل بعض الوقت ان يسبق المفول في القضاء عليهم مدة خمسين سنة . وقد ذكر فون هامر أن شدة حماس السلطان في كفاح الباطنية دعتهم الى ان يدسّوا له السمّ فمات .

وعاد شأن الاسماعيلية الى الاستفحال اثناء الصراع الذى قام بين السلطان سنجر ابن ملكشاه وابن أخيه السلطان (محمود بن محمد) وقوى شرهم للدرجة التي دعت سنجر رغم نزاعه العائلي ء الى توجيه العناية لقلعة آلموت وحاصرها . وقد استطاع الحسن الصباح ان يصدّه عنه بالحيلة . يذكرون ان الصباحي اجتذب اليه وصيفة من وصائف السلطان سنجر وأغواها بغرس خنجر بجوار فراشه وهو نائم . ثم أرسل اليه رسالة تهديد يول فيها :

" ان الذى يستطيع ان يغرس الخنجر في الارض اليابسة يستطيع ان يغرسه في صدر السلطان " . وفعلت الحيلة فعلها اذ خاف سنجر عاقبة التهديد ففكّ الحصار ونجده سنة 512 / 1118 يعتد م الحسن معاهدة صلح . يتعهد فيها الصباحي بألا يزيد في تحصين قلاعه أو يقوّى نفسه حربيا بشراء آلات الحرب أو يدخل في مذهبه آخرين ويتعهد السلطان بأن يقابل ان يعفي الاسماعيلية في اقليم كوكودة من الضرائب .

على ان السلطان سنجر في هذه المعاهدة قد اعطى ولم يأخذ اذ لم يعمل الحسن بنصوصها بينما لم يوجّه السلطان سنجر جهوده ضد الاسماعيلية بعد ذلك عدة سنوات .

الى ذلك الحين كان الحسن بن الصباح قد قضى في آلموت حوالي خمس وثلاثين سنة عاش خلالها في عزلة تامة يؤلف الكتب الدعوة ويدير أمور الجماعة ولم يظهر في شرفة قصره خلالها الا مرتين . ولم ير آكلا ولا نائما قط . ولم يأخذ لقبا واكتفى لنفسه بلقب الشيخ وكان يحيط امامته الدينية بمظاهر الصرامة الشديدة ويعيش بمنتهى التقشف ويتسدد في تطبيق اصول الدين ويسود الزهد المطبق والطاعة العمياء كل ماحوله ويحرم الخمر والغناء وكل ملاذ الدنيا . وكان يرتدى البياض دوما (على طريقة المبيضة) ويرتدى الرفاق والفدائيون معه الثياب البيض والاحزمة والاحذية الحمراء . وقد طال العمر بالحسن ورأى بعينه موت أهله وصحبه وكبار دعاته وقد شابت الوحشية والقسوة طباعه في آخر عمره حتى قتل ولديه بيده : قتل أولهما وهو (الاستاذ) الذى كان يرجى ان يخلفه في الرياسة لأنه اتهم بالاشتراك في قتل حسين القيني مقدم قوهستان وهو من خاصة الدعاة والمقربين والثاني لأنه شرب الخمر وربما كان لهذه الصرامة الدامية اسبابا أخرى فربما خشي دسائسهما وربما لم يجدهما اكفياء لخلافته في الرياسة فانه ترك الامر للاصلاح من دعاته (كما يرى فون هامر) وتوفي الحسن سنة 518 / 1124 في آلموت وهو في التسعين من عمره . وقد أدى موت الحسن الى عدة

نتائج في تاريخ طائفته اهمها انهم انحدروا الى الجريمة السافرة :

1 ـ فالدعاة الذين كانوا قد انبثوا في الشام منذ مطلع القرن السادس انفصلوا على مايظهر عن ألموت وهم بالرغم من ان دعوتهم لم تلق أرضا خصبة في الشام الا ان الامراء المحليين مثل صاحب حلب وصاحب دمشق لجؤوا اليهم في تنفيذ مشاريعهم لاغتيال خصومهم . كما ان الحروب الدائمة بين المسلمين والفرنجة الصليبيين سمحت لهم باستغلال الموقف عند الطرفين فقتلوا مثلا الامير المسلم مودود في الجامع الاموى كما قتلوا الكونت ريمون امير طرابلس) . . ولما كثر جمعهم طلب زعيمهم بالشام بهرام الاسد آباذى (ابن أخي ابراهيم الاسد اباذى) من اتابك دمشق ابن طغتكين سنة 520 ان يقطعه حصن بانياس فتحصن به مع جماعه وما جاء منتصف القرن السادس حتى كان لهم في الشام عددا من القلاع الحصينة ولكنهم ظلوا دوما غريبا لايظهروا الا في الجريمة .

٢ ـ وأما اصحاب الموت فقد اتجهوا الى سياسة متعصبة شديدة فنقضوا معاهدة سنجر وجعلوا يبنون القلاع الكثيرة كما امتدت ايديهم بالاغتيال الى عدد من الامراء السلاجقة ومنهم عدد من المقربين (لآقسنقر أمير الموصل مثلا سنة 520) فتحولة سياسة سنجر نحوهم من المسالمة الى العداء .

على ان قوة أخرى استغلت الفوضى السلجوقية في تلك الفترة للنهوض وهي قوة الخلفاء العباسيين وبدأ الخليفة المسترشد يجرب حظّه في استرداد سلطانه السليب . ولهذا اتفق السلاجقة مع الاسماعيلية ضد الخلفاء . واستطاع السلطان ان يقتل الخليفة المسترشد ثم ابنه الخليفة الراشد بيد الاسماعيلية وفي فترات متلاحقة . وتجرؤ هذه الطائفة على الرأس الديني الاكبر في الدولة العباسية . (الذى نعرف نظرة الناس له) تطبيق بسيط لهدف الاسماعيلية في هدم خلافة العباسيين ولكنه أدّى الى زيادة الرهبة منهم في الناس كما أدى الى استخذاء الخلفاء بعد ذلك فقبعوا في قصورهم قرابة عشرين سنة بعد ذلك .

وتدهورت بعد ذلك أحوال الاسماعيلية فلم تعد فرقة مبدا وعقيدة بقدر ما اصبحت جماعة نهب وقطع طرق تهاجم التجار والحجاج حتى لم يعد يأمن تاجرا أو حاجّ على بضاعته ونفسه واستمر الاسماعيلية إحدى القوى التي تهدم وتمزق العالم الاسلامي السلجوقي ـ العباسي حتى ظهور الخوارزميين واستيلائهم على ايران وزوال الحكم السلجوقي نهائيا حتى من بغداد .

ولكن الضعف دبّ فيهم لدرجة ان داعي دعاة الاسماعيلية جلال الدين حسن (607 ـ 618 1210 ـ 1221) اضطر اضطر امام عداء العالم الاسلامي لطائفته ومقاومة الخوارزميين لها وتكاتف دول الاتابكة ضدها لا سيما حول آلموت الى محاولة انهاء العهد الاسماعيلي كله : لقد قرر اقامة الشعائر الاسلامية في جميع القلاع التابعة له في قوهستان وسورية ـ كما يذكر فون هامر ـ وارسل سفراء الى الخليفة الناصر ببغداد والى علاء الدين محمد خوارزم شاه والى دول الاتابكة

يعلن رجوعه الى الدين الحق وترك ماجاء به اسلافه من الاباطيل . واستقبل السفراء استقبالا حسنا وخلعت عليهم الخلع . وقد طلب جلال الدين الى الامراء المجاورين له بعض الفقهاء ليعلموا رجالة التعاليم الاسلامية . ولكي يبرهن على اخلاصه في العلم احرق امام هؤلاء الفقهاء والعلماء ماتركه له آباوه من كتب الدعوة وتعاليمها السرية .

ولعل جلال الدين لم يكن جادا ولا مخلصا الى عودته في تعاليم السنة وانما كان يرجو من ورائها ارضاء الخلافة العباسية والتخلص من ضغط الخوارزميين الذين كانوا من خطتهم زمن علاء الدين محمد الخوارزمي القضاء على الطائفة الاسماعيلية . يدلنا على ذلك ان جلال الدين حسن ارسل جنكيز خان ليتقرب اليه وليحثه على مناهضة الدولة الخوارزمية بعد ان عجزت الخلافة العباسية عن مناهضتها ولما مات جلال الدين عاد ابنه الى العقيدة الاسماعيلية من جديد وبقي عليها قادة الاسماعيلية من بعده ثم حدث ان اكتسح المغول الدولة الخوارزمية اكتساحا خاطفا مات خلاله علاء الدين محمد وهزم من بعده ابنه جلال الدين منكبرتي وفر الى بلاد الهند فلما عاد الى اقاليم الدولة الخوارزمية بعد عودة جنكيز خان الى منغوليا وجد ان الاسماعيلية قد زادوا في تخريب الدولة اكثر من المغول . ثم انهم أخذوا يتقربون من المغول فلما احتج جلال الدين منكبرتي على ذلك اعترفوا بالامر وذكروا ان القصد انما هو المداراة لأن املاك المغول تجاور قلاعهم في جنوب بحر قزوين . ووجد الخوارزمي ضرورة حرب الاسماعيلية فهاجمهم سنة 624 / 1127 ولم تجد الطائفة من سبيل لدفعه الا بتحريض المغول على دولته . وتبيان ماوصلت إليه من ضعف فهاجموا الدولة الخوارزمية سنة 628 / 1231 . وقد أدرك المغول في عهد منغوخان خطر الطائفة الاسماعيلية لاسيما بعد ان وصلتهم عدة شكاوى من الخلافة العباسية ومن قاضي قزوين (%) عليها — كما يقول فون هامر — ولهذا نرى المغول يدركون ان الاسماعيلية ستكون شوكة في ظهورهم اذا مافكروا في احتلال العالم العباسي ونرى منغوخان يوصي أخاه هولاكو بالقضاء على هذه الطائفة قبل المسير الى بغداد .

ولم يخف على زعماء الاسماعيلية ماينتظرهم من خطر محقق على يد المغول لاسيما بعد ان حطموا دولة الخوارزميين وظهر اتجاه توسعهم نحو الغرب . فأرسل داعي الدعاة سنة 635 / 1238 الى ملوك فرنسا وانكلترا يطلب اليهم التحالف معه لمقاومة المغول فلما مثل رسول الاسماعيلية بين يدي الملك هنري الثالث قال اسقف ونشستر الذي حضر الاجتماع " لندع هؤلاء الكلاب يفترس بعضهم بعضا ثم ننشيء كنيسة كاثوليكية على انقاضهما " . واخفق زعماء الاسماعيلية في تكوين هذا الحلف الذي لو نجح لنشأت في الشرق الاسلامي حروب غيرعلى غرار الحروب الصليبية قد تغير مجرى التاريخ الآسيوي والاوروبي لعدة قرون .

ولقي الاسماعيلية مصارعهم على يد هولاكو الذي اكتسح قلاعهم (شعبان 654) بعد ان وجه جميع قواته اليها فسقطت واحدة واحدة . واسر ركن الدين خورشاه داعي الدعاة في ذلك الوقت وارسل الى منغوخان فرفض مقابلته وأمر بابعاده الى بلاده غير انه قتل في الطريق .

وبالرغم من بقاء بعض القلاع على المقاومة ردحا من الزمن فان أمر الاسماعيلية انتهى في فارس منذ اكتسحهم ، كما اكتسح الترك الخوارزميين والخلافة العباسية السيل المغولي وأما في الشام فان المغول لم يهتموا بالاستيلاء على القلاع الاسماعيلية فبقيت الا انها لم تستطع احياء العهد الاسماعيلي الماضي من جديد .

د - الدويلات السلجوقية ، الاتابكة :- كانت الامبراطورية السلجوقية التي تأسست مابين عهدي طغرل وملكشاه ، تحمل في نفسها عوامل ضعفها منذ تكونت وانما كان يغطي على هذه العوامل شخصيات السلاجقة الاولين . فالقبائل التركية الغازية لم تكن مستعدة لفهم التنظيم الادارى المدني ، ولاكانت موحدة القيادة في الفتوح فكل أمير انما كان يغزو لحسابه الخاص وجاء نظام الاقطاع العسكرى الذى أقامه (نظام الملك) سنة 480 فزاد في توطيد الاسس وايضاح الفواصل بين مقاطعة وأخرى هذا الى كثرة ابناء السلاجقة وكثرة اطماعهم مع ضعف الهمم من جهة ، والى ان الامبراطورية السلجوقية كانت متعددة الاديان والاجناس والنظم ومترامية الاطراف مابين بحر مرمرة واليمن وتركستان من جهة أخرى . واذا استطاعت القوة العسكرية ان توحد بينهما اول الامر حتى ايام ملكشاه واستطاعت ادارة نظام الملك ان تقيم لها النواة الادارية في ايوان فسرعان مافقدت بعد موت هاتين الشخصيتين كل رابطة ووضح فيها انقسام أساسي ايام بركيارق سنة 1096 حين ظهر بوضوح اهتمام الفرع الرئيسي للبيت السلجوقي بالقسم الشرقي من الامبراطورية أي منطقة ايران والعراق دون القسم الغربي أي الشام/ آسيا الصغرى وبينما انحصرت كل نزاعات السلاجقة على السلطنة في مابين الري وبغداد تجد سلطنة سلاجقة الروم تختط طريقها الخاص ونجد الشام تلاقي مصيرا آخر مع الصليبيين .

ويدب التفكك والتجزؤ خاصة في المناطق الواقعة بين شرقي الامبراطورية وغربها : في مناطق الشام والجزيرة والموصل وارمينية وفي أذربيجان وخوزستان وفارس وكرمان . وهنا تظهر الدول التي تعرف في التاريخ باسم دول الاتابكة .

1 - سلاجقة الروم :- هم أهم السلاجقة عند مؤرخي الغرب لعلاقتهم بالصليبيين وبالامبراطورية البيزنطية من جهة ولأثرهم في تتريك الاناضول وتأثيرهم فيما بعد على تكوين الامبراطورية العثمانية عدا انهم كانوا أبقى الفروع السلجوقية في الحكم وأطولها عهدا اذ امتد حكمهم مابين 1077 - 1302 . عدد سلاطين هذا الفرع السلجوقي سبعة عشر سلطانا خضع بعضهم للمغول حتى ظهر اتباعهم العثمانيون . وقد كادت هذه السلطنة في أول أيام تأسيسها تموت ، مع المصرع الفاجع الذى أصاب مؤسسها الاول سليمان بن قتلمش على يد قريبه تتش (ملك الشام) سنة 1086 لاسيما وابنه قليج ارسلان فتى صغير والسلطان ملكشاه قد اختار أن يبقيه عنده في نوع من الأسر المحترم بفارس . وظلت المنطقة السلجوقية الاناضولية بين سنة 1086 - 1092 (سنة موت ملكشاه) نهبا للامراء . استقل فيها

أبو القاسم امير نيقية وتزاخاس امير ازمير وملك غازي الدانشمندي امير كابادوسيا عمليا . وخطر في بال ابي القاسم أنه بسيطرته على عاصمة سليمان القتيل يخلف الاسرة السلجوقية في الاناضول بل خطر في باله أيضا - على قول حنا كومنين - ان يحتل القسطنطينية وانشأ لذلك اسطولا حطّمه له القائد البيزنطي تاتيكيوس ... وخشي السلطان ملكشاه اطماع ابي القاسم فبعث عليه مرتين متتاليتين بجيشين حاصراه في نيقية ولم ينقذه في المرتين سوى استنجاده ببيزنطة وبالكسيس كومنين . ولعل الامبراطور البيزنطي فضل جوار امير صغير في نيقية على مجاورة سلطان السلاجقة الاعظم . وقد حاول ابو القاسم بعد ذلك استرضاء ملكشاه فزاره فقتله سنة 1092 .

ومات ملكشاه بدوره في السنة نفسها فتحرر قليج ارسلان ورجع الى سلطنة أبيه ولم يستطع المتغلب على نيقية (وهو أخو أبي القاسم) ان ينازعه عليها فاعادها اليه وبدأ التأسيس الحقيقي للسلطنة من قليج ارسلان ، واذا كانت سلطة قليج محدودة حول نيقية عاصمته فقد كانت تقريبا معدومة في شمال شرقي الاناضول فهناك كانت تقوم امارة قوية أسسها الامير التركي دانشمند احمد غازي الذي توفي سنة 1084 . ولم يتفق البيتان التركيان الا موقتا حين هددتهما الغزوة الصليبية كليهما وبقيا دوما في حالة تنافس مستمر تقريبا استغله البيزنطيون بعدهما وزادوا في اثارته (لاسيما في عهد حنا ومانويل كومنين) ليستردوا شبه الجزيرة الاناضولية منها . وبالرغم من ان قليج ارسلان استطاع بسهولة ان يمحق (صليبية الغوغاء) فقد فاجأته الحملة الصليبية الاولى مفاجأة سنة 1097 وهو ينازع غابرييل الارمني صاحب ملاطية عليها فأسرع نحو عاصمته نيقية وبها عائلته وأمواله . ولكنه لم يستطع ان يصلها بسبب الحصار الذي ضربه الصليبيون حول العاصمة بمعونة البيزنطيين في البر والبحر ، وان استطاع ان يوصل لها الامدادات قبل ان يستحكم من حولها الحصار . وتدخل الامبراطور البيزنطي بعد ذلك فتعهد للترك بالنجاه سالمين من المدينة ان سلموها اليه .

وبينما كان الصليبيون يهجمون هجوما عاما ، [illegible] لصعود الاسوار رأوا الاعلام الامبراطورية ترتفع فوق نيقية (يونيو 1097) بعد ست عشرة سنة من الحكم السلجوقي وفقد قليج ارسلان بهذا الشكل عاصمته واسرت فيها زوجته وأولاده .

ثم جاءت قليج ضربة اخرى ، فبعد سقوط نيقية اتفق مع الدانشمنديين لقطع الطريق على الغزوة الصليبية - البيزنطية . وجمع في عجل كل القوى التركية في الاناضول فهاجم الفرنجة في سهل دوربلة (اسكي شهر اليوم) . وفاجأهم بقوى دهشوا لها ولكن هذه القوى خسرت المعركة مع ذلك وفرت تاركة ماعها من أموال وحيوان ومتاع ... وفقد قليج مباشرة بعد العاصمة والزوجة والاولاد ، خيمته وأمواله (يوليو 1097) رجب 490 وقد كان لهذه الهزيمة أثرها البعيد في تاريخ الشرق الاسلامي اذ انها جاءت لحد ما جوابا على ملازكرد ، واعلنت انتهاء قوة الترك في الشرق المسلم وبدء ظهور قوة غريبة فيه . ويرى المستشرق غروسيه ان هذه

المعركة أخرت احتلال الترك للقسطنطينية الذى كاد يحدث سنة 1081 ، حين عسكر الترك السلاجقة في نيقية ، الى الاجل البعيد الآخر سنة 1453 ، وهي نتيجة قد تكون اعظم اهمية بالنسبة لأوروبا من تحرير القدس والقبر المقدس .

واذا فتحت هزيمة (اسكي شهر) الطريق امام الصليبيين الى قونية ثم الى هرقلية في قلب السلطنة السجوقية ومنها الى سورية . وتوجه قليج بعد ذلك نحو الشرق واتخذ قونية في كيليكيا عاصمة له وجعل همّه ان يكون في سلام مع بيزنطة في غربه . وهكذا عادت المنافسة بينه وبين سلالة الدانشمند في شمال شرقي بلاده على مناطق الحدود .

واشترك قليج على نطاق واسع في المشاكل التي قامت لملك مابين الجزيرة العليا والموصل واعتبر نفسه مستقلا عن السلطنة السلجوقية في بغداد فانه لما احتل الموصل (سنة 499 / 1106) خطب لنفسه بعد الخليفة واسقط اسم السلطان (محمد) من الخطبة الا انه التقى ببعض جند هذا السلطان عند الرحبة وعلى رأسهم رضوان بن تتش صاحب حلب (وجاولي) صاحب الموصل سابقا فانهزم امامهم سنة 500 ويصف ابن الاثير نهايته بقوله " علم قليج عند هزيمته انه ان أسر فعل به فعل من لم يترك للصلح موضعا لاسيما وقد نازع السلطان في بلاده وفي اسم السلطنة فألقى نفسه في الخابور . . وانحدر به الفرس الى ماء عميق فغرق وظهر بعد ايام فدفن في بعض قرى الخابور " .

وآلت سلطنة قونية بعد قليج ارسلان الاول الى أولاده واحفاده بالترتيب تقريبا : فمنه الى ابنه ملكشاه (500 ــ 510) ثم ابنه مسعود (510 ــ 551 / 1107 ــ 1155) ثم قليج ارسلان بن ملكشاه (551 ــ 584) ثم ابنه ملكشاه وهكذا حتى انتهت السلالة على يد العثمانيين بانتهاء السلطان علاء الدين كيقباذ (691 ــ 700 هـ) .

وقد توسعت سلطنة السلاجقة الروم في عهد مسعود بن قليج الاول (510 ــ 551) ولكنها قصرت نشاطها على آسيا الصغرى فقط وازدادت قوتها جدا بعد ذلك زمن قليج ارسلان الثاني الذى اعقب مسعود على العرش حتى سنة 584 / 1192 واستطاع ازالة دولة دانشمند ، المنافسة له ولكنه اصطدم عند اقتسام غنائمها بلاتابك نور الدين ابن محمود بن زنكي وبالامبراطور البيزنطي (مانويل كومنين) الذى كان الدانشمنديون في حمايته . وقد قطعت هذه المشكلة العلاقات الطيبة التي تربط بين قليج الثاني والروم والتي زار قليج على أساسها القسطنطينية سنة 1311 واستقبل فيها استقبالا حافلا مبرهنا بذلك على ان الاعتبارات السياسية قد أخذت تحتل مكان التعصب الديني في العلاقات المسلمة ــ المسيحية . وقد سمحت مشكلة الارث الدانشمندى لقليج الثاني ان ينتصر انتصارا ساحقا على حليفه القديم مانويل كومنين (في موريوكيفالون) سنة 1176 وان يأخذ منه غنائم كبيرة .

وكان قليج من البراعة السياسية بحيث ارسل قسما من هذه الغنائم الى خليفة بغداد ، فرفع بذلك كله من سمعة سلاجقة الروم وزين عاصمته قونية بأجمل المباني حتى يمكن ان يعد عهده العصر الذهبي لهذا الفرع السلجوقي . ولكن قليج لم يمتّع في آخر حياته الطويلة بهذا العصر

لأنه خسر عاصمته سنة 1190 اسبوعين خلال الحملة الصليبية الثالثة ومات بعد سنتين تاركا عددا من الاولاد كانوا وهو مايزال على قيد الحياة يختصمون على ميراثه حين عهد اليهم بادارة ممتلكاته .

ومع ذلك فقد أقيلت هذه السلطنة من عثرتها ومشاكلها بعد ذلك فان ظهور الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية سمح لها من جديد بالتوسّع وقد فتح لها احتلال موانىء انطاكية في الجنوب على المتوسط وسينوب في الشمال على البحر الاسود طرق التجارة وسمح " لتركيا " ذلك القرن (الثالث عشر) بازدهار اقتصادى كبير اذ اتصلت مع التجارة العالمية واستطاعت بما عقدت (زمن كيخسرو الثاني غياث الدين وابنه كيكاوس الثاني عز الدين مابين سنة 634 ـ 655) من معاهدات تجارية ملائمة مع الجمهوريات الايطالية ان تفيد من المقايضة بمحاصيلها الزراعية الوافرة . والواقع ان تدفق الثروة من جراء ذلك على البلاد مكّن الامراء من ان يرعوا صناعاتها اليدوية الفنية ويشجعوا على نشوء فن زاهر من العمارة فيها وعلى اتساع العمران . وفي القرن الثالث عشر كان السلاجقة الروم قد بدءوا منذ زمن عهد التنقل البدوى والسفاجة والسهوب وتأثروا لحد كبير بالثقافة الايرانية التي ازدهرت في عهد ابناء عمومتهم في ايران . وبالرغم من انهم حوّلوا آسيا الصغرى الى منطقة تركية لغوية الا انهم في الواقع لم يتصدوا الى ذلك بقدر ماعملوا على جعلها ايرانية وعلى نقل التأثيرات الايرانية اليها ويدل على شيء من ذلك اسماؤهم التي اتخذوها (كيخسروا ، كي قباذ ، الخ) وقد اعانهم الغنى التجارّى على اقامة اكبر المنشآت (على النهج الايراني) من قصور ومساجد ومدارس وأقنية وخزانات قبل ان يتحرر الفن الاناضولي التركي ويجد طريقه الخاص بعد ذلــــك .

على ان الثروة الواسعة عادت على السلاجقة بعواقب وخيمة أيضا (كعادة كل الدول) وذلك بانها سمحت لهم بالترف فلانت نفوسهم . يقول بروكلمان : " وانقطعت الاسباب بينهم وبين الخدمة العسكرية على تراخي الايام فتخلّوا عن صناعة القتال للمرتزقة من الروم والارمن والعرب وفي سنة 1239 على عهد كيخسرو الثاني أعلن الشعب سخطه على استهتار الامراء وتفسّخهم . ومهما يكن من شيء فقد قمعت الثورة التي قادها الدرويش بابا اسحاق بقوة السلاح ولكن المغول كانوا قد اقتحموا قبل ذلك أبواب آسيا الصغرى وأنزلوا بقوات كيخسرو هزيمة شنعاء في كوزداغ سنة 1243 ومع ذلك فقد استطاع كيخسرو ان يشترى استقلاله من المغول بجزية ثقيلة يدفعها اليهم حتى اذا توفي سنة 1245 ونشب النزاع بين ولديه عز الدين وركن الدين توسط هولاكو بينهما جاعلا الخط الممتد على طول نهر قزيل أرماق حدّا يفصل ممتلكات كل منهما عن الآخر . وحاول عز الدين ان يحالف مماليك مصر الذين وفقوا دون غيرهم الى النجاح في مقارعة المغول فعوقب على ذلك بأن حرم ممتلكاته في حين اخضع اخوه لرقابة عامل مغولي اسمه (بروانه) وماهي الافترة قصيرة حتى خلع هذا العامل ركن الدين ليتفرد بالحكم بوصفه وصيا على غياث الدين بن ركن الديـــن .

واذ ذاك استنجد الامراء الاتراك بالسلطان بيبرس الذي هزم المغول في شمال سوريا عند (البستان) سنة 1277 واندفع فاتحا حتى بلغ قيسارية ولكن بيبرس لم يجد أي تأييد في البلاد فقفل عائدا بسرعة فلم يكن من السلطان المغولي (أباقا) الا ان أنزل أشد العقاب بالامراء وبالعامل (بروانه) لقعوده عن حرب بيبرس . وهكذا قضي نهائيا على استقلال السلطنة . على ان المثل العليا للجهاد مالبثت ان بعثت من مرقدها في الثغور مرة أخرى اذ برح آسيا الوسطى في اثر المغول عدد من زعماء الدين ورؤساء الطرق الصوفية ونزلوا بلاد الاناضول وهناك أحيوا فكرة الجهاد ضد البيزنطيين في حين انهمك هؤلاء في استعادة سلطتهم على البلقان مفرطين بذلك في جانب الدفاع عن آسيا الصغرى . فاجتاح الاتراك غربي آسيا من جديد : وأقاموا فيها دويلات مستقلة في مختلف المقاطعات : فنزل القرمانيون في ليقاوئيا القديمة ونزل الكرمانيون في كوتهية واستقر الحميديون في ميسبه والصاروخان في مغنيسية كما دخل العثمانيون في التبعية السلجوقية صدفة منذ أواسط القرن الثالث عشر واقطعهم السلطان علاء الدين الثاني منطقة المستنقعات عند سكود في وادي قره صو (الفرات الغربي) على الحدود البيزنطية وترك له أمر توسيع حدوده بالجهاد ضد البيزنطيين فكان ذلك نواة الدولة العثمانية التي قضت على جميع الامارات التركية الاخرى وابتلعت معها السلطنة الأم السلجوقية والامبراطورية البيزنطية .

2 - سلاجقة الشام :- وكانت الشام عند موت ملكشاه في يد أخيه تتش وعدد من الامراء السلاجقة الأخرين استطاع تتش ان يستأصلهم بسهولة لكنه لم يكسب شيئا من مغامرته التي وصل بها حتى الري لكسب لقب السلطنة سوى القتل سنة 487 وكان من الممكن ان لايكون لأولاده ذكر من بعده لو ان السلطان بركيارق كان على شيء من همة أبيه أو على جانب من العقد .

ولكنه ترك الشام لأولاد عمه رضوان ودقاق. وسنتحدث عن دويلات بلاد الشام عند كلامنا عن حال البلاد الاسلامية قبيل الغزو الصليبي .

وثمة عدة دويلات قامت على أنقاض الامبراطورية السلجوقية الكبرى أهمها : أتابكية الموصل (516 - 660 هـ 1122 - 1262 م) وقد عرفت باسم دولة آل زنكي لمؤسسها عماد الدين زنكي ، وأتابكية حلب (541 - 579 هـ 1146 - 1183 م) وقد أسسها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، وأتابكية سنجار (566 - 617 هـ 1170 - 1220 م) التي أسسها عماد الدين زنكي الثاني (ابن قطب الدين بن مودود بن عماد الدين زنكي) وأتابكية الجزيرة (576 - 648 هـ 1180 - 1250 م) وصاحبها عز الدين مسعود .. (اخو سيف الدين غازي بن مودود بن عماد الدين زنكي) . وهناك أيضا اتابكيات أخرى كأتابكية أربيل وأتابكية ديار بكر وأتابكية أرمينيا وأتابكية اذربيجان وأتابكية لورستان وأتابكية فارس وأتابكية كرمان ثم دولة الخوارزميين التي عمرت بين سنتي 471 - 628 هـ 1077 - 1231 م .

الحـــروب الصليبيـــــة والدولـــة الايـــوبيـــــة (١)

تمهيـــــــد : — حالة بـــلاد آسيـــا الغـــربيــــــة قبيـــل الغـــزو الصليبي :

قاد السلاجقة العظام طغرل بك وابن أخيه ألب ارسلان وابن هذا الاخير ملكشاه افاقـــة العالم الاسلامي بالحاقهم الهزائم بالدولة البيزنطية التي شنّ طغرل بك عليها حربا شعــواء استمرت في عهد ألب ارسلان الذي ذاق البيزنطيون من جيوشه المظفرة الويلات باحتلالهـــا منطقتي الكرج (القوقاز) وأرمينية . واثر عودة ذلك السلطان السلجوقي الى اذربيجان وافته الانباء بخروج الامبراطور رومان ديوجنيس (463 هـ 1071 م) زاحفا على رأس حملة تيفـت على مائتي الف مقاتل قاصدا بها بغداد نفسها . وكان المسلمون يتراجعون امام ذلــــك الجحفل الجرار حتى بلغوا ملاذ كرد وهي حصن منيع شمالي ارمينية . هب ألب ارسلان لصدّ الزحف البيزنطي واشتبك بجيش الروم عند تلك البلدة في معركة ملاذ كرد حيث أحرز المسلمون نصرا مؤزرا على جيش العاهل البيزنطي الذي وقع في أسر القوات الاسلامية . وكان ممكنـــا ان تعجّل تلك المعركة التاريخية الحاسمة بانهيار الامبراطورية البيزنطية لو أحسن ألب ارســلان الافادة من نصره بمتابعة فلول البيزنطيين الى عاصمتهم نفسها . وقد تحدث أحد مؤرخـــي الفرنجة عن ملاذ كرد بقوله : " ... وانتهت الحرب بين الامبراطور وبين ألب ارسلان سنة 1071 م في موقعة ملاذ كرد بأن مني جيش الروم بهزيمة منكرة تمزقت بها أوصال جيشهـــم وأخذ المسلمون الامبراطور نفسه أسيرا . وملاذ كرد موقعة فاصلة فقد كانت ضربة للامبراطورية البيزنطية لم تبرأ منها . وساعدت على قيام الحروب الصليبية . ولو أن ألب ارسلان سار في طريقه الى البوسفور لما وجد شيئا من المقاومة ولقوّض أركان الامبراطورية البيزنطية " .

أحسن السلطان معاملة أسيره وأبرم صلح بين الجانبين اتفق بمقتضاه على ان يفتدى الامبراطور نفسه وجميع أسرى الروم بمليون دينار وان يدفع للسلاجقة ضريبة سنوية قدرهـــــا (360) ألف قطعة ذهبية . وقد قبض الروم على الامبراطور عقب عودته من أسره بعد أن كانوا خلعوه . ولم ينقذه استنجاده بألب ارسلان لان بني قومه سملوا عينيه وقتلوه قبل ان يصـــل المدد السلجوقي . (١)

نجح السلاجقة في توحيد العالم الاسلامي وشملت رقعة دولتهم البلاد الواقعة بين حدود الصين شرقا والبحر الابيض المتوسط غربا والقوقاز شمالا واليمن جنوبا . وقد أقر السلاجقة العظام الأمن في ربوع تلك الدولة المترامية الاطراف بهمة وزيرهم العبقري " الخوجة حسن " الذي عرفته المراجع العربية باسم نظام الملك . وليس أدل على مبلغ عناية هذا الوزير باستتباب الأمن في طول البلاد وعرضها من تأسيسه المنازل والمخافر على الطرق التجارية وطرق الحج . كمـا وجه هذا الوزير عناية زائدة الى العمران فأنشأ المدرستين النظامية والحنفية في بغداد كمـا

---

(١) بحث مكثف عن مذكرات استاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة ألقاه علينا في جامعة القاهرة سنة 1945 في محاضراته عن الايوبيين والمماليك .

بنيت في عهده المساجد والمستشفيات والقصور وشقت الطرق وحفرت الترع في شتى البلدان وذلك تسهيلا للزراعة والتجارة . أفاد الاسلام من قوة السلاجقة فعادت آسيا الصغرى مملكة اسلامية موحدة مرة ثانية وقد استقرت في هضابها قبائل السلاجقة التركية وغدت منذ ذلك جزءا من دار الاسلام كما ثبّت اولئك السلاجقة الاوائل الترك اقدام العناصر التركية في ارض الروم فكانوا أول من بدأ بتتريك آسيا الصغرى .

تأسيس دولة السلاجقة الروم : شعر ألب ارسلان بعد ملاذكرد ان الروم سوف يحاولون استرداد آسيا الصغرى من أيدي المسلمين فبدا له ضروريا ان يرسّخ اقدام هؤلاء فيها باقطاع ابن عمه سليمان بن قتلمش هاتيك الرحاب مما أدى الى تأسيس فرع للدولة السلجوقية الكبرى 465 هـ 1072 م عرف باسم دولة سلاجقة الروم أو سلاجقة الاناضول . وكان سليمان هذا شجاعا ومدبرا حكيما نجح في توسيع رقعة دولته فبلغت ضفاف بحر مرمرة شمالا وسواحل المتوسط غربا كما استولى على عدة جزر فهابه أباطرة بيزنطة ودفع بعضهم له الجزية . ثم طرد سليمان 467 هـ الروم من انطاكية فاحتلتها القوات الاسلامية من جديد . جعل سليمان مدينة نيقية حاضرة لدولته لكنه انتقل منها الى قونية غداة استيلاء صليبيي الحملة الاولى عليها على النحو الذي سيأتي بيانه . ومن الغريب ان تلك الدولة السلجوقية الصغرى المتفرعة عن الدولة السلجوقية الكبرى كانت اطول دول السلاجقة عمرا فبقيت زهاء قرنين اي الى منتصف القرن السابع الهجري (665 هـ 1257 م) حيث قضى عليها التتر .

امارات سلاجقة الشام :— كانت بلاد الشام في عهد ملكشاه السلجوقي (1072 — 1092 م) موزعة بين عدد من الامراء اهمهم اخوه تتش المؤسس الحقيقي لدولة سلاجقة الشام وغيره . وقد استطاع تتش ان يتغلب على اولئك الامراء لكن وفاته بعد سنتين اعادت الانقسام الى ربوع الشام فقامت دويلتان سلجوقيتان في دمشق وحلب كانتا من نصيب دقاق ورضوان ابني تتش . ولم تعمّر امارة سلاجقة دمشق التي آلت دقاق سوى اثنتي عشرة سنة (بين وفاة ملكشاه 1092 م و 1104 م) وحلّت محلها دولة الاتابك طغتكين بن بوري زوج ام دقاق اما امارة رضوان في حلب فقد استمرت اربع سنوات بعد وفاة رضوان حكم خلالها ابناه الى 1117 م ثم تغلب عليها بعض القادة الترك وبقوا فيها الى انضمامها الى اتابكة الموصل الزنكيين كما سيأتي بيانه في حينه .

وكان في بلاد الشام عدد آخر من امراء السلاجقة وسلالات محلية واهم اولئك الامراء والسلالات :

آ — الامير أرتق (وجاء اسمه في بعض المصادر أتسز) وكان يحكم بيت المقدس وقد استخلصها من الفاطميين . وبعد وفاته 1091 م حكمها ابناه الى 1098 م عندما استغل الفاطميون الهجوم الصل على شمالي سورية فاسترد وزيرهم الافضل بيت المقدس ومعظم فلسطين .

ب — القاضي ابن عمار الشيعي : الذي كان يحكم طرابلس ثم تحوّل حكمها لابنيه من بعده ، وقد جعل هؤلاء طرابلس امارة غنية شهيرة بمدارسها ومكتبتها الفخمة التي احرقها الصليبيون

واستمر آل عمار في طرابلس الى 1108 م حينما أسس الصليبيون فيها احدى اماراتهم اللاتينية .

جـ ـ اسر اخرى : كبني ملاعب في حمص وبني منقذ في شيزر و الحاكم السلجوقي ياغي سيان في انطاكية . كما قام بنو عقيل على حكم مناطق الجزيرة ، ومتغلبون صغار على حكم الرها وآمد وميافارقين .

وعلى العموم فان تفكك أوصال سورية وتقسيمها اضعفا مقاومتها للصليبيين عندما أزفت ساعة العمل 1099 م وتلك الوحدة التي شملت البلاد الاسلامية ايام السلاجقة العظام (1037 ـ 1092) لم تكن سوى وحدة ظاهرية لم تعمر اكثر من اربعين عاما بعد وفاة ملكشاه 1092م فسرعان ماتفكك العالم الاسلامي وغدت امبراطورية ملكشاه مزقا اقتسمه بعض الأمراء الذين استقل كل منهم بامارة سلجوقية مستقلة . وكان بعض امارات الشام سلجوقيا وبعضها عربيا .

اسباب الحروب الصليبية : دامت تلك الحروب التي دارت بين مسيحيي غربي اوروبا وشرقيها وبلاد الشرق الاسلامي قرنين من الزمن (481 هـ 681 هـ ، 1096 ، 1291 م) وكانت من اجل استخلاص بيت المقدس والاماكن المقدسة من المسلمين . وقد دعيت بالصليبية لاتخاذ المحاربين الغربيين فيها الصليب شارة وضعوها على صدورهم .

اما الاسباب غير المباشرة لتلك الحروب فهي :

1 ـ الخطر السلجوقي الذي تعرضت له الدولة البيزنطية : وذلك عندما اخذ السلاجقة العظام يسددون لتلك الدولة الضربات المتتالية وأفدحها معركة ملاذكرد (1071م) التي جعلت البابوية ومختلف دول أوروبا المسيحية تدرك ان العالم المسيحي امسى في خطر حيث لم تعد الدولة البيزنطية قادرة على صد الزحف الاسلامي على اوروبا الجنوبية الشرقية .

2 ـ حالة المجتمع الاوروبي الذي ساد فيه النظام الاقطاعي ذو الطبقات الاجتماعية حيث بقي قسم من الفرسان دون الحصول على اقطاعات ، وكانوا ميالين الى المغامرات فوجدوا في الدعوة الى الحروب الصليبية فرصة تمكنهم من كسب النفوذ والمجد والمال . هذا وهناك النزعة العسكرية وحب القتال عند قبائل التيوتون الجرمانية التي وجدت في تلك الدعوة مجالا رحبا لتلبية ميولها .

واخيرا فان نمو المدن التجارية الايطالية كالبندقية وجنوة كانت تفكر باحتكار التجارة بين الشرق والغرب .

3 ـ رغبة البابوية في السيطرة على العالم المسيحي وتوحيده في ظل زعامتها : فاستثير البابا الشعور الديني عند الجماهير وصاح في مجمع كليرمون 1095 م صيحته المشهورة :

"انها ارادة الله " وكان البابا في تلك الفترة فرنسيا وهو اوربان الثاني .

4 - استنجاد امبراطور بيزنطة الكسيس دوكومين بالبابا وملوك غربي اوروبا : ليساعدهم على الوقوف في وجه السلاجقة والحيلولة دون قضائهم على الدولة البيزنطية .

وقد بالغ الداعون لتلك الحرب وعلى راسهم البابا اوربان الثاني وبعض متعصبي الرهبان كبطرس الناسك فصوروا لمسيحي غربي اوروبا ان حجاج بيت المقدس يلقون الاضطهاد الشديد على يد المسلمين من حكام الاماكن المقدسة فيجب ان تنزع ملكية هؤلاء عن تلك الاماكن .

وقسّم مؤرخو الحروب الصليبية تلك الحروب الى ادوار ثلاثة اولها دور تشتت القوات الاسلامية والنصر الصليبي عليها مما كانت نتيجته قيام اربع امارات صليبية في ربوع البلاد ثم دور التوازن وفيه بدأت جهود آل زنكي لجمع كلمة المسلمين للوقوف في وجه الصليبيين واخيرا دور الانهيار الصليبي على يد الايوبيين والمماليك . وسنفهم تلك الادوار من ايراد الحملات الصليبية خلالها .

1 - دور تشتّت القوات الاسلامية وانتصار الصليبيين : دعا البابا اوربان الثاني الى مجمع علم في مدينة كليرمونت جنوبي فرنسا في نهاية نوفمبر من السنة نفسها حيث دعا المسيحيين الى استخلاص قبر المسيح وغيره من الاماكن المقدسة ممن دعاهم بالكفرة . وحلف الفرسان ان يتناسوا احقادهم ، كما رغب الفقراء بما سيحصلون عليه من غنائم في فلسطين واعلن غفران ذنوب الخاطئين ممن سيشتركون في ذلك الجهاد المقدس ووعد من سيلاقون حتفهم بالجنة . وعلّق شارة الصليب على صدور المجتمعين الذين تطوعوا للقتال وغدا الصليب شعارا لتلك الحروب . واعلن البابا حماية الكنيسة لأملاك المحاربين واسراتهم . واخذ الاساقفة يجوبون انحاء البلاد داعين الافراد الى التطوّع في ذلك الجهاد المقدس وكان اهمهم بطرس الناسك .

صليبية الغوغاء : زحف بطرس الناسك سنة 1096 على رأس حملة دعاها المؤرخون باسم صليبية الغوغاء أو الصليبية الشعبية . وقد اختلف هؤلاء في تقدير عدد افرادها . فبينا نجد ذلك العدد مبالغا فيه في بعض المصادر (300 الف) نجده في مصادر اخرى اربعين الفا فحسب ، وان يكن الجميع متفقون على ان افراد تلك الحملة كانوا من الغوغاء والبائسين واللصوص والطبقات الجاهلة التي زحفت دونما نظام تبعث الذعر والدمار في المناطق التي مرت بها . وكان افراد الحملة رجالا واطفالا ونساء من مختلف الاجناس واللغات وقد نشرت الحملة الذعر في بلاد المجر والبلغار فلما وصلت جموعها الزاخرة آسيا الصغرى ارسلوا نفوسهم على سجاياها واستسلموا الى شتى انواع الموبقات واشدّ الفظائع فانبرى لهم سلطان سلاجقة الروم (قليج ارسلان) بجحافله فاباد مقاتلتهم وافنى الحملة عن آخرها 1096 م .

الحملة الصليبية الاولى 1097 وتأسيس الامارات في سورية : درج المؤرخون على تقسيم الحملات المنظمة الى سبع او ثماني حملات . لكن في الفترات التي بين تلك الحملات كانت الامدادات الصليبية تترى على بلاد الشام . وليست التسمية العددية لبعض تلك الحملات

(بالاولى وبالثانية وبالثالثة الخ ....) الا لاهميتها وتسهيلا لمهمة الدراسة .

بلغت انباء الاخفاق المريع الذي منيت به صليبية الغوغاء والتجريدات الصليبية الاخرى (كتجريدة الراهب الالماني هودسكالك وتجريدة الفرنسيين والانكليز والفلمنك واهالي اللورين) اوروبا الغربية فاخذت تستعد استعدادا كبيرا لتشكيل حملة منظمة اختلف المؤرخون المعاصرون في تقدير افرادها بين قائل انهم بلغوا 200 ـ 300 الف مقاتل ثلثهم من الفرسان وبين قائل انهم بلغوا 700 الف مقاتل . وكانت فرنسا اكثر دول غربي اوروبا حماسا لتلك الحملة فرافقها ريموند كونت تولوز اغنى امراء فرنسا الاقطاعيين ومعيته عدة امراء آخرين ومندوب عن البابا . ومن بين امراء الحملة غودفروي دوبويون دوق اللورين الاسفل واخوه بلدوين (وهما ابنا كونت بولونيا) وتنكريد دوق نورمانديا وعمه بوهيموند وروبرت

وصلت تلك الجحافل الجرارة مدينة القسطنطينية 1097 م فراعت عاهلها الامبراطور الكسي دوكومين الذي سرعان ما هيأ لها عبور البوسفور الى البر الآسيوي فتابعت زحفها على بلاد سلاجقة الروم وحاصرت نيقية حاضرتها التي سقطت بيد الصليبيين في يونيو 1097 م فانتقل سلاجقة قليج ارسلان الى قونية . وكان الصليبيون سلّموا قيادتهم العليا للامبراطور البيزنطي الذي افلح في استرداد النصف الغربي من شبه الجزيرة الاناضول من اعدائه السلاجقة .

امارة الرها : دب الخلاف بين قادة الصليبيين لا سيما بين بلدوين وتنكريد وقصد الاول مدينة الرها (اوديسّا) استجابة لدعوة اميرها الأرمني المسيحي . ولما لم يكن لهذا الامير من وارث تنازل لبلدوين عن الرها فتأسست فيها اول امارة لاتينية في ربوع آسيا الغربية .

امارة انطاكية : وكانت غالبية الجيش الصليبي قد توجهت الى انطاكية وحاصرتها في أكتوبر 1097 فدافع عنها حاكمها السلجوقي ياغي سيان قرابة تسعة اشهر دفاعا مجيدا لكنه اضطر الى الاستسلام في النهاية من جراء خيانة احد القادة الارمن (واسمه فيروز) الذي كلف بالدفاع عن احد الابراج . وقد اعمل الصليبيون في المدينة قتلا وسلبا ولم يتمكن رضوان بن تتش امير حلب السلجوقي من ان يهبّ لنجدتها . وهكذا نجح الفاتحون في تأسيس الامارة الصليبية الثانية في ربوعها ودامت مائة وخمسة وسبعين عاما بايدي النصارى ، وقد اوسدت تلك الامارة لبوهيموند لكن امير الموصل السلجوقي كربوغا ودقاق بن تتش امير دمشق هبّا لحصار ، الصليبيين في انطاكية وأوشكت المدينة على الاستسلام بعد أن ذاق الصليبيون الاهوال وأكلوا جثث الموتى والحيوانات والاعشاب لولا حيلة الراهب بيهتز الذي نبش حربة في مكان ما من المدينة وصاح بالمحاصرين انها الحربة التي طعن بها السيد المسيح فأذكى حماس المقاتلين الذين خرجوا يائسين والحقوا الهزيمة بالجيش السلجوقي .

والى الصليبيون زحفهم جنوبا فاستولى ريموند دو تولوز على معرّة النعمان ومثّلت قواته باهلها ثم أخلتها في 13 يناير 1099 م بعد أن بلغت ضحاياها مائة الف نسمة . واتجه ريموند غربا فاحتل حصن الاكراد ويدعى حاليا بقلعة الحصن (هنيلسوز) وموقع عسكري يسيطر على الممر الذي يفصل سهول الداخل عن البحر الابيض المتوسط كما استولى على انطرطوس (طرطوس الحالية) دونما مقاومة . وقد أيد موارنة لبنان ذلك الجيش الصليبي بتقديم ماكان بحاجة اليه من أدلاء وجنود . وقد استحث غودفروا دوبويّون ريموند على موافقة هذه الحملة الى بيت المقدس غايتها الاساسية فأخلى كل المناطق التي فتحها ورافق الجيش الزاحف على بيت المقدس .

امارة بيت المقدس : كان الوزير الفاطمي ابو علي الافضل (بن بدر الجمالي) قد استرد مدينة القدس من السلاجقة 1098 م واسند حكمها للقائد فخر الدولة الذي حوصر من قبل الصليبيين بين السابع من يونيو والخامس عشر من يوليوز 1099 م . ولما استسلمت الحامية الفاطمية التي لم تكن تتجاوز الالف مقاتل مثّل الفاتحون بأهل المدينة تمثيلا وحشيا ثم مني الفاطميون بهزيمة ثانية عند عسقلان وتأسست الامارة الصليبية الثالثة وكانت اعظم الامارات اللاتينية شأنا وقد منحت الى غودفروا الذي لقب " بارون القبر المقدس وحاميه " .

تابع الصليبيون استيلاءهم على المدن الساحلية بمعونة الاساطيل الايطالية فخضعت لهم بيروت وعكا 1104 م التي قتل غودوفروا اثناء حصارها فخلفه اخوه بلدوين ، كما كان تنكريد قد فتح بيسان ونابلس . وقد توسعت امارة بلدوين في بيت المقدس فشملت مابين العقبة على البحر الاحمر الى بيروت وقد استمر عهده الى 1118 حيث تولاها ابن عمه بلدوين الثاني وقد فتحت بيروت وصيدا 1110 م . وكانت دمشق في تلك الفترة خاضعة لطغتكين بن بوري مملوك تتش السلجوقي الذي كان وصيا على دقاق بن تتش فيها . وعقدت محالفة بين طغتكين وبلدوين دامت عدة سنين . كما استولى بلدوين على مناطق اخرى في فلسطين وبنى 1115 م ، قلعة الشوبك (وتدعى ايضا الجبل الملوكي) جنوبي البحر الميت وتسيطر بموقعها الممتاز على طريق الصحراء الذي يربط بين دمشق والحجاز ومصر .

امارة طرابلس : اخفق ريموند خلال زحفه الأول على بيت المقدس في فتح طرابلس فلما توطدت اقدام الصليبيين في مملكة القدس عاد لحصارها سنة 1101 م . وقد بنى بجوارها قلعة على تل مرتفع يطل على نهر ابي علي (قاديشا) . ورغم استيلاء ريموند 1104 م على جبيل بمساعدة اسطول جنوى فقد توفي 1105 م قبل استسلام طرابلس التي استمرت على على مقاومتها الباسلة حتى منتصف يوليوز 1109 حينما سقطت بايدي الصليبيين فأسسوا في ربوعها امارتهم الرابعة . وقد مثّل الصليبيون بأهل طرابلس واحرقوا مكتبتها الغنية .

كانت الامارات اللاتينية الثلاث (الرها ، انطاكية ، طرابلس) تابعة لمملكة بيت المقدس وقد انحصرت السيطرة الصليبية بسوريا الشمالية/الجزء الساحلي ، بينما بقيت مدن الداخل

بأيدي المسلمين ولو أن بعضها كدمشق أدت لهم الجزية قبل ان ينجح نور الدين محمود زنكي في ضمها الى دولته . ومن الثابت ان الصليبية الاولى قد حققت الغاية التي جعلتها هدفا لها وهي استخلاص بيت المقدس من ايدي المسلمين وقيام امارات الرها وانطاكية وطرابلس الصليبية ورغم تبعية تلك الامارات تبعية اسمية لبيت المقدس لكن كل واحدة من بينها كانت مستقلة استقلالا تاما بشؤونها الداخلية . وقد اسفرت تلك الحملة عن ظهور مؤسسات حربية دينية وضحت فيها مبادئ الرهبنة والفروسية جعلت هدفها حماية النصارى والعناية بالمرضى والجرحى ، ومن اهمها فرسان الداوية ويعرفون بالفرسان الهيكليين أو فرسان المسيح الفقراء وفرسان الاسبتارية ويعرفون باسم فرسان القديس يوحنا . وقد انخرط كثير من الاشراف وفرسان الغرب في عداد المنتسبين الى تلك المؤسسات .

2 — دور توازن القوى بين المسلمين والصليبيين : ظهور آل زنكي وتوحيد المسلمين

أفاد الصليبيون من ضعف السلاجقة بنتيجة النظام الاقطاعي الذي أوجده الوزير نظام الملك في عهد ملكشاه . ولكن نتائج هذا النظام الذي أدى الى تقسيم الامبراطورية السلجوقية الى عدد من الاقطاعات مستقل بعضها عن بعض لم تظهر في حياة ملكشاه ووزيره العظيم وذلك لان اصحاب تلك الاقطاعات كانوا يدينون بالولاء لذلك السلطان القوي ولوزيره العبقري لكن وفاة هذين الزعيمين اعقبها تمزيق اوصال دولة السلاجقة وانهيار عرى بنيانها فبدأ البنيان الشامخ يتداعى بالفتنة التي استشرت بين ابناء ملكشاه نفسه وكانت اولى مراحلها النزاع الذي احتدم بين تركان خاتون الوصية على ابنها محمود (وهو اصغر اولاد ملكشاه) واخيه الاكبر بركيارق . ولم يطل أمد هذا النزاع لوفاة محمود وتغلب بركيارق على انصار اخيه فاستأثر بالنفوذ وحصل من الخليفة المقتدي على لقب السلطنة (أي الاعتراف بزعامة السلاجقة السياسية) . لم يتوطد حكم بركيارق لخروج عمه تتش (مؤسس دولة سلاجقة الشام) عليه فنشبت حرب بينهما ادت الى مصرع الثاني ولم يكد بركيارق ينتهي من عمه حتى قام اخوه محمد ينازعه الحكم فنشب النزاع الاخوي من جديد وبقي مستمرا عدة اعوام في العراق العجمي وفارس حين كان الصليبيون يعملون تمزيقا في اوصال بلاد الشام . ثم وصلت انباء الكوارث التي نزلت بمدن الشام عن طريق الفارين من وجه الصليبيين فوصف هؤلاء لسكان بغداد مانزل بمدن الشام واهلها من قتل وتمثيل وتعذيب وتخريب للمدن فارسل الخليفة المستظهر بالله وفد من لدنه الى بركيارق واخيه محمد (وكانت المعركة دائرة بينهما بالقرب من حلوان (شمال شرقي العراق) يحثهما على نبذ الخصام وجمع الكلمة لحرب الصليبيين كف الاميران السلجوقيان عن حربهما موقتا لكنهما استأنفا القتال من جديد . ثم توفي بركيارق 498 هـ (1104 م) فآلت سلطنة السلاجقة لاخيه محمد الذي استمر حكمه اربعة عشر عاما . ورغم مآثر هذا السلجوقي من شجاعة وكرم وعطف على الفقراء لكنه أخفق في اقالة الدولة من عثرتها فاستمر التحاسد بين اصحاب الاقطاعات في سورية والجزيرة مما أدى الى نشوب الحرب

بينهم . كما كانت الفوضى المنتشرة في الدولة الفاطمية من الاسباب التي اعجزتها عن الوقوف في وجه الصليبيين .

واخيرا نجح محمد بن ملكشاه في حمل امراء الاقطاعات على نسيان أحقادهم وتوحيد صفوفهم فاشتبكوا بالصليبيين في عدة معارك . وقد زحف بلدوين على دمشق 1113 م فاستنجد أميرها طغتكين (بن بورى) باميرالموصل مودود . ثم جمع امراء الموصل ودمشق وسنجار وما يدين شملهم وزحفوا على فلسطين حيث اشتبكوا في السنة نفسها بالصليبيين بجانب طبريا وألحقوا بهم هزيمة منكرة وغرقت اعداد غفيرة من الصليبيين في نهر الشريعة وبحيرة طبريا . كما ألحق اميرماردين بالصليبيين هزيمة اخرى في معركة البلاط 1119 م . أضف الى ذلك ماأحرزه الفاطميون من نصر في هجومهم على بعض الموانئ التي خضعت للفرنجة لكن استمرار وصول الامدادات للصليبيين من اوروبا ومصرع اميرالموصل مودود على يد احد افراد فرقة الفدائيين من الاسماعيلية الباطنية مكّنا الصليبيين من استرداد المواقع التي انتزعها المسلمون منهم ومن الاستيلاء على مدن اخرى . ولم يلبث ان توفي محمد بن ملكشاه 511 هـ (1118 م) ولحق به الخليفة المستظهر بالله فتولى الخلافة المسترشد بالله والسلطنة سنجربن ملكشاه (1118م) . وبعد وفاة سنجر قام ابنه محمود باعباء السلطنة فقاتل الفرنجة في طردهم من اماكن كثيرة كانت قواتهم قد احتلتها .

قيام الدولة الزنكية : كان أتابك (هو الامير الوالد أو مربي اولاد السلاطين السلاجقة) حلب قاسم الدولة اق سنقر قد اقام حكما موطّد الدعائم في تلك المدينة لكنه قتل 487 هـ (1094 م) تاركا طفلا هو عماد الدين زنكي لم يتجاوز العاشرة من سني حياته كفله كربوغا اتابك الموصل وكان من اصدقاء ابيه الذى كان مقربا من ملكشاه . وقد عني كربوغا بتربية ذلك الطفل . وبعد وفاة كربوغا (494 هـ ، 1101 م) استمر الغلام موضع عطف ورعاية سائر الامراء الذين تولوا على حكم الموصل وكان آخرهم الامير مودود . وقد بقي عماد الدين زنكي في الموصل في رعاية امرائها الى ان بلغ الثامنة والثلاثين . وقد اقطعه السلطان محمود السلجوقي (وفي رواية اخرى السلطان محمد) 516 هـ 1122 م ، اقليم واسط كما أضاف اليه بعد سنتين حكم البصرة . ونظرا لنجاح زنكي في الحاق الهزيمة باميرالحلّة دبيس بن صدقة وبأعراب البادية ولاه الخليفة المسترشد العباسي منصب مستحفظ بغداد وحكم العراق الجنوبي ، ثم اوسد اليه 521 هـ (1127 م) امارة الموصل والجزيرة . وبالرغم من العلاقة الحسنة التي ربطت زنكي بالخلافة العباسية فقد كان دؤوب السعي لتوطيد سلطته في المناطق التي اسند حكمها اليه عن طريق احاطة نفسه بعدد كبير من المخلصين ساعدوه على التمكين لنفسه في هاتيك الربوع . وقد زجّ زنكي نفسه في النزاع الذى احتدم بين سلاطين السلاجقة ، كما تدخل في النزاع بينهم وبين الخليفة المسترشد بانضمامه الى محمود السلجوقي .

ولما هزمت قوات الخليفة زنكي شمالي بغداد اضطر الى الفرار عبر دجلة والاختفاء وقد ساعده في ذلك حاكم قلعة تكريت الكردي أيوب وذلك 1132 م مما أدى الى توطد صلات زنكي بحاكم تلك القلعة الكردي . ولأيوب هذا اهمية قصوى في تاريخ الشرق الادنى فهو ابو صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الايوبية في مصر .

لم تفت الهزيمة في عضد زنكي فسرعان ما استرد قوته اثر عودته الى الموصل فهزم الخليفة عندما هم بالاستيلاء على تلك المدينة واخرج زنكي منها . بيد أن تردي علاقات زنكي بالخلافة جعله يفكر بمجال آخر للتوسع غير بغداد فوجد الفرصة سانحة في المناطق الغربية أي في الامكنة التي كانت خاضعة لسلطة الحمدانيين . ومما جعل مهمته ميسورة في هذا الاتجاه حالة الانقسام والضعف التي كانت تئن منها امارات الشام فهي بحاجة ليد قوية تجمع شملها وتجعل منها قوة كبيرة للثأر من الصليبيين وطردهم من الاماكن التي احتلتها قواتهم . وهكذا استولى ذلك الاتابك (ويعتبر مؤسسا للدولة الزنكية التي استمرت بين سنتي 1127 ـ 1262م) على مابين الموصل ونصيبين والجزيرة ، كما استولى 1127 أو 1129 م على حلب وكانت وشيكة السقوط بيد الفرنجة . كما لاحظ زنكي اهمية موقع دمشق في الخطة التي وضعها لتوحيد القوى الاسلامية في بلاد الشام ضد الصليبيين فاستيلاؤه عليها يجعله يتخذ منها رأس جسر في قلب المعسكر الصليبي . وقد بدا لحاكمها اسماعيل بن طغتكين ان يسلمه المدينة فلما وصلها زنكي 1134 م ادرك الصليبيون خطته وحاولوا دون تسليمها اليه مما أدى الى نشوب ثورة فيها من قبل مماليك اسماعيل نفسه وتسلم اخيه شهاب الدين محمود حكم دمشق . ثم استأنف زنكي محاولته 1139 م وحاصر دمشق لكنه لم يفز منها بطائل فارتد عنها الى الموصل ليستعد لطرد الصليبيين من امارة الرّها .

استرداد امارة الرها : استرد زنكي الرها نفسها 1144 م بعد حصار دام اربعة اسابيع مما اعتبر صفعة قوية رد بها الشرق الاسلامي على الصليبيين . وقد لقب فوز زنكي على الصليبيين بنصر الانصار فالرّها كما قال المؤرخون كانت اسفينا دقته الفرنجة بين سورية الاسلامية والعراق . وكان ركنا هاما من اركان البناء الصليبي في بلاد الشام لانها بحكم موقعها الجغرافي بمثابة سهم نافذ الى قلب البلاد الاسلامية ، وكان محتملا ان يتخذ الفرنجة من ذلك السهم اداة لتمزيق الدولة الاسلامية . وحري بالذكر انه رغم فتح زنكي للمدينة عنوة لم يرغب في الانتقام من سكان الرّها ليثأر للفظائع الوحشية التي ارتكبها الصليبيون عند استيلائهم على المدن الاسلامية فتغلبت مروءته على سخطه فلم يقتل سوى المحاربين والرهبان والقسس الذين كانوا المحرضين على القتال بينما اطلق سراح جميع الرجال والنساء والاطفال ممن وقع في أسر الفاتحين ورد اليهم اموالهم .

وقد كان لاستيلاء المسلمين على الرها صدى سيء في اوروبا فجهزت حملة صليبية لاستردادها منهم . ان احتلال الرها هو كما يرى بعض المؤرخين هو بدء النهاية في الملحمة الصليبية

ولم تطل الحياة بذلك البطل فسرعان ماأغوى به أعداؤه احد مماليكه الذى اغتاله وهو نائم عندما كان يحاصر قلعة جعبر وذلك 1146 م تاركا اربعة اولاد منهم سيف الدين غازى ونور الدين محمود وقطب الدين مودود .

القضاء على الدولة الفاطمية وقيام الايوبيين : ليست لدينا معلومات وافية عن اصل الايوبيين سوى ان تلك الاسرة من اكراد الروادية من بطون الهذبانية وقطنت مدينة دوين في مقاطعة آران (اذربيجان) . ولسنا نعرف من نسب تلك الاسرة الثابت سوى ان مؤسسها هو صلاح الدين يوسف بن ايوب بن مروان بن شادى ، اما ماعدا ذلك كنسبة بعض المؤرخين تلك الاسرة الى عدنان أو آدم أو مروان بن محمد الاموى فكل ذلك مما لا يمكن الركون اليه .

لم تستلفت تلك الاسرة الكردية الانظار في أول العهد بها واقتصرت شهرتها على ان صداقة كانت تربطها ببهروز احد خاصة السلاجقة في بغداد . ويغلب على الظن ان ذلك الصديق استدعى نجم الدين ايوب الى بغداد واوسد اليه احكم قلعة تكريت شمالي العراق 525 هـ 1130 م ثم لم يلبث ذلك الايوبي ان وطد صلاته بأعظم شخصيات الشرق الادنى الاسلامي آنذاك وهو عماد الدين زنكي بتمكينه من عبور دجلة فارا من وجه الخليفة العباسي المسترشد 1132 م على النحو الذى سبق ايضاحه مما كلف الاسرة الأيوبية فقدان المنصب الذى حصلت عليه بفضل بهروز وهو حكم قلعة تكريت فنحي ايوب عن منصبه 1138 م . وقد روى ان صلاح الدين يوسف بن ايوب ولد ليلة رحيل ابيه واسرته من تكريت ولجوئه الى امير الموصل عماد الدين زنكي

ربط ايوب منذ تلك اللحظة مصيره بمصير زنكي الذى كان يفكر في جمع شتات القوى الاسلامية وتوحيدها لشن حرب على الامارات الصليبية . ولملاحظة زنكي ان الدويلات القائمة في الربوع السورية لايمكنها ان تصمد في وجه الصليبيين وطد العزم على فرض حكمه على اجزاء سورية الداخلية فاستولى على حلب 1129 م . وعقب انضمام نجم الدين ايوب واخوه اسد الدين شركوه لزنكي كلفهما بانجاز توحيد سورية الداخلية فاستوليا على بعلبك ذات الموقع العسكرى الممتاز لتهديدها الاتصال البرى بين مملكة القدس الصليبية وامارات طرابلس وانطاكية والرها . فلما استقرت قوات زنكي في بعلبك (1139م) وفي حلب منذ 1129م ، كان يريد باحتلالهما الحيلولة دون وصول أى مدد صليبي الى الرها عن طريق انطاكية ضرب ضربته الموفقة 1144م بقضائه على امارة الرها واستيلائه عليها من جوسلين الثاني على النحو الذى سبق تفصيله .

عيّن زنكي نجم الدين ايوب (وكان اكبر من اخيه شيركوه) على حكم بعلبك فبقي في منصبه هذا حتى وفاة زنكي (1146 م) . وكان صلاح الدين ابنه في السنة الأولى من عمره عندما وصل ابوه ايوب الى بعلبك فنشأ في تلك القلعة .

وقد عني الاب بتربية ابنه تربية قومية فوقف على علوم عصره من حفظ لكتاب الله ودراسة للفقه ورواية للشعر العربي كما كان لتلك النشأة في بعلبك اثر قوى في تقدير صلاح الدين الخطر الصليبي المحدق بالبلاد الاسلامية . فلما ان امارة الرها كانت اسفينا دقته الفرنجة لتهديد

الخلافة العباسية في بغداد وسهما نافذا الى قلب البلاد الاسلامية ، فان قيام القوات الزنكية في بعلبك قام بدور مماثل من حيث كونه سهما نافذا الى قلب الامارات الصليبية .

عاقت وفاة عماد الدين زنكي 1146 لفترة انجاز مشروعه في متابعة استرداد البلاد التي وقعت بأيدي الصليبيين وذلك لان بعض اصحاب المناطق التي استولى عليها زنكي وجدوا الفرصة سانحة لاسترداد ما فقدوه من ابنيه نور الدين محمود الذي آل اليه القسم الغربي من دولة ابيه وكانت حلب حاضرة له بينما استولى اخوه غازي على القسم الشرقي وحاضرته الموصل . وقد جعل هذا التقسيم نور الدين يفكر ان مجال التوسع لدولته غربا فركز كل جهوده ضد الصليبيين غربي بلاد الشام . اما محاولات اعداء الزنكيين في استخلاص الاملاك التي كان زنكي انتزعها منهم فتتلخص في :

آ - محاولة جوسلين الثاني استرداد الرهـــا : ففشل فشلا ذريعا جعل الفرنجـــة لايفكرون بأيـــة محاولة ثانية من هذا النوع .

ب - محاولة رينوند امير انطاكية غزو حماه وحلب وقد توغل على رأس قواته غير أن شيركوه وقـف في وجهه وهزمه وخلص من كان في معسكر الصليبيين من اسرى مسلمين وقام بهجوم معاكس علـى ممتلكات امير انطاكية وقد انتصر عليه ثم عاد ادراجه الى حلب .

ج - محاولة معين الدين أنر (وكان وصيا في دمشق على الامير البوري السمير مجيـــر الدين أبق وقد زوج أنر مجير الدين ابنته) استرداد بعلبك من نجم الدين ايوب فسلم ايـــوب القلعة 1146 م (سنة وفاة زنكي) دون قتال بعد ان ضمن له معين الدين اقطاعا كبيراوغربي دمشق ومبلغا كبيرا من المال . وقد حار المؤرخون في تفسير وتوقف ايوب ذلك الموقف من الدولة الزنكية . ويبدو انه لم يكن واثقا من نجاح نور الدين في سد الفراغ الذي شغر بموت ابيه زنكـي فآثر ان يبقى اخوه بجانب نورالدين في الشمال بينما يقف هو في دمشق على رأس قواته ليحـــول دون تمادي معين الدين في صداقته للفرنجة وايوخر سقوط دمشق بأيدي الصليبيين ان فكـــروا بمهاجمتها ريثما يصل المدد من نور الدين في حلب .

قامت سياسة معين الدين في دمشق على مصادقة الصليبيين ليضمن تأييدهم له فـــي ردّ الزنكيين عن دمشق ان فكروا باحتلالها . وهكذا وثّق علاقته بملك بيت المقدس الفتـــى بلدوين الثالث وبالوصية عليه دون ان يتنكر لتلك الصداقة اثناء هجوم الزنكيين على الامارات الصليبية في الشمال . وبعد وفاة زنكي واسترداد معين الدين بعلبك واستماله ايوب حاكمهـــا لجانبه عقد معين الدين اتفاقا مع اميري حمص وحماه الزنكيين ضمن به عدم مهاجمة الزنكيـــين له في عقر داره كما زوج ابنته من نور الدين 1147 بتأثير ايوب نفسه صديق الطرفين الـــذي سرعان ماغدا صاحب النفوذ الاسمى في دمشق فصار قائدا عاما لقواتها كما كان اخوه شيركـــوه في حلب يتقلد المنصب نفسه بجوار نور الدين . وقد استمرت علاقات معين الدين ودّية بمملكـة

بيت المقدس الصليبية . ولكن ذلك التقرب الزنكي البوري لم يرق للصليبيين فبدأ الجفاء بينهم وبين معين الدين اثر نزاعه مع امير صلخد وبصرى الارمني المسلم التنتاش الذى كان تابعا لدمشق فقرر الاستقلال مؤيدا من قبل صليبي القدس وأتت قوات صليبية لدعمه ضد معين الدين لكن تلك المحاولة باءت بالفشل وقضي نهائيا على الود الذى كان يربط بين الصليبيين ومعين الدين في دمشق مما مكنه من المحافظة على استقلاله ضد الصليبيين انفسهم وضد الزنكيين .

الحملة الصليبية الثانية 1147 م : هز استرداد زنكي لامارة الرّها 1146م اوروبا فتشكلت الحملة الصليبية الثانية بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا لاستخلاصها من ايدى المسلمين . فلما وصلت القوات الالمانية آسيا الصغرى انزل بها السلاجقة هزيمة كبرى قرب دوريليم (اسكي شهر) في اواخر 1147 . وبعد عودة كونراد الى القسطنطينية أمدّه امبراطورها بجيش فسارت الحملة حيث نزلت عكا في ابريل 1148 .

اما لويس السابع فنزل بقواته في انطاكية وبقي فيها حتى منتصف 1148 تتنازعه رغبتان تدعوه احداهما الى حرب نور الدين في حلب والزحف على الرها استجابة لرغبة امير انطاكية ريموند وجوسلين الثاني امير الرها التي انتزعها المسلمون منه . بينما كانت خطة ملك بيت المقدس بلدوين الثالث ان تتوجه تلك الحملة للاستيلاء على دمشق بعد ان ساءت العلاقات بين اميرها معين الدين ومملكة بيت المقدس على النحو الذى سبق بيانه . وبعد تردد انحاز لويس السابع لرأى ملك بيت المقدس . وبذلك تحولت تلك الحملة عن غرضها الرئيسي ألا وهو استرداد الرّها من الزنكيين . وقد عقد الصليبيون (باستثناء ممثلي انطاكية وطرابلس) اجتماعا في عكا في يونيو 1148 وقرروا الزحف على دمشق الذى بدأ من طبريا ثم بانياس فوادى العجم . وقد عسكرت القوات الصليبية بين داريا والمزة . وبدأت حصار دمشق في 24 يوليوز 1148 . وقام ذلك الجيش بتخريب الغوطة للافادة من خيراتها من جهة ولحرمان المحاصرين في دمشق منها . وقد توقع الصليبيون والمسلمون سقوط دمشق بيد الفرنجة الذين وعدوا بها كونت دوفلاندر تييرى الالزاسي وكان يحاصرها من جهة باب الجابية لكن دفاع المدينة المجيد اضطر الغزاة للانسحاب . وقد نجح معين الدين في بذر بذور الخلاف بين الصليبيين واتصل بصليبيّ سورية مفهما اياهم انه سيسلم المدينة للزنكيين ان استمر الالمان على حصار دمشق . وأقنعهم ان قوات الزنكيين سوف تسترد منهم سائر ماباياديهم من اماكن فالأولى بهم ان يقنعوا كونراد بفكّ الحصار عن المدينة مقابل اخذهم حصن بانياس اجتمع صليبيو الساحل بكونراد وخوفوه من سيف الدين (اخي نور الدين وهو صاحب الموصل) وقواته وان امير دمشق عزم على التنازل له عنها فرفع كونراد الحصار عن المدينة واستلم الصليبيون حصن بانياس وهكذا فشلت هذه الحملة ولم تتمكن من الاستيلاء

على دمشق لخشية الصليبيين من وقوعها بيد الزنكيين أي الدولة التي تتزعم الجهاد ضدهم .

كان نور الدين حتى قبل مجيء الحملة الصليبية الثانية قد مكن لنفسه في الشمال وذلك بقضائه على الثورة التي قام بها نصارى الرها بمؤازرة قوات جوسلين الثاني فقمع تلك الثورة بمنتهى الشدة وامر بنفي الأرمن من تلك الربوع وكانوا حلقة الاتصال بين الصليبيين ونصارى الرها — ثم تبع فشل الحملة الصليبية الثانية سلسلة من الانتصارات احرزها نور الدين في الشمال فاستولى على عدة قلاع قرب انطاكية وقتل الامير ريموند امير انطاكية كما استولى على قلعة أفاميا بجوار حماة 1149 فتم له بذلك استرداد معظم مناطق امارة انطاكية .

ويمكن تلخيص النتائج التي أدت اليها الحملة الصليبية الثانية بما يلي :

آ — ظهور فتور بين مشارقة الصليبيين (أي الذين استقروا في ربوع الشرق الأدني) ومغاربتهم فانقطع المدد الغربي مدة اربعين عاما .

ب — تفكير الصليبيين بتوجيه حملة صليبية ضد البيزنطيين وذلك لتواطؤ امبراطور البيزنطيين (من اسرة كومنين) مع سلاجقة الروم وذلك لاقتناع الصليبيين ان بيزنطة كانت السبب الأول في هزيمة الحملة الثانية .

جـ — النيل من سمعة الصليبيين بعد اخفاقهم في استرداد الرها وفتح دمشق وخسرانهم معظم اراضي امارة انطاكية .

د — قويت معنويات جيوش المسلمين ونور الدين .

هـ — تراجع امارة انطاكية حتى مجرى العاصي .

و — تسليم مابقي من امارة الرها الى المسلمين .

ز — بروز اسم دمشق كمدينة مقدسة ومعقل لا يرام وقد وضحت اهمية موقعها لنور الدين

ولما اطمأن معين الدين حاكم دمشق على نفسه اثر تراجع الفرنجة عن دمشق عاد لصداقته مع مملكة بيت المقدس وذلك ليفيد من ابقاء الوضع الراهن في سورية ضد نور الدين وبذلك يضمن بقاء دمشق منطقة توازن بين الشمال الخاضع للزنكيين والجنوب الخاضع للصليبيين وقد واتت الظروف نور الدين 1149 بموت اخيه امير الموصل سيف الدين غازي فتسلم حمص ، ومنها جملة امير انطاكية ريموند وقتله وهزيمة حليفه هذا الاخير شيخ الجبل الاسماعيلي واحتلال نور الدين عدة حصون من امارة انطاكية وحصاره انطاكية نفسها التي لم ينقذها سوى اسراع ملك بيت المقدس للدفاع عنها واخيرا بوفاة معين الدين أنر اتابك دمشق فعادت الحكم لمجير الدين البوري الذي أوسد تصريف الامور الى نجم الدين ايوب .

الاستيلاء على دمشق : بدأ نور الدين يفكر جديا بالاستيلاء على دمشق لخشيته من وقوعها بيد الصليبيين فهاجمها مرتين 1150 و 1151 و رغم محاصرته لها في المرة الثانية بين أبريل ويوليوز لكنه لم يفز منها بطائل واخيرا قرر الاستيلاء عليها 1153 عقب

استيلاء الفرنجة على عسقلان وبسط حمايتهم على امير دمشق مما افقده كل احترام بين السكان الذين ساءهم وصول رسل الصليبيين الى مدينتهم لقبض الجزية . وقد زاد استياء الدماشقة من مجير الدين واخيرا زحف شيركوه قائد نور الدين عليها في أبريل 1164 (وكانت قيادة قوات دمشق لاخيه ايوب) . واستنجد مجير الدين بالصليبيين على رضا تنازله لهم عن بعلبك فهب ملك بيت المقدس لنجدته لكن دمشق سقطت قبل وصوله . ويظهر ان ايوب سهل لاخيه شيركوه احتلالها رغم تردد اهل المدينة . وقد ثار الأحداث وفتحوا للقوات الزنكية الباب الشرقي ثم باب توما . لجأ مجير الدين الى القلعة فاقطعه نور الدين حمص ولما شعر برغبته في العودة الى دمشق نقله الى بالس على الفرات . ثم انتقلت الاسرة البورية بعد ذلك الى بغداد . وقد عين نور الدين ايوب حاكما لدمشق وتولى اخوه شيركوه نيابة السلطنة الزنكية . وهكذا تم اجتماع شمل الاخوين من جديد في خدمة امير واحد . وبذلك تم توحيد سورية الداخلية مابين عفرين واليرموك على حين أتم الصليبيون احتلال الساحل وكان هدف كل من الدولتين الزنكية والصليبية السيطرة على سورية كلها (ساحلا وداخلا) ثم عقدت هدنة لمدة سنة بعد توقف القتال بين الفريقين 1156 . واخيرا انتقل ذلك النضال الصليبي الزنكي الى ميدان آخر هو مصر أسفر فوز المسلمين فيه عن القضاء على الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية .

القضاء على الدولة الفاطمية : - دب الضعف في الدولة الفاطمية منذ مطلع القرن الخامس الهجرى (مطلع الثاني عشر الميلادي) . وقد اخذت علامات الاحتضار تبدو على تلك الدولة منذ بداية عصر الخليفة المستعلي بن المستنصر (487 - 495 هـ) من مجاعات وطواعين وارتفاع في الاسعار واضطرب في ادارة البلاد وشوءون الحكم واستئثار عناصر الجيش بمراكز ومرافق الدولة .

واهم ماساعد على تدهور الفاطميين فكرة تأليه الحاكم بأمر الله نفسه واحتجاب الخلفاء الفاطميين عن افراد الرعية ويضاف الى ذلك الخلاف المذهبي .

فمذهب الدولة الرسمي الشيعي مع انه لم يثبت تحول اغلبية سكان مصر الى ذلك المذهب . وحري بالذكر ان الدولة الفاطمية لم تستمر الى 567 هـ الا لعجز جيرانها عن ازالتها ، فدولة السلاجقة امست مفككة الاوصال وقسمت الى دول متطاحنة منذ اواخر القرن الخامس الهجرى .

اما الصليبيون وكانوا مبعث الخطر الحقيقي على الفاطميين منذ اوائل القرن الحادى عشر الميلادى فرغم محاولة بعضهم الاوائل غزو مصر ووفاة احد ملوكهم قرب بور سعيد الحالية فلم يكونوا يريدون سوى ذهب مصر فحسب . وقد حصلوا على بغيتهم بموافقة الفاطميين على ارسال اموال سنوية من القاهرة الى بيت المقدس . هذا وان لم يقل الفاطميون انفسهم حماسا عن

باقي الدول الاسلامية التي قامت على انقاض السلاجقة فنادوا بفكرة الجهاد ضد الصليبيين رغم المفاوضة معهم للاتفاق على اساس المناصفة حيث يكون جنوبي بلاد الشام وفلسطين تابعا للفاطميين بينما يخضع القسم الشمالي للصليبيين .

فكر وزراء الفاطميين في عقد حلف مع بعض الدويلات الاسلامية في الشام لمهاجمة الصليبيين من ناحيتين في وقت واحد . وقد بدأ الميزان يميل للجانب الصليبي اثر احتلال الفرنجة عسقلان جنوبي فلسطين 1153 م مما حدا بنور الدين لتصفية الدولة البورية في دمشق وكانت كما مر بنا تتأرجح بين صداقة الصليبيين ونور الدين . وقد تمّ الاستيلاء على دمشق 1154 م كما اسلفنا الاشارة الى ذلك في حينه وقد وضح لنور الدين ان وجهة الصليبيين ستكون مصر بعد عسقلان وذلك تقوية لمركزهم للقضاء على دولته . بينما وضح للصليبيين ان نور الدين سيعمد الى تطويقهم من ناحيتي الجنوب والشمال (وقد ظهر لهم ذلك في اقتطاعه اجزاء كثيرة من امارة انطاكية) . وهكذا بدأ نوع من السباق بين نور الدين والصليبيين للاستيلاء على مصر . وقد أتت الفرصة التي ظنها كلاهما مواتية لمشروعه (الاستيلاء على مصر) بما كان يجري في القاهرة من نزاع بين الزعيمين الفاطميين الحاجب ضرغام امير جنود برقة في الجيش الفاطمي وشاور المسعدي والي الصعيد الذي تولّى وزارة العاضد (1) آخر خلفاء الفاطميين . وقد بدا لكل من شاور وضرغام ان يستدعي لتأييده نور الدين او عموري ملك بيت المقدس وذلك 1163 م .

قصد شاور 1163 م نور الدين في الشام مستنجدا به متعهدا قيامه بنفقات نجدة نور الدين وان يؤدي له ثلث خراج مصر جزية سنوية . وكان قد حدث خلاف بين الصليبيين والدولة الفاطمية حول الاموال المقررة لهم على مصر فزحف عموري ملك بيت المقدس على ذلك القطر في شتنبر من ذلك العام وفي نيته ان يفرض على مصر شروطا منظمة لدفع الجزية .
ورغم مقاومة الفاطميين له هزمت جيوشهم عند بلبيس ففتحوا سدود الترع اثناء فيضان النيل فعجز عموري عن موالاة زحفه وارتد الى فلسطين . ولما بلغت انباء المفاوضة بين شاور ونور الدين لضرغام الحاجب فكر هو كذلك بمفاوضة عموري ملك بيت المقدس فغدت مصر نتيجة لتلك المفاوضة كدولة تابعة للصليبيين . ولئن تردّد نور الدين بادئ الامر في انجاد شاور

---

(1) كان شاور هذا قد خلع الوزير العادل (واسم العادل في الاصل زريق بن طلائع ابن زريق) ، وكان طلائع ابو العادل (لقب طلائع بالملك الصالح) واليا على الاشمونيين ووزر للفائز بن الظافر الفاطمي (حكم بين سنتي 549 - 555 هـ) . وكان الوزير طلائع وهو الملك الصالح قد قتل لتآمر عمه الخليفة العاضد عليه فاوسدت الوزارة لابنه العادل وهو ... وبقي فيها سنتين الى ان خلعه منها شاور المار الذكر .

فان ماوصله من اخبار عن ابرام حلف بين ضرغام والفرنجة أزال تردده . فأرسل الى مصر في أبريل 1164 م جيشا بقيادة اسد الدين شيركوه اخي ايوب وقد رافقه ابن أخيه صلاح الدين ، وكانت تلك الحملة اولى الحملات النورية على مصر وقد هزمت الجيش الفاطمي وضرغاما قائد المغاربة . ثم تقدم شيركوه فاحتل الفسطاط . ونظرا لكراهية الشعب لضرغام وعدم وثوق الخليفة العاضد به لم ينجح في اثارة اهل القاهرة ضد شيركوه فاضطر لمغادراتها وقد توفي عندما جفل به فرسه ووقع على الارض ، وشعر شاور بخطر استدعائه شيركوه الى مصر فانقلب عليه وأبى السماح لقوات نور الدين بدخول القاهرة كما رفض سداد ماتعهد به من مال (نفقات الحملة) ، لابل استمدّ العون الصليبي ليساعده على اخراج النوريين فهبّ عموري مسرعا وانتهى الامر بعودة شيركوه بقواته الى الشام في نوفمبر 1164 م ، ثم اضطر عموري نفسه الى الجلاء السريع عن مصر وذلك لانتهاز نور الدين فرصة غيابه في مصر فأخذ يهوي على بعض ممتلكات بيت المقدس فاضطر عموري الى الجلاء عن مصر .

وافقت فكرة الاستيلاء على مصر هوى من نفس القائد الايوبي شيركوه وافراد اسرته . ونظرا لوقوفه عن كثب على ماتردّت اليه الدولة الفاطمية من ضعف فكر في العمل لنفسه وان يؤسس فيها دولة يستقلّ بها عن سيده نور الدين . وفعلا فقد اخذ شيركوه يلحّ على نور الدين منذ ايابه من مصر ان ينتهز الفرصة ويهاجم مصر قبل نجاح شاور في تذليل صعابه فاقتنع نور الدين بوجاهة رأي تابعه شيركوه وامره بالتجهز لمهاجمة مصر . اما شاور فلما بلغته انباء تجهّز شيركوه للزحف استنجد بعموري ايضا . وهكذا دخل الجيشان النوريّ والصليبي ارض الكنانة في وقت واحد تقريبا في يناير 1167 . وكان ثمّة سباق بينهما للوصول الى القاهرة فوصل عموري الفسطاط (جنوبي القاهرة) واتخذ بها معسكره على حين عسكر شيركوه في الجيزة (غربي القاهرة) . نشب القتال بين الصليبيين ، مؤيدين من الفاطميين ، وبين شيركوه فهزم هذا الاخير وفرّ بقواته جنوبا الى الصعيد حيث لم يكن الاهلون من معتنقي المذهب الشيعي الرسمي مما جعلهم يمدّون القائد السنّي بالعون الاكيد وكان ان تمّ لقاء ثان بين قوات الفرنجة وقوات شيركوه جنوبي مدينة المنيا الحالية فانتصر شيركوه وتمّ له بذلك السيطرة على سائر اقسام الصعيد . ثم زحف القائد الايوبي شمالا متجنبا القاهرة واستمر في زحفه حتى بلغ الاسكندرية حيث كان المذهب الشيعي قليل الانتشار كذلك وتمّ له الاستيلاء على ذلك الثغر دونما مقاومة من اهله وعيّن عليه ابن اخيه صلاح الدين ولم يكن قد تجاوز التاسعة والعشرين من عمره ولم يبق في معيته سوى جيش ضئيل العدد ثم عاد شيركوه الى الصعيد حيث اخذ يجبي الاموال تمهيدا لتكوين القوة الكافية التي تتيح له البقاء في مصر ، ثم وصلت قوات عموري والفاطميين امام الاسكندرية وحاصرتها من البر والبحر فوضحت في ذلك الحصار عبقرية صلاح الدين الحربية لاستطاعته مقاومة محاصري المدينة من ناحيتيها ريثما انحدر عمه شيركوه الى القاهرة وهددها فاضطر

الصليبيون الى رفع الحصار عن الثغر المصرى . كما قام نور الدين نفسه في تلك الفترة بمهاجمة املاك عمورى في مملكة بيت المقدس فلما وصلت الى هذا الاخير اخبار حركات نور الدين رضي بالمفاوضة على اساس جلائه مع شيركوه للمرة الثانية عن مصر .

لكن وثوق عمورى من خطة نور الدين الرامية لاحتلال مصر جعله ينكث بوعده فرغب ان يفيد من قربه من مصر (اكثر من قوات نور الدين) وعاد بجيوشه الى مصر 1168 فاحتل مدينة بلبيس وأباحها لجنده فأغرقوا في السلب والقتل مما جعل الخليفة وشاور ورجال الدولة الفاطمية يستنجدون بنور الدين . وصلت الاستغاثة نور الدين فأعدته للاستيلاء على مصر نهائيا وقد عزم اول الامر ان يقود الجيش بنفسه لكن شيركوه . وكان فيما يبدو يريد استخلاص مصر لنفسه ولأسرته من بعده . لم يرغب ان يقود نور الدين تلك الحملة . ومهما يكن فان مشاغل نور الدين حالت بينه وبين تولي قيادة ذلك الجيش ووصل شيركوه وبصحبته ابن اخيه صلاح الدين قرب القاهرة للمرة الثالثة 1169 م وكان غرض الحملة الوسمي انقاذ الفاطميين من الفرنجة بينما غرضها الحقيقي الاستيلاء على مصر . ولم يفلح عمورى في الحيلولة دون دخول شيركوه وقواته القاهرة وانضمامه الى الفاطميين . ولما يئس ملك بيت المقدس من النصر عاد الى فلسطين وعاد شيركوه الى المدينة ظافرا فاستقبله الخليفة بحفاوة وخلع عليه .

خشي شاور من جديد وفود القوات النورية الى مصر وأخذ يتلكأ في وفاء ماتعهد به من مال ويدبر المؤامرات لاغتيال شيركوه غير أن غريمه كان اسبق منه لانه ادرك انه ليس بوسعه التمكين لنفسه في مصر مابقي شاور على قيد الحياة فعهد لابن اخيه صلاح الدين بالقضاء عليه فقبض عليه وازهق روحه ويغلب على الظن ان قتله كان برضى الخليفة العاضد نفسه .

ثم استوزر العاضد شيركوه لكنه لم يتمتع بمنصبه طويلا فوافاه اجله في مارس من السنة نفسها (1169 م) فأوسد الخليفة منصبه لابن اخيه الشاب صلاح الدين يوسف بن ايوب .

وقد كان مركز صلاح الدين حرجا للغاية فهو من جهة وزير لخليفة فاطمي شيعي (هو العاضد) وتابع لسلطان سنّي (هو نور الدين) بالاضافة الى تهديد الصليبيين المستمر لمصر فكان مركزه والحالة هذه محفوفا بكثير من الصعاب لكنه تغلب بحزم على سائر العقبات وقد نجح في خطته نجاحا اكيدا وذلك لشعور رجال القصر الفاطمي بعد تولي صلاح الدين انهم بازاء رجل قوي الارادة فأمعنوا في الدس له والتآمر عليه وتزعم المؤامرة خصي اسود من كبار رجال الفاطميين هو مؤتمن الدولة نجاح .

قيام الدولة الايوبية في مصر 1171 -- 1176 م : قوى مركز صلاح الدين في مصر عقب وفاة العاضد الفاطمي فحجر على افراد البيت الفاطمي في اماكن محددة ووزع قصورهم وثرواتهم على رجاله وقادته كما استولى على ماكان في تلك القصور من ثروات طائلة (من أثاث ومتاع وجواهر) ووزعه على خاصته وقواده وارسل من ذلك الشيء الكثير لسيده نور الدين لئلا يثير شكوكه نحوه . وقد خص القاضي الفاضل وهو احد المقربين منه بما كانت تحويه

مكاتب الفاطميين من الكتب ولم يخص صلاح الدين نفسه بشيء من تلك الثروات الطائلة
واستمر بدار الوزارة ولم ينتقل الى احد القصور الفاطمية التي استولى عليها .

ثم وضح ان صلاح الدين راغب في تأسيس دولة مستقلة في مصر لبنائه قلعة حصينة
على الطرف الغربي لجبل المقطم وجعلها مركزا للجيش وادارة الحكومة واحاط القاهرة بسور
ولا تزال القلعة (مع التعديلات التي ادخلت عليها ايام الايوبيين والمماليك وولاة العثمانيين)
باقية مع بقايا السور وقد احتفظ صلاح الدين بادئ الامر بعلاقات تبعيته بسيده نور الدين
فاستمرت الخطبة باسم هذا الاخير مقرونة باسم الخليفة العباسي واستمر النقود تضرب باسمه
في القاهرة . لكن نور الدين بدأ يشعر برغبة تابعه في الانفصال عنه منذ أواخر 1171 م
وبدأ الفتور يسود علاقات الطرفين وصار صلاح الدين يتجنب مقابله نور الدين . وبيان ذلك
ان صلاح الدين انتهز فرصة مشاغل سيده شمالي الشام فزحف على فلسطين مهاجما حصن
الكرك (وهي مشتقة من كلمة معناها المدينة الصغيرة) على البحر الميت راغبا تأمين
حدود الدولة التي ازمع تأسيسها في مصر . فلما علم نور الدين بذلك اسرع لملاقاة اتابعه
فترك هذا الاخير الحصن مسرعا رغم انه كان وشيك السقوط ليتجنّب مقابلة سيده مما أغضب
نور الدين فأسرها في نفسه ولم يقنع بما قدمه صلاح الدين من اعذار وهمية . وبدأ الشك
يسود علاقات نور الدين بمتبوعه لاسيما بعد حادث مماثل جرى في 1173 م عندما كان نور
الدين عند اطراف آسيا الصغرى لتسوية بعض المشاكل مع دولة سلاجقة الروم فأغار صلاح الدين
على بعض حصون الصليبيين الجنوبية لكنه بعد ان علم بقدوم نور الدين عاد ادراجه مسرعا
الى القاهرة متذرعا بمرض والده وانه راغب ان يكون بجانبه في احتضاره . وعاد نور الدين
الى دمشق واخذ يعدّ عدته لاجلاء تابعه عن مصر لكنه توفي في مايس 1174 وهو في
الخامسة والستين من عمره قبل انجاز مشروعه الآنف الذكر .

أفاد صلاح الدين من موت سيده نور الدين بتوطيده اقدامه في مصر خصوصا وكان في
الوقت نفسه مشغولا بالقضاء على مؤامرة مؤتمن الدولة نجاح ، وقد تمكن من القضاء عليها
لانه لم يكن مشغولا من ناحية نور الدين وتفصيل المؤامرة الجديدة ان صلاح الدين بعث
اخاه طوران شاه لفتح اليمن 1174 م وقد زين له ذلك الفتح بقايا أشياع الفاطميين في
مصر مؤملين تسديد ضربتهم الى صلاح الدين اثناء غياب أمهر قادته وقسم كبير من قواته
في اليمن وذلك لتقويض دعائم الدولة الناشئة الجديدة ولما تتوطد اركانها بعد . اما
المشتركون في المؤامرة فهم امراء بعض الجيوش الفاطمية المسرحة وبعض رجال صلاح الدين
ممن حسدوه لما توصل اليه في مصر ، كما اشترك فيها ملك صقلية وليم الثاني وملك بيت
المقدس ورئيس الاسماعيلية وكان زعيم المؤامرة الشاعر عمارة اليمني . اتفق المتآمرون على
اعلان الثورة في مصر حين تكون مراكب النورمان قد وصلت الى الثغور المصرية شريطة الاسراع
في الوصول الى تلك الثغور لئلا تتاح الفرصة لصلاح الدين فيقضي على الثورة الداخلية قبل
ان يتضح الخطر الخارجي كما حدث في مؤامرة مؤتمن الدولة نجاح 1169 م وذلك لجعل

هذا السلطان الايوبي يرتبك في امره . لكن صلاح الدين علم بنبإ المؤامرة فبيل وتوعهافقبض على زعمائها في القاهرة منذ 1174 وشنقهم كلهم بما فيهم عمارة اليمني وذلك قبيل وفاة نور الدين بشهرين تماما ، فلما علم ملك بيت المقدس باخفاق الشقّ المصرى الداخلي في المؤامرة لم يغادر فلسطين بينما ارسل ملك صقلية مالديه من سفن ورجال فوصلت حملته الاسكندرية في اواخر يوليوز 1174 واخفقت محاولة الاستيلاء عليها . وقد غادرت تلك الحملة الثغر المصرى بعد ان بلغها مقدم صلاح الدين وتمّ جلاء الصقليين في اول غشت 1174 . ثم واتى الحظ صلاح الدين من جديد بوفاة عمورى ملك بيت المقدس في يوليوز من العام نفسه . وهكذا صفا الجو لصلاح الدين في مصر قبل انتهاء 1174 .

موقف صلاح الدين من الدولة الزنكية وعقب وفاة نور الدين : اعتقد صلاح الدين انه الوارث الحقيقي للملكة سيده . وقد ترك نور الدين طفلا اسمه اسماعيل . وقد ظهر الانقسام بين خاصة نور الدين عقب وفاته فمن قائل بوجوب نقل العاصمة من حلب الى دمشق لاسيما بعد ان وضحت مقاصد صلاح الدين بالاستقلال عن الدولة الزنكية ، وقائل بوجوب بقاء العاصمة في حلب عاصمة الدولة منذ نشأتها . وقد تغلب الحلبيون بما وجدوه من عون الصليبيين وبقي اسماعيل في عاصمة ابيه وجده . ونظرا لاستعداد الحلبيين العون الصليبي طلب الدماشقة معونة صلاح الدين الذى غادر مصر الى الشام معلنا ان غايته حماية ابن سيده من عبث العابثين وكلن وصوله دمشق في نوفمبر 1174 فاستولى عليها باسم اسماعيل ابن سيده ثم والى زحفه شمالا الى حمص وحماة وحلب التي كان فيها السلطان الصغير بينما كانت عمته سلّامة في الموصل عند اخيها سيف الدين غازى ، ونظرا لوعد الصليبيين بتأييدها ضد صلاح الدين ولموقف غازى امير الموصل المؤيد لحلب اغلقت هذه المدينة ابوابها في وجه صلاح الدين الذى لم يتمكن من امتلاكها عنوة فارتد عنها الى حماة . وقد ارسل غازى امير الموصل جيشا في نهاية 1174 لقتال صلاح الدين فانضمت قوات حلب لجيش الموصل واشتبك الطرفان في موضع قرون حماة في أبريل 1175 فخسرت قوات صلاح الدين القوات الموصلية الحلبية كما انتصر صلاح الدين عليها في معركة بئر التركمان فدخل حلب وعقد صلحا مع اسماعيل اعترف بموجبه لصلاح الدين بجميع مابحوزته من بلاد في مصر والشام . وهكذا اعترف بهذا السلطان الايوبي ملكا مستقلا وضربت السكة باسمه في القاهرة والاسكندرية وحماة منذ 1176 كما توطدت سلطته باعتراف الخلافة العباسية به .

توحيد صلاح الدين القوى الاسلامية في الشرق الادني بين 1176 ـ 1186 : أخذ صلاح الدين يسعى حثيثا لتوحيد القوى الاسلامية منها في الجهاد ضد الصليبيين ليفيد

يظن ان امكانية الجمع بين هدفيه (توحيد القوى الاسلامية وجهاد الصليبيين) ولـــذا رأيناه يهاجم عسقلان في نوفمبر 1977 ويرتد عنها مهزوما الى القاهرة ، كما ناوش الصليبيين مرة اخرى 1179 . وكان جل اهتمامه في تلك الفترة موجها الى توحيد القـوى الاسلامية وجعلها تنضوى تحت زعامته ليقدم مطمئنا على حرب الفرنجة – ويرجع المؤرخـون سر نجاحه ضد الصليبيين انه نجح في تحقيق هدفه الاول فلما از فت ساعة العمل ضـد الصليبيين لم يكن ثمة ما يشغله من ناحية الدويلات الاسلامية . ولو ان صلاح الدين لـم يهمل خلال تلك الفترة القيام بكثير من الاعمال العمرانية كبناء قلعة القاهر وحائـط الجيزة على طريق الاسكندرية ويراد به ان يقي القاهرة مما قد تتعرض له من غارات عليهـا من جهة الغرب .

وقد وجد صلاح الدين الى جانبه الرجال الذين خدموه باخلاص لتوطيد بناء دولتـه ومن بينهم اخوه محمد العادل سيف الدين وبهاء الدين قره قوش والقاضي الفاضل وهـو عربي من عسقلان يدعى عبد الرحيم البيساني وقد خدم مع قره قوش الدولة الفاطمية فـي نهاية عهدها وكان رئيسا لديوان الجيش ، واليه يعود الفضل في الاعمال الاصلاحية والمالية التي انجزت في عهد صلاح الدين . ومن بين الشخصيات الادارية في ذلك العهد خالـه عيسى الهكاري وعماد الدين الكاتب الاصفهاني وكان أبرز اعمال صلاح الدين آنذاك محاولته الجديدة 1180 لتوحيد قوى المسلمين فسار الى الشام وفاوض سلاجقة الروم وملك آسيا الصغرى وامراء الجزيرة وغيرهم وذلك في أكتوبر من تلك السنة وابرم المعاهدات معه ان يسود السـلام بينه و بينهم لمدة سنتين . ثم واتته الظروف بوفاة خصمه اللدود امير الموصل سيف الديـن غازى 1181 و كان عقبة كأداء يحول دون تمكين صلاح الدين من توحيد القوى الاسلاميـة وبوفاة الطفل اسماعيل بن نور الدين في ديسمبر من العام نفسه آلت الموصل لعزالديـن ابن غازى وحلب لعماد الدين بن غازى (حيث لم يعقب اسماعيل ولدا) .

اخذ امير حلب والموصل يستعدان لحرب صلاح الدين وفاوضا مع امراء الجزيرة (رغـم المعاهدة القائمة بينه وبينهم) الصليبيين ورئيس الحشيشيين من طائفة الاسماعيلية ليكـون الجميع يدا واحدة ضده . فقرر هو ايضا تصفية امر حلب وان يستغل ماتجم عن وفاة سيـف الدين غازى من حوادث . وهكذا غادر السلطان الايوبي القاهرة في مايس 1182 الـى بلاد الشام (ولم يعد الى مصر منذ مغادرته لها في هذه المرة حتى وفاته في دمشـق 1193) فوصل دمشق في يوليوز / رغم وثوقه من موقف الامراء الاتفي الذكر العدائـي منه لم يرغب ان يكون البادئ بالعدوان وذلك للمعاهدة التي كانت ابرمت بينه وبين معظمهم تلك المعاهدة التي كان اجلها ينتهي في شتنبر 1182 وحاول الاستيلاء على بيروت مـن الصليبيين غير انه ما ان انتهت مدة الهدنة حتى انبرى للقضاء على قوات مناوئة من دويـلات

الشمال فحاز عدة انتصارات في الجزيرة وسقط في يده الرها والرقة ونصيبين . ولم يرتد عن تلك الجبهة رغم بلوغه ان الفرنجة بدؤوا يهددون دمشق واستولوا على بعض قراها فآثر تركهم لينهي مشروعة في الشمال ، وتقدم الى الموصل في نوفبر 1182 فاستعصت عليه فاكتفى بالاستيلاء على سنجار .

وعمد في ذلك الوقت الى توزيع المناطق التي فتحها بشكل اقطاعات عسكرية على كبار قواده . ولما بلغ صلاح الدين ان عماد الدين صاحب حلب حالف الصليبيين وان الدولة الايوبية في الشام غدت مهددة من ناحيتي الشمال والغرب رجع الى الشام وركز جهوده ضد حلب فاذعن عماد الدين وسلمها له مقابل حصوله على بعض بلاد الجزيرة شريطة ان يكون تابعا لصلاح الدين . وبسقوط حلب في يونيو 1183 بيد هذا الاخير غدا السلطان الايوبي أهم ملوك المسلمين آنذاك وصارت دولته اقوى دولهم ، ولم يبق خارجا عن طاعته سوى الموصل نفسها ودولة سلاجقة الروم . واخيرا سار صلاح الدين لاخضاع الموصل 1185 فقبل صاحبها عز الدين ان يكون تابعا له كما قبل تلك الشروط من التبعية كل من لم يرض بها الى ذلك الوقت من امراء الجزيرة . وبذلك أمن صلاح الدين على حدود مملكته الواسعة مابين اطراف تركستان واطراف السودان باستثناء امارات الصليبيين في بلاد الشام .

صلاح الدين والصليبيون 1186 - 1189 : ركز صلاح الدين نشاطه ضد الصليبيين منذ 1186 بعد ان اخضع الامارات الاسلامية في ربوع الشرق الادني . اما القوى الصليبية التي قرر صلاح الدين ان يشتبك بها فكانت تتألف اولا من مملكة بيت المقدس وملكها هو الطفل بلدوين الرابع منذ 1174 وكان قاصرا وابرص . وقد دب الخلاف بين الفرنجة حول الشخص الذى سينصب وصيا على هذا الطفل واخيرا اتفقوا على تكليف صاحب امارة طرابلس الكونت ريموند الثالث بتلك الوصاية . ونظرا لسوء صحة بلدوين الرابع يئس امراء الصليبيين من ان يعقب ولدا من بعده يخلفه في حكم مملكة بيت المقدس فوجد الحل بزواج اخته سيبيلا من ويليم مونتفرات وقد تم 1176 . لكن ذلك الزواج لم يحل ازمة وراثة عرش بيت المقدس لوفاة زوج سيبيلا في يونيو من السنة نفسها تاركا زوجته حاملا . ومما زاد في تعقيد الازمة ان سيبيلا تزوجت مرة ثانية مما ادى الى وفرة المطالبين بعرش تلك المملكة ولذلك فان مصاعب مملكة بيت المقدس الداخلية كانت مواتية لتفكير صلاح الدين بالقضاء عليها القضاء المبرم . هذا بالاضافة الى انقسام الصليبيين الى رأيين فيما يتعلق بما يجب ان يكون عليه موقفهم من صلاح الدين يقوم اولهما ، وهو رأى امراء بيت المقدس ، على وجوب شهر حرب كبيرة على صلاح الدين قبل ان يستفحل خطره وقد دعو الى حربه منذ 1176 وأنيط امر مهاجمة السلطان الايوبي من ناحيه طرابلس بريموند الثالث منذ اوائل 1175 . اما الرأى الثاني ، وكان ريموند الثالث امير طرابلس من الداعين

اليه فينحصر في وجوب التريث في حرب صلاح الدين فلعل من الممكن ان يبرم اتفاق سلمي بينه وبين الصليبيين . وقد اضاع ريموند الثالث وقته في محاولة تسويد وجهة نظره ومفاوضته اعداء صلاح الدين في حلب وسواها . واخيرا قبل بمناوشة القوات الايوبية بينما كان كلف بمهاجمتها هجوما عنيفا عندما كان صلاح الدين في وسط مشاغله الاولى حيث لم يكن قد تمكن بعد من ايجاد الحل الاخير لها . وكان قد حضر في الحملة الصليبية الثانية الى ربوع الشام فارس فرنسي اسمه ارناط دوشاتييون وقد تزوج 1153 من اميرة انطاكية آنذاك عندما كان نور الدين مشغولا في لتأمين ممتلكاته شمالا في بمهاجمته امارتي الرها وانطاكية . ثم وقع هذا الفارس في أسر جيش نور الدين 1160 واستمر في الاسر خمس عشرة سنة الى ان أخلي سبيله في عهد اسماعيل بن نور الدين في الوقت الذي كان فيه هذا الاخير يعمل على تحسين علاقاته بالصليبيين ليقف معهم في وجه صلاح الدين في لكن ارناط لم يستطع الاياب الى انطاكية فقصد مملكة بيت المقدس وتزوج من اميرة حصن الكرك على البحر الميت وكان متقدا حماسا لشن حرب على صلاح الدين عندما كان السلطان الايوبي مكرسا جهوده للانتهاء من توحيد القوى الاسلامية فآثر صلاح الدين وقتذاك مهادنة الصليبيين ومن قبل ذلك ما أبرمه 1180 م بلدوين الرابع ملك بيت المقدس من صلح لمدة سنتين دون أن تدخل امارتا طرابلس وانطاكية في الصلح . كما تبع ذلك الصلح عقد صلاح الدين اتفاقا مع امير طرابلس في منتصف العام نفسه . ولم يبق خارجا عن الاتفاق سوى امارة انطاكية وحدها . وقد تزوجت سبيلا (للمرة الثانية) اخت بلدوين الرابع ملك بيت المقدس من فارس فرنسي هو غاي لوزينيان .

والاميرة سيبيلا التي كانت (مع ابنها الطفل من زوجها الأول ويليم مونتفرات) وريثة لمملكة بيت المقدس بعد اخيها بلدوين الرابع الميئوس من حياته . وقد ابرز ذلك الزواج غاي لوزينيان الى مصاف الامراء كثيري الاهمية في المعسكر الصليبي وان لم تكن صفاته تؤهله للوقوف في وجه صلاح الدين . وأغضب ذلك الزواج من لوزينيان الوصي على مملكة بيت المقدس ريموند الثالث امير طرابلس مما أوجد انقساما بين الصليبيين مع انهم كانوا احوج مايكون الى توحيد صفوفهم وتشكيل جبهة متحدة تقف في وجه الجبهة الاسلامية التي نجح صلاح الدين في تأليفها .

ساءت علاقات صلاح الدين بالفرنجة لتعرض امير حصن الكرك ارناط للقوافل التي كانت تغدو وتروح بين دمشق والقاهرة وذلك لاضطرارها الى المرور بجوار حصن الكرك في لابل فكر ارناط منذ نهاية 1181 بمشروع جرئ للغاية ألا وهو مهاجمة الجزيرة العربية وبدأ بانجاز المشروع لكن فروخ شاه قائد صلاح الدين أحبط خطة ارناط كما احتجز صلاح الدين في مصر 1500 حاجا مسيحيا دفعت الريح بمراكبهم الى دمياط 1183 قبل سفره الى بلاد الجزيرة شمالي بلاد الشام فاستاء الصليبيون لان السلطان الايوبي لم يبد أية رغبة

لتمديد الهدنة معهم واخذت جيوشهم تهاجم المدن المحيطة بدمشق .

اما ارناط نفسه فلم يمنعه إخفاقه الأول (الحملة البرية على الحجاز) من التفكير بمشروع اكثر جرأة ، فبنى مراكب ارسلها قطعا الى خليج العقبة في منتصف 1183 حيث قسم قواته قسمين ترك الأول لحصار ايلة (على الخليج) بينما ابحر القسم الثاني لمهاجمة شواطىء الحجاز قرب مكة والمدينة وكان يهدف الوصول الى الديار المقدسة الاسلامية.

علم العادل اخو صلاح الدين (نائبه في مصر) بأمر تلك الحملة البحرية فأرسل الاسطول الايوبي لتعقبها فالتقى بمراكب ارناط عند شمالي ينبع فلجأ الصليبيون الى الساحل راغبين ان يعتصموا بالجبال فطاردهم الجند الايوبي مؤيدا من البدو . وقد قتل عدد كبير من الصليبيين وأسر كثيرون ولم يفر سوى القليل ومن بينهم ارناط نفسه

أنهى صلاح الدين مشكلة شمالي بلاد الشام وتم له الاستيلاء على الموصل وحلب وعاد الى دمشق في مارس 1186 . وكان بلدوين الرابع المريض قد توفي في اوائل 1185 وخلفه ابن اخته الأول (من زوجها وليم مونتفرات) ولقب ببلدوين الخامس لكنه لم يلبث ان توفي 1186 وله من العمر تسع سنين مما جعل الاضطراب يسود المعسكر الصليبي فبدا الخصام سافرا بين زوج سيبيلا الجديد (غاي لوزينيان) والوصي على مملكة بيت المقدس ريموند الثالث امير طرابلس . وقد اعلن مؤيدو غاي وعلى رأسهم ارناط (صاحب حصن الكرك) . هذا الامير ملكا على بيت المقدس فاستاء امير طرابلس وانسحب من القدس .

عاد صلاح الدين من شمالي بلاد الشام بعد اخضاع سائر اعدائه لكنه لم يرغب الافادة من الانقسام الذى حدث بين الصليبيين بمهاجمة مملكة بيت المقدس بل آثر المحافظة على الهدنة القائمة بينه وبينها . لكن المنادين بحرية من الصليبيين امثال غاي وأرناط هيؤوا له الفرصة التي سنحت له اثر نقض الثاني للهدنة في ربيع 1187 وذلك بتعرضه للقوافل المارة بجوار حصنه للمرة الثالثة ولم يرعو رغم انذار صلاح الدين له .ومما زاد الموقف تعقيدا استيلاؤه على متاع القافلة الثالثة واسره سائر رجالها ولم يعر اهتماما لاحتجاج صلاح الدين على عمله فأقسم هذا الاخير على قتل ارناط ان وقع بيده . لكن ارناط ازداد امعانا في تحرشه بالمسلمين فوعد بالترصد لقوافل حجاج مكة لذلك العام فوصل صلاح الدين الى بصرى في مايس 1187 لحماية قافلة لحج ذلك العام . واخيرا وجد مؤسس الدولة الايوبية بعد استشارته مجلسه الخاص ان لامناص من محاربة الصليبيين فوافته امدادات بلاد الشام الى جسر بنات يعقوب كما استعد الصليبيون انفسهم لحربه .

معركة حطين 4 يوليوز 1187 : والى صلاح الدين زحفه جنوبا فوصل في يونيو 1187 . الى قرب طبرية واستولى عليها ماعدا قلعتها . وكان الصليبيون آنذاك في صفورية وقد اختلفت آراؤهم فرأى امير طرابلس ريموند الثالث انتظار صلاح الدين قرب صفورية وعدم الزحف للقائه

عند طبرية أي ان يكون موقفهم دفاعيا . وقد نجح ريموند بادئ الأمر في تسويد وجهة نظره ولكن امير الكرك ارناط ومقدم فرسان الداوية مازالا بملك القدس غاى حتى اقنعاه بضرورة انتهاج خطة الهجوم فزحف الصليبيون حتى وصلوا تل حطين في اول يوليوز 1187.

اشتبك الجيشان الايوبي والصليبي في معركة حاسمة في الرابع من ذلك الشهر مني الصليبيون فيها بهزيمة شنعاء أبادت معظم قواتهم كما وقع كثيرون ممن حاولوا الفرار في الاسر ومن بينهم ارناط نفسه والملك غاى ومائتان من فرسان الداوية والاسبتارية فقتل صلاح الدين ارناط بيده برا بيمينه كما أمر بقتل فرسان الداوية والاسبتارية المحرضين على الحرب.

تسليم بيت المقدس في 2 أكتوبر 1187 : كانت خسائر الصليبيين في حطين فادحة وترجع كل الانتصارات التي نالها صلاح الدين عقب حطين الى مهارته الحربية . ومما جعل الانتصارات تتوالى عليه بعد حطين ان الصليبيين منوا في تلك المعركة بخسائر في الأرواح لم يستطيعوا تعويضها فأمست قلاعهم خالية من القوات . وقد عاد صلاح الدين غداة حطين الى طبرية التي استعصت عليه قلعتها فاستسلمت دون أية مقاومة ، ثم توجه الى الساحل مقدرا اهميته بالنسبة لمملكة بيت المقدس لأنه يقطع عنها المدد الاوروبي . وقد حاصر عكا التي سلمت له في 10 يوليوز وكانت شروط التسليم سخية فنص على جلاء السكان عنها ان رغبوا في ذلك دون ان يسمح له بسوى أخذ الامتعة المنقولة ومن يؤثر منهم البقاء يدفع الجزية . ونظرا لأن الصليبيين كانوا كثيرا مانكثوا بعهودهم لاهالي المدن الاسلامية التي فتحوها بعد تأمينهم فانهم خشوا ان يثأر المسلمون منهم في هذه المرة لذلك رحل معظم سكان المدن التى استردها الايوبيون حذرا من الانتقام بينما بقي سكان بعض المدن في مدنهم فلم يمسوا بسوء . وقد اتم صلاح الدين واخوه العادل اخضاع سائر مدن الساحل واكثر مدن الدخل في مدة اسبوع ولم يبق على الساحل سوى صور التي قاومت بشدة نظرا لوفرة سكانها الذين تضاعف عددهم بمن توافد عليهم من سكان المدن التي فتحها الايوبيون كما وصلت الثغر نجدة صليبية بقيادة كونراد مونتفرات (اخي الملك المتوفى وهواول زوجي الاميرة سيبيلا اخت بلدوين الرابع والذى ترك لها طفلا توفي في التاسعة من عمره كما بينا) ولم يتوقف صلاح الدين طويلا امام صور بل تركها وزحف جنوبا الى عسقلان فاستسلمت له كما استسلمت له كثير من المدن وغيرها وبذلك غدا طريقه مفتوحا الى بيت المقدس . وقد اطلق صلاح الدين سراح الملك غاى لوزينيان ومقدم الداوية وكثيرين غيرهم من عظماء الفرنجة بعد ان اشترط عليهم الايساهموا في حرب ضده في المستقبل . واخيرا وصلت قواته قبالة اسوار بيت المقدس في 20 شتنبر 1187 وبعد احداث عطب بأسوار المدينة ارسلت حاميتها تطلب شروط الصلح فسلمت المدينة مقابل دفع غرامة كبيرة وقد دخلها الايوبيون في 2 أكتوبر 1187 . ثم عاد صلاح الدين على رأس قواته لحصار صور الذى استمر حتى دجنبر 1187 ، وذلك لازدياد عدد القوات المدافعة عنها بنتيجة من وصل اليها من صليبيي المدن التي

سلمت للقوات الاسلامية ولوصول مدد صليبي اوروبي اليها . طال الحصار لاسيما وقد نجح المحاصرون في الانقضاض على بعض السفن الاسلامية المحاصرة للميناء فاغرقوا بعضها واستولوا على اخرى فاضطر صلاح الدين لان يستجيب لقواته التي تضايقت من طول الحصار فطلبت رفعه . ويعزو المؤرخون طول حصار صور الى سماح صلاح الدين بعد حطين للاتين بترك بلادهم ان رغبوا في ذلك فاحتشدوا كلهم في صور بالاضافة الى ان ذلك الثغر يعتبر من المعاقل المنيعة جدا . واثر تصفية صلاح الدين لمملكة بيت المقدس (فيما عدا صور وبعض المدن الصغرى) وجه جهوده ضد امارتي انطاكية وطرابلس طيلة 1188 فحاصر منذ مايس حصن الأكراد قبالة طرابلس كما بقي اخوه العادل جنوبا لمراقبة الامور عن كثب في مملكة بيت المقدس . وأخذ الجيش الايوبي يدمر ويغير على مناطق امارة طرابلس دون ان ينجح في القضاء عليها واخيرا رفع صلاح الدين الحصار عن حصن الاكراد واخذ يهاجم امارة انطاكية منذ منتصف 1188 فاستولى على اللاذقية ولم يبق سوى مدينة انطاكية نفسها ففاوضه صاحبها بوهيموند في عقد هدنة وتم الاتفاق ان يطلق بوهيموند جميع من لديه من اسرى المسلمين وان تستمر الهدنة الى مايس 1189 حيث يسلم انطاكية الى صلاح الدين الا أن اتى من يحميها من اوروبا بمعنى ان مجيء حملة اوروبية جديدة ينقض الهدنة القائمة ثم عاد صلاح الدين الى الجنوب للقضاء على مقاومة بقايا مملكة بيت المقدس .

الحملة الصليبية الثالثة : ذهلت اوروبا لاخبار انتصارات صلاح الدين فهبت لاسترداد بيت المقدس لاسيما وان كونراد مونتفرات الذي وصل فلسطين غداة معركة حطين واعجز صلاح الدين في الاستيلاء على صور ارسل يستنجد بدول غربي اوروبا فارسل البابا منشورا لجميع الدول المسيحية يستحثها على تخليص القدس . لابل كان امبراطور المانيا فردريك الأول حتى قبل طلب البابا تأليف حملة صليبية اعلن وجوب تخليص بيت المقدس . كما اتفق ملكا فرنسا وانكلترا (فيليب أوغست وريتشارد قلب الاسد) على تسيير حملة استخدما لانجازها سلاحا اقتصاديا بفرضهما ماعرف بضريبة صلاح الدين على كل قادر على الحرب يمتنع عن الانضمام الى الحملة .

وعلى ذلك فقد اشترك في تلك الحملة الثالثة اكبر ملوك اوروبا آنذاك . ويفسر بعض فشل الحملة باشتراك هؤلاء لحملهم معهم مشاكلهم ومنافساتهم الى الشرق . وقد اتفقوا ان تجتمع قواتهم امام عكا لحصارها . وكان صلاح الدين قد اطلق سراح ملك بيت المقدس غاي لوزينيان عندما كان الجيش الايوبي يهاجم انطاكية بعد أخذه عهدا منه ألا يحاربه مرة اخرى فنقض غاي هذا العهد وبدأ بحصار عكا منذ صيف 1189 وقد اتفق الصليبيون على حصار عكا واستردادها لانه يؤدي الى استسلام بيت المقدس . قضى ملكا فرنسا وانكلترا شتاء 1190 في جزيرة صقلية فعادا الى انقسامها وجزارتهما وقد ترك كل منهما الجزيرة في مارس 1191 مغاضبا لاخيه فقصد فيليب اوغست عكا مباشرة بينما توقف ريتشارد قلب الاسد عند قبرص واستولى عليها ليجعل منها

قاعدة

قاعدة حربية يستمد منها العون خلال حرب فلسطين واخيرا فتحت هذه الحملة عكا في يونيو 1191 .

ومما ساعد على اخفاق تلك الحملة ظهور خلاف بين غاى لوزينيان ملك بيت المقدس وكونراد مونتفرات الذي طلب ان يكون ملكا على القدس لانه قطب المقاومة ضد الايوبيين في صور ولانه متزوج من اخت الاميرة سيبيلا اخت بلدوين الرابع المتوفى . ورغم الاتفاق على ان يستمر غاى ملكا على القدس (وصار اللقب رمزيا لان القدس كانت آنذاك بيد الايوبيين) وان يكون كونراد ولي عهده لكن عودة فيليب اوغست (نصير كونراد) الى فرنسا جعلت المشروع يخفق . ونتيجة هذا الخلاف بين زعماء الصليبيين فشلت الحملة في مهمتها الرئيسية . ورغم الانتصارات الجزئية التي حصل عليها ريتشارد في حربه لصلاح الدين واسترداده آرسوف ويافا فان هذا الملك فكر في امكانية الوصول الى اتفاق بين الجانبين حول المشكلة الصليبية ثم عقدت معاهدة في شتنبر 1192 على ان يقتسم المسلمون واللاتين اللد والرملة وان تهدم مدينة عسقلان ليكون موضعها حدا فاصلا بين المملكة الصليبية والامبراطورية الايوبية وان يسمح لفئات قليلة من الصليبيين بزيارة بيت المقدس .

وبعد اغتيال كونراد مونتفرات ورحيل غاى لوزينيان الى جزيرة قبرص التي اشتراها من ريتشارد قلب الاسد اعلن ريتشارد ابن اخته هنرى شامبين ملكا (رمزيا) على بيت المقدس ثم عاد الى اوروبا في أكتوبر 1192 . وهكذا يمكن اعتبار هذه الحملة الثالثة فاشلة لانها لم تسترد بيت المقدس . اما صلاح الدين فقد استمر في هذه المدينة الاخيرة يراقب عن كثب مايقوم به الفرنجة ولم يغادر القدس حتى وثق من رحيل قلب الاسد عن بلاد الشام .

وهم صلاح الدين بالعودة الى القاهرة لولا ان وفرة مشاغله اضطرته الى الذهاب الى دمشق حيث اصيب بحمى أودت بحياته في مارس 1193 وكان في الخامسة والخمسين من عمره (1138 — 1193) .

<u>الدولة الايوبية بعد صلاح الدين</u> : ان من اهم الاسباب التى ادت الى ضعف الدولة الايوبية بعد وفاة صلاح الدين وبالتالي القضاء عليها نظام تقسيم تلك الامبراطورية الشاسعة انصبة متساوية بين اولاد السلطان المتوفي مما جعلها ضعيفة حيث يكيد الاخوة المستولون على الملك بعضهم لبعض وكانوا احوج مايكون لوحدة الصف خصوصا ان تذكرنا ما بذله مؤسس تلك الدولة من جهود جبارة في سبيل توحيد القوى الاسلامية في ظل دولة قوية . وقد رأينا ماحققه صلاح الدين من انتصارات على الصليبيين منذ نجاحه في ضم كل الدويلات الصغرى ، دون استثناء ابني سيده نور الدين واخيه ، تحت جناحه ، ومما خفف من مساوئ هذا النظام في الفترة التي تلت وفاة صلاح الدين مباشرة وجود شخصية قوية بين الامراء الايوبيين هي شخصية محمد العادل اخي صلاح الدين الذي توسم خطوات اخيه .

وهكذا فبعد فترة من التفكك والضعف عادت القوة من جديد الى البيت الايوبي بقيام العادل خلع احفاد اخيه واعلانه 1208 نفسه سلطانا للأيوبيين. وليس من شك في ان العادل لم يكن يرمي من وراء اغتصابه الملك جمع الشمل بل التمكين لنفسه واولاده فحسب بدليل قيامه بتثبيت الملك في بنيه من بعده . وكل سلطان ايوبي تعاقب على تلك الدولة من بعد العادل كان من سلالته المباشرة . أما علاقة الايوبيين بالصليبيين بعد صلاح الدين فان عثمان ابنه جدد الهدنة التي كانت بين الجانبين والتي كانت ستنتهي 1196 لمدة سنة اخرى. كما حضرت في الوقت نفسه نجدة صليبية المانية فحسب لان الفرنسيين والانكليز انشغلوا بالحرب فيما بينهم فانفرد الالمان بتلك النجدة التي وصلت عكا في نهاية 1197 لكنها لم تلق ترحيبا من قبل ملك بيت المقدس (ابن اخت ريتشارد) ولم يطرأ أي تغيير على الاوضاع القائمة منذ وفاة صلاح الدين .

الحملة الصليبية الرابعة : قصدت هذه الحملة العاصمة البيزنطية منحرفة بصورة كلية عن الغرض الصليبي لتلك الحملات فقد اخضعت البيزنطيين واقامت في عاصمتهم دولة لاتينية بينما انسحب الامبراطور البيزنطي من عاصمته لآسيا الصغرى. وقد استمرت الدولة الصليبية في العاصمة البيزنطية حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى. ولم ينقطع البابا أنوسنت الثالث عن ارسال النداءات رغم انحراف الحملة الرابعة عن الغرض الصليبي وكانت نتيجة تحريضه دول اوروبا 1212 ارسال حملة صغرى عرفت بحملة الاطفال لم تؤد لاية نتيجة حاسمة سوى بيع اولئك الاطفال في اسواق النخاسة في دمشق والقاهرة .

الحملة الخامسة 1217م : وقد رافقها مندوب بابوى هو بيلاجيوس وفارس فرنسي هو حنا بريان وكان هذا الاخير يرى وجوب مهاجمة مصر مباشرة للقضاء على المقاومة الاسلامية وبذلك يتمكن الصليبيون من استرداد مافقدوه . وصلت الحملة قبالة دمياط في ربيع 1218 وكان السلطان الايوبي في مصر انذاك الكامل بن العادل نيابة عن ابيه الذى كان موجودا في دمشق. هزم الصليبيون الكامل في غشت قرب قرية بوره فتألم العادل لهزيمة المسلمين وتوفي لفرط حزنه فصار الحكم لابنه الكامل وكان كأبيه جنديا يقظا محنكا بيد ان عهده دشن بمؤامرة حيكت ضده فاضطر لمغادرة معسكره ليلا مما ساعد الصليبيين على حصار دمياط في فبراير 1219 .

ورغم نجاح الكامل في احباط المؤامرة لكن مركزه ضعف بازاء أعدائه الصليبيين المحاصرين لدمياط الذين كانت الامدادات تتوالى عليهم من صليبيي الشام واوروبا . ولشعور الكامل ان مقاومة المحاصرين في دمياط بدأت تهن عرض على الفرنجة المفاوضة بشروط مغرية جدا وهي تسليم بيت المقدس وارجاع مملكتها الى ماكانت عليه قبل حروب صلاح الدين مقابل الجلاء عن دمياط والشواطئ المصرية فلم يقبل زعماء تلك الحملة تلك الشروط السخية وعلى رأسهم مندوب البابا ، كما ان جمهوريات ايطالية ظنت الفرصة سانحة لاحتلال مصر فأوعزت برفض الشروط وذلك لانها كانت ترى في دمياط مفتاح تجارة مصر والشرق . بينما رأى حنا بريان وغيره من فرسان غربي اوروبا عدم ترك الفرصة تفوت . ومهما يكن فقد رفضت الشروط واستسلمت

دمياط لكن الكامل جمع قوات جديدة واستحث من استنكف عن معونته من امراء الايوبيين في الشام ببذله الوعود لهم وقد ساعده تلكؤ وبطء الفرنجة فعوضا عن زحفهم مباشرة على القاهرة قضوا اوقاتهم في مشاحناتهم الشخصية ولم يبدأ الزحف الا في يوليوز 1221 واختاروا أسوأ الطرق وهو طريق دمياط وفيه المفائض فضلا عن خطر فيضان النيل . وقد تم اشتباك الجيش الايوبي بالصليبي عند المنصورة في زمن الفيضان فقطع المسلمون بعض السدود والجسور فلم يشعر الصليبيون الا والمياه محيطة بهم فلما هموا بالرجوع وجدوا طريقهم قد سد في وجوههم . عاد الكامل الى مفاوضه خصومه فقبل بيلاجيوس الشروط التى رفضها من قبل وتتلخص بقيام هدنة لثماني سنوات لا يمكن ان تفسخ الا بمجيء احد ملوك اوروبا . وفعلا وصلت في تلك الظروف حملة المانية كان الامبراطور فردريك الثاني قد وعد بالمساهمة بها انقسم الصليبيون من جديد بين قائل بوجوب احترام الهدنة وقائل بوجوب نقضها لكن رجحت كفة رأى الاولين .

اما فردريك الثاني امبراطور المانيا فكان تزوج من ابنة حنا بريان (الذى كان بدوره تزوج الاميرة سيبيلا شقيقة بلدوين الرابع) وصار يطلب بنصيب زوجته التي توفيت في ارث مملكة بيت المقدس رغم وجود ابيها حنا بريان على قيد الحياة وأخذ يعد حملة منذ 1227 للاستيلاء على ارث زوجته المتوفاة لكنه تأخر في الذهاب مما سبب استياء البابا منه فحرمه من الكنيسة على الرغم من ابعاده على رأس حملة 1228 . ولما وصل فردريك الثاني ابرم معاهدة مع الكامل الايوبي في فبراير 1229 نصت على تسليم بيت المقدس للصليبيين شريطة الا يقيم الصليبيون في نطاقها حصونا او قلاعا . كما نصت على تسلمه بيت لحم والناصرة وطريق حجاج بيت المقدس الى يافا وعكا والا يبقى للمسلمين في تلك المملكة سوى منطقة المسجد الاقصى شريطة عدم حملهم السلاح فيها . كما اشترط على الكامل اطلاق سراح جميع الاسرى المسيحيين من حملة فردريك المشهورة .

وبمقابل ذلك اشترط الكامل على فردريك ان يكون حليفا له ضد سائر اعدائه ولو كانوا من مسيحي الفرنجة وان يتعهد بعدم وصول امدادات صليبية لانطاكية وطرابلس وغيرهما من بلاد الشام . وقد لقيت تلك الشروط معارضة مسيحية مسلمة .

فالصليبيون رأوا أن فردريك لم يسترد شيئا كثيرا من مناطق مملكة بيت المقدس بينما ربط نفسه بقطع المدد عن امارتي انطاكية وطرابلس وفي ذلك تمهيد للقضاء عليهما .

اما المسلمون فقد اتهموا الكامل بالتسامح . وفي الواقع أبدى الكامل بعض التساهل لانه اراد استخلاص مصر ليتفرغ لمواجهة خطر افراد البيت الايوبي في الشام .

ثم دخل الامبراطور فردريك بيت المقدس في مارس 1229 وتوج نفسه ملكا عليها

(واضعا بيده التاج على رأسه لرفض رجال الدين تتويج امبراطور محروم من الكنيسة)

ولما عاد فردريك الى ايطاليا غضب عليه البابا . وقد حافظ كل من الكامل وفريدريك بأمانة على الشروط التي نص عليها في المعاهدة واستمر الكامل على عرش مصر بعدها تسع سنين ثم خلفه العادل الصغير في مارس 1238 ولم تكن فيه أية صفة لتولي الحكم واخيرا استولى على الحكم اخوه الملك الصالح ايوب 1248 الذي بدأ المغول في عهده زحفهم نحو غرب آسيا اثر نجاحهم في القضاء على الدولة الخوارزمية وكانت من نوع الدول الحاجزة التي كانت تصد المغول عن آسيا الغربية .

ثم أدى انهيار الدولة الخوارزمية الى تشرد سلطانها الذي انتهى به المطاف في الهند . اما جنوده ففدوا فئات مرتزقة دخلت في خدمة امراء كثيرين . وقد استخدم الملك الصالح ايوب كثيرا من الخوارزميين . وقد وصلت قبل منتصف القرن الثالث عشر نجدة صليبية الى ربوع فلسطين فألحق الصالح ايوب بمعونة مماليكة الخوارزميين الهزيمة بتلك النجدة واسترد بيت المقدس 1244 ولم يمض سوى خمسة عشر عاما على رجوعها للصليبيين على يد فريدريك الثاني . ولم تعد بيت المقدس بعد هذه المرة للصليبيين .

الحملة الصليبية السابعة : استعان الصالح الايوبي بمماليكه الخوارزميين في توحيد الدولة الايوبية بعد قضائه على مقاومة الامراء الايوبيين في بلاد الشام . وقد شغلت محاولة التوحيد هذه الصالح عن التفكير بالصليبيين . وقد عادت الدولة الايوبية بالفعل الى سابق وحدتها سنة 1247 . بيد ان انشغال الصالح في عملية التوحيد هذه جعله يفاجأ بوصول الحملة الصليبية السابعة 1249 امام دمياط وكان على رأسها ملك فرنسا لويس التاسع . والغريب ان تلك الحملة سلكت نفس طريق حملة حنا بريان فاستولت على دمياط ثم توقفت عن الزحف عند المنصورة واضطرت الى التراجع في دجنبر 1249 بعد ان وقع الملك لويس التاسع نفسه اسيرا بيد المسلمين . ثم ابرمت معاهدة بين الجانبين تم بموجبها جلاء الصليبيين عن دمياط ولم يطلق سراح ملكهم الا بعد أن فرض عليه (800) الف قطعة ذهبية نديه دفع نصفها مقدما . كما فقد المسلمون الملك الصالح الايوبي فتولى شؤون دولة بني ايوب زوج الصالح وهي شجرة الدر ريثما يحضر احد اولاده وهو توران شاه . واخيرا ظهر خلاف بين توران شاه هذا ومماليك ابيه الذين يعود اليهم الفضل في النصر الذي احرزه الصالح الايوبي قبل وفاته . وأخذ كل فريق يتربص بالثاني الدوائر . وقد تآمر توران شاه على زوج ابيه شجرة الدر ومماليك ابيه . كما حاك المماليك وشجرة الدر مؤامرة مماثلة وقد نجحوا فيها وأدت الى مقتل توران شاه والقاء جثته في

النيل ونصب المماليك شجرة الدر سلطانة عليهم . وقد بدأ بها بعض المؤرخين سلاطين دولة المماليك الأولى لانها كانت مملوكة لسيدها الصالح الايوبي قبل زواجه منها على حين جعلها آخرون آخر سلاطين الايوبيين في مصر .

حضارة الدولتين النورية والايوبية :— يعتبر عهد الدولة النورية (وتسمى كذلك الدولة الزنكية) في بلاد الشام وعهد الدولة الايوبية في مصر والشام من ازهى العهود التي تعاقبت على هذين القطرين في تاريخهما لمآثرهما التي لاتزال شاهدة على مدى ماوصلته الحضارة في عهدهما . ورغم العناية التي وجهها الامويون لعاصمتهم دمشق وما بلغه فن الريازة في عهدهم من تقدم فان هذه المدينة لم تبلغ عصرها الذهبي في ايامهم الا من حيث روعة بناء الجامع الاموي . لكننا ان جعلنا العصر الذهبي نتيجة وفرة الاوابد الباقية من عهد ما فليس من شك ان الفترة النورية والايوبية والمملوكية هي عصر سورية الذهبي بوجه عام ودمشق بوجه خاص لما خلفته فترة اربعة القرون هذه (521 — 922 هـ — 1127 — 1516 م) بين قيام الدولة النورية في الشام وفتح العثمانيين لها من آثار خالدة لايزال معظمها باقيا الى ايامنا هذه . ولنشر مثلا الى ان آثار دمشق لهذه الفترة المسجلة في مديرية الآثار العامة بلغت سبعة آثار من ايام حكم نور الدين وسبعة واربعين اثرا خلفتها الدولة الايوبية . وجعل نور الدين دمشق عاصمة لدولته (التي عرفت بالدولة الزنكية او بالدولة النورية) وذلك لقربها من فلسطين ليتمكن ان يهاجم منها الصليبيين . اما اهم الآثار التي خلفها نور الدين في عاصمته الجديدة (بعد انتقاله اليها من حلب) فهي بيمارستانه وحمامه ومدرسته الكبرى الضامة لضريحه ودار الحديث . اما بيمارستانه (وهو حاليا بناء مدرسة التجارة) فهو من اهم بيمارستانات العالم الاسلامي ، وقد اشترط ان تكون المداواة فيه " للفقراء والمساكين واذا لم يوجد بعض الادوية التي يعز وجودها الا فيه فلايمنع منه الاغنياء " . وكان بمثابة مستشفى وكلية لدراسة الطب . وقد تم البناء 1154 م ، ان الجبهة التي فوق الباب كانت لبناء روماني قديم وان المقرنصات التي فوقها هي احدث من عهد نور الدين وكان نور الدين قد بنى قبل هذا البيمارستان بيمارستانا آخر في حلب . وتم بناء المدرسة التي تضم رفات نور الدين 1172 م وهي من طابقين واهم غرفها القاعة التي تحوي الضريح وتعلوها قبة عالية مزدانة بالمقرنصات من داخلها وخارجها . وقد روعي في بناء المدرسة (والمدارس التي تليها) طراز المدرسة النظامية في بغداد (التي بناها هي والمدرسة الحنفية نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي) . وكان القضاء في الاسلام يمارس قبل نور الدين في المسجد أو في دور القضاء فقام نور الدين بتشييد دور العدل

الدين

المستقلة فهو والحالة هذه اول من اسس دور العدل . ولنور الفضل كذلك في تشييد اقدم مدرسة للحديث هي المعروفة بدار الحديث . وتلك المدارس وسواها من التي اسسها نور الدين في حلب وحمص وحماه وبعلبك كانت ملحقة بالمساجد روعي فيها نشر المذهب الشافعي . ومن الامور التي تسترعي الاهتمام انه تم حوالي عهد نور الدين استبدال الخط الكوفي ذي الزوايا الهندسية . وكان يستعمل كعنصر زخرفة في الابنية بالخط النسخي المدور . وقد ترك لنا نور الدين كتابة قلعة حلب . وله الفضل في جعل اضرحة واقفي المدارس في احدى قاعات مدارسهم وبذلك حفظت تلك القبور الى ايامنا هذه . كما بدأت منذ عهده عادة الجمع بين القبور الفخمة والمساجد في بناء واحد .

وعلاوة عما تقدم قام نور الدين بترميم اسوار مدينة دمشق (ويرجع هذا السور الى العهد الروماني 64 ق م - 635 م) بما فيها من ابراج وابواب . كما بنى دورا للحكومة.

كان صلاح الدين من دعائم المذهب السني حيث جعل نفسه كبير زرادته . واليه يعود القضاء على المذهب الفاطمي الشيعي في مصر واعادة ذلك القطر الى حظيرة السنة.

كما كان ذلك البطل مشجعا للعلماء بافتتاحه المدارس وانشائه المساجد . ومن مآثره العمرانية بناء السدود وحفر الاقنية وبناء قلعة الجبل في القاهرة وكان وزيراه القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني عالمين كبيرين . كما خدمه بهاء الدين بن شداد الذى دون سيرته فيما بعد كما اهتم صلاح الدين كثيرا بالتعليم لاسيما وكان يهدف الى ايقاف انتشار المذهب الفاطمي في مصر والقضاء عليه . ونظرا لميله الى البناء فقد عرف هذا السلطان انه اعظم مشيد لدور العلم في الاسلام بعد نظام الملك . وليس غريبا ان تغدو دمشق في عهده مدينة المدارس وقد اشار ابن جبير لدى زيارته لها 1184 الى وجود عشرين مدرسة فيها وبيمارستانين مجانيين ورباطات وخوانق (وهي الخانقاه أي التكية) كما ادخل صلاح الدين تلك الخوانق الى مصر . وهو الذى ادخل المدرسة الى بيت المقدس ومصر والحجاز واهمها تلك التي حملت اسمه في القاهرة (المدرسة الصلاحية) .

وقد شيد صلاح الدين بيمارستانين في القاهرة على طراز بيمارستان سيده نور الدين في دمشق . واعظم مابقي من آثار ذلك السلطان الايوبي في القاهرة قلعتها التي يرجع اقتباسه بعض قواعد التحصين فيها عن القلاع الصليبية النورمندية التي شيدها الصليبيون في فلسطين آنذاك . ويغلب على الظن استخدامه بعض اسرى الصليبيين في بنائها وقد شيد فيها لنفسه بيتا يأوي اليه عند حضوره الى القاهرة .

ومما اكثر ماخلفه العصر الايوبي في دمشق من بناء نورد مقسه : التربة الصلاحية والمدرسة العزيزية (تربة صلاح الدين وقد انشأ عليها ابنه العزيز مدرسة لم تبق)

والمدرسة العادلية التى شيدها العادل الايوبي 1215 م وقد شغلها المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه 1919 ولم تتم في عهد العادل فلما توفي 1222 دفن فيها وأتمها ابنه الملك الاعظم . وتعتبر هذه المدرسة نموذجا كاملا لفن العمارة الايوبية من حيث تخطيطها وتناسب ابعادها وبساطة زخارفها . وقد شابه مخططها تخطيط مدارس حلب الايوبية ومخطط المدارس النورية في دمشق . ومن مساجد دمشق الايوبية جامع التوبة الذى بناه الاشرف بن العادل الايوبي 1234 م وهو من اعظم واكبر مساجد دمشق حيث حاكى مهندسه مخطط جامع بني امية من حيث توسط الصحن الذى تقوم في منتصفه بركة الماء كما تطوف به اروقة محملة على ركائز ويقع الحرم جنوبيه وهو بسيط الهندسة جميل الترتيب .

واعظم آثار الايوبيين في دمشق قلعتها التى شرع ببنائها 1206 ولم ينته الا 1216م وتختلف عن مثيلاتها من القلاع الاسلامية التي شيدت في نفس الوقت كقلاع حلب وحماه وحمص وشيزر التى بنيت على تل قليل الارتفاع . وكان السلاجقة بدؤوا ببناء قلعة لتحصين دمشق فلما تولى العادل الايوبي هدم تلك القلعة وبنى قلعته الشهيرة وهي مستطيلة الشكل (220 x 150 متر) ذات اثني عشر برجا . وتفصل بين كل برج وآخر مسافة ثلاثين مترا . وقد بقيت القلعة طيلة ثلاثة قرون مقرا لحكومة دمشق السياسية والادارية كما شيد الأيوبيون في قسمها الجنوبي الغربي قصرا للسلطان الحاكم لم تبق منه سوى بعض الحجرات وقد هدم هولاكو القلعة 1260 م فرمم الظاهر بيبرس ما تصدع من بنيانها .

ومن علماء العصر الايوبي الذين كانوا من خاصة صلاح الدين وزيراه الآنفي الذكر (القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني) وامين سره بهاء الدين بن شداد وقد كتب سيرة سيده . ومن افراد حاشيته طبيبه اليهودي ابن ميمون وعبد اللطيف البغدادي وقد ألف كتابا في وصف مصر . اما باقي علماء العصر الايوبي فاهمهم شهاب الدين السهروردي الحلبي والمؤرخ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق وكان مدرسا في دار الحديث النورية بدمشق . وابو شامة صاحب كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (النورية والايوبية) وابن الاثير صاحب كتاب الكامل وياقوت الحموي صاحب المعجمين (معجم الادباء ومعجم البلدان) وكمال الدين بن العديم صاحب زبدة الحلب من تاريخ حلب والقاضي ابن واصل صاحب مفرج الكروب في اخبار بني ايوب علاوة عن المؤرخ الايوبي ابي الفداء صاحب حماة وكثيرين سواهم .

======================

الدولـــــة المملوكية الأولـى 1250 ـ 1390

لم تكن الدولة المملوكية الاولى وتعرف ايضا بدولة المماليك البحرية في اول عهدهـــا سوى امتداد للدولة الايوبية وذلك لان شجرة الدر التى انتخبها المماليك للحكم كانـــت زوجة للملك الصالح ايوب آخر سلاطين الايوبيين في مصر وقد حملت منه بغلام يدعى خليـــلا ولذلك لم يحدث اى تغيير جوهرى في نظم الحكم والادارة عند القضاء على الايوبيين بمصـــرع توران شاه وقيام المماليك لان هؤلاء لم يكونوا في الواقع سوى القوة الحربية التي استخدمهـــا الصالح ايوب والتي مكنته من الحاق الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة على النحو الذى سبـــق تفصيله . فلما آل الحكم الى تلك الفئة من الجنود المرتزقة ساروا في حكمهم على خطـــة اسيادهم الايوبيين لاسيما ولم يكن لهم تقاليد موروثة في الحكم .

وكان الاستاذ او السيد الذي يبتاع المملوك يشرف على جعله جنديا شجاعا كما يعنـــى بثقافته . وعندما يكتمل المملوك نضجه في الناحيتين العسكرية والأدبية يعتقه صاحبـــه (استاذه) ويهيىء له السبيل القمينة بايصاله الى اسمي المناصب العسكرية في الدولـــة دون استثناء منصب السلطنة نفسه . وكان للمماليك ثكنات خاصة بهم في قلعة القاهرة حيث يتسلم الطواشي المملوك الجديد ويعلمه مبادئ الدين الاسلامي وقسما من القرآن والفروض الدينية من صلاة وصوم . وبعد ان يتم هذا المملوك تعليمه يتدرج به الى التعليم العسكرى وعندما يتقن استعمال الاسلحة يعتقه أستاذه فان كان هذا الاستاذ السلطان نفسه غـــدا المملوك المعتق من فئة المماليك السلطانية وقد ينخرط في احد اقسامها كالجمداريـــة أو الخاصكية أو البحرية وغيرها من فئات المماليك السلطانية الذين لم يكونوا في الواقـــع سوى مجموعة الجيش النظامي لتلك الدولة .

وحرى بالذكر ان المملوك كان يشعر في قرارة نفسه وبالاقرار بجميل أستاذه . وكان دائما ينتسب الى أستاذه دون ان يرى في ذلك غضاضة او شيئا من الصغار . فهـــذا السلطان بيبرس كان اسمه كاملا بيبرس العلائي البندقدارى الصالحي حيث أن أستاذه الأول هو علاء الدين البندقدار احد امراء الصالح ايوب ثم انتقل الى حوزة الصالح نفسه فأضاف الى القابه لقب الصالحي . وكان كل المماليك يفخرون بأصلهم المملوكي وجرت عادتهم بنعت انفسهم بذلك الاصل في رسائلهم الرسمية الى ملوك البلاد المجاورة . فدولة قوامهـــا سلاطين مماليك لم يكن مستغربا الا تحدث جديدا في نظم الحكم عندما انتقل اليها الحكـــم .

غير ان الظروف السياسية التي أحاطت بالعالم الاسلامي غداة قيام الدولة المملوكيـــة في مطلع القرن الثالث عشر الميلادى لم تلبث أن احاطت تلك الدولة الناشئة بهالة مـــن الاجلال والتعظيم . فعندما سقطت الخلافة العباسية في بغداد (656هـ 1258 م)

على يد هولاكو وقتل آخر خليفة عباسي وهو المستعصم استقدم سلطان المماليك في القاهرة ابن عم الخليفة العباسي الى مصر التي غدت مركزا للخلافة العباسية ومركزا للعالم الاسلامي وانتقل الخلفاء العباسيون من سيطرة الترك والديلم في بغداد الى ظل سيطرة مملوكية في القاهرة . ويمكن ان نضيف الى ذلك المجد الذى ذهب به سلاطين المماليك (احياء الخلافة العباسية في مصر) مجدا آخر هو انتصار سلطانهم قطش ومملوكه بيبرس على التتر في معركة عين جالوت حيث هزم بيبرس القائد التترى كتبغا بعد عودة هولاكو الى بلاده . فهذه المعركة التاريخية الحاسمة ابطلت الأسطورة التي اخذت تنتشر في ربوع آسيا الغربية واوروبا الشرقية من انه ليس من قوة تستطيع صد زحف جحافل التتر وقد ظن ان اولئك التتر قوم لايغلبون . فالحاق بيبرس الهزيمة الكبرى بجيوش التتر الجرارة اكسب دولة المماليك أهبة وقوة بين دول العلم الاسلامي واوروبا وصار المسلمون يرون في المماليك حماة الاسلام والذابين عن حياضه . وكما ان انتصارات الصليبيين اكسبته مهابة بين صفوف المسلمين والغربيين فان قيام المماليك بمتابعة عمل الايوبيين الرامي الى /صلاح الدين/ القضاء على الصليبيين وما حققوه في هذا المجال جعلهم يتمتعون بنفس الاحترام الذى احاط به المسلمون سلاطين الايوبيين .

وليس بخاف ان لنشأة المماليك كجماعة حربية أثرا في نظام الحكم المملوكي فلم يقروا بمبدأ الوراثة في الحكم رغم المحاولات الكثيرة التي قام بها كل سلطان منهم ليجعل الملك في عقبه من بعده ولو ان السلطان قلاوون حقق في هذا المضمار نجاحا جزئيا لان اسرته تعاقبت على حكم الدولة المملوكية طيلة القرن الرابع عشر (1) .

---

(1) اننا نثبت هنا قائمة باسماء سلاطين الدولة المملوكية الاولى وعددهم اربعة وعشرون سلطانا حكموا بين سنتي 1250 — 1390 . ... : ونثبت فيما يلي أسماء هؤلاء السلاطين مع ملاحظة أن أربعة من بينهم كانوا مماليك للسلطان الأيوبي الملك الصالح الأيوبي وهم : أيبك وقطز وبيبرس وقلاوون وقد حكم نور الدين علي ابن أيبك بعد أبيه كما حكم بعد بيبرس ابناه : بركة ثم سلامش وبعد هؤلاء السلاطين السبعة كان جميع سلاطين المماليك والباقين وعددهم ستة عشر سلطانا ، أبناء وحفدة السلطان قلاوون وهم حسب تسلسل توليتهم السلطنة المملوكية : 8— خليل الأشرف 9— الناصر (وتم تنصيبه سلطانا خلال ثلاث فترات 1293 — 1294 م ثم في 1298— 1308 و 1309 — 1340) ، 10— كتبغا . 11— لاجين . 12— بيبرس الثاني (فهؤلاء الخمسة هم أبناء قلاوون) بينما سيأتي بعدهم تسعة من حفدة قلاوون هم على التوالي : 13— أبو بكر . 14— قوجوق . 15— أحمد . 16— اسماعيل . 17— الكامل شعبان . 18— المظفر حاجي . 19— الحسن . 20— الصالح . والحسين الذى لم يحكم ثم حكم اثنان من أبناء حفدته هما : 21— محمد (وهو ابن السلطان الثامن عشر أبي المظفر حاجي) ثم 22— الأشرف شعبان (وهو ابن الحسين بن قلاوون ولم يتول الحسين هذا السلطنة) .واخيرا حكم سلطانان هما حفيدا حفيد قلاوون الحسين وهما : 23— علاء الدين علي . 24— الصالح علي الذى تولى السلطنة مرتين : 1381—1382 وفي 1389 — 1390 .

النزاع بين ايوبي الشام ومماليك مصر : تعرضت الدولة المملوكية عند قيامها لمصاعب جمة وذلك لوجود افراد كثيرين من البيت الايوبي في بلاد الشام كان كل منهم يريد ان يؤول اليه العرش الايوبي في مصر . وقد دأب المماليك على السعي لصرف الخطر عنهم بمحاولات سلمية لم تجد هم فتيلا . ويضاف الى ذلك ماقام به مماليك القاهرة من زواج شجرة الدر من احد امرائهم وهو أيبك التركماني . ولما لم تؤد الوسيلة بالمطالبين بعرش مصر الايوبي الى العدول عن ... به لجأ المماليك الى حيلة اخرى وهي تولية امير ايوبي صغير هو موسى كان في ... من عمره . غير أن المطالبين بعرش مصر لم ينثنوا عن عزمهم فأخذ أيبك يستعد لحرب زعيم ايوبيي الشام الملك الناصر صاحب دمشق وحلب فارسل القائد أقطاي على رأس قوة مملوكية لاخراج قوات الناصر من غزة وكانت قد احتلتها وشيكا . كما أخذ يستميل اليه بقية المماليك وبقايا الايوبيين في القاهرة وأعلن تفانيه وتعلقه بسادته الايوبيين ومن قبيل ذلك امره بنقل جثة الملك الصالح ايوب في موكب فخم الى المقبرة التي كان الصالح قد بناها لنفسه . وقد مشى ايبك بنفسه والسلطان موسى الايوبي في تلك الجنازة . لكن كل ذلك لم يحل دون اصطدام قوات الفريقين الذى تم في اوائل 1251 م .

ولم يكن كثيرون من المماليك يعتقدون ان أيبك أجدر من يتولى السلطنة . فثمة كثيرون منهم غادروا القاهرة الى بلاد الشام حيث انضموا الى افراد البيت الايوبي المطالبين بالعرش الايوبي في مصر . وذلك مثل حسي على قوة العلاقة بين المملوك والسيادة لانه كان يعتبر اخلاصه الاكبر هو اخلاصه لأستاذه أى صاحبه الذى اشتراه . وكان انضمامهم الى الايوبيين قبل ان يسفر ايبك عن نواياه أو قبل ان يبرهن عن جدارته للحكم او عدمها .

بيد ان ملاحظة اولئك ان انحيازهم الى الجانب الايوبي سيؤدى بهم الى الاصطدام باخوانهم مماليك القاهرة جعلهم ينسحبون من جيش الناصر الايوبي وينضمون لاخوانهم بعليد وصولهم الصالحية مما يقوم دليلا على انه مهما اشتدت الانقسامات بين الصفوف المملوكية فانه اذا هدد خطر خارجي كيان الدولة المملوكية وحد ذلك الخطر الصفوف وجعل المماليك كتلة متراصة تتفانى في الذود عن حياضها . وقد مكن هذا العامل السلطان أيبك من الحاق الهزيمة بقوات الناصر الايوبي الذى عاد ادراجه مسرعا الى الشام بعد ان ترك كثيرا من اولاد الايوبيين اسرى بيد المماليك . ثم رجع ايبك الى القاهرة بعد الاستيلاء على غزة وجنوبي فلسطين وقد أفاده ذلك النصر على الايوبيين في التخلص من شريكه في السلطنة وهو موسى الايوبي الذى نفي الى الدولة ... [illegible] ... بين اباطرتها وبين سلاطين الايوبيين ... [illegible] ... (لكن الأباطرة البيزنطيين أنذاك في مدينة ... بعد طرد الصليبيين لهم من عاصمتهم في الحملة الصليبية الرابعة ولم يعودوا اليها الا حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادى) .

وضع الخطر التترى واخذ يهدد الخلافة العباسية وبلاد غربي آسيا فتألم الخليفة العباسي المستعصم بالله لاستشراء الفتنة بين الايوبيين والمماليك فأنفذ الى الفريقين رسولا من لدنه يدعوهم الى نبذ الخلاف وجمع الكلمة فلقيت دعوته قبولا منهما ، لاسيما بعد ان ظهر للناصر الايوبي ان دون الحاق الهزيمة بالمماليك صعاب جمة . وقد أبرم اتفاق على ان تكون مصر والمناطق الواقعة غربي نهر الاردن بما في ذلك بيت المقدس وساحل فلسطين بيد المماليك وان تبقى بقية البلاد التي لم يرد أسمها في حوزة الامراء الايوبيين (أى منطقة سورية وشرقي الاردن الحالية ماعدا ارضي الضفة الغربية)

انصرف أيبك لتوطيد حكمه في الداخل حيث لم يكن هناك اجماع على تولية السلطنة بين سائر المماليك . وكان كثيرون يعتقدون ان من بين زعماء المماليك من هو اجدر منه كأقطاى الذى انتصر على قوات الايوبيين قرب الصالحية . واوشكت وحدة الصف المملوكي ان تتصدع لولا ظهور خطر خارجي رأب ذلك الصدع وأعاد الوحدة . اما ذلك الخطر الداهم فهو قيام حركة عربية في مدينتي ديروط والمنيا كان على رأسها الامير حسام الدين بن ثعلبة الذى انضم اليه حوالي اثني عشر الف فارس . وكان عرب مصر يعتقدون بأحقيتهم بالسلطنة من بعد الايوبيين وافضليتهم على المماليك الذين مسهم الرق . ومن الغريب ان أيبك تمكن من القضاء على تلك الحركة بفضل منافسه اقطاى . وقد أدى اخفاق تلك الحركة الى اضعاف العناصر العربية فلم تحرك ساكنا طيلة العصر المملوكي . لكن النتيجة الكبرى لتلك الحركة هي بروز اسم اقطاى الى الصف الأول مما حمل ايبك على التفكير بالتخلص منه نهائيا وقد نجح في مسعاه مما ألقى الذعر بين صفوف المماليك ففر كثيرون الى بلاد سلاجقة الروم والتحق آخرون بالدولة الايوبية في دمشق وبدأ اولئك الفارون يعملون للقضاء على ايبك ، كان اهمهم بيبرس الذى هاجم مصر عدة مرات لحساب ملك دمشق الايوبي .

تحرج مركز أيبك فسعى للتمكين لنفسه بالحاق سلطنته بخلافة بغداد بواسطة تقليد يحصل عليه من الخليفة العباسي . كما حاول في الوقت نفسه توثيق صلاته بامير الموصل بدر الدين لؤلؤ بزواجه من ابنة هذا الاخير لكن مشروع الزواج هذا أغضب زوجته شجرة الدر صاحبة الفضل الاكبر في قيام الدولة المملوكية وتنصيب ايبك سلطانا عليها . بدأت شجرة الدر تفكر في التخلص منه غير انه عندما علم بما تبيته له اخذ يفكر في وسيلة للخلاص منها لكنها سبقته فاغتاله رجالها في قلعة القاهرة 1257 واذاعت انه توفي فجأة فلما علم مماليكه بجلية الخبر كانت نتيجتها القتل وبذلك انتهى حكم مؤسس الدولة المملوكية .

تولى الحكم علي بن ايبك بعد قتل ابيه مباشرة واستمر في الحكم الى ان خلعه

المماليك في نوفمبر 1259 عندما اجمعت كلمتهم على من توسد اليه السلطنة من بينهم بحق الاقدمية او الهيبة او الاحترام او مواتاة الظروف . وتلك الظاهرة ستتكرر باستمرار في التاريخ المملوكي . فيتحول المماليك الى امير يختارونه من بينهم بعد ان يكون ابن السلطان المتوفى قد مارس الحكم لفترة ما . وتفصيل ذلك ان السلطان المملوكي كان يستدعي امراء الدولة ويطلب منهم مبايعة ابنه بحضرته (ان كان له ابن) ويقسم اولئك الامراء الايمان المحرجة أنهم سيحترمون ولاية العهد هذه . فاذا ماتوفي السلطان بر الامراء بايمانهم ونصبوا الامير ولي العهد سلطانا ويثما تتفق كلمتهم على من يلي السلطنة من بينهم فيخلعون ولي العهد ، الذي غدا سلطانا بعد وفاة ابيه ، ويولون السلطان الجديد الذي اجمعوا على تنصيبه ، وذلك لانه لم يكن لمبدا الوراثة الشرعية أية قيمة في نظر فئة حربية نشأ افرادها نشأة متساوية ولم يكونوا ليقبلوا ابن احدهم سلطانا عليهم . ويبدو ان قاعدة الاقدمية هي التي كانوا يراعونها عند انتخاب سلطان من بينهم . وقد جرت العادة ان ثمر الفترة التي يقضيها ولي العهد في الحكم في قيام اكبر الامراء سنا بالتمهيد لنفسه باستمالة العناصر المناوئة له او التي تكون شديدة الاخلاص لسلفه وابنه .

ومهما يكن فقد اجمعت كلمة المماليك في الفترة التي قضاها علي بن ايبك في الحكم على تنصيب الامير قطز وتم خلع علي وبرر المماليك عملهم باشتداد الخطر على السلطنة المملوكية بعد ان اصبحت جحافل التتر على ابواب مصر اثر خضوع الخلافة العباسية وبلاد الشام الشمالية لهولاكو زعيم المغول . ورغم وجاهة هذا السبب فلا سبيل الى نكران ان المماليك لم يكونوا يحترمون البتة مبدأ الوراثة في الحكم .

ايقاف المماليك الزحف المغولي وتغلبهم على المغول في معركة عين جالوت:

كان السلطان المملوكي الجديد يدعى قطز المعزي بمعنى انه من مماليك السلطان المعز أيبك ، وقد روت المصادر ان اسمه الاصلي هو محمود بن ممدود وانه قريب سلطان الدولة الخوارزمية جلال الدين خوارزم شاه تلك الدولة التي كان المغول قد قضوا عليها قبل بدء زحفهم غربا باتجاه املاك الخلافة العباسية على النحو الذى سبق بيانه . وقد احسن المماليك بانتخابه لصد الخطر المغولي انتقاما من المغول لما قاموا به من القضاء على الدولة الخوارزمية التي هو احد افرادها قضاء تاما .

والى هولاكو زعيم المغول زحفه على بلاد آسيا الغربية اثر قضائه على الخلافة العباسية في بغداد 656 هـ - 1258 م . وقد وصلت الدولة الايوبية في الشام رسائل زعيم المغول وكلها وعيد وتهديد تنذر بوخيم العاقبة من تحدثه نفسه بمقاومة الزحف

المغولي فخارت قوى معظم الايوبيين وظهر انه ليس ثمة جدوى من المقاومة وان السلامة في المداراة والخضوع لسلطان المغول . فاستاء الزعيم المملوكي بيبرس وكنا ذكرنا رحيله الى دمشق معبرا استيائه من انفراد ايبك بالحكم فلما لاحظ بيبرس استكانة ايوبيي سورية تركهم مغاضبا عائدا الى القاهرة فوجد من خشداشة (أي زميله في المصطلح المملوكي) قطز استعدادا لمقاومة المغول الذين خضعت لهم سائر دويلات الشام . ومع ان هولاكو عاد الى بغداد فان السلطان قطز تسلم رسالته من نائبه كتيغا ملؤها التهديد فكان جواب قطز جريئا للغاية بقتله السفراء قاطعا كل أمل بالمفاوضة . ورغم تخاذل بعض زعماء المماليك فقد نجح في تجهيز حملة سار على رأسها سنة 1260 الى الصالحية حيث انفذ منها طلائع قواته بقيادة بيبرس الذى الحق الهزيمة بطلائع التتر عند غزة مما أثار اعجاب العالم الاسلامي الذي سمع لاول مرة بامكانية الحاق الهزيمة بجيش تترى بعد رواج الشائعات ان جيوش المغول لا تغلب . ثم تقدمت قوات المماليك الرئيسية الى بيسان حيث دارت عند عين جالوت بجوار الناصرة معركة كبرى هزم التتر فيها شر هزيمة على غير ماكان ينتظره المعاصرون . ولم تؤد تلك الهزيمة الى ايقاف الزحف المغولي على آسيا الغربية فحسب بل اعتبرت بمثابة صدمة أثرت على حركة التتر العامة مما أدى الى ازالة الوهم العالق بأذهان الناس من انه ليس من سبيل الى ايقاف الزحف المغولي وان التفكير بالتغلب على قواتهم ضرب من المستحيل . وهكذا بعد ان اوغل التتر في زحفهم على اواسط اوروبا ووصلوا كييف وبرسلاو فشلوا في موالاة زحفهم واضطروا الى العودة ادراجهم من حيث اتوا . وقد أفاد قطز من النصر الذى حازته قواته على المغول فأعاد ابناء ملوك البيت الايوبي الى ممالكهم الصغيرة فيما عدا الملك الناصر صاحب حلب الذى آثر البقاء عند التتر فاعطى قطز مملكته لابن الامير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وكان مع ابيه حريصين على ابلاغ المماليك عن حركات المغول ومبلغ استعداداتهم ورفض قطز منح قائده بيبرس نيابة حلب لخشيته من طموحه فأغضب بذلك هذا القائد الذى انتقم منه واغتاله قرب الصالحية معلنا نفسه سلطانا . وكانت القاهرة قد اخذت زينتها لاستقبال قطز فاذا بها تفاجأ باعلان سلطنة بيبرس .

ساعد الظفر المبين الذى احرزه المماليك في عين جالوت على توطيد دعائم دولتهم فانعدمت مقاومة الامراء الايوبيين لها بل انضوى كثير منهم تحت زعامتها . وصفوة القول ان عين جالوت كانت صدمة عنيفة لقوة التتر في غربي آسيا . ولا تقدر اهمية ذلك النصر الرائع الا أن تذكرنا قول القلقشندى (صبح الاعشى ، ج 4 ص 458) : " ان الجيوش المملوكية بالنسبة للجيوش الخوارزمية التي هزمها التتر كانت كالنقطة من الدائرة والنغبة من البحر " ولذلك لم تلبث الدولة المملوكية أن غدت عزيزة الجانب متمتعة بتقدير

العالم في الشرق والغرب وهذا ماحدا ببعض الدول الغربية الى التفكير بعقد حلف بينها وبين التتر يؤدي الى القضاء على القوة الاسلامية بمافيها قوة دولة المماليك الناشئة.

انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة :

حكم ابو احمد عبد الله المستعصم بالله وهو آخر الخلفاء العباسيين في بغداد بين سنتي 1242 ـ 1258م ، 640 ـ 656 هـ . وكانت الفوضى متشرة في ايامه كما كانت علاقة الخليفة سيئة بهولاكو حفيد جنكيز خان لان ذلك الامير المغولي طلب من المستعصم في 1256 م ان يسهم معه في القضاء على الاسماعيلية فلم يلب الطلب . فلما تمكن هولاكو من القضاء على تلك الفرقة واستولى على معقلها المنيع في قلعة ألموت اخذ يفكر بالقضاء على الخلافة العباسية والزحف على آسيا الغربية . وقد بعث هولاكو برسالة الى المستعصم عاتبه فيها لعدم تجهيزه للقضاء على الحشاشين ، وقد جاء في نهاية الرسالة : "يجب ان تغير خطتك وتعدل عن هذه المكابرة التي ان عادت عليك بشيء فانما تعود بخراب دولتك وفقدان ثروتك " . لم يكترث الخليفة لتهديد القائد المغولي ، لا بل كان جوابه ومعاملة بعض رعاياه في بغداد لرسل هولاكو مما زاد في امعان هذا الاخير على انجازه مشروعه الرامي الى السيطرة على آسيا الغربية والقضاء على الخلافة العباسية .

وهكذا اطبقت جيوشه على بغداد وحاصرتها اربعين يوما وذلك في ينـاير 1258 محرم 656 . وقد ورد في الفخرى وصف لذلك الحصار جاء فيه بعد ايراده وصفا لاشتباك حدث غربي بغداد بين جيش هولاكو وهزيمة الجيش العباسي مايلي : "واما حال العسكر السلطاني (أى جيش هولاكو الآن المؤلف يلقبه سلطان المغول) فانه في يوم الخميس رابع محرم من سنة ست وخمسين وستمائة ثارت غبرة عظيمة شرقي بغداد على درب يعقوبا بحيث عمت البلد فانزعج الناس من ذلك وصعدوا الى اعالي السطوح والمنابر يتشوفون فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخيوله ولفيفه وكراعه وقد طبق وجه الارض واحاط ببغداد من جميع جهاتها . ثم شرعوا في استعمال اسباب الحصار وشرع العسكر الخليفي في المدافعة والمقاومة الى يوم تاسع عشر محرم فلم يشعر الناس الا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداد من برج يسمي برج العجمي من ناحية باب من ابواب بغداد يقال له بابكلوازى " . " وكان هذا البرج اقصر ابراج السور . وتقحم العسكر السلطاني هجوما ودخولا . فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ مايعظم سماعه جملة فما الظن بتفاصيله ؟ " (ص 300 ـ 301) .

ورت المصادر ان وزير المستعصم (وهو مؤيد الدين ابو طالب محمد بن احمد العلقمي)

خرج اثناء الحصار مع عظيم النساطرة (وذلك لان احدى زوجات هولاكو كانت نصرانيــة) لمفاوضة هولاكو بالصلح فرفض هذا الاخير ، كما روى انه لما اشتدت وطأة الحصار واقتحــم جنود المغول المدينة خرج الخليفة في ثلاثمائة من خاصته وقضاته عارضا التسليم دونمــا قيد . فلم يزدد هولاكو الا امعا نا في طغيانه وامر بالخليفة فقتل كما قتل من كان بمعيته وكان هولاكو قد طلب من الخليفة بغد ان ادخل الطمأنينة الى قلبه أول الامر ان يوعــز الى الاهالي المسلحين بالقاء السلاح والوقوف خارج الاسوار لاحصائهم فلما استجابــوا لأمر الخليفة وتدفقوا خارج الاسوار هجم عليهم التتر وابادوهم عن بكرة ابيهم كما اعملوا فــي العاصمة العباسية سلبا ونهبا واعملوا قتلا وتعذيبا وتمثيلا في سكانها دون استثناء اسرة الخليفة نفسه لدرجة ان الهواء " قد ثقل بما حمله من كريه رائحة الجيف المنتنة واشــلاء القتلى المطروحة في شوارع المدينة بحيث اضطر هولاكو ان يبتعد عن المدينة ايامــا ".

وقد استمرت استباحة جند المغول اربعة ايام وكان تقدير ابن خلدون لقتلى مذابــح المغول في بغداد 1,600,000 خلال ستة اسابيع . (1)

انهارت الخلافة العباسية وبقي العالم الاسلامي خلال سنتين بدون خليفة فشعــرت

---

(1) وجاء في وصف المؤرخ الانكليزي غيبون لتلك الكارثة الفادحة مايلي : " ... فقد خرج الشيوخ والنساء والاطفال من منازلهم حاملين المصاحف على اكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون الى الجند بلهجة تفتت الاكباد ان يبقوا على حياتهم . ولكن الغزاة لــم يعبؤوا باستغاثتهم كما وطئوا اجسادهم بحوافر خيولهم . وهجموا على نساء الاشراف والنبلاء اللواتي لم يعتدن السير في ازدحام طوال سني حياتهن وجروهن الى الشوارع كما انزلوا بهن اروع ضروب الاهانات وأذلها . اما تلك الكنوز الادبية والفنية ومخلفات المدنية الفارسية التي جمعتها ايد حريصة نشطة باشراف الخلفاء فقد دمرت تدميــرا في خلال بضع ساعات ، وطفقت شوارع المدينة تنساب فيها الدماء طوال ثلاثة ايــام حتى اصطبغ ماء دجلة لعدة اميال بصبغة الدم القانية وظلت ريح التخريب والذبــح وانتهاك حرمة الانسانية تعصف بالمدينة ستة اسابيع كاملة حتى انهارت القصور المنيفة الذرى ، وتقوضت الجوامع المقدسة والضرائح الفخمة اما بالنار او بالمعاول من اجل قبابها الذهبية ، واعملت السيوف في رقاب المرضى في المستشفيات وطلاب العلــم والاساتذة في المدارس والكليات ونبشت قبور الاولياء واضرحة الائمة الصالحين ، والتهمت النيران نتائج قرائح العلماء والادباء والقيت الكتب لتلتهمها السن النــار أو تبتلعها مياه دجلة ، وهكذا فقدت الانسانية كنوز خمسة قرون ، وفنيت زهرة الامة فناء تامــا ".

معظم الدويلات الاسلامية بحاجتها الماسة الى الزعيم الديني الذى كان يتمثل آنذاك في شخص الخليفة . ونظرا لان علاقة الدولة المملوكية الناشئة وعلاقة سادتها الايوبيين من قبل كانت حسنة بالخلفاء العباسيين بدا للسلطان قطز ولبيبرس من بعده استدعاء من نجا من مذبحة المغول من الامراء العباسيون ممن كان فر الى بلاد الشام . وكان المماليك منذ تأسيس دولتهم قد حرصوا على توطيد دعائمها باضفاء الصبغة الشرعية عليها بموافقة الخليفة المستعصم العباسي على قيامها على انقاض الدولة الايوبية .

وهكذا سعى المماليك اثر مقتل توران شاه الى ترسيخ أسس دولتهم بحصولهم على موافقة الخليفة العباسي كما كوروا ذلك عند تنصيبهم شجرة الدر حيث ارسلوا الى بغداد يلتمسون من الخليفة موفقته على ذلك الاختيار . ولدى ملاحظة السلطان ايبك (أول سلاطين المماليك الفعليين) ان فئة من المماليك لم ترض به اوعز بالمناداة في شوارع القاهرة وسائر مدن مصر ان البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وان السلطان المعز (أى ايبك المعزى) هو نائبه عليها . وقد ارسل الى بغداد يلتمس موافقة الخليفة وان يرسل هذا الاخير التقليد والخلع والالوية اسوة بملوك الايوبيين . وعلى العموم كانت مصر طيلة فترة العصور الوسطى تعتمد على الخلافة العباسية ويسعى حاكمها لجعل حاضراتهم عاصمة للخلافة نفسها (1) .

ولم تقتصر محاولة اجتذاب من فر من مذبحة المغول من الامراء العباسيين على المماليك وحدهم بل حاول آخرون غيرهم القيام بالعمل نفسه ولو ان النجاح كان في هذا المجال حليفا القطز المملوكي ولبيبرس من بعده . وبيان ذلك ان قطز في فترة سلطنته استدعى اليه في عين جالوت (بجوار الناصرة وبيسان) احد افراد البيت العباسي وهو احمد ابو العباس الحاكم وكان وصل حديثا الى دمشق فلما اجتمع به بايعه بالخلافة وألحق بمعيته جماعة من العرب للعمل في العراق على استرداد الخلافة ولربما كان قطز لو افسح في اجله مد هذا الامير العباسي بالقوات الضرورية لتنفيذ تلك المهمة لاسيما بعد الحاق هزيمة عين جالوت بالمغول وانهيار اسطورة ان المغول قوم لايغلبون .

استولى بيبرس على السلطنة المملوكية بقتله قطز غيلة (على ماسبق تفصيله) فارسل الى ابي العباس احمد الآنف الذكر يستدعيه الى القاهرة فعاد الى دمشق حيث جهز نائبها وارسله الى القاهرة . ولكن عباسيا غيره هو ابو القاسم المستنصر كان قد سبقه الى القاهرة فآثر احمد ان يؤوب الى سورية الشمالية حيث شق ابو حلب بدر الدين لؤلؤ عصا الطاعة على بيبرس . وقد قام امير حلب بمبايعة احمد هذا وأرفق به سبعمائة فارس تركماني

---

(1) محاولة احمد بن طولون احضار الخليفة المعتمد في نهاية القرن التاسع الميلادى لينقذه من جور اتراك بغداد ومحاولة الاخشيد عند مجيئه الى الشام 944م ان ينقذ الخليفة المتقي من تعسف الاتراك وحمدانيي الموصل وحلب .

قصد بهم اطراف العراق لمناوشة التتر . اما ابو القاسم المستنصر فقد وفد على بيبرس الذى هب للقائه خارج القاهرة وبمعيته القضاة وموظفو الدولة . وقد عقد الظاهر بيبرس مجلسا في 13 رجب 659 هـ 12 مايو 1261 م حضره كبار رجال الدولة ونفر من التجار وعدد من الافراد . وبعد شهادة نفر من العربان واهل بغداد ان ابا القاسم عباسي اعلن تاج الدين قاضي القضاة قبول شهادة اولئك الشهود وبايع ابا القاسم الذى لقب بالمستنصر وتبعه بيبرس بالبيعة ثم كبار العلماء فالاشراف فالموظفون حسب درجاتهم . ثم سار الخليفة الجديد في موكب يوم الجمعة التالي (17 رجب) الى القاهرة وألقى خطبة الجمعة . وبعد ان تمت البيعة على النحو السابق قلد الخليفة الجديد بيبرس البلاد الاسلامية وما سيضاف اليها وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفرة . وقد أنفذ بيبرس الى الملوك والنواب بأخذ البيعة للخليفة وبالدعوة له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده وان تنقش السكة باسمهما وبذلك تم احياء الخلافة العباسية بعد شغورها قريب ثلاث السنين .

بدا لبيبرس ان يسعى لاسترداد بغداد واعادة الخلافة اليها فصحب الخليفة الجديد الى دمشق وأخذ في تهيئة القوات الضرورية لذلك المشروع لكن احد خاصة بيبرس ذكره ان نجاح الخليفة في استرداد بغداد سيجعله يخرجه من مصر فتراخى في مسعاه ولم يمد الخليفة بسوى 300 فارس قصد المستنصر على رأسهم العراق مع من انضم اليه من متطوعة على طريقة . واخيرا وصل الخليفة الى النجف والتقى بزميله ابي العباس وبمعيته الجند التركماني الذى زوده به امير حلب . وقد وحد هذان الاميران جهودهما وزحفا شمالا فلما وصلا هيت على الفرات اشتبكا بالجند المغولي فمنيت قواتهما بالفشل ولم ينج سوى ابي العباس الحاكم اما ابو القاسم المستنصر فلم يقف له احد على خبر وقد روت المصادر انه قتل . ثم آب ابو العباس الحاكم الى القاهرة بعد شهر من موقعة هيت فاحتفل به بيبرس وأقامه في قلعة الجبل وبدا له ان يقلع عن فكرة احياء الخلافة في بغداد والاكتفاء بان تكون القاهرة مركزا للخلافة . ثم خطب للخليفة الجديد ابي العباس الحاكم من منابر مصر ودمشق والقدس ومكة والمدينة . وحرى بالذكر ان بيبرس لم يعن من اعترافه بخلافة ابي العباس الحاكم ان يقيم في البلاد سلطة اخرى دينية ام سياسية بل أن تفيد الدولة المملوكية من وجود الخليفة العباسي في حاضرتها وبذلك تتوفر للمماليك الحماية الروحية . اما الخلافة فلم تفد من احيائها سوى ربح ظاهر بينما كان الربح الاكيد للمماليك ولعاصمتهم القاهرة . مما جعل مماليك القاهرة يتبوؤن مركز الصدارة بين ملوك العالم الاسلامي لانهم حماة الخلافة كما غدت القاهرة مركزها مما حمل طائفة من علماء الاسلام على الهجرة اليها والاستقرار فيها . وهكذا احتلت القاهرة اسمى مكان بين مدن العالم الاسلامي طيلة العصور الوسطى حتى الفتح العثماني ولقد تعرض هذان الاميران العباسيان الى جملة من الشك تمثلت فيما نقله ابو الفداء المعاصر في تاريخه من اخبار سنتي 659 ـ 661 هـ .

اما العلاقات بين سلاطين المماليك البحرية والخلفاء العباسيين في القاهرة فكانت قائمة على الحذر ولم يستمر عطف المماليك على الخلفاء الا بدرجة ما كانوا يفيدون منهم وكثيرا ما تعرض اولئك الخلفاء لرقابة سافرة احيانا وخفية احيانا اخرى. كما خصص لهم محل اقامة جعل بادئ الامر في قلعة الجبل ثم في قلعة الكبش واخيرا حددت اقامتهم بمدينة قوص فيما يشبه الاقامة الجبرية حيث قبعوا راضين بما خصص لهم من مرتب و منصب اسمي و لم ينج بعض من ولي الخلافة في فترة الدولة المملوكية الاولى من الخلع من قبل سلاطينها . كما بلغت الفاقه بأحدهم ان لقب بالمستعطي . وقد حاول الخلفاء العباسيون الافادة من فترة الفوضى التي سادت الدولة المملوكية غداة انتقال السلطنة من المماليك البحرية الى المماليك الشراكسة اى الدولة المملوكية الثانية فتدخلوا في مطلع القرن الخامس عشر الميلادى في شؤون الدولة المملوكية وفكروا بارجاع الخلافة الى سابق عهدها في اقصاء سلاطين المماليك عن الحكم لكن محاولتهم اخفقت وعادوا الى وضعيتهم الاولى في زمن بيبرس وخلفائه أى مجرد شخصيات تابعة للسلاطين المماليك يقتصر عملهم على حضور المآدب الرسمية ومرافقة الجيوش المملوكية الى ساحات القتال الى ان تم للسلطان العثماني سليم الاول الاستيلاء على مصر 1517 م (923 هـ) وظهرت مشكلة تنازل آخر خليفة عباسي وهو المتوكل على الله الثالث . الى السلطان سليم عن الخلافة .

العلاقة بين السلطان بيبرس والصليبيين : مر بنا ان صلحا ابرم بين شجرة الدر ولويس التاسع الذى قاد الحملة الصليبية السابعة الى مصر ووقع في اسر الجيش الايوبي فلما تم فداؤه لم يعد الى فرنسا بل اقام في فلسطين علّه يجد فرصة تساعده على محو عار هزيمته ووقوعه في اسر المسلمين وقد ظهر للويس التاسع ان الظروف واتته 1250 م عندما بدأ بعض ملوك الايوبيين في الشام يفاوضونه في عقد حلف معه ضد السلطان ايبك المملوكي لكنه تردد في محالفة بقايا الايوبيين بل اراد ان يجعل من امر المفاوضة لعقد الحلف اداة لتهديد مماليك القاهرة ليطلقوا سراح من بقي لديهم من اسرى الحملة السابعة . وقد نجحت خطته وتمكن من اطلاق سراح بعض اعيان اسرى الصليبيين لكنه اضطر الى العودة الى فرنسا 1254 م بعد ان يئس من وصول النجدات التي طلبها من امه التي مارست الوصاية على فرنسا طيلة غيابه . فلما بلغه نبأ وفاتها قرر العودة الى بلاده .

ثم قام الناصر ملك دمشق الايوبي بحملته على مصر 1255 م على ما سبق بيانه ايام السلطان المملوكي ايبك فعمد هذا الاخير الى تجديد الهدنة بينه وبين الصليبيين لمدة عشر سنوات وامن بذلك جانبهم . ولذلك فان الفترة التي تلت 1250 م لم يقع فيها أى اشتباك بين قوات المماليك والصليبيين الى سلطنة بيبرس حيث بدت الدولة المملوكية في اوج قوتها

عقب تغلبه على المغول .

وبعد انتهاء بيبرس من مشاكله الداخلية فكر جديا استئناف الحروب مع الصليبيين على مقياس صلاح الدين لان هذا السلطان المملوكي كان يرى في الصليبيين عدوا خارجيا كبيرا للماليك (الاول هو المغول) .

واول الحملات التي وجهها ضد الفرنجة حملته على انطاكية 1261 م وذلك لان اميرها بوهيموند السادس كان ممن رحبوا بمقدم المغول . وكانت قوات الصليبيين في بلاد الشام قد وهنت منذ فشل الحملتين الخامسة والسادسة لابل منذ تحول الرابعة نفسها الى غرض غير صليبي وهو احتلال القسطنطينية . أضف الى ذلك ان اوروبا لم تعد توالي ارسال نجداتها للصليبيين كما كانت تفعل في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وذلك لما نشب فيها من نزاع بين البابوية والامبراطورية . على ان امارة انطاكية كانت اسعد حظا من باقي المناطق الصليبية وذلك لان الدولة النورمانية جنوبي ايطاليا لم تتوان في ارسال نجدتها اليها . ولشعور بعض الامارات الصليبية بضعفها وعجزها بادرت الى عقد صلح مع بيبرس منذ خريف 1261 م . بينما لم توافق امارات اخرى على شروط بيبرس نفسه لابرام الصلح بينها وبينه . وقد استعد بيبرس لحرب انطاكية عسكريا وسياسيا بابرامه حلفا مع البيزنطيين اعداء الصليبيين وكان امبراطورهم آنذاك ميخائيل الثامن الذي نجح في اجلاء الصليبيين عن عاصمته . كما عقد بيبرس معاهدات تجارية مع اسبانيا و بعض الامارات الايطالية واخيرا حضر بيبرس نفسه الى الشام في مطلع 1263 ليتفقد قواته قبل الزج بها ضد اعدائه فبادرت امارات الصليبيين الى قبول ماكانت رفضته في السنة الماضية من شروط بيبرس . وممن اذعن لتلك الشروط صاحب يافا وامراء فرسان الداوية والاسبتاريه الذين توافدوا على معسكر السلطان المملوكي عند جبل الطابور فأظهر لهم بيبرس الجفاء واتهمهم بعدم الوفاء .

ونجح هذا السلطان في الاستيلاء على مدن قيصرية وعسقلان وأرسوف . وكان من اهم ما صادفه من نجاح استيلاوءه على صفد 1265 عقب حصاره لها وفتكه بحاميتها . وخلد نصره بلوحة تذكارية . وساعده نصره هذا على تقوية الروح المعنوية بين صفوف جنده واضعاف معنوية الصليبيين . ثم زحف بيبرس شمالا 1268 لتصفية إنطاكية والقلاع المحيطة بها فهب كثيرون من امراء الصليبيين بجوار انطاكية للترحيب به وعقد صلح معه ولكن ذلك لم يمنعه من الاستيلاء على انطاكية وكان اميرها بوهيموند السادس مقيما في طرابلس . واعتبر المؤرخون نجاحه هذا ضربة قاصمة سددها المملوكي للنفوذ الصليبي وكانت الغنائم التي حصل عليها بيبرس كثيرة (ذكر انها كانت تفرق بالاكوام) . توالى طلب الامراء الصليبيين الصلح عقب الاستيلاء على انطاكية ومن قبيل ذلك عرض ملك أرمينية تسليم بلاده لبيبرس لمجرد الحصول

على هدنة . كما طلب بوهيموند نفسه الصلح لامارته الثانية الباقية وهي طرابلس . وقد بدأت المفاوضات بين الجانبين وروت المصادر المعاصرة ان بيبرس نفسه رافق اعضاء الوفد المملوكي الى طرابلس في زيّ خادم ليقف بنفسه على مدى استعدادها للدفاع فيهيئ حصارها بنفسه . واخيرا ارسلت عكا نفسها ، وهي كل مابقي من امارة بيت المقدس ، تطلب الصلح فاشترط بيبرس ان تكون البلاد الخاضعة لتلك الامارة مناصفة بينه وبين ملك بيت المقدس فاخفقت المفاوضات . ومما يسترعي الانتباه في سياسة بيبرس انه كان حينما يصالح فريقا يركز هجماته ضد فريق آخر ، ومن قبيل ذلك انه هادن بيروت عندما كان يهاجم عكا وصور 1269 . وقد افاد هذا السلطان المملوكي من خطته هذه ليستعد لصد التتر وحرب بقايا الاسماعيلية كما ذهب حاجا 1269 ومكث في مصر فترات متقطعة . ثم جدّ ماحمل بيبرس على التوجّه الى مصر تاركا مشاغله في سورية وذلك لوصول الاخبار 1270 ان لويس التاسع اخذ في اعداد حملة صليبية في فرنسا فانبرى بيبرس يستعد لصد تلك الحملة ان بدا لها ان تهاجم سواحل مصر كما فعلته سنة 1250 لكن هذه الحملة وهي المعروفة بالثامنة لم تؤمّ الديار المصرية بل تحوّلت الى تونس لاسباب لاتدخل في نطاق بحثنا لتاريخ المماليك وان تكن الحملة تعتبر فاشلة وذلك لوفاة ملك فرنسا في الشواطئ التونسية وان يكن اخوه استخدمها لمآربه الخاصة في مملكته صقلية .

وبنتيجة خلوّ بيبرس من المشاغل عاد الى سورية لمتابعة محاولته تصفية القوات الصليبية فحاصر طرابلس مرة ثانية 1271 . وقد سقط حصن الاكراد بيده من الاسبتارية كما تقدم منه داوية قلعتي المرقب وطرطوس طالبين الصلح فتمّ ذلك وكان ثمنه ان تغدوا بلادهم مناصفة بينهم وبين السلطان المملوكي ، واستأنف حصار طرابلس لكنه لم يتمكن من انجازه وذلك لوصول الانباء بان الفرقة الانكليزية التي كانت في الحملة الثامنة انفصلت عن تلك الحملة في تونس وتابعت طريقها فوصلت عكا فاضطر بيبرس لقبول ما عرضته كل من طرابلس ومملكة بيت المقدس من صلح . وكان آخر محاولاته ضد الصليبيين في الفترة مابين 1275 حتى وفاته 1277 ضد جزيرة قبرص التابعة لبيت المقدس ولو قيض له النجاح في مشروع الجريئ هذا لكان نجح في تصفية الصليبيين بصورة نهائية وذلك لان قبرص غدت موئلا لبقايا الصليبيين ولان الاستيلاء عليها يحول دون وصول أيّ مدد صليبي من اوروبا . ولكن فشل هذه المحاولة وتحطيم اسطوله قرب الجزيرة ووقوع كثير من رجاله اسرى كل ذلك ادّى الى استمرار المقاومة الصليبية حقبة اخرى من الزمن

اما بيبرس فقد انصرف في فترة ثلاث سنوات السابقة الذكر الى معالجة مشكلة الاسماعيلية ومملكة ارمينيا الصغرى والتتر وكانت تلك القضايا الثلاثة تستغرق كل وقته الى وفاته 1277 في دمشق .

استئناف القتال مع التتر : كان بيبرس واثقا من أن التتر لا بد وأنهم سيفكرون في الثأر لهزيمتهم في عين جالوت وذلك فبعد أن تمّت بيعة الخليفة أبي العباس الحاكم العباسي في القاهرة ، كما أشرنا الى ذلك في حينه ، أرسل هذا الأخير كتابا الى بركة خان ملك التتر الشماليين وهم القبشاق وكانوا فرعين من التتر اعتنقا الاسلام واستقرا في وادى الفولغا ، أغراه فيه بهولاكو وقبائله من التتر الجنوبيين الوثنيين .

ولما سمع التتر الجنوبيين بمصرع قطز أخذوا يهدّدون حدود الدولة المملوكية الشمالية والشمالية الشرقية بقيادة بيدرة . فأغاروا على البيرة وتقدموا منها الى حلب واحتلوها ثم الى حماة التي انسحب منها أميرها الايوبي . ولما توفي هولاكو 1265 ، وخلفه ابنه اباغا تابع سياسة أبيه في محاولة الانتقام من المماليك وسعى حثيثا لمصادقة الصليبيّين الذين رحبوا بعرض اباغا لاتخاذه اداة لاضعاف الجيش المملوكي الذي لم يعد بوسعهم التغلب عليه . ولكن نجاح بيبرس في سياسته بازاء الصليبيّين وكانت تقوم على عقد صلح مع فريق وشنّ حرب على فريق آخر مكن هذا السلطان المملوكي من التفرّغ الى التتر لرد غاراتهم .

أما أباغا التتّرى فرغم استمرار غاراته على البيرة أو الرحبة وغيرها من أطراف بلاد المماليك فقد جرّب ابرام صلح مع بيبرس ، وفق شروطه الخاصة التي بعث بها لهذا الاخير وان تخللّها التهديد غير أن بيبرس أجاب رسوله بجواب قاسي اللهجة . وكان الميدان الجديد الذى اصطدمت فيه قوات الفريقين بلاد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى . وبيان ذلك أن بعض امراء السلاجقة الروم كانوا منذ أيام هولاكو قد انضووا تحت زعامة التتر وأعلنوا تبعيتهم لهم . وثم بدأ لبيبرس أن يتجه الى ذلك الميدان ليستولي على بلاد السلاجقة وكان أحد أمرائها معين الدين سليمان البرونه (وقد فكر هذا الاخير بالاستئثار بالسلطان في بلاد السلاجقة بعد القضاء على بقاياهم) قد أغرى السلطان المملوكي ببلاد السلاجقة الروم .

وقد نشبت معركة حامية الوطيس عند جدة البستان في مطلع 1277 (بين التتر والسلاجقة من جهة والجيش المملوكي من جهة ثانية كانت نتيجتها الحاق بيبرس الهزيمة بأعدائه (وعقب هزيمة التتر توّج بيبرس نفسه سلطانا في مدينة قيصرية) مما أدّى الى تقسيم بلاد السلاجقة الى امارات صغرى قامت على انقاض دولة سلاجقة الاناضول (الروم) ومن بينها بني عثمان وبني قرمان وغيرهما من الدويلات الصغرى التي قام الأتراك العثمانيون فيما بعد بتوحيدها من جديد تحت سيطرتهم جاعلين منها الدولة العثمانية الكبرى .

استأنف التتر القتال مرة أخرى لكنهم هزموا ثانية ثم غادر السلطان المملوكي آسيا الصغرى الى الشام . اما التتر فعادوا الكرة في آسيا الصغرى وأخذوا يعملون في أهلها من بقايا السلاجقة واتباعهم قتلا وتعذيبا . وكان من بين من قتلوا معين الدين سليمان البرونه نفسه . لكن بيبرس لم يعد الى آسيا الصغرى لنصرة السلاجقة وذلك لأنه آثر منذ بدء 1277 أن يخلد السكينة والاستقرار بعد سبعة عشر عاما قضى معظمها في قتال أعداء المماليك الى أن كانت وفاته في دمشق عام 1277 م .

الحكم على سلطنة بيبرس 1260 - 1277 م : يرى كثير من المؤرخون أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس من أعظم سلاطين المماليك وأشدّهم بأسا . وكان رقيقا اشتراه في صغره دمشقي بثمانمائة درهم وأعاده النخاس لعيب في احدى عينيه الزرقاويين فاشتراه الملك الصالح أيوب الذى انتدبه بادىء الأمر لقيادة حرسه الخاص غير أنه لم يلبث أن سما بنفسه الى أعلى منصب وهو منصب سلطنة المماليك اثر قتله قطز على النحو الذى سبق تفصيله . وقد اعتبر بيبرس أول المماليك العظام ومؤسس سلطان المماليك . ومما أكسبه شهرة كبيرة تغلبّه على المغول في عين جالوت . كما كان ميمون الطالع في معظم حملاته التي وجهها ضدّ الصليبيين وكانت خير ممهّد لخليفته قلاوون والاشرف اللذان صفيا أمر الصليبيين بصورة نهائية ، كما تدين له مدن آسيا الغربية بنجاحه في القضاء على الحشّاشين (الاسماعيلية) شمالي بلاد الشام . وقد تمكّن قادته من بسط سيطرته غربا على البربر وجنوبا على بلاد النوبة التي خضعت لسلطنة المماليك في مصر منذ ذلك الوقت . وقد مر بنا أن ذلك السلطان نجح في عقد محالفات عديدة أهمها معاهدة مع بركة خان كبير خانات المغول الشماليين المسلمين ضد أباغا بن هولاكو ايلخان المغول الجنوبيين ، كما أبرم محالفة مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغوس الذى سمح للمسلمين بترميم جامع القسطنطينية القديم وكان الصليبيون هدموه أثناء احتلالهم للعاصمة البيزنطية ، كما أرسل بطريركا للقسطنطينية لرعاية شؤون أتباع المذهب الملكاني ووقع اتفاقات تجارية مع شارل آنجو ملك صقلية وهو شقيق لويس التاسع واتفاقات مع جيمس ملك آراغون والفونسو ملك اشبيلية . واليه يعود الفضل في احياء الخلافة العباسية في القاهرة التي استمرت زهاء قرنين ونصف من الزمن حتى زمن الفتح العثماني .

تصفية القوات الصليبية منذ سلطنة قلاوون 1279 الى أواخر أيام ابنه الناصر 1341 م :

يعود الفضل لثلاثة من سلاطين المماليك في مصر في اجلاء الصليبيين عن بلاد

الشام بصورة نهائية 1293 م . أما هؤلاء السلاطين فهم بيبرس وقلاوون وابنه خليل وقد استعرضنا ما قام به بيبرس . أما الملك المنصور سيف الدين قلاوون (الذى حكم بين سنتي 1279 - 1309) فهو من أعظم سلاطين المماليك بعد بيبرس وهو رقيق تركي كبيبرس ومن الصالحية (أى من مماليك الصالح أيوب) ومن ألقابه كذلك الالفي اشارة الى أنه اشترى بألف دينار . استولى قلاوون على العرش بعد أن خلع سلامش ابن بيبرس ومنذ بداية عهده اتصل اباغا او اباما بن هولاكو وابنه بالبابا وملوك أوربا لدعوتهم الى ارسال حملة صليبية وعد المغول بتأييدها لطرد المماليك من بلاد الشام لكن اوربا لم تستجب اة ورغم انضمام الارمن والكرج والفرنجة الى جيش المغول فان قلاوون هزمه عند حمص 1280 . وقد انتقم قلاوون من ارمينيا باباحتها لجنده انتقاما لمساعدتهم المغول وفتح كثيرا من قلاع الصليبيين ودك أبنية طرابلس . وقد أصدر هذا السلطان أمرا منع في أواخر سلطنته استخدام الافراد المسيحيين في دولته في المناصب العامة .

وقد أهمل المؤرخون خليل بن قلاوون الملقب بالاشرف الذى حكم بين سنتي 1291 - 1293 لان علاقاته بأبيه كانت سيئة لاتهامه بدس السّم لاخيه الاكبر . وكثيرا ما رفض قلاوون أن يولي ابنه خليلا هذا ولاية العهد (مر بنا في صدر هذا البحث أن بيت قلاوون استمر يلي السلطنة المملوكية زهاء قرن من الزمن من أواخر القرن الثالث عشر الى نهاية القرن الرابع عشر الميلاديين) بل كما قال لا يريد : " أن يبتلي المسلمين بالموافقة على شخص مثله " وكان قلاوون ينتظر أن يبلغ ابنه محمد الثالث سن الرشد ليوليه العهد لكن الأب توفي قبل ذلك فانتقل الحكم الى خليل الذى قال حسب رواية السيوطي : " من أن السلطان قد امتنع من أن يعطيني وقد أعطاني اللّه " . ولم يمتنع خليل هذا عن الانتقام من أنصار أبيه الذين كانوا يمضون في الكيد له فنكّل بهم نكالا شديدا لكن الذى يعنينا من سيرة هذا السلطان أنه نجح في القضاء على آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام باستيلائه على عكا ذلك المعقل الذى لا يرام لمناعة حصونه . وقد أوعز خليل الى نوابه في الشام بالتجهّز لحصار عكا وجلب ما بحوزتهم من آلات حصار وواعدهم أمام أسوار ذلك الحصن القوّى فتدفّقت جموع زاخرة من قوات المماليك وأقامت الحصار على عكا التي عرفت منذ أيام صلاح الدين انها أمنع حصون الشام . غير أن وضعية المحاصرين داخلها هذه المرة كانت حرجة جدا لانها أضحت تضم عناصر من قوميات مختلفة وكانت تلك العناصر متنافرة لا رابطة بينها ولا قيادة موحدة مع أنها كانت بأمس الحاجة الى تلك القيادة الموحدة القوية . ورغم وصول مدد من قبرص لكنه لم

يجد المحاصرون فتيلا . دام الحصار حتى مايو 1292 (حيث استسلمت المدينة لكن القلاع وقصور الاشراف وبيت الداوية استمرت على مقاومتها . وأخيرا فر ملك بيت المقدس وقبرص ، هنرى لوزينيان من عكا كما فر معه رئيس الاسبتارية . وقد استمر الداوية على مقاومتهم الى أن دمر المسلمون بيتهم بواسطة الالغام فانهار ومات من كان بداخله تحت الانقاض فأمعن المسلمون قتلا وأسرا ونهبا فيمن بقي من الصليبيين كما استولوا على حيفا وصيدا وصور وبيروت التي أصابها من جند خليل ، ما عدا بيروت ، ما أصاب عكا .

لكن تصفية معاقل الصليبيين في بلاد الشام على يد ثلاثة من سلاطين المماليك الآنفي الذكر جعلت من بقي من الصليبيين ينتقلون الى جزيرتي قبرص ورودس ففدت قبرص مقر مملكة بيت المقدس وأستقر بها هنرى لوزينيان ، وان يكن الصليبيون ظلوا حتى نهاية القرن الخامس عشر يحلمون باسترداد ما فقدته الدولة الصليبية في المناطق السورية وقد جهز ملك قبرص بطرس الاول بمعونة كثير من دول اوروبا حملة صليبية هاجمت الاسكندرية 1367 لكنها أخفقت . وأخيرا يئس الصليبيون من النجاح ضد المماليك فأخذوا يشهرون في وجه هؤلاء السلاح الاقتصادى أى منع التجارة بين المماليك في مصر والشام ودول اوروبا . وقد دعت البابوية الى هذه الوسيلة دون أن تنجح وذلك لان الارباح الطائلة التي كانت الجمهوريات الايطالية والطوسقانيين يجنونها من تلك التجارة أصمّت آذانهم عن سماع أو تلبية نداءات البابوية .

<u>سقوط الدولة المملوكية الأولى</u> : وبعد استلام الناصر وهو الأخ الاصغر للاشرف خليل السلطنة المملوكية هزم الداوية 1302 م وكانوا قد استقروا في جزيرة ارواد على الشاطيء السورى وأعمل فيهم القتل . وقد حكم هذا السلطان المملوكي ثلاث فترات (1293 - 1294 - 1298 - 1308 - 1309 - 1340 م) وقد زحف المغول في عهده على سورية وكانوا بقيادة الايلخان غازان محمود وقد انضم اليهم في زحفهم الكرج والارمن وهزم المماليك شرقي حمص في نهاية دجنبر 1299 م فوالى المغول زحفهم على دمشق واحتلوها 1300 م دون أن يسمحوا لقواتهم بنهبها كما فعلت بمدن سورية الشمالية . بيد أن المغول غادروا دمشق في مارس من السنة نفسها لاخفاقهم في الاستيلاء على قلعتها فعاد اليها المماليك الذين استردّوا سورية بكاملها . ثم عادت حملة مغولية 1303 م بقيادة غازان نفسه فهزمها المماليك عند مرج الصفّر جنوبي دمشق وتلك رابع هزيمة يلحقها المماليك بالمغول الذين لم يعاودوا الكرّة بعد ذلك الدرس الذى لقنهم اياه المماليك . واثر جلاء المغول عن سورية 1300 م عاقب الناصر دروز لبنان

لمهاجمتهم جيشه الذى كان المغول هزموه شرقي حمص وكان انتقامه منهم شديدا كما أنزل عقابه بعلوى كسروان ولم ينج موارنة لبنان من انتقامه المرير ثم استأنف غاراته على ارمينيا .

كان ذلك السلطان أعرج قصير القامة متذوقا للجمال متلافا للمال لدرجة أنه خرج الى الحج ومعه " أربعون جملا تحمل محاير الخضروات مزروعة فكان في كل منزل ينزلها في صحراء العرب يقدم له من تلك الخضروات الطعام واستهلك من السكر يوم الاحتفال بزواج ابنه 18 ألف رأس ، وذبح من الحيوان 20 ألفا وأضاء البلاط الملكي بثلاث آلاف شمعة أحرقت كلها . . . وكان له ولع خاص بالالعاب والصيد والخيل وقد ترك لنا كتابا في تربية الخيل ولم يتردّد عن دفع 30 ألف دينار ثمنا لحصان أعجبه " لكن ذلك البذخ أدّى الى ازدياد وطأة الضرائب على كاهل أفراد الشعب مما نتج عنه سقوط الدولة المملوكية الاولى . ولم تجد التدابير التي حاول السلطان بواسطتها تخفيف وطأة الازمة الاقتصادية التي استحكمت في البلاد في عهده ومن قبيل ذلك تشجيعه التجارة مع اوروبا والشرق واعادة مسح الاراضي والغاء الرسوم على الملح والدجاج وقصب السكر والسفن والرقيق والخيل ومنعه شرب الخمر وأمر بجلد الخبّازين الذين يرفعون اثمان الخبز . وأخيرا فتك الطاعون بالمصريين وأستمر ذلك الوباء منتشرا في الديار المصرية سبع سنين لدرجة أن ابن اياس قدر عدد ضحاياه في العاصمة وحدها (900 ألف) . ومهما بالغ هذا المؤرخ فليس من شك أن عدد الضحايا كان كثيرا جدا . أما غزة فقد فقدت اثنين وعشرين ألفا من سكانها في شهر واحد على حين كان يموت في حلبّ خمسمائة يوميا .

لم تعمر دولة المماليك الاولى بعد الناصر سوى اثنين واربعين عاما . وآخر سلاطينها الصالح حاجي بن شعبان وهو ابن حفيد الناصر وقد نحاه برقوق الشركسي وكان من مماليك ابناء الاشرف شعبان (وهو الثاني والعشرون من سلاطين الدولة المملوكية الاولى وقد حكم بين سنتي 1363 - 1367 م) . أما برقوق هذا فهو مؤسس الدولة المملوكية الثانية أو البرجية أو الشركسية .

<u>دولة المماليك البرجية أو المماليك الشركسية وتعرف بالدولة المملوكية الثانية 1382 - 1517 م</u> : تعاقب على هذه الدولة ثلاثة وعشرون سلطانا أولهم سيف الدين برقوق الذى انتزع الملك من حاجي البحرى وكان آخرهم طومان باى [1] وقد قضى

---

(1) جدول بأسماء سلاطين المماليك الشراكسة أو البرجية وسنّي حكمهم :

.../...

عليه السلطان العثماني سليم الأول الذى فتح الشام ومصر (1516 - 1517 م) بعد أن استمر حكم تلك الدولة الثانية مائة وأربعة وثلاثين عاما . وكان سلاطين الدولة المملوكية الأولى أتراكا بينما كان سلاطين الثانية على العموم شراكسة (باستثناء اثنين منهم هما خشقدم 1461 - 1467 م فهما روميان) ولذلك دعيت دولتهم بدولة المماليك الشراكسة او البرجية . ولم يقر سلاطين هذه الدولة بفكرة ولاية العهد فلم يكن السلطان في زعمهم سوى أمير بين امراء مساوين له بينما كانت السلطة الحقيقية بيد قادة الجيش . وأعظم سلاطين تلك الدولة تسعة هم برقوق وفرج والمؤيد شيخ وبرسباى وجمقمق واينال وخشقدم وقائتباى وقانصوه الغورى .

وقد استمر حكم اولئك التسعة مائة وأربع وعشرين سنة من أصل مائة وأربع وثلاثين سنة بينما كان السلاطين العشرة الآخرون قليلي الاهمية لدرجة أن ثلاثة منهم (هم المظفر أحمد الظاهر سيف الدين ططر والصالح ناصر الدين محمد) تعاقبوا على السلطنة في عام واحد هو 1421 م . وأعظم سلاطين الدولة الاشرف سيف الدين قائتباى وحكم أطول فترة في تلك الدولة (1468 - 1495 م) .

لم يكن عهد السلاطين البرجية عهد أمن ورخاء بالنسبة لبلاد الشام ومصر بل يرى بعض المؤرخين أنه من أظلم عهود ذينك الاقليمين . وقد كان كثيرون من اولئك السلاطين سفّاكين فاسدى الاخلاق فمنهم السكّير ومنهم من لم يكن يعرف العربية وكان من بينهم أميّين . ولم يكن فيهم من كان أبوه مسلما سوى برقوق . وقد تجلت في أعمال معظمهم القسوة . لهذا برقوق يأمر بقتل طبيبين لتعذر شفائه عليهما من داء عضال ، وذاك قائتباى يأمر بالكيماوى علي بن المرشوشي أن تسمل عيناه ويقطع لسانه لعجزه عن تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، ومنهم من اتهم بحب الغلمان كأينال أو من كان مجنونا كيلباى . وقد أعادوا عادة اقتناء الغلمان التي كانت منتشرة خلال العهد العباسي وألفوا حياة الفسق والدعارة .

.../...

1 - الظاهر سيف الدين برقوق 1382 (وقد انتزع الملك من حاجي البحرى 1389 - 1390 م) .

2 - الناصر ناصر الدين فرج 1389   3 - المنصور عز الدين عبد العزيز 1405

4 - الخليفة العادل المستعين 1412 .   الناصر فرج (ثانية) 1406 .

5 - المؤيد شيخ 1412 .   6 - المظفر أحمد 1421 .

7 - الظاهر سيف الدين ططر 1421   8 - الصالح ناصر الدين محمد 1421

9 - الأشرف سيف الدين برسباى 1422 . 10 - العزيز جمال الدين يوسف 1438

.../...

وقد اشتغل بعض سلاطين المماليك بالتجارة فاستولى برسباى مثلا (حكم بين سنتي 1422 - 1438 م) على التوابل والبهارات ومنع استيرادها من الهند مما أدى الى رفع أثمانها فباع ما كان لديه منها باسعار فاحشة كما احتكر صناعة السكر وحظر زراعة قصب السكر على الأفراد ليجني أرباحا طائلة . وفي عهده تعرضت مصر لوباء الطاعون الذى فتك بأهلها فتكا ذريعا . وكان اولئك السلاطين يتلاعبون بالنقود فيضربون نقودا فضية ناقصة .

وكانوا نظير اسرافهم وحاجتهم الى المال ليبذروه في الأبنية التي شادوها يضطرون الى مصادرة الأموال من كبار موظفي الدولة وفرض الغرامات على بعض الأفراد الاغنياء . ومما زاد الحالة الاقتصادية في مصر سوءا اكتشاف رأس الرجاء الصالح ورحلة فاسكودوغاما الى الهند حول رأس الرجاء الصالح مما كانت نتيجته حرمان مصر والجمهوريات الايطالية من احتكار تجارة التوابل ومن الأرباح الوفيرة التي كانت تلك التجارة تدّرها على المماليك .

هجوم مغولي جديد على بلاد الشام 1401 م : كان خطر مغولي جديد قد أخذ ينذر مناطق آسيا الغربية منذ نهاية الدولة المملوكية الاولى حيث أغار غاز مغولي جديد هو تيمورلنك (أى تيمور الاعرج) على تلك المناطق ، وقد كتب الظفر في تلك المرة للمغول . ولد تيمور لنك 1336م فيما وراء النهر من أسرة كان أحد أفرادها وزيرا لابن جنكيز خان بينما ادعى أفراد تلك الاسرة انهم أحفاد جنكيز خان

.../...

11 - الظاهر سيف الدين جمقمق 1438 م
12 - المنصور فخر الدين عثمان 1453 م
13 - الاشرف سيف الدين اينال 1453 م
14 - المؤيد شهاب الدين أحمد 1460
15 - الظاهر سيف الدين خشقدم 1461 م
16 - الظاهر سيف الدين يلباى 1467 م
17 - الظاهر تمريغا 1467
18 - الاشرف سيف الدين قائتباى 1468
19 - الناصر محمد 1495 م
20 - الظاهر قانصوه 1498
21 - الاشرف جان بلاط 1499 م
22 - الاشرف قانصوه الغورى 1500
23 - الاشرف طومان باى 1516 - 1517 م

نفسه . وكانت عاصمة تيمورلنك سمرقند . وقد بدأ زحفه على المناطق المجاورة 1380 م . وبعد أن تمّ له فتح افغانستان وخراسان ومناطق ايران الشرقية وفارس وكردستان فتح بغداد 1393 م ثم اتجه على رأس جيوشه شمالا فاحتل موسكو 1395 م وأستقر فيها أكثر من سنة كما غزا 1398 شمالي الهند وفتكت قواته بأهل دلهي . وقد أنفذ رسلا من لدنه الى السلطان المملوكي برقوق (أول المماليك الشراكسة 1382 - 1389 م) فأساء معاملتهم وقتلهم . وأخيرا زحفت جحافل المغول على سورية الشمالية فأحتلت حلب 1401 م وقد أباحها تيمور لجنده ثلاثة أيام فأعملوا في المدينة قتلا وأسرا ونهبا . وروت المصادر أنه بنى من رؤوس القتلى تلالا مستديرة كان محيط احداها عشرين ذراعا وارتفاعه عشرة أذرع وجعلت الوجوه فيها بارزة الى الامام ليراها من يمر بها . وقدرت الرؤوس في تلك التلال بنحو عشرين ألف رأس . وقد هدمت جيوش المغول ما حوته تلك المدينة من مساجد ومدارس النوريين والايوبيين . ثم والى تيمورلنك زحفه جنوبا فسقطت بيده حماة وحمص وبعلبك ، كما انهزم جيش السلطان المملوكي ناصر الدين فرج (ثالث سلاطين الشراكسة 1398 - 1405 م) وفتحت دمشق بعد مقاومة قلعتها مدة شهر . وقد تعرضت المدينة للسلب وسكانها للقتل وقدمت ابنيتها الفخمة طعمة للنيران وقد التهمت النيران مسجد بني أمية فانهارت سقوفه واحترقت أبوابه ولم تبق سوى جدرانه قائمة ، لا بل أرغم ذلك المجتاح علماء دمشق على أن يفتوا باستحسانهم لما قام به ذلك الطاغية من أعمال في تلك المدينة ومن بينها أخذه طائفة من علماء دمشق وخيرة صناعها المهرة وزارتها واعادهم معه الى عاصمته سمرقند مما أدى الى انهيار بعض الصناعات القديمة التي كانت دمشق قد اشتهرت بها وقد قدم لنا المؤرخ المعاصر ابن تغرّي بردّي وصفا مؤثرا لنكبة دمشق لان والده كان أحد قادة السلطان فرج . كما رافق المؤرخ ابن خلدون فرجا من مصر وكان من بين أعضاء الوفد الذى انفذه السلطان المملوكي لمفاوضة تيمورلنك في السلم . وقد عاد ذلك الغازى الغاشم من تلك المدينة المنكوبة الى بغداد ليثأر من أهلها الذين انتقموا من رجاله بقتلهم فنكّل بهم نكالا شديدا وفتك بكثيرين وروى أنه بنى مائة وعشرين برجا من رؤوس القتلى في سائر انحاء المدينة . وعاد تيمورلنك في يوليوز 1402 م الى الزحف على آسيا الصغرى حيث هزم العثمانيين عند أنقرة ووقع سلطانهم بايزيد الاول في أسره . لكن ذلك الطاغية لم يلبث أن غادر ربوع الشرق الأدنى 1404 متجها شرقا لينجز فتح الصين

فوافته المنية وهو في طريقه اليها ولا يزال قبره في عاصمة سمرقند . فتنفس سلاطين المماليك بموته الصعداء وذلك لما أصاب الدولة التيمورية في عهد أحفاده من ضعف من جراء الفتن الداخلية وقد دارت مراسلات بين شاه رخ بن تيمور وبين تاسع سلاطين المماليك الاشرف سيف الدين برسباى (1422 - 1438 م) وعومل رسل شاه رخ معاملة قاسية في القاهرة . وقد مهدت الفتن الداخلية التي أضعفت التيموريين لقيام الدولة الصفوية غربي ايران واستئناف العثمانيين توسّعهم في آسيا الصغرى الى أن تمّ لهم فتح العاصمة البيزنطية 1453 م على يد السلطان محمد الفاتح .

استيلاء السلطان برسباى على قبرص 1426 م : كانت تصفية الخطر الصليبي بصورة كلية تقتضي بالاستيلاء على جزيرتي قبرص ورودس وذلك لانهما غدتا موئلا لبقايا الصليبيين الذين فروا من بلاد الشام اثر سقوط معاقل الصليبيين الاخيرة بيد سلاطين الدولة المملوكية الاولى . وقد رأينا أن فكرة الاستيلاء على قبرص التي غدت مركز حكومة بيت المقدس الاسمية عرضت للظاهر بيبرس فأرسل اسطوله الى شواطئها لكنه تحطم ووقع كثيرون من محاربيه أسرى بيد القبارصة . لكن ملك قبرص بطرس الاول الذى جمع حملة هاجم على رأسها الاسكندرية 1367 م جعل المماليك يفكرون جديا بالقضاء على قبرص حاضرة مملكة بيت المقدس وعلى رودس التي احتلها فرسان الاسبتارية وذلك لازعاج قوات هاتين الجزيرتين التجارة المملوكية في البحر .

ولم يكن بوسع المماليك الشراكسة أن يفكروا بجزيرة قبرص وغزوها في مطلع القرن الخامس عشر للاضطرابات الداخلية في دولتهم بسبب وضوح الخطر المغولي التيموريّ خصوصا وان الشراكسة لم يرزقوا الى ذلك الوقت سلطانا جريئا يفكر في مشروع من هذا النوع . فلما أوسدت السلطنة للاشرف برسباى 1422 وهو ذلك السلطان القوى المنشود فكر بغزو قبرص وأعدّ عام 1423 م حملة من اسطول صغير لم يتجاوز خمس سفن شراعية قامت من بولاق وانضمت اليها سفن أخرى من بيروت وصيدا وكثير من المتطوعة . ويغلب على الظن أن برسباى اراد بتلك الحملة أن يسبر غور الدفاع عن الجزيرة وأن يعرف مدى معاونة ملك قبرص للقراصنة الذين كانوا يغيرون على الشواطىء المصرية . وقد أباد القبارصة تلك الحملة أمام ميناء ليماسول ولم يعد الى المياه المصرية سوى نفر ضئيل .

جهز برسباى حملة ثانية أقوى من الاولى وذلك في يوليوز 1425 م وقد بلغ

عدد سفنها بما انضم اليها من سفن بيروت وطرابلس 42 سفينة قصدت ثغر فاماغوستا في قبرص وكانت تحت سلطة أهل جنوة ، ويبدو أن ثمة اتفاقا قد أبرم بين الجنويين وبرسباى بشأن تلك الحملة حيث أفاد برسباى من العداء والتنافس التجارى القائم بين جمهوريتي جنوة والبندقية (حامية قبرص) باستمالة جنوة . ولذلك ما أن رست سفن المماليك على ميناء فاماغوستا حتى سهل حاكمها الجنوى مهمة المماليك ورفع العلم المملوكي على قلعته وأرشد المماليك الى الاستعدادات العسكرية في الجزيرة . وأوغل المماليك في زحفهم في هذه الحملة الثانية وتقهقر القبارصة ودخل الجيش الزاحف ليماسول نفسها وحاول الاستيلاء عليها . وبعد أن أقام القائد المملوكي الى ما بعد عيد الفطر قرر العودة الى مصر وبمعيته ما ينيف على الالف أسير وكميات من الغنائم والاسلاب . وقد استنجد ملك قبرص جانوس بالدول الاوربية ليتّم استعداداته كي يصدّ ما قد يأتي الى قبرص من قوات مملوكية لكن اوروبا أصمّت آذانها عن سماع استغاثته واقتصر الامر على نجدة بعث بها فرسان الاسبتارية من رودس ، كما أمدّه ملك الدولة القرمانية المسلم بآسيا الصغرى وذلك لانه كان سجين المماليك في القاهرة فرأى الفرصة سانحة للانتقام منهم . وأخيرا وصلت الحملة المملوكية الثالثة 1426 التي ألحق المماليك خلالها الهزيمة بجيش قبرص وأسروا ملكها جانوس في معركة شيزوكيتا وعادت الحملة بالملك الأسير الى مصر فأمر بتقبيل الارض بحضرة السلطان برسباى وكان بمعيته وفود من الاتراك العثمانيين ومن تونس وحكام سورية فأغمي علي جانوس . وقد قضى هذا الاخير مدة سجينا في عاصمة المماليك ثم فكّ أسره مقابل دفع فدية واعتراف بتبعيته لدولة المماليك ودفع جزية سنوية علاوة عن تعهده بمراقبة ما قد تبيته أوروبا ضد المماليك من عدوان . وأستمرت قبرص على تبعيتها للمماليك الى أن خضعت دولة هؤلاء للحكم العثماني في مطلع القرن السادس عشر (1517 م) . وكان المماليك طيلة هذه المدة لا ينفكون يتدخلون في شؤون قبرص الداخلية . ثم لما خضعت مصر للعثمانيين استمرت البندقية ترسل الجزية السنوية عن قبرص للعثمانيين الى أن فتح هؤلاء الجزيرة نفسها في 1571 م .

محاولات الاستيلاء على جزيرة رودس : لم يكن اهتمام المسلمين بأمر هذه الجزيرة جديدا بل يعود الى أيامهم الاولى وكانت سقطت بيدهم 657 م واستمروا بها حتى 658 م ثم فتحها معاوية 672 م وأعاد فتحها أبنه يزيد ، كما فتحت في حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية 717 م . وحاول العباسيون 807 م

القسطنطينة 717 م . وحاول العباسيون 807م في عهد الرشيد فتحها ففشلوا .

وقد قدم اليها فرسان الاسبتارية من بلاد الشام 1309 م وهم فرسان القديس يوحنا وبذلك غدت هذه الجزيرة قبرص حصنين من حصون الصليبيين المنيعة شرقي البحر الابيض المتوسط . وقد قام تعاون وثيق بين قوات الجزيرتين للوقوف في وجه المماليك للتعرض لتجارتهم في البحر وللاغارة على الشواطئ المصرية . وقد عقدت معاهدتان بين اهالي الجزيرتين والمماليك (1367 و 1403) وكانت الثانية بين السلطان فرج ابن برقوق ورئيس الاسبتارية نايلاك وتم بنتيجتها انشاء قنصليات لرودوس في الاسكندرية ودمياط والرملة والقدس ووضع نظام للتجارة بين الجزيرتين وبلاد المماليك كما نظم امر الحجاج الوافدين منها على الديار المقدسة فساد السلم بين المماليك والاسبتارية استمر اربعين عاما . وبعد استيلاء المماليك على قبرص جدد الاسبتارية في عهد رئيسهم الجديد لاستيك المعاهدة مع المماليك في عهد يوسف بن برسباي . فلما كان عهد السلطان سيف الدين جقمق (1438 - 1453) وجه حملة الى رودوس في غشت 1440 ارست سفنها شمالي الجزيرة لكن اسطول رودوس داهمها ودارت رحا معركة لم ينتصر فيها احد الفريقين فأبحر المماليك ليلا وتعقبهم الرودسيون حيث اشتبكوا بهم مرة ثانية امام سواحل آسيا الصغرى .

ارسل جقمق حملة ثانية في غشت 1443 وقد نزل رجال الحملة الى الجزيرة في أكتوبر وحاصروا احد حصون الجزيرة (الحصن الاشهب : قشتيل الروج) وهدموه كما هدموا القلعة كلها . ونظرا لحلول فصل الشتاء عادوا الى مصر دون ان ينجزوا فتح رودس نفسها .

ثم استؤنفت المحاولة في يوليوز 1444 فحاصرت قوات المماليك حصن القديس نيقولا وهدمت ابراجه المربعة لكن المعركة لم تكن حاسمة وبعد كروفر اضطرت الحملة الى العودة الى المياه المصرية . وهكذا لم يتمكن المماليك من فتح تلك الجزيرة .

وقد حاصر العثمانيون رودس 1480 لكنهم لم يفوزوا منها بطائل لاستماتة فرسان الاسبتارية في الدفاع عن معاقلهم المنيعة . واخيرا اخضع العثمانيون رودس في نهاية دجنبر 1522 من حصار طويل واشترطوا على الرودسيين اخلاء الجزيرة والجزر التابعة لها من فرسان الاسبتارية في ظرف اثني عشر يوما مقابل الامان على اموالهم وارواحهم .

فانتقل بذلك مركز اولئك الفرسان الى جزيرة مالطة التي بقوا فيها الى ايام نابليون بونابرت وحملته على مصر والشام 1798 - 1799 . واخيرا احتلت بريطانيا الجزيرة منذ مطلع القرن التاسع عشر .

<u>الحضارة في عهد دولتي المماليك</u> : على الرغم من وضاعة اصل المماليك فقد كان عصرهم في مصر والشام من اخصب العصور في شتى نواحي الحضارة . وقد اصطبغت

منشآتهم بالصبغتين العسكرية والمدنية من ترميم الحصون والقلاع والاسوار وبناء المساجد وحفر الاقنية وازدهار الحياة الفكرية .

- امابيبرس فقد حصّن قلاع سورية وحفر الاقنية وحسّن الموانئ ونظم البريد بين دمشق والقاهرة بحيث لم يكن يستغرق سوى اربعة ايام وذلك باعداد الخيل على اهبة الجهوزي في كل لحظة للبريد . ومما ذكر انه لعب الكوة والصولجان (لعبة البولو) في كلتا المدينتين في اسبوع واحد . كما استعمل المماليك الحمام الزاجل . ومن الابنية التي بقيت من عهده الجامع الكبير في القاهرة والمدرسة التي تحمل اسمه وقد جعل نابليون هذا الجامع قلعة . ومن مآثره العمرانية تربته ومدرسته بدمشق وهو اول من عيّن في مصر قاضيا لكل من المذاهب الاربعة وعني بتنظيم شؤون المحمل المصرى .

وقد اكسبه جهاده ضد الصليبيين بعد الهزيمة التي الحقها بالمغول شهرة فصار من قيامه باحياء الخلافة العباسية في القاهرة مما سبقت الاشارة اليه .

ولم يقلّ تعلّق قلاوون عن تعلّق بيبرس بالعمران فقد اعد بناء قلاع حلب وبعلبك ودمشق وشيّد البيمارستان المنصوري في القاهرة وجعله ملحقا بجامع ومدرسة كما شيّد قبة . ويعتبر بيمارستانه اعظم مآثره العمرانية وقد اقتبس عن بيمارستان نورالدين في دمشق. وقد تم بناؤه سنة 1284 وفيه اقسام خاصة يعالج فيها المرضى حسب امراضهم فلكل من الحميات والرمد والاسهال اقسام خاصة وفيه مختبرات وصيدلية وحمامات ومطابخ ومخازن . وفي المستشفى رئيس اطباء يلقي دروسه في غرفة مجهزة باللوازم . وبلغ الريع السنوي للوقف المرصد لهذا المستشفى مليون درهم في السنة . وفيه ممرضون وممرضات ويستقبل المرضى من الجنسين وكان هدم طرابلس بعد انتزاعها من الصليبيين ثم بناها بعيدا عن البحر .

ولقد كنا تحدثنا خلال الكلام عن السلطان الناصر عن نماذج من بذخه وتذوقه الجمال وتمتعه بالعيش الرغيد وتزيينه جميع مايحيط به الزخارف الباهرة ومن قبيل ذلك ماروى ان خاصته فرشوا له ذات مرة مسافة اربعة آلاف ذراع على طريق عودته الى بيته في القلعة بالسجاد والطنافس الثمينة فوطئها بسنابك فرسه . وقد خلد اسمه بأبنية عديدة انجزها له الصناع المهرة وبلغت الثقافة في عهده اوجها . ومما يذكر له وصله الاسكندرية بالنيل بواسطة قناة عمل فيها مائة الف عامل . كما بنى مجرى للمياه من النيل الى قلعة القاهرة . وقد احصي له ثلاثون مسجدا غير الرباطات والسبل والحمامات والمدارس واهمها الناصرية التي تحمل اسمه وقد تم تشييدها 1308 . واهم مساجده الثلاثين مسجده الخاص في القلعة الذى استعمل فيه زخارف مما غنمه من كاتدرائية عكا . وقد بلغت الفنون في عهده درجة رفيعة تظهر في قطع البرونز والمصنوعات النحاسية والقناديل الزجاجية المطلية بالميناء والمصاحف المزخرفة ولا يزال قسم منها محفوظا في متحف القاهرة ودار الكتب فيها .

ولم يبق من الفترة التي اعقبت وفاة الناصر في القاهرة سوى مسجد السلطان حسن ابن الناصر وقد تم بناؤه 1362 وهو من اجمل الجوامع المبنية على شكل مصلب .

اما مابقي من آثار الدولة المملوكية الثانية في مصر فهو ابنية رائعة تشهد على روعة هندسة البناء الاسلامية ومخص منها جامع السلطان برقوق وضريحه ومسجد قائيتباى وجامع الغورى . ويتألف جامع قائيتباى في القاهرة من مجموعة رائعة تضم جامعا وشريحا وسبيلا ومدرسة . وقد تميز الجامع بتآلف لوني قبته - الاحمر والابيض - علاوة عن زخرفة تلك القبة بأوراق النبات . ولقد استمر المماليك الشراكسة يستعملون الخطوط العربية من كوفي ونسخي في الزخرفة . ويعتبر عهد قائتباى (1468 - 1495) اغنى فترات هذه الدولة بأوابده فهو بمثابة فترة حكم الناصر بن قلاوون بالنسبة للمماليك البحرية .

وكان للبناء في دمشق في عهد المماليك طابع خاص فهو من حجارة منحوتة متعددة الالوان وتعلوه قباب شاهقة اعطت كثرتها لدمشق منظرا خلابا لم يكن لها من قبل .

وهذا العهد غني جدا بمآثره العمرانية فيها وقد بلغت ستة وارنعين أبدة من اصل مائة واثنين وثلاثين اثرا هي مجموع ماسجل في مديرية الاثار العامة بدمشق من آثار مختلف العهود التي تعاقبت على دمشق . ومن بين آثار المماليك في هذه المدينة المساجد ذات المآذن المربعة والمضلعة (كامئذنتي هشام والقلعي في حي الشاغور ومئذنة قائيتباى في المسجد الاموى) والمدافن التي كثرت جنوبي المدينة على طريق الحج . واهم آثار المماليك في هذه المدينة تربة الظاهر بيبرس والتربة الافريدونية وجامع التيروزى والمدرسة الجقمقية ومئذنتا القلعي وهشام . وكان عصر الدولتين المملوكيتين في مصر والشام زاخرا بابنيته وقد بلغ فن البناء الاسلامي ابهى مظاهره فيما خلفه لنا قلاوون والناصر والحسن من مساجد ومدارس واضرحة في فترة الدولة المملوكية الاولى وفيما شاده برقوق وقائتباى والغورى من ابنية زمن الدولة الثانية . وليس من الغلو الادعاء ان البلاد العربية لم تر بعد عهد المماليك عهدا بلغت ابنيته روعة البنيان كما كانت في ذلك العهد المملوكي الذى اقتبست اصول فن الريازة فيه عن النوريين والايوبيين بالاضافة الى مؤثرات سورية وعراقية وصلت مصر منذ ان غدت الكنانة ملجأ لفناني وصناع المسلمين من الموصل الى بغداد ودمشق نفسها وذلك قبيل فتوحات المغول . ثم افادت مصر من انتهاء الحروب الصليبية بتيسر حصولها على حجارة البناء من مقالع بلاد الشام فصارت المآذن تشاد من الحجارة عوضا عن الآجر . واجاد الرازة فن بناء المساجد وبلغوا به مرحلة الكمال لاسيما فيما يتعلق بالقباب الوشيقة الانيقة المزخرفة كما انتشرت في تلك الحقبة الابنية ذات الحجارة الملونة في خطوط متساوية وهي مقتبسة عن الرومان او البيزنطيين . كما انتشر استعمال المقرنصات اما في الزخرفة فقد استعمل المماليك الاشكال الهندسية والخط الكوفي أو النسخي . ومما

ساعد على دراسة معظم اوابد العصر المملوكي ان معظمها باق يعتبر من امتع المشاهد التي يؤمها السياح ومحبو الآثار . وساعد ازدهار فن الريازة (البناء) على رقي الفنون الفرعية المتعلقة بفن البناء لاسيما العمارة الدينية . وقد بقي لنا ابواب جوامع صنعت من البرونز المزوق وشمعدانات برونزية وغلافات ذهبية للمصاحف مرصعة بالجواهر ومحاريب مزخرفة بالفسيفساء . وهناك كذلك المنابر الخشبية دقيقة الصنع . وقد برزت دمشق في صنع مايلزم ابواب المساجد من حلة معدنية . هذا بالاضافة الى قناديل المساجد والنوافذ المصبوغة المصنوعة من الزجاج الملون وعليه رسم الزهور وكتابة عربية . كما استعمل الآجر المزوق المطلي في جدران المساجد والمآذن . وازدهرت صناعة الترصيع ايام المماليك الشراكسة كما يتضح ذلك في جامع قائتباي . وكان اقباط مصر مشهورين حتى قبل الاسلام بصناعات الفسيفساء وحفر العاج والميناء . ويمكن ان نضيف الى ذلك زخرفة المخطوطات وتضم دار الكتب المصرية في القاهرة عدة مصاحف مزخرفة كانت لبعض سلاطين المماليك .

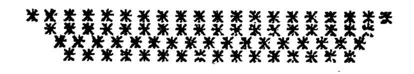
الحياة الفكرية : بدأ المماليك حكمهم بنيل النصر على الصليبيين والمغول ولكن الخراب اوشك ان يعم مصر والشام في نهاية الحكم المملوكي نتيجة الحكومة العسكرية المسيطرة والانقسامات بين كبار المتنفذين وتخفيض قيمة النقد وكثرة الضرائب وفقد ان الامن والمجاعات والاوبئة والثورات والفتن الداخلية وانتشار الجهل والخرافات فلكل ذلك لايمكن ان تزدهر الحياة الفكرية في دولة تلك طائفة من متاعبها الداخلية . وقد ادى ذلك الى فقدان البلاد العربية سيادتها العلمية التي احتكرتها منذ القرن الثامن . لكن رغم ذلك استمر العرب متمتعين بشهرة كبيرة في الرياضيات والفلك والطب لاسيما طب العيون . وقد نبغ من علماء المسلمين في الفلك طائفة من علماء مراغة حيث كان مرصد الايلخانات واهمهم رئيس دار كتب مراغة نصير الدين الطوسي (1201 — 1272 م) . وممن اشتهر من العلماء رئيس اساقفة اليعاقبة ابو الفرج بن العبرى (1226 — 1286 م) وكان يحاضر عن اقليدس وبطليموس وقد كتب بالسريانية وهو من المؤرخين . اما كتابه « تاريخ مختصر الدول » فنشره الاب صالحاني في بيروت 1890 . وقد اشتهرت مصر والشام بالطب ومر بنا ان السلطان قلاوون بنى البيمارستان المنصوري في القاهرة الذى لاتزال آثاره ماثلة الى ايامنا هذه اما عميد اطباء ذلك المستشفى فهو ابو الحسن علي بن النفيس المتوفي في دمشق 1289 م الذى تحدث عن دوران الدم قبل العالم البرتغالي سرفيتوس بثلاثة قرون . والف ابو بكر بن المنذر البيطار 1340 رسالة في الطب البيطري اهداها لقلاوون . ونظرا لولع برقوق ومن قبله قلاوون بالخيل الفت كتب كثيرة عن الخيل منها فضل الخيل لعبد المؤمن الدمياطي 1306 . ومن اطباء القاهرة في تلك الفترة الكوهين العطار الواضع رسالة في الصيدلة عنوانها " منهاج الدكان ودستور الاعيان " . وقد ازدهر طب العيون

في كل من سورية ومصر واهم اطبائه ابو الفضل بن الناقد واعظم كتب هذا الطب وضعهـــا في دمشق خليفة بن ابي المحاسن الحلبي في منتصف القرن الثالث عشر . كما كتب صلاح الدين بن يوسف الحموي نور العيون وجامع الفنون . وقد اجرى خليفة الحلبي عملية ازالـــة المياه الزرقاء لرجل ذي عين واحدة . واشهر مؤرخي الطب في القرن الثالث عشر (1203 ـ 1270) ابو العباس احمد بن ابي اصيبعة وقد عاش في دمشق وكان طبيبا وابـــن كحال ودرس الطب في سورية ومصر . اما كتابه عيون الانباء في طبقات الاطباء " فيحـــوي ترجمة 400 طبيب عربي ويوناني ويمكن اعتبار كتابه تاريخا للعلم عند العرب ويشبهه كتـاب " اخبار العلماء بأخبار الاطباء " لعلي بن يوسف القفطي وهو مصري ولد 1172 وعـــاش في حلب وزيرا للايوبيين الى وفاته 1248 . نبغ كثير من كتاب التراجم والمؤرخين في عصـــر المماليك وشيخ كتاب التراجم في تلك الفترة هو قاضي قضاة دمشق احمد بن محمد بن خلكان (1211 ـ 1282) وكتابه " وفيات الاعيان وانباء اهل الزمان " يضم 865 ترجمـــة لمشاهير المسلمين ويشمل معلومات هامة وتحقيقات عن الاسماء وتسلسل الحوادث والاخبـــار ومن مؤرخي العصر ابو الفداء صاحب حماة الايوبي وابن تغري بردي وجلال الدين السيوطـــي والمقريزي ولابن خلدون شيخ مؤرخي تلك الحقبة صلة بالمماليك حيث ولي القضاء للسلطـــان برقوق في مصـــر وكان بين اعضاء الوفد الذي فاوض تيمور لنك في عهد فـــرج .

اما ابو الفداء المتوفي 1332 فهو امير ايوبي حكم حماة في عهد الناصر بن قلاوون وانحصر عمله في كتابة " مختصر تاريخ البشر على اختصار تاريخ ابن الاثير (وقد عاش الى 620 هـ حوالي 1225 م) واكمله حتى عصره . وابو المحاسن بن تغري بردي (1411 ـ 1469) وكان ابوه احد موظفي عصر المماليك وكتب تاريخ مصـــر " النجوم الزاهرة في ملوك مصـــر والقاهرة " من الفتح الاسلامي حتى عام 1453 . اما جلال الدين السيوطي (1445 ـ 1505) فهو من اهم المؤلفين في الاسلام وكتب في مواضيع شتى وذكر له 560 كتابا . ويعتبر المقريزي (تقي الدين احمد) المتوفى عام 1442 من اهم مؤرخي عصر المماليك وهو مـــن بعلبك ومارس القضاء فيها وفي دمشق . واشهر كتبه " المواعظ والاعتبار في ذكر الخطـــط والآثار " ويبحث تاريخ مصر وآثارها " و "السلوك لمعرفة دول الملوك " .

كما عرف عصر المماليك كتابا يشبهون كتاب الموسوعات كأحمد النويري (المتوفى 1332) صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب وهو في تسع مجلدات واحمد القلقشندي (المتوفـــي 1418) مؤلف صبح الاعشى في صناعة الانشاء في اربعة عشر مجلدا . ومن علماء الديـــن في ذلك العصر احمد بن تيميه (المتوفى 1328) وقد نسب اليه خمسمائة كتاب لم يبق منها سوى 6 كتابا وهو من اتباع ابن حنبل وقد أثر كثيرا في الحركة الوهابية . ومن محدثـــي العصر ابن حجر العسقلاني ومن شعرائه البوصيري صاحب البـــردة الشهـــيرة .

لكن تلك النهضة الفكرية والفنية لم تلبث ان انحطت باستيلاء العثمانيين على بـــلاد الشام ومصر ونقل السلطان سليم الاول كثيرين من مهرة الصناع الى عاصمته الآستانـــة .



شفاء الله خان